

شريف عبدالقاري

# مَلَكُوت

شريف عبد الهادي

# مَلَكُوتُ

شريف عبد الهادي

عنوان الكتاب : ملكوت

المؤلف : شريف عبد الهادي

المراجعة اللغوية : عبد الهادي عباس

الإخراج الداخلي : رشا عبدالله

لوحه وتصميم الغلاف : كريم أحمد

رقم الإيداع : ٢٣٨١٤ / ٢٠١٥

ردمك : 8 4 85204 978 977

الطبعة الثانية: يناير 2016

المدير العام : هاله البشبيشي

مدير النشر: أحمد القرملاوي

مدير المبيعات : شريف الليثي



دار تويّا للنشر والتوزيع

✉ dartoya2015@gmail.com

f Dar.toya دار تويّا للنشر و التوزيع

🐦 @Dar\_Toya

📷 Dar.toya

☎ (+2) 01140899887 - (+2) 01000706014

🏠 ٢٣ ش. عيداوماب عبد الطريف - كورنيق لقيّة -  
القاهرة - مصر

دار تويّا للنشر والتوزيع

جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة للدار

## إهداء

إلى أبينا آدم، وأولاده إبراهيم، وإسماعيل، وإسحق،  
ويعقوب..

إلى موسى بن عمران، والمسيح ابن مريم، ومحمد بن عبد  
الله..

أغيثونا.. أدركونا

إلى جبريل، وميكائيل، وإسرافيل، وجميع الملائكة الكرام..  
كم تمنيتُ رؤيتكم بعد أن سحرتني سيرتكم العطرة  
وقدراتكم المدهشة.. أحببتكم في الله، ورجوتُ صحبتكم في  
الدُّنيا والآخرة، عسى الله أن يحقق لنا ذلك على كل خير.

# (1)

## أواخر السبعينيات

مَنْ الَّذِي قَالَ إِنَّ الصَّوَابَ صَوَابٌ، وَالخَطَأُ خَطَأٌ،  
مَا دَامَ لِكُلِّ مَنَا «كَتَالُوج» مُخْتَلَفٌ؟!

شريف عبد الهادي

انطلقت سيارة زرقاء، موديل مرسيدس "خنزيرة" -من تلك النوعية التي لم يقتنها إلا أثرياء ذلك العصر- بسرعة متوسطة نسبياً على طريق مصر الإسكندرية الزراعي، حاملةً داخلها أسرة تتكوّن من 3 أفراد. جلس على مقعد القيادة أب في الثلاثينات من عمره، ذو شعر كثيف مكوي، وسوالف عريضة تجعلك تشعر أنه كان يُربّي لحيته بالعرض! يرتدي قميصاً مشجرًا، وبنطلونًا "شارلستون" فضفاضًا، كان قمة الموضة في تلك الحقبة. أمسكت يده اليسرى بعجلة القيادة، بينما راحت قدمه اليمنى تضغط بدال البنزين في بطء مشوب بالحدز؛ حتّى لا تلحظ زوجته التي تجلس إلى جواره زيادة السرعة، ودارى على الموقف بنظرة تفيض بالحنان الجارف والحب الدفين وهو يتأملها في ذلك الفستان الأبيض الدانتيل، ذي الأكمام القصيرة التي تنحسر عن ذراعيها الحليبتين وقد أحاطت معصمها الأيمن أسورة من حبات اللؤلؤ البيضاء، في تناغم مع الحبات نفسها المصنوع منها ذلك الكوليه الذي يُحيط بيدها، فيما أحاط خصرها حزام أسود اللون من القطيفة، معقود في صورة فيونكة مُطرزة بحبات الخرز الأبيض، ليقفّ الفستان عند حدود الركبة التي تجلس عليها طفلتها الوحيدة النائمة في سَكينة وطُمأنينة، وتنطق ملامحها الجميلة ببراءة العامين اللذين لم تتجاوزهما بعد، في حين يخرج صوت (عبدالحليم حافظ) من كاسيت السيارة وهو يُردد بصوته العندليب الشجي: "افرح واملا الدنيا أغاني.. لا أنا ولا إنت هنعشق تاني".



مع نغمات الأغنية وكلماتها التي تدعو للتفاؤل، بادلت الزوجة زوجها بنظرات العشق والوله، قبل أن يجذب نظرها مؤشّر عدّاد السرعة الذي وصل إلى الرقم 120.

ما إن لمَحَ نظرتها حتى تراجع المؤشّر إلى الرقم 80 لتهدأ سرعة السيارة وسط الطريق السريع، ثم عاد ينظر لها مجدداً وهو يتسم ابتساماً تعلن عن اعتذاره، فردّت عليه بابتسامٍ مرحةٍ شقية تؤكد أنها قبلت الاعتذار، قبل أن تتراجع برأسها للخلف وكأنها تغوص في مقعدها وهي تتأمل تألق البدر ليلة تمامه وسط السماء في لوحة إلهية بدعة تُرسل خيوطها الفضية للناظرين، لتسرح في روعة المشهد وهي تقول بلهجة حاملة سعيدة:

- أعشقتك حين تفهمني من عيني.

ثم عادت لتلتفت نحوه في غنج بينما لا تزال خصلات شعرها تتلاعب على صفحة وجهها الملائكي، وقد فاضت عينها بالهيام، وأطل من شفيتها العشق والعطش، وزحفت يدها اليسرى نحو يده اليمنى لتمسكها بشدة انتهت برعشة فككت أوصاله، فرفع يدها الرقيقة الملكية وجذبها نحو فمه ليلثمها بقبلة حانية امتزجت بأنفاسه الحارة التي نطقت بعشقه لها.

في تلك اللحظات، كان هناك شبح رجل يرتدي بذلة رمادية اللون، ذات تفصيلة غريبة جداً لا تشبه أي شكل سائد أو موجود في هذا العصر. يسير في الزراعات المترامية الأطراف على جانبي الطريق مُعطياً ظهره للحقول، متوجهاً نحو الطريق الأسفلتي وهو يسير بمفرده وسط الأغصان، وقد بدت عيناه الزرقاوان مضيئتين كعيون القطط في الظلام، أما هيئته الضخمة فكانت أقرب إلى ضلفتي دولا بمتجاورتين منها إلى هيئة بشر! بدا شعره الأسود الفاحم شديد النعومة وأخذت خصلاته الطويلة تتطاير بفعل الهواء البارد الذي لفق وجهه الطويل شديد البياض، ويتوسطه أنف دقيق، وينتهي بذقن حادة، فيما برزت عظمتا الوجنتين لتجمع ملامحه بين الوسامة والغموض، دون أن يطرف له رمش إزاء عواء الذئب الذي أخذ يشق السكون حوله في الحقول بشراسة وتحفز، بعد

أن لمحووا هذا الغريب الذي اقتحم مملكتهم في جُنح الظلام قبل أن يركضوا نحوه ومخالبهم تنهش الأرض نهشاً.

شعر باقترابهم، فالتفت نحوه ببطء ممزوج بالثقة وصبّ نظرات قاسية نحو القطيع يطل منها البريق والتّحدي؛ فإذا بالذئب تتجمد في أماكنها بشكل مفاجئ، وتجتو على قوائمها في خضوع ومذلة كتمثيل إغريقية مسخوطة، بعد أن استكانت ملامحها وتبددت منها الشراسة، وصارت أنيابها الحادة مجرد سكاكين باردة لا تصلح كسلاح مناسب لمواجهة هذا الغريب!

وعلى الطريق الزراعي نفسه، سارت سيارة "رسميس" حمراء، يقودها رجل ملتج في نهاية الثلاثينات من عمره وقد أكسبته تلك الشعيرات البيضاء المنثورة عشوائياً في لحيته عمراً أكبر من عمره الحقيقي، ليُشَنَّف أذنيه بصوت الشيخ (رفعت) -قيثارة السماء وأيقونة قارئ القرآن- وهو يتلو آيات من الذكر الحكيم، وإلى جواره يجلس طفل صغير سألته ببراءة: متى سنصل يا أبا الحاج؟

"حين يأذن الله يا ولدي.. كل ما علينا أن نضغط بدال البنزين فحسب".

أجابه الأب بحكمة ونبرة إيمانية دون أن يلتفت إليه، ثم ارتجت السيارة فجأة وأطلق محركها زمجرة بائسة أجبرت الرجل على الإمساك بعجلة القيادة بكلتا يديه بقوة وهو يعقد حاجبيه، وعلى ملامح وجهه الدهشة والحيرة وهو يردد في توتر:

الله أكبر.. ستك يا رب .

انكمش الصّغير في مقعده وهو يغوص في الدواسة، وعلى ملامحه أمارات الرّعب والهلع، قبل أن ينجح والده في السيطرة على السيارة، والوقوف بها على الجانب الأيمن من الطريق، ليغادر السيارة مسرعاً نحو غطائها الأمامي الذي أزاحه بتوتر وبدأ في فحص الموتور.



نجحت كلماتها في تفريخ شحنة التوتر داخله نسبياً، لتتسلل إلى ملامحه الراحة والطمأنينة وهو يلتفت لزوجته ويبتسم، رغم عينيه اللامعتين بدموع متحجرة.

\* \* \*

دخل السيارة "الرمسيس" الحمراء تأمل الطفل الصغير من النافذة ابتسامة ذلك الرجل ذي العينين الزرقاوين والبذلة الرمادية، وقد وقف على الجانب الآخر من الطريق يشير له بلهفة وابتسامة أن يسرع بالمجيء إليه. تأمل الطفل إشارات الرجل في دهشة، ثم اتسعت عيناه في ذهول وهو يراقب ذلك المشهد الذي بدا وكأنه فقرة الساحر.. أشار الرجل بيديه لأرض ترابية لم تتم زراعتها بعد، فنهضت وتحولت من وضعها الأفقي لوضع رأسي ليصبح ترايبها واقفاً في وضع عمودي على الطريق الأسفلتي، قبل أن يبدأ الرجل بالرسم على التراب صناعاتاً أشكالا جميلة تشبه العرائس والشخصيات التي يحبها الطفل، ففتح الصغير باب السيارة وغادرها كالمشدود دون أن يشعر بوالده الذي يصلح السيارة بانهمكٍ شديد.

\* \* \*

في السيارة المرسيديس، مسحت الأم شعر طفلتها التي استيقظت وقالت لها:

- لقد استيقظت مبكراً يا حبيبة ماما.. إننا لم نصل بعد.
- فيما ألقى الأب نظرة على عداد السرعة الذي ظل على رقم 80، ثم التفت لصغيرته قائلاً:
- عذراً يا ملاكي الصغير.. تعرفين والدتك التي لا تحب سرعة بابا خوفاً علينا من أي مكروه.

ارتسم الضيق على ملامح الطفلة وكأنها تفهم كلامه، لتمط شفيتها للأمام بغضب طفولي مثير للضحك، وفي تلك الأثناء كان القدر يُخرج مشهداً سينمائياً لأحداث حقيقية تحدث بالفعل على أرض الواقع، رابطاً

ما إن فتح الغطاء حتّى غشى عينيه دخانٌ كثيفٌ، قبل أن يظهر على الجانب الآخر من الطريق ذلك الرجل ذو العينين الزرقاوين، وهو يتأمل المشهد بابتسامة ساخرة.

ومع تطلعه للمشهد من بعيد، رأى الرجل الغامض هالةً من اللون الأخضر المريح للعين تتألق بوهجٍ حول الرجل الملتحي وطفله الصغير!

\* \* \*

في حنانٍ ورفقٍ مسحت الأم شعر طفلتها الجميلة النائمة داخل السيارة المرسيديس، قبل أن تنظر لزوجها قائلةً في حب:

- من قبل مجيئها وأنا أعرف شكلها.. كنت أعرف أيضاً أنها ستكون شبيهك.. وقد كان.

التفت لها الزوج ساخراً وتابع:

- مرةً أخرى ستقولين لي جاءكِ هاتف من السماء؟  
- مرةً أخرى لا تريد أن تصدقني؟ كنت إذا أخبرتك أن الشمس تشرق من مغربها تثقُ بصحة كلامي بلا ذرة شك، فلماذا ترفض تصديقي في هذه المسألة تحديداً؟

توترت ملامح الزوج وتنهَّد تنهيدةً حارةً قائلاً:

- ليس كل ما نسمعه في خيالاتنا هاتفاً من السماء بالضرورة.. طوال عمري وأنا أسمع صوتاً داخلي يُبئني بأن الله سيمنحني الثروة

والزوجة الصالحة والبنت الجميلة.. لكن القدر لن يمهلني أن أفرح.. فهل أصدق ذلك الصوت بدوري وأجلس في بيتنا دون أن أعادِر؟

اتسعت عينها في قلقٍ، ثم ما لبثت أن وضعت يدها على كتفه هامسةً بلهجةٍ حنونٍ في محاولةٍ لطمأنته:

- لا يا حبيبي.. افرح واملا الدنيا أغاني كما يقول عبدالحليم.. ثم إنك لا تكتفي بابتنا الجميلة فحسب.. (تغمز بشقاوةٍ وتتابع) أخبرني لماذا

نسافر للإسكندرية إذن؟ أو ليست رغبة منك في أن تمنحها أحاً؟

فيه مصير أسرة السّيارة المرسيديس بأسرة السّيارة المرسيديس على طريقة الفوتو مونتاج..

#### – خارج السّيارة «المرسيديس» على طريق مصر إسكندرية الزراعي

تقدّم الطّفل نحو الرّجل ذي العينين الزرقاوين كالمسحور، فيما ظلّ الرّجل يرسم على التراب، ليلحظ الأب الملتحي حركة ابنه الذي يسير نحو المجهول؛ إذ لا يرى الأب ما يراه الابن الصّغير، فصاح به:

– أيمن.. عدّ للسيارة ولا تبرّح مكانك!

#### – في السّيارة المرسيديس

ضغط والد الطّفلة دواسة الوقود خلّسة، ليتجه مؤشّر عداد السّرة إلى الرقم 120، لكن زوجته لاحظت ذلك وهتفت بضيقٍ واستنكار:

– ما هذا؟ هل عدت لجنون السّرة من جديد؟

#### الزوج (محاوّلًا تغيير الموضوع):

– دعك من الطّريق الذي أريد أن أقطعه سريعًا لأنفرد بمولاتي الجميلة، واتركيني أسألك سؤالًا مهمًّا: ألم يخبرك الهاتف باسم المولود الجديد؟ ومن أين سيأخذ الشبه هذه المرّة؟  
إلا أن الزوجة اكتفت بالنظر له بوجومٍ وسرحت دون أن تحرك ساكنًا..

#### – على طريق مصر إسكندرية الزراعي

توقف والد الطّفل عن تصليح سيارته، واتجه مسرعًا نحو الطّفل الذي سار مسحورًا نحو الرّجل ذي العينين الزرقاوين، فأشار الرّجل الغامض للطفل أن يسرع، قبل أن تتحول الرسومات الترابية فجأةً إلى نيرانٍ شديدة، ليتجمد الطّفل في مكانه من هول المنظر، ويرفع يده نحو وجهه ليحتمي نفسه قبل أن يختفي الرّجل ذو البذلة الرمادية بشكل مباغت وكأنّه قد تبخّر، وصدى ضحكاته لا يزال يتردد في الأفق ليصك مسامع الصّغير الذي يكتشف بعد أن يُنزل يده عن عينيه أن الأرض الترابية قد عادت إلى طبيعتها، في اللّحظة التي يصل فيها والده إليه حتّى ينقذه من السيارات القادمة بعد أن أصبح في منتصف الطّريق السّريع.

#### – في السّيارة المرسيديس

فجأة لمح الزوج وزوجته الطّفل ووالده الملتحي وكأنّهما برزا من العدم، في الوقت الذي كانت السّيارة تتجه فيه نحوهما بسرعةٍ شديدة تكفي لدهسهما، بعد أن جاوز مؤشر عداد السّرة رقم 120، لتقفز قدم سائق المرسيديس على كباحة الفرامل وهو ينحرف بعجلة القيادة في رد فعل سريعٍ دون تفكير، ترتب عنه انحرافُ سيارته لتعبر الخط الفاصل بين اتجاهي الطّريق وتقلب على ظهرها في الاتجاه المعاكس وسط صرخات زوجته المفزوعة التي احتضنت طفلتها بشدةٍ محاولةً أن تُخبئها بين ضلوعها، فيما تطاير الشّر من احتكاك سقف السّيارة بالأسفلت، قبل أن تتدحرج بشكلٍ عشوائيٍ وتتجه نحو سيارة نقل ضخمة قادمة بسرعة..

في هذه اللّحظة.. هبط من السّماء طيفٌ نوراني هائلٌ أخذ يتصاغر كلما اقترب من الأرض حتّى تحوّل -حينَ لامس الأسفلت- إلى هيئة بشريةٍ في صورة شاب، فاق جماله (يوسف الصديق) بأضعافٍ مضاعفة، حتّى إنّ عينيك لن تملكا -لو أسعدك الحظ برؤيته- إلا الاتساع والتّحديق بانهارٍ حيال هذه الصنعة الإلهية التي فاقت خيال البشر روعةً وجمالًا، سواء في بشرته البيضاء ووجهه المُشرق، أو عينيه الذهبيتين كسبيكة من الذهب الخالص، وشعره البني الفاتح الطويل، شديد النّعومة، وشفثيه الورديتين، وقد حفت وجهه لحيّة خفيفة ناعمة ذات لون بني فاتح لتزيد من جماله وتضفي عليه المهابة والإيمان، فيما أكدت أجنحته الستة انتماؤه لعالمٍ آخر غير عالمنا، قبل أن تتكلمش هذه الأجنحة وتدخل في ملابسه الفضفاضة ناصعة البياض، لتختفي تمامًا وهو يتجه بسرعةٍ شديدة -تفوق سرعة البشر- نحو السّيارة المرسيديس ليخترقها ويصبح داخلها في لمح البصر، ويظلّ يتدحرج داخلها مع من فيها، في اللّحظة نفسها التي لم يستطع فيها سائق السّيارة النقل تفادي المرسيديس التي تتدحرج نحوّه ليدهسها دهسًا.

وداخل السّيارة، أخذ الشّاب الثوراني الوسيم الطّفلة الصّغيرة من يد أمها وجعلها في الكنبه الخلفية في اللّحظة التي انسحقت فيها مقدمة



- ولماذا لا تقولين إنهما ذهبا لعالم آخر أفضل بكثير؟ على الأقل سيعيشان مع أناس أفضل، ومخلوقاتٍ أجمل.. وسيشاهدان الخالق.  
الطفلة (باكية):

- لماذا لم تتركني أذهب معهما إذن؟  
الشباب الوسيم:  
- الخير لهما في الذهاب.. والخير لك في البقاء.  
- ليس لي في الدنيا أحد سواهما.  
- لكِ الله، ومثلما أرسلهما ليعتنيا بشأنك في عمرك المنصرم، سيرسل لكِ حتماً من يرعاك في عُمرِكَ المُقبِل.. الرَّب يعلم مصلحتنا أكثر منا.. مفهوم؟

الطفلة (وقد بدأت تتفهم):

- مفهوم.  
الشباب الوسيم:  
- الآن تنتهي مهمتي.. لا بد أن تنسي كل ما شاهدت من أجل مصلحتك.

الطفلة (ببراءة شديدة):

- وكيف أنساه؟  
- سألقي عليكِ النسيان، وبمجرد أن تفتحي عينيكِ لن يصبح لي في ذاكرتك أي أثر.

- هل تأذن لي بطلب؟

الشباب (وهو يتأمل ملامحها بحنان):

- تفضّلي!

مدت يدها نحوَه ببراءة قائلةً بصوتٍ حزين:

- أريد مصافحتك.

ارتسمت ابتسامةً طيبةً على ملامحه المنحوتة من الجمال الأخاذ وهو يُصافحها برقة، ثم احتضنها بحنانٍ شديدٍ وهو يُقبل رأسها، لتسأله وهي بين ضلوعه وقد تسللت لنبراتِها الطمأنينة والسكينة:

السيارة وتحول زجاجها ومعدنها إلى أسلحةٍ حادةٍ مدببة، أعدت خصيصاً لاختراق اللحم وسحق العظام ودك الرؤوس بلا أي وفاء لأصحابها الذين لهم معها ذكرياتٍ لا تُنسى، ليتحول جسدا الأب والأم إلى عصيرٍ من اللحم المفري، بينما حمى الشاب جسد الطفلة الصغيرة، وتلقي بدلاً منها شظايا الزجاج لينغرس حطام الحديد فيه دون أن يمسه أو يمسه بأذى سوء، ثم أمسك بجسدها الصغير وطار بها خارج السيارة ليلقيها في حقول الطريق الزراعي على مسافةٍ بعيدةٍ عن الحادث، قبل أن يتحول جسده إلى طيفٍ نوراني، بينما انفصل عن جسد الطفلة نورٌ له هيئتها وملامحها نفسها وكأنه نسخة منها، لكنها نسخة روحانية بلا لحم أو دم، وصعد كلاهما إلى السماء في اللحظة التي توقف فيها المشهد على الطريق الأسفلتي، ليسود الهدوء أخيراً بعد أن سألت الدماء وعم الخراب..

وفي سماء طريق مصر إسكندرية الزراعي، تابع طيفا الشاب والطفلة الصغيرة المشهد المأساوي من أعلى، حيثُ بدت السيارة المرسيدس من أسفلها محطمةً تماماً تحت عجلات السيارة النقل الضخمة، وقد سألت دماء الزوج وزوجته منها، في حين هبط سائق السيارة النقل ليتفحص الحطام، وانضم إليه الرجل الملتحي صاحب السيارة "الرمسيس" وهو يردد في هول وهلع:

- لا حول ولا قوة إلا بالله.. إننا لله وإننا إليه راجعون.

ومن جانبه، وقف الطفل الصغير يبكي بارتجافٍ وهو يمسك طرف ثوب والده، متأملاً المشهد بارتجاعٍ، لتمتزج دموعه بدموع علوية سألت من عيني الطفلة الباكية وهي تتأمل مصير والديها المؤسف بحرقةٍ وحسرةٍ فاقت سنوات عمرها الصغير، ثم لاحت منها التفاتة نحو الشاب الوسيم الذي أنقذها، وقد بدا عليه الجمود والهدوء دون أن يتأثر مثلها، لتسأله بعد أن صار بمقدورها أن تتكلم في هيئتها الجديدة:

- هل توفي الاثنان؟

التفت لها وقال بهدوءٍ وحكمة:



- هل ستري أبي وأمي؟

- ربما!

- لو رأيتهما فلتقرئهما مني السلام.. (تفلفت دمعاً ساخنة على وجنتها وتستطرد) أخبرهما بأنني سأفتقدكما كثيراً!

تأمل ملامحها بابتسامته الطيبة، ثم أوماً برأسه وهو يُغمض عينيه ثم يفتحهما سريعاً بما معناه (لك ما أردت) ثم نظر لها مشجعاً، وتابع:

- والآن استعدي!

ثم مد يده نحو وجهها ليمسحه برفقٍ وهو يُردد بإيمان وخشوع:

- فلتسقط ذاكرتك تلك اللحظات من عمرك الفاني، وتنتبهي إلى ما هو أت بأمرك الله.

ومع مغادرة آخر حرفٍ من شفتيه، تجمّد طيفُ الطفلة في السماء وقد ألقى عليها السُّبات، قبل أن يسبح جسدها التوراني في الهواء نحو جسدها المادي فاقد الوعي في زراعات الطريق الزراعي على بُعد مسافةٍ طويلةٍ من سيارة والدها المحطمة، فيما أخذ الشَّاب يتأمل ملامح وجهها التي غشيتها السُّكينة، والهدوء، قبل أن يلقي نظرة على الرجل الملتحي والسائق وهما يُحاولان إخراج جثتي الأب والأم، ويُعاونهما في ذلك حشدٌ من النَّاس التفت حول الحادث، قبل أن يخترق السُّحب ويغادر سماء الدُّنيا بسرعةٍ فائقةٍ ليختفي في ملح البصر.

\* \* \*

مع اختراق الحُجُب ومغادرة الأرض، حيثُ سديم الكون الفسيح وأضواء النُّجوم المندثرة التي لايزال ضياؤها يصل إلى البرية رغم فنائها من آلاف السنين، تحوّل جسدُ الشَّاب إلى طيفٍ نوراني هائل، ليتأمل من أعلى ذلك الكوكب الصَّغير المليء بالأحقاد والحروب والمكائد.

أخذ يمخّر عباب السَّديم حتّى وصل إلى "بوابة البرزخ"، ليتطلع إلى تدفق الأرواح المزهقة التي تتطاير من الأرض زخات زخات بأعدادٍ مهولةٍ في كل لحظة، بعد أن حصدها الموت في موسم جني البَشَر المستمر على مدى الفصول الأربعة، متجهة إلى الدَّار المؤقتة بين الدُّنيا والآخرة، في صورة

شلالٍ من الأضواء الباهرة، لتصرخ الأرواح الصاعدة بنداءات واستغاثات بكل اللغات في أول لقاء بالحقيقة المطلقة، كلُّ حسب عقيدته التي وقرت في قلبه، لتتضارب الاستغاثات بنبراتٍ متباينةٍ، تحمل أصوات رجال ونساء وأطفال وكهول.. هذا ينادي على رب محمد، وهذا يقول يا يسوع، وهذا يبحث عن نعيم النِّجاة الأبدي في النيرفانا بعد أن امتثل لقانون الكارما، ونفرٌ منهم يتساءل بدهشةٍ عارمة: يا للهول.. أهنالك حياة بعد الموت؟! هل صدق الأنبياء والرسل الذين كنا نعتبر رسالتهم محض خيال من صنيع البَشَر؟! صنيح البَشَر؟!

في المقابل كان هناك تيارٌ هائلٌ من الأرواح الهابطة من الملكوت في طريقها إلى الأرحام في شتى ربوع الأرض؛ حيثُ منابت بشرٍ جدد ينتظر القلم أفعالهم ليخطها في صحائف أعمالهم التي لاتزال خاويةً، متساوين في ذلك مع نقاء الملائكة قبل تدوين أول سيئة.

وفي غمار ذلك المشهد المهيب لتلاقي شلال أرواح الموتى الصَّاعد مع تيار أرواح البَشَر الجدد الهابط، عاد الملاك التوراني ليسأل سؤاله الأبدي الذي طالما تردد في قرارة نفسه، عن سر صراعات البَشَر اللانهاية على التوافه والصغائر، بين سكان كوكب بكل من فيه وما فيه لا يُساوي عند الرّب جناح بعوضة في ملكوته الهائل وأكوانه الفسيحة الممتدة والمتمددة بلا نهاية..

ومن جديد ارتعدت فرائص ملاك الرّب التوراني، وقتم بارتجافة وهو يتابع المشهد الذي فاق خيال البَشَر، على أعتاب بوابة عالم الحقيقة والشَّهادة:

"لو رأوا دنياهم من أعلى مثلما اعتدت رؤيتها لانفض السامر، وتجاغت جنوبهم عن المضاجع، وهاموا في الساحات والطرقات خاشعين، عابدين، تجار أسنتهم وأفئدتهم بالرحمة والتضرع: سبحانك ربنا ما عبدناك حق عبادتك.

لو عاد إليهم الموت ليخبروهم بما شاهدوه وهم يتجاوزون الأرض ويخترقون الحُجُب ويصعدون للسموات العُلا، وكيف وجدوا حقيقة



عالمهم الفاني، واكتشفوا ماهية الدنيا الزائلة، وحجمها الحقير، حين انطلقت صرخاتهم في ساحات الملأ الأعلى ندماً وأماً على ما بدر منهم حين كانوا أحياء، لاختلف كل شيء.

أبداً لن يُدركوا الحقيقة مهما حاولوا تخيلها إلا حين يصبحون في عالم الأمر والإطلاق؛ حيثُ الحقيقة المجردة التي لا تكفيها الكلمات، ولن تدركها الحواس القاصرة، وإنما تعبر إلى القلوب، وتمرق في الأنفس، فتستقر في الوجدان وتصبح يقيناً أبدياً لا رجعة فيه، لكن.. بعد فوات الأوان".  
وفي غمرة فكره وتأملاته، انفتح باب الذكريات العميقة داخله ليتذكر أحداثاً من العصور الغابرة.

\* \* \*

## (2)

أصدرت السماء قعقعةً مخيفةً اضطرب لها سكان ذلك العالم العلوي، ليتربسب سكانه النورانيون أمراً جليلاً في طريقه لأهل الأرض.

كانت القعقعةُ هي كلمة السرّ كلما صدر أمرٌ إلهي إلى (جبرائيل)<sup>(1)</sup> الملاك المقرب من رب العزة، وإمام السماء الموكل بإرسال العذاب والهلاك على من وصل صراخُ خطاياهم إلى عرش الرحمن، وناءت بذنوبهم الأرضين السبع.

مع اضطراب المشهد، وانطلاق التسابيح والتكبيرات من أهل السماء هولاً وخوفاً مما هو آتٍ، وقف طيفٌ نوراني يرقبُ باهتمامٍ شديدٍ تلك الأحداث الجسام القادمة، ولم يكن هذا الطيف سوى طيف صاحبنا الغارق في ذكرياته الآن.

لكن الفارق بينه وبين باقي المضطربين حوله من الذين نطقت ألسنتهم بالاستغفار والتضرُّع، أن السعادة ارتسمت على ملامحه واحتلت كيانه وهو يتربسب ذلك العقاب المقبل على فئةٍ جديدةٍ من تلك المخلوقات الصلصالية التي جاء خلقها وبالاً على الأرض -من وجهة نظره- إذ استكملوا مسلسل القتل وسفك الدماء الذي بدأه من قبلهم الجان والشياطين.

قرأ الشاب الوسيم في اللوح المحفوظ قصة بدء الخليقة مُنذ أن كان الله في عماء، مَا تَحْتَهُ هَوَاءٌ وَمَا فَوْقَهُ هَوَاءٌ، وَخَلَقَ عَرْشَهُ عَلَى الْمَاءِ، وَمَا

(١) جبرائيل: هو أحد الملائكة المقربين من الله، وتعني كلمة (إيل) في العبرية الله، لذا تتصل بها معظم أسماء كبار الملائكة، مثل: (جبرائيل) و(إسرافيل) و(ميكائيل) وغيرهم.



أراد أن يخلق عالم التدوين والتسطير خلق القلم، وأمره أن يكتب كل ما يكون في الكون إلى يوم القيامة، ثم خلق الملائكة والجان والجنّة والنار والسموات والأرضين السبع.

في البدء كانت الأرض خربة، وخالية، وعلى وجه الغمر ظلمة، وروح الله يرف على وجه المياه، في مشهدٍ كونيٍ بديع، لم يشاهده أحدٌ من بني (آدم)، لكن الرب سطره في سفر تكوينه بالتوراة حين قال: "لتجتمع المياه في مكان واحد تحت السماء"، فإذا بالمياه تنحسر وتجتمع في أماكن محددة، ثم تظهر اليابسة، ليدعو الله اليابسة أرضاً، ومجتمع المياه بحاراً، ثم أخرجت الأرض عُشْبًا وَبَقْلًا وشجرًا، ثم قال الله لتكن أنوار في جلد السماء لتفصل بين النهار والليل، وتكون آيات وأوقات وأيام وسنون، فعمل الله التورين العظيمين؛ التور الأكبر لحكم النهار؛ والتور الأصغر لحكم الليل، وجعل الله النجوم في جلد السماء لتنير على الأرض، وتحكم على النهار والليل، وتفصل بين النور والظلمة.

قبل خلق (آدم) كانت الأرض تفيض بالخيرات والتعم؛ حيثُ جميع المخلوقات لا تملك رفاهية الاختيار، وكل مخلوق يسير بقدر معلوم في مسارٍ حدده له الإله سلفاً حين قال: "لتفض المياه زحافات ذات نفس حية، وليطر طير فوق الأرض على وجه جلد السماء"، ثم خلق الرب كل ذوات الأنفس الحيّة التي فاضت بها المياه أجناساً مختلفة، وكذا جعل من الطيور ممالك وفصائل، وبارك الله أرضه قائلاً: "أثمري وأكثرِي واملئي المياه في البحار، وليكثر الطير على الأرض"، ثم قال: "لتخرج الأرض ذوات أنفس حية"، وخلق الوحوش والبهائم والدواب في أيام الخلق السبعة، لتملأ جنات الأرض خيرات الإله، قبل أن تطأ الأرض أقدام المخلوقات النارية اللعينة التي نشرت الخراب والدمار، وسفكت الدماء، في الوقت الذي امتلأت فيه السماء بترايل المحبة والتعممة التي تشدها الملائكة والمخلوقات التورانية، وهي تحمد الخالق العظيم.

ومع اشتداد هزيم القعقة الغاضب، تذكر الطيف التوراني الأشبه بشابٍ لا مثال لجماله على وجه البسيطة عندما حانت لحظة الشروع

في خلق مخلوق جديد ليكون بمثابة رمانة الميزان لهذا الكون؛ ما بين مخلوقات نارية تفيض بالشّرور إلا قليلاً، ومخلوقات نورانية تفيض بالخير لأنها لا تملك خيار المعصية والخروج عن نسق السماء، بعد أن جُبِيت على الطاعة وفُطرت على الإيمان، ودواب وطيور ووحوش غير مؤهلة لنشر تعاليم الإله وإعمار الأرض، وقد امتلأت نفوسها بالشهوة حتّى لم تجد مكاناً للفكر والتأمل وحمل الأمانة، ليقول الله حينها ما ورد ذكره لاحقاً في سفر تكوينه: "نعمل الإنسان على صورتنا، كشبهنا، فيتسلطون على سمك البحر، وعلى طير السماء، وعلى البهائم، وعلى جميع الدواب التي تدب على الأرض"، ثم خاطب ملائكته بما ورد في قرآنه بعدها بآلاف السنين: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾، لتبدأ من يومها رحلة التقرب والتّحدي، بين التور والطّين.. ملائكة كرام بررة، وشياطين وجان ومردة، وبشر صلاليون.. كان ذلك حين سألت الملائكة ربها بدهشة:

﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ؟﴾.

وكانت إجابته عليهم:

﴿إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾.

وأخذ الله الطّين اللازب، ثم تركه حتّى صار شديد السّواد، تنطلق منه رائحة نفاذة، وجعله صلصالا كالفخار، ثم نفخ فيه من روحه، لتحين لحظة التّحدي الكونية وبداية سيناريو أضخم دراما واقعية في الوجود، عندما قال الله لملائكته:

﴿اسْجُدُوا لِآدَمَ﴾.

فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ، ليسأله الرب حينها:

﴿مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ؟﴾.

﴿أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ﴾.

﴿اهْبِطْ مِنْهَا.. فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا.. فَأَخْرِجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاعِرِينَ﴾.

﴿أَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾.

أسماءها، ويُعَرِّفها بما يناديها، قبل أن يجمع الله الملائكة ويسألهم عن أسماء تلك المخلوقات، فأسقط في أيديهم وعجزوا عن الإجابة قائلين:

– "سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ".

فكانت الجولة الأولى التي ربحتها (آدم) في معركة العلم والمعارف، كمخلوق أمدته الله بما لم تحط به باقي المخلوقات خبراً، وقال له: ﴿يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ﴾ .

فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ اللَّهُ لَمَلَائِكَتِهِ:

– ﴿أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ.. وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ .

فدعا (آدم) جميع البهائم وطيور السماء وجميع حيوانات البرية بأسمائها، وأما لنفسه فلم يجد معيناً نظيره، فقال الرب: ليس جيداً أن يكون آدم وحده، فاصنع له معيناً نظيره، وأوقع الرب سبباً على (آدم) لينام، ثم أخذ واحداً من أضلعه وملأ مكانه لحماً، وبنى الضلع الذي أخذه من آدم امرأة وأحضرها إلى (آدم).

عندها قال (آدم) هذه الآن عظم من عظامي، ولحم من لحمي.. هذه تُدعى امرأة لأنها من امرئ أُخِذَتْ، ودعا (آدم) اسم امرأته (حواء) لأنها أم كل حي، وكانا كلاهما عريانين بلا خجل؛ حيث لا يُدركان معنى الحياء بعد، قبل أن يبدأ إبليس التحدي في إغواء عدوه الذي كان سبباً في إفساد ما بينه وبين الرب، وتلبس جسد حية ودخل من خلالها جنة (آدم) المحرّم عليه دخولها.

وبعد دخوله، التقى (حواء) وقال لها: أحقاً قال الله لا تأكلا من كل شجر الجنة؟

فأجابته (حواء): من ثمر شجر الجنة نأكل، وأما ثمر الشجرة التي في وسط الجنة فقال الله لا تأكلا منه ولا تمساه لئلا تموتا.

قال لها بلهجة تفيض بالكراهية والحقد، مغلفة بنبرة الناصح الأمين:

– لن تموتا، "ومَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَتَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ".

– ﴿إِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ﴾ .

– ﴿فِيمَا أَغْوَيْنَنِي لِأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ.. ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِّنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ".

– ﴿أَخْرَجَ مِنْهَا مَذْؤُومًا مَّدْحُورًا.. لَّمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكُمْ أَجْمَعِينَ.. وَيَا آدَمُ.. اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ.. فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ، فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾  
هكذا جاء خلق (آدم) وبالأعلى إبليس وذريته الثعسة.

وبعد أن خلق الله خليفته الجديد كآخر مخلوقاته، خلق البشر من صلبه، ثم صورهم، وخلق الشفرة الوراثية التي فيها صور كل الصفات الوراثية للإنسان على مستوى البشرية كلها، ثم أخرج الرب من صلب (آدم) كل ذرية ذراها ونثرهم بين يديه كالذر، وأشهدهم على أنفسهم سائلاً: "ألست بربكم؟"

فقالوا: بلى.. شهدنا.

ثم حانت لحظة التعارف بين (آدم) والملائكة، حين قال الله له :

– اذهب فسلم على أولئك من الملائكة، فاستمع ما يحيونك، تحيتك وتحية ذريتك

فقال لهم (آدم): السلام عليكم.

وبدورهم ردوا عليه: السلام عليك ورحمة الله.

وغرس الإله بعدها جنة في شرق عدن، أسكن فيها (آدم)، وأنبت من الأرض كل شجرة شهية للنظر، وجيدة للأكل، وجعل فيها شجرة معرفة الخير والشر، وأوصى الرب خليفته قائلاً:

– «من جميع شجر الجنة تأكل أكلًا، أما شجرة معرفة الخير والشر فلا تأكل منها لأنك يوم تأكل منها موتا تموت».

وبعد أن أخذ الله الميثاق على (آدم)، استدعى له من الأرض كل البهائم والحيوانات البرية، وكل طيور السماء، فأحضرها إليه ليُعَلِّمه

فرأت (حواء) أن الشجرة جيدة للأكل، وأنها بهجة للعيون، وأن الشجرة شهية للنظر، فأخذت من ثمرها وأكلت وأعطت رجلها أيضًا معها فأكل.

عندئذ انفتحت أعينهما على معانٍ لم يُدركاها من قبل، وبدت لهما سوءتاها، وعرفا أن العُري يستدعي الخجل، فطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة ليداري كل منهما عورته، وسمعا صوت الرب الإله ماشيًا في الجنة عند هبوب ريح النهار، فاخْتَبَأَ (آدم) وامرأته من وجه الرب في وسط شجر الجنة قبل أن ينادي الرب على (آدم): **أين أنت؟**

فأجابه (آدم): سمعت صوتك في الجنة فخشيت لأني عريان، فاخْتَبَأْتُ.

- من أعلمك أنك عريان؟ هل أكلت من الشجرة التي أوصيتك ألا تأكل منها؟

ولم يجد (آدم) بُدًّا من الاعتراف:

- المرأة التي جعلتها معي أعطتني من الشجرة فأكلت.

فقال الرب للمرأة: ما هذا الذي فعلت؟

ليحين دور (حواء) في الندم والأسف بعد فوات الأوان وهي تجيب:

- الحية غرّنتني فأكلت.

فقال الرب للحية: **"لأنك فعلت هذا، ملعونة أنتِ من جميع البهائم، ومن جميع وحوش البرية، على بطنك تسعين، وترابا تأكلين كل أيام حياتك، وأضع عداوة بينك وبين المرأة، وبين نسلك ونسلها، هو يسحق رأسك وأنتِ تسحقين عقبه."**

وعاقب الإله (حواء) بآلام الولادة والمخاض، وأن يكون اشتياقها للرجل اشتياقًا أبدئًا، وعليها يسود، وقال لـ(آدم): **"لأنك سمعت لقول امرأتك وأكلت من الشجرة التي أوصيتك قائلًا لا تأكل منها، ملعونة الأرض بسببك، بالتعب تأكل منها كل أيام حياتك، شوغًا وحسغًا تنبت**

لك، وتأكل عشب الحقل، بعرق وجهك تأكل خبزًا حتّى تعود إلى الأرض التي أخذت منها، لأنك تراب، وإلى تراب تعود"<sup>(١)</sup>.

وهكذا أصبح (آدم) من العارفين، وما دام قد عرف، صار عليه أن يحمل أمانة التبليغ والإعمار التي عرضها الله على السماوات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها، وحملها الإنسان بكل مشاقها وآلامها، إنه كان ظلومًا جهولًا..

وانتصر الشيطان في تلك الجولة؛ جولة الحيلة والمكر والدهاء..

وحين لاحت لحظة طرد (آدم) و(حواء)، ترقبت الملائكة حياة البشر وهم يُغادرون جنتهم إلى الشقاء والتعاسة، وفي عقولهم سؤال طالما سألوه من قبل خلق (آدم): هل ينزلق البشر إلى مستنقع الجان، وتعرف أياديهم الطريق إلى القتل وسفك الدماء؟

نعم.. ذاقنا الأرض طعم الدّم، وشربته حينَ سال من (هابيل) بعد أن قتله أخوه (قابيل)، ليفر الأخ القاتل بفعلته موصومًا بلعنة الله، لكن الإله استبقاه حيًا وحرّم على الكائنات قتله، فتناسل (قابيل) مع زوجته وأنجب (حنوك) وشيّد مدينةً سمّاها باسمه، قبل أن ينجب (حنوك) ابنًا سمّاها (عيراد)، و(عيراد) ولد (محوياييل)، و(محوياييل) ولد (متوشائيل)، و(متوشائيل) ولد (لامك).

وبعد مقتل (هابيل) عوّض الله آدم وزوجته بـ (شيث)، وأنجب (شيث) (أنوش)، وأنجب (أنوش) (قينان)، وظلّت الأنسال تتابع وتتوالى كطوفانٍ بشري مدعومًا بدفعةٍ قويةٍ من إلهٍ أراد لصنيعته التكاثر والازدياد.

هكذا ظلّ (آدم) وبنوه في تكاثر، وامتلات الأرض بشرًا.. ومع تعددهم انتشر العصيان، وسفكت الدماء، وارتفع صراخ الخطايا ليجاوز عَنان السماء.

(١) جميع ما تم ذكره في قصة الخلق في هذا الفصل مأخوذ من سفر التكوين في التوراة والعهد القديم بالكتاب المقدّس، والقرآن الكريم .

ويمضي الزمن، وبعد نحو 400 سنة نسي بنو (شيث) وسكان وادي النيل شريعة التوحيد، وعبدوا الأصنام وأشركوا بالله، بينما حبست القلة المؤمنة عقيدتها في صدورهما من شدة الخوف من الحكام، إلى أن أرسل الله إليهم نبيه (إدريس)؛ ليستكمل علم جدّيه (شيث) و(آدم)، ويكون أول من خطّ ورسم بما يشبه القلم حالياً، فذُكر سُكَّان (مصر) بتعاليم الله الواحد الخالق لكل شيء، ووجههم إلى الأعمال الصالحة والزهد في الدنيا، وحدثهم عن الكواكب والنجوم وحركاتها، وعن الليل والنهار، بعد أن علّمه الله أسرار الفلك وعدد السنين والحساب، كما علّم (إدريس) أهل (مصر) بعض الصناعات الصغيرة وتطويرها كالغزل والنسج، وحياسة الملابس.. وغرس في قلوبهم قدسية الموت حين علّمهم دفن الموتى والصلاة عليهم، ونشر بينهم السعادة حين جعل لهم أعياداً كرؤية الهلال وضيان النيل، وجعل في أعناقهم أمانة الحساب والعدل في المعاملات حين علّمهم استخدام المكييل والموازين، وجعلهم يشكرون الله الشافي حين علّمهم علوم الطب والعلاج بالأعشاب لبعض الأمراض، فأطلقوا عليه (هرمس الهرامسة)؛ أي المُعلّم الأول للبشرية، وأهمه الله منطق كل بلد زاره، فعلمهم بالسنتهم التعمير والإنشاء والصناعات الصغيرة، ولما عاد إلى (مصر) سار مع الله مُصدّقاً لكل ما نزل عليه من الوحي، حتّى رفعه الله إليه وهو حي في ظروف وملابسات اختلفت أقوال البشر فيها من بعد رحيله، بعد أن أدى رسالته وكان عمره نحو 365 سنة، تاركاً أصحابه على الشريعة الإدريسية التي تحورت مع الوقت وبانت أسطورة جعلت من (إدريس) إلهاً اسمه (أوزوريس)، لتختلط في الأسطورة الحقيقة بالخيال والواقع بالخرافة، غير أن تعاليمه الأساسية تركت في نفوس الأقدمين الرهبة والقدسية تجاه حياة ما بعد الموت، والبعث والحساب، ليصبح للموت جلال وحكايات يرتجف من ذكرها السامعون.

ومع توالي السنين، تسلل الكُفر إلى النفوس التي خربت، وتبدد العدل في طيات الظلام الحالك الذي حلّ على العالم.

استحلّ الرجال نساء لا تحل لهم، وذاع القتل والنهب والاعتصاب.. عرفت الأرض من نسل (آدم) قوماً جبّارين لا تعرف الرحمة لقلوبهم موضعاً، ثم تعالت صيحات الغضب لتعم أرجاء الكون الفسيح وتهز عرش الإله حين شيد بنو (آدم) تماثيل ضخمة لبشر صالحين يعرفون الإله حق المعرفة يدعون (ودا) و(سواعا) و(يغوث) و(يعوق) و(نسرا)، وبعد رحيل هؤلاء الصالحين عبد أتباعهم وأولادهم هذه التماثيل بعد أن خدعهم إبليس وأعوانه في جولة جديدة واهماً إياهم بأنها آلهة تسمع وترى، وقادرة على البطش والعقاب.

ارتمت البشرية في أحضان آلهة من صنع أيديهم بنسخ مزيفة، لا ترقى حتّى أن تكون مقلدةً بجودة عالية، ونسوا وتناسوا أن الإله لا مثيل له في الكون كله، ويستحيل حتّى الاقتراب من قدراته وصفاته اللا محدودة!!

فسدت الأرض بمن عليها، وأصبحت كتلة من الشرور والقاذورات، وصار كل مولود جديد بمثابة حلقة جديدة في سلسلة الكُفر والفساد والمعاصي، ورقم جديد يُضاف لقائمة المتجبرين.

وفي غمار ذلك، أخرجت الشياطين ألسنتها للكون بحاله، وابتسم إبليس لجهنم في تشفّ قائلاً: لن أدخلك وحدي، بعد أن أشار للجنة في سخريّة: لا تنتظري أحداً، فلن يأتي أحد.

حتّى حين ظهرت بوادر الخير مع ذلك الرّجل الصّالح (نوح) ابن (لامك) وحفيد (متوشالح)، سخر منه الطغاة والجبابة، واستضعفه العوام، ولم يتبعه من القوم إلا قليلاً، بعد أعوام طويلة من الدعوة لعبادة رب الأرض والسّماء، ونبذ الشرور والخطايا التي صارت هي الأصل، والخير هو الاستثناء.

وبعد أن وصل (نوح) إلى لحظة اليأس والضعف والانكسار، ارتفعت يده إلى السّماء:

- " رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَيَّ الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا.. إِنَّكَ إِن تَذَرَهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاَجِرًا كَفَّارًا".

السَّماء، وكان المطرُ على الأرض أربعين يومًا وأربعين ليلة، وتعاضمت المياه كثيرًا جدًا على الأرض، فتغطت جميع الجبال الشَّامخة تحت السَّماء، ومات كل ذي جسد كان يدب على الأرض من الطيور، والبهائم، والوحوش، وجميع البَشَر، وتبقَّى نوح والذين معه في الفلك فقط، وتعاضمت المياه على الأرض مئة وخمسين يومًا.

لكن لا يزال الأمر مبكرًا على الحساب، ورغم أن النار صُنعت قبل خلق البَشَر وطال انتظارها، فإن اشتياق الجنَّة للصالحين يستحق أن تطول الأيام والسَّنون والقرون، بقدر منزلتها العظيمة وتجليات إبداع الإله فيها بما يليق بقدراته اللانهائية، وكرمه اللامحدود.

وبعد أن عادت الأمور إلى طبيعتها، وعمَّت نعمة الله وسادت تعاليمه ومبادئه، عاد بنو (آدم) مجددًا إلى طبيعتهم البَشَريَّة الناقصة، وعاد إبليس وأعوانه إلى لعبة الإغواء والتلاعب بالتفوس المريضة وأطماع وأحقاد الصلصاليين، وقرر الرَّبُّ الإله أنه لن يغرق الكوكب في كل مرَّة، بعد أن جعل من طوفان (نوح) نموذجًا مصغرًا للهلاك، وأدرك البَشَر كيف يكون عقابه، لكن في الوقت نفسه كان الرَّبُّ يُدرك أن تكرار العقاب الهائل لا يجعله هائلًا حق قدره، فهياً الإله كوكبه وأيامه المقبلة لاستراتيجية مختلفة تناسب طبيعة المرحلة، وما وصل إليه البَشَر من خطايا وذنوب، بأن أوكل ملائكة -لا تتردد في تنفيذ أوامره طرفة عين- بالبطش والعقاب، ليكونوا على أهبة الاستعداد حين يصدر أوامره تجاه العصاة والمجرمين.

هكذا استرجع الملوك الشَّاب الجميل بالسَّماء الرابعة أنباء مضت لتكون شاهدةً على جهل بني الإنسان، متمنيًا أن يصبح ملكًا من ملائكة العذاب الذين يُرسلهم الرَّبُّ على الهالكين في لحظات الحسم.

حاول مرارًا أن يكره تلك المخلوقات البَشَريَّة الصلصالية الجهول الظلُّوم، لكن تكوينه الثوراني الطاهر لم يكن به ما يسمح بالكراهية والحقد فاحتفظ لنفسه على الأقل بالحد الأقصى من الصرامة، والاستعداد التام لتنفيذ وعيد الله وعقابه، منتظرًا لحظةً لم تحنْ بعد، تمنى فيها أن

حينها جاءت لحظة الحسم لتطهير الأرض من الخلاق، بعد أن أغلقت لعبة اللهو والعبث، كدورة دومينو مستحيلة الاستمرار، وتم تهيئة (نوح) ليكون (آدم) جديدًا لهذا الكوكب، وقرر الرَّبُّ أن يردع غرور البَشَر بعينه من عذابه؛ ليدركوا كيف تكون غضبة الإله وانتقامه، بعد أن صاروا كطفلٍ لم يُدرك بعد معنى العقاب، ولا يتخيل كيف يكون الهلاك ما دام لم يذقه أو يَر عينه منه.

ومن خلف السَّموات جاء وحي الإله لنبيه (نوح):

﴿اصْنَع الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَّوْحِينَا وَلَا تَخَاطِبُنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُخْرَفُونَ﴾.

ولم يكن النَّبي (نوح) على علمٍ أو دراية بصناعة السَّفن، فكيف بسفينةٍ ضخمةٍ تحمل آخر من سيتبقى من الخليقة؟ لكن الإجابة جاءت من السَّماء التي هبطت منها ملائكة خفية أسهمت في صنع السَّفينة بيد (نوح) الذي وجد يده تتحرك وتصنع وكأنها حاذقة ماهرة عاشت طوال العمر في مهنة صنع السَّفن!

ورغم دهشة القوم العارمة من السَّفينة الهائلة فإنهم تجاهلوا الإعجاز في صنعها، وسخروا وتهكموا على مكانها الغريب في قلب الصحراء، وكيف ستبحر في الرَّمال، بينما فهقه البعض منهم:

نراك صرت نجارًا بعد أن كنت نبيًا.

وبعد اكتمال الصنع، جاء النداء الأخير من الرَّبِّ..

«ادخُل أنت وجميع بيتك إلى الفُلك لأني إياك رأيت بارًا لدي في هذا الجيل.. من جميع البهائم الطاهرة تأخذ معك سبعة سبعة، ذكرًا وأنثى، ومن البهائم التي ليست بظاهرة اثنين ذكرًا وأنثى.. ومن طيور السَّماء أيضًا سبعة سبعة، ذكرًا وأنثى لاستبقاء النسل على وجه كل الأرض، لأني بعد سبعة أيام أمطر على الأرض أربعين يومًا وأربعين ليلة، وأمحو عن وجه الأرض كل قائم عملته»

وفي سنة ست مئة من حياة (نوح)، في الشهر الثاني، في اليوم السابع عشر من الشهر، انفجرت كل ينابيع الغمر العظيم وانفتحت طاقات

يهبط بين أبناء (آدم) ليدور فيهم البطش والعقاب جزاء ما اقترفوا من ذنوب وخطايا، لم يستعب أو يدرك كيف واتتهم الجرأة على إتيانها.

لم يعرف يوماً معنى التبرير ولا حتى التفسير لأي ذنب مهما صغر.. فما قاله الإله واجب التنفيذ على أي حال، وتحت أي ظرف، وفي كل وقت.. هكذا يستحق الإله، ولا عذر لكل من خالف أو قصر من المخلوقات.

كيف لم يصب هؤلاء البشر ملائكة في عباداتهم وطاعتهم لإلههم الوحيد، حتى وإن امتلكوا رفاهية الاختيار؟ فالرب يستحق العبادة والتفديس دون حتى أن تكون هناك جنة ونار.

مرّت عليه سنون طويلة أخذ يُردد فيها: "أه يا إلهي لو تأذن لي بالانتقام من هؤلاء المجرمين جزاء ما اقترفت أيديهم وأنفسهم الظالمة.. سأسحقهم جميعاً وأتعبّد إليك بعدد كل نفس هالكة، وأهة عذاب يطلقها كافرون لا يخافون وعيدك".

ومع انتشار دعوات أهل السماء بالرحمة والمغفرة حين لاحت لحظة الحسم تجاه قوم (لوط)، ظلّ الطيف الملائكي يدعو الله أن يأذن له ويرسله مع المنتقمين..

ظلّ يردد دعاءه بحرقة وإلحاح ورغبة أكيدة من أعماق أعماقه وهو يضرب الهواء بأجنحته الخفاقة بشدة أكثر وأكثر مع ازدياد صوت القعقعة في لحظة حانت أخيراً لقطع دابر قوم فاسدين، قبل أن يتجمد في مكانه كتمثال نحتته يد الإله حين لاح أمام عينيه (جبرائيل) في حجمه المهيب وأجنحته الستمائة التي يدوي خفقانها بصوتٍ قادر على زحزحة كوكبٍ بأكمله، وجعله يخرج عن مساره.

كان ذلك حين هبط إمام السماء من عليائه في موكب ملائكي مهيب إلى حدود السماء الدنيا انتظاراً للحظة الحسم، بينما تمتم الملاك الثوراني مُحدثاً نفسه:

- كم أنت محظوظ سيدي جبرائيل! أما آن أن تشفع لي عند الله حتى يضمني لجُندك المجندين وأحذو حذوكم في الانتقام من الجبارين؟

نظر إليه (جبرائيل) وكأنه سمع همسه، فارتجّت أوصاله، واضطربت دواخله قبل أن يضي رئيس الملائكة مخترباً السماوات، متوجهاً إلى (سدوم) و(عمورة) و(أدومة)، و(صوبيم)<sup>(١)</sup>؛ تلك البلاد الفانية التي ستصبح عبرة لمن يعتبر، بعد أن تُمحى آثارها وسكانها للأبد.

ورغمًا عن إرادته، انطلق الطيف الثوراني خلف (جبرائيل) ووقف على أبواب السماء الدنيا ليسمع ويرى ما هو آتٍ، مسترجعاً في ذاكرته تاريخ نضال ذلك الرجل الصالح (لوط) مع قومه الذين أتوا بفعلة ما سبقهم بها من أحدٍ من العالمين.

كانت (سدوم) و(عمورة) و(أدومة)، و(صوبيم) بلاداً مليئةً بالخيرات والنعم، وكانت تمر عليها القوافل التجارية، ولما ضاق أهلها من تجاوزات بعض أفراد القوافل التجارية حين كانت أيديهم تمتد لالتقاط الثمار والخيرات من على الأشجار لسد جوعهم والتقوي على وعشاء السفر، قرّر القوم الإقدام على فعلة شنيعة يطوف أثرها باقي القرى والبلدان، ويردع كل من تسوّل له نفسه التعدي على خيرات البلاد..

كيف؟

"سنطأ الرجال الذين تمتد أيديهم على خيراتنا، ونفعل بهم ما يفعل الذكر بالأنثى!".

وهكذا وقعت أول حادثة من نوعها في تاريخ البشرية، لكن من ارتكب هذا الجرم وجد فيه حلاوة امتد طعمها ليتذوقه باقي رجال البلدة، ليتحول إتيان الذكور من عقابٍ إلى عادةٍ شعبيةٍ يُمارسها الهالكون على الملأ في نواديهم ونواصيهم.

ولم تكن تلك الفاحشة هي إثمهم الوحيد، وإنما أضيفت إلى قائمة الشرور والآثام الأخرى من قتل، وسرقة، وقطع للطرق والسطو على القوافل التجارية التي يلقيها حظها العاثر في طريقهم.

(١) يعتقد كثير من الباحثين وعلماء الدين أن قرية قوم نبي الله (لوط) والقرى المجاورة لها كانت تقع في منطقة البحر الميت، وغور الأردن حالياً.



اختار (لوط) أن يرتحل إلى (سدوم) و(عمورة) اللتين كانتا جنة الإله في أرضه، بما احتوته أرجاؤهما من خضرة، وثمار، وجمال أما (إبرام) فنقل خيامه وأتى وأقام عند (بلوطات ممرا) التي في (حبرون)<sup>(١)</sup>، وبنى هناك مذبحًا للرب.

وحين بلغه ما حدث مع ابن أخيه (لوط) كان (إبرام) هو البطل الذي أنقذ في آخر لحظة ممالك مهزومة لا تستحق سوى الدّل والهلاك من أجل فرد واحد طالما حاول أن يعيد الأوضاع المقلوبة إلى نصابها.

تحرك (إبرام) بجنده وشقوا عباب السديم الغاسق، مع أعة أنوف تشمخ لملاقاة الظالمين، وكان في تحركه وتجهيزه للحرب مفاجأة للجميع، وهو الرجل الهادئ الحكيم الطيب، فإذا به فجأة أصبح بطلاً أسطوريًا يليق أن تنسج حوله الأساطير.

استرجع (إبرام) كل الأملاك، واستعاد (لوطا) والنساء وباقي الشعب الذي سيق عبيدًا وجواري.

وعندما خرج ملك (سدوم) لاستقباله بعد انتصاره على (كدرلعومر) والملوك الذين معه، قال الملك لـ(إبرام): أعطني النفوس، أما الأملاك فخذها لنفسك.

فأجابه (إبرام) بتواضع وترفع:

— رفعت يديّ إلى الرب الإله العليّ مالك السماء والأرض، لا آخذن لا خيطًا، ولا شراك نعل، ولا من كل ما هو لك فلا تقل أنا أغنيت إبرام. قبل أن يلقبه الرب منذ هذا اليوم بـ(إبراهيم) بدلًا من (إبرام)، ويلقب زوجته (ساراي) بـ(سارة)

(١) مدينة (حبرون): هي ما تُعرف اليوم بمدينة (الخليل) في فلسطين، وكان يُطلق عليها قديمًا اسم "قرية أربع"، وقد تعود هذه التسمية إلى انقسامها في وقت ما إلى أربعة أحياء، ويرجع الكتاب اليهود بهذه التسمية إلى الآباء الأربعة الذين دفنوا فيها وهم: آدم وإبراهيم وإسحق ويعقوب. ولكن بناءً على ما جاء في سفر يشوع (٤١ : ٥١، ٥١ : ٣١) فإن هذه التسمية جاءت نسبة إلى رجل يُدعى "أربع أبي عناق"، وفي (حبرون) ماتت (سارة) فاشترى (إبراهيم) مغارة المكفلة ليدفنها هناك، كما أمضى (إسحق) و(يعقوب) سنين عديدة من حياتهما في (حبرون) ومنها نزل يعقوب وأولاده الأسباط إلى (مصر).

وعندما صدر ذلك المرسوم الملكي في (سدوم): "يُعاقب كل من يُعذّي الفقراء بالحرق حتّى الموت"، كان هذا بمثابة المسمار الأخير في نعش الإنسانية التي ماتت واندثرت في قلوب أهل هذه البلدان البائسة، وسقطت آخر ورقة في شجرة المغفرة التي اقتلعها خريف البشَر؛ لتنافس البلدة الغابرة ممالك الشياطين الغابرة التي ما صار فيها بادرة أمل في التوبة، وغدت (سدوم) بلدة (لوط) وما يجاورها عضوًا فاسدًا لا أمل في شفائه، ولا مفر من استئصاله بعملية بتر إلهية.

نسي أهل تلك البلدان وتناسوا ماضيًا قريبًا تكالبت فيه الملوك والممالك عليهم، حين تشكل تحالف بين الحاكم (كدرلعومر) ملك (عيلام)، و(أمرافل) ملك (شنعار)، و(أريوك) ملك (الأسار)، و(تدعال) ملك (جوييم)، ليصنعوا حربًا مع (بارع) ملك (سدوم) و(برشاع) ملك (عمورة) و(شباب) ملك (أدمة)، و(شمئير) ملك (صبوييم) وملك (بالع).

ومع سقوط ملكي (سدوم) و(عمورة) اقتحم جيش (كدرلعومر) البلدين انتقامًا وبطشًا، ليأخذ هو وحلفاؤه جميع أملاك أهل البلدين وجميع أطعمتهم ثم مضوا برؤوسٍ يرفعها خيلاء النصر والكبر، لكنهم لم يدركوا أنهم ارتكبوا أكبر حماقاتهم على الإطلاق حين أسروا ذلك النبي الصالح (لوط) ونهبوا أملاكه مع من نهبوا من غنائم وسبايا.

لم يُدركوا أن الخبر سيصل إلى عمه نبي الله (إبرام) الذي سمى (لوطًا) بهذا الاسم؛ لأن حبه (لاط) بقلبه؛ فتعلق به ولصق، وسيكون هذا سببًا كافيًا ليجهز (إبرام) جيشًا للذود عن ابن أخيه وفك أسره.

صحيح أن الأرض من قبل لم تحتل أن يسكن نبيان معًا خاصة أن أملاكهما كانت كثيرة، وحدثت مخاصمة بين رعاة مواشي (إبرام) ورعاة مواشي (لوط)، لكن العم وابن أخيه افترقا في رفقٍ حين قال (إبرام) إلى (لوط): "لا تكن مخاصمة بيني وبينك، وبين رعائي ورعاتك لأننا نحن إخوان.. أليست كل الأرض أمامك؟ اعتزل عني.. إن ذهب شمالًا فأنا يمينًا، وإن يمينًا فأنا شمالًا"، ومن يومها حدث الافتراق بشكلٍ راقٍ؛ حرصًا على المصلحة.

وظلَّ (إبراهيم) يناجي ربه ويتوسل إليه أن يمنع عذابه من أجل 35 نفسًا سالحة في القرية، بل من أجل 20، 25، 30، 10، وفي كل مرة يوافقه فيها الربُّ، يعجز خليل الرحمن أن يجد الرقم الذي توسل به واستشفع من أجله، حتَّى عاد (إبراهيم) وقد أدرك أنه لن يكون أرحم من إله الرحمة، وأن قرية قد خلت من 10 صالحين يدرأون عنها العذاب لهي تستحق عقاب الإله بلا أدنى شك.

هكذا اتجهت الملائكة نحو (سدوم)، لتلمحهم ابنتا (لوط) عند مشارف البلدة وتسالهم إحدى الفتاتين في توتر ارتسم على ملامحها حين لاحظت روعة هيئة الفرسان:

- ما شأنكم؟ ومن أين أقبلتم؟  
فأجابها (جبرائيل):

- جئنا من حبرون، ولدينا رحلة طويلة نود أن نأخذ خلالها قسطًا من الراحة في بلدتكم.

- لكن قريننا ملأى بالفواحش أيها السادة، سيفتك بكم أهل السوء.

- ألا يوجد بها أحدٌ من الصالحين؟

- بلى، إنه أبونا الشيخ لوط الجالس هناك.

وفي موضعه حيثُ يجلس (لوط) عند مدخل (سدوم) ليتحرى قدوم المسافرين والمحتاجين، وقع بصره على ابنتيه وهما تصطحبان ثلاثة أشباح تقترب، فنهض وتقدَّم إليهم فإذا بهم ثلاثة فرسان مُردِّ حَسَان، أشرقت وجوههم كبدر وضَاء في ليلة التمام، تفيض منهم رائحةٌ زكية، ويطل من أعينهم بريقٌ أَخَاذ يفتن من يقع عليه بالحب والهوى.

ثم بادرت إحدى ابنتيه بالحديث قائلة:

- يا أبت، إن هؤلاء السادة يريدون النزول في قريتنا للراحة .

تأمل (لوط) وجوه الرجال المُردِّ الحَسَان، فرأى خلف وضاحتها وحسن هيئتها نذير شؤم ووبالًا سيدفعون ثمنه ما بقي لهم من العمر على يد أهل قريته الجبارين الذين سيطأونهم بالإجبار ويذلون نواصيهم مثلما فعلوا مع سابقهم من البؤساء، فعقد (لوط) حاجبيه قائلاً وهو

تلك كانت أنباء قوم (لوط) الذين لم تعرف الموعظة والرحمة إلى قلوبهم أو عقولهم سبيلاً؛ إذ عادوا لآثامهم وجرمهم البشع بعد أن أنقذهم الإله وفك قيود العبودية الناشئة في أعناقهم، فردوا إليه الجميل بالمزيد من الدنس والنَّجس، حتَّى إنَّ (لوطًا) الذي سكن بيتًا يطل على الطَّرِيق -لاستقبال المسافرين الغرباء وعابري السبيل حتَّى يدعوهم إلى الله، ويساعدهم في غسل أرجلهم، والتزود بالقوت والماء، والمبيت في اللَّيالي المظلمة حتَّى يلوح الصُّباح- صار محرماً عليه ذلك بفعل المرسوم الملكي الذي منع مساعدة الفقراء، فبات يترقب مرور المحتاجين في الخفاء ليساعدهم في السَّر.

وقبل ليلة الحسم، أرسل الله (جبرائيل) ومعه ملكان آخران ليزورا (إبراهيم) أولاً في (بلوطات ممرا) بـ(حبرون) ليشروه بميلاد ابنه (إسحق) رغم أن زوجته (سارة) صارت عاقراً وبلغ منها الكبر عتياً، وعلم (إبراهيم) أن أمر الله قد نفذ في قوم (لوط)، فتساءل عن مصير ابن أخيه، وبعد أن تأكد أن (لوطًا) من الناجين طمع (إبراهيم) في أن يشفع عند ربه في باقي المقيمين في (سدوم)؛ عسى أن يكون من بينهم صالحون، وعند (بلوطات ممرا) دار الحوار بين الإله و(إبراهيم):

- أفتهلك البار مع الأثيم؟ عسى أن يكون خمسون باراً في المدينة.. أفتهلك المكان ولا تصفح عنه من أجل الخمسين باراً الذين فيه؟

- فأجابه الربُّ:

- "إن وجدت في سدوم خمسين باراً في المدينة فإني أصفح عن المكان كله من أجلهم".

ولما عجز (إبراهيم) عن حصر 50 صالحاً يقيمون في (سدوم) واصل شفاعته:

- ربما نقص الخمسون باراً خمسة، أتهلك كل المدينة بالخمسة؟  
"لا أهلك إن وجدت هناك خمسة وأربعين".

- عسى أن يوجد هناك أربعون.

"لا أفعل من أجل الأربعين".

يتطلع في وجوههم بنبرة تفيض بالضيق، وبكلماتٍ بطيئةٍ تُوحى بخطورة الأمر الجلل:

- ربه! هذا يوم عصيب.

- لِمَ أيها الشيخ؟

سأله (جبرائيل)، فأجابه (لوط):

- إن تلك القرى تنقضُّ على الغرباء انقراض السَّبَّاح على فرائسها من الغزلان الأليفة.

- وماذا عنك؟

- أنا رجل طاعن في السن.. لا أملك لكم سوى دعوتكم لتبيتوا في بيت عبدكم، وتغسلوا أرجلكم، ثم تبكروا وتذهبوا في طريقكم، لكن...

- كيفينا هذا أيها الرجل الصالح، فلا نملك سوى هذا الخيار.

ولما أشار (لوط) إلى ابنتيه لتجهيز البيت، قال (جبرائيل):

- لا، بل في السَّاحة نبيت.

لكنَّ (لوطاً) ألح عليهم بالمبيت في منزله إلحاح الكرماء، فمالوا إليه ودخلوا بيته، فصنع لهم ضيافة، وخبزًا، وفطيرًا، دون أن يدري أن امرأته الغابرة قد شاهدت الموقف، وعلمت أنه استضاف الغرباء وساعدهم، فذهبت إلى القوم وأنبأتهم بما فعل (لوط)، وأثناء وشايتها، أفرطت في وصف حُسن الرجال، وأسهبَت في تعديد حلاوة ملامحهم وقسماتهم، ووصف روعة أجسادهم، وطيب رائحتهم، فسأل لعابُ القوم وعزموا مواجهة ضيوف (لوط).

وأثناء جلوس (لوط) مع ضيوفه فوجئ بطرقاتٍ عنيفةٍ على باب داره:

- افتح يا لوط، وسلمنا ضيوفك تنأى بنفسك عن الشر وتنجو من الهلاك.

نظر (لوط) إلى ضيوفه وقال بارتياحٍ:

- امكثوا في أماكنكم أيها السَّادة، ولا تبرحوا الدَّار مهما حدث، عسى أن أصدَّ شرور قومي وأبعد عنكم الأنظار.

واتجه (لوط) بخطواتٍ ثقيلةٍ حائرةٍ نحوَ باب داره، قبل أن يفتحه ويغادر بيته ويغلق الباب خلفه بإحكامٍ قائلاً للحشد الهائل من الرجال الملتفين حول الدَّار في توسل:

- أيها القوم، هؤلاء الرجال ضيوفي، وأنا الذي ألح في استضافتهم، فلا شأن لكم بهم.. إن كنتم تريدون المواقعة خذوا بناقي تزوَّجوهن بالحلال، عسى الله أن يرحمكم ويتوب عليكم!

هتف فيه أحدهم بغضبٍ وتهكُّم:

- لا حاجة لنا ببناتك أيها الشيخ الخرف، فلتعطنا ضيوفك وتنجُ بنفسك أو تهلك بخرقك للمرسوم الملكي الذي حرم منع استضافة الغرباء وجعل الحرق عقابًا لمن لم يمتثل.

ومع الحرف الأخير للرجل انفتح بابُ الدَّار وامتدت يد (جبرائيل) لتجذب (لوطاً) إلى الدَّاخل، فهمَّ بعضهم بالانقضاض عليه، إلا أن يد (جبرائيل) لطمتهم على وجوههم فطمست أعينهم ومسحت موضعها تمامًا ليصبحوا أشبه بالمسوخ البَشَريَّة المرعبة، وكأنهم خُلِقوا بلا أعين، قبل أن تتألق الملائكة بنورٍ شديدٍ سطح بريق فاق احتمال أبصار الرجال ليصرخوا في ألمٍ بعد أن غشيتهم الأضواء الحارقة وفقدوا حاسة البصر وأصابهم العمى الجماعي، فيما اتسعت عينا (لوط) بذهول وقد انهزم قومه في لحظات، وأحاط به أنين الرجال وصرخاتهم التي انتشرت في كل مكان وهم يفرون متخبطي الخُطى والأجساد، قبل أن يتقدَّم نحوه (جبرائيل) بحزمٍ وثباتٍ ليقول بصرامة:

- نعم يا لوط، نحن ملائكة من ربك جئنا لننجيك بعد أن حَقَّت كلمته وحانت ساعة الوعيد.. خُذ بنيك وبناتك وأصهارك، وكل من لك في المدينة واخرج من هنا قبل هلاك المكان.. فقد عظم صراخهم أمام الرِّب فأرسلنا بالعذاب.

لكن من قال إن حل أزمت البَشَر ورفع الضَّر عنهم يتأتى بالنَّصيحة؟

خرج (لوط) بالفعل وكلم أصحابه المتزوجين من باقي بناته، وتوسل إليهم: "قوموا، اخرجوا من هذا المكان؛ لأن الرب مهلك المدينة الليلة لا محالة".

لكن كلماته تبددت في الهواء كقبض ريح إزاء تعنتهم وسخرتهم من غيبة رب لم يؤمنوا بوجوده، ولم يخشوا يوماً عقابه، فكان النبي المكذب من قومه كمازح في أعين أصحابه.

ولما طلع الفجر، وجّه (جبرائيل) تحذيره الأخير إلى (لوط):

- قم خذ ابنتيك الموجودتين لئلا تهلك بآثام المدينة.. ﴿فَاسْرِ بِأَهْلِكَ بِقُطْعِ مِّنَ اللَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلَّا امْرَأَتَكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ﴾<sup>(١)</sup>.

- امرأتي؟

نعم، لا تحذرهما عن النظر خلفها ودعها تأخذ عقابها مثل باقي قومك، فقد خانك لأنها مثلهم.. هيا.. اهرب لحياتك وانزح إلى الجبل، ومهما سمعت خلفك من صرخات واستغاثات فإياك أن تنظر وراءك أنت وابنتاك فهلكوا.. فما سيحدث من عذاب في قريبتكم مع مشرق الشمس سيفوق أي وصف، وسيخلده تاريخكم الذي سترويه الأجيال لآلاف من السنين.

وأشار (جبرائيل) نحو مدينة (صوغر) كملجأ وملاذ.

وفي جنح الظلام، أخذ (لوط) يهرول نحو الجبل بصحبة ابنتيه وزوجته..

ومن مكانه في السماء الأولى سمع الطيف الملائكي التوراتي تلك الصيحة العظيمة التي كانت بمثابة إشارة البدء لوقوع الهلاك بعد أن حانت ساعة الصفر، ثم شاهد سيده (جبرائيل) إمام السمايين وهو ينقض انقضاضته الأخيرة على الممالك الهايكة، ليهوى عليها من حلق بأجنحته الستمائة، قبل أن تخترق أجنحته أرض تلك البلاد لتصل إلى جذورها، ثم تقتلع أصولها من العروة السفلى ليطير بالبلدة ومن عليها بسرعة رهيبية

(١) سورة هود، الآية ١٨.

حتى وصل بها إلى السماء الأولى، ليسمع أهل السماء أصوات الديوك وضغاء الكلاب وصرخات البشر الهالكين في لحظاتهم الأخيرة، ثم حان دور باقي جنود (جبرائيل) من الملائكة حاملي أصوات الرعد وحطف البرق والصواعق العظيمة ليقوموا بدورهم، وأرسلت السماء انتقامها في صورة أمطار من سجيل، معبأة بالكبريت والنار، على كل حجر منها مكتوب اسم الشخص الموجه إليه ليهلكه، في الوقت الذي انطلقت فيه الآهات والصرخات، لتختلط بأصوت أخرى عالية جداً كادت تصم آذان (لوط) وابنتيه وقد دبّ الرعب في قلوبهم، إلى حد أنهم خشوا حتى من محاولة تخيل ما يحدث، وكان هذا كافياً لكي تهز امرأة (لوط) رأسها غير مصدقة أن عذاب الله قد وقع بالفعل.

كيف تُصدق وهي التي عاشت تسخر طوال عمرها من دعوات زوجها في الوقت الذي كانت فيه قلباً وقالباً مع باقي القوم المفسدين؟ كيف تؤمن أن ثمة عقاباً سماوياً يقع خلفها بالفعل؟ وماذا عن باقي قومها؟ هل سيهلكون حقاً؟ وكيف يكون شكل هذا العقاب؟ وعندما لاحت منها نظرة سريعة للخلف لم تكن تدري أنها النظرة الأخيرة، حتى إنها لم تلحق أن تستغفر أو تتوب وهي تتجمد في مكانها كتمثال من الملح ثم تذروها الرياح!

ثم قلب (جبرائيل) البلاد ليهوى بها لأسفل عائداً إلى الأرض وقد صار أسفلها أعلاها، وجرجم بعضهم على بعض وأتبع شذاذ القوم صخرًا منضودًا.

وفي مكانه، ظلّ الطيف الملائكي الوسيم يخفق بأجنحته بشدة، داعياً الله من أعماق أعماقه أن يتكرم عليه ويجعله من ملائكة العذاب وقد وجد في فعلة (جبرائيل) قدوة وغاية تمنى لو وافته الفرصة يوماً ليحذو حذوها مع المجرمين.

وعندما فرغ (جبرائيل) من مهمته وعاد إلى الملكوت، تطلع إليه الطيف التوراتي الأشبه بالشباب الوسيم بهابة وحب واحترام، قبل أن تهتز أوصاله حين التفت إليه إمام السماء وتلاقت الأعين، حتى إنه لم يُصدق



نفسه حينَ حُيِّلَ إليه أن عينيَّ (جبرائيل) قد نَدَّتْ منها ابتسامة سريعة، لكنها كانت تحمل معاني كثيرةً فاقت توقعاته وأمانيه.

\* \* \*

لم يصدق ملاك الرَّبِّ التُّوراني أن أمنيته تحققت أخيراً، حينَ أخبره رئيس طائفته أن (جبرائيل) قد سمع أمنيته، ورفعها إلى الإله طالباً إياه بالسماح له أن يضمه إلى جنده السَّماويين.

رغم احتقاره للكثير من صنيع البَشَر وأفعالهم الشائنة، فإنه كان يتعاطف معهم حينَ يرفعون أكفَّ الضراعة إلى السَّماء، ويتوسلون إلى القدوس بأسمائه وصفاته العُلا ليجيب أمني عزيمة فشل أمثالهم من البَشَر في تحقيقها، أو كان في إمكان الملوك والأكابر أن يلبوها لهم، لكنهم بخلوا عليهم في لحظات الأناية، والجشع، واستخفاف الإنسان بأخيه الإنسان، فلم يعد لهم إلا مجيب أوحد يركنون إليه في لحظات القهر واليأس لتعلو أصواتهم، وتنشخ حناجرهم، وتسيل الدَّموع الحزينة في لحظات الضعف والحاجة للمدد؛ أملاً في استجابة السَّماء وتدخلها، ثم يتجرعوا الحزن والألم حينَ يستبطنون الإجابة مع كل لحظة تعلق فيها الأمنيات بين السَّماء والأرض.

فقد جرَّب الملاك هذا الشَّعور طويلاً حينَ سهر ليالي لا حصر لها داعياً وراجياً أن يتحقق أمله ويصبح من ملائكة العذاب، وها هو يشترك مع بني (آدم) حينَ يصرخون من الفرحة لحظة الإجابة وتحقيق الأمني البعيدة، فيتقافزون كطفلٍ بريء أطلق لمشاعره العنان، ليشعر في هذه اللِّحظة بالتعاطف معهم في الوقت الذي صار فيه جندياً في ساحة الحرب عليهم وتوقيع العقاب إزاء ما اقترفت أيديهم، ويا لها من مُفارقة!

وهكذا أصبح الملاك التُّوراني جندياً مُخلصاً في زمرة جنود (جبرائيل)، وأبدي غاية سعادته عندما بدأ تنفيذ مهامه الجديدة.

\* \* \*

## (3)

### في العصر الحالي

في أحد الشُّوارع الرئيِّسة الفاخرة بمنطقة (مصر الجديدة)، شعر ملاك الرَّبِّ الوسيم أنه يسمع موسيقى ذات طابع روحاني ساحر، يخلب الأُفئدة والألباب بشكِّ يفوق روعة وجمال إبداعات فرق ERA و Enigma و Gregorian الغنائية التي كانت إبداعاتها تُشبه تلك الموسيقى إلى حدِّ بعيد، ليسير الشَّابُّ التُّوراني مرتدياً ملابسه الفضفاضة ناصعة البياض، ويعبر الشَّارع مهتماً بقراءة ورقة ذات لون ذهبي أنيق في يده دون أن يُبالي بالسَّيارات المسرعة التي تسيرُ في الطَّرِيق وتكاد تدهسه، حتَّى إن السَّيارات كانت تمرق على بُعد سنتيمتراتٍ معدودةٍ إلى جواره، دون أن يعترض قائدو السَّيارات أو يُطلقوا آلات التنبيه؛ لأنه ببساطة لم يكن مرئياً، قبل أن يصلَ الشَّابُّ إلى الرصيف الفاصل بين الاتجاهين المتضادين للطريق، ويتطلع من فوقه إلى بنايةٍ ضخمةٍ ذات واجهةٍ زجاجيةٍ أنيقةٍ في دورها الأرضي مطعم شهير تابع لإحدى الشَّركات العالمية، وكل دور منها يُقل شركة كبرى، ثم نظر الشَّابُّ التُّوراني لأعلى متابعاً سقالة هيدروليكية تقف في الدُّور العشرين من الخارج، ويقف عليها عاملٌ يقوم بتنظيف الواجهة، مرتدياً الزي الرسمي لعمال التَّنظافة المنوط بهم تنظيف المبنى. وفي مكانه، نظر الشَّابُّ الوسيم للحبل الحديدي الممسك بالسَّقالة، ثم راجع الورقة الذهبية التي في يده..

وفي تلك الأثناء على سطح البناية، حدث ماس كهربائي مفاجئ، واندلعت النيران لتمسك بالآلة التي تتحكم في السَّقالة، لتأكل النيران

ومن جانبه سار الشَّاب في شوارع وطرق متعددة في شتى بقاع الأرض، (نيويورك)، (بومباي)، (شنغهاي)، (طوكيو)، (استوكهولم)، (برلين)، (مارسيليا)، (بوخارست)، (مقديشو) وفي يده تلك الورقة الذهبية التي تحوي التكليف السَّماوي بإنقاذ البَشَر فقط مما لم يرد في صحائف أقدارهم،

لتتعدد المواقف التي يظهر فيها الشَّاب في اللُّحظات الأخيرة ويكون أداة نجاة إلهية لا تدركها الأبصار، وإنما تشعر بها الأرواح، وتحار حولها العقول، ثم تسجلها الذكريات والحكاوي في النهاية تحت بند "صدَّق أو لا تُصدَّق"!

\* \* \*

في مجمع الأديان بمنطقة "مصر القديمة"، حيثُ تتعانق اليهودية والمسيحية والإسلام في تلك البقعة الروحانية التي تذوب على أعتابها جميع الاختلافات، وتحتضن -دون قصد من البَشَر- بين أروقها طقوسًا مختلفة لثلاث ديانات سماوية تتجسد في معبد يهودي، وكنائس، ومسجد شاءت الأقدار أن يتجاورا، وقف الشَّاب النُّوراني الوسيم في وضح النَّهار خفيًا عن عيون الزائرين المتوافدين على المكان، مستغرِقًا في حالةٍ فريدةٍ من الروحانية والقدسية النابعة من امتزاج صوت الأذان برنين أجراس الكنائس وصوت بوق الشوفار اليهودي إيذانًا بإقامة الصلوات الثلاث.. كانت روحه الطاهرة شديدة التعلق بتلك البقعة المباركة، وكثيرًا ما تهبو إلى زيارتها والسبح في أجوائها ليضرب بأجنحته الهواء مُطلقًا نسائم الرحمة والقداسة وروائح المحبة على زوار المكان، فيغمض الجميع أعينهم ويأخذون نفسًا عميقًا مُحمَّلًا بعبق الملائكة التي لا تدركها الأعين لكن الأرواح والأنفس تستشعر وجودها، غير أنه جاء في هذه المرَّة لمهمةٍ جديدةٍ من مهامه المقدسة.

حام حول ما تبقى من حصن بابليون الروماني، قبل أن يُصت إلى ذلك المرشد السياحي الشَّاب الذي يصاحب مجموعةً من الشَّباب المصريين الذين حرصوا على زيارة تلك المنطقة المهمة في بلادهم

الجبل الحديدي للسقالة بينما لايزال العامل يقوم بتنظيف الواجهة الزجاجية دون أن يشعر هو أو أي إنسان آخر بما يحدث في السطح، إلا الشَّاب الوسيم الذي لمح النيران فابتسم، ثم نزل من الرصيف ووقف في منتصف الطَّرِيق الذي تسير فوقه السَّيارات المسرعة، ثم تحول من طيفٍ غير مرئي إلى هيئةٍ بشريةٍ ظاهرةٍ تجلت فجأةً أمام إحدى السَّيارات الملأى القادمة نحوَه لينتبه سائقها إلى الشَّاب الذي برز أمامه من العدم بغتة، فقام بتدوير عجلة القيادة إلى اليمين بسرعة في رد فعل تلقائي غير محسوب حتَّى يتفادى ذلك الغامض الذي برز من الفراغ، لكن انحرافاته المفاجئة كادت تصدم سيارة نقل ضخمة تُقل في صندوقها أطنانًا من الرَّمال، فانحرف سائق النقل بدوره بعيدًا عن السَّيارة الملأى التي كسرت عليه الطَّرِيق بشكلٍ مفاجئ، ليتفادها ويفقد السيطرة على سيارته المسرعة التي اتجهت نحوَ مدخل البناية في لحظة سقوط السقالة بعامل النظافة وهو يصرخ بفزع متمسكًا بالسقالة وعلى ملامح وجهه أعتى ملامح الهول والفزع.

وحين أخذ الزبائن الجالسون على الموائد المجاورة لواجهة المطعم الكائن في الدُّور الأرضي يتقافزون في هلع في نفس لحظة اختراق السَّيارة النقل لواجهة المكان الزجاجية وتدميرها تمامًا، استقر صندوق السَّيارة النقل المكشوف أسفل السقالة المُحلَّقة في الهواء قبل أن تسقط فوق الرَّمال ومعها عامل النظافة الذي اندفن جسده بفعل قوة السقطة، قبل أن يبرز بعدها بثوانٍ غارقًا في الرَّمال التي غطت هيئته ولامحه، ليضم إصبعي الإبهام والسبابة ويحركهما على صدره صانعًا صليبيًا وهميًا وشفثاه تمجدَّان (يسوع) في صمت، في الوقت الذي غادر فيه الشَّاب الوسيم مبتعدًا عن الأحداث وجموع البَشَر الذين التفوا حول الحادث، مكتفيًا بالتطلع إلى الورقة التي في يده ليقرأ مهمته الجديدة، بينما أخذ قائد السَّيارة الملأى يتلفت حول نفسه باحثًا عن الشَّاب الذي ظهر فجأةً أمام سيارته، فاحصًا وجوه كل المحيطين به دون جدوى!

لاستكشافها، بدلاً من الجهل بها مثل باقي المواطنين الذين لا يعرفونها حق المعرفة رغم مجيء السائحين إليها من كل أنحاء العالم.  
ووسط الجمع، أشار المرشد السياحي الشاب إلى سور الحصن قائلاً:

- نحن الآن في منطقة تاريخية نادرة الحدوث في العالم، تجمع بين آثار ودور عبادة إسلامية ومسيحية ويهودية، وتتجاوز كل هذه الدّور مع بعضها منذُ قرونٍ طويلةٍ؛ لتكون شاهداً على طبيعة مصر النادرة، وخصوصيتها الفريدة التي حباها بها الله تعالى كدليل على إمكانية تأخي الأديان والعقائد، ومعيشة معتنقيها جنباً إلى جنبٍ في سلام.  
يُحيط بالمنطقة -كما ترون- حصن بابليون الروماني، وهو الحصن الذي يُحيط جميع الكنائس، بالإضافة إلى المتحف القبطي والمعبد اليهودي، وعلى بُعد أمتار يقع مسجد عمرو بن العاص، أول مسجد بُني في مصر وإفريقيا، وابع مسجد بُني في الإسلام بعد مساجد المدينة المنورة والبصرة والكوفة.

أنشئ حصن بابليون الأشبه بالحصون الرومانية التي كانت في أوروبا وشمال إفريقيا على يد الإمبراطور الروماني تراجان عام 98 ميلادياً على نهر النيل عندما كان يمر من هنا، وأخذ اسمه من مدينةٍ مصريةٍ قديمةٍ مجاورة له وهي بابليون، واستعملت في بنائه أحجارٌ أُخذت من معابد فرعونية وأكملت بالطوب الأحمر، ويتميز هذا الموقع بأنه يتوسط مصر بين الوجه البحري والوجه القبلي؛ لذا تم بناء حصن بابليون به للحماية العسكرية الرومانية ليكون خط الدفاع الأول لبوابة مصر الشرقية، ومن خلاله يُحكّم الرومان السيطرة على أي ثورات تقوم ضد حُكمهم في الشمال أو الجنوب.

ثم تابع الشاب التوراني ببصره المرشد السياحي وهو يشير للشباب المصاحبين له فيتبعونه إلى حيثُ كنيس (بن عزرا) اليهودي، وعندما أصبحوا داخله تأمل الشاب التوراني أرجاء المعبد باللغة الروعة والبهاء، واستشعر اللذة الروحانية التي حملها عبق المكان، فيما أردف المرشد:

- يرجع تاريخ معبد (بن عزرا) إلى القرن الثامن قبل الميلاد حيثُ شيد لأول مرة، ثم تحوّل إلى كنيسة عُرفت باسم كنيسة الشّمعان، وظلّت هكذا حتّى القرن التاسع الميلادي حينَ أخذتها طائفةٌ من المسيحيين اسمها اليعقوبيون، وقاموا ببيعها بسبب ضائقةٍ ماليةٍ تعرّضت لها الكنيسة الأرثوذكسية نتيجة لزيادة الضرائب التي فرضت عليها وقتها، فكان المشتري هو الحاخام اليهودي إبراهيم بن عيزرا الذي قدم من القدس في فترة حكم أحمد بن طولون وحولها إلى معبدٍ يهودي يحمل اسمه إلى الآن، وهو أقدم وأكبر المعابد اليهودية الباقية في مصر، ويحوي مكتبةً ضخمةً تضم كُتُباً ودورياتٍ يهوديةً تؤرخ لوجود اليهود في مصر، وتعود أهمية المعبد إلى الاعتقاد السائد لدى اليهود بأن سيدنا موسى (عليه السّلام) كان يعبد الله في هذا المكان، وأنه دعا ربه بألا يعثّ كوارث أخرى على مصر، فهناك عدة عبارات على الشاهد الرخامي باللغة العبرية بوسط المعبد توضح ذلك.

قالها وترك الشاب يَمرون بأعينهم على الكلمات العبرية، وهم يتمنون التقاط صورٍ لها بهواتفهم المحمولة غير التصوير كان ممنوعاً للأسف، قبل أن يشير المرشد الشاب إلى منتصف المعبد ويستطرد قائلاً:  
- يتوسط المعبد أطلس سيدنا موسى (عليه السّلام)، وهو يُسمّى بصخرة المعجزة، وهو عبارةٌ عن شاهدٍ رخامي يحمل كتاباتٍ مُذهبةً، تشير إلى أن سيدنا موسى زار هذا المكان، وتعبّد فيه، بينما رُدّدت بعض الأقاويل بأنه مكان رسو الصندوق الذي كان به سيدنا موسى حينَ ألقته والدته في قاربٍ صغيرٍ لينجو من أمر فرعون بقتل الأطفال، كما نجد البيما وهو يُشبه المنبر المخصص لخطبة الإمام عند المسلمين لكنه مصنوعٌ من الرخام، وكان يصعد عليه الحاخام لإلقاء الخطبة وقراءة أسفار التّوراة، كما يوجد بالمعبد الجنيزة التي يُحفظ فيها التّوراة، وكذلك المينوارة، وهي الشمعدان ذو الأفرع السبعة، وترمز إلى أسباط اليهود وأيام الأسبوع السبعة، بخلاف الشمعدان السداسي الذي يرمز إلى الأيام التي خلق فيها الله السّماء والأرض، والشمعدان ذي الأفرع التسعة التي ترمز لعيد حانوقا أحد الأعياد اليهودية، وينبع جمال المعبد في الثراء

المعماري الداخلي له الذي يُحاكي ثلاثة طرز؛ منها الإسلامية والتي تتجسد في تصميمات نوافذه والرسوم الموجودة على الجدران، ثم الطراز الكنائسي المتمثل في الأعمدة الاثني عشر، والتي ترمز لتلاميذ السيد المسيح، إضافة إلى الأجواء اليهودية كنجمة داود والهيكل، والنقوش التي تحوي الوصايا العشر.

بعد وصف المعبد اليهودي، انتظر المرشد دقائق قليلة مسح فيها بعض الشباب أرجاء المعبد وفي أعينهم الدهشة والانبهار، في الوقت الذي جاء فيه وفدٌ سياحي أجنبي من خارج المكان، ثم غادر الشباب ومرشدهم المكان دون أن يشعروا بملاك الرب وهو يسير معهم حين اتجهوا ميمًا حيث تقع كنيسة القديسة (بربارة) ذات الطراز البازيلكي، وهو الطراز المتبع في الكنائس القديمة، بسقفها المصمم على شكل سفينة نوح، وقد سُميت بذلك تيمناً بسيدة كانت من أسرة وثنية ثرية، وبعد أن اعتنقت الدين المسيحي على يد العالم المصري (أوريغانس) غضب عليها والدها وعذبها حتى الموت، ليشرح المرشد تفاصيل الكنيسة ثم يُغادرها متوجّهاً إلى وسط الحصن الروماني حيث كنيسة (أبي سرجة) التي نزل إليها المرشد والفوج المصاحب له بواسطة درجات من السلام الحجرية يتقدمها سياجٌ حديدي قائلاً:

- والآن أنتم في حضرة المكان الذي أقامت به العائلة المقدسة، هرباً من وجه هيرودوس ملك اليهود الذي أمر بقتل جميع أطفال بيت لحم وفقاً لإنجيل متى.. فَبَعْدَمَا وُلِدَ يَسُوعُ فِي بَيْتِ لَحْمِ الْوَأَقَعَةِ فِي الْمُنْطَقَةِ الْيَهُودِيَّةِ بَعْدَ الْمَلِكِ هِيرُودُسَ، جَاءَ إِلَى أُورَشَلِيمَ بَعْضُ الْمَجُوسِ الْقَادِمِينَ مِنَ الشَّرْقِ يَسْأَلُونَ: أَيْنَ هُوَ الْمَوْلُودُ مَلِكِ الْيَهُودِ؟ فَقَدَّ رَأْيُنَا نَجْمَهُ طَالِعًا فِي الشَّرْقِ، فَحِثْنَا لِنَسْجُدَ لَهُ. وَلَمَّا سَمِعَ الْمَلِكُ هِيرُودُسُ بِذَلِكَ، اضْطَرَبَ وَاضْطَرَبَتْ مَعَهُ أُورَشَلِيمُ كُلُّهَا، فَجَمَعَ إِلَيْهِ رُؤَسَاءَ كَهَنَةِ الْيَهُودِ وَكَتَبَتْهُمْ جَمِيعًا، وَاسْتَفْسَرَ مِنْهُمْ أَيْنَ يُؤَلَدُ الْمَسِيحُ. فَأَجَابُوهُ: " فِي بَيْتِ لَحْمٍ بِالْيَهُودِيَّةِ "، فَاسْتَدْعَى هِيرُودُسُ الْمَجُوسَ سِرًّا، وَتَحَقَّقَ مِنْهُمْ زَمَنَ ظُهُورِ النُّجْمِ، ثُمَّ أَرْسَلَهُمْ إِلَى بَيْتِ لَحْمٍ وَقَالَ: " اذْهَبُوا وَابْحَثُوا جَيِّدًا عَنِ الصَّبِيِّ. وَعِنْدَمَا تَجِدُونَهُ أَحْبِرُونِي، لِأَذْهَبَ أَنَا أَيْضًا وَأَسْجُدَ لَهُ ". فَلَمَّا

سَمِعُوا مَا قَالَهُ الْمَلِكُ، مَضَوْا فِي سَبِيلِهِمْ. وَإِذَا النُّجْمُ الَّذِي سَبَقَ أَنْ رَأَوْهُ فِي الشَّرْقِ يَتَقَدَّمُهُمْ حَتَّى جَاءَ وَتَوَقَّفَ فَوْقَ الْمَكَانِ الَّذِي كَانَ الصَّبِيُّ فِيهِ. فَلَمَّا رَأَوْا النُّجْمَ فَرَحُوا فَرَحًا عَظِيمًا جَدًّا؛ وَدَخَلُوا الْبَيْتَ فَوَجَدُوا الصَّبِيَّ مَعَ أُمِّهِ مَرْبَمَ. فَجَنَّتُوا وَسَجَدُوا لَهُ، ثُمَّ فَتَحُوا كُنُوزَهُمْ وَقَدَّمُوا لَهُ هَدَايَا: ذَهَبًا وَبَخُورًا وَمُرًّا، ثُمَّ أُوحِيَ إِلَيْهِمْ فِي حُلْمٍ أَلَّا يَرْجِعُوا إِلَى هِيرُودُسَ، فَأَنْصَرَفُوا إِلَى بِلَادِهِمْ فِي طَرِيقٍ أُخْرَى، وَبَعْدَمَا أَنْصَرَفَ الْمَجُوسُ، إِذَا مَلَكَ مِنَ الرَّبِّ قَدْ ظَهَرَ لِيُوسُفَ فِي حُلْمٍ، وَقَالَ لَهُ: " قُمْ وَاهْرُبْ بِالصَّبِيِّ وَأُمِّهِ إِلَى مِصْرَ، وَابْقَ فِيهَا إِلَى أَنْ أَمْرَكَ بِالرُّجُوعِ، فَإِنَّ هِيرُودُسَ سَيَبْحَثُ عَنِ الصَّبِيِّ لِيَقْتُلَهُ ".

وهكذا فرّت السيدة مريم العذراء مع ابنها المسيح إلى مصر، ورافقها هي ومسيحها في رحلتها القديس يوسف النجار ونفرٌ من الملائكة، وحين جاءوا إلى مصر أقاموا في المغارة المقدسة الموجودة أسفل هذه الكنيسة، وكما تشاهدون يحتوي المكان على عدة أيقونات ترجع للقرنين الخامس عشر والسادس عشر الميلاديّين، منها صور لميلاد المسيح، والقديسين ديمتريوس ومار جرجس، وصورة العشاء الأخير.

ارتسمت الدهشة والذهول على الوجوه، وشعر الشباب على اختلاف دياناتهم بحالةٍ عجيبةٍ من العشق والمحبة، حتى إن أذانهم استشعرت ترانيم الحواريين وأناشيد الملائكة وغناء شعب الكنيسة في الليالي المباركة، بينما واصل المرشد:

- وترجع تسمية الكنيسة إلى اسم قديسين لهما شهرة في تاريخ الاستشهاد الديني المسيحي، وهما سرجيوس وواخيس، كما توجد بئر المياه المقدسة بين ملحقات الكنيسة؛ حيث شربت منه العائلة المقدسة، ولا تزال مياهه المباركة تفيض حتى الآن.

وعلى بُعد أمتارٍ قليلةٍ من كنيسة (أبي سرجة)، سار المرشد متقدماً الفوج المرافق وهو يواصل الشرح مشيراً إلى الكنيسة المعلقة:

- والآن، ها هي ذي الكنيسة المعلقة التي تُعرف باسم كنيسة العذراء، وهي من أعظم كنائس حصن بابليون، وسُميت المعلقة؛ لأنها





قالها من خلفه صوتٌ عميقٌ تملأ الثقة والرزانة نبراته، ليلتفت الشَّابُّ التُّوراني إلى القائل الذي ميَّز هويته وفعلا كان هو..

رجلٌ يبدو وكأنَّ النور يشع من وجهه وعينيَّه. يرتدي ملابس بيضاء فضفاضةً واسعةً، أكثر بريقًا من التي يرتديها الشَّابُّ التُّوراني، ليتضح من تحتها جسده الفارع الضخم الذي زاد من هيئته، وقد بدا في مكانةٍ أرقى وأعلى من مكانة الشَّابُّ الذي تأمل ملامحه في مهابة واحترام، قبل أن يقول باحترام وتبجيل وهو يصوبُ عينيَّه إلى الأرض:

- شكرًا سيدي، ما فعلت إلا ما كُلفتُ به.

ثم أخرج الشَّابُّ التُّوراني من طياته تلك الورقة الذهبية التي انتهى من تنفيذ تكليفاتها؛ ليناولها إلى رئيسه الذي التقطها منه وهو يتأمله ثواني أطال فيها التَّنظر وهو يمسه مسحًا، قبل أن يسأله:

- كيف حال أهل الأرض؟

أرسل الشَّابُّ التُّوراني نظره إلى حيثُ لسان النار الذي وصل إليه رجال الإطفاء ويحاولون إخماده، فيما فرضت قوات الأمن كردونًا وهم يخلون المكان من البشر، ثم أجاب بلهجة بدت ناقمةً رغمًا عنه:

- كما ترى يا سيدي.. يقول بنو آدم أحيانًا إن الصورة قد تُغني عن ألف كلمة، وهم في ذلك محقون.. حتَّى الأماكن المقدسة يطردون منها بركات الرِّبِّ بالدنس والرجز، وأخشى من ذلك اليوم الذي لن يعود في الأرض شبرٌ واحدٌ يصلح لبقائنا فيه.

ثم احتدت كلماته كسيفٍ صارمٍ وهو يُردف:

- هؤلاء بني آدم من أغرب مخلوقات الله، لديهم العقل القادر على التمييز بين الصواب والخطأ، لكنهم يعيشون السباحة ضد التيار.. يذهبون إلى البؤس والشقاء في طرقٍ وعرةٍ مظلمةٍ، يسرون فيها حُفاهةً على الأشواك بمحض إرادتهم وأمام أعينهم طرقٍ أخرى ممهدة بنعومة الحرير، وفي نهاياتها يسطح الصَّيَاء.

لا تملأ الكنوز أعينهم ما دامت في أياديهم، ويعشقون السير في جنح الليل للبحث عن اللمم والصغائر ذات الروائح العفنة التي تزكم الأنوف، ورغم ذلك يبذلون من أجلها الغالي والرخيص.

عقولهم تستصعب السهل، ورغباتهم وشهواتهم مغناطيس لا يجذب إلا لما هو وضيع، وأينما يحل الخطأ والخطيئة يحتشدوا. وعلى الرغم من أن الله تبارك وتعالى جعل لهم كونه الفسيح آياتٍ محكماتٍ ليتدبروا ويتأملوا، فإنهم يُحجمون عن المعرفة والتأمل، وينغمسون في المجهل والممذات الزائلة، صانعين من أنفسهم آية لقومنا تزيدنا هُدى على هدى، وتجري على ألسنتنا المحامد والمشاكر على أننا لم نُخلَق من نسل آدمهم.

لقد خُلِقوا للتعاسة والشقاء، وجعلوا من الألم صنمًا يعبدونه من أجل

الفوز بجنةٍ تجري من تحتها الدَّموع!

ابتسم رئيسه وهو يناوله ورقةً ذهبيةً جديدةً قائلاً:

- هذه طبيعتهم التي جُبلوا عليها، مُنذُ أن عرض الله الأمانة على السَّماوات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان الظُّلوم الجهول.

تسلم الملاك التُّوراني الورقة واستطرد قائلاً:

- مع كل مرّة أؤدي فيها مهمةً جديدةً يزداد يقيني بأنني كنتُ على صوابٍ حينَ قلتُ مع مَنْ قالوا: ﴿أَنْجِعْ فِيهَا مَنْ يَفْسُدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ.. وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾<sup>١</sup> رفع رئيسه سبابته بحزمٍ وصرامةٍ مستطردًا:

- ﴿قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾.. لا تنس إجابة الرحمن حينها.

في لهجةٍ أقرب للتحدي قال الشَّابُّ التُّوراني:

- لكن هذا لا يمنع أنه قد شرع لنا السؤال؛ لذا أتساءل طوال الوقت: كيف يصبرُ الرِّبُّ على كل خطاياهم وذنوبهم التي تفاقمت وتخطت كباثر الأمم التي أهلكتها من قبل؟ إنه لا يصبر عليهم فحسب؛ بل يسخرُ نفرًا منا لحمايتهم وإنقاذهم رغم كل الجرائم والآثام والذنوب

والحروب التي لا تتوقف بينهم.. لماذا أهلكنا من كانوا هم أقل منهم في الخطايا إذن؟

عادت الابتسامة لتماماً ملامح رئيسه وهو يُجيبه:

- دعوت الله أن تكونَ من ملائكة العذاب وشفع لك جبرائيل فكنت، ودعوته أن يجعلك من الحفظة واستجاب.. وفي الحالتين لا أراك إلا ناقماً.

سرح الشَّاب الوسيم في الكلام، وحاترت على شفتيه الكلمات للحظاتٍ، ثم قال ببطءٍ ممزوجٍ بالحزن:

- ليتني ظلمت أعدبهم ولم أتعاطف معهم.. مع كل واقعة عذاب كنت أظن أن الهول الذي أسوقه إليهم سيكون عبرةً رادعةً لكل من تُسَوَّل له نفسه في الأزمان التالية، لكنهم كانوا يزدادون فسقاً وفجوراً عصرًا بعد عصر.

تعلمت من المسيح ومحمد التسامح والمعذرة يا سيدي، لكن أتباعهما علَّموني كيف يكون الندم.

اتسعت ابتسامه الرجل وهو يتأمل الورقة الجديدة التي سلمها للشاب قائلاً:

- ربما أدركت في مهمتك الجديدة أمورًا ما زلت لا تُدرِكها بعد كل تلك السنين التي عشتها بينهم.

استيقظ انتباه الشاب ففضَّ ورقته وأخذ يقرؤها باهتمامٍ وتركيز، قبل أن تتسع عيناه في دهشةٍ عارمةٍ وهو يرفع وجهه وينظر للرجل بذهولٍ وتساؤلٍ دون أن يتكلم، فابتسم الرجل وأغمض عينيه لحظةً أوماً فيها برأسه ليقر بأمرٍ واقعٍ لا مفر منه، قبل أن يرفع رأسه وهو يفتح عينيه ويقول بهدوئه وحكمته الوقور:

- لفترة من الزمن ستعيش حياة البشر.. ربما ظلمت داخلك ملامح من علومنا وقدراتنا.. لكن بما يفيد ذلك حين تُغرَس داخلك الشهوة والغضب والقدرة على المعصية.. باختصار، ستحيا بينهم كأنك واحدٌ منهم.

رد عليه الشاب الوسيم بحزم:

- حاشا لله أن أكون منهم أو مثلهم.

فأعقب رئيسه بابتسامه غامضة دون أن ينبس ببنت شفة، بينما غزا التَّحدي نبرات الشَّاب وهو ينظر إلى اللاشيء دون أن يدري إن كان يُحدث رئيسه أم يُحدث نفسه حين قال:

- أولاد آدم قالوا علينا لا نخطئ لأننا جُبلنا من نورٍ ولا نملك رفاهية الخطيئة والمعصية، فحمدًا لله الذي أتاح لي الفرصة التي سأثبت بها أننا ما كنا لنقع في مستنقع الخطيئة الذي سقطوا فيه حتَّى لو كان الابتلاء في أن نسجن مثلهم في أجساد صلصالية مليئة بشهوات الغضب والرغبة.. إلا أن التَّوتر والقلق سرَّيا في أوصاله، وهو يتساءل:

- تُرى ما موعد التنفيذ؟ ومتى سأعود؟

رفع الرجل رأسه ببطءٍ ناظرًا نحو السَّماء، ليحذو الشاب الوسيم حذوه، قبل أن ينخفض رأسهما، وتتلاقى عيونهما، ويتبادلا النُّظر في ترقبٍ وصمتٍ..

وقبل الانسلاخ عن حقيقته الملائكية ونسيان ماضيه الذي قارب عمر الزَّمن، عاد ملاك الرِّب ليتذكر رحلته الطويلة مع بني الإنسان.

\* \* \*



النفوذ والسلطان؛ ليجنوا خيرات الشعوب المُعَدّمة، وينعموا بالمزيد من المغنم والكنوز.

ميزان القوى في ذلك الوقت كانت تتصارع على كفتيه 4 ممالك: المملكة الجنوبية (يهوذا) وعاصمتها (أورشليم)؛ والمملكة الشمالية وعاصمتها (إسرائيل)، وكانت تتبع إمبراطورية (آشور) بعد أن اجتاحتها ودمرها الملك (سنحاريب) بجيوشه الجرارة، بخلاف (مصر)، و(بابل).

وحين حاصر جيش الملك (سنحاريب) الوثني مملكة (يهوذا) وأراد إخضاع أهلها له وإجبارهم على عبادة أوثانه، أرسل مع رسله رسالة يسخر فيها من الله قيوم السماوات، وقدوس الجنود الذي يعبده أهل البلدة، فأخذ (حزقيا) ملك (يهوذا) رسالة (سنحاريب) ثم صعد إلى هيكل (سليمان)، وهناك مزق ثيابه، ولبس المسوح ليستشعر الدّل والخضوع لربه، وبعث رُسلًا إلى نبي الله (إشعيا)، أخبروه بأن الملك يطلب منه الصّلاة من أجله ومن أجل تمجيد اسم الرّب في تلك اللحظات العصيبة التي تسبق مواجهة جيش لا قبل لهم به، ونشر الملك (حزقيا) رسالة (سنحاريب) السّاخرة المستهزئة من الرّب في الهيكل، ثم صلى طلبًا للمدد في اللحظات الأخيرة قبل قدوم الهلاك.

وحين أخلص (حزقيا) في صلاته، وسقطت الحواجز المادية واختبأت روحه الخائفة في روح الله، جاءت إجابة السّماء سريعًا، وأوحى الله إلى (إشعيا):

- أني سمعتُ دعاء حزقيا، فامض إليه وقل له: يقول لك الرّب إله إسرائيل اللّيلة سينجيك من سنحاريب.

وفي السّماء، استقبل الملك النّوراني الوسيم مهمته الجديدة تجاه جيش (سنحاريب)..

"لقد تناول صاحب الملوك الزائل والقلب البائس على قيوم الوجود، وباعث الكون من العدم.. لا يستحق سوى إشارة خفية تتجلى فيها حقيقة جيشه الضعيف على يد ضربة من أحد جنود الرّب الأرقى من عقاب هذا الفاني بيده.. اللّيلة يُدرك الفارق بين إله إسرائيل وألّهة ظن

## (4)

حضر ملاك الرّب واقعة غرق فرعون (موسى) وجنوده، حين شقت عصا (موسى) البحر وعبر كلّم الله وأتباعه بخير، قبل أن يقع فرعون وجنده في الفخ الإلهي حين عاد البحر إلى طبيعته وغشت أمواجه فرعون وجنوده، ليتلقوا في لحظات الغرق والنزع الأخير انتقام ملائكة العذاب وبطشهم.

(جبرائيل) تولّى أمر فرعون، بينما انطلق الشّاب الملائكي يبطش ويدمر الجند الهالكين في عرض البحر، بعد أن عبدوا فرعونهم من دون الله، واستبدلوا عبادة الخالق بعبادة المخلوق أملاً في مُلك زائل، وخيرات لن تدوم.

حضر أعتى المواقف في تاريخ الجنس البشري، وكان في كثير من الأحيان عنصرًا فعالًا وسلاحًا غليظًا من أدوات انتقام الرّب.

وبعد أن حضر وقائع عديدة انتصر فيها مع أقرانه من الملائكة لكلمة الحق، وفتكوا بأعداء الرّب وأعداء أنبيائه وأوليائه، لم يصدق الملاك النّوراني الجميل نفسه وهو يتلقى أول مهمة يُوكّل بها وحده.. وكانت تلك المهمة ضد جيش (سنحاريب)<sup>(1)</sup>.

كان هذا في أيام غابرة بالقرن الثامن قبل الميلاد، تنازعت فيها السلاطين الملوك، وخاضوا حروب السّيطرة والإذعان أملاً في السّيادة وتوسع

(1) سنحاريب: هو ابن الملك سرجون حاكم مملكة (آشور)، وقائد جيوشه، قبل أن يتولى الحكم بعد مقتل أبيه، ليصبح أحد أقوى ملوك (آشور) عبر التاريخ، وكان ملكًا وثنيًا لا يؤمن بالله، وعُرف عنه قوته وجبروته الذي هدد الأمم والممالك المجاورة له؛ نظرًا لجيوشه الجرارة، وقدرته على غزو البلاد وبسط سلطانه عليها وإخماد أي ثورات ضده.

أنه سحقها وتسيّد على أتباعها في حروبه السابقة ضد أمم وثنية مثله.. فليهلك جيشه، وينكسر عرشه، ويبقى في عين العبيد مثلهم وحيّدًا شريّدًا ما بقي له من العمر، بلا جنود أو سلطان".

لا يهم من القائل؛ فقد أُلقيت تلك الكلمات إلى الشاب التوراني في عالم المعاني؛ حيث يصل المراد إلى الذات بلا لغة أو وسيط، فيصبح يقينًا في القلب واجب التنفيذ..

وسهر جنود (سنحاريب) في تلك الليلة الليلية يسكرون ويُعربدون في حصار قوي ومُحكّم حول المدينة المقدسة (أورشليم) في مملكة (يهودا) الحبيسة بين المطرقة والسندان، ليقهقوها على نكاتٍ رخيصة، ويتفاحروا بما سيصنعونه في تلك المملكة المقدسة بعد اقتحامها، قبل أن تهب عليهم عاصفةٌ رهيبَةٌ، ويدوي صوتٌ هائل اخترق آذانهم، ثم حدثت مفاجأة عظيمة ظنوا وهم يُشاهدونها أنها حتمًا مجرد خيال بعدما تلاعبت الخمر برؤوسهم!

فقد أنارت السماء بوجه ملاك الرب الذي ملأ صفحتها الواسعة، لينظر الجنود إلى أعلى وقد وجلت قلوبهم وانتفضت أجسادهم المذعورة التي فقدت القدرة على الحركة ليبقوا في أماكنهم كعجزة عديمي الحراك، ثم هبط عليهم الطيف التوراني في هيئته وحجمه الحقيقي ليخفق بأجنحته الستة، وتطير مع عاصفته الشديدة دروعهم وأسلحتهم والخوذ التي يعتمرونها، ليعبث الهواء بشعر رؤوسهم ويرسم بقوة حركته موجاتٍ على ملامح وجوههم البائسة التي كاد جلدها يفصل عن الجماجم من شدة الرياح، فيما اختلط بصوت العاصفة أصوات صراخهم وهم يتطلعون إليه في هول وهلع بعيون متسعة، فيما ألقى ملاك الرب كلماته ببطء وصوت عميق اخترق الحواس، ووقر في القلوب، بينما لا تزال صفافير العاصفة تضرب مواضع السمع عند الجنود وتعمل كخلفيةٍ للحديث الدائر من طرف واحد:

– الآن تنكشف عن أعينكم الحُجُب بعد أن أینع الحصاد لأعماركم الفانية التي استخدمتموها في مبارزة الرب بحثًا عن مجدٍ زائف، وخيراتٍ

لم تنلها يدُ الإنس إلا بأمره، فمن يدرأ عنكم النهاية ويحول بينكم وبين مصيركم البائس وأنتم على مشارف اللحاق بمن سبقوكم إلى الجحيم؟ قالها وهو يلقي حفنة من التراب أخذتها العاصفة ونثرتها في الهواء لتلتقطها أنفاسهم المتسارعة، دون أن يدركوا أن تلك الحفنة لا تحوي إلا وباءً فتاكًا قرر الرب إرساله مع جندي واحد فقط من جنوده؛ لتدرك الأمم الفارق بين جنود الطغاة وجندي واحد من أهل السماء.

وفي لحظاتٍ معدودةٍ تفتت الحمى في أجساد الجنود، لتنتشر فيها السخونة الشديدة، في الوقت الذي أخذوا يُخرجون فيه ما في أجوافهم مع القيء الشديد الذي اعتصر أمعاءهم وأخرج كل ما فيها دون أن يُبقي حتى على العصارة الهضمية الصفراء؛ لتخيم على المكان الروائح القذرة، وتخور الأجساد العتية وتنهار كثورٍ مذبوحٍ ترتعد فرائصه في لحظات الاحتضار.

ومع حلول الصبح اقتحم قائد حرس الملك خيمة (سنحاريب) ليصيح فيه مذعورًا:

– النجدة يا سيدي!

عقد (سنحاريب) حاجبيه وتساءل في توترٍ سرى في جسده مع ملامح الرجل ونبرته المرتعدة:

– ماذا هناك؟

– لقد... لقد صرع ملاك الرب 185 ألف جندي من جنودنا وصرنا كشمعةٍ في مهب الريح على أبواب أورشليم.. حتى قائد الجيوش نفسه هلك مع من هلكوا.

– هل أصابك مسٌ من الجنون يا رجل؟ عن أي ملاك تتحدث؟

– إنها الكلمات الأخيرة التي استخلصتها من آخر جندي فارق الحياة.. فلتصحبني إلى الخارج وتُعاین المشهد بنفسك سيدي.. رجالنا يفتشون الأرض وكأنه حقل من العظايا.. لم يعد هناك جيش نشير به الرعب في قلوب الأمم، وسرعان ما سينتشر الخبر لنصبح فريسة الممالك المحدقة بنا وتأهب للانتقام مما فعلناه بهم في الأمس.

وهنا، جاء دور (إشعيا) الذي صار في الثمانين من عمره، ووهنت عظامه واشتعل الرأس منه شيبًا، لكن الكهولة وخوار قوة الجسد ما كانت لتحول نبيا عن التراجع عما كُلف به من الرب، فجاءت لحظة الصدام بين (إشعيا) و(منسي) لتنتهي بأغرب وأسرع مما توقعه البشر في لحظة استشهاد (إشعيا) حين أمر (منسي) بنشر جسده العجوز البالي على جذع شجرة، لتودع (أورشليم) أعظم أنبياء العهد القديم قاطبة، ويفتقد أهلها أعظم من تفوه لسانه بكلمات ليست كالكلمات، ومفردات وبلاغة كانت تنفذ إلى العقول والقلوب عبر تعاليم الإله التي صاغها في أشعار عبرية راقية مُعجزة؛ ليكون نبيا بدرجة أديب؛ ومستشارا سياسيا، ومصالحا اجتماعيا، اجتمعت فيه الحكمة، والبلاغة، والحنكة السياسية، وقارنا لصفحة الغيب بأمر ربه، فتنبأ في سفر نبوءاته بوقائع وأحداث كان ذكرها كفيلا بتحقيقها حرفيا مهما طالَت الأيام ومضت السنون، حتى حقت كلمة الله على شعب (أورشليم) حين قست قلوبهم وكفروا بنعم الرب وخالفوا تعاليمه ووصاياه، فاجتاح (نبوخذ نصر) ملك (بابل) بجيشه الهائل أرض المدينة، وساق الشعب والأسرة الحاكمة عبيداً وجواري إلى (بابل)، لتتحقق نبوءة (إشعيا) حين حذر (حزقيا) مما سيفعله البابليون بشعب (أورشليم) ذات يوم، وتبقت في الأفق نبوءة انتظرتها البشرية طويلا حول ميلاد السيد المسيح المنتظر.

ومع استشهاد (إشعيا) بكى الملاك النوراني كما لم يبك من قبل..

بلغ غضبه آفاق الكون دون أن يملك التنفيس عن الجحيم المستعر في أعماقه، وتمنى لو فعل ما فعله (جبرائيل) بقوم (لوط) حين نسف القرى من أعماقها وقلبها رأسا على عقب، لكن وحي الله هداً من روعه وثبت جناحه حين ألقى المعاني في قلبه أن تكريم الصالحين ليس شرطاً أن يكون دائماً بنصرهم وسحق الأعداء، وأن ظلم بعضهم وقتله يكون أحياناً أرقى من الانتصار، ليبقوا في الأسفار والمزامير والصحف آيات مضيئة للبشر في مسار الزمن الحالك؛ حتى يعلموا المؤمنين الصبر والثبات، ويحل بظلمهم وقتلهم على الأمم ما تستحق، فتصل لأسلافهم كدروسٍ تحتاج البشرية

وحيث ذهب (سنحاريب) مع قائد حرسه إلى حيث لقي الجيش حتفه، أدرك متأخراً أن لـ(أورشليم) رباً يحميها بحق، ليلقي سؤالاً يائساً في لحظة الانكسار: إلى أين أهرب وقد بارزت إلها ظننته أكذوبةً من صنع الملوك فإذا به حقيقي ويقف في صف أعدائي؟

لكن (سنحاريب) لم يتلق الإجابة وقتها، حتى رحل مع من بقي لديه من رجال، يجرون خلفهم أذيال الخيبة والعار، ليمضي ما بقي من عمره ذليلاً مكسوراً، ثم أدرك الإجابة فقط وهو يقتل على يد ابنه (ندين) الذي تحالف مع أعداء أبيه مقابل أن يجلس على العرش!

وفي (أورشليم) احتفل (حزقيا) مع (إشعيا) النبي وباقي الجموع بتحقيق الرب لكلمته، وتنفيذ وعده، وأعطى الله لـ(حزقيا) علامة مجيدة لينزع عنه الرعب من المصاعب التي حلت عليه بسبب غزو (سنحاريب)، فكان العدو قد استولى على الحصاد حتى لم تبق بذور للزرع، الأمر الذي يقود إلى حدوث مجاعة أو على الأقل عجز في الطعام، فإذا بالزرع يخرج في تلك السنة دون حاجة إلى بذور، وهكذا في السنة التالية، وفي السنة الثالثة استرد الشعب طاقته، وعادت الأرض إلى ناموس الرب الذي عطله عامين خرق فيهما الطبيعة من أجل من آمنوا به واختبأوا في ذاته، وكان الله يعمل معهم عجبا ما داموا عاجزين وإمكاناتهم معدمة، فلما صاروا في وضعهم الطبيعي عاد لكل شيء نصابه الصحيح.

لكن الأمور ما كانت لتسير في الأرض على نسقٍ واحدٍ مهما طال الزمن، ليموت (حزقيا) ويخلفه ابنه (منسي) وهو ابن 12 عاماً، دون أن يشتد ساعده، أو يمهله القدر لينهل من حكمة أبيه، وقوته، وتعليمه، وإرشاده، فتزعزت عقليته وتلوثت بهيلمان الملك حيث لم يشرب السلطة بشكلٍ صحيح، فسار (منسي) في الاتجاه المضاد لأبيه على طول الخط، فما بناه الأب هدمه الابن، وما هدمه الأب بناه الابن، وما رآه الأب حكمة رآه الابن الجهالة بعينها، حتى ارمى في أحضان الأوثان مجدداً، وفجر ونكص على عقبيه في عكس اتجاه تعاليم ووصايا الإله.

إلى أن تتعلمها من الظلم، كنفس حاجتهم للدروس المستفادة من العدالة وانتصار الحق!

وبعيداً عن وقائع لم تذكرها التوراة، ولا الأسفار، ولا المصاحف، ولا الأناجيل، هبط الطيف التوراني في وقائع ومواقف كثيرة للانتقام والردع بكل حزم وصرامة.. بعضها كان انتقاماً لأنبياء ورسل قتلهم بنو إسرائيل ودُفنت معهم قصصهم في قبر التاريخ الخفي الذي لم تصل إليه علوم بني (آدم) ولا أسمعهم، والبعض الثاني في مواقف إنسانية لبشر عاديين تعرّضوا للظلم وارتفعت أباديهم للسماء في لحظة يأس، فإذا بالأمل يأتي بأسرع مما يتوقعون قبل أن ينسوا ويتناسوا ما رأَت أعينهم، ويتحولوا مع مرور الوقت من مظلومين إلى ظلمة وظالمين!

ومن واقعة إلى واقعة، ومن عصر إلى عصر، راح الملاك الوسيم وجندي الرب يزور أهل الأرض ويحقق غايته في الانتقام والبطش من المجرمين المتجبرين بأوامر إلهية، دون أن يعرف الملل أو الروتين إلى حواسه وقلبه سبيلاً مهما طالت السنين وتوالت الأعوام وتكررت الأفعال.

وقبل ميلاد السيد (المسيح) هبط الملاك الوسيم مع زمرة (جبرائيل) ليبشر رعاة الأغنام بمولد كلمة الله وروحه القدس لتنشد جنبات الكون أنشودة الترحاب، ويحين موعد تحقيق نبوءة (إشعيا) بمولد ابن العذراء التي لم يمسهما بشر بعد مرور ثمانية قرون على نبوءاته التي لا تخيب.. وفي تلك الأثناء، كانت السماء على موعد مع أمر جليل احتشد له الجند السماوي في واحدة من أضخم ملاحم الكون التي لم يشهدها بشر..

وقف ملاك الرب التوراني ضمن الجموع يتلقون تعليمات عملية (الرق المنشور) التي سيشتنونها على "الأرواح النجسة" ..

فقبل خلق (آدم) لم تكن المكانة العلية جكرًا على الملائكة التورانيين فقط، بل نال شرف التقديس والقرب من ذات الله بعض الأرواح النارية ذات القوة المفرطة التي عبت الله حق عبادته، فارتقت وسمت، قبل أن تغار من عظمة قيوم السماوات ومجده العالي فوق الكواكب والأكوان، فقال أحدها في قلبه: أصعد إلى السماوات أرفع كرسياً فوق كواكب الله

فأصير مثل العلي؛ فانحدر إلى الهاوية وتنجست مقادسه، وأخذ معه طغمة من تلك الأرواح التي صارت على نهجه واتبعته، ليحدث صراعاً بين تلك الأرواح النارية التي صارت نجسة وملائكة الله التورانيين، حتى انتهى الأمر بطرح عدد هائل من هذه الأرواح في سلاسل الظلام الأبدي وتسليمها للقضاء مهيمداً لمحاسبتها يوم الدينونة، فيما دأبت الأرواح الناجية على مزاورة السماء من حين لآخر والتجسس على الملأ الأعلى والاستماع إلى ما يُمليه الرب على ملائكته لمعرفة أسرار الكون والإنسان من أمور تُوشك على الحدوث؛ من موت، أو ميلاد، أو رزق، أو معارك، ونقل تلك الأسرار إلى السحرة والكهان ليفشوها بلهجة العارفين بالغيب، وسط الجموع والحشود من البشر؛ ليكتسبوا القداسة الزائفة في نفوس الضعفاء والعوام لا سيما حين تتحقق نبوءاتهم وتصير واقعاً.

لكن تلك الأرواح النجسة سئمت التنصت لحساب شياطين الإنس، وقرروا اللعب لحسابهم في خطة أطلقوا عليها (يوم القيامة)!

باختصار، سيستغلون ما تصل إليه مسامعهم في الملأ الأعلى، وينتحلون صفة أنبياء في شتى ربوع الأرض ليهيروا البشر بأسرار وخفايا يكشفونها وسط الجموع في النوادي والأسواق والمجالس، ثم يضيفون إليها قدراتهم الهائلة وتصويرها على أنها معجزات وتأيد سماوي من الخالق حتى يحشدوا البشرية خلفهم، وحين يصير لهم أتباع سيطلقون التحذير من مدعين سينتحلون صفة الأنبياء والمرسلين ليضلوهم عن سبيل الله؛ حتى يصدوا الأسماع ويصرفوا العقول عن الإيمان بالرسول والأنبياء الحقيقيين الذين سيكونون في أنظار الناس مجرد كاذبين محتالين بعد أن يتم تدمير مصداقيتهم قبل بعثتهم، حتى يتم نشر الكفر ومبارزة الخالق ويقضى على الإيمان في قلوب العالمين، فتحل اللعنة على الكوكب بمن فيه وتقوم قيامته بعد أن يصير إصلاحه أمراً مستحيلاً!

كل هذه المعلومات تلقاها ملاك الرب التوراني مع جنود السماء في لحظات الاستعداد لملاقاة الأرواح النجسة والهجوم عليها أثناء صعودها إلى السماوات لإفساد مخططها..

وصعدت الأرواح النَّارية النَّجسة بالفعل في حشود هائلة لاستراق السمع من الملأ الأعلى ليجدوا الملائكة في انتظارهم عند السَّماء الأولى، ولم يكن هناك بُدٌّ من المواجهة..

حربٌ كونيةٌ جبارةٌ دارت رحاها في السَّمَاوات العُلا، لا يستطيع وصفها والحديث عنها أبلغ أهل الأرض فصاحة مهما تفتقت قريحته عن إبداع في الوصف والتصوير، لتتقصها فقط أصوات الهمهمات وأوتار الكمان والفيولا وسحر الساكس والفلوت ودقات الطُّبول لتكون ملحمة أسطورية جدية بالتدوين في موسوعة الأساطير الخالدة والملاحم الكونية التي لم تصل لأسماع البَشَر.

لم تكن تلك الأرواح النَّارية بالسهولة حتَّى وإن كانت في مواجهة ملائكة أولي بأس شديد؛ لذا اندلعت النيران عند المواجهة وأنارت السَّمَاوات بلهب هائل وشر يتطاير في كل مكان..

المخلوقات النَّارية أخذت تقذف حُممها وتخلق حول نفسها جحيمًا مستعرًا يحول بينها وبين الملائكة، وجنود السَّماء أرسلوا موجات من البرق والعواصف، وخفقت أجنحتهم بشدة لإطفاء جحيم الأرواح النَّجسة، قبل أن تهبط من السَّماء السَّابعة ملائكةٌ تحمل قذائف من جهنم انطلقت معها صيحاتٌ وصرخاتُ المخلوقات النَّارية، ليبدءوا في التقهقر والتراجع ناكسين على أعقابهم باحثين عن خروجٍ آمنٍ من المعركة، لتتقشَّ الملائكة على فلول الهاربين وتقبض عليهم في الوقت الذي فرَّ فيه البعض عبر دروب الكون ليختبئوا في الكواكب والنَّجوم..

ووسط ذلك كله انطلق صاحبنا ملاك الرَّبِّ التَّوراني نحو إحدى الأرواح الهائلة دون أن يدري أن هذا المخلوق لم يكن سوى ابن القائد الذي أعدّه والده لانتحال دور الإله حين تنجح الخطة!

وبسرعة فاقت سرعة الضوء فرَّ ابن القائد مارقًا بين الكواكب والنَّجوم، وخلفه ملاك الرَّبِّ التَّوراني الوسيم الذي بسط أجنحته وهمَّ أن يطبقها عليه، لكن ابن القائد فلت في اللَّحظة الأخيرة ليخترق الغلاف الجوي للأرض وخلفه جندي السَّماء، وأخذت المسافة بينهما تتضاءل،

وحين شارفت أن تذوب فوجئ ملاك الرَّبِّ التَّوراني بصوت فحيح يأتيه من خلفه ليلتفت بسرعة البرق فإذا بالقائد نفسه ينقضُّ عليه لإنقاذ ولده، فاستقبله الملاك وأحاطه بأجنحته، ثم توهج جسده بنور ساطع أجبر قائد الأرواح النَّجسة على إطلاق أعتى صرخات الأم ليستسلم ويقع في الأسر، وحين عاد الملاك التَّوراني الوسيم ينظر حيثُ ترك ابن القائد كان قد اختفى تمامًا تاريخًا خلفه رسالة مكتوبة على الأرض بالنيران، وبلغة لا تمت إلى اللغات البَشَريَّة بصلة على الإطلاق جاء فيها:

- في يومٍ مثل هذا، سنلتقي مجددًا يا ابن التَّور.. لكنك ستكون الطرف المهزوم الخاضع لسلطاني لتدرك أن النَّار لا يمكن هزيمتها أبدًا. وانطوت صفحة الصَّراع مؤقتًا بعد نجاح عملية (الرَّقِّ المَنشور)، وإيداع من تم القبض عليهم من الأرواح النَّجسة في سلاسل الظلام في ليلة ميلاد السَّيد (المسيح)، فيما تم تشفير الملأ الأعلى بإغلاق آخر 3 سماوات لعدم وصول المخلوقات النَّارية إليها والتنصت على حديث الرَّبِّ مع ملائكته مجددًا..

ومع ميلاد ابن العذراء، وجد جندي الرَّبِّ نفسه أمام نموذج نادر فاق الملائكة في أخلاقهم وقدراتهم اللامحدودة.. مُنذُ ميلاده المعجز لم يكف عن إدهاش البَشَر بأعجابه وقدراته الفائقة..

تكلم في المهدي وحاجج بني إسرائيل فأظهر عجزهم وكسر أنوفهم.. أحيا الموتى، وأبرأ الأعمى والأبرص، وحلت بركاته على المحاصيل.. قابل إساءات البَشَر بالإحسان، وأمر أتباعه بتنفيذ تعاليم لم تعهدها البَشَريَّة من قبل:

من لطمك على خدك الأيمن فحوّل له الأيسر..  
أجئوا أعداءكم، باركوا لاعنيكم، أحسنوا إلى مُبغضيتكم، وصلوا لأجل الذين يسيئون إليكم ويطردونكم..



من ملائكة الرب نحوَ متابرة وقوة بعض أهل الأرض، بعد أن كان الجهل والحماسة والغرور هي الصفات الغالبة التي تصدر عنهم نحوَ السماء. حينها أخذ الملاك الثوراني، يصلي إلى الله، ويمجد اسمه، ويتوسل إليه أن يعفيه من مهامه في الانتقام من البشر والبطش بهم؛ ليندهش من نفسه حينَ وجد ذاته تتضرع إلى الله ويطلب لسانه -بلا وعي منه- من الرب أن يجعله من الملائكة الحفظة؛ ليذود عن أنصار (المسيح) وأتباعه! توقف ملاك الرب عن عذاب البشر والبطش بهم، بعد أن تأثر بـ(المسيح)، وتعلّم من أخلاقه في سنوات قليلة من عمر البشر ما لم يتعلمه طيلة عمره على مدى ملايين السنين في حياة الملائكة، ليدرك كيف يعذر، ويصبر، ويمهل، لتأتيه الإجابة والبشرى من الملائكة الأعلى حينَ أخبره أحد أكابر السماء بأنه انتقل فعليًا من طائفة ملائكة العذاب إلى قائمة الملائكة الحفظة الذين يرقون من السماوات العُلا لإنقاذ أبناء (آدم) من الهلاك.

وبالفعل، أخذ يقتحم أقفاص الأسود التي يتم إلقاء المسيحيين فيها ليدفع أفواه السباع الجائعة، ويحرم مخالبيهم المفترسة وأنيابهم الضارية على أجساد المؤمنين الذين انبهروا حينَ ركعت أمامهم الأسود وتحولت إلى حملان أليفة منزوعة الشراسة والافتراس، وأخذوا يرددون الابتهالات لرب المجد وهم يشعرون بعبق الملائكة حولهم حتّى وإن لم تتبين ملامحهم الأعين، وحالت دون رؤيتهم حُجب الغيب.

خاص في الآبار التي تم إلقاء العبيد فيها وأنقذهم، وتدخل في اللحظات الأخيرة ليخرج أنصار ابن العذراء من الحُقر المليئة بالحيات والأفاعي بعد أن ألقى عليها الجمود والسبات، ومنعها من إطلاق السموم وغرس الأنياب في أجساد القديسين والأتباع الصالحين.

لكن دهشة الملائكة لم تقف عند صمود أتباع (المسيح)، وامتدت لتتفاقم وتزداد إزاء جهل الكثيرين من بني إسرائيل الذين أنكروا عظمتهم وقداسته رغم معجزاته الهائلة؛ ليظلّوا على صلفهم وعنادهم، فقط لأن تعاليمه لم تأتِ على هواهم، فرماه البعض بأبشع الصفات، واتهموه

حتّى حينَ تكالبت عليه اليهود، واتهموه بالسحر، ورموا أمه العذراء العظيمة بالزنا، وكادوا له المكائد، ظلّ شغله الشاغل فقط هو تخليص البشرية من الذنوب والخطايا ليطهر الأرواح من النجس، والقلوب من الدنس، ويعمل عقل بني الإنسان في محل عمله بعد أن صار عبدًا للشهوات ووساوس الشيطان..

لم يجد ملاك الرب توكليفاً بتوقيع العذاب على أحد، وقد فاضت السماحة من قلب المسيح فطغت على المشهد، وعمت أرجاء البسيطة حيث لا مكان للانتقام والبطش وتدخل الملائكة..

عندها تعلم ملاك الرب الثوراني كيف يمكن أن تحقق مخلوقات الله بالحب والرحمة ما لم يحققه العنف والبطش والانتقام..

تعلم كيف ينتصر الضعف والصبر على الجبروت والطغيان..

وحينَ لاحظت لحظة الصلب التاريخية، فوجئ ملاك الرب بابن النار واقفًا إلى جوار الصليب ليطلق أقوى وأعلى ضحكاته التي تردد صداها في أرجاء الكوكب، لينشر بعدها بخبثه ودهائه حالة من البلبلة وسط البشر بين مؤيدٍ ومعارض لواقعة الصلب، وحينَ همّ جندي الرب أن يتحرك لردع صاحب الروح النارية النجسة وطرحه في سلاسل الظلام الأبدي ليلحق بأسلافه، جاءه الأمر من السماء بالكف عنه، وتركه إلى يومٍ معلوم..

وصعد (المسيح) إلى السماء تاركًا خلفه أسطورة حية فاقت الخيال؛ ليرويها من بعده تلامذته الذين لاقوا الويلات وثابروا من أجل استمرارية الرسالة المقدسة، ثم اضطلع بالتبشير بها ونشرها قديسون وآباء ساروا على النهج، ووهبوا أنفسهم للعذاب والهلاك أملًا في الخلاص، لتتداول البشرية تعاليم ومعجزات قلما جاد الزمان بمثلتها.

وحينَ تم إلقاء محبي (المسيح) وأتباعه إلى الأسود الجائعة من الملوك الظالمين، لم يجد الملاك الوسيم من يطلب من الرب المعونة، وقد قدّموا أجسادهم الفانية قربانًا وطواعية إلى نور الحق، لتخلد أرواحهم في السماوات العُلا أمام عرش السر الخفي، فحانت لحظة الدهشة والانبهار

- حاشا لله - بأنه ابن زنا، وأنكروا ما جاء به من البنات، وذهب تأويلهم لمعجزاته بأنها لا تعدو كونها سحرًا، فرفضوا الإقرار والتصديق بأنه المسيح الذي بشرت به كتبهم، وانتظروا مسيحًا ومخلصًا آخر ستكون علامته أنه سيُحيي الموتى!

وفي غمار هذا كله، كان ملاك الرب الثوراني على موعد مع مفاجأة مذهلة..

كان هذا حين هبط من السماء بسرعة تفوق إدراك البشر ولم تخلق بعد الألفاظ والتشبيهات القادرة على وصفها؛ في مهمة جديدة لإنقاذ أحد القديسين في عصر الشهداء بعهد الإمبراطور الروماني الشهير (دقلديانوس) الذي أمر بهدم الكنائس وإزالتها من الوجود، وحرقت الأناجيل، وقتل المسيحيين..

تجمعت الجنود على باب ذلك الدير السري الذي أسسه ذلك القديس بعد أن ترهب في عبادته للرب، ودعا الأقباط إلى عبادة الله في الصحاري وصومعته التي لا يعرفها سوى ثلثة من المؤمنين للحفاظ على الدين من الزوال..

وحين هم ملاك الرب الثوراني بالتعامل مع جنود الإمبراطور الباطشين لإنقاذ ذلك القديس العابد، فوجئ بكُرات من النار تهوي على الجنود لتبيدهم في ثوان معدودة، لينجو واحد فقط منهم قبل أن يتجسد كيانًا هلاميًا من النار أمامه ويصيح فيه بصوت أجش عميق:

- أخبر إمبراطورك بأن لهؤلاء المستضعفين مخلوقات وهبت نفسها للذود عنهم بعد أن آمنت بما يؤمنون، وسخرت من أوثانكم الضالة. ليصرخ الجندي الناجي ويركض في الصحراء كالممسوس، قبل أن يظهر ملاك الرب الثوراني لصاحب الكيان الهلامي الثوري ويسأله:

- من كلفك بما فعلت؟  
"الرب".

أجابه الكيان الهلامي الثوري بنبرة واثقة لم يتردد أو يفكر قبل أن ينطقها، لتتسع عينا ملاك السماء في دهشة متسائلًا:

- كيف؟ هل تمجد اسمك بالحديث معه؟  
أجابه الكيان الهلامي:

- كلام الرب غير مُرتهن بالحديث المباشر مع مخلوقاته يا ابن الثور؛ فصوته يتردد في أعماق كل نفس مؤمنة لينبع من إيمانها أوامر تلي على صاحبها ما يجب القيام به.

- وماذا عن قومك؟ هل سمحوا لك بالإيمان بالمسيح ومناصرة أتباعه؟  
ابتسم الكيان الهلامي وأردف:

- ربما حان الوقت لي تجرب أمثالي معنى العذاب والاستشهاد في سبيل ما آمن به.

عقد ملاك الرب الثوراني حاجبيه وهو يتأمل صاحب الكيان الثوري الهلامي، ثم قال له:

- وربما جاء الوقت ليقدم بنو جنسي خدماتهم لمخلوقات أخرى غير البشر.. لقد نذرت نفسي لحمايتك من بطش بني جنسك الكفار.

سأله صاحب الكيان الثوري:

- بدون تكليف إلهي؟

ابتسم الملاك الثوراني مُجيبًا:

- كلام الرب غير مُرتهن بالحديث المباشر مع مخلوقاته.

\* \* \*

بعد فترة من الزمان لم تمض الأمور كسابققتها، وحنان موعد تغيير النفوس والقلوب لتتوزع الحقيقة الكاملة إلى أنصاف حقائق متضاربة ومتصارعة بين حملة الصليب؛ ليزعم كل فريق أنه الأحق والأصوب، ما بين كاثوليك، وأرثوذكس..

فسد كثير من الآباء والقساوسة، وطوعوا الكهنوت لخدمة مآربهم؛ لبيعوا المغفرة والعفو الإلهي في صكوك الغفران، وجعلوا التوبة مستحيلة بدون شرائها، ليتألم بنو الإنسان في العصور الوسطى باحثين عن رحمة الإله لتنتشلهم من جشع القياصرة وظلم رجال الكنيسة.

وفي عام مولد آخر الأنبياء والمرسلين، عرفت (قريش) معنى الدّل والانكسار، وأسقط في أيدي جابرتها وسادتها حين لاقوا من هم أشد منهم قوةً وبأساً..

ها هو ذا الملك المسيحي (شميفع أشوع) يتولى حكم مملكة (اليمن) بعد الانتقام من اليهود وزعيمهم (يوسف أسار) بسبب المجازر التي ارتكبوها في حق نصارى (نجران) و(المخا) و(ظفار يريم) ليعيد إعمار كل الكنائس التي هدمها يهود (اليمن) وحلفاؤهم، ويأمر ببناء كنائس جديدة قبل أن يقتله (أبرهة الأشرم) ويستولي على الحكم بحثاً عن المجد والسلطان، فاستمال القلوب إليه بتشبيد كنيسة عظيمة مزخرفة لم يكن أحد قبله مثلها، وسماها العرب كنيسة (القليس)؛ لأن الناظر إليها تكاد تسقط قلنسوته على رأسه من ارتفاع بناؤها، دون أن يتبين أحد في بداية الأمر نية (أبرهة) الخفية من وراء هذا الصرح العظيم الذي أراد من خلاله اجتذاب الحجاج، فتحج القوافل التجارية والقبايل إليها، ويصنع في (اليمن) سوقاً تجارياً ضخماً يجذب البساط من أسفل سوق (قريش)، ونادى بذلك في مملكته.

وفي جنح الظلام بإحدى الليالي، تسلل بعض شباب (قريش) وأشعلوا النيران بالكنيسة وفرّوا هاربين، فلما رأى السدنة ذلك أخبروا (أبرهة) وقالوا إما فعل ذلك بعض فتية (قريش) لغضبهم على بيتهم الذي ضاهيته بهذه الكنيسة، فأقسم ليسيرن إلى بيت (مكة) بجيشه العرمرم ويهدم كعبتها المكرمة التي يُقدسها العرب.

وفي طريقه من (اليمن) إلى (قريش) خرجت القبائل والممالك تقدم فروض الولاء لملك (اليمن) الغاضب الذي يقود جيشه بنفسه ومعه فيلٌ خصّصه لهدم بيت الله الحرام.. انحنت له الملوك وركعوا وأجزلوا العطاء والهدايا فتركهم وواصل مسيرته حتّى وصل إلى مشارف (قريش) وأغار جيشه على سُرح من الإبل تمتلكه قبيلة (بني هاشم)، وطلب (أبرهة) أن يأتيه بشريف مكة وسيدها (عبد المطلب بن هاشم)، فلما رآه (أبرهة)

وبعد قرون لم تعرف الأرض فيها نبياً ولا رسولاً، حانت لحظة إتمام بيت النبوة بآخر لبنة في الصرح الإلهي؛ ببعثة (محمد بن عبدالله) في شبه الجزيرة العربية، حيث الكُفر والتفوس الخربة، ما بين أتباع آلهة اللات، والعزّى، وهبل، وغيرها من أصنام صنعت من أيادي البشر، فلا تقدم نفعاً ولا ضرراً، ومع ذلك عبدوها!

التعصب للقبيلة هو الانتماء الحقيقي، والتباهي بعدد العبيد والجواري هو ديدن الأكابر وعلية القوم..

حروبٌ وغاراتٌ تشتعل لأتفه الأسباب؛ دماء تسيل بلا ثمن؛ وثأر يستمر لسنواتٍ طويلةٍ، ثم ينتهي بصلحٍ وكأنّ شيئاً لم يكن.. الرجل يتزوج من أمه، ويعاشر أخته، ونساء تُحرّم من الميراث الذي يذهب للرجال فقط..

الخمر هو المشروب الرسمي، وكهنة الآلهة مستعدون لتقديم المغفرة والعفو لمن يُعقد عليهم من عطاياهم..

حتّى الكعبة وبيت الله الحرام الذي بناه (إبراهيم) وابنه (إسماعيل) سكنتها الأصنام والآلهة الزائفة، وأحاطتها الأنصاب والأزلام..

ووسط كل هذه الجاهلية الدّينية وانعدام الروحانيات في أجساد غرقت في وحل المادة حتّى أذنيها، ظهرت بلاغة الشعراء اللغوية وقصائدهم المذهلة لتقف الأمم حائرة أمام بلاغة قريش وروعها الأدبية والفنية..

كانت هناك تجارة رائجة، وأسواق تعج بكل صنوف السلع التي تُباع في ساحاتٍ ينطلق فيها الفن والشعر، وكذلك السُّكّر والعريضة والقتل وسفك الدماء والحروب القبيلة الطّاحنة..

خليطٌ مذهل بين الجمال والقبح، الرقي والانحدار، وكيف لا وقد فقدوا البوصلة التي تصوب العقول والقلوب نحو السّماء، فضاع من الميزان رمانته، واختلت المكاييل، وانتظر يهود قريش بعثة آخر رسول كما أشارت إلى قدومه ومولده كتبهم ونبوءاتهم..

نظر له بعين الإجلال والإعجاب؛ إذ كان رجلاً جميلاً حسن المنظر، ونزل (أبرهة) عن سريره وجلس معه على البساط وقال لترجمانه:

- قل له ما حاجتك؟

فقال (عبد المطلب) للترجمان:

- إن حاجتي أن يرد عليّ الملك مائتي بعير أخذها جيشه بغير حق.

فقال (أبرهة) للترجمان:

- قل له لقد أعجبني حين رأيتك، ثم قد زهدتُ فيك حين كلمتني..  
أتكلمني في مائتي بعير أصبتها لك وتترك بيتاً هو دينك ودين آبائك قد  
جئت لهدمه لا تكلمني فيه؟

فقال له (عبد المطلب):

- أنا رب الإبل، وإن للبيت رباً يحميه.

فقال (أبرهة):

- ما كان ليمنتع مني.

فقال (عبد المطلب):

- والله لا نريد حربك وما لنا بذلك من طاقة، هذا بيت الله الحرام  
وبيت خليله (إبراهيم)، فإن يمنعك منه فهو بيته وحرمة، وإن يخل  
بينك وبينه، فوالله ما عندنا دفع عنك.

ورجع (عبد المطلب) وأمر قومه بأن يصعدوا الجبل هاجرين (مكة)  
حتى يقضي الله بينه وبين (أبرهة)، فلما دخل الجيش (مكة) يتقدمه  
ملك (اليمن) ممتطياً فيلاً ضخماً، برك الفيل أمام الكعبة ولم يتزحزح  
من مكانه قيد أملة.. ضربوا الفيل ليقوم فأبى، طرقوا رأسه بالحديد  
حتى أدموه، فلم يستجب.. وجهوه نحو (اليمن) فقام يهرول.. وجهوه  
إلى (الشام) ففعل مثل ذلك، ووجهوه مرة أخرى إلى الكعبة فبرك من  
جديد، فيما وقف (جبرائيل) وزمرته التي حوت ملاك الرب الوسيم في  
السماوات يتابعون لحظة الحسم المرتقبة، حتى أرسل الله (تعالى) على  
جيش (أبرهة) من السماء طيراً أبابيل.

أفواجٌ متتاليةٌ ومتعاقبةٌ لا أول لها ولا آخر من الطيور غطت السماء  
في مشهدٍ أثار الرهبة والذعر في قلوب الجنود الذين تطلعوا نحو الأعالي  
دون أن يدروا أن مع كل طائر ثلاثة أحجار مشتعلة بنيران جهنم وسجّيلها،  
يحمل كل طائر حجراً في منقاره، وحجرين في رجليه، حجمهما أمثال  
الحمص والعدس، ولا يصيب الحجر أحداً إلا هلك، ومع سقوط الأحجار  
على الجيش خرجت من الحناجر صيحات الرعب وصرخات الهلع لتهرب  
البقية الباقية من فلول الجيش في الصحراء بعد أن تحوّل (أبرهة) إلى  
مجرد ذكرى غابرة يرويها التاريخ، وعبرة لمن يعتبر.

وفي العام نفسه الذي سمّاه العرب عام الفيل، حل ميلاد (محمد  
ابن عبدالله) في ليلة سارت فيها اليهود في الطرقات يبشرون بمولد رسول  
بني إسرائيل، ويرددون بعلو الصوت: "لقد ولد فيكم نبي"، ليخرج من  
بطن أمه وكأنه في موضع السجود، بعد أن دهشت فترة حملها النساء  
اللائي فوجئن بعدم مرور (آمنة بنت وهب) بأي آلم، أو وهن على مدى  
فترة الحمل وكأنها لا تحمل في أحشائها جنيناً، بخلاف ذلك الآتي الذي  
أتاها قائلاً:

- إنك حملت بسيد هذه الأمة، فإذا وضع في الأرض فليقل لسانك  
وقلبك أعيذه بالواحد من شر كل حاسد، وآية ذلك أنه يخرج معه نور  
يملاً قصور بصرى من أرض الشام، فسّمّيه محمدًا، فإن اسمه في التوراة  
أحمد يحمده أهل السماء وأهل الأرض.

ومع مولد (محمد) في البرية تم تشفير السماوات الأربع المتبقيات؛  
لتصير السماوات السبع بأكملها محرمة على الشياطين والمردة وذوي  
الأرواح النارية الذين تبدّل بهم الحال ولم يجدوا مقاعد لهم مثلما كان  
الحال من ذي قبل، ومن يحاول الصعود إلى الملاء الأعلى يجد السماوات  
"مُلئت حرساً شديداً وشهياً" ..

البعض حاول التمرد وتقدم لاستراق السمع فوجد النيازك تنفصل  
عن النجوم وتتحول إلى شهب حارقة كسحطايا من الجحيم الذي الذي  
لا يُخطئ صاحبه؛ لتظلّ تطارده حتى تهلكه حتى وإن هبط إلى الأرض

وغادر السماوات، وهكذا صار الملائكة على الملأ الأعلى حكرًا على الملائكة فقط بعد أن حاوطوا السماء بأجنحتهم الخفاقة، وجعلوها حصنًا حصينًا، وصارت النجوم التي تُنيرها كالمصابيح سلاح ردع وأجهزة دفاع تعمل بشكل تلقائي تجاه المتطفلين والغرباء غير المرغوب فيهم إذا ما تجاوزوا الحدود المسموح بها في الاقتراب.

ثم كانت اللحظة الفارقة حين جاء تكليف الله (تعالى) لـ(جبرائيل) بالهبوط على (محمد) في غار (حراء) الذي كان يتأمل فيه السماء ويتفكر في الخلق؛ كطير يغرد خارج سرب الكفر الذي حل في أرجاء (قريش)، رافضًا أن يحذو حذو أقرانه من الرجال في عبادة الأصنام، والزنا بالنساء، وشرب الخمر رغم امتلاكه المال الذي كان يديره لزوجته (خديجة) إحدى سليلات الحسب والنسب في (مكة)، واثقًا أن خلف تلك السماء أمرًا عظيمًا، وأن وراء هذا الكون إلهًا حقيقيًا، أشرف وأرقى من خيالات البشر الذين جسّدوه في تماثيل مُصمّنة من صنع أيديهم؛ ليعث في أهل الأشعار والبلاغة بمعجزة لغوية قرآنية شأن كل نبي يعث بجنس ما اشتهر به قومه وبرعوا فيه، وتحداهم أن يأتوا بمثل كلام الله المرسل، بل بمثل سورة واحدة، بل بمثل آية واحدة فعجزوا جميعًا، وهم أهل البلاغة والفصاحة.

انشرح قلب ملاك الرب لـ(محمد) وعاد لينبهر بأخلاقه ومواقفه بعد أن ظن أن الزمان لن يوجد بمثل أخلاق المسيح..

شعر أن كليهما إخوة وإن اختلف الرحمان اللذان حملاهما..

كلاهما معلّم عظيم، تتعلم منه الملائكة قبل البشر..

كل منهما دُعي لقوم يغطون في جهالة رغم العذاب الذي يلاقيه، والدّماء التي تسيل منه..

من جديد دخل اليهود دائرة التحدي، وبعد أن تنبأوا بمولد (محمد) ورسالته رفضوا واستكبروا أن يؤمنوا به؛ فقط لأنه لم يُبعث من نسل (إسرائيل).. وكيف يتبعون رجلاً من نسل (إسماعيل) أبي العرب وتخرج عن عباة تهم النبوة والشرف المنتظر؟!

ها هم أولاء جبابرة (مكة) وساداتها يبالغون في أذيته وضرره يوم العقبة؛ فيسير مهمومًا على وجهه، فلم يستفق إلا وهو بقرن الثغالب، حينَ أظلتته سحابة أطل منها (جبريل) قائلاً:

- إن الله (تعالى) قد سمع قول قومك لك وما ردوا عليك، وقد بعث إليك ملك الجبال لتأمره بما شئت فيهم.

حينها تمنى ملاك الرب الوسيم أن ينتصر لهذا النبي الذي أحبه، لكنه صمت احترامًا وتقديرًا لسيدته (جبريل) ووقف يتابع حديث (محمد) مع ملك الجبال الذي ناداه:

- يا محمد، بعثني ربي إليك لتأمرني بأمرك، فما شئت؟ إن شئت أطبقت عليهم الأخشبين.

فقال النبي (صلى الله عليه وسلم):

- بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده ولا يشرك به شيئًا.

ولم تمر السنوات حتّى أتى الله بنصره، وحقّت كلمته التي وعد بها المؤمنين، ليعود الرسول وصحابته إلى (مكة) التي خرجوا منها مهاجرين فقراء أذلاء، ليفتحوا أعظم بلاد الله ويحرروها من الشرك والكفر، ويعفو الرسول عمن ظلمه وقتل أحب الناس إليه، فيعم السلام أرجاء (قريش) وتحدث المصالحة العظيمة بين المسلمين ومن ظلموهم وعدّبوهم وسطوا على أموالهم وممتلكاتهم، ويدخل الناس في دين الله أفواجًا، ليبيكي ملاك الرب الوسيم مُدركًا أنه لا يزال في البشر أمل، وأن هناك بديلاً للبطش والعذاب؛ لتستحق بعض الأقوام والأمم منهجًا آخر في التعامل، متخذًا من النبي الأمي قدوةً ونبراسًا يُحتذى به ليأتيه الدرس هذه المرّة من البشر.

وانتهى عصر الرسالة بغروب شمس النبوة وصعود روح (محمد) إلى الرفيق الأعلى حيث الوسيلة والفضيلة والدرجة العالية الرفيعة، تاركًا خلفه قرآنًا عجبًا يتلى إلى يوم الدين، فيه منهج حياة، و"كتالوج" يهدي إلى سبيل الرشده عسى ألا يشرك بالله أحد.

وظنَّ ملاك الرَّبِّ أن الأرض ستعيش في خير وسلام دائمين بعد أن اكتملت سلسلة الأديان، وصارت قيم الحق والخير والجمال واضحة للعيان في أزهى صورها..

لم يكن يدري حينها أن الأرض ستعود إلى شرورها، وأن دماء البشر ستظل هي ثمن المعرفة والوصول إلى الغايات، لتسيل من الصحابة والخلفاء الراشدين، ومن تاجر بدين الله من أجل مطامع دنيوية زائلة، ليتفرق المسلمون إلى فرق متناحرة؛ كل فرقة تزعم أنها على الصواب والباقيين في النار، وانقسم الدين بينهم إلى سنة وشيعة، وداخل كل فريق مذاهب وجماعات، ما بين خوارج، ومعتزلة، وزيدية، واثني عشرية، وغيرهم كثير.

بخلاف أولئك الذين ارتدوا عن دينهم الذي أعلنوا إيمانهم به ظاهرياً ونفاقاً، وأولئك الذين ادعوا النبوة، وأولئك الذين أنكروا رسالة (محمد) لعدم منطقيتها، رغم أن المنطق والعقل يؤكدانها.. فقد بعث كل نبي على قومٍ ضالين ظالمين.. فهل ظلم وضلال مكة لم يكونا بحاجة إلى نبي؟

إذا لم تكن نبوة (محمد) صادقة حقاً، فكيف نزل قرآن في عمه الكافر (أبو لهب) مؤكداً أنه سيموت كافراً ملعوناً رغم وجود (أبي لهب) على قيد الحياة، وكان في إمكانه أن يعلن إيمانه ولو بالكذب ليثبت خطأ القرآن ويهدم مصداقيته لكنه لم يفعل!

كيف يكون (محمد) مدعيًا للنبوة، ثم يتنزل عليه قرآن لحظة هزيمة الرومان من الفرس، وشماتة (قريش) في انتصار عبدة النار على عباد الرب، ليسبق كلام الله حاجز الزمن ويذكر موعد هزيمة الفرس وانتصار الرومان عليهم مرة أخرى في بضع سنين، وبالفعل تتحقق آيات الله البيّنات؟

كيف يكون (محمد) كاذباً، ولا يموت إلا بعد أن يكتمل الإسلام بكلام الخالق: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَمَّمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾، دون أن يموت في أي غزوة من الغزوات الكثيرة التي خاضها

شأن من زعموا النبوة من بعده ليحج الرسول في آخر عام من عمره، ويلقي في قومه خطبة الوداع وآخر وصاياہ كنبى ينهي عهده ورسالته التامة بمدد من السماء، وتنزل آخر آيات القرآن عليه قبل وفاته بفترة وجيزة: ﴿وَأَتَقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾؟

ظل ملاك الرب يطرح أسئلته وهو يراقب أحوال البلاد والعباد بحزن وغضب، نادماً على تمنيه أن يكون من الحفظة الحامين لأبناء (آدم) وقد عادوا إلى دينهم، ودخلوا مجدداً في غياهب الشقاق والصراع لتملأ الدماء مشارق الأرض ومغاربها في كل زمنٍ وعصر، لكن فات الأوان، ولم يعد ممكناً أو مسموحاً أن يعود من جديدٍ لطائفة العذاب والانتقام، ليجد نفسه مضطراً لإنقاذ أبناء (آدم) وحمائيتهم مما لم يرد في صحائف أقدارهم رغم غضبه الشديد من أفعالهم.. ويا له من ابتلاءٍ عظيم!

\* \* \*



لون شعره الكستنائي إلى الأبيض بفعل العَفْرِ، وأخذ ينظر حوله بحيرةٍ دهشةٍ لا يتذكر من أين جاء ولا يعرف إلى أين يذهب، ثم أمسك جبهته بيده اليمنى حتّى يُقاوم دوارًا وصداعًا عنيفين يُسيطران على رأسه قبل أن ينزل يده ببطء ليبدأ في السير إلى اللا وجهة، لا يدري إلى أين تأخذه قدماه!

وأثناء سيره المتخبط، أخذ الشّاب الوسيم ينظر حوله متأملًا مقابر الأثرودكس، والكاثوليك، والإنجيليين، واليونانيين، واليهود، حيثُ يمتزج جلال الموت بروعة التصميم الهندسي النابض بالحياة، وكأنّه في مُتحف تاريخي اجتماعي فني ينافس جبانة (جنوا) في إيطاليا ذات الجمال التّاريخي السّاحر، دون أن يدري أن هذه المقابر تعود لعهد (محمد علي) باشا -مؤسس مصر الحديثة- حين منح جميع الطوائف من غير المسلمين في الإسكندرية أرضًا شاسعة تقع في المنطقة من أول شارع قناة السويس إلى شارع (أغسطس) الذي صار اسمه فيما بعد (سليم حسن) لتصبح مقابر لهم؛ نظرًا لأن المدينة ازدهرت في عهده وأخذت تزدهر في عهد أولاده وأحفاده، حتى أصبحت في عهد الخديوي (إسماعيل) مدينة عالمية، تضم جميع الجنسيات والملل وأصحاب الديانات، وتجاورت في تلك المقابر أشهر الشخصيات المصرية والإيطالية واليونانية وغيرها من الجنسيات الأجنبية المختلفة من أمثال المخرج العالمي (يوسف شاهين)، والشاعر اليوناني الشهير (كفافيس)، ورجل الأعمال الغربي (كونسيكا) الذي أسّس مستشفى التأمين الصحي الذي تحول اسمه فيما بعد إلى مستشفى (جمال عبد الناصر)، و(أسعد باسيلي) أكبر تاجر للخشب في المحافظة، والذي أصبح أحد قصوره فيما بعد المتحف القومي المصري والمركز الأمريكي الثقافي، وغيرهم من الشّخصيات اللامعة.

تطلع الشّاب في رهبةٍ إلى شواهد القبور التي تحتمي بالصلبان الرخامية في رحلة أصحابها الأخيرة إلى الأمجاد السّماوية، وقد أحاطتها أكاليل الزهور، وحملت لوحاتها عبارات الوداع الحزينة من أهل الموتى الذين اتفقوا على أنه "مع المسيح ذاك أفضل جدًّا"، وفي الخلفية لا يزال

## (5)

ونسى ملاك الرّب كل هذه الذكريات الهائلة حين بدأت مهمته الجديدة..

التمعت في السّماء هالةً ضوئيةً بيضاء أخذت تقترب بسرعة شديدة من الأرض، وما إن صارت قاب قوسين أو أدنى حتّى تحولت تلك الهالة إلى شابٍّ وسيمٍ يرتدي بذلة سوداء مميزة ذات تفصيلة غريبة لكنها مثيرة للانبهار، وتحتها قميص أبيض ورابطة عنق رقيقة جعلته أشبه بنجم سينمائي في حفل تسلّم جوائز الأوسكار، قبل أن يصطدم جسده بالأرض في عنفٍ شديدٍ، ويظلّ يتدحرج دحرجات متتالية على نجيلة طبيعية خففت قليلًا من شدة الارتطام، ليشاهد أثناء دحرجته صلبانًا متراسة، وإن لم يدرك أنها مقابر "الثغر" بمنطقة (الشاطبي) في محافظة الإسكندرية، ليتدحرج بين شواهد القبور بسرعة وألم شديد، وترتفع أمام عينيه صلبانها وتنخفض حسب موقع رأسه الذي يتقلب مع دحرجاته العنيفة، قبل أن يرتطم بشاهد قبر رخامي فيكسره بعنقه، ويسقط صليبه، وتخمّد حركته مُطلقًا عاصفة من الغبار، وسط نباح الكلاب وزمجرتها الشديدة بعد أن أزعجها ما حدث..

بعد دقائق هدأت العاصفة وانقشع الغبار ولا يزال الشّاب الوسيم راقدًا على بطنه، ساندًا نصف وجهه الأيسر على الأرض ليتجلى نصف وجهه الأيمن وهو مغمض العين، باسطًا ذراعيه إلى جوار رأسه.. مرّت برهة فتح بعدها عينيه بتخاذلٍ، ثم استند بذراعيه إلى الأرض لينهض بصعوبة وضعف، غارقًا في التراب الذي يُغطي ملامحه، وأحال

نظر إليها بتوتر، متطلعًا إلى وجهها الخمري المستدير ذي العينين  
العسليتين الأقرب في درجة لونهما الفاتح إلى الخضرة، وتحتهما بقع بنية  
بسيطة تثبت أن النمش قد يكون أحيانًا سرًا من أسرار الجاذبية والجمال،  
ثم تذكر أنها قد سألته فأجاب بحيرة:

- - لست أدري.

مسحته بناظرها في شك، فبالها التراب الذي يُعطيه وكأنه كان مدفونًا  
بالحياة فرًا للتو من قبره، لكن كل شيء تغير حين تعمقت في ملامح  
وجهه ذي البشرة البيضاء الحليية التي تنيرها شمس عينيها الذهبيتان،  
ويتوسطها أنفه الدقيق المرفوع، وشفثاه الورديتان، وكأن وجهه مملكة  
تحفها لحيته الخفيفة الناعمة، ويظللها شعره البني الكستنائي الحريري،  
ويحملها عنقه الشامخ القائم على منكين عريضين وقوام ممشوق كجبل  
يمشي على قدمين؛ لتجد نفسها أمام صورة أسطورية لجمال خفّاق نادر،  
زاد من أسطوريته ضئ القمر المنعكس عليه من السماء، بشكل بث  
في روحها السكينة والفتنة بهذا الحُسن الذي أنساها رهبتها منه؛ بل  
وأنساها أهلها نفسه حتّى انغلق صنوبر الدمع في عينيها، وتجمد على  
وجنتيها خطان سائلان سرعان ما جفا كنهير قديم ضلّ عنه منبعه، قبل  
أن يقطع تأملها ملامحه صوت جلبة وحركة، وقضى على صمت المكان  
صوت غليظ علا بلهجة بها قدر من السّطل والدماغ المغيّبة:

- لكنني أشعر أن شيئًا ما ناقصًا يا رجال.. فأنا لا أزال يقظًا حتّى الآن.

أجابه مسطول آخر:

- الله يخرب بيت أمك.. خمر وشربت.. ماكس وضربت.. ماذا نفعل  
لك بعد كل ذلك؟ أنلبس لك قمصان نوم ونُغني "أه ونص"!!

مسطول ثالث:

- عيب يا جماعة.. للمقابر احترامها.

مسطول رابع (ساحرًا):

- إنها مقابر مسيحيين يا بغل.

نباح الكلاب يتردد بشدة وقد بدأت في التجمع على مسافة من ذلك  
الزائر الذي لم يبال بها وقد حمل رأسه مخاوف وحيرة أكبر بكثير من  
نباحهم المخيف.

وبعد برهة من السير وبينما هو يتأمل هذا العالم، إذا بصوت فتاة  
باكية يتسلل إلى أذنيه كاسرًا حالة صمت البشر المحدق به وقد غرقوا  
جميعًا في سلطان الموت:

- سامحني

لفت الصوت حواسه كلها، قبل أن ينتبه إلى أنه يصدر من قبر  
قريب.

اقترب الشاب من مصدر الصوت حتّى لمح فتاة تجلس على الأرض  
أمام شاهد قبر وقد غطى ملامحها الظلام، وإن تبين أنها ترتدي تنورة  
قصيرة جدًّا، وأسفل منها جورب شيفون أسود، في حين اكتسى نصفها  
الأعلى بملبس أسود شفاف يلتصق بالجسد ويجسده تمامًا، ويظهر أكثر  
مما يُبطن، بارزًا مفاتنها الصارخة، وقد صبغت شعرها ذا التسريحة  
ال"كيرلي" بلون أحمر ناري مثير، وواصلت الكلام بمزيج من النحيب  
والانهيار:

- لم يكن أمامي بديل آخر.. لا شك أنك تعلم ذلك جيدًا بعد أن  
انكشفت لك الحقيقة أمام عرش النعمة وقابلت رب المجد يسوع..  
تعبت كثيرًا ودقت طعم المرار والدّل من بعدك.. كل الأبواب غلقت  
في وجهي، ولم أجد من يحنو عليّ في زمن خلا من القديسين، ولم تعد  
الملائكة تزور فيه الضعفاء والمحتاجين.. ماذا كنت تريد مني أن أفعل  
وقد خُلِق الإنسان ضعيفًا!؟

ومع آخر حروف كلماتها، ملحت الفتاة الشاب الذي أصبح على  
مقربة منها فصرخت وهي تهب واقفة بذعرٍ وفزعٍ واطعة يديها على  
صدرها:

- باسم الصليب.. من أنت!؟



- بالهناء والشفاء يا معلم.. ليس لنا في الجنس الخشن لأنه حرام!  
الجميع يضحكون ضحكة شيطانية، بينما ينظر الشاب لهم بتوتر  
وقلق وهو يتراجع وقد وقفت خلفه الفتاة ممسكةً بكتفه في رعبٍ  
وهي تحتمي به، وما إن انتهوا من قهقهتهم الصاخبة حتى قال بعقلانيةٍ  
وهدوء:

- ليس بيني وبينها أي شيء.. لقد وجدتُها هنا بالصدفة وهي تتحدث  
مع صاحب هذا القبر.  
المسطول الأول (ساخرًا):

- كيد أمك.. (يستدير بصره نحو الفتاة ويسألها) وهل رد عليك يا  
كتكوتة، أم قال لك أنا ميت الآن، يمكنك معاودة الاتصال في وقتٍ آخر؟  
هع هع هع...

وفجأة، جذب المسطول الخامس الشاب الوسيم بعنف ووضع  
المطواة على رقبته قبل أن يقول بغلظة وشراسة:

- تجرد من ملابسك برضاك، أو ننزعها رغماً عنك!  
وفي اللحظة نفسها، كان باقي المساطيل يلتفون حول الفتاة، قبل أن  
يزيح الشاب الوسيم بيده اليسرى مطواة المسطول الخامس بسرعة، ثم  
يكيل له لكمةً قويةً بيده اليمنى انفجرت في أنفه كالقنبلة، وانتزعت  
منه صرخة قوية قبل أن يسقط كالحجر لينتبه الجميع لما حدث ويصفع  
أحدهم الفتاة بأقصى ما لديه من عزم لتسقط أرضاً غير قادرة على  
الحراك، قبل أن ينقضوا على الشاب الوسيم انقضاضة رجلٍ واحدٍ ليمزقوا  
جسده ووجهه بالمطاوي التي انهالت على كل سنتيمتر في جسده بلا  
هوادة، بينما بقي واحدٌ منهم مع الفتاة وهو يكلم فيها بعنف مانعاً  
إياها من الصراخ ليخرج صوتها مكتومًا.

وفي مكانه، أخذ الشاب يتلقى الضربات والطعنات لتسيل منه الدماء  
بعنف وغزارة شديدين، قبل أن تخمد حركته تمامًا وقد تمزقت كل أنحاء  
جسده وأصبحت بذلته الأنيقة مجرد هراويل وخيش مهترئ وهو ملقى  
على الأرض مضرجًا في دمائه.

وفي مكانه، اشرب أعنق الشاب الوسيم متطلعًا إلى تلك الأصوات  
القادمة ليرى 5 رجال ذوي أشكال إجرامية لا توحى بالخير، قبل أن يلاحظ  
أصحابها وجود الشاب والفتاة، لينظروا جميعًا إلى قوامها وملابسها  
الصاروخية بعيونٍ وحشيةٍ، فقال صاحب الصوت الأول:

- يا سلام.. أموت أنا في الاحترام!

المسطول الثالث (بصدمة وهو ينظر للشاب والفتاة):

- أستغفر الله العظيم.. في المقابر يا أولاد الكلب؟

المسطول الرابع (وهو يخرج مطواة قرن غزال ويفتحها):

- اخرس.. (يتطلع إلى الفتاة بعيني ذئبٍ جائعٍ ويتابع) سنفعل مثله.

ثم يقترب من الشاب الوسيم ويلوح بمطواته ويسير بعدها الآخر  
الثلم على وجهه قائلًا بمزيج من السخرية والوحشية المقيتة وقد فاضت  
ملاحظته بالإجرام:

- بالطبع لن تمنع من أن تعيرها لنا يا شقيق (يضع المطواة على  
بطن الشاب وتضييق حدقاته وهو يتابع بلهجة حملت الشر كله) أم  
ستطمع في أن تبلعها وحدك وتأخذها من بطنك؟

المسطول الأول يشهر مطواته بدوره ويقترب من الشاب قائلًا:

- الله يقرئك.. ستكون بطعم الخراء إذن.. أيرضيك يا شقيق أن نأخذ  
حاجة بطعم الخراء؟

ثم وضع مطواته على وجه الشاب الوسيم متابعًا بشراسة:

- فلترحل من هنا بالذوق أحسن لك.. لك وجه وسيم ستحزن عليه  
أمك لو حمل علامة لن يحوها الدهر، وفي المرة القادمة خذها إلى البحر  
أضمن.. ففي المقابر أناس سيئون يحملون المطاوي، ويفعلون مع البنات  
قلة الأدب غصبا عنهن.

المسطول الخامس وهو يتحسس شعر الشاب الوسيم:

- بل مع الشباب أيضًا لو كانوا يمثل هذه الوسامة.. هذا الفتى  
يخصني يا رجال!

المسطول الثالث:

وبعد أن ضمنوا أنه في عداد الأموات، انقضَّ الجميع على الفتاة وبدءوا في تمزيق ملابسها بينما قام أحدهم بغزها بمطواته في فخدها لتسيل منه الدماء وتستسلم الفتاة في رعب، وعلى ملامحها أعتى ملامح القهر والدّل..

ومع انفلات دمعة ساخنة أحرقت وجنتها، نظرت للسماء في عتاب وصرخت:

- أين أنت حيال ضعيفة مهورة تستغيث بك؟ هل تخليت عني يا رب؟!

دون أن تهتز ضمائر الذئاب الجائعة بصرخة الفتاة وهي تلحق جسدها بأنياب يسيل منها اللعاب القذر، وقد نافست قلوبهم الميته موت الموق المحيطين بهم..

لكن كلمة "يا رب" كان لها مفعول لم يتوقعه أحد..

مفعول ظهر حين فتح الشّاب عينيه المغمضتين وقد لمعت بريق غريب، لينهض في حركة سريعة وقد بدأت ملامح وجهه الممزقة في الالتحام، بينما جفت الدماء بسرعة شديدة وكأنّها تتبخّر.. حتّى بذلته المهترئة عادت إلى ما كانت عليه، دون أن ينتبه أحد المساطيل لتلك المعجزة التي كانت تحدث خلف ظهورهم العارية، وهم يتناوبون تقبيل الفتاة وغرس أصابعهم في مواطن أنوثتها وجمالها الصارخ وهي مُستسلمة تمامًا، بينما تسيل دموع القهر من عينيها.

وفجأة.. انقضّ الشّاب على الرجال كالعاصفة ليطلق اللكمات والركلات بقوة خارقة وسرعة شديدة تفوق خيال البشر، وسط عاصفة ترابية ما إن خمدت حتّى رأت الفتاة المصعوقة من هول المشهد جميع المساطيل وقد افترشوا الأرض محطمي الأنوف والفكوك وعظام الوجه، لا تدري من بقي منهم على قيد الحياة ومن هلك وأصبح في انتظار الدفن لتنهض بذعر وهي تلملم ملابسها الممزقة، متطلعة برهبة وانبهار إلى الشّاب الذي صار معاقًا سليماً، يقف في مكانه شامحًا كالجبال..

افترب منها بخطواتٍ قويةٍ، واثقةٍ، مليئةٍ بالهبة والقوة العتية، وما إن وصل إليها حتّى ألقى نظرة أخرى على الرجال ثم قال بلهجة خلت من توتره وقلقه الذي كان مسيطرًا عليه مُنذُ دقائق، وقد حل محله الثقة واليقين بعد أن فوجئ هو نفسه بما يملكه من قوة ومدد لا يدري كيف ولا من أين استمده:

- لم يتركوا لي خيارًا آخر بكل أسف.. (تفيض من عينيه الفاتنتين نظرة مُفعمة بالحنان وهو يردف): لعلك بخير؟

بادلته النظرة بعينين متسعيتين دون أن تملك القدرة على الكلام، وتلاحقت أنفاسها وزادت حدة ضربات قلبها فلاحظ ذلك وهو يسألها: - أين تسكنين؟

سقطت على ركبتيها وهي لا تزال تنظر إليه بعينين متسعيتين وقد فقدت القدرة على النطق، بينما تلاحقت ضربات قلبها بسرعة وعنق شديدتين حتّى كاد يخرج من قفصها الصدري، وتسلفت انتفاضة ورعشة شديدة إلى ملامحها وأطرافها لتفقد معها السيطرة على حواسها، بينما عقد الشّاب حاجبيه وقد شعر بما تعانیه وهو يكرر سؤاله في محاولةٍ يائسةٍ لانتزاع الإجابة:

- أين تسكنين؟

حاولت النطق لكن اصطكاك أسنانها منعها وهي تتطلع إلى الشّاب برهبة تجاوز كل الحدود، قبل أن تبدأ صورته في التلاشي أمام عينيها مع ذلك الستار الأسود من الغيبوبة الذي بدأ يحل محل النظر بالتدرّج لتميد بها الدنيا ثم تظلم الرؤية وهي تغيب عن الوعي تمامًا.

\* \* \*



وحينَ تطلعت إلى نافذة حجرتها رأت الغروب يحل وقد شارفت الشمس على المغيب في الأفق، فتوجَّهت إلى دولاها الكبير وفتحته ليقع بصرها على العديد من الملابس الفاضحة التي تملأ الدولا..

أخرجت الفستان الأول المليء بالعري والفتحات الفاضحة لتأمله بضيقة و غضب ثم طرحته أرضاً، ثم أخرجت الطقم الثاني وتأملته بالامتعاض نفسه قبل أن تلقيه، وبعدها لحق به على الأرض فستاناً ثالثاً، ثم طقمٌ رابعٌ..

وبعد ثوانٍ، كانت كل ملابس الفتاة ملقاةً على الأرض بينما لا يزال بالدولا ثوبٌ واسعٌ فضفاضٌ بُني اللون، يبدو رثاً بالياً، إلا أنها مدت إليه يدها في بطءٍ وكأنها تستحي منه، وما إن لامسته أناملها حتَّى جذبته في لهفةٍ واحتضنته في اشتياقٍ وهي تتشمم رائحته كأم تستقبل ابناً عائداً من الحرب بعد أن انقطعت أخباره منذُ عشرين سنة، وتم إدراجه في كشوف المفقودين!

لم تدر كم مرَّةً عليها من دقائق وساعاتٍ أخذت فيها تبكي حتَّى استنفدت دموعها التي شربها الثوب، والتقت في حضنه بذكريات الماضي..

وحينَ أفاقته، فتحت باب حجرتها وخرجت منها لتأمل بنفس الاستحقار والكراهية صالون منزلها الفاخر، وصور التابلوهات الفنية الرائعة التي تُزين جدرانها، قبل أن تلتقي عيناها بعيني (العدرا) التي بدت في صورتها وكأنها تنظر لها خصيصاً، وتوجه لها سهام اللوم والعتاب دوناً عن باقي البشر، فخضت عينيها خجلاً وألماً، ثم توجهت إلى الحمام.

اغتمست تحت المياح المنهمرة بعينين مغمضتين وهي تأخذ نفساً عميقاً وقد امتلأت أرضية الحمام برغاوي الـ"شاور جيل" ثم نظرت إلى لحم جسدها بغير رضا وبدأت في دعه تحت الماء رغم نظافته، لتظلم تدعك وتدعك حتَّى احمرَّ جلدها الذي كادت تَسْلُخه كرهبتها في الانسلاخ مما اقترفته، وعندما تيقنت من أنه لن ينظف أكثر من ذلك التقطت المنشفة.

## (6)

في غرفة نومٍ فاخرةٍ، رغم ألوانها القائمة التي تبعث على الرهبة وتُسبب انقباضاً للنفس، فتحت الفتاة عينيها على سريرها الكبير جداً في غرفتها الواسعة لتأمل جدران الغرفة وسقفها، ثم تطلعت حولها في دهشةٍ وهي تُمسك رأسها بألمٍ من صداع يكتنفها، وقد ظنت -في بادئ الأمر- أن ما مرَّت به لم يكن سوى حلم أشبه بالكابوس.

تطلعت للصليب المعلق على الحائط المقابل للسرير، وعليه نموذج مصغر للمسيح وهو مصلوب، لتخفق نبضات قلبها فور رؤيته وكأنها تراه لأول مرةٍ، ثم نهضت من سريرها وهي لا تزال ترتدي الملابس نفسها التي كانت ترتديها بالأمس.

ما إن اصطدم بصرها بمرآة التسيحة حتَّى اتسعت عيناها بذهولٍ حينَ تأكدت من ملابسها الممزقة أن كل ما حدث لم يكن حلماً، ثم تحوَّل ذهولها إلى مزيجٍ من الاستحقار والاشمئزاز لهيئتها وشكلها، لتظلم نظرها البُغض تتفاقم وتتفاقم مع عينيها التي تضيق وتضيق قبل أن تعودَ برأسها للخلف ثم ترتد إلى الأمام نحو المرأة سريعاً وهي تبصق بكل قرف الدنيا على صورتها، وتنحدر مع بصقتها الغاضبة دمعاً حزن وقهر.. وفجأة، جذبت شعر رأسها بقسوةٍ فخرجت في يدها تلك الباروكة ذات الشعر الأحمر النَّاري التي كانت تعتمرها، ليتضح من أسفلها شعرها البني الفاتح، الأنعم من الحرير.

وعلى عتبة باب الحمام خرجت الفتاة ترتدي الثوب المحتشم الواسع  
الفضفاض القديم، تبدو في هيئتها فتاةً أخرى غير التي كانت مُنذُ قليل..  
فتاة متديّنة، فقيرة، بسيطة، لكنها أجمل بكثير بعد أن تخلت عن  
أنوثها الصاروخية المفتعلة، لتزيد حبات النمش من جمال وجهها النقي  
الخالى من المكياج..

وبعد أن غادرت الحمام، تطلعت مُجددًا إلى التابلوهات الفنية الأنيقة  
المعلقة على الجدران، ثم ناجت بعينيها أمها (مريم) وصلّت إليها بلغة  
الدمع، قبل أن تسمع صوت هاتفها المحمول يرن فوق مائدة أنيقة رغم  
صغرها وبساطتها، ليرتسم الانزعاج والارتياح على ملامحها وهي تسير  
نحوّ المحمول خائفة القوى، ضعيفة الخطوات، لتمتد يدها برعشة ورهبة  
إلى المحمول لتضغط زر الرد وتُجيب بنبرة خائفة:

- آلو..

أناها صوتٌ أجشُّ فظُّ غليظ القلب قال صاحبه:

- لعل أعصابك هدأت، وصرت أحسن حالًا.

حاولت أن تستجمع قوتها وابتلعت ريقها، وهي تقول:

- نعم بفضل المسيح، فقد اتخذت قرارًا بالتوبة والابتعاد عن عالمك ..

فقد صاحبُ الصّوت الأَجشُّ أعصابه وصرخ فيها بغتة:

- هذا عند أمك.. عندما تموتين وتلحقين بها.. لكن ما دمت حية فأنا  
الذي يُقرر وليس أنت.. يبدو أنني أخطأت بالأمس حين سمحت لك  
بالرحيل مبكرًا حتّى ترتاح أعصابك.. وأعدك ألا أكررها أبدًا.

بكت الفتاة وهي تقول له:

- لقد ارتاحت أعصابي بالفعل واستيقظتُ مما كنتُ فيه.. فلتأخذ ما  
أعطيتني وتتركني أعود من حيثُ أتيت بسلام.

- يبدو أنك في حاجة لقرصة أذن حتّى تفيقي.. فالأصناف القذرة أمثالك  
لا تفيق إلا وهي في سيارة الشرطة أو على رقبتهما سكين حادة، وتنفيذ كلا  
الأمرين شيء تافه يمكن أن تجربيه بنفسك الليلة.. الساعة الآن السادسة..  
عشرة بالدقيقة أجدك أمامي.. عشرة وعشرة لا تلومي إلا نفسك!

ورغم انتهاء المكالمة ظلّت الفتاة ممسكةً بالمحمول لثوانٍ وهي في  
حالة صدمة وعدم اتزان، قبل أن تلقي هاتفها المحمول وتبكي بشدة،  
ومن بين دموعها نددت منها حركةً سريعةً إلى جوارها فإذا بالشباب  
الوسيم واقفٌ على يمينها بشموخ، مرتديًا بذلته الأنيقة نفسها، يرقبها  
بنظراتٍ ثاقبة.

صرخت في رعبٍ وهي تضع يدها على فمها في محاولةٍ لكتم رعبها،  
غير قادرة على الكلام بلسانٍ فرّت من عليه الحروف، لتكتفي بعينين  
جاحظتين أطلت منهما كل تساؤلات الدنيا وحيرتها، فأجابها بدوره في  
لهجة أقرب للاعتذار:

- لقد أوصلتك هنا بالأمس بعد أن فقدت عييك في المقابر.. فتحت  
حقيبتك وعلمت عنوانك من البطاقة، وخضت معركة من أجل العثور  
على وسيلة مواصلات تنقلنا.. معذرةً على اضطراري للمبيت ها هنا  
خارج غرفتك.. فلم يكن لديّ مكانٌ آخر أذهب إليه.

تأملت ملامحه الوسيمة، ثم اقتربت منه في توجس وحذر وهي تمد  
يديها نحوّه في بطءٍ وحذرٍ لتتحنس وجهه وكتفيه، وتتسلل إلى أنفها  
أعظم رائحة اشتمتها في حياتها..

عطرٌ ليس كباقي العطور.. لا يصل شذاه إلى الأنف فحسب، بل  
ينفذ أثره إلى الروح والنفس، ويلقي فيهما السكينة، والطمأنينة، والراحة،  
والمتعة في وقتٍ واحدٍ، ويجعل من يشمه يُحلّق في جنبات الكون حتّى  
وإن كانت قدماه على الأرض.. الآن فقط انتبهت لروعة العطر بعد أن  
زال الخطر.

حاولت التملص من سحره، لكنها دون قصد هربت منه إليه حين  
نظرتُ إلى عينيّه الذهبيتين وقالت وهي تُغالب نفسها وكأنّها لا تزال على  
حالة الانبهار وعدم التصديق:

- لو لم أركَ أمامي مرّةً أخرى لأقسمت أنّ ما مررت به بالأمس لم يكن  
سوى حلم.. كيف فعلت ما فعلت؟ ولماذا لا يوجد أمامك مكان آخر  
تذهب إليه؟



## (7)

في سيارة موديل "شيفروليه أوبترا" ذات لون أحمر، تسير بسرعة متوسطة نسبياً على البحر، تأمل الشاب الوسيم كورنيش الإسكندرية الساحر، وشعر بقشعريرة تدب في أوصاله مع أمواج البحر المتلاحقة وقد اصطبغت بلون القمر الفضي، فيما تسلت رائحة اليود إلى أنفه وغمرت كيانه مُحدثة حالة من المتعة والانتشاء أجزم داخله أنه يمر بها لأول مرة في حياته رغم محو ماضيه وذكرياته، بينما جلست الفتاة إلى جواره على مقعد السائق لتمسك عجلة القيادة بقوة لعلها تفرغ فيها شحنة توترها المستعر في داخلها وهي تقترب من لحظة حاسمة في حياتها، وقد ارتدت ملابس مثيرة على غرار التي كانت ترتديها، بيد أنها تخلت عن شعرها المستعار الأحمر النَّاري وبدت في غاية الرقة بشعرها البني الفاتح الذي تطايرت خصلاته على وجهها، لتحكي للشاب حكايتها وهي تقود:

"اسمي آيات صالح الراعي.."

لا أمتلك في الدنيا أي شيء.."

حتى اسمي سرقوه مني وصرت أستخدمه على سبيل الاستعارة."

تجسدت ذكرياتها أمام عينيها وهي تتحدث حين كانت طفلة صغيرة تنام فوق سرير متواضع في حجرة بسيطة تنم عن الفقر، بينما يوقظها من النوم رجل كبير -نسبياً- في السن، ذو شارب كث وحواجب غليظة اختلط فيها اللون الأبيض بالأسود..

"منذ أن فتحت عيني على الدنيا وأنا يتيمة الأم.. أما أي فكان فلاحاً عصامياً ضمن فلاحى بلدة (دميتوه) التابعة لمدينة (دمنهور) بمحافظة

نظر إليها بحيرة ووجوم لا يدري ماذا يقول، قبل أن يجمع حروف الكلم الهاربة متمماً بحيرة شديدة:

- ليست لدي أي إجابة عن أسئلتك.. كل ما أعرفه أنني فتحت عيني في المقابر حيث قابلتك فاقداً كل ما يربطني بذكرياتي وحياتي السابقة، لم أعثر في ملابس على أي شيء يدل على شخصيتي، وحين احتجت للدفاع عن نفسي وعنك وجدتني أفعل ما فعلت دون أن أدري كيف.

صوّبت نظرها على وجهه الجميل، وقالت وهي تُحاول استيعاب ما فاق عقلها وتفكيرها:

- ربما تعرّضت لحادثٍ أفقدك الذاكرة أو اعتدى عليك أحدهم.. ملامحك وهيئتك توحى بأنك كنت شخصاً مهماً.

أطرق وجهه في الأرض وأجاب وهو يُحاول أن يجلب أي تفصيلة من تفاصيل الماضي:

- ربما..

ثم رفع عينيه إليها وسألها وهو يتأملها بعينين أقوى من الجاذبية الأرضية:

- وماذا عنك؟

تطلعت إلى ملامحه وهي تفنده وتمسحه مسحاً، ثم أجابت عن سؤاله بسؤال:

- هل بإمكانك أن تفعل ما فعلت بالأمس؟

زوى ما بين حاجبيه وأجابها:

- لست أفهم مقصدك.

- أعني لو ظلمني أحدهم واحتجت إلى قدراتك المبهرة التي ما زلت

غير قادرة على استيعابها.. هل ستقف إلى جانبي؟

- لا أستطيع أن أعدك بتكرار ما فعلت، لكن ما أوكد لك أنني سأبذل قصارى جهدي في مساعدتك لو كنتِ على حق.

سيطر الأمل والالفة على ملامحها ونبراتهما وهي تقول له وكأنها تتوسل:

- أقسم لك إنني على حق، لم يعد لي من يُساعدني سواك فلا تتخلّ عني!

\* \* \*

البحيرة، وأنجبنني في سن متأخرة بعد أن مات كل إخوتي الذين سبقوني في أعمار صغيرة لم تتجاوز الـ 10 أشهر على أقصى تقدير، لذا اقترحت عليه أمي أن يطلقوا عليّ اسم آيات الذي يُعتبر شادًا وغير مألوفٍ في الأوساط المسيحية، لعل الموت يُخطئني، وليت سهمه أصابني مثلما أصاب من جاءوا قبلي.. فقد جئتُ وبقيتُ حيةً بعد أن رحلت أمي في يوم مولدي".

ثم عادت تتذكر والدها وهو يجلس معها وهي طفلة على طبلية عليها طبق فول صغير، ليؤكّلها بيده من الكمية القليلة دون أن يأكل هو..

"كان كل ما يعنيه في الدنيا أن يجعلني أعيش مستورة، حتّى وإن نام كل ليلة على لحم بطنه، بعد أن يمنحني آخر لقمة استطاعت أن تصل لها يده".

- الطّبلية تزداد بها كمية الأكل، ثم تتحول إلى مائدةٍ كبيرةٍ مملوءةٍ بالطعام، وما زال الأب يقوم بإطعام طفلته..

"ومع الأيام، ازداد رزق السماء ورعاه الله بالبركة، ليظلّ شغل أبي الشاغل أن يسعدني دون أن يفكر في نفسه يومًا".

- الطّفلة تطل من نافذة دار تسكنها لتأمل أرضًا زراعيةً كبيرةً ذات محاصيل مختلفة ومتنوعة، وتنظر لها بفرحة، فيما ينحني والدها ليطلع قبلة على يد قسيس يزور أرضه ويباركها.

- الأب يُعادر سيارته الملأكي مرتديًا قفطانًا فخماً، ويعتمر عمّةً، وقد تحوّل شعره وحاجباه إلى اللون الأبيض تمامًا، وفي يده الطّفلة (آيات) التي كبرت نوعًا ما وهي تمسك يده متجهين إلى مدخل الشركة الذي يصطف عليه الغلابة والمسكين، فيقوم الأب بإخراج أموالٍ كثيرةٍ يوزعها عليهم والكل يأخذ منه المال ويدعو له.

"في البداية اشترى قطعة أرض صغيرة، ثم وسّع نشاطه رويدًا رويدًا إلى أن دخل مجال التصدير، وأصبحت لديه شركة صغيرة أسسها في منطقة (محرم بك) هنا بالإسكندرية التي انتقلنا للعيش فيها، وسرعان

ما كبرت الشركة وتضخمت أنشطته لتصبح إمبراطورية باسمه، وانتقلنا للعيش في منطقة (كفر عبده)، أجمل وأرقى مناطق الإسكندرية، لكنه ظلّ على الحال نفسها من الإيمان والمحبة والعطف على المساكين دون أن تفرق معه دياناتهم، لا سيما أن جذور عائلتنا كانت يهودية كما أخبرني، وشارك جدي الأكبر في بناء ضريح (أبو حصيرة)<sup>(1)</sup>".

عادت من ذكرياتها وهي تقود سيارتها التي تمر من أمام مول (كارفور) ودخلت حيز منطقة الـ(داون تاون)، ولا يزال الشّاب الوسيم الذي يجاورها يستمع إليها باهتمامٍ شديد..

"مع الوقت بدأت أكبر وأفهم أنه ضحّى بكل شيء من أجلي، بعد أن حرم نفسه من كل متع الدنيا، لكن مع الوقت لم يستطع أن يكمل حياته بلا امرأة تكون سنّدًا له.. كان هذا حين أخبرني ذات يوم بأنه عقد العزم على الزواج من إيريني، سكرتيرته الخاصة، فلم أملك سوى تقبّل الأمر ومباركته على مَضض.. ومهنيّت حينها لو قلت له تزوج من أية امرأة على وجه الأرض إلا هذه المرأة.. لكن يا خسارة.. لم أستطع".

سبحت في ذكرياتها مجددًا لتسترجع فرح والدها على (إيريني) التي يقف إلى جوارها طفل صغير، بينما كانت (آيات) أكبر منه قليلًا، لتنظر لوالدها في فرحةٍ مزيفةٍ لم تنجح أن تخفي دموعها التي تلمع في عينيها.. "كانت إيريني أرملة ولديها طفل صغير اسمه أمير.. وعدّها أي أنه لن يُفرّق في المعاملة بيني وبينه".

(إيريني) تقوم بضرب (آيات) وتطردها من على مائدة الطّعام في غياب الأب، بينما تحنو على ابنها وتطعمه بيديها.

"لكنها هي التي فرّقت بيننا.. وكان العقاب والقسوة دائمًا من نصيبي.. والضحك والحنان والأكلة الحلوة من نصيبه".

(1) أبو حصيرة: هو لقب الحاخام اليهودي يعقوب بن مسعود.. عاش في القرن التاسع عشر ميلاديا، وتذكر رواية شعبية يهودية أنه غادر المغرب لزيارة أماكن مقدسة في فلسطين إلا أن سفينته غرقت في البحر، وظل متعلّقًا بحصيرة قادتته إلى سوريا، ثم توجه منها إلى فلسطين، وبعد زيارتها غادرها متوجّهًا إلى المغرب عبر مصر ونزل في قرية (دميتوه) ب (دمهور)، ليدفن فيها عام ١٨٨٠م بعد أن أوصى بدفنه هناك.

الأب يعود للمنزل فتمثل (إيريني) دور الأم الحنون على (آيات)،  
وتقوم بتقبيلها والمسح على شعرها..

"كنتُ أخشى على مشاعر والدي الذي رأيت السعادة والبهجة على  
ملامحه بشكلٍ لم أعده طوال حياتي، فكتمت داخلي ما أعانيه حتّى لا  
أكدر صفوه وهو الذي ضحّى بعمره كله من أجل أن يسعدني" ..

الأب يرقدُ على فراش المرض، بينما يكشف عليه الطيب في حضور  
(إيريني) و(آيات) التي تُقبل يديه وتتطلع إلى عينيه بعينين باكيتين  
تفيضان بالحب والحنان، وكذا يقف (شوقي) محامي المقدّس (صالح)  
متأملاً المشهد..

"ورقد أبي على فراش المرض بعدما كبرت سنُّه ووهنت عظامه، ولم  
يكن لديه شخص يثق به سوى إيريني التي استأمنها على اسمه وماله  
وابنته الوحيدة، لكنها لم تكن على مستوى الثقة، لا هي ولا شوقي  
محامي الشركة".

(إيريني) تسير في أروقة الشركة وقد تغيرت أزيائها تماماً، وسط  
ترحاب الجميع الشديد، قبل أن تصل إلى مكتبها ثم يدخل عليها (شوقي)  
المحامي وعلى وجهه ابتسامة تُغلب ماكر..

"ما إن عمل لها والدي توكيلاً عامّاً وأصبحت كل الخيوط في يدها،  
حتّى سقطت كل الأقنعة، وظهرت الصورة كاملة بكل مساوئها"

(آيات) تدخل مكتب والدها فتجد (إيريني) في حِضن المحامي  
فترسم الصدمة على ملامحها وهي تنظر إليهما بصدمة شديدة، بينما  
تعتدل زوجة أبيها في جلستها ويتعد عنها المحامي بسرعة.

"ومكر الشياطين تحالفت مع محامي أبي، وسيطرا على كل كبيرة  
وصغيرة في غياب والدي الذي ظلّت حالته تتدهور يوماً بعد يوم..  
حاولت أن أصلح الأمر بنفسي دون أن أخبره بالحقيقة؛ خوفاً عليه  
من صدمة لن يحتملها في مرضه الشديد، لكن هذا لم يكن مبرراً كافيّاً  
لتعطيل أمر الله الذي كانت كل الشواهد تؤكد قرب وقوعه حتّى

صار أمراً مفعولاً تيقنت منه وأنا أوارى أبي الثرى بعد أن تبيحت روحه  
الطاهرة" ..

ومع آخر حروف كلماتها أمطرت عينها سيلاً شلالاً وهي تقول  
بتأثر بالغ:

- في حياتنا أحياء يموتون مرّة واحدة، وموت نحن بفقدهم في كل  
لحظة.

ثم أخذت هدنة مؤقتة من ذكرياتها المتدفقة كنبع نهر، ليختفي  
من عينها الماضي دون أن تختفي الدموع السحاحة فانتهاز الشاب الوسيم  
فرصة توقفها عن الحكي وسألها:

- وأين باقي أفراد عائلتك الذين كان من المفترض أن تلجئي إليهم؟  
التفتت إليه وقد تجمدت الدموع في مقلتيها وقالت بنبرة صوت  
متهدجة:

- مُنذُ أن وعيت على الدنيا وليس لي سوى والدي الذي أخبرني بأننا  
آخر فرع في شجرة عقيم اقتلع خريف القدر كل أصولها، وحين رحل  
وجدتُ نفسي كشمعة في مهب الريح، بلا أهل أو سند.

نظر لها الشاب الوسيم بحزن، واستمر بينهما النظر، قبل أن تغرق  
في ذكرياتها مجدداً..

في منزلها الفاخر انقضت (آيات) على الخادمة التي تقتلع صورة  
والدها من على الحائط صائحةً فيها:

- ماذا تفعلين أيتها المجنونة؟  
الخادمة (بتحدّ):

- هذه أوامر (إيريني) هانم.

ومع آخر حرف غادر شفتي الخادمة، حضرت (إيريني) ومعها  
ضابط وقوات من الشرطة على يمينها، و(شوقي) المحامي وابنها الصّغير  
(أمير) على يسارها، لتشير إلى (آيات) بحزم وقسوة:

- هذه هي الفتاة يا حضرة الضابط.

الضابط ينادي في العساكر بصيغة الأمر:



- أحضروها!

الطفلة (آيات) تتراجع إلى الخلف بينما ينقض عليها اثنان من العساكر ويصحبانها بغلظة، فيما تقول (إيريني) بقسوة:

- صدق من قال، خيرًا تعمل شرًا تلقى.. أبعد أن أخذك المقدس صالح من الشارع أيتها اللقطة وتبناك مثل ابنته، تكون السرقفة هي جزاءنا قبل أن تجف دماؤه في قبره؟

اتسعت عينا (آيات) وهي تصرخ كالممسوسة:

- اخرسي يا كاذبة.. المقدس صالح كان أبي، واللص الحقيقي هو أنتِ أيتها العاهرة التي لم تصن عرض زوجها في مرضه.

صفتها (إيريني) بعنف وهي تصيح فيها:

- قطع لسانك يا ابنة الزنا.. كيف لابنة حرام مثلك أن تسب أسياها وتدعي نسبها إلى الرجل الطاهر.. إنه والد ابني أمير وحده، أما أنتِ فتعودين من حيثُ أتيتِ بعد أن انتهت علاقتك بهذا المكان.

(شوقي) المحامي يُخرج ورقة من جيبه ويسلمها للضابط قائلاً:

- أرجو أن تثبت سعادتك في المحضر أن المرحوم صالح -قدس الله روحه- كان قد ترك وصية أكد فيها أن هذه الفتاة ليست ابنته، وأنه اعترف بذلك حتى يُريح ضميره.. وحينَ أخبرناها بالحقيقة رفضت أن تصدقنا وسرقت موكلتني.

تنفض (آيات) في ثورة وتُحاول التملص من أيدي العساكر وهي تبكي وتصرخ بعنف:

- كaaaaaaaaااذب.. كلكم كاذبون.. أنا ابنته غضبًا عنكم وعن الدنيا كلها.

الضابط يأخذ الورقة من المحامي ليقراها، ثم يطويها ويضعها في جيبه، قبل أن يهيمَّ بالانصراف، بينما تسحب العساكر (آيات) التي لا تزال تبكي وتحاول التملص منهم، لتمر وهم يجرجرونها إلى جوار (إيريني) التي تنتظر إليها في شماتة وقسوة، فتبصق (آيات) في وجهها وهي تصرخ:

- أقسم إنني سأدمر حياتك قبل أن أقتلك.. لن تجدي في الأرض شبرًا واحدًا تختبئين فيه من مصيرك الأسود.

مسحت (إيريني) وجهها من البصقة بغلّ، ثم صفعت (آيات) بغضبٍ هادر، وهي تنظر إلى سلسلة ذهبية ترتديها ومعلق بها صليب لتتسبب فيها قبضتها ثم تنتزعها من على رقبتها لتمزقها في الوقت الذي يسحبها فيه العساكر ويرحلون بها.

انهمرت دموع (آيات) بحرقةٍ شديدةٍ في سيارتها التي توقفت في مكانٍ ساطع الأضواء، وانهارت في نحيبٍ وفي خلفيتها ملهى ليلي مكتوب على واجهته باللون الأحمر "Black Devil"، في حينَ تأمل الشَّاب الوسيم سيارات فارهة -ثمن واحدة منها كان كفيلاً بحل أزمة عائلته بأكملها- يُغادرها شبابٌ أثرياء يبدو على ملابسهم وأشكالهم الترف وهم يدخلون المكان، بخلاف فتيات ذات ملابس عارية وفاخرة في الوقت نفسه، يُغادرن المكان بصحبة شباب آخر ليركبن معهم سياراتهم..

ثم عاد الشَّاب الوسيم يتأمل ملامح (آيات) وهي تتابع بصوت لم يتخلص بعدُ من نبرته الباكية:

"تلاعبوا في الأوراق الرسمية، وبدلوا الحقائق باستخدام أقوى أداة قادرة على صنَع المستحيلات؛ المال.. خاصة لو كان الأمر في يد موظفين ضعاف النفوس، وفي بلادٍ كبلادي التي صار كل شيء فيها قابلاً للبيع. حتى الآن ما زلت أذكر أول يوم لي في مؤسسة رعاية الأحداث مع أطفال الشوارع واللصوص والمتسولين واللقطاء.. في البداية أقسمت على الانتقام، لكن يوماً بعد يوم تلخست أحلامي في مغادرة المكان والسير إلى جوار الحائط حتى لا أعود للسجن مرةً أخرى أبدًا.. تعلمت الحنين لزمين كان أقصى طموحي فيه أن تنتهي الحصة الأخيرة في المدرسة حتى أعود لمنزلنا وأشاهد الفيلم العربي وأنا أتناول الغداء وأمنّي نفسي بالارتقاء في حضان أبي فور عودته من العمل.. وجاء اليوم الذي غادرت فيه موطن الإجرام والمجرمين.. لكنني وجدت الدنيا كلها وقد باتت سجنًا كبيرًا لا أعرف كيف الخلاص منه".



- دخلت أحدث مجال الملابس، وارتدت في غرفة البروفة كل ما هو  
ثمين وساخن قبل أن تخرج ويتأملها (ريمون) بنظرات شيطانية.  
"لم يبخل عليّ بمصارييف سخية دفعها من أجل تغيير شكلي  
ومظهري.. استغل إجادتي للغة الإنجليزية التي أتقنتها مُنذُ كنت طالبة  
بمدارس أجنبية حتّى يقدمني لمعارفه وأصدقائه على أنني خريجة  
الجامعة الأمريكية ابنة الحسب والنسب.. كنت حينها يائسة من رحمة  
الله وعطف البشر بسبب ما عانيته بعد خروجي من الأحداث؛ لذا  
قررت أن أبيع بالغاالي بدلاً من أن أمنح بلا مقابل".

قالت جملتها الأخيرة وهي تنظر للشباب بخجل، في حين تأملها بهدوء قائلاً:  
- كل المسكنات بطيئة المفعول ولا تقوم بدورها على أكمل وجه  
حيال آلامنا الشديدة.. إلا مسكنات الضمير المصنوعة من حججنا الكاذبة  
ومبرراتنا الوهمية، وحدها التي صنعها الإنسان بإجادة تامة.. وكلما كان  
الإنسان عابداً لأحلام عزيزة المنال كان مفعولها أقوى وأسرع.  
- هذا حقيقي؛ لذا استيقظت متأخراً بعد أن علمت أنه فعل مع كل  
البنات اللاتي شغلن لديه، نفس ما فعل معي، وأن الأمر أكبر بكثير من  
تجارة لحم رخيص.

أطلّ الاستفهام من عيني الشاب لتقول لها نظراته: "أكملي"، فأردفت:  
- كان كل هدفه هو إقناع رواد المكان من الشباب الأكبر، أبناء كبار  
البلد، بأن الفتيات الموجودات في الملهى لسن بنات ليل يعملن في المكان،  
ولكنهن بنات من صفوة المجتمع، يعشقن الحفلات والرقص والشرب،  
حتّى يحوم الشباب حولهن باعتبارهن صيداً ثميناً، ثم يعتقدون أنهم  
أوقعوا الفتيات في شباكهم دون أن يدركوا أنهم هم الذين سقطوا في  
الفخ، لتصطحب فتيات ريمون هؤلاء الشباب لحفلات أخرى خاصة تقام  
في فيلات فاخرة، كل شيء فيها مباح ومتاح، وهناك يتحول هؤلاء الشباب  
تباعاً إلى مدمنين لأحدث أنواع المخدرات كالطوباع والأكس تي سي وغيرها،  
ويتم تسجيل مقاطع جنسية فاضحة لهم؛ حتّى يتم تجنيدهم للتجسس

مع حروف كلماتها الأخيرة انتحبت حتّى فقدت القدرة على الكلام  
وانهار رأسها على صدرها وهي تنتفض، ليتأملها الشاب بتأثير ثم التقط  
عدة مناديل ورقية من علبه كرتونية في السيارة، وناولها لها قائلاً بحزم:  
- جففي دموعاً لن تُغير من ذكرياتك الحزينة شيئاً، واستلهمي من  
أحزانك ما يُعينك على القضاء عليها!

توقف نحيبها بينما لا تزال دموعها الساخنة تلهب وجنتيها، ثم  
حاولت أن تستجمع قواها وهي تواصل بشفتين مرتعشتين:  
- بعد أن خرجت من الأحداث مررت بظروفٍ عصيبةٍ ربما كنتُ في  
غنى عن ذكرها الآن، قبل أن تتعرف إليّ في الكنيسة فتاةً قادتني للعمل  
مع ريمون عزيز.. صاحب ملهى "بلاك ديفيل" الذي تم تشييده على  
أحدث صيحة لنوادى الليل العالمية.  
بدأت دموعها في التوقف حين ابتلعت ريقها ثم استطردت قائلة:

- تعرفت إليه من خلال مكتب جرافيك كنت قد التحقت بالعمل  
به بعد خروجي من الأحداث.. في البداية أقتعني بأنه محتاج لبنات ذات  
مظهر جذاب وتنطبق عليهن مواصفات خاصة في المظهر والجمال وإجادة  
اللغة حتّى يُسهمن في الترويج للمكان.. وحتّى يغريني أكثر عرض عليّ  
أن يستأجر لي شقة فخمة في مكان محترمٍ ويمنحني سيارة فاخرة حتّى لا  
أعرض لمتاعب المواصلات.

ثم عادت لتتذكر بداية رحلتها مع (ريمون عزيز)..

- رأته في عين خيالها وهو يصطحبها لأحد مراكز التجميل ويتحدث  
مع الفتيات هناك ويخبرهن بطلباته التي يريد تنفيذها في ملامح وجسد  
فريسته الجديدة.

- استسلمت للفتيات اللاتي يضعن على وجهها وجسدها لمساتهن  
السحرية لتنعيم بشرتها وصنفرة وجهها وتزويدها بكل ما هو جديد  
وجذاب في عالم الأنوثة والإثارة، قبل أن تعتمر شعراً مستعاراً ذا لون  
أحمر ناري.

على أهاليهم أصحاب المناصب والهجمات وجلب المصالح والمكاسب منهم حتى آخر رمق.

تطلع إليها الشاب باهتمام وتفاعل قبل أن يسألها:

— ولماذا لم تتركي العمل؟

— هل تعتقد أن (ريمون) كان سيصرف علينا كل هذه المبالغ دون أن يضمن حقه؟ كل فتاة صرف عليها قرشًا واحدًا وقَّعت في مقابلته شيئًا على بياض، ووعدنا بأننا سنسترد تلك الشيكات بعد أن نسدد ما صرفه علينا ونقدم له الخدمات التي يحتاجها، بعد أن حوّل العناوين المدونة في بطاقتنا الشخصية على الشقق التي اشتراها لنا حتى يضمن سيطرته علينا، وكل واحدة منا تدرك جيدًا أنه لن يُعيد لنا تلك الشيكات أبدًا.. مُنذُ قريبٍ شاهدت فيلمًا وثائقيًا عن الإتجار بالبشر لصحفية بلغارية قامت بمغامرةٍ انتحلت من خلالها شخصية عاهرة حتى تكشف كواليس هذا العالم، والتقت نساء تم خطفهن من دول البلقان مثل ألبانيا وبلغاريا ومقدونيا وغيرها بعد أن يستغل الخاطفون ضيق أحوالهن المادية وضرجهن من عيشة أهاليهن، وبعدها تبدأ عملية التدمير، وهي أيام أو أسابيع من التعذيب والاعتصاب التي تهدف إلى كسر روح الضحية ومقاومتها، وبعضهن خضعن للتصوير بالفيديو أثناء عمليات اغتصابٍ جماعي، وكانت هذه طريقة فعّالة للسيطرة عليهن، بعد أن يقول القواد للضحية: "إن فكرت في الهرب منا فإن لدينا الصور ولدينا الدليل، نعرف أين تسكنين، وسنرسل هذه الصور لوالدك وأمك".

تخيل معي هذا المشهد.. إحدى الشقق بأحد الأحياء البسيطة في استانبول؛ حيثُ يعيش في الشقة رجلٌ وزوجته مع اثنين من الأطفال ولديهم غرفة إضافية مغلقة دائمًا.. يطرق بعض الرجال الباب خلال النهار، يفتح الزوج باب الغرفة ويقف في الخارج، ثم يُرافق الرجال إلى باب العمارة بعد الانتهاء ليقبض منهم المال ويطلب منهم أن يزوروه مجددًا، بينما تكون زوجته في تلك الأثناء منشغلة بعمل البيت الروتيني فتغسل الأطباق أو تشاهد التلفاز، غير عابئةٍ أو مهتمةٍ بما يجري داخل

تلك الغرفة المحبوس فيها ثلاث فتيات تم تهريبهن من مولودوفا، وعلى الأرض بعض البطانيات القذرة ينمن عليها.. يلبسن قمصانًا وملابس داخلية رثة، أما النَّافذة فمغلقة تمامًا، لا فرصة للاستحمام لأيام عديدة.. يدخل الزبون الغرفة، يختار البنت، ويكون الدفع بالدقيقة، أما من لم يقع عليهما الاختيار فتجلسان في الزاوية إلى أن ينتهي الزبون، تواجهان الجدار.

إحدى البنات تبحث عن شيء حاد لتقطع به عروقها وتموت، إلا أنها لا تجد شيئًا في الغرفة، تُفكر في سرقة أية أداة حادة من زبون حين يأتي؛ كسكين قصافة أظافر مثلًا، ولكن أنى لها أن تمس يدها إلى جيبه، لتنتظر الفتيات الثلاث أن يفتح صاحب الشقة المخطوفات فيها باب الحجرة حتى يرمي بعض حبات الموز في الغرفة ثم يغلق الباب بسرعة، دون أن تمثل له هذه الفتيات شيئًا سوى حيوانات قذرة<sup>(1)</sup>.

تنهدت الفتاة تنهيدةً حارةً، فرَّت فيها الدموع رغمًا عنها من مقلتيها بعد أن كادت تغلق بوابة قنواتها الدُمعية، واستطردت قائلة:

— كانت مشاهدة هذا الفيلم علامةً فارقةً في حياتي.. بكيت كما لم أبك من قبل، ورأيت نفسي في بطلات الفيلم الحقيقيات.. فنحن اللائي ننزف كل شهر للمساعدة في بقاء الجنس البشري، وأرحامنا هي بيت الروح الإلهية، لكن الرجال لا ينظرون إلينا إلا كسلعة جنسية.. وحين أردت التمرد على هذا الوضع والنهوض من سقطتي لم أجد سوى قبر أبي الذي قادتنى إليه قدمي رغم خوفي الشديد من المقابر؛ لأنسى أمامه الدنيا والزمن حتى التقيتكَ.

زفر الشاب بضيقٍ شديدٍ وهو يتطلع إليها مصدومًا لا يعرف ماذا يقول، فانكبَّت على يديه فجأة وقبلتهما بذل وتوسل:

(1) كل ما ورد حول هذه المغامرة الصحفية مأخوذٌ من تجربة حقيقية في مقال حمل اسم (ثمن الجنس: مغامرة صحفية خطيرة لغرض نبيل) للكاتبة ميمي شاكاروفا، ترجمة محمد زيدان.

- أُقْبِلْ يَدِيكَ.. ابذلِ قِصَارِي جِهْدَكَ لِإِنْقَاذِي.. (انحدرت من عينيها  
دمعةً أخيرة ختمت بها كلامها) لقد صرْتُ امرأةً رخيصة لا تُمن لها، وأنت  
أُملي الأخير في أن أسترد آدميتي وشرفي المفقود، أو أخسر كل شيء.  
لمعت عينا الشاب بربقي يفيض بالتَّحدي وهو يسحب يده من  
تحت شفيتها الساخنتين، وسأل بحروفٍ هادئةٍ بطيئةٍ تطل منها صرامة  
الدُّنيا كلها وهو ينظر إلى الملهى المطل في خلفية (آيات):

- أهذا هو المكان؟

تأملت ملامحه بتوجسٍ وقلقٍ وقد حانت لحظة المواجهة، قبل أن  
تومئ برأسها إيجابًا في تردد، دون أن تقوى على النطق.

\* \* \*

## (8)

سارت (آيات) في مدخل الملهى الليلي وعلى يمينها الشاب الوسيم،  
ليمرا بين 4 رجال ضخام الجثة برؤوس صلعاء تمامًا، وقد بدت عضلات  
كل منهم مجسمةً تحت البذلة التي يرتديها؛ كصورة مصغرة من البطل  
الأسطوري Hulk، قبل أن يظهر (نصحي) المستول عن استقبال الزبائن  
على الباب لتوحي ملامحه بأنه رجل في بداية الأربعينات، جبهته مبططة  
وكأنها دهستها دبابة، ذو مقدمة شعر خفيفة تميل للصلع، وعلى شعره  
الأسود الطويل المموج كميةً كبيرةً من مثبت الشعر جعلته شديد  
اللمعان، ويرتدي قميصًا كاجوال معظم أزراره مفتوحةً كاشفةً عن صدر  
أملس كعروس في ليلة زفافها، وتتوسطه سلسلة ذهبية ضخمة، بينما تنم  
ملامح وجهه عن الخباثة والدَّهاء..

تأمل (نصحي) الشاب الوسيم الذي بدا نجمًا سينمائيًا ببذلته  
الغريبة التي يرتديها وشعره المصقَّف، ثم هيا على لسانه كلمات  
الترحيب بالصيد الثمين؛ معتقدًا أن (آيات) أوقعته في شباكها.. وما إن  
فتح فمه الخرب حتَّى برزت أسنانه المسوسة التي تنافس على كسوتها  
اللُّونان الأصفر والأسود باستثناء بعض التجاويف الفارغة لأسنان سقطت  
ولن تعود:

- أهلاً وسهلاً معالي الباشا.. أنرت المكان كله.

قالها وعيناه تفتسان وجه الشاب بنظرات ذئب، فقاطعته (آيات) بصرامة:

- لا شأن لك به يا نصحي.. إنه ليس زبونًا كما تعتقد.



غربت الابتسامة عن وجهه، وأظلمت ملامحه فاستطردت بالصرامة نفسها:

- هل السيد (ريون) في مكتبه؟
- عقد حاجبيهِ وأجابها بضيّقٍ وصدمةٍ من طريقتها في الكلام:
- نعم، ولكن...
- عاجلته بجملةٍ قاضيةٍ أنهت الحوار:

- فلتكمل عملك مع باقي الزبائن إذن.. فأنا أعرفُ طريقي جيداً.

قالتها وهي توليه ظهرها، متجهةً بصحبة الشاب الوسيم إلى الداخل ومن خلفها (نصي) الذي اتسعت عيناه، ثم أشار لأحد ديناصوراته ليقترّب منه مسرعاً وينحني حتّى أصبحت أذنه أمام فم سيده الذي همس فيها بكلماتٍ مقتضبةٍ وهو يشير نحوَ (آيات) وملاكها الحارس.

\* \* \*

على خلفية أغنية "Love" للمطربة "Inna" أصبح الشاب الوسيم مع (آيات) في قلب الملهى لتتسع عيناه بدهشةٍ عارمةٍ وهو يشاهد هذا العالم الغريب في الوقت الذي صفّق فيه بعض رواد المكان لبدء هذه الأغنية التي راقتهم كثيراً..

اندمج البارمان مع الأغنية ليقوم بفتح زجاجات الخمر بسرعةٍ شديدةٍ لتفور في وقتٍ واحدٍ وبشكلٍ استعراضي، في حين يقوم بصبها بشكلٍ سريعٍ ومبهر في الكؤوس ليتهافت الشباب والفتيات على التقاطها وشربها في آنٍ واحد..

وعلى المسرح تراقص الشباب والفتيات بشكلٍ هستيري، ليقع نظر الشاب الوسيم على شابٍ وفتاةٍ يرقصان بمهارةٍ عاليةٍ حتّى إن الجميع توقفوا عن الرقص ليصنعوا دائرةً حولهما، وأخذوا يصفقون لرقصهما الاستعراضي المبهر..

كان ذلك حينَ دخل المكان ذلك الرجل ذو العينين الزرقاوين اللامعتين، والبذلة الرمادية ذات التفصيلة الغربية؛ ليراقب الأجواء بابتسامةٍ ساخرةٍ،

اتسعت حينَ رأى حول جميع رواد المكان هالات حمراء، عدا الشاب الوسيم الذي كانت تُحيطه هالة خضراء، ما إن رآها الرجل المريب حتّى تبددت ابتسامته، وارتسم الغضبُ بأعتى صورته على ملامحه، قبل أن ينقل بصره نحوَ (آيات) التي أحاطتها هالة رمادية.

على إحدى الموائد نظر مجموعةً من الشباب إلى مائدة مجاورة تجلس عليها مجموعة من الفتيات ذوات المظهر الأنيق جداً والساخن للغاية في وقتٍ واحدٍ، بشكلٍ يجعل الناظر لا يشك لحظةً في أنهن فتيات ليل، بقدر ما يشعر أنهن فتيات متحررات من رواد المكان الذي يأتيه أبناء الطبقة الأرستقراطية.

غادر أحد الشباب مقعده وذهب للحديث مع إحداهن، ثم أشار إلى المائدة التي يجلس عليها أصدقاؤه، فابتسمت الفتاة بدورها وأشارت لباقي صديقاتها ليذهبن جميعاً بصحبة الشاب إلى مائدة أصدقاؤه ويجلسون جميعاً في صحبة واحدة.

وعلى البار، جلست فتاة ذات شعر باذنجاني ترتدي "هوت شور" أزرق و"بادي" حمالات أبيض، وما إن لمحت (آيات) وهي تسير في المكان بصحبة الشاب الوسيم حتّى لكزت صديقتها ذات البشرة الخمرية واللمعة الذهبية بفعل "نان" أخذته تحت الشمس، بخلاف شعرها البني الفاتح، المتناغم مع لون التنورة القصيرة الضيقة التي لها لون الجلد وكأنّها لا ترتدي شيئاً، فيما اكتسى نصفها الأعلى بـ"بادي" ضيق يبرز منه صدرها المنفوخ لتتأمل كلتا الفتاتين الشاب الوسيم، قبل أن تتجهما إليه وهما تؤديان الحركات الراقصة، وما إن تقتربا حتّى ينظر لهما الشاب بصدمةٍ وحيّرةٍ، بينما يتسلل شذى رائحته إلى صدريهما ليؤجج داخلهما الإنارة والاشتها، في الوقت الذي استمتعت كل منهما بالنظر إلى بهاء ملامحه وقوامه الممشوق لتمنحاه نظرةً تفيض بالرغبة، وتُخرج كل منهما لسانها اللامع بعلق الشهوة، فتشير (آيات) لإحدهما بالتوقف، فتستغل الأخرى انشغال (آيات) بزميلتها لتقترب من الشاب الوسيم وتمسح كتفها في صدره ليتراجع كمن مسّه تيار كهربي، وقد شعر داخله باستيقاظ شيء



خاملٍ دبَّت فيه نيران خفية أرقت نومه، وظلَّت تتأجج ويشند وهجها في سرعةٍ رهيبة، غير أنها عكس باقي النيران كانت تبحث عن الانطفاء والخمود في كيانٍ يحتويها وتفترغ فيه لهيبتها؛ حتَّى تنطفئ جذوتها وتموت شعلتها في رضا وسعادة، ليلمح الرّجل ذو العينين الزرقاوين تلك الهالة الخضراء المحيطة بالشّاب وهي تتحول إلى اللون الأحمر للحظات، ثم خبث حمرتها وعادت من جديدٍ إلى اللون الأخضر الخصب، حين انتبهت (آيات) للفتاة ودفعتها بعنفٍ وهي تنظرُ لها شزرًا صارخة فيها:  
- قبض الله روحك!

لندب مع كلمة "الله" طاقة غير عادية سرت في أوصال الشّاب ليقشع جسده، وترتعش حواسه وهو يشعر في أعماقه بموجة عاتية تقلب كيانه وتعيد تشكيل ذرات جسده، فتنتفض عروقه، وتتضخم عضلاته، وتصير عظامه غير قابلة للكسر.

ومن بعيد، وقف (نصحي) وهو ينفث دخان سيجارته، ليتابع موقف (آيات) بنظرة مُر تضيّق حدقتاه، قبل أن يُلقي سيجارته ويدهسها بحذائه، ثم يتجه نحو مكتب (ريمون) صاحب المكان.

\* \* \*

دخل (نصحي) مكتب (ريمون) الفاخر الذي يحتوي على أثاثات وديكورات تنتمي لنوعية الـ "ألترامودرن"، بينما تزين جنباته تماثيل منحوتة لنساء عاريات، وقطع عديدة من الأنتيكة، ويكسو الحائط الذي يستند إليه مقعد المكتب الذي يجلس عليه (ريمون) صورة ضخمة لنجمة الإغراء الراحلة (مارلين مونرو)، بينما تناثرت على باقي الحوائط صور تجريدية أخرى ليست واضحة التفاصيل، وإن كان تكوينها يميل للغموض والرّهبة، ويخيل لمن يشاهد ألونها الغامقة أن الشيطان يطل منها، لا سيما مع تلك الإضاءة الهادئة بألوانها الأحمر والبنفسجي والأخضر؛ لتتناغم بشكلٍ ساحر، وفي ركن المكان استقرّ بار فخم وضخم من الرخام به كمية كبيرة جدًّا من أشهر أنواع الخمور..

فيما غاص (ريمون) في مقعده الضخم الوثير، ممددًا ساقه على المكتب، مرتديًا طقمًا جلدًا فخمًا للغاية، سواء البنطال المرسوم عليه نقوشات مميزة، أو القميص المفتوح كله ولا يغلقه سوى زر واحد، وتطل من أسفله سلسلة ذهبية ضخمة، وشعر صدر كثيف، حتَّى الحذاء كان مرصعًا بالذهب، وحول معصمه ساعة "رولكس" ثمينة جدًّا، واضعًا حول عينيه كحلًّا، وعلى وجهه مكياج كامل، بينما حلق جانبي شعره تمامًا، وفي منتصف رأسه صنع له كوافير أمريكي بماكينة شعر مخصوصة حلاقة على صورة حرباء تُسيطر على جمجمته وتمتد مخالبتها وكأنها تغرسها في جانبي رأسه المحلوقين، بينما ترك في مؤخرة شعره خصلة رفيعة طويلة معقوصة وكأنها ذيل الحرباء لتستثير هيئته الرّهبة في قلب من يُشاهده لأول مرّة.

كل هذه تفاصيل اعتادتها عليها عينا (نصحي) من جراء عمله اليومي كذراع يمني لـ (ريمون) الذي يتحدث أمامه في هاتفٍ خلوي صغير مصنوع من الذهب الخالص، وبكلماتٍ إنجليزية أمريكية تمامًا وبصوتٍ خفيضٍ ألقى كلماته الأخيرة، ثم أنهى مكالمته ووضع الموبايل على المكتب قبل أن يخرج سيجارة "ماريجوانا" ليشعلها وينفث دخانها متأملًا سقف المكان، وهو يسأل (نصحي) بخيلاء دون أن ينظر إليه:

- خير يا نصحي؟
- لقد حضرت آيات يا (ريمون) بك.
- ابتسم الأخير ابتسامة واثقة مقتضبة، ثم نفث دخان سيجاره ببطء راسمًا به دوائر في الهواء قبل أن يقول بسخرية:
- لم يكن أمامها خيارٌ آخر.
- إلا أن (نصحي) باغته بتوتر:
- لكنها لم تأت بمفردها.
- اعتدل (ريمون) في جلسته ليسأل بجديّة وهو ينزل رجليه من على المكتب:
- من جاء معها؟

قالها الشاب الوسيم بنيرةٍ واثقةٍ تموج بالصرامة وهو يدخل المكان بتحدٍّ، وخلفه تسير(آيات) بجهاز عصبي كاد يحترق من فرط التوجس والترقب، وقد تسارعت نبضات قلبها حتّى كادت تغطي على أصوات الموسيقى الصاخبة التي تتردد في أرجاء المكان.

أخذ (ريمون) نفساً عميقاً من سيجارته، ثم نهض وهو يتأمل الشاب الوسيم من شعر رأسه وحتّى أخمص قدميه، في حينٍ تقف (آيات) خلف كتفي الشاب تتطلع إلى المشهد برهبة، وداخل رأسها تتوالى كل الاحتمالات.

سار (ريمون) نحوهما بخطواتٍ تعمد أن تبدو مستهترّةً حتّى أصبح أمام الشاب فنخ في وجهه دخان سيجاره وهو يسأله:

- من أنت؟

- ليس مهمّاً أن تعرف من أنا، بل المهم أن تعرف ماذا أريد.

ضاقت عينا (ريمون) وهو يرمق الشاب بنظرةٍ ناريةٍ تفيض بالشّر قائلاً:

- أوأمري!

ران الصمت على المكان للحظات أخذ الشاب الوسيم يتأمل فيها ما يحقدق به من ديكورات ورسومات، قبل أن يصوب سهام نظراته نحو(ريمون)، ويخرج ورقاً من جيب بذلته ليمده نحو قائلاً بلهجة صارمة:

- هذا عقد شقة آيات والسيارة التي اشتريتها لها.. شكراً إلى هذا الحد.. حاجتك عندك ومن حقها أن تسترد الشيكات الخاصة بها لديك.

اقترب (ريمون) منه أكثر حتّى تلاقى أنفاهما:

- ماذا لو قلتُ ليس لها حق عندي؟

أجابه الشاب الوسيم بنظرةٍ صارمةٍ متحدية:

- من لا يحصل على حقه بالأصول والتراضي، يضطر لأن ينتزعه بالقوة.

قهقه (ريمون) ساخرًا، ثم أردف باستخفاف:

- أووووووه! واضح أنك جامد جدًّا.. (ألقى سيجاره فجأةً ودهسها بقدمه وعيناه تبرقان بغضبٍ متابعًا) وأنا أحب أن أشاهد ما لديك؛ حتّى أصفق لك.

قالها وهو يُصفق بيديه بصوتٍ عالٍ لينفتح باب مكتبه ويدخل 5 رجال ضخام الجثة من المُعينين لحراسات المكان، يرتدون بذلاتٍ ذات شكل ولونٍ واحدٍ قبل أن يسأل أضحهم:

- ماذا هناك يا (ريمون) بك؟

التفتت (آيات) نحو الرجال وارتسم الرعب والهلع على وجهها بأعنى صورته، قبل أن تتراجع بعيداً عن الشاب الوسيم وهي تتمتم بصوتٍ خفيضٍ يملؤه الرعب:

- استر يا رب.. دعه يفعل ما فعله بالأمس!

في حينٍ أجاب (ريمون) على حارسه ساخرًا:

- دعوتكم من أجل فقرة السّاحر.. يظهر أن الأستاذ لديه عرضٌ مجاني يريد أن يمنحنا متعةً مشاهدته.. قل لي أيها الوسيم، هل ستخرج ناراً من فمك أم ستخرج بيضة من...أذنيك.. دعنا نعتبرها من أذنيك!

تأمل الشاب الوسيم الرجال ضخام الجثة، ثم قال ببرود:

- قديماً قالوا شجرة واحدة قادرة على صنع مليون عود ثقاب.. لكن عود ثقاب واحد من الممكن أن يحرق مليون شجرة، أتمنى أن تعوا الدرس قبل فوات الأوان.

هنا أخرج أحد الرجال من جيب بذلته علبة ثقاب واقترب من الشاب الوسيم وهو يفتحها أمامه قائلاً بغلظة وقسوة:

- ها هو ذا الثقب.. أرنا كيف ستحرقنا!

تجاهله الشاب الوسيم والتفت نحو (ريمون) متابعًا بالبرود نفسه:

- آخر مرّة أطلب منك شيكات آيات يا سيد (ريمون)، ودعنا نمض

في سلام!



بالهدوء والثقة، وإن أطلت من عينيه الصرامة، وهو يُطالع فشل الرّجل في هزيمته..

عندها بدأت يد الشّاب في الارتفاع ببطء لكنه قوي ومحسوب، بينما يتشنج الحارسُ ويصيح محاولاً منع ذلك دون جدوى..

ارتسمت الفرحةُ على وجه (آيات) بينما نظر (نصحي) بقلق نحو (ريمون) الذي أمر بعينه رجلاً ثانيًا من رجاله أن يتدخل، فانقض الحارسُ الثاني على يد الشّاب الوسيم وتعلق بها حتّى يجعله يخسر دون جدوى، لتواصل يد الشّاب الوسيم تقدمها رغم تدخل الحارس الثاني، قبل أن يتدخل الحارس الثالث، ثم الرابع، ثم الخامس في حين تواصل يد الشّاب التقدم حتّى تهزم يده أيديهم كلها وتضعها على البار، ثم فجأة تلمع عيناه ويضغط بيده بقوةٍ شديدةٍ مفاجئةٍ على أياديهم المتكدسة فوق بعضها البعض على البار فيصرخوا جميعًا بألم شديد، بينما تردد صوت انسحاق عظام كفوفهم مع تشقق رخام البار وكأن قوةً هائلةً تضغط عليه، قبل أن ينهار البار ويسقط جميع الرجال أرضًا، لتنهزم مخاوفُ (آيات) ويتراجع مصيرها السوداوي الذي تجسّد أمام عينيه وهي تطلق شهقة فرح أفرغت شحنة التّوتر ومكنونات نفسها وهي تنظر للشّاب بفرحةٍ عارمةٍ غير مُصدقةٍ ما ترى.. أما (ريمون) فقد اتسعت عيناه بدهشةٍ وذهولٍ ليسقط السيجار من يده قبل أن يقفز إلى صورة (مارلين مونرو) التي تملأ الحائط الموجود خلف مكتبه، ليضغط على عينيه فتنتفتح خزنةٌ سريّةٌ تعمل ببصمة اليد، ويرى داخلها حقيبة سوداء ومسدسًا سرعان ما جذبه ثم سحب أجزاءه وهو يوجهه إلى الشّاب وفي عينيه كل الغضب والشّر.

\* \* \*

على مسرح الملهى الليلي كانت التّفاصيل نفسها كما كانت، وما زالت أنغامُ الأغنية نفسها تعمل، بينما يمارس الرّجل ذو العينين الزرقاوين هوايته في مراقبة الأحداث، وفي لحظةٍ انقلب الحال تمامًا..

عند هذا الحد اقترب (نصحي) من الشّاب الوسيم بغضبٍ هادرٍ لينقضّ عليه من ظهره ويُجبره على الالتفات إليه صائحًا:

- لقد انتهى وقتك أيها الجرذ الحقير (يمسك فكه بقوةٍ شديدةٍ ويصوب إلى عينيه نظرةً ناريةً ويتابع) انفذ بجلدك واترك الفتاة التي جاءت بك لمصير سوداوي لن تحتمله.. دعها تأكل خبزًا واستغل آخر فرصة للنجاة قبل أن ندفنكما معًا بعد دقيقة واحدة من الآن.

ومع آخر حروف كلماته دفع الشّاب بقوةٍ شديدةٍ، إلا أن الشّاب لم يتحرك قيد أملة لتتسع عينا (نصحي) بدهشة، في حين ارتسمت نظرةٌ ساخرةٌ على وجه الشّاب قبل أن يقترب من أضخم الرجال جثة والذي يقف إلى جوار البار الرخامي ليضع الشّاب يده على البار في وضع لعبة الـ "رست" قائلاً بتحدٍ:

- ترى هل أعصاب كبيركم قوية بشكل كافٍ؟  
نظر (ريمون) للشّاب الوسيم بدهشة، في حين تحفّز الرّجل الضخم، وقبل أن يتحدث أحدٌ، تابع الشّاب:

- إذا فاز عليّ في التّحدي فسأترك الفتاة وأرحل، أو نكون مستعدين للدفن.  
نظر الحارس الخاص لـ(ريمون) بتساؤلٍ، فقال له (ريمون) بعينه إنه موافق، ثم أخرج سيجارًا آخر أشعله وهو يتابع الموقف..

وضع البودي جارد يده على الجهة المقابلة من البار، وأمسك بيد الشّاب الوسيم، وفي لحظةٍ خاطفةٍ دفع يده بقوةٍ شديدةٍ حتّى إن يد الشّاب تراجعت للخلف بسرعةٍ شديدةٍ..

واتسعت عينا (آيات) وهي تصرخ في دُعر: "يارب".

فتجمدت كف الشّاب فجأة قبل أن تلمس البار بستتيمتر واحدٍ لتستمر عند هذا الوضع، في حين أخذ البودي جارد يبذل جهدًا هائلًا ليتم انتصاره حتّى احمر وجهه وانتفضت عروق صلعته حتّى أوشكت على الانفجار، بينما انتفضت عضلات ذراعه اليمنى دون أن ينجح في تنزيل يد الشّاب حتّى النهاية، وفي غمار هذا كله احتفظ وجه الشّاب



دوى في المكان صوت طلقة رصاص، وبعدها رأى الحضور الشباب الوسيم و(نصحي) و(ريمون) يخترقون جدارًا خشبيًا كان يفصل بين الممر المؤدي إلى غرفة (ريمون) وصالة المكان، لينطلق ثلاثتهم في الهواء فجأة مرتطمين بالعديد من الموائد بعنفٍ بالغٍ وما زال المسدس في يد (ريمون)، رغم أنه قد فقد وعيه هو و(نصحي)، لينتبه 10 من الحراس لما حدث ويسرعون نحو ثلاثتهم، بينما توقفت الأغنية وتراجع الجميع بعد أن كفوا عن الرقص قبل أن يغادروا المكان في عشوائيةٍ وتخبطٍ شديدين في الوقت الذي أطلقت فيه النساء صيحات الخوف والفرع، وعلى عكس رد فعل الباقيين اتسعت ابتسامة الرجل ذي العينين الزرقاوين وهو يسير عكس التيار البشري المتدفق للخارج وكأنه لا يعاب بما يحدث وما هو متوقع حدوثه، لينزوي في ركن بالمكان ويتابع عن كثب..

ما إن وصل الحراس العشرة حتى هبَّ الشباب بقوةٍ جبارةٍ ليمسك بإحدى الموائد ويقفز بها في الهواء في دورة بهلوانيةٍ رأسية، وما إن لامست قدماه الأرض حتى ألقى المائدة بكل قوته نحو الحراس لترطم بثلاثة منهم في عنفٍ وتتحطم تمامًا، بينما ينقض باقي الرجال السبعة عليه في نفس لحظة إمساكه بمائدةٍ أخرى ليقفز نحوهم قفزةً بسيطة، وما إن أصبح وسطهم تمامًا حتى التفت بجسده حول نفسه كحفار بتولٍ مطلقًا المائدة في وجوههم لتتحطم فكي اثنين آخرين وأنف ثالث في حين تتحطم المائدة، بينما ينقض أحد الحراس الأربعة المتبقين كنور هائج ليكبل حركة الشباب في نفس لحظة انقضاء الثلاثة الآخرين عليه، لترتفع قدما الشباب مستغلًا تكييل الحارس له لتنتقل قدماه في وجوه الثلاثة محطماً الأنوف والفكوك، وما إن وضع قدميه مرةً أخرى حتى قفز لأعلى مصطحبًا معه الحارس الذي يكبل حركته حتى يصل به لسقف القاعة ليتعلق بقدميه بأحد الحواجز المعدنية المثبتة في السقف، ثم يدفع جسده مرةً أخرى بقوةٍ شديدةٍ للأسفل فيفلته الحارس ويسقط بينما يسقط فوقه الشباب وينغرس في بطنه كمسمارٍ صلب..

ومن بعيد، وقف الرجل المريب في ركنٍ مظلمٍ يتابع ما يحدث ببرودٍ شديدٍ دون أن يلتفت لوجوده أحد، بينما تأتي (آيات) من الداخل وهي تمسك بيدها الحقيبة السوداء التي كانت في المكتب، وتنتظر لما حدث بذهولٍ ممزوج بالزعج في اللحظة التي يستل فيها 5 حراس آخرون الأسلحة البيضاء، وينهض أول ثلاثة حراس ارتطمت بهم أول مائدة ألقتها عليهم الشباب، وقد تخلصوا من آلامهم وسالت دماؤهم من مواضع متفرقة، ليتحدوا جميعًا في مواجهة الشباب، فتلمح (آيات) المسدس الموجود في يد (ريمون) الفاقد الوعي فتقرب منه بحذرٍ وتلتقطه من بين أصابعه في لحظة انقضاء الجميع على الشباب، قبل أن يتردد في المكان صوت طلقة يتجمد معها المشهد ويقف الجميع في ثبات..

الجميع كانوا ينظرون نحو (آيات) التي تمسك بالمسدس وتلوح به أمام وجوههم بتحفظٍ، وفي الوقت نفسه تقرب من الشباب الوسيم الذي تمدد تحت قدميه 7 من الديناصورات فاقدى الوعي..

وحين بدأت تشعر بالثقة والطمأنينة، تقدمت (آيات) نحو الشباب الوسيم لتحتمي به رغم كونه أعزلٍ وكونها تحمل سلاحًا، لكنها تعثرت فجأة في أحد الحراس المطروحين أرضًا فاستغل أقرب الرجال لها فرصة تعثرها ليقبض على يدها ويأخذ المسدس عنوة، ليوجهه نحوها في نفس لحظة انقضاء باقي الرجال نحو الشباب الذي تسمّر في مكانه وهم يقتربون منه، قبل أن يقفز فوقهم ليتجاوزهم بقفزة هائلة وهم ينظرون إليه وهو يمر فوق رؤوسهم، حتى وصل إلى الحارس الذي يصوب مسدسه نحو (آيات) ليركل يده في نفس لحظة انطلاق الطلقة التي تطيش وتقتحم بار الخمر لتندلع نيران هائلة لتلتهم ثلاثة من الرجال.. ومع انطلاق إنذار الحريق وتحول المكان لآتونٍ من اللهب، غادر المكان من تبقى من الرجال بينما مدَّ الشباب يده ليعاون (آيات) على النهوض بسرعة، ليمسك بيدها ويتجه نحو (ريمون) و(نصحي)..

وفي الركن المنزوي الذي يقف فيه، وقف الرجل ذو العينين الزرقاوين متأملًا الشباب الوسيم وعلى إحدى كتفيه (ريمون) وعلى الكتف الأخرى



(نصحي) وهو يغادر بهما المكان، قابضاً على يد (آيات) التي تحمل في يدها الأخرى الحقيبة السوداء التي أخذتها من خزنة (ريمون)، وخلفهم النيران تنقض عليهم بكل شراسة ليغادروا المكان قبل فوات الأوان، ووسط الجحيم المصغر، ظلَّ الرّجل الغامض يتابع المشاهد من الدّاخل دون أن يعبأ بالوهج المستعر حوله أو يتأثر به جسده..

وخارج المكان، انطفأت أنوار اللوحة الدعائية المكتوب عليها جملة "Black Devil" في اللحظة التي غادرت فيها (آيات) والشّاب الذي ألقى (نصحي) و(ريمون) بعيداً، ثم سار مع (آيات) حتّى ابتلعهما الظلام.

\* \* \*

## (9)

في احتفالية شعبية بمناسبة المولد النبوي الشّريف، في شارع (النّبي دانيال) سارت امرأة طاعنة في السن، اشتعل الرأس منها شيئاً، لتسدل خصلاته من أسفل طرحة موضوعة على رأسها بدون اهتمام، وخطت التجاعيد ملامح وجهها صانعة بخطوطها خريطة حية لآثار الدّهر، وقد ارتدت عباءة سوداء قديمة، لتمرق وسط المولد بمظاهره المتعددة سواء راقص التنورة، أو بائعي الحمص والسوداني، قبل أن تصل لحلقة ذكر ضخمة موجودة في ساحة كبيرة أمام المسجد الذي حمل اسم الشّارع، وتزين بمصابيح متعددة الألوان، ويتهل من داخله أحد المنشدين بصوت عذب قوي يخلب الألباب، بينما يجلس أمام المسجد أمواج من البّشر أخذوا يهزون رءوسهم باستمتاعٍ ونشوى، وقد أسكرهم الإيمان في لحظةٍ نادرةٍ توحدوا فيها مع الخالق وفقدوا الإحساس بالزّمان والمكان، وهامت أرواحهم في ملكوت الله لتأخذهم كلمات المنشد إلى ما وراء الكون وهو يردد:

قل لمن يفهم عني ما أقول .. فصّل القول فذا شرح يطول  
أنت لا تعرف إياك، ولا تدري من أنت، ولا كيف الوصول  
كيف تدري .. من على العرش استوى؟  
لا تقل كيف استوى، كيف النزول؟  
كيف تجلّي الله؟ أم كيف يرى؟ فلعمري ليس ذا إلا فضول  
هو لا أين، ولا كيف له، وهو في كل النواحي لا يزول  
جلّ ذاتاً، وصفات، وسما وتعالى قدره عما نقول





- هل تعرفني أنت؟
- اتسعت ابتسامته الرجل وهو يومئ برأسه قائلاً:
- بكل تأكيد.. لقد التقينا منذ قديم الأزل.
- قديم الأزل؟
- نعم يا ولدي؛ فجميع مخلوقات الله تقابلت ذات يوم في عالم غير العالم، حين كنا في العدم، نُلح على الخالق أن يوجدنا، فألبسنا ثوب المادة ومنحنا وجودنا من اسمه الموجود على سبيل الاستعارة، ككل شيء استعرناه بعدها من أسمائه، فاستعرنا الكرم من اسمه الكريم، والصبر من اسمه الصبور، والقدرة من اسمه القدير، حتى حواسنا كالسمع والبصر، استعرناها من السميع البصير.
- صمت الشاب وقد فجرت إجابة الرجل دويًا هائلًا في روحه، وملأت نفسه بموجة هائلة من التساؤلات..
- لقد سمع هذا الكلام من قبل وآمن به ليمثّل جزءًا من أفكار قديمة كانت بالنسبة له من المسلّمات التي لا نقاش فيها، لكنه لا يدري متى عرفها، ولا في أي ظرف، وحين تفاقمت حيرته ولم يجد ما يسد جوع فضوله ولو برمقٍ ضئيل من الذاكرة الخاوية على عروشها، تطلّع بنظرة توسل للشيخ المائل أمامه وقال:
- هل لي أن أجلس معك وأفهم منك مقصدك؟!
- أجابه الرجل بابتسامة غامضة زادت من حيرته:
- على رسلك يا فتى، فلِكُلِّ أجلٍ أوان، والرحلة لا تزال في بدايتها.
- ثم تطلع الشيخ إلى ما وراء كتفي الشاب ليرى (آيات) التي تتقدم نحوهما مُسرعة الخطى وقد أخذت السعادة تتقافز على ملامحها، لتخبو ابتسامته ويستدرك في تأثر:
- مسكينة.
- التفت الشاب نحو (آيات) التي وصلت إليه لتلوح بالمفاتيح التي أخذتها من (دميانة) أمام وجهه قائلة في جزل:
- أبسط يا عم.. حصلنا على مكانٍ للمبيت.

- كلاهما لا يفرق معك.
- فتحت (دميانة) يد (آيات) ووضعت فيها المفتاح وهي تقول بلهجة من ينهي الحديث:
- فلتمسكي المفتاح وتذهبي.. وراءنا أكل عيش.
- قبضت (آيات) يدها على المفتاح لتسير في اتجاه الشاب بينما لا يزال رأسها ملتفتًا نحو (دميانة) لتقول بابتسامةٍ ساخرة:
- إن شاء الله سيكشفون أمرك.
- ابتسمت (دميانة) وهي تنهي حديثها:
- سأقرأ حينها الشهادتين.
- وفي مكانه، فوجئ الشاب الوسيم أثناء الحديث الدائر بين (آيات) و(دميانة) بيدٍ حانيةٍ تربت على كتفه من الخلف ليلتفت نحو صاحب اليد فإذا به رجلٌ مُسنٌّ يبدو من ملامح وجهه أنه شديد الكهولة، ورغم ذلك كان جسده عفيًا، منتصب القامة، يعجُّ بطاقةٍ فوارة، ذا وجه مشرق وضاء رغم اسمراره الشديد، محاط بلحية كثيفةٍ شديدة النعومة، بيضاء كالثلج، تتدلى حتى صدره، فيما طالت شعيرات حاجبيه حتى كادت تغطي عينيه الواسعتين بشكلهما العسلي فاقح اللون ويسر الناظرين، وكست شعر رأسه عمامة ناصعة البياض بنفس لون جلبابه خفيف الملمس وكأنه مصنوع من الشاش، وعلى وجهه ابتسامة غامضة لا تعرف لو اطلعت عليها سر مصدرها.
- أطلّ التساؤل من عيني الشاب، بينما تحنطت الابتسامة الغامضة على شفتي الرجل لثوانٍ قبل أن يقول ببطء، وبصوتٍ رخيّم بدا كما لو كان يخرج من دهاليز قبه عميق:
- كيف حالك يا بُني؟
- !!!!!
- ألا تعرفني؟
- عقد الشاب حاجبيه برهةً في محاولةٍ مستحيلةٍ لاسترجاع ماضٍ تم مسحه من ذاكرته تمامًا، ثم رد على السؤال بسؤالٍ مليء باللهفة:

لكنه لم يسمع كلامها وقد استحوذ كلام الرّجل على تفكيره وانتباهه،  
لا سيما حينّ التفت إلى حيثُ تركه فلم يقع ناظره إلا على العدم.

\* \* \*

سار الشّاب مع (آيات) في شارع (الثّبي دانيال) باتجاه البحر ومحطة  
الرمّل حتّى وصلا إلى شارع (سعد زغلول) الذي يتقاطع معه، ويعج  
بمحال الملابس والباعة الجائلين في لحظة غلق دفاتر الرزق التي انفضّ  
فيها السامر، واصطكت معها أقفال أبواب المحال بعد إطفاء الأنوار،  
ليعم الظلام الشّارع وتبقى فيه بعض الإضاءات الخافتة التي تكشف  
لوحة محل (شيكوريل) ومبني (دار المعارف) وعدداً من العمارات العتيقة  
ذات الطراز المعماري العريق، وتنتمي لزمان الإسكندرية الجميل، حاملة  
بصمات الباشوات، والبكوات، وأمراء وملوك مصر (محمد علي) وعائلته،  
حينّ كان بعض أبناء الجالية اليونانية والإيطالية يعملون بائعين وحلاقين..  
ووسط تلك العمارات وقفت مبانٍ حديثة حملت سمات وملامح العصر  
الحديث بضخامتها وواجهاتها الزجاجية، لكنها وقفت كخوازيق غريبة لا  
تمت بصلة لباقى الأشجار المعمارية العريقة المزروعة في حديقة التّاريخ  
حيثُ المعماري الإيطالي البديع والطراز الفلورنسي الذي لا يزال يميز ما  
تبقى من الإسكندرية القديمة، ليوجه الشّارع بلغة الحجارة والمعمار  
رسالة استغاثة: نداء لمن يهمله الأمر.. الإسكندرية الحقيقية تلفظ أنفاسها  
الأخيرة، وتسرّق منها عراقتها وتراثها على يد لص وقاتل متسلسل للمدن  
اسمه.. التحضر والتطور!

تلقت عينا الشّاب طرف الرسالة وهو يتأمل المشهد حوله بمنقاضاته،  
قبل أن يشعر بيد (آيات) تجذبه وهي تنحرف نحو إحدى العمارات  
التي تنتمي لحقبة الثلاثينيات حيثُ المدخل الضخم الذي يوازي ارتفاعه  
دورين من العمارات الحديثة، ليصعد معها السلام القديمة الرخامية،  
ويتابع أناملها الرقيقة وهي تستند إلى سور "الترابزين" الخشبي في رحلة  
الصعود الشاقة للسطح بعد أن اعتادت قدماها المصاعد الفاخرة.

وفي السطح، وجدا في انتظارهما الكثير من العشش الخشبية المتآكلة،  
والغرف المتهالكة، التي كانت تسكنها العديد من الأسر المُعدمة من  
طبقات الدّنيا حينّ كان أكبر القوم يخصصونها للخادمين والطّباخين  
وحارس العقار، ثم أتى الزّمن بتغييراته على خريطة المجتمع وتبدل كل  
شيء؛ لتبقى تلك الغرف شاهداً على تاريخ الأمس ومرتعاً للدجاج والبط  
الذي انتقل للعيش في إحدى العشش على يد السمسارة العجوز الماكرة  
(دميانة) التي أقنعت تلك الطيور البلهاء بأن سكنها الجديد هنا أفضل  
بكثير، دون أن تخبرها بأن مصيرها سيكون الذبح ذات يوم، وفرضت حدائة  
اليوم سطوتها بأطباق "الدّش" اللاقطة التي ملأت أرجاء المكان، ورغم كل  
هذا التغيير ظلّت (دميانة) وغرفتها كجذر قديم لم ينجح مقلع الزّمن  
في إزالته أو زحزحته، ليزداد تأصلاً ورسوخاً كلما مضت الأيام والسّنون.

مرت (آيات) والشّاب الذي لا يزال يحمل اللوحات والحقيبة أمام  
مصطبة موضوعة أمام غرفة (دميانة) لتدس المفتاح في قفلها الحديدي  
الصدئ، فاتحة إياه بصعوبة لتدخل الغرفة وتنعش ذاكرتها وذكرياتها  
بتأمل جنبات المكان الضيق، وأرضيته القذرة، وسريره الوحيد الذي  
يستحي الموقى من التمدد عليه على ضوء سراج خافت الضي اقترب من  
الاحتراق، ظلّ يتأرجح لتتوزع إضاءته على أرجاء الغرفة، لاهية بظلّ الفتى  
والفتاة في جوّ بدا غامضاً وكأنّ الغرفة تستجوبهما عن سبب المجيء، قبل  
أن تلتفت (آيات) إلى الشّاب الذي تبعها للداخل قائلة بحزن:

- هذا هو المكان الذي استقر بي المقام لأعيش فيه مع دميانة مقابل  
خدمتها والمشاركة في طعامها وشرابها، بعد أن خرجت من الأحداث  
وتلطمت في الدّنيا.

علق على كلماتها وهو يتأمل المكان بدوره دون أن ينظر لها:

- دائماً الحلال سكتته أصعب، لكن بركته تدوم أكثر.

ثم استدار يتأمل عينيها الحزینتين، دون أن يدري أن نظرات عينيه  
الدّهبيتين ونبرة صوته القوية سحراً خاصاً يتسلل لنفسها كمخدر شديد



المفعول، حتّى إنها احتاجت ثواني حتّى تستجمع قواها وتملك القدرة على أن تشيخ بناظرها بعيداً عن مرمى عينيه لتقول بشفتين مختلفتين: - أمتنى أن يكون الحلال كافياً.

قالتها، ثم جلست على السرير لتفتح الحقيبة السوداء وتفحص محتواها ما بين شيكات كثيرة ومجموعة أسطوانات مدمجة ظلت تفحصها حتّى عثرت على الشيك الخاص بها بعد عناء، حتّى إنها أفرجت عن تنهيدة حارة كانت حبيسة صدرها وهي تقول للشاب:

- حمداً لله.. أخيراً وجدت الشيك القادر على إعادتي للسجن.. لقد امتلكتُ صك حريتي بفضلك.

تأمل الشاب باقي الشيكات والأسطوانات وهو يقول:

- سأعيد باقي الأشياء التي لا تخصنا في أقرب وقت.

اتسعت عينها اللتان أطل منهما الذعر وهي تقول:

- أتود العودة بعد كل ما حدث؟ لن أسمح لك أبداً.. ثم إنني سأفحص هذه الأسطوانات وأعرف محتواها لعليّ أجد فيها ما يحمينا من انتقام (ريمون) الذي حتماً سيقيم الدنيا ولن يُتعدّها جزء ما فعلناه، أنت لم تعرف نفوذه وسلطانه بعد.

التفت الشاب وراءه متأملاً باقي جنبات السطح، وما إن وقعت عيناه على عش الدجاج حتّى هب ديك بداخلها متحرّكاً بشكل هستيري مطلقاً صياحاً شديداً كاد يثقب أذان السامعين، وكأن صياحه إشارة البدء لباقي الديوك في عشش الأسطح المجاورة، انطلق صياح الديكة من كل العشش في تتابع حمل أصوات ارتجافتهم وحركاتهم داخل العشش في سيمفونية بدت غريبة لـ(آيات) التي عقدت حاجبها في دهشة واستغراب وهي تتطلع للمشهد في حيرة، في الوقت الذي شخص فيه بصر الشاب نحو السماء ليتأملها في رهبة وخشوع وهو يردد دون وعي منه وكان كلماته تسبقه:

- الله أكبر.

تأملته (آيات) وهو يتابع النجوم بعينيه ويسرح في نور القمر، وتوقفت عينها على شفتيه المرتجفتين قبل أن يقول بقلبٍ واجفٍ ولا تزال عيناه مُعلّقتين بالأعالي:

- ثمة ملائكة حولنا الآن.

لتسري في أوصالها رعشة مماثلةً وتكف عن التطلع إليه، بعد أن انسحب ناظرها متوجّهاً نحو السماء التي بدت لها في تلك الليلة سماءً غير السماء، وكأن للنجوم لغةً، ولحركة السحاب إيماءاتٍ، لكنها لم تملك بعد فهم الإشارة وترجمة العبارة.

داخل غرفة المبيت المعدّمة ذات المظهر البائس المتردّي، وقف الشاب وقد خلع جاكيت بذلته، وشمّر ذراعيه ليكشف عن رسغين منحوتين من العضلات البارزة وهو يُعلق آخر لوحة على الحائط، ثم يتأمل باقي اللوحات التي تم توزيعها على الجدران، في حين غيرت (آيات) ملابسها وارتدت الثوب البالي ذا الهيئة الرثة نفسه، لكنه لم يستطع أن يخفي جمالها الهادئ الذي بدا طبيعياً هذه المرّة وقد خلت قسماً وجهها من المكياج، وانسدل على كتفيها شعرها البني الناعم الطويل، لتطلع هي أيضاً إلى لوحاتها مزيجاً من الحسرة والحزن قبل أن يسألها الشاب وهو يتطلع إلى اللوحات دون أن ينظر إلى وجهها:

- ما دمت موهوبة إلى هذا الحد فما الذي ألقى بك في طريق (ريمون) بدلاً من أن تمشي في السكة التي تقدر موهبتك؟ وكان سؤاله إشارة البدء لتجيب بأكثر مما احتمل الاستفهام:

- كل لوحة من اللوحات التي أمامك فيها جزء من ذكرياتي.

أشارت إلى إحدى اللوحات بتأثر:

- هذه رسمتها في أول عيد ميلاد أفضيه وحدي بدون أبي الذي لم يُحضر الهدية التي وعدني بها.

ثم أشارت إلى لوحةٍ أخرى وقد زادت جرعة التأثر في نبراتهما ولامحها:

- وهذه كانت في أول عام لي بالأحداث.. كانت موهبتي قد نضجت بشكلٍ لافت للنظر، وجذبت اهتمام مشرفتي.. أولتني معاملةً خاصة

بعد أن انبهرت بوردة مثلي تم انتزاعها من بستانها الجميل ليتم غرسها في صحراء مقفرة في صحبة أشواك الصبار.. لم تصدق نفسها حين وجدتني حاذقةً في الإنجليزية والفرنسية، وأجيد الرسم والتلوين، وتُخرج أناملي من العزف على البيانو والكمان مقطوعاتٍ موسيقيةً قادرةً على دغدغة المشاعر، واصطحاب السامعين إلى رحلة عبر الذات، يُشاهدون فيها الحب، والشجن، والحنين، وكل ما هو غير محسوس ومرئي، غير أن المشاهدة كانت بالأذن لا العين، وربما تخلل أصوات الأوتار الحزينة صوتٌ أكثر بؤساً وألمًا، ينبعث من أحبال الصوتية التي كانت تشارف على التمزق كلما غنيت لأحزاني رغم أنني تعلمت العزف والغناء لأنشر السعادة في جنبات البيت حسبما كان يتمنى أبي الذي لم يبخل عليّ لأجيد مهارات متعددة كملكته الوحيدة قبل أن يسوقني القدر إلى سوق النخاسة.

ابتسمت ابتسامه حزينة، ثم أشارت إلى لوحةٍ ثالثةٍ وأردفت بجسد يقشعر من التأثر:

- وهذه حين طلبوا مني لوحةً أدخل بها مسابقةً في الرسم، حصلت بها على المركز الأول، فساعدتني المشرفة بعدها في تعلم الجرافيك على الكمبيوتر حتى تدخل بي مسابقاتٍ أخرى وتحصل على ترقيةٍ مع كل مركز أول أحصل عليه، بعد أن صرْتُ لها في منزلة الابنة التي دافعت عنها وحمتها من أطفال الشوارع المتشردين الذين كانت صحبتهم وزمالتهم أمرًا إجباريًا في عالمي الجديد البائس.

عادت لتشير إلى لوحةٍ رابعةٍ، وقد بدأت عيناها تلمعان من الدموع:

- وهذه حين توفيت مُشرفتي وأمي البديلة في حادثٍ عارض، لتتركني وحيدةً من جديد.. يومها فوجئت بدموعي تنهمر كشلالٍ بعدما ظننتُ أنني بفراق أبي قد ودَّعت من لن أبكي بعده أبدًا.

أشارت إلى لوحةٍ خامسةٍ، وقد زاد لمعانُ عينيها:

- وقبل خروجي من الأحداث بشهر واحد لم أكن أعرف؛ هل أفرح بحريتي، أم أبكي لأنني غير قادرة على تحديد وجهتي بعد الخروج؟ وأين سأعيش؟ ومع من؟ وكيف سأحتمل فراق أناس اعتدتُ عشرتهم

واعتبرتهم عائلتي البديلة رغم كل ما بهم من إجرامٍ وشراسةٍ وطائفية؟ لكنهم مع الوقت نزعوا مخالبتهم وتسَلَّتِ الرأفة لقلوبهم وهم يتعاملون معي؛ لذا رسمت هذه اللوحة.

وحين أشارت إلى لوحةٍ سادسةٍ، بدأت دموعها السَّاخنة في جرح وجنتيها وهي تقول بصعوبة:

- وهذه بعدما أحببتُ مينا؛ زميلي الجديد في مكتب الجرافيك الذي التحقت للعمل به.. كان يريد أن يتزوجني لكن ظروفه الصَّعبة حالت دون ذلك؛ لذا اضطررت أن أذهب إلى زوجة أبي أطلب منها أي مساعدةٍ تُعينني على الزواج، وأنا أعدها ألا أزورها مرةً أخرى.

ثم أشارت إلى لوحةٍ سابعةٍ سوداء مليئة بالكآبة، وقد زاد انهيار دموعها وهي تتابع:

- وهذه بعد أن أرسلت ابنها أميرًا ليفضحني في مكتب الجرافيك الذي طردوني منه بعد أن عرفوا بأمر الأحداث؛ لتنتهي بعدها علاقتي بأول حب في حياتي.

جلستُ على السرير بعد آخر حرف، وانحنى ظهرها بعد أن غرقت في نحيبٍ شديدٍ يمزق نياط القلب حتى إن عيني الشاب التمتعنا رغمًا عنه، وهي تقول من بين دموعها:

- كان نفسي ربنا يستجيب دعوتي وأتزوجه.. كنت أحبه جدًّا.. جدًّا.. (رفعت رأسها نحوه وعيناها لا تزالان تمطران).. أليس من الممكن أن يصبح كل ما سبق كابوسًا قد أصحو منه وأجدي لا أزال طفلة لم تهتك براءتها الحياة بعد؟!

ثم عادت لنحيبها وهي تطرق برأسها للأرض وتفتح قنواتها الدَّمعية على مصاريعها؛ لتسقط مع كل دمعةٍ ذكرى حزينة حاملةً معها جزءًا من فتات قلبها المحطم..

بلغ به التعاطف مبلغه؛ فاقترب منها، ثم انحنى جانيًا على ركبتيه ليرفَعَ وجهها الغارق في الدَّموع ويجعله في مواجهة وجهه وهو يقول:

- إن الله يمنح الإنسان ما يحتاجه حقًا، وليس الذي يريده.

ما الذي كنت أحتاجه لأمرّ بكل ذلك؟ وما الذي سيمنحه الربّ لمن نجستها الخطية مثلي بعد كل ما افترفته من آثام؟ الكتاب المقدّس يقول إن السّماء تفرح بخاطئٍ واحدٍ يتوب، أكثر من 99 باراً لا يحتاجون إلى توبة، لكنني تُبت كثيراً وعدتُ بعدها للسقوط.. أخشى أن ثباتي على الحق صار معجزةً في زمنٍ انتهت فيه المعجزات.

- المعجزات أبدية؛ لأن صاحبها لا بداية له ولا نهاية، ومن صفاته البقاء والاستمرارية، ثم إن الجميع ينظرون إلى الله باعتباره صاحب المعجزات، لكنهم لا ينتبهون إلى أنهم المعجزة ذاتها.

- كلماتك تُشبهه كلام رجال الدّين الذي يُعجب السامعين، لكننا سرعان ما نلقي به عرض الحائط حين لا يغير الواقع المؤلم البغيض حولنا مهما رددناه ونحن نرفع أكف الضراعة إلى السّماء، لكن ما يُكسبك المصدقية أنني رأيت معك الأفعال وليس الكلام فحسب.

- ما فعلت إلا ما منحني الله القدرة على فعله، لكن النّاس اعتادوا أن ينظروا فقط لأفعال أقرانهم من البَشَر دون أن ينتبهوا إلى مصدر تلك الأفعال، وهذا سر تالية بعض الأشخاص وحبهم أكثر من الإله.. صدقيني يا آيات، كل شيء قابل للتحقق إذا آمننا بالله (تعالى) كما ينبغي أن يكون الإيمان.

ثم التقط نفساً عميقاً وهو يتأمل ملامحها، واستطرد:

- وعلى الرغم من أنني لا أعرف من أنا، وماذا سأفعل في مشكلتي، فإنني أقسم لك إن لوحتك القادمة ستكون أجمل لوحة في حياتك. تأملته بعينين عرفتا أخيراً طعم البسمة، وهي تشعر بأن الكون كله قد أقبل عليها برحابته وأنواره المتلألئة في السّماوات على يدي هذا الغامض، قبل أن تقول وهي تُقاوم رغبةً ملحةً في معانقته والارتواء بين أحضانه:

- دائماً ما يهتم البَشَر بهوية بعضهم، ويسألون عن الغريب القادم من أين أتى، لكن أنا يعنيني فقط إلى أين سيمضي.. سأقف إلى جوارك بكل ما أملك، وسأبدل من أجلك قصارى جهدي مثلما ساعدتني.. وأنت

أيضاً دورك معي لم ينتهِ بعد (تمديدتها لتمسك يده وتساله).. أتعدني بألا تتخلى عني؟

نظر إلى يدها، ثم حرّر أنامله من أصابعها ببطء، وهو يتطلع إلى عينيها قائلاً:  
- أعدك.

"تقولين إنى بلا دين، فهل هذه أفعال المؤمنين؟"

قالتها (دميانية) بصوتٍ غاضبٍ وهي تقف على عتبة باب الغرفة لينهض الشّاب و(آيات) في توتر وارتباك، قبل أن تقول الأخيرة بتلعثم:

- لا تفهمينا خطأ يا دميانية.. إنه... إنه...

قاطعته بسخريةٍ غاضبة:

- ما رأيك في أن أنزل وأطلع بعد نصف ساعة حتّى تجداً عمّة مناسبةً على مقاسي بعد أن ألغي عقلي؟

أجابتها (آيات) بتوترٍ أكبر:

- لا والله، هذا يبقى، يبقى...

أشار الشّاب إلى (آيات) مقاطعاً، ثم نظر إلى (دميانية) وقال بصرامة:

- أنا واحدٌ لا يعرفها ولا تعرفني.. لكن الظروف الصّعبة التي جعلتك

تبيعين سوراً قرآنيةً وأذكّاراً رغم مسيحتك هي نفسها من وضعنا في هذا الموقف.. لو كانت (آيات) ترغب في الحرام ما كانت لتعود لهذا المكان البائس مرّة أخرى، بعد أن كانت تنام فوق مراتب من ريش نعم ومفارش حريرية، وفوق هذا تتقاضى ثمناً لا بأس به.

ثم التقط جاك بذلتته واقترب من (دميانية)، ونظر في عينيها بقوة مُتباغماً:

- لو عندك مكان للمبيت غير المصطبة الموجودة في الخارج ديني عليه حتّى ولو في آخر الدّنيا، غير ذلك سأكون مضطراً للمبيت ها هنا الليلة حتّى يقضي الله أمراً كان مفعولاً.. تصبحان على خير.

قالها، ثم غادر المكان ليغلق الباب خلفه، تاركاً وراءه (دميانية) مسحورةً من تأثير لهجته وكلامه الواثق الذي استعمر مسامعها وتردد

صداه في ذاتها.. بينما كادت دقات قلب (آيات) تخترق ضلوعها وهي تتساءل في نفسها: أي نوع من الرجال هذا؟!

\* \* \*

على السرير الحقيق الذي يجمعهما، وتحت تلك البطانية القديمة التي تغطي نصفيهما الأسفل، هبت (دميانة) على صدرها وقد اتسعت عينها في دهشة شديدة غير مُصدقة ما حكته لها (آيات)، ولا يزال صياح الديوك يتردد بالخارج، قبل أن تقول (دميانة) بصوتٍ يملأ نبرته الدهول:

- يا خراي! وكأنك تحكين فيلماً.. أهذا الولد "الحليوة الفرفور" الذي توحى هيئته الوسيمة بأنه يأكل "بقسماط مسقي في اللبن" يملك كل هذه القدرات؟

تابعت (آيات) وكأنها لا تُصدق ما تحكيه بلسانها:

- ماذا لو أخبرتك أن كل ما حكته لك لا يُساوي شيئاً بجوار الحقيقة.. إنها أمور لا تحكى، ولكنها تُرى بالعين، وتُسمع بالأذن فقط.. هل تعتقدين أنه "مخاوي" للجن والعفاريت؟ أجابتها (دميانة) بصرامةٍ غاضبة:

- اصمتي أيتها المأفونة وكفاكِ تخريفاً.. ما عفريت إلا بني آدم.. هل تصدقين هذا الهبل؟

رمقتها (آيات) بنظرةٍ ساخرة، وأردفت:

- معكِ حق.. واحدة لا تؤمن بوجود الرّب نفسه، فهل ستصدق وجود العفاريت؟

عقدت (دميانة) حاجبها وقالت بغم منزوع الأسنان إلا قليلاً:

- أنا لا أصدق إلا ما أراه بأم عيني.. كلام الحكايات الذي سمعناه ممن سبقونا، والذين بدورهم سمعوه ممن قبلهم، لو تتبعناه لوجدنا آخره سراً اسم الإله.. وفائدته الوحيدة عندي أن أجد ديانة أكتبها في بطاقة تحقيق الشخصية، وأقلب بها عيشي من الكنيسة.. عدا ذلك لم نل من الأديان سوى الحروب الطاحنة بين بني البشر.. كل واحد يرى نفسه في

الجنة، ومن على غير دينه في النار.. أفيقي يا عزيزتي.. لو لم ألتقطك من الشارع وأويك لما أنزلت عليك السماء منزلاً تأوين إليه.. وهذا الجيمس بوند الذي تفاخرين به لم يمد إليك يد العون إلا ليجد مكاناً يؤويه بدلاً من اللف والدوران بلا أهل أو مأوى.

أخذت (آيات) نفساً عميقاً لعله يُطفئ ذلك الغضب المحموم الذي سيطر على حواسها فور التهكم على الشاب الوسيم، ثم قالت بازدياد:

- أستغفر الله.. لقد فقدت الأمل في عقلك أيتها العجوز الخرفة.. لكن لا بأس من تذكيرك بأن أول نقود حصلت عليها من الحيوان الذي اسمه ريمون اقتسمتها معكِ بالنصف وملأت لكِ ثلاجتك رغم أنني كنتُ أستعد لتغيير محل إقامتي، وكنْتُ أعتقد أنني لن أعود ها هنا مرةً أخرى.

ردت عليها (دميانة) بتحد:

- ولأنك قدمتِ السبب ووجدتِ الأحد يا عين أمك.. لو كنتِ رحلتِ بشكلٍ غير لائق لكنتِ الآن تفترشين الرصيف وتلتحفين السماء.

بادلتها (آيات) الرد بتحدٍ مماثل:

- وأنتِ أيضاً لو مُتت واكتشفتِ أن الله موجود دون أن تقدمي السبب لتتمّ إلقاؤك في الجحيم.

(دميانة) في عناد:

- لن أموت إلا حين أقرر.. ولو وجدتُ الرّب في انتظاري فسأحاسبه قبل أن يُحاسبني.. سأسأله لماذا فعلت فينا كل ذلك؟ لماذا تخلت عنا وتركتنا نتعارك ويطحن بعضنا بعضاً وأنت من وصف نفسه بأنه لا يرضى بالظلم؟ (تلتمع عينها بالدموع).. سأقول له إنني كذبت وجوده من فرط تصديقي في رحمته حين احتجت لها ولم أجد لها.

لمعت الدموع بالمثل في عيني (آيات) لتفر من على شفيتها الحروف التي حاولت أن ترد بها حتى يئست، فهيمت في خفوت:

- تصبحين على خير.





ثم انزلت بأكملها تحت الفراش لتغمض عينيها وهي تُنني نفسها  
بحلمٍ جميل يأخذها إلى عالمٍ أفضل، تسرق منه السعادة ولو لدقائق  
كاذبة.

\* \* \*

## (10)

تراصت سيارات المطافئ والإسعاف والشُرطة خارج الملهى الليلي  
الذي استحال إلى مبنى خرب تتصاعد منه الأدخنة، فيما حمل رجال  
الإسعاف (ريمون) على نقالةٍ ليضعوه بحرص وعناية داخل إحدى  
سياراتهم البرتقالية..

وداخل المكان، تجلّت آثار الحريق والحطام على جنباته بالمدخل، في  
حينٍ انتشر رجال المعمل الجنائي بكل شبر في المكان يفحصونه ويرفعون  
البصمات.. فيما وقف (نصحي) في منتصف المسرح وقد امتلأ وجهه  
بالإصابات والكدمات، وتحوّل معظمه إلى اللون الأسود من رماد النيران،  
ليتحدث مع ضابط مباحث برتبة عقيد، ضخم الجثة، جاحظ العينين، ذي  
بشرةٍ تميل إلى البياض، وشعر رأس خفيف وقصير، ويرتدي بذلة كحلية  
اللون، وبدت نبرة صوته غليظة حينَ سأل:

- ما الذي حدث بالضبط يا...؟
  - نُصحي... نُصحي حسن عبدالمعبود يا سيدي.
  - عظيم.. ماذا حدث يا نُصحي؟
- بإجابة بدت حماسية بشكلٍ مبالغٍ فيه، أجاب (نُصحي) على الفور:
- إنهم الإسلاميون الإرهابيون يا سيدي.. فجأة اقتحم المكان مجموعةً  
من الرجال الملتحين؛ بعضهم يحمل أسلحة آليّة، والبعض يحمل قنابل  
مولوتوف، والبعض الآخر يحمل أسلحة بيضاء من السنج والسيوف؛  
ليشنوا حربًا ضاريةً اندلعت فجأة مع اشتعال النيران والضرب والتكسير



- كلا.. لقد ظن أنها مجرد تهديدات خرقاء أو مزحة من صديق سخيف، فقرر تجاهل الأمر برمته.
- وهل سرق هؤلاء الإرهابيون شيئاً من المكان أم كان هدفهم الانتقام فحسب؟
- لم أتبين الموقف حتّى الآن يا سيدي.. لقد فقدت وعيي ولا أزال أشعر بدوار، وأعتقد أن السيد ريمون هو الأجدر مني بمعرفة ما إذا كان هناك شيء تمت سرقة أم لا.
- بحكم كونك الذراع اليمنى للسيد ريمون، هل كان نشاط المكان مقصوداً فقط على استقبال الزبائن وإقامة الحفلات أم كانت هناك أنشطة أخرى؟
- ماذا تقصد يا سيدي؟
- كلامي واضح.. هل كان للمكان أنشطة أخرى غير المعلنة؟
- إطلاقاً يا باشا، فعملنا كله في النور.
- هل لك أن تصف لي أولئك الإرهابيين؟
- لم أتبين ملامحهم يا سيدي بكل أسف؛ فقد كانوا ملثمين.
- كيف تبينت أنهم كانوا ملثمين إذن؟
- تمنى (نصحي) أن تبتلعه الأرض وقد نفذ مخزونه الاستراتيجي من الكذب، إلا أن العقيد (يحيى) منحه ابتسامة ساخرة ووفر عليه التفنن في حياكة كذبة جديدة حين ربت على كتفه قائلاً:
- يبدو أنك مرهق ومتوتر بشدة من جراء ما عانيته الليلة يا سيد (نصحي).. سنلتقي مجدداً بعد أن تنال قسطاً من الراحة.
- ثم التفت نحو مساعده وسأله:
- هل انتهى رجال المعمل الجنائي من عملهم على أكمل وجه؟
- أجابه مساعده بلهجة تفيض بالاحترام:
- نعم يا سيدي.
- ألقى العقيد (يحيى) نظرةً أخيرةً على المكان، ثم قال لمساعدته بلهجة ذات مغزى وهو يوزع نظراته بينه وبين (نصحي):

- في كل أرجاء المكان، حتّى إن الـ"بودي جارد" لم يكادوا يستوعبون الأمر حتّى سقط منهم من سقط، بين قتيل ومصاب.
- استقبل الضابط كلمات (نصحي) وأدخلها في جهاز كشف الكذب الكامن في عقله، وهو يدس سيجارة بين شفثيه ثم أشعلها بقداحته ليأخذ منها نفساً عميقاً نفث دخانه وهو يتأمل المكان بنظرة فاحصة، ثم قال:
- لقد رأيت ما تقول بنفسي.
- تقافز الذهول على وجه (نصحي) وهو يسأل في وجوم:
- أحقاً؟ كيف؟
- التقط العقيد (يحيى الشاهد) نفساً جديداً من سيجارته وأجاب:
- في أفلام عربي كثيرة.
- ثم مال نحو (نصحي) وضاقت حدقتاه وهو يضغط على حروف كلماته بشكل يؤكد شعوره بأن ثمة شيئاً خفياً ومريباً في الأمر:
- يبدو أن شهود العيان الذين حكوا عن شجار عنيف دب بين شاب وسيم مجهول والسيد ريمون ورجاله كانوا سكارى إذن يا صديقي.
- توترت ملامح (نصحي) وازدرد ريقه حين قال:
- ها؟ ربما كانوا يقصدون أحد رجال الجماعة المسلحة الذين...
- قاطعته العقيد:
- مُنذ متى وأنت تعمل في هذا المكان؟
- أنا أعمل مع صاحبه قبل حتّى أن يؤسسه، فأنا ذراعه اليمنى مُنذ زمنٍ طويل، ووالده قدس الله روحه هو الذي ربّاني.
- هل هناك أعداء للسيد ريمون؟
- ارتبكت كلمات (نصحي) وهو يجيب:
- لقد تلقى مؤخراً تهديداتٍ مجهولةً بغلق الملهى والامتناع عن نشاطه ببيع الخمر، وإلا فسيكون تدمير المكان عن بكرة أبيه هو الجزء الرادع له ولأمثاله.
- هل أبلغ البوليس بذلك؟

- عظيم، فسيتوقف على تقريرهم الكثير من التفاصيل المهمة التي ستكشف كل شيء.

قالها، ثم انصرف من المكان وخلفه باقي رجال الدّاخلية؛ ليرز الرجل ذو العينين الزرقاوين والبذلة الرمادية من ركن خفي ويسير بخطوات وثيدةٍ واثقةٍ نحو (نصحي) الذي شحب وجهه وحاكى وجوه الموتى، حتّى إنه لم يشعر بوجود الرّجل إلّا حين تكلم بصوتٍ أجش أشبه بصوت ارتطام البول بالصخر:

- كل ما حدث يمكن معالجته والتغلب عليه لو استمعت أنت وسيدك إلى كلامي.

انتفض (نصحي) مع وجود الرّجل المُباغت وسأله بحدّة:

- من أنت؟

\* \* \*

اقتحم الرّجل ذو العينين الزرقاوين غرفة (ريمون) بالمستشفى بخفةٍ وهدوءٍ دون أن يشعر به أحد، ليقترّب بخطوات واثقةٍ من ذلك السّرير الذي يرقد فوقه الأخير مغمض العينين، وما إن أصبح أمامه حتّى أخذ يتأمل بإعجابٍ شديدٍ تسريحة الحباء التي تقبض بأطرافها على جمجمته، ليمسليتحسس بأصابعه خصلة شعره الطويلة التي تمثّل ذيلها، ثم انحنى نحو الجسد المُسجّى حتّى تلامست أنفاسهما؛ عندها شعر (ريمون) بلهيبٍ يلفح وجهه ففتح عينيه ببطء ليجد عينين زرقاوين تحمّلان فيه، وابتسامةٍ مرعبةٍ يُصوبها صاحبها نحوّه في الظلام، فانقبضت رقبته بين كتفيه كسلاحفأة وهو يقول بفزع وهول:

- ما هذا؟ من أنت؟! النجد...

هوت قبضة الرّجل المريب على حنجرته فجأة لينشب فيها أصابعه الغليظة بقوةٍ وقسوةٍ شديدةٍ أجبرته على ابتلاع باقي حروفه ليلوذ بالصّمت وهو يرتعد زائغ العينين مرتعش الأطراف، فيما قال الرّجل بصوت يشبه فيحيح الثعبان:

- أنا أعلم عنك كل شيء، وأنعاطف مع ما حدث لك من ذلك الوسيم الذي أذل ناصيتك وحطم هيبتك، إلى الحد الذي جذب البوليس ليدس

أنفه في عالمك ويتشمم صفقاتك المشبوهة، وسُرعان ما سيكتشف أمر الدعارة، والمخدرات، والسلاح، وشبكة التجسس على أولاد الكبار؛ لينتهي الأمر بإعدامك في صباح يوم لن يخبروك بتاريخه، حين يوقظك مأمور السّجن بصحبة قواته فجأة، قائلاً في غلظة: هيا لتنفيذ الحُكم.

أخذت عينا (ريمون) في الاتساع بدهشةٍ عارمةٍ مع كل كلمة من كلمات الرّجل، ثم تحوّلت نظراته المندهشة إلى رعبٍ لا حد له من مصير مأساوي تجسّد في مخيلته.. وما إن انتهى ذو العينين الزرقاوين من كلماته حتّى ترك عنق (ريمون) الذي شلّت حركته وتجمّد الهول على ملامحه دون أن يقوى على النطق، في حين تابع الرّجل وهو يقرب وجهه منه أكثر:

أنا أعرف أين ذهبت فتانك بحقيبتك الثمينة التي تحوي الأسطوانات المدمجة (ضاقت عيناه وطل منهما شر الدّنيا كله وهو يردف).. لكن ذلك الشّاب الذي يرافقها لا توجد قوة فيعلى وجه الأرض كلها قادرة على هزيمته.. إلّا أنا.. يكفيك أن تعرف من الآن أن هدفنا واحد، وهذا كل ما يهم.

\* \* \*

في وقتٍ متأخّرٍ من اللّيل خلت فيه الشّوارع من الهوام والدواب، اقترب ذو العينين الزرقاوين من ذلك العقار الذي يسكنه الشّاب الوسيم حتّى وقف أمام بوابته فترةً وجيزةً، أخذ يتأمل فيها الشّارع والعقارات الكائنة به، قبل أن يختفي فجأة وكأنّ العدم قد ابتلعه، لتهب رياحٌ باردةٌ على الشّارع، وتتسبب في فتح النوافذ وأبواب الشّرفات دون أن يعرف سكان الشّارع أن الرياح التي هبت عليهم وأنعشتهم لم تكن إلّا روحًا خفيةً تغلّغت في رغباتهم لهدفٍ معلوم.

شعر الجميع فجأةً بشوقٍ عارم، وحنينٍ لا حد له نحو زوجاتهم، سواء الشّباب أو حتّى الكهول..

الكل داعبه الهوى، وتملكت منه الرغبة، واشتعلت فيه الشهوة، لينتفض الذكور وقد شعروا بقوةٍ وعنقوانٍ غير طبيعي يدب في أجسادهم بشكلٍ مفاجئٍ غير مفهوم، حتّى نَصَب الأعصاب وجعلها كالحديد!



## (11)

مع بداية شروق الشمس وإطلاق نورها الخافت، استيقظ الشاب الوسيم بعد ليلة ليلاء شعر فيها أنه يكتشف خبايا جسده لأول مرة، وسار نحو جدار السطح الذي تفصله عنه خطوات بسيطة، حتى وضع راحتي يده عليه وهو يولي وجهه شطر السماء متأملاً كيف يهدي الصبح إشراق سنانه لأهل الأرض مجاناً، وارتسمت على ملامح وجهه التقوى والورع وهو يقول بصوتٍ خفيض بين الجهر والخفوت:

- اللهم في تدبيرك ما يُغني عن الحيل.. وفي كرمك ما هو فوق الأمل.. وفي عفوك ما يحو الزلزل.. اللهم إنا نرجو عفوك.. ونعوذ بك من سخطك.. اشملنا بحفظك.. وأسبغ علينا كرمك..

وفي غمار دعائه، لم يشعر بـ(آيات) التي غادرت حجرتها الحقيمة على أطراف أصابعها، لتسير نحوه وهي تملأ رثتها بذلك النسيم المحمل بعطره النفاذ، مغمضة العينين بنشوة واستمتاع، في حين تتابع أذناها دعاءه بتأثر بالغ وهي تقترب منه كالمسحورة دون أن ترى ذلك الخشوع الذي هيمن على قسماته وهو يواصل مناجاته للرب بقلبٍ شفاف:

- أَيُّهَا الرَّبِّ سَيِّدُنَا، مَا أَمَجَّدَ اسْمَكَ فِي كُلِّ الْأَرْضِ! حَيْثُ جَعَلْتَ جَلَالَكَ فَوْقَ السَّمَاوَاتِ.. الْمَجْدُ لِلَّهِ فِي الْأَعَالِي، وَعَلَى الْأَرْضِ السَّلَام، وَبِالنَّاسِ الْمَسْرُورِ<sup>(1)</sup>

(1) جزء من ترنيمة مسيحية تُدعى "المجدلة الكبرى"، وتقال أثناء القداس الإلهي حسب الطقس اللاتيني بعد طلب الغفران (كرياليسون)، وقبل الصلاة الافتتاحية ابتهاجاً وفرحاً بالرب الإله؛ لأن رحمته عظيمة

وفي غضون دقائق، انطلقت آهات المتعة وصرخات التلذذ في نداء موحد للطبيعة، اخترق الجدران والنوافذ ليبلغ عنان السماء، ويصك مسامع الشاب الوسيم ويقلق نومته.

فرَّ النعاس من عينيه اللتين فتحهما بتوتر وقلق، ثم جلس على مصطبه نصف جلسة يرهف السمع ليتبين صدق ما يسمع..

تأكد أنها صرخاتٌ مشبوبة بالانتشاء والشبق، ولا علاقة لها بالخطر أو الاستغاثة..

وبعد أن تأكد، أخذت تلك الصرخات التي تخترق أذنيه تتحول إلى صورٍ وخيالاتٍ في خياله وعقله الباطن بشكلٍ متكرر، مزعج، اغتال سكينته وثباته، لتزداد ضربات قلبه ويشعر بشيءٍ خاملٍ، نائمٍ، استيقظ في أعماقه!

هز رأسه بقوةٍ في محاولةٍ يائسةٍ لطرده تلك الخيالات واستعادة براءته، وبعفته، والإمساك بلجام نفسه الحيوانية في أولى ليالي انطلاقها لكن دون جدوى، وقد أيقن رغم فقدانه ذاكرته أن ما يشعر به الآن لم يمر به قطُّ طيلة حياته السابقة..

استفردت به مشاعر جديدة ورغبات رُكبت في جسده الصلصالي، ليشعر بافتقاد شيء لا يدري كنهه، ثم تحول الافتقاد إلى عطشٍ من نوعٍ خاص انتشر في جسده كالنار في الهشيم، دون أن يعرف كيف السبيل إلى الارتواء..

هَبْ مغادراً مصطبه وأخذ يجوب السطح ذهاباً ومجيئاً (هاجر) في سعيها بين الصفا والمرورة في لحظات التلطم؛ بحثاً عن شربة ماء لـ(إسماعيل) في وادٍ غير ذي زرع، لكن عطش صاحبنا ما كانت لتروييه بئر (زمزم) بأكملها!

ثم إنه نظر إلى عشة الدجاج وأرهف السمع لباقي الأسطح وهو يتساءل في نفسه: لماذا خمد صياح الديوك!؟

\*\*\*

باغت الرد (آيات) التي ارتسمت الصدمة على وجهها لتتنظر للشباب في حرج، ثم اقتربت من (دميانة) قائلة بخفوت:

- ما معي لا يكفي لشراء خبزٍ حافٍ بعد كل ما حدث.. انقديني الآن من معك وسوف...

قاطعتها (دميانة) بغضب:

- اسمعي يا بنت النَّاس، ما أوله شرطٍ آخره نور.. هناك اتفاق قديم بيننا أن تعيشي معي وحق نومتك تدفعينه أكلاً وشرّباً ونظافةً للمكان.. وإذا كنتُ قد سمحتُ لكِ بالعودة أنتِ والحليوة الذي معك فلا يعني ذلك أنني سأصرف عليكما.

تمنت (آيات) لو لم تأتِ لهذا الوجود وهي تقول بصوتٍ متهدج:

- لكن أنا...

أغفاها الشَّاب من وصلة الدُّل وهو يقاطعها ناظرًا لـ(دميانة) بثبات:

- عندك حق يا دميانة.. هيا بنا نزل يا آيات لإحضار الإفطار.

سألته (آيات) وهي تلتفت نحوهً بدهشة:

- هل معك نقود؟

أجابها بهزة رأسٍ بطيئة تفيد النفي، فسألته بدهشة أكبر:

- وكيف سنشتري الإفطار إذن؟

تطلع إلى عينيها بابتسامةٍ جعلتها تشكر الظروف المؤلمة التي أولدت

بسمه بهذا الجمال، ثم قال بثقة:

- الطير يغادر عُشه كل يومٍ خماصًا ومقصده على من خلقه.. فيعود

آخر اليومٍ بطنًا دون أن يملك نقودًا.

نظرت له (دميانة) بتوجس، قبل أن يقترب منها ببطء وهي تتأمل

ملامحه الوسيمة وقد سحرتها نظراته وطريقة كلامه الواثقة من جديدٍ

قبل أن يقول بلهجةٍ لا ريب فيها:

- ما الذي تريدين تناوله في الإفطار؟

\* \* \*

وما إن صارت قاب قوسين أو أدنى منه حتّى وضعت راحتها اليمنى على كتفه ليلتفت لها بسرعة، ويتأمل عينيها السّاحرتين وقد لمعتا بدوريهما وهي تسأله:

- ألا تتذكر إلى أي دين كنت تنتمي؟

- دين؟

- ألا تؤمن بوجود الله؟

- بل أؤمن.

- وكيف لا تعرف معنى الدّين إذن؟

- لعلي كنت أعرف قبل أن أنسى.

ثم نظر إلى السّماء وأردف:

- كل ما أذكره الآن أنني مؤمن بوجود الرّب.. كلما حدثته شعرت به

يهبط من عليائه ويحل في قلبي ليجيبني بلغة التخاطر حيث لا حاجة

للكلمات.. بل مشاعر ومعانٍ جلية يتلقاها الفؤاد فيدرك المغزى كاملاً

بلا لبس.. دون الحاجة لمفرداتٍ قاصرة قد لا تكفي لإيصال المراد.

أخذتها كلماته إلى حالةٍ روحانيةٍ حلقت معها في السّماء، لكن وسامته

وعطره الذي لم تشتم مثله طوال أيام عمرها جذباها كمغناطيس مطلق

النفوذ نحو حُضنه الذي تمت لو اتخذته بيتًا؛ لتقترب منه أكثر وتقول

بدلال:

- ألم تشعر بالبرد وأنت مغطى بخرقةٍ بالية؟

أجابها بنبرةٍ يملؤها الإيمان والحكمة، لتقف حاجزًا أمام انجذابها:

- ربك يعطي البرد على قدر الغطاء.

قبل أن تنبس ببنت شفة، صك مسامعها أزيز الباب خلفها، لتلتفت

هي والشَّاب نحو الصّوت ويجدًا (دميانة) بملامحها الناعسة تتجه إلى

الحمام المنفصل عن الغرفة، فبادرتها (آيات) بابتسامةٍ قائلة بتودد:

- صباح الخير يا (دميانة).

ردت عليها (دميانة) بوجهٍ كئيب:

- صباح التور، هيا، أسرع في شراء وتجهيز الإفطار.



تباطأت خطواتُ خطواتٍ (آيات) وهي تسير بجوار الشَّاب وعلى وجهها الإرهاق، ثم قالت بنبرةٍ منهكة:

- مضت ساعة على مسيرنا دون أن نفعل شيئاً، والجميع رفض إعطاءنا إبطاراً على الحساب.. ماذا تنوي أن تفعل؟

أجابها وهو يواصل سيره دون أن يفتر حماسه:

- إياك أن تياسبي أو يفتر ما يحدث في عضدك.. غالباً آخر مفتاح في سلسلة مفاتيحك يكون هو المناسب لفتح الباب.

استمر سيرهما حتّى مرّاً إلى جوارعربة فول، التوت عندها قدم (آيات) أسفل منها فسقطت وهي تتأوه قبل أن تمسكها يد الشَّاب بأعصاب من فولاذ وأعانتها على الوقوف من جديد..

نظرت إلى عينيه وقالت بضعفٍ ووهن:

- صدقتي لن نصل لشيء.. نحن في زمنٍ لا ثمن فيه لابن آدم إلا بما في جيبه من نقود، ولن يصنع موتنا من الجوع أي فارق مع من حولنا.. لقد ابتلعت المجاعاتُ آلاًفاً من البشر دون أن يشعر برحيلهم أحد، وكم من أناس عاشوا سنين طويلة في انتظار الرزق وماتوا قبل أن يأتي.

أجابها بتحدٍّ وإصرار:

- ما أعرفه أن الرزق يُطارِد ابن آدم أكثر من بحث ابن آدم عنه.. لو كانوا آمنوا بقلبٍ واثق بلا ذرة شك لتحول التراب في أيديهم إلى ذهب.

**"وهل أنت على هذه الدرجة من الإيمان؟!"**

تردد صوت (دميانة) خلفه ليلتفت نحوها هو و(آيات) حيثُ أصبح جميعهم واقفين أمام عربة الفول، دون أن تكف المرأة العجوز عن التطلع إلى عينيه بشماتة، ثم انحنت على الأرض وملأت راحتيها بحفنةٍ من التراب، ونهضت وهي تمد يديها نحوّه قائلة في تحدٍّ:

- فلترني كيف تحول التراب إلى ذهب أيها المؤمن بدلاً من دوختي خلفكما مُنذُ ساعة على لحم بطني.

تأمل عينيهما بهدوء دون أن ينبس ببنت شفة قبل أن تلقي التراب أرضاً وتبتسم ساخرة وهي تردف بتهكم:

- من يشاهدك وأنت تتحدث بثقةٍ وحزمٍ تسحره كلماتك وأسلوبك.. أي غباء هذا الذي أصاب عقلي حين شعرت أنك ستفعلها وتجلب الإبطار رغم ثقتي في أن جيبك خاوي الوفاض.. أخذتني رجلي خلفكما لأشاهد ماذا ستفعل وأنا أشعر أنك ستصنع معجزة.. فإذا بك مثل باقي الموكوسين الذين يكيفون كل حاجة في هذا الكون البائس على مقياس الدّين حتّى يهربوا من فشلهم.

ثم التفتت (دميانة) لبائع الفول وأخرجت من عبّها جنهين معدنين، ووضعتهما على العربة وهي تقول في عجلة:

- بجنيه فول وزيت حار، وبنصف جنيه باذنجان، و عشرة أرغفة. ومن جانبه، أخذ بائع الفول الجنيهين ودسهما في جيب المريلة البيضاء التي يرتديها وهو يقول:

- فلتجعلي الحساب عليّ هذه المرّة يا أماه!  
أجابته بغلظة:

- مُنذُ متى تلقي الحدأة بالكتاكت يا عين أمك؟ هيا أنجزني فأنا جائعة.

ثم التفتت نحو الشَّاب مجدداً وواصلت جلده بكلماتها المتهمكة:

- في إحدى المرات، مشيت في جنازة، كانت الخشبة فيها في خفية الريشة.. وأخذت النَّاس تهلل للميت الذي يجري نحو قبره ومستعجل على الجنّة.. وبعدما وصلنا القبر اكتشفنا أن الخشبة كانت فارغة، ولم نفيق من الصدمة غير على صوت سيارة الإسعاف التي جاءت تحصلنا وفيها الجثة بعد أن تم استبدال الصندوق بأخر فارغ، فهلل نفس النَّاس على أن الميت التقى كان يعرف طريقه إلى قبره.. كل المأفونين بربهم يفكرون بنفس الطريقة ولا أمل في شفائكم.

أناها صوت بائع الفول من خلفها:

- الطلب يا أمي.

اتجهت نحو صاحب العربة وأخذت منه ذلك الكيس البلاستيكي الذي به ما طلبت، وما إن استدارت للشَّاب حتّى اقترب منها قائلاً بثقة:

- تُرى، هل اشتريتِ الفول حتّى تثبتي أنني كنت مخطئًا في الإيمان بعقيدة لا تؤمنين بها، أم أن ثقتي بعطف الخالق ورزقه لنا مهما كانت الظروف هي التي أرسلت الرزق على يديك لتثبتي بنفسك عكس ما تؤمنين به؟

باغتتها كلماته وحاصرت عقلها لتسرح فيها رغمًا عنها، وإن جاهدت ألا يبدو على ملامحها التأثر، في اللحظة التي انحنى فيها الشاب نحو الأرض ليأخذ حفنة كبيرة من التراب بيديه، وما إن نهض حتّى بدأ التراب ينساب من راحتيه ببطء، ليتحول أثناء انسيابه إلى ذهب!!

اتسعت عينا (دميانة) بدهشة عارمة، وألقت بكيس الفول والعيش والتقطت طرف جلبابها بسرعة لتضعه تحت راحتي الشاب، في اللحظة التي انتبه فيها زبائن عربة الفول لما يحدث فكفوا عن الأكل وانقض جميعهم على (دميانة) يتخطفون منها الذهب..

ومن جانبيهم، لاحظ المارة ورواد المحال وأصحابها ما يحدث، فترك الجميع ما في أياديهم لهثًا وراء ذلك الكنز المفاجئ الذي وُلد من العدم في ساعة حظ حتمًا لن تتكرر في العمر مرّة أخرى، ليمرق مجاذيب الذهب بعيون متسعة جاحظة، وأفواه مفتوحة، وأقدام تسوقها بوصلتها نحو البريق بجوار (آيات) التي تسمّرت في مكانها غير مصدقة نفسها دون أن تُحاول الاقتراب، لترى في ظرف ثوان معدودة تكدّسًا بشريًا غير عادي اختفى داخله الشاب و(دميانة) تمامًا، في حين بدا باقي الشارع خاويًا على عروشِه!

وداخل التكدس والزحام الرهيب، سقطت (دميانة) أرضًا لتتكالب عليها الأيادي وتدهسها الأرجل بلا رحمة، وأخذ رأسها يتخبط في الأسفلت بقسوةٍ شديدة، وشعرت برجرجةٍ مخها حتّى بدأ دوار عنيف يبتلع وعيها وقد تمزق جلبابها، وتعفر وجهها بالتراب، وامتلاً جسدها بالكدمات والسحجات لتتمنى في تلك اللحظة أن تملك القدرة على أن تصرخ في الجميع: خذوا الذهب وكل ما أملك واتركوني أعيش، لكن الألم والضعف جمدا الكلمات والصراخ على شفيتها دون أن يُبالي أحدٌ بنظرات

الهلول التي ارتسمت على ملامحها قبل أن تفقد الوعي، بينما أخذت الأيادي تتخطف الذهب في فوضى ووحشية، والشباب يتابع المشهد عن قرب دون أن يتدخل، حتّى عاد الذهب إلى سيرته الأولى لينساب مرّة أخرى من الأيادي في صورة تراب، ويعود الجميع بخفي حنين.

بعضهم اتسعت عيونه برهبة، والبعض الآخر شهق في ذعر، والبعض الثالث تجمّد في مكانه كتمثالٍ إغريقي لأحد التعساء الذين أصابتهم لعنة رأس ميدوسا، وسرت في المكان همهمة، وعلا صوت الجلبة.

في تلك اللحظات، ظهر الرّجل العجوز ذو الملامح السمراء الذي قابله الشاب في المولد، ليمرق بين الأكثاف المتراخمة ويمد بصره متابعًا المشهد عن قرب، في حين تطلع الشاب إلى الوجوه المحيطة به وقد جحظت منها العيون وقال بصرامة:

- لا تكنزوا لكم كنوزًا على الأرض حيثُ يفسد السوس والصدأ، وحيثُ ينقب السارقون ويسرقون<sup>(١)</sup> (انحنى ليحمل دميانة ثم تابع) بل اكنزوا لكم كنوزًا في السماء حيثُ لا يفسد سوس ولا صدأ، وحيثُ لا ينقب سارقون ولا يسرقون\*.

قالها ثم سار حاملاً (دميانة) ليشق طريقه وسط الزحام، وقد تجمد كثير من الناس في أماكنهم، فيما امتدت إلى جسده بعض الأيادي لتمسح فيه بعد أن ظهرت منه كرامة لن يحوها النسيان أبد الدهر في نفوس كل من عاينوها.. أما (آيات) فقد ارتجفت أوصالها حين التحم هذا المشهد بالمشهد الأسطوري الذي مرّت به معه في المقابر، وفاقت جرعة الإبهار التي ملأت نفسها حدود استيعاب العقل البشري والمشاعر والأحاسيس وردود الأفعال الإنسانية، لتنصب عيناها على كيس الفول الذي تمزق وسال على الأرض دون أن تحرك ساكنًا، وقد غرقت روحها في بحرٍ لُجّي يغشاه موج من التساؤلات.

\* \* \*

(١) الكتاب المقدّس، إنجيل متى ٦:٩١.

بقي لها من العمر، في صفقة عادلة ستحميها من السنة الناس التي لا ترحم، ويحميهم من ملامحها المثيرة للخوف والرعب.

صرت الهمهمة فور كشف السيدة النقاب عن وجهها، لتواصل تضرعها وهي تبكي وتتسال دموعها من عين واحدة:

- لقد دمّرتني طليقي وقضى على حياتي ومستقبلي، فلتلمس وجهي بيدك المباركة وتعيدني من جديد لعالم الأحياء، فما أقسى أن تموت وأنت حي.

زاحمها حول الشاب رجل أربعيناتي بسيط الهيئة، ذو لحية غير مشذبة قائلاً:

- وأنا فصلتني الشركة التي أعمل بها أنا وزملائي لتقليل ميزانيتنا، وألقت بمهام عملنا على باقي الموجودين فيها ولا مصدر رزق لي أنا وأطفالي الأربعة.

ثم انضمت لهما سيدة عجوز تقدمت نحو الشاب وقالت في حرقة:

- مُنذُ أيام تُوفي زوجي بسكتة قلبية بعد أن رفضوا انضمام ابنا للنيابة رغم تخرجه بتقدير جيد جداً واجتيازه اختبارات القبول لأن والده كان عامل نظافة.. أهذا أمر يستحق الطرد من جنتهم، أم كان من المفترض تكريم الأب الذي ربّى ابنه أفضل تربية حتّى تخرّج بتفوق على أقرانه من أبناء الحسب والنسب؟

ثم اقتربت طفلة جميلة سمراء ذات وجهٍ خالطه التراب وملابس رثة وقدمين حافيتين:

- أريد دُمية وساندوتش هامبرجر من ذلك المحل الذي يوزع لعباً هدية مع وجبات الأطفال.

انحنى الشاب نحو الطفلة ومسح بيده على شعرها الغجري في اللحظة التي منحتة فيها ابتسامة عذبة بها ما تبقى من براءتها، وقبل أن يقترب شخص خامس نهض الشاب واستوقف الجميع بنبرة صارمة:

- ما فعلت إلا ما شعرت أنني قادر على فعله في لحظة إيمان، وهو الشعور نفسه الذي يُخبرني الآن بأنني عاجز عن نفعكم بقدر ما

دسّت (آيات) مفتاح الغرفة في الباب ببطء وتلجلج، لتنظر بعينين ذاهلتين إلى الشاب الذي يحمل (دميانية) وقد سعد خلفه أفواج من البشر ساروا خلفه كالمجاذيب..

وعلى عتبة الباب، انتظر الشاب أن تُفسح له (آيات) المجال ليدخل الغرفة حاملاً الثعلبة العجوز فاقدة الوعي، ليسجي جثمانها على السرير بحنانٍ ورفق كمن يضع طفلاً رضيعاً، ثم التفت خلفه حيث لا تزال (آيات) تتأمله بعين الرهبة والرجفة، لتسأله بعينين يملؤهما الانبهار دون أن تكثرث مئات الأشخاص الذين وقفوا خارج الغرفة وملاؤا السطح ودرجات السلم المؤدي إليه، كمن سمعوا أن (مارلين مونرو) تستحم على الملأ في السطح:

- من أنت؟

تطلع إلى عينيها وقال بنبرة صوتٍ رخيمةٍ ساحرةٍ لا ينافس سحرها سوى بريق عينيهِ الذهبيتين:

- أنا الذي اختارني الرب لأكون أنا، مثلما اختارك لتكويني أنت.

- لو قلت لي إنك نبي جديد لما ساورني الشك.. ولو اتهموك بالسحر لما استطعت أن أصف كلامهم بالأباطيل.

تأمل عينيها وتجمّد حولهما الزمان والمكان لشوان، قبل أن تنقض عليه سيدة منتقبة لا يظهر منها شيء حتّى عينيها، وقالت بلهفة غريق وجد مركباً إلى جواره في لحظة استسلامه للموت:

- حتّى ولو ساحراً، نحن في حاجة لقدراتك بعد أن فشلت دعوات الأولياء وجهود الأطباء في رفع الضر عنا (انكبت على يده تقبلها قائلة بتضرع) أقبل يدك ساعدني!

سحب يده من أمام فمها كمن يخشى عضه أسد، لتزيح النقاب من على وجهها وتصعق ناظره بوجهها المشوّه ذي الجلد المهترئ المتآكل، ونصف رأسها الذي اختفى منه الشعر تماماً وظهرت أسفله أرضية مجمعة محروقة ببشاعة، وذابت إحدى عينيها والتحم الجفنان بفعل ماء نار أتى على أنوثتها وإنسانيتها وأصدر فرماناً بالحبس خلف نقاب ما





## (12)

حلّقت روح (دميانة) عاليًا لتشاهد جسدها المُسجّى على الفراش  
وإلى جوارها (آيات) التي تططب على خدها برفق في محاولة يائسة  
لإيقاظها.

اخترقت الجدران ورأت جموع البشر وهم يرحلون من السطح، كل  
منهم عائد صفر اليدين.

وفي أعالي السماء، وجدت أنبوبًا أسطوانيًا انجذبت إليه فجأة لتغرق  
في ظلمات بعضها فوق بعض قبل أن تندفع بسرعة هائلة إلى نهايته التي  
لاح منها بصيص ضوء أخذ يكبر ويتسع كلما اقتربت منه حتى عبرت  
الأنبوب إلى الجانب الآخر من الوجود، لتجد نفسها أمام أنوار كريستالية  
صافية لم تجد في جمالها ولا بهاء ألوانها مثيلًا في الأرض طوال عمرها الذي  
بلغت أزدله.

أضواء فائقة السطوع، لكنها رغم ذلك لا تؤذي العين أو تغشاها، وفي  
الخلفية موسيقى خلاصة تتغلغل في الروح وتجعلها في حالة انتشاء.

اخترقت (دميانة) شلال الضوء لتجد بعده أرضًا مترامية الأطراف  
من الخضرة، بها نخل باسقات لها طلع نضيد، وأشجار وارفة، وتعلوها  
المرتفعات التي تنهمر منها المياه الصافية، وحولها جبال منقوشة بنقش  
رائع عبقري حسان.. بينما تنتشر الملائكة في كل جانب لترقب بأجنتها  
الخفاقة، فيما أخذ بعضهم يلاطف الولدان المخلدون الذين ارتدوا ملابسًا  
بيضاء، وانبثق النور من وجوههم كقدسين تحيطهم الهالات النورانية..

تستطيعون نفع أنفسكم في التعامل مع ابتلاءاتكم.. (وزع نظراته على  
الجميع وارتفع صوته بحسم مستطردًا) من كان يعتقد أنني ساحرٌ  
فلماذا لا يغير السحرة حياتهم للأفضل؟ ومن يرى أنني إنسان مبارك  
فأنا أكثركم بؤسًا.. عودوا إلى بارئكم؛ فهو وحده من يملك أن يجيب كل  
منكم مسألته إذا صرتم على ناموس الكون المحكم.

سرت الهمهمة وتعالّت الأصوات بنبرات التوسل والتذلل، فيما تحوّل  
السطح ومن عليه فجأة إلى ما يُشبه عالم الكرتون والجرافيك في عيني  
الشباب الوسيم الذي رأى سحبات من الأحلام والأمانى تحلّق فوق رؤوس  
أصحابها، لكن جميعها مرسوم خلف قضبان ذات أقفال حديدية صدئة  
من فرط تكاسلهم وضعف إيمانهم، قبل أن يتزاحم الجمع حول الشباب  
وتمتد إليه الأيدي للتمسح به، فانتفض صائحًا فيهم بنبرة أمرّة دوت  
كالرعد:

- كَفَى!

ارتجفت أوصال الجميع مع صيحته الهادرة التي كادت تخلع قلوبهم،  
فتسمّروا في أماكنهم وكأن على رؤوسهم الطير، وإن لم تكف أعينهم عن  
محاصرته بالتوسل والتذلل وقد أبت نظراتهم تصديق فكرة أنه لا يملك  
الخلاص، فأحس أن الهواء قد خلا من الأكسجين في تلك البقعة البائسة  
من الأرض الحزينة.

ودون أن يشعر أخذته قدماه بعيدًا عن المكان مغادرًا السطح، دون  
أن يجروا أحد على اعتراضه.. لا يدري إلى أين يتجه؛ لكنه على الأقل عزم  
على الرحيل غير عابئ بهرولة (آيات) خلفه، ولا بصوتها الجريح المتهدد  
حين سألته إلى أين سيذهب.

\* \* \*

جربت أن تطير فارتفعت عن الأرض بسهولة، ووجدت نفسها تسبح في الهواء كما تريد بمجرد التفكير، لتُحلّق عاليًا وتُبحر أكثر في عباب هذا العالم التّوراني الجميل، ومن بعيد لمحتة..

نعم، إنه هو..

في نفس زيه الأبيض الذي رأيته به في كل الصور..

نفس الوشاح الذي يغطي نصف رأسه الخلفي، ويلتف حول كتفيه، ويظهر من تحته نصف رأسه الأمامي كاشفًا عن شعره البني الفاتح الناعم الطويل المبسوط من المنتصف.. لحيته الناعمة الخفيفة.. بشرته البيضاء.. عينيه الملونتين العميقتين اللتين يبدو كل منهما ككوكبٍ دُرِّيٍّ يسر الناظرين..

يجلس على كرسي العرش وحوله مجموعةٌ من الخراف تركض هنا وهناك لتلعب مع الأسود في سلام استثنائي يخالف ناموس الدُّنيا..

"كيف حالك يا (دميانة)؟"

لم تغادر الكلمات شفتيه، ورغم ذلك اخترقت مسامعها، وتغلغلت في نفسها، لتجيبه بدهشة وانبهار:

هل... هل أنت...؟

ابتسم وهو يجيب برقةٍ وصوتٍ عذب، فاق في روعته جمال الموسيقى الخلابة التي تتردد في أصداء هذا العالم:

نعم، هو أنا.. لقد كنت أنتظر منذُ زمن.

بدأت تستجمع قواها وتستعيد منطقتها الذي كوَّنته على مدى سنين طويلة؛ تحسُّبًا لمجيء هذا اليوم وقالت:

وأنا كنت أنتظر تلك اللحظة التي أختبر فيها إذا كانت هناك مقابلة أم لا.

قام من جلسته واقترب منها بخطواتٍ هادئةٍ لا تخلو من الشموخ والعظمة، دون أن يتخلى عن ابتسامته الحانية وهو يتأملها، ثم سألها حين أصبح أمامها وجهًا لوجه:

- المقابلة نفسها كانت اختبارًا.. فهل سمعتِ عن تلميذ يختبر المُعلِّم إن كان هناك اختبار أم لا؟

- وهل هناك تلميذ يُوضع في لجنة اختبار دون أن يقابل مُعلِّمه ويأخذ فرصته في الفهم والمعرفة على ما سيتم اختباره فيه؟

- لقد أرسل المُعلِّم الأكبر صغار المُعلِّمين للشرح والتفسير، لكن بعض التلاميذ انصرفوا عن العلم وحاربوا مُعلِّمهم المرسلين.

- حينَ أراد المُعلِّم الأكبر أن يخبر التلاميذ بوجوده، أرسل لهم كلامًا مع مُعلِّمين يشبهونهم في الخِلقَة والتكوين؛ حتَّى يؤكدوا بعض الدروس المُتعلِّقة بقدراته، ويوم لقائه المعلوم.. لكن، ماذا عن التلاميذ الجدد الذين لم يشاهدوه ولم يلتقوا مندوبيه من المُعلِّمين الذين أرسلهم، ليصبح الأمر بمثابة حكايات قديمة حتمًا ما طرأ عليها التعديل والتغيير عبر آلاف السنين شأن كل حكاية يتناقلها البشر من مكانٍ لكان، ومن عصرٍ لعصر؟ كيف لنا أن نؤمن بكلام سمعناه من آبائنا وأجدادنا عن مُعلِّمين لم نرهم، ولم يرههم من حكى عنهم، انتدبهم مُعلِّم هم أنفسهم لم يشاهدوه؟

- ولماذا لم تفكري في الكلام الذي أرسله المُعلِّم؟ لعل فيه الخلاص.

- لقد كان كلامه نفسه مصدرًا للشك.

- كيف؟

- كلام المُعلِّم الحقيقي، لا بد أن يكون مفهومًا لكل التلاميذ.. ليس به طلاس ولا غموض، ولا يتوقف الاقتناع به والنجاح فيه على نسبة ذكاء بعضهم؛ لأن الأغبيا ومحدودي الفهم لم يخلقوا يومًا عقولهم.. كان من اللائق به أن يُوحِّد أبناء المدرسة، لا أن يتسبب في صراعات طاحنة بين تلاميذ الفصول المختلفة.

وضع ذقنه بين إصبعيه الإبهام والسبابة ليفركها ببطء وهدوء وقد عقد حاجبيه مُفكِّرًا في كلماتها، ثم استدار عائدًا إلى كرسيه بخطواتٍ متتاليةٍ وهي تتطلع إلى منكبويه العريضين، وما إن وصل لكرسيه حتَّى التفت نحوها وجلس من جديد قائلًا في تعاطف:

- يبدو أنكِ مررتِ بتجربةٍ مؤلمة.



ثم التقط العصا التي يهش بها على غنمه من جانبه وضرب بها على الأرض قائلاً:

- ها هو ذا خط الزّمن أمامك، احكي ما شئت، كُلي آذان مُصغية!  
ومع ضربة العصا تحوّلت الأرض أمامها إلى ما يُشبه شاشة عرض هولجرامية تعرض مشاهد رباعية الأبعاد لكل العصور، فتأملت المشهد بدهشةٍ عارمةٍ سرعان ما تحولت إلى دموعٍ حزينةٍ يملؤها الألم، ثم وضعت يدها على نقطة محددة اختارتها دونًا عن باقي الأزمان لتبدأ من عندها الحكي.

\* \* \*

### مدينة الإسكندرية عام 1942م

انحدرت الدّموع السّاخنة على وجنتي تلك الطفلة السمراء الجميلة ذات الضفيرتين، وهي تشهد لحظة نزول ذلك الصندوق الخشبي الذي يحمل جثمان أمها إلى مثواه الأخير، قبل أن يُصلي القس صلاته الأخيرة لمباركة روحها التي صعدت إلى الملكوت السّماوي، طالبًا من الملائكة والقديسين أن يشفعوا لها أمام عرش النّعمة، ثم أخذ يُدكّر الحضور بالاستعداد لذلك اليوم الذي لا مفر منه، وفي غمزةٍ أحرانها ودموعها التي ألهمت خديها، شعرت بكف رقيقة تتسلل الأجساد المحيطة بها ليقبض صاحبها على كفها في حنانٍ ورفق.

كفّت عن البكاء وهي تلتفت نحو صاحب هذه الكف؛ فإذا به (موريس)؛ ذلك الطّفل اليهودي الجميل، أبيض البشرة، ذو الشعر الأسود الفاحم فائق النّعومة، والعينين الواسعتين، وينتمي مع أسرته -التي تحضر الدفنة- لطائفة اليهود البسطاء التي كانت جزءًا لا ينفصل عن الشّعب المصري، ولا يختلف أبنائها عن المسلمين أو المسيحيين في أي شيء عدا العقيدة التي كانت في هذا العصر معيارًا هامشيًا، لا يشكل فارقًا في العلاقات بين المصريين.

منح (موريس) - الذي تنتمي عائلته لطائفة اليهود القرائين - الطفلة (دميانة) ابتسامة عذبة شديدة البراءة، غير عابئ بالرسميات وقسمات

الحزن التي على الجميع حفرها على ملامح وجوههم في مثل هذا الموقف المهيب ولو ظاهريًا، حتّى وإن خلت مشاعرهم الدّاخلية من أي تأثر؛ احترامًا لحزن أهل الميتم، وجلال الموقف الذي قدّسه المصريون مُنذ قديم الأزل.

\* \* \*

"عيب يا جرجس.. دميانة ابنتك مثل ابني موريس تمامًا، ولا ضير أن تعتني ليليان زوجتي بتربيتها في أوقات عملك".

قالها (زكي موردخاي) ذلك اليهودي الرفيع، ذو الوجه الأصفر الذي تبرز منه عظمتا الوجنتين، وتطل منه عينان ضيقتان مختبئتان خلف نظارة طبية معلقة بسلسلة تتدلّى خلف قفاه، ويعلوه شعرٌ خفيفٌ منحولٌ في مقدمته، لتخرج كلماته بصوتٍ يُشعر من يسمعها أنها خرجت من أنفه لا بلسانه، في صالة منزله بحارة اليهود في (بحري)، موجّها حديثه إلى صديقه البدين الأصلح (جرجس) الذي امتدت كرشه أمامه كسيدة حامل في 4 توائم، لتؤمّن (ليليان) زوجة الأول على كلامه قائلة:  
- وكليم الله لقد وقع هوى ابنتك الجميلة في قلبي مُنذ أول وهلة رأيتها فيها.. دعها معي يا جرجس ولا تخف، فلقد حرمت من نعمة الإنجاب بعد تلك العملية التي قمت بها وكم كنت أتمنى أن تكون لي ابنة.

كان (زكي) محاسبًا بفندق (سان إستيفانو) الذي مؤّلت بناءه عائلة (موصيري) اليهودية، بينما كانت زوجته (ليليان) موظفة بأحد المحال التابعة لعائلة (قطاوي) اليهودية أيضًا، وجمعت الصداقة بين أسرتهم وأسرة المحامي (جرجس عادل كيرلوس) أشهر من لعب على المشاريب في تاريخ الإسكندرية بأكملها، ولم يذق قطّ طعم الخسارة في لعبة الطاولة. وشأن الكثير من سكان (القطارين) و(بحري) المترابطين اجتماعيًا برباط أقوى وأغلظ من رباط الأخوة، كان (زكي) و(جرجس) صديقين حميمين، متشابهين في كثير من الصّفات والتفكير إلا في خانة الديانة، التي



كان مكتوبًا أمامها في بطاقة (زكي): يهودي، بينما كان (جرجس) مسيحيًا أرثوذكسيًا.

وفي حجرة صغيرة بالمنزل، تطلعت الصغيرة (دميانة) ذات السنوات العشر إلى مكتبة بها العديد من الكتب ذات الأحجام والمقاسات المختلفة، قبل أن تلتفت نحو (موريس) ذي الثلاثة عشر ربيعًا وتسأله بدهشة:

- ألا يوجد في غرفتك سوى الكتب فقط؟ وأين الألعاب التي تلعب بها؟ ابتسم وأجابها بطريقةٍ بدت أكبر من سنه بكثير:

- تلك الكتب هي اللعبة التي يروقني كثيرًا أن أقضي بها أغلب وقتي؛ فيها أجول كل أنحاء العالم وأنتقل عبر الزمن وأنا على سريري بين جدران غرفتي.

التفتت للكتب مرةً أخرى بدهشةٍ، ثم نظرت إليه وسألته:

- كيف؟

بسط ذراعه بطريقةٍ مسرحية، وأشار لمكتبته وهو يجيب بغموض:

- هذا سؤال لن تفهمي إجابته أبدًا إلا إذا جربت اللعبة بنفسك، فمن يقرأ يلخص كل متع الكون في مُتعةٍ واحدة.

تطلعت إلى ملامحه بإعجابٍ وقبل أن تنبس ببنت شفة، أطل فجأة شبح الحرب العالمية الثانية الذي خيم على الأجواء في الإسكندرية وشتى مدن وبلدان العالم في ذلك الحين، لينطلق صفير التحذير من غارة جوية تشنها الطائرات الإيطالية التابعة لقوات المحور؛ في محاولة لضرب أهداف تابعة لقيادة الأسطول الملكي البريطاني المؤازر لقوات الحلفاء، وتم نقله من مالطا إلى الإسكندرية مُنذُ سنوات بناء على معاهدة 1936م، بينما أخذ أحدهم يردد بصوتٍ مثيرٍ للتوتر:

- طفيّ التور.. طفيّ التور!

لتنطفئ أنوار الحي بأكمله، ويسود الظلام وصمت البشر بشكلٍ ضاعف من حدة صوت سارينة الإنذار القابض للقلب، فيما اقتربت (دميانة) من (موريس) في رعب، قبل أن تسمع أزيز الباب الذي انفتح

واقترن فتحه بضوءٍ بسيطٍ تسلل إلى الغرفة من شمعة حملتها (ليليان) وهي تقول بحنان:

- تعاليا اجلسا معنا في الصالة يا صغيري الجميلين.

لكنها سرعان ما تخلت عن نبرتها الحانية حين اصطحبت الطفلين للصالة، لتزفر زفرة حارة وتقول غاضبة:

- لعنة الرب عليك يا هتler الكلب أنت وحلفائك الحمقى، أريد أن أصعد إلى السطح يا زكي للاطمئنان على الكتاكت الصغار في العشة. صاح فيها (زكي) غاضبًا:

- صه أيتها الخرفة! فلتنهب الكتاكت إلى الجحيم.. أتريدين أن يلمحك طيار بتلك الشمعة في يدك فتكونين سببًا في دمار شارعنا مثلما قصفوا المنازل في شارع السبع بنات<sup>(1)</sup> مُنذُ أيام؟ أجابته بعصبية:

- دع الأمر على ربنا يا رجل، فلن يأخذوا منا إلا ما هو مكتوب علينا فقده، ثم إن الطليان والألمان لا يؤذون المصريين إلا بالخطأ بعد أن تحالف معهم الملك فاروق من وراء الكواليس هب واقفًا كمن لدغه عقرب وقال بصوتٍ خفيض:

- 100 مرةً أنه عليك ألا نقحم السياسة في كلامنا، خاصة فيما يتعلق بشأن جلالة الملك يا امرأة، اصعدي لكتاكتك إن كان هذا سيرحك.. لكن بدون شمع.

قالها وهو ينفخ في الشمعة التي تحملها، فأشعلت عود ثقاب وهمت بإشعال الشمعة من جديد وهي تقول في عناد:

- لقد شارفت الغارة على الانتهاء يا زكي.

(1) يُعتبر شارع السبع بنات أحد أهم وأعرق شوارع منطقة الثغر في الإسكندرية، ويبدأ من ميدان المنشية وينتهي على حدود طريق القباري، وكان مليئًا باليهود والجاليات اليونانية والإنجليزية؛ وكانت به الحانات والدكاكين الخاصة ببيع الخمر، فضلًا عن كثير من بيوت الدعارة، وترجع تسمية الشارع إلى وجود ٧ راهبات في دير كنّ يقمن بإضاءة الشارع؛ لأن السير فيه كان خطرًا على السيدات لمروور ريا وسكينة أشهر سفاحتين في تاريخ مصر الحديث بذلك الطريق؛ لذلك سُمي الشارع (السبع بنات).

قاربت الشمس على الرحيل في آخر ساعات النهار، حين سار الصبي (موريس) مع الطفلة (دميانة) في شوارع حي (القطارين) العتيق حتى وصلا إلى مسجد (القطارين) الذي يختلف طراز معماره الإسلامي الشرقي عن الطراز المعماري المميز للحي بمبانيه وحوائيته القديمة المرتسمة على ملامحها فنون العمارة الأوربية ذات الذوق الأجنبي، حاملة بصمات اليونانيين والطيلىان والأرمن الذين كانوا يهتمون كثيراً بالزينة والطيور في محالهم؛ ما بين من يُعلّق قفصاً به ببغاء، أو من يضع حوضاً به ترسة بحرية، بخلاف رائحة النباتات والبهجة التي تُصدّرها أصص الزرع الموضوعة في الشرفات، حاملة ورداً مختلف الألوان والأنواع بأشكال متعددة، كلها تثير في النفس سعادة خفية فور وقوع العين عليها، بينما وضعوا في مداخل البيوت أصص الصبار.

توقف (موريس) عن السير أمام المسجد فتوقفت بدورها (دميانة) عن المشي متألمة ملامح رفيقها الذي عزم على استعراض ثقافته الواسعة وما تحصّل عليه من هواية القراءة التي بدأها وهو في الخامسة من عمره؛ ليحرص، مُنذُ ذلك الوقت، على اقتناء الكتب والمجلدات أحياناً أو استعارتها أحياناً أخرى، والتهام سطورها في نهم كدودة قراءة لا تشبع، ثم قال بعد أن رتّب أفكاره كمن يُلقى مُحاضرة:

- مُنذُ فجر التاريخ والإسكندرية هي ملكة الإبداع والفن والعشق والجمال.. قال عنها الشعراء إنها قطر الندى، ومهبط الشعاع المغسول بماء السماء، واعتبروها أيضاً قلب الذكريات المبللة بالشهد والدموع. نظر إلى عينيها وتابع:

- هي مثلك؛ أيقونة هاربة من كتب الحواديث الإغريقية؛ ساحرة لا تعرف التّوم في الصيف، ولا تخشى الضباب والصقيع في الشتاء.. تُبادل زائريها الغرام بالغرام، وتُغرق الكلام في الألحان.. كانت قرية صغيرة اسمها راقودة، ثم تحوّلت إلى مدينة كبيرة من أجمل العرائس التي تتبختر على شاطئ البحر المتوسط، وعلى أرضها تاريخ طويل تفوق أحداثه روعة وغرابة الأساطير؛ لذا أحببت القراءة عنها ومعرفة أدق أسرارها.

نفخ في عود الثقاب، وقال بإصرار زاد معه ذلك "الخنفان" المألصق لصوته:  
- فلنوفر الشمع إذن يا لي يا حبيبتي، فنحن أولى بكل مليم أدفعه من لحم الحي.  
أشاحت بوجهها وغادرت المكان وهي تتمتم بكلماتٍ غير مسموعة بدت أشبه بالطلاسم، في الوقت الذي قهقه فيه (جرجس) قائلاً:  
- زوجتك محقة يا زكي، فعددٌ كبيرٌ من الساسة والشعب يقولونها علناً: إلى الأمام يا روميل، وبعد سقوط مرسى مطروح وأسر 7 آلاف جندي من قوات الإنجليز بات كل ما ينقص روميل اجتياز 200 كيلومتر لتدخل قواته الإسكندرية ويحررنا من قبضة الإنجليز.. ألم تلاحظ أن أنوار قصر الملك ها هنا تظّل على إزارتها في قلب الغارات والمعارك، بينما تقبع كل المدينة تحت الظلام أثناء القصف؟

خفض (زكي) بصره، وأطرق إلى الأرض متمتماً بصوتٍ مسموعٍ بالكاد:  
- هل تعتقد أن الألمان سيكونون أكثر رافةً بنا من الإنجليز؟ انظر حولك لكبار التجار والأثرياء اليهود الذين بدءوا في تصفية أعمالهم وبيع ممتلكاتهم بمجرد اقتراب روميل من الإسكندرية لتعرف أي مصير سوداوي ينتظرنى أنا وفقراء اليهود الذين لا يستطيعون الفرار من مدينتنا إذا ما رجحت كفة الألمان.

همّ (جرجس) بالإجابة في اللحظة نفسها التي انتهت فيها الغارة وعادت الأنوار إلى البيوت، فاستطرد (زكي) موجهاً حديثه لطفله:  
- لقد انتهت الغارة.. هيا يا موريس، خذ (دميانة) إلى غرفتك.. فأنا أريد عمك (جرجس) في موضوع على انفراد.  
وضع (موريس) يده على كتف (دميانة) وغادر كلاهما الصالة متجهين إلى الحجرة الصّغيرة، فيما قال (جرجس):

- أئن تشعل الثور يا (زكي)؟  
مال (زكي) نحوه وأجاب هامساً:  
- ما أريدك بشأنه موضوع يجب أن يبقى في الظلام.

\*\*\*

القراءة هي التي علمتني أصل تسمية هذا الحي (العطارين).. ويرجع سر الاسم إلى سببين: الأول هذا المسجد (وأشار إلى مسجد العطارين وتابع) كان في البداية كنيسة باسم القديس أثناسيوس الذي ظهر في المرحلة التي انتقلت فيها المسيحية من مرحلة الاضطهاد والتعذيب إلى مرحلة الدراسة والتعلم، حتّى إن خلافاً كبيراً نشب بين المسيحيين في تفسير المسيحية، وكانت أولى بوادره في الإسكندرية باعتبارها من أكبر مراكز انتشار المسيحية في العالم، وكان الخلاف بين اثنين من فريقي القديسين؛ القديس إلكسندروس الأول بابا الإسكندرية ومعه تلميذه الشّمس أثناسيوس وفريقهما الذي آمن بثالوثكم المقدس من الأب والابن والروح القدس، ورأى في مسيحكم طبيعة إلهية، والكاهن أريوس وتلامذته الذين أنكروا ألوهية المسيح والثالوث المقدّس، ورأوا أن المسيح لم يكن سوى بشر مُرسَلٍ من إلهٍ واحدٍ؛ ليتفاهم الصّراع ويكثر الشغب بين مؤيدي كلا الفريقين، وفي مجمع نيقية الذي انعقد عام 325 ميلادياً، انتصر أثناسيوس بمعونة الإمبراطور الروماني قسطنطين الذي كان وثيقاً وتحوّل إلى المسيحية، وتم نفي أريوس، ثم فرض الإمبراطور مذهب أثناسيوس على الإمبراطورية الرومانية ككل؛ ليصبح الأخير أسقفاً للكراسة وبابا الإسكندرية، وبُنيت بعدها كنيسة باسمه في العطارين استمرّت لسنواتٍ طويلةٍ جدّاً حتّى تهدمت، وبعد دخول القائد العربي عمرو بن العاص الإسكندرية بنى فيها الجامع الغربي وتهدم في فترةٍ لاحقة، ثم تم بناء الجامع الشرقي على أنقاض كنيسة القديس أثناسيوس، وتأثر العرب في بنائه بفنار الإسكندرية وجعلوا مثذنته أشبه بتصميمها لكنه تهدم مع الوقت، وبيعت أسقفه حتّى جاء المملوك الأرمني بدر الدين الجمالي أمير الجيوش في عصر الخليفة الفاطمي المستنصر بالله الذي استعان بجيشه الأرمني للسيطرة على القلاقل التي واكبت عصره وأرقت الدولة الفاطمية.. والطّريف أن ابنه ثار عليه واستقل بمدينة الإسكندرية بتأييد أهلها، وأطلق على نفسه لقب مظفر الدولة، فنزل أمير الجيوش على أبواب المدينة وحاصرها شهراً حتّى طلب أهلها الأمان وفتحوا له أبوابها فدخلها، وأخذ ابنه أسيراً وعاقب أهل الإسكندرية على تأييد ابنه

الأوحد بأن فرض عليهم جميعاً مسلمين ومسيحيين ضريبة مائة وعشرين ديناراً من كل فرد، وجدّد بالضرائب الجامع الشرقي الذي سُمي فيما بعد مسجد العطارين نسبةً إلى العالم محمد العطار الذي دُفن فيه، وكان أحد كبار مشايخ المسلمين الذي جاءوا من المغرب.

تطلعت إليه بانبهار إزاء كل هذه الثقافة والمعلومات التي تدفقت من ذاكرة قوية لا تعرف النسيان، وحاترت على شفيتها الكلمات، فشعر بانبهارها واستطرد بشيء من الزهو:

- - أمّا السبب الثاني وراء اسم (العطارين) فيرجع إلى سوق العطاره الذي نشط ها هنا منذُ الفتح العربي، واشتهرت معظم محال الحي بتجارة التوابل والعطور حتّى أصبحت من أشهر أسواق العطاره في العالم؛ ومركزاً لتصدير العطاره إلى مملكة البهار في أوربا. ثم أشار للبيوت وهو يتلفت حوله، وقد توحدّ مع عالمه الحالم الذي هاجر إليه منذُ أن أحب القراءة متابعاً:

- هل تعلمين أن التجار كانوا ينزلون في السويس، وينقلون بضائعهم على الجمال إلى الإسكندرية ليعبروا من الملاحات والطريق الزراعي حتّى يصلوا إلى باب شرق المدينة ويناموا حتّى الصّباح عندما يأتي الحراس ليفتحوا لهم باب الدخول للبلد، فيعبروا المنازل حتّى يصلوا إلى الدكاكين داخل الإسكندرية، وكان الوكلاء الأجانب يخرجون لاستقبال القوافل القادمة في العطارين، ويُنزلون البضائع في المخازن الصّخمة والخانات ليخزنوها لديهم، ويبيعوا للتجار المصريين الجزء المراد بيعه في مصر.. أما البضاعة المصدرة القادمة من المدن الإيطالية، مثل جنوة وبنديقية ومارسيليا، فكانت تُنقل إلى المراكب من (العطارين)، ثم إلى شارع الخديوي، ثم إلى الميناء.

عند هذه النقطة شعر بغصّة في حلقه وهو يتذكر أياماً عصيبة لم يعيشها لكنه تجرّع مرارتها عبر السّطور التي التهمها يوماً حين أراد أن يستكشف مدينته التي وُلد وعاش فيها، ولا يزال -وسيظل- كل ما قرأه عنها يسكن في عقله ومشاعره وكل جوارحه:

- لكن المدينة عادت تُعاني الخرابَ بعد اكتشاف طريق رأس الرجاء الصالح، وجفاف فرع النيل والقناة التي كانت تمد الإسكندرية بالمياه العذبة، حتّى إن عدد سكان الإسكندرية الذي بلغ 600 ألف نسمة تراجع إلى 8 آلاف نسمة عند قدوم الحملة الفرنسية، قبل أن يمنح الوالي العثماني محمد علي قبلة الحياة للإسكندرية من جديد بشقّه تُرعة المحمودية التي عادت لتوفر مياه الشرب مرّة أخرى، بخلاف ربط الإسكندرية بداخل البلاد، وتسهيل نقل التجارة إليها بأقل التكاليف؛ فزادت مساحة الأراضي الزراعيّة، وتم تعميق الميناء وزيادة أرصفتها ليستوعب توسع النشاط التجاري.

شعرت -مع تلك الحماسة التي ملأت كلماته- برغبة عارمة في السجود وتقبيل أرض الإسكندرية التي ما كانت تتصور أنها بهذا التاريخ والعراقية رغم أنها لم تتعرف بعد إلا على النزر اليسير.. بينما أخذ (موريس) نفساً عميقاً وصبّ ناظره نحو عينها مباشرة وهو يستعد لحكي أهم جزء في الحكاية:

- واستقدم محمد علي اليهود من شتى أنحاء العالم كأمهراً أهل الأرض في التجارة؛ ليقموا فيها مشاريعهم واستثماراتهم، وزادت هجرتهم إلى مصر في عهد الخديوي إسماعيل بعد أن تمتعوا بكل الامتيازات الأجنبية، وصارت مصانعهم ومحالهم ذات الفروع الكثيرة مع الوقت قوة اقتصادية تتحكم في اقتصاد البلد بأكمله، ما بين شيكوريل وعدس وعمر أفندي وبنزيون وشملا وغيرها، بخلاف البنوك التي أنشأوها، وخطوط السكة الحديد التي مدّوها، والتنقيب عن البترول الذي أجروا من أجله مئات العمال، وعربات السوارس التي يسّرت حركة النقل العام، وغيرها من الأنشطة المتعددة التي بفضلها عادت الإسكندرية من جديد تضحّ بالتجارة وحركات البيع والشراء، وتوافرت فيها آلاف فرص العمل للمصريين والأجانب الذين ضاقت عليهم الأرض بما رحبت، وجاءوا إلينا بحثاً عن الرزق أو هرباً من الاضطهاد والحروب الأهلية والتطهير العرقي؛ فصارت مدينتنا موطناً لخليطٍ من جاليات الإيطاليين، واليونانيين، والأرمن، والشوام، والأتراك، والبلغار في مزيجٍ إنساني نادرٍ من أعراق وجنسيات

مختلفة، زُرعت في صحراء مدينتنا الخصبّة فأنبتت نوعاً مختلفاً من البشر يستحيل أن يجد الألفة والمعاشية بهذا التناغم في كل مدن العالم إلا الإسكندرية التي باتت قرية كونية تتسع لكل أهل الكوكب، ومُتحفًا زمنيًا مفتوحًا، نشم في شوارعه وأحيائه عبق التّاريخ العتيق، ومتمتع أعيننا بآثار بني الإنسان من شتى الحضارات الفرعونية، والإغريقية، والبطلمية، واليهودية، والقبطية، والإسلامية.

انتهى من كلماته ووقف يتأمل تأثيرها على ملامح الطفلة المبهورة التي تحوّل استمتاعها بتلك المعلومات إلى حسرات..

الآن فقط أدركت كيف ضاعت 10 سنوات من عمرها في اللاشيء..

كيف عزلتها أمها عن الدنيا وحرّمت عليها نزول الشّارع بمفردها نهائيًا باسم الخوف عليها من المجهول، بعد أن اختفت خالتها في ظروفٍ غامضة، ثم اتضح فيما بعد أنها كانت إحدى ضحايا "ريا وسكينة" ..

كيف منعها من القراءة قائلة: "الكتب ستُعَلِّمك أمورًا لا ينبغي أن تعرفها في هذه السن"، دون أن تكمل الأم باقي الجملة بشكلٍ صريحٍ وإن كانت داخلها تردد: "وستجعل من الصّعب السّيّطرة عليكِ بعد أن يفوق تفكيرك تفكيري".

نفذ والدها يديه عن تربيتها، واعتاد السهر خارج البيت لأوقات متأخرةٍ كل ليلة دون أن يجرؤ مخلوقٌ أن يسأله من أين جئت وماذا كنت تفعل.. لتنفرد والدتها بتربيتها، وتصبح هي الأم والأب والعائلة والأصدقاء ودولة القطب الواحد التي لا تكفي كل قرارات مجلس الأمن واعتراضات الفيتو لإيقافها.

صار كلام الأم هو الحقيقة المطلقة.. صوابها هو الصّواب وما سواه خطيئة.. وأمرها ونواهيها دستورًا كونيًا ليس هناك مُحامٍ من البشّر في محكمة الحياة الدستورية قادرٌ على مراجعته والطعن في قوانينه؛ فتحوّلت مع الوقت من رتبة أمٍ لإله، ثم رحل الإله فجأة لتجد الصّغيرة نفسها وحيدةً في الفراغ والعدم!

باغتها (موريس) بالسؤال، فانطفأت البسمة الاستثنائية وعاد الوجوم والحزن إلى ملامحها وهي تهز رأسها نفيًا، فعاد لممارسة دوره:

- إنها لعبة يونانية يا صديقتي، أدخلها في الحي الخواجة كريكوس، بنصف فرنك<sup>(1)</sup> تأخذين 5 طلقات، ولو استطعت أن تصيبي صحنًا لك هدية.. أنا عازمك على اللعب.
- لكنني لم أمسك بندقية من قبل.
- حان وقت التجربة إذن.

قال جملته الأخيرة بشكلٍ حاسمٍ، ثم اقترب من الخواجة ونقده نصف فرنك، وأخذ البندقية بيد والطلقات الخمس باليد الأخرى، ثم فتح البندقية بمهارةٍ ودسَّ فيها طلقة وأغلقها بسرعة وإحكام قبل أن يُسلمها لـ(دميانة) قائلاً بلهجة مُعلِّم:

- فلتمسكي البندقية بثقة، ثم تضعي مؤخرتها عند كتفك هكذا، وبعد أن تلامس سبابتك الزناد لا تتسرع في الضغط قبل التأكد من مرور شعاع البصر من فتحة الناשكاه الخلفي إلى فتحة الناشكاه أعلى سن مُلة الدبابة أسفل منتصف الهدف قليلًا.
- هيا يا خبيبي!

قالها الخواجة (كرياكوس) بلهجةٍ عربيةٍ مُتكسرة، ثم ألقى الطَّبِق الأول، وضغطت (دميانة) الزناد..

وبالطَّبِع لم تصب الهدف على مدى 4 محاولات فاشلةٍ اقترن فيها صوت الطلقة الطائشة بصيحات السخرية، وهمز ولمز الأطفال الواقفين، وحين جاء الدَّور على الطلقة الأخيرة أمسك (موريس) البندقية وهي لا تزال في يد (دميانة) وتطلع لوجهها بابتسامةٍ حانيةٍ قائلاً بلهجةٍ تحمل شيئًا من الاعتذار:

- ولا يهملك.. حتَّى قادة العسكر يُخطئون في إصابة أهدافهم أحيانًا.
- ثم جذب البندقية في رفق لتستسلم له أناملها، وقبل أن يلقي الخواجة الطَّبِق الأخير نظر (موريس) لباقي الأطفال باستخفافٍ، ثم

(١) نصف فرنك: عملة مصرية قديمة كانت تُساوي قرشين.

وفي حضرة التاريخ الذي لم تعرفه، وجغرافيا المكان العريق الذي لم تتجول فيه بمفردها رغم كونه قاب قوسين أو أدنى من منزلها، شعرت أنها تولد لأول مرّة في عالمٍ جديدٍ ممتعٍ يكشف أسرارها وخباياه ذلك القديس الصَّغير (موريس)، لكن مهلاً.. كيف يكون قديسًا وهو يهودي؟

أفنت عقلها بإرجاء السؤال؛ حتَّى لا يُعكر صفو تلك الحالة التي تمر بها لأول مرّة في حياتها على يديه، وتكلمت بصعوبة كمن يتعلم الكلام:

- أكل هذا تعلمته من القراءة!؟

اتسعت ابتسامته وقد راقته دهشتها:

- لا تُسرفي في الإبهار والدّهشة يا عزيزتي واتركي قدرًا لما هو آتٍ، فما أخبرتك به لا يُمثل سوى بضع صفحات مما أعلم.

قالها بلهجةٍ ساحرٍ يستعد لفقرّةٍ جديدة، ثم وضع يده على كتفها ومال بها جانبًا ليحميها من الترام الذي كان يمر في هذا الوقت بشارع (مسجد العطارين) قبل أن يقبض على يدها ويستأنفا السير..

مرًا بجوار الكنيسة الإنجيلية وأخبرها أن تاريخ بنائها يعود للقرن التاسع عشر على يد رسل القديس مارتن لوثر زعيم البروستانت الذي حاول نشر أفكاره ومبادئه من خلال تلامذته في كل بلدان العالم، لتصل إلى المسيحيين كافةً، وتصحح لديهم ما أفسده الباباوات والقساوسة عبر القرون الماضية.. ثم وصلا إلى تجمع بشري على هيئة نصف دائرة يحفها أناسٌ من مختلف الأعمار والأشكال، لكن أغلب الوقوف فيها كانوا من الأطفال، وعلى طرف نصف الدائرة وقف رجل تبدو ملامحه غير مصرية، في يده صحنٌ من البلاستيك يُلقبها في الهواء ليقوم مجموعة من الأطفال في أياديهم بنادق الرش بتصويب طلقاتهم نحوها في محاولة لاصطيادها، وسط مزيج من التعليقات الطريفة والسمجعة، لتبتسم (دميانة) وتستعيد طفولتها الهاربة وهي تتابع بهجة أقرانها من الأطفال.

"أم تلعب بيتر من قبل؟"



أسرعان ما وجه نظره نحوَ الطَّبَق الذي سبَّح في الهواء وضغط على الزناد ليغيّر الطَّبَق مساره في الجو بعد أن أصابته الطلقة ليتهاوى وسط تصفيق الأطفال وصيحات تشجيعهم، دون أن تنبس (دميانة) ببنت شفة، لكن تلك البسمة على شفيتها كانت تُغني عن كل شيء.

وبخطواتٍ واثقةٍ رصينةٍ، تقدّم نحوها (موريس) حاملاً تلك اللعبة التي فاز بها نظيرِ قصص الصحن الطائر ووضعتها في يدها دون أن ينطق بحرفٍ، وكفى بنظراتهما سفيراً ورسولاً.

\* \* \*

استمر السير بعدها في شوارع وأزقة (العطارين)، ولاحظت (دميانة) لأول مرة أن لكل 100 متر كَنَاسًا مخصوصًا يحرص أصحاب المحال على مرضاته؛ لتبدو كل شوارع الحي نظيفةً جميلةً حتّى تلك المناطق الفقيرة فيه، وحينَ تسللت إلى أذنيها تلك الموسيقى الممتعة ذات الطابع اليوناني شعر (موريس) بما يجول في خاطرها فقال وهو يواصل السير:

- إنهم الجريج يا عزيزتي.. يعلقون في مناور بيوتهم الميكروفونات، ويدورون أسطوانات المزيكا أو يعزفونها؛ كي يستمع الناس إلى موسيقاهم وتعم الفرحة حولهم.. هم أيضًا أولاد بلد وأصحاب مزاج وطيبو المعشر مثل المصريين، ولا يختلفون عنا في الجدعنة والشهامة.. أعرف منهم نفرًا كثيرًا، وحضرت بالأمس خطبة باسيلي اليوناني على أنجيل سليم ذات الأصل اللبناني.. ثم دخل بها في حَوارٍ ضيقة ملتوية أشبه بالمتاهة، بها خليط من الوجوه المصرية واللبنانية والسورية، تحاول بيوتهم أن تغش من صنعة الأجنب في البناء والشكل الخارجي، لكن فرق الجودة كان واضحًا، وبدت أغلب المساكن فقيرة وعشوائية ولا يتخطى أغلبها ثلاثة أدوار على الأرجح، ومن جديد حان الدور على (موريس) ليميط اللثام عن هذا العالم:

- حي العطارين كله عبارة عن سوق كبير.. وتلك الرائحة التي تغزو أنفك الآن ليست رائحة العطارة ولا رائحة الأجنب، بل هي رائحة الرزق؛ فهنا يعمل أولاد البلد من السكندريين مع السوريين واللبنانيين في ورش

الخياطة ومحال الخردوات التي تبيع مستلزمات الخياطة من الكُلف والأزرار والسوست بعد أن انتشرت تجارة الملابس المستعملة وصارت في حاجة لمن يُعيد تجديدها وتصلح عيوبها؛ سواء الثقوب التي تحتاج إلى رقّة، أو الملابس التي سقطت أزرارها وسوستها، وكان أول من تاجر بها في الحي هم الشّوام، حتّى أصبحت لهم ساحة خاصة بهم أطلقوا عليها بياصة الشّوام.

- بياصة؟!!

- إنها كلمة مُحرّفة من اللغة الإيطالية، وأصلها الصحيح هو: لا بياتزا، وتعني السّاحة أو الميدان.. هيا نذهب إليها!

وحيث وصلنا إلى البياصة، وجدا الباعة يلمون بضاعتهم المفروشة على طاولات مرصوفة ومنظمة بعد أن انفض السامر، فتأمل (موريس) المشهد ثم نظر إلى السّماء قائلاً:

- للأسف وصلنا متأخرًا.. إنها ساعة المغربية التي يرحل فيها الباعة ويضعون بضاعتهم في المغازة<sup>(1)</sup> لكن لا يهم، إنها فرصة لتشاهدي أجمل ما عرفته (العطارين) على يد إلياس ملك السمان.

ابتسمت بسعادةٍ شديدةٍ وقد وجدت أخيرًا ما تقوله في حضرة موسوعة جينيس المتنقلة:

- لقد سمعت كثيرًا عن إلياس من أبي الذي كان يحضر لنا من عنده سمناً مشويًا لذيذًا على فتراتٍ مُتباعدة.. أخبرنا أنا وأمي أنه رأى عنده سيد درويش قبل وفاته؛ حيث كان يأتي للغناء مع سلامة حجازي ويتبارى حولهما بعض المطربين الشّباب والعازفين على الرّبابة والعود، ثم توالى من بعدهما على المحل فريد الأطرش وصباح وفريد شوقي ومحمود المليجي وغيرهم من نجوم المجتمع.

راقه تفاعلها، وشعر بالسّعادة حين تأكد أن فتاته الجميلة التي قرر تشكيلها من صنّع يديه لم تضجر أو تمل، فأردف:

(1) المغازة: هي ذلك المكان الذي كان يخصص لحفظ البضاعة والطاولات الخاصة بالباعة الشّوام مقابل أجرة.

- لقد رأيت العديد من المحال المشابهة لهذا المحل.. أَلن تخبرني عنها؟

احمراً وجهه وأجاب في اقتضاب:

- هذا محل العاذر للرهنات.. باقي المحال المشابهة له متخصصة في تسليف المحتاجين مقابل أخذ أشياء ثمينة يمتلكونها كرهنٍ لحين سداد النقود التي استلفوها مع دفع مقابلٍ مادي آخر نظير التسليف، أو يتم الحجز على تلك الأشياء وبيعها إذا جاء موعد السداد ولم يسددوا. سألته من جديد:

- ومن هم أصحابها؟

أجاب بصوتٍ خفيضٍ وهو ينظر للأرض في ضيق:

- اليهود.

\* \* \*

انبعث صوت كركرة "البوري"<sup>(1)</sup> في ذلك المقهى الشَّعبي من شيشة (جرجس) التي نام خرطومها على كرشه، بينما أخذ يُقبل مَبسمها بشراهةٍ ساحبًا منه أكبر قدر من المعسل الذي كانت بينهما قصة عشق، قبل أن يخرج من أنفه كحرقةٍ للموق الهندوس في اللحظة التي ألقى فيها حجري النرد بلعبة الطاولة صائحًا بثقة:

- حُذْ عندك.. هَبْ يَك!

ليدور حجرا النرد حول نفسيهما قبل أن يستقر كل منهما على الرقم 1.

اتسعت عينا (حسن) أفندي ذي الشارب القصير والبذلة القديمة البالية، وذلك الشعر المنكوش بعد أن خلع من فوقه الطربوش ووضعه على المائدة؛ ليراقب (جرجس) الذي يُحرك أقراص الطاولة العاجية في لعبة (المحبوسة) وينقلها للخانة المقابلة، وقد شارف على الانتصار بعد منافسةٍ حامية الوطيس بينهما كانت في البداية لصالح (حسن)، ثم

(١) كانت النرجيلة في تلك الحقبة الزمانية لها عدة أسماء؛ التي تحمل كمية أكبر من الدخان الخالص تُسمى "عجمي"، أما الدخان المخلوط بالمعسل فكانوا يسمونه "بوري"، أو "المصري"؛ لأنه كان شكلاً مصرياً خالصاً من التدخين.

- إلياس ملك السمان وبولس شوحا صاحب محل الأحذية الأشهر في العطارين؛ كلاهما من عائلتين لبنانيتين جاءا هنا هرباً من الفتن بين الطوائف المسيحية في لبنان، تماماً مثلما نزع آلاف الأرمن من تركيا إلى الإسكندرية هرباً من المذابح والتطهير العرقي ضد المسيحيين، لكن كل من جاءوا إلى مدينتنا في كِفة، وإلياس وحده في كِفة أخرى. وحده من بين كل أصحاب المحال في العطارين الذي يؤجّر كُنَّاسين مخصوصين لتنظيف السوق من مخلفات الباعة ورشه بالماء، ثم يترك لأطفال السوق ساعتين للعب الكرة واللهو؛ حتَّى يُعوّضهم عن زحام الصُّباح وعدم وجود مكانٍ يقضون فيه طفولتهم.

ثم تُبسط طاولات الطَّعام في كل مكان، ويبدأ العازفون السوريون الذين يجلسون على مقهى حبيب في العزف، بالتزامن مع شيء السمان ليملاً دخانه اللذيذ الشهي الأجواء ويتصاعد إلى سماء (العطارين) جاذباً معه عليّة القوم ووجهاءهم إلى المكان، فيشاهدهم أهل الحي عن قُرب ويشعروا بالسَّعادة لمصافحتهم والحديث معهم، وهكذا على يد إلياس صار في حيننا الصُّباح للعمل، والمساء للبهجة.

أغمضت عينيها وأخذت نفساً عميقاً ثمّنت لو تخللته رائحة الشيء الذي لم يبدأ بعد، ثم نظرت حولها وتساءلت:

- لكنني لم أر أي عطارين مُنذُ بدأنا جولتنا، فأين اختفى أشهر سوق للبطارية؟

جذبها من يدها واستكملت الجولة مستطرّاً:

- لقد اختفت مهنة العطار مُنذُ زمن بعد ذلك التغيير الذي طرأ على خريطة المكان، وأعقبه ظهور محال أخرى للساعات والموبيليا والذهب والأنتيكات والنجف، ومع الوقت بدأت كل جنسية من الجنسيات العديدة تتخصص في مجالٍ معين؛ فأصبحت البقالة من نصيب الجريج، والساعات للأرمن، والأنتيكات والموبيليا للطلينان، بينما تم توزيع المخابز والحانات بين الشَّوام والجريج.

نظرت إلى محل صغير يعرض الأنتيكات والخردوات وهتفت:

- لا يهم يا صديقي؛ فقد كانت متابعتك أمتع من مشاهدة الريحاني وسماع الست أم كلثوم.

ثم فرّت الابتسامة من ملامحه وهو يعقد حاجبيه وينظر من طرف نظارته المستندة إلى منتصف أنفه قائلاً بصوتٍ رفيعٍ خرج من منخاره:

- والآن دعنا نتكلم في المصلحة يا عزيزي.. ماذا فعلت في الموضوع الذي حدثتكَ بشأنه؟

أخذ (جرجس) نفساً عميقاً زاد من كركرة الشيشة وجعل خديه يكادان يتلامسان من الدّاخل، ثم قال:

- أنت حبيبي يا (زكي)، ولا أستطيع أن أرفض لك طلباً.

قفزت الفرحة على وجه (زكي)، حتّى إنه لم يستطع التحكم في حركات جسده الذي تقافز على مقعده بسعادةٍ مُفرطةٍ كالأطفال قائلاً:

- كنت أعلم أنك لن تخذلني يا جرجس.. ألف.. ألف..

عاجله (جرجس) بجُملةٍ خاطفةٍ قطعت كلامه وشتتت أفكاره:

- لكن نسبة 50% قليلة على ما سأقوم به، فبدوني لن تحصل على مليون واحد من جيب زبائنك.

بدا صوت (زكي) أكثر رفعاً حين نثر على صفحة وجهه الود المصطنع قائلاً:

- أوه! جرجس يا عزيزي، لا تنس أيضاً أنك بدوني لن تجد زبوناً تحلب منه مكسبك بطريقتك السحرية، ثم إنني لست وحدي، وهناك من سيقاسمني في نسبتي.

- (كركركركركر) 60% إذن، وهذا آخر كلام.

ضاحت عينا (زكي) وقال بابتسامةٍ تخرج من تحت صفي أسنان يصطكان غيظاً:

- ما باليد حيلة! أنا أيضاً لا أستطيع أن أرفض لك طلباً يا عزيزي، ألف مبروك.

قالها (زكي) وهو يُقبل (جرجس) الذي لم تُغادر الشيشة شفتيه، قبل أن ينادي:

استأذن (جرجس) وذهب إلى المبلولة؛ ليعود منها شخصاً آخر لا تُكذّب يده الأرقام التي يستقر عليها حجرا النرد بعد أن ينطقها لسانه قبل حتّى أن يلقي الحجرين؛ ليتمتم الأفندي بنفرةٍ وهو يهز حجري النرد في يده استعداداً لإلقائهما:

- - حظ عوالم.

ثم تضاعف غضبه حينَ خاتمه أرقام النرد وباعدت بينه وبين الفوز؛ ليدس زجاجة الـ(إسباتس) ذات المشروب الغازي بنكهة التفاح في فمه ويفرغ ما فيها في جوفه دفعةً واحدة؛ لعلها تبرد ناره المشتعلة في أعماقه.. بينما سحب (جرجس) من البوري نفساً طويلاً بمزاجٍ شديدٍ، متجاهلاً كلام خصمه الغاضب قبل أن ينفث دخانه من فمه هذه المرّة في اللّحظة التي ألقى فيها حجري النرد قائلاً بثقةٍ وهو يتأمل أرضية الطاولة:

- شيش جوهار.

ليستقر الحجران بالفعل على رقمي 6 و2، ويحرك (جرجس) أقراص الطاولة ناهياً الدّور قبل أن يغلق صندوق الطاولة الخشبي صائحاً ببرود في القهوجي:

- المشاريب على حسن أفندي يا ابني وضيف عليها كوب شاي سأشربه مع عمك زكي، (ثم نظر لخصمه وجلده بنبرةٍ شامتةٍ) تعوضها المرّة الجاية يا أبو علي.

ثم نهض متجاهلاً كلمات (حسن) أفندي الذي قال في غيظ:

- إنت أكيد مِخاوي.

ثم سار (جرجس) بخطواتٍ بطيئةٍ اهتزت معها كرشه الرجراجة؛ ليسحب كرسياً ويجلس إلى جوار (زكي) الذي كان يُراقب ما يجري باستمتاعٍ شديدٍ، قائلاً باعتذار:

- لا تؤاخذني يا (زكي)، طال الدّور مني هذه المرّة.

ابتسم (زكي) وقد اكتسب ملامح وجهه بالسعادة قائلاً:

- وعندك واحد شاي هنا على حساب أستاذ جرجس.

نظر إليه (جرجس) بدهشةٍ تحولت إلى ابتسامة، قبل أن يأتي شاب أسمر نحيف يرتدي مريلة ويعتمر طاقية يطل من تحتها شعر جعد طويل، جاحظ العينين، وتناثرت شعيرات طويلة نسيبًا على صفحة وجهه صانعةً لحيمةً نسجها الفقر وليس الإيمان أو التدين.. كان الشاب يُسرع الخُطى وفي يده صينية الشاي التي وضعها باحترام أمام (زكي)، بينما تأمل (جرجس) ملامحه الغريبة على المكان وسأله:

- هل أنت جديد هنا؟

أجابه الشاب بلهجةٍ صعيديةٍ لم تتلون بروح المدينة بعد:

- نعم يا معالي الباشا.

بدأ (زكي) في تقليب الشاي، أما (جرجس) فشعر أن دخان البوري قد صار مكتومًا، فقال للشاب بلهجة أمرّة:

- اضبط رضة الحجر يا...

- خدامك سليم.

قالها الشاب وهو ينحني ليُعيد رصّ الفحم بتلك الماشة التي أخرجها من مريلته، ثم عقد حاجبيه في دهشةٍ بعد أن تسللت إلى أنفه رائحة كريهة اشتمها حين اقترب من يد (جرجس) اليمنى وهو يحرص له الفحم..

كانت رائحة تُشبه الصّنان إلى حد بعيد، لكن من يجرؤ على مصارحة الزبائن بحقيقتهم القذرة لا سيم في بداية عمله بمكان جاء إليه من آخر الدنيا، وأقنع صاحبه بالعمل عنده بشق الأنفس، وقيل أن يسأل زبونه -النت حسبما وصفه في نفسه- إذا ما كان يريد خدمة أخرى، سأله (جرجس):

- من أي داهية جئت يا سليم؟

أجابه وهو ينظر إلى الأرض ليداري تأففه وضيقة:

- أسيوط.

قهقه (جرجس) فور سماع الإجابة، وقال لـ(زكي) بشماتة:

- قل لإخوانك اليهود أن يُسرِعوا في الهجرة يا (زكي)؛ فقد جاءكم واحدٌ من المركز التجاري الوحيد الذي لم يستطع اليهود أن يعيشوا فيه ويترحبوا.. تقول حكايات التراث الشعبي إن تاجرًا يهوديًا ذهب إلى أسيوط راكبًا حماره، ولما وصل سأل عن مكانٍ للركاب حتّى يبات فيه هو وحماره، وهناك أعطى صبيًا صغيرًا نكلة<sup>(1)</sup>، وقال له: خذ هذه واشتر لنا غداء، وأكلًا للحمار، وشيئًا أتسلى به، ويمكنك أن تحتفظ بالباقي لنفسك، فغاب الغلام الأسيوطي، ثم عاد ببطيخةٍ أعطاهها للتاجر وقال له: لقد اشترت هذه البطيخة بـمليم وفيها غداؤك، ومن لبها يمكنك التسلية، أما قشرها فهو غداء حمارك، واحتفظت لنفسى بالمليم الآخر، ف ضرب اليهودي كفاً بكفٍ وقال: "ليس لنا عيش في هذا البلد"، ثم رحل.

وعاد (جرجس) يقهقه من جديد، فيما ابتسم (زكي) ابتسامةً باهتةً وقال بغیظ مستتر:

- قد تكون هذه الحكاية صحيحةً يا (جرجس)، لكن نهايات الحواديت غالبًا ما تكون بدايات لحواديت أخرى لم تُحك بعد.

\* \* \*

### "كرايس؟!"

قالتها (دميانة) بدهشةٍ وحيرةٍ وهي تسير مع (موريس) في شارع (لاجتيه) الذي أخبرها من قبل أن معناه شارع البهجة، وينتمي لحي (الإبراهيمية) التاريخي الذي عاش فيه اليهود الأثرياء في عهد سحيفة، وكانوا يخرجون في مظاهراتٍ كبيرةٍ ضد حُكم الإمبراطورية الرومانية، ثم لعبت الأيام لعبتها وغيرت خريطة توزيع البشر لتسكنه الجاليات الإيطالية، والأرمنية، والفرنسية، لكن أكثر من اندمج فيه وشعر أنه وطنه الثاني كان أبناء الطبقة المتوسطة من اليونانيين، أحفاد الإغريق، الذين أطلقوا عليه (كوكينيا)؛ أي الحي الأحمر، وهو نفس اسم الحي المماثل الخاص بالطبقة العاملة في اليونان، بنفس الحارات الضيقة والبيوت المتلاصقة، فيما فاحت من فيلات الإيطاليين والأرمن رائحة نبات

(١) النُكْلة: عُملة مصرية قديمة كانت تُساوي في قيمتها ٢ مليم.



الدفنباخيا أو (ودن الفيل) والفُل والياسمين، وروائح أخرى مميزة، وغيرها من المعلومات التي عرفتها صاحبتنا من فتاها الموسوعي الذي أجاب سؤالها عن معنى الـ(كرابس) قائلاً:

- إنها لعبة مراهنات قديمة يا عزيزتي، تم اختراعها لتزويد المقاتلين بالمتعة خلال الحملات الصليبية منذ زمنٍ طويل، ويستخدمها الجنود في الحرب العالمية الدائرة حولنا بعد أن تطورت وأصبحت من أشهر ألعاب القمار في العالم بعد البوكر.  
- قمار؟!

خرج سؤال (دميانة) هذه المرّة حاملاً قدرًا من الاستنكار والصدمة، وخرجت إجابة (موريس) حاملاً قدرًا من الحرج والضيّق:

- نعم؛ فهي لعبة قائمة على حجرين من الزرد مثل الطاولة.. يتم الرهان على أرقام معينة فيها، والفائز من تصدّق توقعاته، لكن قواعدها ليست سهلةً عكس ما يبدو الأمر في ظاهره.. وحين وجد أبي أن يد والدك تطوّع أرقام الزرد حسب رغباته واحتياجه للمكسب -وكأنّه إله الحظ- أقتعه بتعلم تلك اللعبة؛ لعل قدراته المدهشة في تحديد أرقام الزرد تفلح وتجعل المكسب أمرًا مؤكد الحدوث باستمرار، وهو خيار لم يمنحه إله القمار لأي من أتباعه حين خلق حَرَم مائدته الخشبية الخضراء التي يلهث فيها ملايين الطمّاعين والكسالى والمرضى خلف ضربة حظ محتملة عبر ما تتعطف به أوراق اللعب وأحجار الزرد وبلي الروليت في شتى بقاع الأرض.. الصفقة بين أبي وأبيك -باختصار- كانت: مهمتك المكسب فحسب، وأنا سأعرفك على أثرياء الجاليات الأجنبية التي تعشق الكرابس وسأقتنعهم باللعب مع ذلك المصري القادم من الطبقة الدنيا رغم إصرارهم على عدم اللعب مع المصريين إلا من يحملون لقب "باشا" أو "بك" كحد أدنى لدخول عالمهم.

هتفتُ به وهي لا تصدق ما تسمعه:

- لكن والدك إنسانٌ بسيطٌ مثل أبي.. كيف ومتى خالط أثرياء الجاليات الأجنبية وتعرّف إليهم ليقوم بهذا الدور؟

شرح وهو يجتر المعلومات من ذكرياته:

- لقد حكى أبي لنا -أنا وأمي- الكثير من الحكايات الطريفة عن فندق سان إستيفانو مُنذُ نشأته وحتّى يومنا هذا، كأمرٍ طبيعي لشخصٍ يعمل محاسبًا به مُنذُ سنواتٍ طويلةٍ بعد أن عيّنه فيه جدي بحكم علاقته الجيدة بالعديد من كبار الطائفة اليهودية.. فقد لاحظت عائلته موصيري المالكة لشركة السكة الحديد أن منطقة الرمل -الجديدة في ذلك الحين- كانت شبه مهجورة لا يسكنها سوى قليل من البدو، وفيها عددٌ متفرق من الفيلات التي يمتلكها أثرياء المدينة ومضون فيها فترة الصيف، فاخترت الشركة موقع الفندق في نفس موضع كنيسة القديس إستيفان الشهيرة التي تهدمت، وموّلت بناء الفندق ليُحقق الجذب لمختلف الجاليات الأجنبية، ويُحقق حالةً من العمران تشجع استقرار السكندريين في منطقة الرمل الجديدة، وبالتالي يزيد الإقبال على خط السكة الحديد.. وبعد الاحتلال الإنجليزي لمصر بأربع سنوات، تم افتتاح الفندق في عهد الخديوي توفيق، واستمد اسمه من اسم الكنيسة المتهدمة.

ثم أفاق (موريس) من حالة التأمّل ونظر إلى عيني (دميانة) الجميلتين واستطرد:

- سرعان ما لاقى الفندق الجديد استحسان الناس وحقق شهرةً طاغية؛ مبنى فخم على غرار مباني المنتجعات السياحية الفاخرة والكاзиноهات التي تطل على الشاطئ الفرنسي البلجيكي.. طريق الكورنيش لم يكن قد بُني بعد، وبالتالي لم يكن هناك فاصل بين الفندق والشاطئ الخاص به الذي امتد على مساحةٍ رمليّةٍ لا يقطعها شيء.. احتوى على ملاعب تنس، ومكانٍ للموسيقى يطل على شاطئ البحر، صُمم الجزء الأعلى من حائطه الذي يكون خلف الفرقة الموسيقية على شكل قوقعة حتّى يعكس صوت الآلات الموسيقية على الشاطئ ويجسّمه؛ فقد كانت الحفلات الموسيقية التي ينظمها الفندق في الصيف ملتقى الصفوة بالإسكندرية.

توقف لازدراد ريقه، وأخذ نفسًا عميقًا صمت بعده برهة، ثم أردف:

فندق سان إستيفانو؛ فقد استُخدمت مدرسة فيكتوريا كوليديج المجاورة للفندق كمستشفى عسكري للجيش الإنجليزي، وطلبت إدارة المدرسة أن تُعطى الدروس للطلبة في الفندق لتعويض ما فاتهم.. ورغم الاعتراضات التي أبدتها إدارة الفندق، أصدر محافظ الإسكندرية قراراً رسمياً بانتقال فيكتوريا كوليديج إلى سان إستيفانو الذي فوجئ نزلاؤه بعدد من المكاتب والتخت المكومة في ركن الكازينو وتحول البار إلى حجرة ترفيه للتلاميذ.. أما البار الأمريكي فقد أضيفت إليه بعض اللمسات والتعديلات؛ حتّى يصبح حجرة قراءة لنظار المدرسة، واحتلت مكاتب تلاميذ الصفوف الابتدائية مكان طاولات القمار، وقام العمال بإنزال إعلان بيرة ستلا الذي لم يعد ملائماً لأخلاق الصغار، فغادر زبائن الفندق المكان إلى غير رجعة، وسحب فندق سيسيل البساط مع غيره من الفنادق الفخمة.

صمت هنيهة، وأردف بمزيد من الأسى:

- من هنا بدأ أبي يشيع بين شبكة علاقاته حكاية ذلك الرجل المصري الأسطوري الذي لا يُهزم في الكرابس، وأغرّت حكاياته وطريقة وصفه البعض ليخوضوا التّحدي، رغم انتمائه للطبقة الدُّنيا، بملابسه المتواضعة، وذقنه غير الحليق، وملامحه البائسة.

رغم سنوات عمرها العشر فإنها كانت تُدرك جُرم وحرمانية القمار وبشاعته.. لم يكن والدها في نظرها يوماً شخصاً مثاليّاً أو جديراً بالاحترام، لكنه -على الأقل- لم يصل إلى هذا المستوى الرقيق الذي حط عليه الآن في الدرك الأسفل من مراتب البَشَر.

هل ستستطيع مواجهته وعتابه؟!

مستحيل بالطبع، فقد كان رجلاً مهيباً، ذا نبرة غليظةٍ ويدٍ عريضة مفلطحة، أسهل شيء عليها أن تهوي بكل عنفٍ على الوجوه بصفحاتٍ لا تُنسى، كسرت إحداها فك أمها ذات يوم، وورمت خدها هي شخصياً أسبوعاً بأكمله حين هوت على وجهها عندما كانت تبكي شأن أي طفلة صغيرة عمرها 3 سنوات، لكنه سَمِّم بكاءها، ومن يومها وهي تكتم دموعها أمامه، وتخشى حتّى الجلوس في حضرته.

- ازدهرت حياة الفندق الصاخبة في الفترة بين الحرب العالمية الأولى والثانية.. فإلى جانب الحفلات الراقصة التي كانت تملأ سماءها الألعاب النارية كل أسبوع. كانت إدارة الفندق تنظم في الشتاء كرنفلاً سنوياً يرتدي فيه أبناء الجاليات الأجنبية الملابس التنكرية؛ تقليدًا لذلك الكرنفال الشهير الذي كان يُقام في مدينة البندقية الإيطالية، وكان النبلاء يسرون فيه متنكرين حتّى لا يعرفهم العامة ويختلطوا بالشعب ويتحدثوا معه بلا قيودٍ أو حواجز، بخلاف عرض الزهور السنوي الذي كان يُقيمته الفندق.. وحتّى يجتذب الفندق زبائن جددًا من غير النزلاء، كانت الإدارة تقدم "أبونيه" موسميّاً يُسمح لحامله باستخدام خدمات ومرافق الفندق كافةً بأسعارٍ رمزية.. وبجانب كل ذلك، كانت هناك صالة السينما المكشوفة ذات المقاعد الخشبية التي تعرض أفلاماً أمريكية.

- وما علاقة كل ذلك بلعبة الكرابس؟

سألته في لهفة؛ لتوقف ثرثرته التاريخية التي كان من الممكن أن تكون ممتعةً لو ذُكرت في موضع آخر، فمنحها ابتساماً باهتةً لم تعرف سر حزنها حين أجاب:

- أكثر ما اشتهر به فندق سان إستيفانو كان كازينو القمار الذي كان الملك فاروق يتردد عليه في بعض الأحيان، قبل أن يُدمن القمار لدرجةٍ فاقت إدمان اللورد ساندوتش؛ أول من ابتدع الوجبة السريعة التي سُميت (ساندوتش) نسبةً لاسمه؛ حتّى لا يضطر لمغادرة المائدة الخضراء ويكف عن اللعب.. وبحكم عمل أبي بالحسابات وقربه من الكازينو، استطاع على مدى سنوات تكوين قاعدة بيانات خاصة به، وضع فيها أشهر عشاق لعبة الكرابس، ومعلوماتٍ تفصيليةً عنهم، ثم بدأت أسهم سان إستيفانو في الأفول والتردي.. بدأ ذلك في الثلاثينيات عندما بدأ بناء طريق الكورنيش الذي فصل الفندق عن شاطئه الخاص الممتد حتّى البحر، ولتعويض هذا الخلل رُبط الفندق بشاطئ البحر عبر نفق يمر أسفل طريق الكورنيش، ونتيجة لهذا التعديل أجريت تعديلات أخرى في واجهة الفندق وداخله فأصبح غريباً على رواده القدامى.. ومع اشتعال الحرب العالمية الثانية، ازدهرت فنادق ومطاعم وبارات الإسكندرية، إلا



- هل يُجيز دينك القمار؟

سألت بصدمة فأجابها (موريس) بحزن:

- كلا، وهذا سبب الشجار الذي نشب بين أُمي وأبي مؤخرًا عندما عاد سعيدًا وفي حوزته غنيمة أول صفقة ربحها مع والدك واستعرضها أمامها في فخر.. يبدو أن الأيام المقبلة لن تُمضي على خير.

\*\*\*

"لآخر مرة أحذرك يا (زي).. إن لم تعد من سكة الندامة والوحل هذه، فسيكون هذا فراقًا بيني وبينك".

قالتها (ليليان) بنبرة حادة حاسمة وهي تستقبل (زي) الذي عاد للتو في تلك الساعة المتأخرة من الليل، ليخرج من جيبه عشرات الأوراق النقدية متعددة الفئات ويبدأ في ترتيبها وعدّها، وفي عينيه بريق النّصر والسّعادة، غير عابئ بكلامها، قبل أن يخلع من على عنقه ذلك الحبل الذي ارتداه كسلسلة يتدلى منها مفتاح دسّه في ذلك الدرج المغلق بإحكام، ليفتحه كاشفًا عن كومة من الأوراق النقدية والعملات المعدنية، ثم وضع معها الغنيمة الجديدة وقد زاد بريق عينيه واتسعت ابتسامته الظفر التي احتلت ملامحه..

لم تستطع (ليليان) أن تكتم غضبها الذي تفاقم مع تجاهله لكلماتها، فانقضت على الدرج تقبض على أوراق البنكنوت الكريهة الملتصقة بالحرام، وهي تهتمُّ ببعثرتها في الهواء لعلها تذهب مع أدراج الرياح وتعود الطهارة إلى بيتها الذي تنجّس، إلا أن يده الغليظة قبضت على كفها ولوت معصمها في قسوة حتّى تأوهت في أمّ، قبل أن ينهض ببطء وهو لا يزال مُمسكًا بيدها، وقد تحوّل بريق النّصر في عينيه إلى بريق من نوع آخر جعله في عينها أشبه بشيطانٍ رجيم، وتأكد إحساسها حين قال بنبرة قاسية بطيئة يتكئ فيها على مخارج حروفه للتأكيد على أنه يعني كل حرف يُنطق:

- انتبهي لتصرفاتك معي يا (ليليان)؛ فبعض الأفعال قد تكلفك ما لا تملكين دفعه.

ألقت نفسها في حضنه وأجهشت بالبكاء:

- عُذ (زي) الذي عرفته وأحبيته من كل قلبي قبل أن نخسر كل شيء..

ما تفعله أنت أيضًا سيكلفنا ما لا طاقة لنا به.

أبعدها عن حضنه، وتطلع إلى عينيها وهو يتكلم بسرعة وحماس حتّى يمرق الإقناع من لسانه إلى عقلها وكيانها:

- أفيقي يا حبييتي وتأملي المشهد من حولك جيدًا؛ الأرض نفسها طاولة قمار كبرى، وجميعنا نقف فيها خلف أوراق اللعب وأحجار النرد؛ التجارة رهان؛ المغامرة رهان؛ الحب رهان؛ الحياة والموت نفسهما مجرد وجهين لرهان كبير؛ وبينهما الكثير من الرهانات التي طالما لعبناها معًا دون أن ننتبه إلى ميزان الحلال والحرام.. فلم تُحرمين الرهان حين أصبح مكسبه مؤكدًا، وابتسم لنا الحظ أخيرًا ونحن على أعتاب عالمٍ جديدٍ سننتقل إليه قريبًا بنقلة كتلك التي نقلت غيرنا من بني جلدتنا وجعلتهم يستعيدون سيادتهم وملكيّتهم للأراضي والعقارات والأسواق في هذه المدينة التي بناها أجدادنا مُنذ فجر التّاريخ، ثم تم طردهم منها شر طردة بعد أن عوملوا معاملة العبيد؟

تحلّى عن مسكته العنيفة لمعصمها، ثم احتضنت يدها كفيها وغاصت فيهما أصابعه، واستطرد:

- هذا البلد قام على أكتاف عائلاتنا اليهودية كعائلات سموحة، ومنشأة، ورولو، وقطاوي، وموصيري، وعدس، وسوارس، وغيرها.. وحن الوقت لنؤسس عائلة يُشار لها بالبنان ونؤمّن مستقبل ابننا وذريته من بعدنا.. سنناسب إحدى هذه العائلات ونكبر معًا مثلما حوّلوا علاقات النسب والصر إلى بيزنس مشترك ضاعف أموالهم، وجعلهم سنديًا لبعضهم، ودولة داخل الدولة.

أمطرت عينها وتهدج صوتها وهي تقول:

- وقد تكون نهايتنا مأساويةً مثلما وجدوا شيكوريل مقتولًا دون أن تغني ثروته الطائلة ومئات الموظفين الذين يعملون تحت إمرته عنه شيئًا.

لثم أناملها وأعقب:

- للأمجاد ضربيتها، يا عزيزتي، لكن الوجه المشرق للثروة والجاه يستحق المخاطرة.. لنقتد بعائلة روتشيلد اليهودية التي تملك قدرًا كبيرًا من ثروات العالم وتتحكم بأسعار الذهب في أمريكا وأوروبا، والإعلام ومجريات السياسة حتّى نجحت في إصدار وعد بلفور بإقامة أول وطن لنا في أرض الميعاد.. أنا لا أخالف الربّ يا عزيزتي، بل أملأ الزكائب لذلك اليوم الموعود حتّى نفيد بني إسرائيل حين نجتمع بعد الشتات.

تراجعت كمن سرى في جسدها مليون فؤلت، وقالت كالمصعوفة:

- أهذا ما تعلمته من مخالطة طائفة الرّبانين والأشكيناز الذين لا يكفون عن الحديث عن حلم دولة إسرائيل والوضع السياسي الدولي؟ حتمًا اندسوا مع بقية الجاليات الأجنبية وعبثوا بعقلك على موائد القمار.. أفق أيها الغافل واسأل نفسك: ما لنا ومال أوطانٍ بديلة وقد خُلِقنا في وطنٍ أصيلٍ يحتضن كل أبناء الأرض من المهاجرين والمعذبين وراغبي السّلام والسّكينة؟! أنتخلى عن كل ذلك ونذهب وراء مكاسب وهمية في أرض ليست أرضنا؛ لنخوض هناك حربًا من صنع أيدينا، ثم نجني وبالها أبد الدهر؟ ثم مُنذُ متى والأرض ملكٌ لأبناء دين معين وقد خلقها الله لكل البشّر أملًا في التعايش؟

أجابها بخيبة أمل وحسرة على كلماته التي عجزت عن اختراق منطقتها:

- احتضان وطننا لمختلف الجنسيات مجرد احتضان وقتي سيزول يومًا.. صدقيني، شأن كل شيء لا يبقى على حاله، ستتغير خريطة الإنسان والعمران يومًا، وعندها ستضيق تلك الأرض الواسعة علينا بما رحبت، ولن نجد لنا أرضًا تحتوينا سوى أرض الجدود التي نستحقها مُنذُ أبد الدهر.. ثم إن هذا الوطن ليس وطننا شأن أوطانٍ أخرى اعتقد نفر منا أنها أوطانهم بعد أن عاشوا فيها بسلام وغرّتهم الأمان، وما بين ليلة وضحاها انقلبت عليهم شعوب تلك الأوطان وأبادوهم في مجازر جماعية أو ألقوهم أحياء في أفران متقدة مثلما يفعل هتلر اليوم.. مُنذُ فجر التاريخ استعبد الفراعنة طائفتنا، وقضى فرعونهم الكبير على رجالنا،

وسبى جنوده نساءنا وهتكوا أعراضهن، وقتلوا بأمره الأطفال الرُضع، رغم أن مصر كانت وقتها وطننا.. وبعد عودة أكثر من مليون يهودي من فلسطين إلى مصر مرّة أخرى واستقرار 200 ألف منهم بالإسكندرية في عهد البطالمة ومشاركتهم في إتمام بنائها.

- طرد الرومان بعدها أجداننا خارج أسوار المدينة بعد أن أوسعوا فينا القتل والسلب، وتحالف الشعب المسيحي معهم علينا وهدموا معابدنا، واستحلوا دماءنا كأمة من الوثنيين الأنجاس رغم أننا لم نعبد صليبيًا مثلهم.. ولم يختلف الأمر في عهد الفتح الإسلامي.. اقرئي رسالة الحنان بن شمريّة رئيس الطائفة اليهودية في مصر عام 1011 ميلاديًا التي أرسلها للقدس يشكو فيها من اضطهاد الخليفة الحاكم قائلًا: لقد علقوا خشبة حول رقابنا، وهُدّمت الكنائس اليهودية، ومُرّقت التّوراة ونُثرت في الطرقات.. ثم اسألني نفسك عن أي وطن تتحدثين.

لقد تكرر الظلم والاضطهاد الواقع علينا من عصرٍ لعصر، ومن بلدٍ لبلد، كأمةٍ رخيصةٍ هانت على الأمم التي أدركت أنه لا وطن لنا أو مأوى فباعت واشترت فينا بثمنٍ بخس.. في فرنسا أجبرنا الملك لويس وابنه فيليب الثالث على دخول المسيحية، واستصدروا تشريعًا كنسيًا يارتدء اليهود زيًا مميزًا لهم، وفُرضت عليهم ضرائب باهظة، وجاء من بعدهم فيليب الرابع ليصادر ممتلكاتهم ويطردهم من فرنسا؛ رغبةً في تطهيرها من أجل المسيحية.

وفي إنجلترا عام 1189 ميلاديًا هجم الإقطاعيون والبارونات على اليهود وقتلوا أعدادًا كبيرةً منهم، واختفت الطائفة اليهودية من السجلات التاريخية زمنًا طويلًا..

وفي إسبانيا عام 1391 ميلاديًا ظهرت المذابح الجماعية ضد اليهود.. وسنستيقظ يومًا -إن بقينا ها هنا- على مذبحٍ جديدةٍ تطير فيها رقابنا في لحظة تحوّل مفاجئة، يأتي بعدها من يحمل بقايا الأجساد الطامرة من رءوس، وأمعاء، وأصابع في أكياس بلاستيكية لتُلقى بلامبالاة في حفرةٍ حفيرة تبول عليها الكلاب، تتيه أسماؤنا وسط آلاف الأسماء التي سيتجاهل



التاريخ أصحابها، مكتفيًا بذكر إجمالي عددهم كضحايا لمذبحة جديدة تُضاف لمذابح ارتكبت ضد اليهود دون أن يقتصر لأرواحهم ودمائهم أحد، مثلما لا نعرف أنا وأنتِ أسماء الآلاف الذين سقطوا في مذبحة كيشينوف التي تعرض لها اليهود بالإمبراطورية الروسية في بداية هذا القرن. صرخت فيه:

- كل الشعوب في البداية تفتح أذرعها لنا، لكن بعضنا هو الذي أوغر الصدور بأنشطته التجارية الاحتكارية، وتسليف التجار المتعثرين بالرِّبَا مستغلًا حاجتهم إلى المال، حتَّى فوجئت الشعوب بأن من جاءوها ضيوقًا بُسطاء قد علا شأنهم بعد أن امتصوا دماء مواطنيها، وتسيدوا عليهم، وعاملوهم معاملة العبيد.. بخلاف سياسات المكائد ونشر الخلافات والفتن؛ لضمان الاستمرارية في السيادة والتحكم، حتَّى يُضعف الخلاف الجميع ويُشتت أوقاتهم ومجهوداتهم وأموالهم بل أرواحهم ودماءهم إذا لزم الأمر، وضمان بقائنا فوق قمة الهرم الاجتماعي بينما يتناحر الجميع تحتنا.. ألم تتأمل النظرة الدونية لغير اليهود من البشر واعتبارهم من الأغيار الذين تجوز سرتهم واغتصابهم وقتلهم إن لزم الأمر في عُرف المتطرفين من جنسنا؟ الشعوب لم تضطهد اليهود في واقع الأمر بقدر ما انتقموا من معتنقي تلك الأفكار العنصرية التي لم يوصنا بها الكليم موسى ولا جدنا الأكبر إبراهيم، وإنما نشرها حاخامات تلموديون متعصبون، ومتطرفون آخرون روجوا لها باعتبارهم من حكماء وساسة بني إسرائيل فاتبعهم عبدة المال والشهوات والمتعصبون حتَّى جاء اليوم الذي دفعوا فيه ثمن ما يعتقدون ويفعلون.. عُذْ لأَي واقعة تاريخية مما ذكرت وستجدها -غالبًا- نتيجة لتلك الأسباب التي اشتعلت الأحداث من عندها، وها أنتِ تسير على النهج نفسه وستصل للنتيجة نفسها إذا لم تعد لوصايا التَّوراة.

هزَّ رأسه في عناد، وانتابت كلماته الحماسة وهو يتابع بلهجة لا ريب فيها أو تراجع محتمل:

- ستستعيد أمتنا أرض الميعاد عمَّا قريب، ولن نذهب إليها أنا وأنتِ وموريس خاويي الوفاض كمهاجرين فقراء يقتاتون على فُتات ما تلقيه إليهم الأيادي؛ بل وجهاء وأكابر سيذكرهم التاريخ كمؤسسين لدولة إسرائيل العظيمة.

انسحبت إلى الخلف بعينين تتنافسان في إخراج أقصى كم من الدَّموع، وقدمين متخادلتين مرتعشتين، وانسحب معها آخر ما يربطها به من مشاعر، واحترام، وأمل في رَأب الصَّدع الذي اكتشفت أنه كسرٌ من المستحيل أن يلتئم فُتاته، فيما احمرَّ أنفها الذي سال منه المخاط للزج ليمنزج بالدموع وهي تقول بلهجة وداع خرجت من فؤادٍ مُحطم:

- تكلم بصيغة المفرد؛ فكلانا ينتمي لوطنٍ مُختلف، ودينٍ آخر. ودون أن يشعر أي منهما في غمرة انتصاره لوجهة نظره، تلك الملامح البريئة التي غزاها الوجود وصاحبها الصَّغير يُتابع عن قرب من مكانٍ خفي مناظرتهما الأخيرة، بعد أن لاح في الأفق فصل الختام.

\* \* \*

على شاطئ الإبراهيمية المليء بالوجوه الأجنبية، التقى (موريس) و(دميانة) حاملين الملامح المصرية الوحيدة في المكان الذي لا يعتاد المصريون الذهاب إليه، ليلقي الأول قولاً ثقيلاً بمزيدٍ من الحزن والأسى:

- لقد حسمت أُمِّي أمرها وقررت الذهاب إلى جدتي في حارة اليهود بالقاهرة لتعيش معها أيام ما قبل النهاية بعد أن وصلت الأمور إلى طريقٍ مسدود.. كنت أتمنى أن تكون اليهودية كالمسيحية في صعوبة حدوث الطلاق بشكلٍ يقترب من الاستحالة، لكنها بكل أسفٍ كالإسلام في إباحة وقوعه حال إذا ما رغب أحد الطرفين أو كلاهما في الانفصال. انحدرت دمعته ساخنةً على خدها الأيمن وهي تحاول طرد ذلك الكابوس، متطلعةً إلى ملامحه الحزينة، لعل بسمته خاطفةً تلوح منه ويخبرها بعدها بأن الأمر برمته كان مجرد مزحة سخيفة، لكنه ظلَّ على حزنه الذي ضخمها ودفعتها لتسأل بصوتٍ باكٍ جريح:

## ومرّت 5 سنوات..

نقطةً بسيطةً في بحر الزّمن، لكن بعض نقاط الماء قد تنقب الصخر، وبعض السنين القلائل قد تغير مصائر البشر ومجرى التاريخ..

5 سنوات حدثت خلالها قفزة في حياة (زكي) الذي استثمر كل مليم ربحه من القمار من وراء دجاجته الذهبية (جرجس)، وأخذ يضارب في البورصة، ويدخل صفقاتٍ سريعةً ضاعفت من أرباحه؛ حتّى صار يفعل عقليته الماسية من الأعيان، وسكن بإحدى فيلات شارع (داود عمون) المجاور لشارع (أبو قير) الرئيسي بمنطقة (لوران) الراقية، بعد أن تملك محالً تجاريةً تتاجر في كل شيء؛ سواء الملابس؛ أو الأجهزة الكهربائية؛ وغيرهما.

شارك بخبث ودهاء -قبل أن تضع الحرب العالمية الثانية أوزارها- في شن حملة دبرها اليهود لمقاطعة البضائع الألمانية تحت شعار "قاطعوا البضاعة الألمانية كنوع من الإنسانية"، وبعد حسم الحرب لصالح قوات الحلفاء وانتحار (هتلر)، تعاون -في الخفاء- مع عائلة (موصيري) لدعم الحركة الصهيونية وتمويلها الذي بدأ مع أول جمعية صهيونية نشأت في مصر عام 1897م، ليتبعها ظهور 14 جمعية في القاهرة والإسكندرية اتحدت عام 1917م تحت اسم "الاتحاد الصهيوني" الذي كان رئيسه (جاك موصيري)، وأصدروا صحيفة (إسرائيل) بثلاث لغات: العبرية والعبرية والفرنسية لصاحبها (ألبرت موصيري)، ونظموا احتفالاً كبيراً بمناسبة إصدار وعد بلفور حضره 8 آلاف يهودي، وشارك (زكي) في تهجير اليهود المصريين إلى دولة فلسطين التي أقرّت "عصبة الأمم" أنها أصبحت تحت الانتداب البريطاني بعد ضياعها من الدولة العثمانية التي انضمت لقوات المحور ولاقت الهزيمة في الحرب العالمية الأولى فانتقلت إلى السيادة الإنجليزية من يومها؛ ليندمج اليهود المهاجرون من كل الجنسيات في الأراضي الفلسطينية ببطء وخطواتٍ تكتيكيةٍ محسوبة صانعين مجتمعاً يهودياً مترابطاً يُسمى (اليشوف)، حتّى شكلوا في غفلةٍ من الزّمن عصابات مسلحة صنعت أسلحتها في ورش سرية رغم تجريم الانتداب البريطاني لحيازة الأسلحة،

- لقد عوضني حِضن أمك الحنون عن فقد والدي.. لا أستطيع أن أتخيل حياتي بدونها مع أب اعتدت طوال حياتي أن وجوده مثل عدمه كصفر في خانة الشمال.. هل تتخيل شعور غريق ما لبث أن وجد طوق النّجاة في عرض البحر ثم اكتشف بعد التعلق به أنه مثقوب؟ كان من الأولى به أن يغرق من البداية بدلاً من التعلق بأملٍ كاذبٍ سيجعل غرقه أشدّ ألمًا وعذابًا.

هز رأسه في أسي، وأفرج عما يجيش في صدره بحزنٍ أكبر من حزنها:

- كلانا مأساته واحدة.. الفارق أنك فكرت في فقد أمي، وأنا فكرت في فقدك.

اتسعت عيناها وهوى قلبها في قدميها حين انتبهت إلى معنى كلماته الذي كان غائبًا عنها، وعلمت أن المأساة المرتقبة صارت أكثر فداحةً مما تتخيل..

سيذهب قديسها الصّغير ليعيش مع أمه عند جدته في حارة اليهود بالقاهرة، وتفقد برحيله حواسها الخمس التي ما عرفت فوائدها واستخداماتها إلا ببزوغ شمسها في عالمها المظلم؛ رؤية وجهه؛ وسماع صوته؛ وتذوق كلماته؛ ولمس يديه؛ وشم رائحته.

قبل لقائه كانت ضريرةً في عالمٍ وحيدٍ لم يُعابرها فيه أحد بأنها عمياء أو يصف روعة ما يراه بعينه أمامها ليُشعرها بعجزها، فلم تكتشف مأساتها إلا حين وجدت يدًا حانيةً تقودها من الظلمات إلى النور.. عندها فقط أدركت حجم الكارثة التي كانت تعيشها، لكن -بفضل الرّب- كان ذلك في نفس لحظة الشفاء التي لازمت اكتشاف المرض، والآن جاء طبيها ليخبرها بضرورة إعادتها لعالم الوحدة والعمى من جديد بعد أن ذاق وعلمت وجربت ما لن تستطيع الاستغناء عنه..

تفتّح قلبها في موسم الرّبيع، فإذا به في الموسم نفسه يحترق ويصبح هشيمًا تذروه الرياح بعد أن عبث أحدهم بالكرة الأرضية، وبدل المواسم، واستقدم الخريف في غير مواعده، لتنتحب وتردد بانكسار:

- لماذا لم يستأذنا أحد قبل أن يحضرونا إلى هذا العالم؟

\*\*\*

التي كلفته الكثير والكثير لدرجة بيع أثاث منزله، وطرده مربية ابنته التي لم يجد المال الكافي لأجرتها.

وحين عاد للعب على المشاريب في مقهاه القديم، اكتشف (سليم) ذلك العامل الأسيوطي بالمقهى سر تفوقه في لعبة الطاولة وقدرته على تطوير أرقام النرد حسب رغباته.. كان ذلك حين راقبه وهو يتبول في مbole المقهى، ووجده يبول على يده اليسرى عن عمد ليعود بعدها وقد حالفه الحظ في كل رمياته!

وحين راقبه مرة أخرى وتكرر ما شاهدته بنفس التفاصيل، أيقن أن الأمر ليس صدفة؛ فأفشى سره بين الزبائن، وصار الجميع يشترطون عليه ألا يذهب للمbole وهو يلاعبهم، حتى إنهم صاروا يضعون إلى جواره زجاجة فارغة يتبول فيها أمامهم كشرط أساسي حتى لا يذهب للمbole، ليُجرب -أول مرة في حياته- أن يخسر اللعب على المشاريب، وتتحطم أسطوره.

وحين حاول الرجوع مرة أخرى لأحضان الكرابس كانت الأمزجة قد تغيرت، وصار الإقبال عليها أقل بكثير، بعد أن أسهم هو نفسه في إقناع بعض رفاقه في هذا العالم بلعبة البوكر.

انقطعت علاقته بـ(زي) الذي اتخذه سُلماً لتحقيق أهدافه، ثم لفظه كمن يلفظ من حياته كلباً أجرب انتهى الغرض من تربيته.. فما فائدة رفيق الأمس الذي كان تيمة الحظ والمكسب، بعد أن صار إله المركز الأخير في كل شيء!؟

كل الآلاف التي ربحها (جرجس) ضاعت في الليالي الحمراء، ومضاجعة الفتيات الصغيرات من كل الألوان والأشكال إلى حد اصطحابهن معه إلى منزله ليلاً غير عابئ بـ(دميانة) التي كانت تنام في حجرة مجاورة، وكثيراً ما كانت تستيقظ على أصوات معارك السريير الطأحنة؛ لتفتح باب حجرة النوم بفصول ذات مرة رأت فيها ما خدش حياها وهتك براءتها للأبد، قبل أن تجرب صفقة جديدة أقنعها بعدم فتح ذلك الباب مرة أخرى حتى وإن كانت بمفردها في المنزل.

وسن عقوبة الإعدام ضد من يمتلكها، بخلاف سرقة بعض مخازن الأسلحة والذخيرة البريطانية، وتصنيع سيارات يهودية.. ثم بدأت فجأة في شن الحرب على الشعب الفلسطيني بغرض تهجيرهم من أرضه، وقتل وإبادة من يُصمم على البقاء.

أشهر هذه العصابات كانت عصابة "الهاجاناه" التي تأسست في مدينة (القدس)، وتعني "الدفاع" باللغة العبرية، وانضم إليها آلاف الشبان اليهود، وقامت باستيراد السلاح الأجنبي، وإنشاء الورش لتصنيع القنابل اليدوية والمعدات العسكرية الخفيفة، وتحولت إلى جيش نظامي بعد أن كانت ميليشيا، بدعم وإشراف من قوات الانتداب البريطاني، وعصابة "الإرجون" أو "المنظمة العسكرية القومية" باللغة العبرية، وكان شعارها يتكون من خريطة فلسطين والأردن وعليها صورة بندقية كتب حولها بالعبرية: "راك كاخ"؛ أي "هكذا وحسب"؛ ليبدأ عمل هذه العصابات على قدم وساق في انتظار اليوم المرتقب الذي بات مجيئه قاب قوسين أو أدنى، بخلاف عصابتي البلماخ والشتيرن.

أما (جرجس) فقد استعان بمربية استقدمها من بلدة (كفر الدوار) ليسند إليها مهمة رعاية ابنته الوحيدة، وُسقط عن كاهله أعباء وواجبات الأبوة؛ حتى يتفرغ للعب القمار الذي أدمنه وترك من أجله المحاماة.

احترف لعبة الكرابس، ونسي أرقام نرد الطاولة؛ سواء الدُش؛ أو الشيش؛ أو الدو؛ أو السيه وغيرها، ودخل لسانه عصراً جديداً تعلم فيه مفردات ذلك العالم المختلف الذي صار عضواً دائماً فيه، ليردد: بوكس كارز، فيلد بت، هارد وي، هاي لو، وفي فمه السيجار بدلاً من البوري.. وبعد أن كانت البيرة مشروباً في المناسبات والأعياد فقط صارت مشروبه الدائم هي والشامانيا بدلاً من الإسباتس.

ثم زهد الكرابس التي كان مكسبه فيها مؤكداً؛ كزهد البشر في كل شيء متاح وسهل، وأدمن الألعاب التي يتجرع فيها الخسارة، ليجد متعته الجديدة في البوكر دون أن يقوى على الابتعاد عنها رغم الخسائر الفادحة

صبية يانعة الجمال، خرّطها خرّاط البنات بقدّ رشيق، ورجلين ملفوفتين جميلتين، طالما تظهران من تحت فسائيتها الراقية التي كانت تشتريها مستعملةً من بياصة الشّوام؛ فتصير كفتيات اليونان الجميلات، وتجذب الأنظار وتتناثر حول خطواتها عبارات الإطراء والغزل في زمن المعاكسات الجميل ذي المفردات المقبولة من عينة "هو القمر من إمتى يبطلع بالثّهار؟ يا أرض احفظي ما عليكي" .. بينما صار (موريس) شاباً يافعاً، تؤهله وسامته ليكون خليفة الفنان اليهودي (توجو مزراحي).

وحينَ حان دور التلميذة لتستعرض معلوماتها أمام أستاذها، أخبرته بأسرار تسمية أشهر أحياء الإسكندرية بتلك الأسماء التي تحملها، مثل: (الأزاريطة)، و(زيزينيا)، و(جليم)، و(جناكليس)، و(الورديان)، واستعرضت معلوماتٍ مُفصلةً عن كل حي وكيف تكوّن، وأشهر الشخصيات التي سكنته، بطريقةٍ فاقت براعته حينَ استعرض معها أصل حي (القطارين)؛ ليمنحها يومها ابتساماً مُفعمةً بالانبهار، ويباغتها بقبلةٍ خاطفةٍ على وجنتها الجذابة!

انطفأت الحماسة وغربت البسمة من وجهها الذي عبس وتولى، فقال بابتسامةٍ خجولٍ:

- لا أجد الكلمات الكافية للاعتذار، لكن هناك حماقاتٍ نشعر بالفخر على اقترافنا إياها ما حيننا؛ منها خطف تلك القُبلة بلا استئذان.

تطلعت إلى عينيه، وقالت بحزنٍ عميق:

- أخلاقي لا تجد مانعاً في تمنّي مبادلتك القُبلات.. لكن، المسيح يقف حائلاً بيني وبينك إذا ما أردنا أن نصير جسداً واحداً.

أمسك كفيها، وتابع:

- كلانا يؤمن بالمسيح، غير أن مسيحك قد صُلب، ومسيحي لم يُبعث بعد.

تركت يدها بين كفيه وخفضت عينها وقالت بصوتٍ خافتٍ وكأنها لا تقوى على المصارحة:

- ليست المشكلة في صلبه، بقدر أنّ من صلبه كانوا من اليهود.

لكن على الأقل كان القدر رحيماً بها فيما يتعلق بـ(موريس) الذي لم تتأقلم والدته مع والدتها حادة الطباع، بخلاف عدم قدرتها على مفارقة الإسكندرية، فعادت من حارة اليهود في القاهرة واستأجرت غرفة بسطح إحدى العمارات بشوارع (سعد زغلول)، وضعت على بابها الـ"مزوزا"<sup>(1)</sup>، واحتفظت داخلها بنسخة من التناخ، و"كيبا"<sup>(2)</sup> كانت حريصة أن تذكر (موريس) بارتدائها؛ لتضمن المعيشة في مَعية الرّب الذي تؤمن به وتنفذ تعاليمه.

رفضت أن تأخذ أي أموال من زوجها السابق، وتركت له شقة (بحري) لتكتفي بتلك الحجر، وتهب حياتها لتربية ابنها الوحيد بجانب العطف على (دميانة)، ابنتها التي لم تلدها، وهكذا ظلّ القديس الصّغير الموسوعي إلى جوار زهرته الجميلة التي أقسم أن يرعاه في بستانه حتّى يحمي أوراقها من الذبول ويمنعها من التساقط في خريف القدر، ومعه أمه تبارك أفعاله وتتولى عنه مسئولية الأمور التي تفوق طاقته.

طلّت (دميانة) تقرأ، وتتبحر في الثقافة حتّى تفوّقت على أستاذها، وصارت هي التي تفاجئه بما لم يُحطُ خبراً..

وفوق السطح الذي تطل عليه غرفة أمه التي عاشا فيها معاً بعيداً عن عالم أبيه المحرّم عليه، أبدت له حسن صنيعه وفضله عليها حينَ حُب إليها القراءة، وعلمها تاريخ مدينتها بشكل عملي ممتع في كل جولاتهما بـ(القطارين) والإبراهيمية والمنشية وسموحة وزنقة الستات)، وأعطاها دروساً في الحياة لا تُقدّر بثمن، لاعباً دور الأب، والأخ، والمُعَلِّم، ودوراً آخرَ كانت تراوغ نفسها؛ حتّى لا تعترف به رغم أن كل شبر وطئته أقدامهما كان شاهداً عليه وهما يكبران مع الأيام، حتّى صارت

(1) المزوزا: هي رق مستطيل الشكل، تكتب عليه الجُمْل الملائمة من العهد القديم التي يختارها الشّخص اليهودي، وتعلق على كل أبواب المنزل والحجرات عدا الحمام في بيوت اليهود

(2) كيبا: هي الطاقية اليهودية التي يتم ارتداؤها؛ للدلالة الخارجية على كون الرّجل يهودياً متديناً، وقد تكون منسوجة بأنماط مختلفة، وأحياناً يُطرز عليها اسم صاحبها إذا كان طفلاً.

وضع أنامله تحت ذقنها ورفع وجهها الجميل ليتطلع إليه قائلاً  
بحنان ومحبّة خرجت من القلب:  
- إن كان قد صُلب من أجل الخلاص في عقيدتك فلا تكرهني أعداءه  
تنفيذاً لوصاياه.. ألم يقل: أحبوا أعداءكم؟ ثم إن يهود الأمس غير يهود  
اليوم.  
- طالما صليت من أجلك وطلبت منه أن يحبك مثلما أحببتك.  
وضع رأسها على كتفه بحنان، وقال وهو يمّسح شعرها:  
- يكفي أن تدليني على المحبة حتّى تدليني على الله؛ فالحب صلاة  
تسمو فوق كل صلاة.

\* \* \*

### 29 نوفمبر 1947م

وافقت الجمعية العامة للأمم المتحدة على قرار تقسيم فلسطين إلى  
دولة يهودية ودولة عربية فلسطينية وتدويل منطقة القدس وجعلها  
منطقة دولية لا تنتمي لدولة معينة ووضعها تحت حكم دولي؛ لتصبح  
حصّة اليهود في الأرض 56%، و43% للعرب، و1% لمنطقة القدس الخاضعة  
تحت الانتداب البريطاني بإدارة الأمم المتحدة، وسط معارضة واستنكار  
شديدين من قبل الدول العربية التي اجتمعت في القاهرة بين 8 و17  
ديسمبر من العام نفسه، وأعلنت أن تقسيم فلسطين غير قانوني، وقررت  
أن تضع 10,000 بندقية و3,000 متطوع ضمن ما يُعرف بجيش الإنقاذ،  
بينهم 500 فلسطيني، بعد أن أمرت بتشكيل لجنة عسكرية فيّة لتقييم  
المتطلبات الدفاعية الفلسطينية ضد العصابات الصهيونية، وخرج التقرير  
باستنتاجات تؤكد قوة اليهود، وعدم وجود قوى بشرية للفلسطينيين،  
أو تنظيم أو سلاح أو ذخيرة يُوازي أو يُقارب ما لدى الصهاينة، وحث  
التقرير الدول العربية على "تعبئة كامل قوتها" ..

تصاعدت حدّة القتال بين الفلسطينيين واليهود بعد قرار التقسيم  
الصادر عن الأمم المتحدة، وبلغت أعداد عصابات "الهاجاناه" الصهيونية  
قراية الـ45,300 فرد، وحيثما بدأت التعبئة في أعقاب قرار التقسيم انضم

إلى "الهاجاناه" نحو 30 ألف مجند من يهود فلسطين و20 ألف آخرين من  
يهود أوروبا.. وفي بداية عام 1948م، تشكّل جيش الإنقاذ الفلسطيني بقيادة  
الضابط السوري (فوزي القاوقجي)، فجلّت عصابات الأرجون وشترين إلى  
استخدام السيارات المفخخة في تفجير مركز الحكومة الفلسطينية في يافا،  
وهو ما أسفر عن مقتل 26 مدنيًا فلسطينيًا.. وفي مارس 1948م قام  
المقاتلون الفلسطينيون غير النظاميين بنسف مقر الوكالة اليهودية في  
القدس، وهو ما أدى إلى مقتل 11 يهوديًا وجرح 86 آخرين.

ضغطت الأمم المتحدة -بعد تحرك صهيوني خفي- على بريطانيا  
لإنهاء انتدابها على فلسطين؛ حتّى يخلو الجو لليهود هناك، فتقرر  
الحكومة البريطانية إنهاء الانتداب البريطاني على فلسطين في منتصف  
الليل بين يومي الرابع عشر والخامس عشر من مايو 1948م.

العصابات اليهودية في فلسطين ترتكب أكثر من 70 مجزرة جماعية،  
وكانت مجزرة قرية (دير ياسين) في التاسع من إبريل 1948م، من أخطر  
وأبشع هذه المجازر؛ حيثُ أبادت عصابات الأرجون وشترين سكان القرية  
عن بكرة أبيهم، واستغلت العصابات اليهودية المسلحة الحادث في توجيه  
رسالة تهديد للشعب الفلسطيني؛ إما الرحيل وإما الإبادة والاعتصاب  
والسلب والنهب والحرق كما حدث في (دير ياسين) ..

بعدها بثلاثة أيام، قررت الجامعة العربية إرسال الجيوش العربية  
إلى فلسطين وأكدت اللجنة السياسية أن الجيوش لن تدخل قبل انتهاء  
الانتداب البريطاني وانسحاب بريطانيا المزعم في 15 مايو.

في السّاعة الرابعة عصرًا يوم 14 مايو، قبل 8 ساعات من انتهاء  
الانتداب البريطاني في فلسطين ورحيل آخر جندي إنجليزي، أعلن المجلس  
اليهودي الصهيوني في تل أبيب أن قيام دولة إسرائيل سيصبح ساري  
المفعول في منتصف الليل، وبالفعل أعلن (ديفيد بن جوريون) الرئيس  
التنفيذي للمنظمة الصهيونية العالمية ومدير الوكالة اليهودية قيام الدولة  
الإسرائيلية، وعودة الشعب اليهودي إلى أرضه التاريخية رسميًا دون أن

تُعلن حدودها بالضبط؛ ليعلن الرئيس الأمريكي (هاري ترومان) الاعتراف بدولة إسرائيل بعد إعلانها ببضع دقائق.

الهجرة اليهودية تتوالى من شتى أقطار العالم: مصر، اليمن، الحبشة، العراق، الهند، أوربا، روسيا، أمريكا، وأكثر من سبعين جنسية أخرى يُفضل يهودها وطنهم الجديد في إسرائيل عن أوطانهم التي نشأوا وترعرعوا فيها؛ ليرتفع عدد اليهود من خمسين ألف مهاجر إلى ستمائة وخمسين ألفاً.

(ديفيد بن جوريون) رئيس الحكومة الإسرائيلية المؤقتة يقيم أول جيش دفاع إسرائيلي بعد أقل من أسبوعين على إعلان دولة إسرائيل؛ لمواجهة العرب الذين اتحدوا -أخيراً- لتحرير فلسطين في حربٍ بدأت رحاها في الأسبوع الأول من يونية 1948م.

اندلعت الحرب في المستعمرات الصهيونية، وارتفعت معها أعداد الميليشيات الصهيونية المسلحة ووصل عددهم في الأسبوع الأول إلى 107 آلاف جندي وجندية نتيجة لرفع سن التجنيد إلى 35 عاماً، ضد جيوش المملكة المصرية، والمملكة الأردنية، ومملكة العراق، ومعهم قوات من سوريا، ولبنان، والمملكة العربية السعودية، لتدخل الجنود العربية أرض فلسطين وتنضم لجيش (الجهاد المقدس) الذي تكوّن من مجموعة من الفلسطينيين وبعض مسلمي البوسنة وبعض المرتزقة من الأوربيين الذين بلغ عددهم حوالي 30 ألمانياً وبريطانياً.

الجيش الأردني يُبلي بلاءً حسناً، ويجتاح القدس ويسترد الضفة الغربية كاملةً في يد الجيش العربي، ويُلحق بالجيش الإسرائيلي خسائر فادحة، بثلاثة ألوية عبرت نهر الأردن إلى فلسطين، ثم ازدادت إلى أربعة مع مُضي الحرب، بالإضافة إلى عدة كتائب مشاة.

الجيش المصري يقوم بتحويل طائرات النقل إلى قاذفات للقنابل لتسهم في الحرب؛ إذ لم يكن هناك قاذفات للقنابل في ذلك الوقت، بينما هاجمت قواته تجمعي (كفار داروم) و(نيريم) الصهيونيين، وراibus جنوده

وضباطه في قرية (الفالوجة) مُحاصرة مدينة غزة وسط ترحابٍ شديدٍ من الشعب الفلسطيني الذي تعرّض قبل مجيئهم إلى مذبحه.

القوات اللبنانية تُحارب على الجبهة الشمالية وتستولي على قريتي (المالكية) و(قَدَس) في منطقة (الجليل الأعلى) جنوب الحدود اللبنانية. القوات السعودية تُباشر القتال -جنباً إلى جنب- مع القوات المصرية، وتخوض المعركة الأولى في (بيت حانون) بالقرب من (غزة)، وتواجه مستعمرة (بيرون إسحاق).

الجيش العراقي يُحرر مدينة (جنين)، ويطرد المنظمات الصهيونية منها وعلى رأسها "الهاجاناه" بعد معاركٍ شرسةٍ، ويصبح بمشاركة قوات فلسطينية على حافة تحرير (حيفا) التي تمت محاصرتها، ولكن تقدم الجيش توقف فجأة بسبب رفض القيادة السياسية في (بغداد) إعطاءه الأوامر للزحف وتحرير المزيد من الأرض، وهو ما سبّب إرباكاً شديداً بين صفوف القوات العراقية!

مجلس الأمن التابع للأمم المتحدة يتدخل ويفرض على الجميع وقف إطلاق النار، وحظر تزويد أي من أطراف الصراع بالأسلحة في محاولة التوصل إلى تسوية سلمية..

إسرائيل لا تلتزم بقرارات مجلس الأمن، وتسارع في تعويض خسائرها في الوقت الذي انهالت عليها الأسلحة بصورةٍ ضخمةٍ لا سيما الطائرات، بينما تطوّع كثير من يهود أوربا إلى الذهاب لجبهات القتال؛ ليتعاونوا مع الجيش الإسرائيلي في خرق الهدنة والتوسع في الأراضي التي احتلتها فزحفت قواتها نحو (الفالوجة) التي يراibus فيها الجيش المصري وطوّقت جنوده وضباطه؛ لإضعاف الجبهة الجنوبية التي كانت تقترب شيئاً فشيئاً من (تل أبيب).

مباحثاتٌ سرية تتم بشكلٍ منفردٍ بين بعض القادة العرب وبين قادة إسرائيل، غير أن كل القادة لم يكونوا مجتمعين، بل كلٌ يفاوض بمفرده لإنهاء الحرب!

أراضيه إلى فلسطين، كما تحالفت معه وأيدت أهواءه المملكة العراقية الهاشمية التي كان هناك فرعٌ أردني داخل سلطتها، حتّى إن الوزراء العراقيين الذين أصروا مرارًا وتكرارًا على فرض حظر تجاري وبترولي على الدول الغربية الموالية لإسرائيل، لم يقوموا بأي إجراء لتنفيذ هذه القرارات.

حتّى في فلسطين نفسها كانت هناك خلافات بين قائدين يقودان القوات الفلسطينية؛ (عبدالقادر الحسيني) قائد جيش الجهاد المقدس، و(فوزي القاوقجي) قائد قوات جيش التحرير العربي..

وكيف ينتصر جيشٌ من الجنود والضباط المخلصين بقياداتٍ ممزقة ليست على قلب رجلٍ واحد؛ بين خائنٍ أو فاسدٍ، أو متعصب لرأيه لا يسمع للآخرين؟!

هكذا "دخل العربُ فلسطين وهم في ظاهريهم أمة واحدة، وكلمة واحدة، مجتمعين للدفاع عن فلسطين مُك آبائهم ومرقد أجدادهم الفاتحين، بينما كانت قلوب قادتهم وحكامهم شتى، وأهواؤهم متباينة، يضرر بعضهم للبعض الآخر غير ما يُظهر، ويبدون جميعهم من الحماسة والحمية غير ما يُبتنون.. ومن غريب أمر هذه الدول البائسة أنها زحفت إلى فلسطين وبعضها لبعض كاره، وحاسد، ومُبيّت شرًّا، رغم أن إجمالي القوات العسكرية لأعضاء الجامعة العربية كان قوامه 165 ألف جندي، بالإضافة إلى ميزانية عسكرية تصل إلى 28 مليون جنيه إسترليني، وبلغ تعداد سكان مصر والعراق وسوريا وشرق الأردن ولبنان واليمن والمملكة العربية السعودية نحو 45 مليون نسمة؛ بما يوازي 200 ضعف عدد سكان دولة إسرائيل الوليدة!

ودخل اليهود فلسطين أشتاتًا ينسلون من كل فج من فجاج الأرض، قلبًا واحدًا، وكلمةً واحدةً، وهدفًا واحدًا، ظاهرًا وباطنًا، باذلين الأموال والأرواح، مُسخّرين قوى العالم، مُستخدمين لأغراضهم أمريكا وإنجلترا وروسيا؛ فكان لا بد في مثل هذه الحال أن يكون النّصر لليهود وللعرب الهزيمة.

في 8 يوليو 1948م، استأنف الجيش الإسرائيلي القتال في جميع الجبهات رغم محاولات الأمم المتحدة لتمديد مدة الهدنة، وعندما استؤنفت المعارك من جديد كان للجيش الإسرائيلي اليد العُليا، واتخذت المعارك مسارًا مختلفًا تعرّضت فيه القوات العربية لسلسلة من الهزائم، استطاعت إسرائيل بعدها أن تفرض سيطرتها على مساحاتٍ واسعةٍ من أراضي فلسطين التاريخية لتنتهي المعارك في 21 يوليو بعد أن هدد مجلس الأمن بفرض عقوباتٍ قاسيةٍ على الجوانب المتقاتلة، فقبل العرب الهدنة الثانية التي كانت اعترافًا بالهزيمة، وضياع فلسطين.

تقارير ساخنة في الصحافة المصرية والعربية والعالمية تشير بالتلميح والتصريح لخيانة وإهمال القادة العرب..

رئيس الأركان المصري اتضح أنه أبلغ الملك (فاروق) بأن الجيش المصري على استعداد تام للقتال، مؤكدًا أنه: "لن يكون هناك حرب مع اليهود، وأنه سيكون مجرد استعراض للقوة دون أدنى تعرض للمخاطر، وأن جيشنا سيصل إلى تل أبيب في أقل من أسبوعين" .. في حين أنه في الواقع لم يكن الجيش مستعدًا، ولم يكن يمتلك حتّى خرائط لفلسطين، بخلاف إمكاناته الفقيرة التي لا يُمكن اعتبارها جدًّا قوة غزو، وشبهة إمداد الجيش المصري بصفقة أسلحة فاسدة.

الملك الأردني (عبدالله) الأول شارك في الحرب؛ لأنه كان يحلم بتأسيس (الأردن الكبرى) التي تضم تحت وصايتها كلاً من سوريا، لبنان، فلسطين، إمارة شرقي الأردن، وهو ما جعله في خلافاتٍ مع (أمين الحسيني) مفتي فلسطين، والنظام السوري، كما أكد الملك (عبدالله) ل(جولدا مائير) من قبل مساندة القضية الصهيونية، وذلك من خلال مقابلةٍ سريةٍ بينهما في إحدى محطات توليد الكهرباء اليهودية بإمارة شرقي الأردن، حتّى إنه أبدى موافقته على خطة تقسيم فلسطين؛ لذا شارك في الحرب لاكتساب شعبيةٍ أمام شعبه وتشكيل ورقة ضغط لتمرير مصالحه ليس أكثر، لكنه كان على خلافاتٍ مع كثير من الحكام والقادة العرب الذين كانوا يخشون أطماعه وطموحاته، حتّى إنه رفض عبور القوات السعودية من خلال



ما عرف التاريخ أرضًا غالية مقدسة -لدى أهلها إمكانية حمايتها والذود عنها- ضاعت بأرخص مما ضاعت به فلسطين<sup>(١)</sup> فصدق من قال: "إنما يأكل الذئب من الغنم القاصية!"

\* \* \*

عادت (دميانة) من لُجة ذكرياتها، في ذلك الملكوت السّماوي، لتلتقي عيناها البرّاقتان بعيني المُعلّم مُجددًا، ثم سالت مشاعرها وذكرياتها في صورة خطين من الدّموع السّاخنة على وجنتيها؛ لينظر المُعلّم إلى الدّموع نظرةً ثاقبةً اخترقت ماءها المالح، ورأت ما فيها من أحداثٍ جسام تجسّدت على صفحة وجه (دميانة) البائس.

رأى كرات النّار تنهال على محال (شيكوريل) اليهودية، وأفرادًا من جماعة الإخوان المسلمين يقومون بإلقاء القنابل ضد محال مملوكة لليهود؛ انتقامًا لما فعله أقرانهم في فلسطين، قاصدين من هذا الفعل الجهاد في سبيل الله..

انفجارات أخرى تدوي هنا وهناك في حارة اليهود بالقاهرة في الوقت الذي كانت (ليليان) تزور فيه والدتها المريضة لتسقط مع من سقطوا. (موريس) و(دميانة) يركضان في أروقة أحد المستشفيات، وما إن وصلا إلى غرفة الأم حتّى وجدا جثمانها مغطى بملاءة بيضاء..

يقترّب (موريس) بخطواتٍ بطيئةٍ متناقلة وهو لا يُصدق نفسه.. يرفع الغطاء بيدين مرتعشتين فتتسع عيناه من هول المنظر وبشاعته، بينما تفقد (دميانة) الوعي..

أحدهم يطرق باب منزل (جرجس) ويطلبه بتسليم شقته التي رهنها عنده مقابل الحصول على مبلغٍ من المال خسره في القمار، فيرتسم الدّل والهوان على ملامحه، وهو يتوسل إليه طالبًا مهلةً أيامًا معدوداتٍ من الوقت؛ لعله يُدبر له المبلغ الذي اقترضه منه دون أن يُفِرط في شقته،

(١) الجزء المكتوب بين علامتي التنصيص مأخوذ من جريدة (السفير) الفلسطينية، مايو ٢٠١٢م (بتصرف).

فيخبره الدائن بأن أمامه يومًا واحدًا فقط، بينما تطل (دميانة) برأسها من باب حجرتها لتتابع الحوار الصّادم بقلبٍ واجفٍ..

رفع (زكي) كأس التّبيذ في احتفالٍ سري بفيلته مع عددٍ من كبار اليهود؛ استعدادًا للهجرة قبل أن يُفاجأ أمامه بـ(جرجس)؛ صفحة الأمس التي أبت أن تنطوي بعد أن تدهور الحاضر إلى حدٍّ مُخيفٍ، فجاء بعد أن غلّقت كل الأبواب في وجهه، ولم يجد سوى صديقه اليهودي بديلًا. بعد مواجهةٍ سريعةٍ ومُقتضبةٍ استعرض كل طرف فيها أفضاله على الآخر، انتهى الأمر بخروج (جرجس) مطرودًا مدحورًا، بعد وصلة ضرب مبرح تلقاها حينَ فقد أعصابه وحاول الانقضاء بيديه على غريمه..

يصعد (جرجس) درجات السلم في ذلك العقار بشارع (سعد زغلول) في طريقه لتلك الحجرة التي يسكنها (موريس) وقد أضمر في نيته هدفًا واحدًا؛ لابد أن يحرق قلب (زكي) على ولده جزاءً على ذلك النكران والجحود الذي اختتمه بوصلةٍ من الدّل والمهانة..

سيضع بجوار الجثة رسالةً تفيد بأن مرتكب الحادث فعل ذلك انتقامًا من ذلك الشّاب اليهودي ابن أحد كبار الأثرياء اليهود الذين يُساندون إسرائيل في الخفاء؛ لتتجه الشبهات نحو جماعة الإخوان المسلمين..

يركل باب الحجرة ويفتحه بضربةٍ واحدةٍ، وفي عينيه شرّ الدّنيا كله، وقبل أن يخرج مطواته من جيبه يتلقى هو الطعنة القاسية؛ حينَ وجد (موريس) و(دميانة) على سريرٍ واحدٍ، في لحظةٍ قررا فيها التجرد من الملابس، واللّحم، والدّم، والعظم، لتلتقي روحاهما المعذبة في جنة بلا فوارق دينية أو طبقية بين البشّر، صنعها جبهما على مقاس حالتهما البائسة، وكلمة سر فتح بابها المغلق هو الاحتضان والاحتواء؛ ليهربا هناك من ذلك العالم الموحش، لكن قبل إتمام رحلة الوصول ظهر هذا المطب الصناعي الذي غير المسار وقلب الأوضاع.

غلى الدّم في عروق (جرجس) وزادت رغبته المحمومة في قتل ابنته وعشيقها..



طعناتٌ سريعةٌ تطيش في الهواء (موريس) و(دميانة) يُحاولان عبثًا تفادي المطوأة واحتواء الموقف، لكن حتّى خيار إخفاء الفضيحة وإصلاح الخطيئة بالزواج لم يكن واردًا بين يهودي ومسيحية.. وبعد كر وفر ومحاولة للهرب أعقبها ركضٌ سريعٌ على سطح المنزل، تفادى (موريس) اندفاعة (جرجس) السريعة نحوّه بكل غله الطافح؛ ليصطدم الأخير بسور السطح ويسقط صريعًا.

أخيرًا تذكر (موريس) أنّ له أبا بعد سنوات من العزلة والمقاطعة، لكن (زكي) أخبره بأن الحل الوحيد هو الهروب إلى (إسرائيل)..

رفض (موريس) وحاول البقاء في وطنه الذي لا يعرف أو يعترف بسواه لإثبات براءته، لكن ما من دليل على ذلك، بعد أن قام بتهريب (دميانة) إلى شقتها فور سقوط (جرجس) حتّى لا يراها أحد ويعلم بوجودها وقت وقوع الحادث ومن ثم تطولها الفضيحة..

(زكي) يرسل خطابًا إلى حكمدار العاصمة منتحلًا صفة ابنه وتوقيعه؛ للاعتراف على نفسه بارتكاب الحادث حيال هذا المسيحي المتعصب الذي حاول قتله لمجرد أنه يهودي، ويخبر ولده بأنه لم يعد له خيارٌ إلا بالهجرة إلى أرض الميعاد؛ حيثُ يجب أن يعيش ويموت هناك كمواطنٍ يهودي أخيرًا أصبح له وطن يناديه!

لقاء أخير بين (موريس) و(دميانة) يُعطيها فيه مفتاح حجرته بالسّطح في شارع (سعد زغلول)؛ لتعيش فيها بعد أن تم الحجز على شقة والدها.. فتتساءل كيف يكون المكان الوحيد المتاح للإقامة فيه هو المكان نفسه الذي شهد مقتل والدها؟! ثم تودعه بدموعٍ من دم بعد أن صارت بينهما دماء المسيح.. ودماء والدها أيضًا!

وفي التوقيت نفسه، تعرضت فيلا (زكي) للسطو من (سليم) وأصدقائه الصعايدة الذين جاءوا للحصول على ما خف وزنه وغلا ثمنه، وقد أقتعوا ضمائرهم بأن دماء وأموال اليهود حلالٌ حلال، بعد أن ظهر سواد قلوبهم على حقيقته حين شردوا المسلمين في فلسطين وطردوهم من ديارهم واستولوا على أرضهم، ليرحلوا بثروةٍ طائلةٍ كان (زكي) يستعد

لتهريبها، ويتركوا خلفهم جثته، لينجو (موريس) من مصير أبيه، ولا يُفاجأ لدى عودته بما حدث، قبل أن يستقل تلك المركب المتجهة إلى إيطاليا، ومنها إلى إسرائيل حسبما رتب له والده كل شيء قبل رحيله..

عند هذه النقطة توقفت الذكريات عن التدفق حين مرّر المعلّم أطراف أصابعه أسفل عيني (دميانة) لتجفف دموعها مع لمسته الحنون، وتسري في أوصالها مع لمسته رعشة رهيبه، لكنها كانت الرعشة التي تسبق الطمأنينة والهدوء..

حاولت أن تستجمع قوتها ورباطة جأشها وقد وجدت أن الجرأة والصراحة خيارٌ متاحٌ رغم مهابة الموقف وعظمة المستضيف، ثم قالت بلهجة لوم تفيض بالعتاب:

- أرايت كيف فرقنا الوصايا المختلفة والمناهج المتعددة؟ لماذا لم يتم الاكتفاء بأمةٍ واحدةٍ بدلًا من أممٍ متناحرةٍ متعصبةٍ لأنسابها ومناهجها الروحانية التي تصلها بالسماء؟ ولماذا نُلام ونُحاسب على أخطائنا وذنوبنا رغم أن الخطأ الأكبر من البداية لم يكن من صنح أيدينا؟ أجابها وهو يُمعن النّظر في عينيها دون أن تتغير نبرة صوته الهادئة:

- حينَ قتل قابيل هايبيل في أول جريمة قتل نفذها بنو الإنسان، لم تَسَلِ الدّماء حينها بين أممٍ مختلفة الأديان أو الأعراق أو اللغات؛ فالخطيئة كامنة في النفس بشكلٍ أزلي، بينما كان التعدد والاختلاف حُجّةً من لا يستطيعون مكاشفة حقيقة نفوسهم المريضة وتعطّشهم للدماء والشّر، لكنني لا ألقاهم قبل أن يروا برحلةٍ علاج؛ فإما أن يختاروا بعدها الشفاء؛ وإما أن يعاودوا المرض مرّةً أخرى بمحض إرادتهم؛ حتّى لا تكون هناك حُجة على الطّبيب بعد خروج المريض من المشفى متعاطيًا للعلاج الأمثل.

سرحت في كلماته ولم تحرك ساكنًا حين أكمل

- على كل حال، احترم من يستغرق وقتًا طويلًا للوصول إلى الحقيقة باختياره واجتهاده، أكثر من الذين يرثونها بلا أي فهم أو تفكير.. لكن حذارٍ من أن لها فترة صلاحية قد لن تُجدي بعدها إذا ما عثرت عليها.



الدكتاتور.. جئت لأسكن قلبك الشجاع، وأمد جسديك المُنْهَك بالقوى اللازمة لیتَم مهمته.

- أي مهمة؟  
- مهمة تحرير البشر من سطوة الأكاذيب والخرافات التي خدعهم بها المرسلون.

- الآن عرفت من أنت.. لقد جاءت زيارتك متأخرةً يا هذا بعد أن اقتربت من الحقيقة في حضرة المُعلِّم بالملكوت السَّمَاوِي.

- لم يكن هناك مُعلِّم أو ملكوت؛ إن هي إلا محض هلاوس بصرية وسمعية تسيطر على الإدراك حين تقتربون من الموت وتحتاجون أن تمدوا أنفسكم بشحنة روحانية تظنون أنها في يد قوى أكبر منكم لتعيدكم إلى الحياة وتجيئكم عن أسئلتكم التي فشلتم في الإجابة عنها، دون أن تفتنوا أنكم المتحدث والمستمع في آن واحد.. المُعلِّم الحقيقي هو أنا.. ثم أخذت عيناه الزرقاوان تتسعان حتَّى حُيِّل إليها أن داخلهما دوائر تتسع وتدور حول نفسها ليتسلل إلى كيانها إحساس بالخدر والدوار، ثم كفه أمام طيفها الأثيري وشعرت بكيانها ينسحب بأكمله ويدخل سطوة يده وهو يتابع بصوتٍ أعمق وأعمق:

- أوحى إليكم بالأفكار فتحيلونها إلى أقوالٍ وأفعالٍ تنسبونها لأنفسكم دون أن تشعروا أنني أقف وراء ذلك؛ فأنا الإله الذي يتبعه أتباع لا يؤمنون بوجوده.

تضاءل كيانها الأثيري حتَّى صار في حجم قبضة يده التي أحاطت به إحاطة السوار بالمعصم رغم محاولاتها المستميتة في الإفلات والتسلل من بين أصابعه دون جدوى، ولأول مرةٍ مُنذُ زمنٍ طويلٍ جدًّا تجد نفسها تصرخ بصعوبةٍ شديدة وقد تجمّدت أحبالها الصوتية:

- يا يسووووووووع!  
اكتفى بضحكةٍ شامتةٍ وهو يغوص بها في مؤخرة جسدها المادي الذي بدا لها ضخماً للغاية قبل أن يصبح داخله بالفعل، وتجرب فيه إحساس فملة تتأمل تمثلاً عملاقاً بأحد المعابد، قبل أن يتحول ذعرها إلى ذهولٍ مطلق وهي ترى جسدها لأول مرةٍ من الداخل..

مع آخر حرف من كلماته شعرت بطيفها يطير متراجعاً للوراء، وعيناها لا تزالان مُعلقتين به وهو يتصاغر في الأفق البعيد دون أن تتعد كلماته التي تتردد في أعماقها:

- بادري بالبحث عن الحقيقة بقلبك الذي يتسع للكون بأكمله، أما عقلك الضعيف فسيظل قاصراً عن استيعابها؛ كصعوبة احتواء الحفرة لماء البحر.

صرخت وهي تتبعد:

- لديّ كثير من التساؤلات التي لم تُجِب عنها بعد.  
- عليك العثور على إجاباتها بنفسك؛ فلو علمت كل شيء ها هنا لما صار لعودتك معنى.. لا تزال أمامك الفرصة يا (دميانة) فاستغلها قبل أن نلتقي مُجدداً.

ثم دخلت النفق المظلم نفسه الذي أتت منه، لتهوي بسرعةٍ هائلةٍ إلى السَّماء الدُّنيا من جديدٍ، قبل أن تصل إلى سطح المنزل وتنزلق فوقه بخفةٍ ونعومة، ثم اخترق طيفها غير المرئي جدران الغرفة المُسجى فيها جسدها على السرير، وشاهدت (آيات) وهي تحاول إفاقتها.

اقتربت من جسدها حتَّى كادت تلامسه، وهَمَّت أن تغطس فيه لتعود إلى طبيعتها، فشعرت بيدٍ ساخنة تمسك بطيفها وتكبل حركته، مع انبعاث صوتٍ رخيِمٍ تسلل إلى مسامعها من الخلف:

- مهلاً أيتها العجوز، أن لهذا الجسد الذي أنهكته السَّنون أن تسكنه قوى ترد إليه شبابه.

التفتت حولها مذعورةً لتجد نفسها أمام الرّجل ذي العينين الزرقاوين اللتين زاد بريقهما كمصابيح الزينة، وقد تحول مثلها إلى طيفٍ أثيري لا يراه إلا من يماثله في حالته دون أن تشعر بهما (آيات)، فسألته برجفة:

- من أنت؟

حملق في عينيها، وأجاب بصوتٍ عميق:

- أنا التساؤلات التي تدوي في عقول البشر دون أن يجروا أغلبهم على الإفصاح عنها والجهر بها؛ خوفاً من القداسة الزائفة والكهنوت



قلبها الذي ينتفض وينبض بسرعةٍ شديدة.. الدَّماء وهي تتدفق في الشرايين والأوردة..

حاولت أن تتحرك بطيفها الأثيري لتستحوذ على جسدها المادي وتعيده إلى نفوذ سيطرتها من جديد، فشعرت أنها سلبية الإرادة، عديمة القدرة، ترقد في قاع الجسد لا حول لها ولا قوة، فيما ذهب طيف الرّجل ذي العينين الزرقاوين إلى قمة الجسد ليخاطبها من عند الرأس قائلاً بصوتٍ مليء بالقسوة:

- من الآن أنتِ هنا مجرد ضيفة لا عليها سوى المشاهدة والاستماع في صمت؛ فقد اقتربت ساعة العرض، وأعدك بأن يكون مبهراً.

في تلك الأثناء، عقدت (آيات) حاجبها في توتر وهي تشاهد جسد (دميانة) الذي انتفض فجأة وأخذ يمور حتّى تقوَّس مع ارتفاع البطن الذي كاد يلامس السقف، بينما تشنّجت الأطراف بشدة، ثم تراجعَت الفتاة في فزعٍ شديدٍ حين خرجت من فم العجوز صرخةً رهيبية كادت تصم أذنيها، قبل أن تخمد حركتها تماماً وقد تفصَّد جبينها بالعرق، ونافس وجهها الممتقع وجوه الموق.

وبعد ثوانٍ، فتحت (دميانة) عينيها اللتين بدتا مختلفتين، وإن لم تستطع (آيات) أن تحدد وجه الاختلاف لتكتفي بهزها ومحاولة إفافتها وهي تهتف فيها بتوتر لا مثيل له:

- دميانة.. دميانة.. هل أنتِ بخير؟

لكن (دميانة) ظلَّت تتطلع إلى ملامحها بعينين جاحظتين تبعثان على الخوف لمن يراها دون أن تحرك ساكناً، ثم أفرجت فجأة عن ابتسامة بدت مريبة وأجابت بصوت اخشنت نبراته:

- اطمئني يا عزيزتي، لم أكن يوماً أفضل حالاً من الآن.

\* \* \*

## (13)

"حمداً لله على سلامتك يا ريمون بك".

قالها (نصحي) وهو يدخل مع سيده الفيلا ذات المعالم التراثية العريقة التي يمتلكها في منطقة (كفر عبده)، إحدى أرقى المناطق السكنية بالإسكندرية.

تجاهل (ريمون) كلمات (نصحي) وهو يدخل فيلته مرتدياً نظارة شمسية رافعاً وجهه لأعلى، وعلى ملامحه التجهّم والضيّق، بينما وضع ذراعه اليسرى المعبسة في حامل طبي، وعلى يساره الرّجل ذو العينين الزرقاوين، بعد أن غادر طيفه الأثيري جسد (دميانة) وترك روحها حبيسة داخله، مكبلة الحركة والانتشار، ليصبح جسدها حياً مع إيقاف التنفيذ.

كانت رائحة الفيلا مبهجة بعد أن تولى الخدم رش أفخر أنواع معطر الهواء وتنظيف أرضيتها المرمرية البرّاقة ذات الطّابع التُّركي، وترتيب أثاثاتها ذات الطّابع الكلاسيكي، ومماثلها وأنتيكاتها النادرة، بخلاف الأسلحة العتيقة ذات الطّابع القديم الأثري المعلقة على الحيطان، لكن (ريمون) الذي اعتاد ذلك ولم يبال به حين جلس في ردهة الفيلا متأملاً الرّجل ذا العينين الزرقاوين وقد وضع ساقاً فوق ساقٍ مُنفثاً دخان سيجاره، وهو يقول من بين سحابة الدخان التي تحيط به:

- لقد انتهت مشكلتك مع الشّرطة تماماً بعد أن دفع (نُصحي) المعلوم لرجال المعمل الجنائي الذين ستؤكّد تقاريرهم ما قاله في استجوابه بشأن ما حدث، وسيصدر رئيس العقيد يحيى بالتعاون مع رجالنا في النيابة أمراً

باعتيال بعض الشّباب الملتحينَ بتهمة تدمير مَلْهاك، وقتل وإصابة بعض رجالك، بخلاف الشّروع في قتلك، وسيتكفل رجالنا في القضاء بالباقي. تطلع إليه (ريمون) مبهورًا، وسأله وعلى ملامحه أقصى ما يملك الوجه البشري من قدرة على التعبير عن الذّهول:

- لقد أعطيتنا قائمة بأسماء رُتب وأصحاب مناصب رفيعة كنا على يقينٍ من نزاهتهم ولم نحاول حتّى الاقتراب منهم يومًا، فكيف استطعت تجنيدهم بهذه السّرعة؟

- هم جنودي مُنذُ زمن.. فأنا أعرف كل خائن وغير شريف في هذا البلد مهما كانت جودة القناع الذي يُخفي وراءه حقيقته.. وللمرّة الأخيرة أحذرك من أن تسألني مجددًا خلال الأيام المقبلة مهما بدا ما أمرك به غريبًا أو عجز عقلك عن استيعابه.. فبدون الإيقاع بفتاتك وصاحبها الوسيم واستعادة أسطواناتك المدمجة سيظلّ جبل المشنقة يتأرجح أمام رقبتك.

جفّ ريق (ريمون) وامتقع وجهه، وهو يغمغم بصوتٍ خفيضٍ مرتعد:

- سأفعل كل ما تأمرني به، لكن حاول أن تجعل ذلك سريعًا! أخذ الرّجل المريب نفسًا عميقًا من السيجار، ثم أخرجته من فمه وملأ به أرجاء المكان وهو يردد بغلّ شديدٍ دون أن ينظر لأحد وكأنّه يُحدّث نفسه:

- كل من يسكن هذا الجسد الطّيني يُحاط بنقاط الضّعف.. فقط أنتظر اللحظة المناسبة للانقراض.

\* \* \*

لم يدرِ الشّاب الوسيم كم مرّ من الوقت أثناء تلك الجولة الإجمالية التي قادته إليها الظروف في شوارع الإسكندرية وأزقتها.. أخذت عيناه تتأملان كل التّفاصيل المحدقة به بنظراتٍ ذاهلة، وقد اشتركت جميعها، صغيرها وكبيرها، في إبهاره بهذا العالم الجديد عليه،

وهو يبذل قصارى جهده ليتذكّر ملامح وتفاصيل عامله الأصلي الذي أتى منه بلا جدوى.

وجوه البشّر المتباينة، وأعينهم التي تنطق بالكثير مما يدور في أعماقهم لكن بلغة لا تفهمها سوى قلةٍ قليلةٍ من الخلائق الذين كان منهم، دون أن يدري متى وكيف تعلمها، لكنه على الأقلّ منزعج بشدة وهو يُعريّ -دون قصد- كل من يقع عليهم ناظره ويكشف مكوناتهم، حتّى أصابته أصواتهم الدّاخلية بالصداع!

رائحة اليود التي سار خلفها كالمجذوب حتّى ملأت نفسه بالراحة، والسّكينة، والهدوء النسبي الذي خفف من فوران نفسه المحمومة كبركان، ثم خمدت نيرانها وحُممها تمامًا حين وجد نفسه أمام البحر حتّى كاد يرى وجه الإله على صفحته العريضة الممتدة مد البصر، بعد أن رأى سحره وإبداعه في موجاته العتية المتعاقبة باستمرارية لا تعرف كلمة النّهاية، وسماءه التي تلامس الماء عند الأفق وقد رُفعت بلا عمْد.

خفق قلبه بذكر الخالق الذي يحتجب خلف كل تلك التّفاصيل بشكلٍ أو بآخر، ويقود إليها وتقود إليه ليبقى عزيزًا على الرؤية، صعب المنال، محتجبًا بالعزّة، لكنه حتمًا هنا يسمعه وهو يسأل داخل نفسه: من أنا؟ ولماذا أتيت إلى هنا؟ وكيف فعلت ما فعلت؟ ومتى اكتسبت تلك القدرات؟! تلك القدرات؟!!

انتظر الإجابة طويلًا وقد سكن في مكانه واقفًا بلا حراك كتمثال نحته صانعه ناظرًا نحو البحر، غير عابئٍ أو مبالٍ ببائعي الترمس، والفول النابت، والشاي، وعربات الحنطور، وأذرع المحبين الملتفة على أكتاف محبوباتهم على الكورنيش، فزاد سكونه ونظراته العميقة من جماله الأسطوري الذي تعلقت به أعين المارة بلا استثناء من رجال أو نساء، لا سيما مع ذلك الهدهد الجميل الذي حط على كتفه وأخذ ينظف نفسه بطمأنينة وكأنّه واقفٌ فوق قمة جبل، لكن الشّاب استمع إلى نداء ما كان ليتجاهله مهما كانت قوته، حين شعر بألمٍ شديدٍ في معدته الخاوية التي لم يدخلها شيءٍ قادمٍ من جوفه مُنذُ أن وجد نفسه في المقابر!

تفاقت حدة الألم بسرعةٍ متناهيةٍ، جعلته يقبض بكفه على بطنه، ويغادر وقفته باحثًا بعينه عما يمكن أن يُسكّن به هذا الألم، ليسعى ميمًا ويسارًا على الكورنيش ذهابًا وإيابًا، وفي المرّة السابعة وجد الفتاة الصّغيرة التي قابلها على السّطح، وفي يدها كيس ورقي عليه علامة (ماكدونالدز).

نظر إليها وقد جرى ريقه، فأشرق وجهها الأسمر بابتسامةٍ ملائكيةٍ وصفى أسنان ناصعي البياض..

"أحدهم منحني الوجبة المُفرحة ومعها العروسة التي كنت أريدها حينَ شاهدي أنظر نحوه هو وأسرته من خلف زجاج المحل".

قالتها براءة وعفويةٍ وهي تتجه نحوه.. فتحت الكيس وأخذت منه باكت البطاطس ودسّته في يده متطلعةً إلى وجهه بذات الابتسامة الخلابيّة، ثم انصرفت في صمت.

تلاّأت عيناه بالدّمع وهو ينظر لأصابع البطاطس بخجل متسمّرًا في مكانه، ثم مد إصبعيه الإبهام والسبابة ببطء وكأنّه يكتشف هذا الشيء لأول مرّة، قبل أن يلتقط أول إصبع، ثم لم يشعر بباقي الأصابع إلا حينَ دسّ يده في الباكيت ووجده خاويًا على عروشه.

جاءه النداء الثاني من الجسد الذي فرغت شحنته وصار في حاجةٍ ماسيةٍ للراحة، بعد قضاء ليلة ليلاء من الخيالات العارية وصرخات الشبق، ودقائق معدودات من التّوم المتقطع، غير الكافي لإمداد الجسم بحاجته للسكون والراحة.

أوى ظهره للبحر ونظر للصف المقابل حيثُ تمثال (سعد زغلول) وفندقا (سيسيل) و(إمبريال)، ومبنى الغرفة التجاريّة، وحلواني (ديليس) ذو الأصول اليونانية الذي تعود نشأته لمائة عام مضت، ولم يجد بُدًا من العودة لشارع (النبّي دانيال) من جديد..

عبر الطّريق بحُطى مُنهَكةً، حاول أن يوفّر فيها الرمق الأخير من طاقته كهاتفٍ خلويٍ صارت شحنته من الكهرباء 5% فقط، ولمعت في ذهنه ساحة مسجد (النبّي دانيال) التي كان العشرات يفتشونها بالأمس،

لتقوده قدماه نحو الجامع الذي قرر أن يتخذهُ ملاذاً ويحصل فيه على جرعةٍ من الراحة، بعد أن صارت عودته لحجرة (دميانة) تعني تهافت النّاس عليه كواحد من الأولياء أو القديسين.

خلع حذاءه ودخل مع الدّاخلين، وأخذ يتأمل المكان ناظرًا حوله بدهشة، وهو يتساءل في أعماقه: كيف يبدو المسجد من الدّاخل أوسع وأكثر رحابةً بكثير مما يبدو عليه من الخارج، حتّى إنه شعر بالجدران تتحرك وتتمدد لاستيعاب آلاف من البشّر قد يأتون في أي لحظة، غير أنهم لا يأتون!

وقع بصره على باب المقصورة الذي يؤدي إلى مرقد الجثمان المدفون أسفل المسجد بعمق نحو 5 أمتار، وشعر بعبق روحاني ينبع منها فسار تجاهه وهبط درجات السلم الخشبي الحلزوني بخطواتٍ بطيئةٍ متأنيةٍ، ليجد ضريحًا مغطى بقماش أخضر يبعث على الراحة والطمأنينة، ووضعت عليه لائحةٌ مكتوبٌ عليها بخط مزخرف: ﴿إِنَّا أَوْلِيَاءُ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾<sup>(1)</sup> وتحت الآية الكريمة عبارة تقول: هذا مقام نبي الله دانيال والحكيم لقمان.. مُهداة من السيّد أحمد الجمل في 28 شعبان 1386هـ - الإسكندرية، وعلى الضّريح نفسه تراصت مصاحف، وأوراق بالية عليها أورد وأذكار وكتيبات دينية.

مرت ثوانٍ تأمل فيها الشّاب الضّريح، ثم جلس على الأرض جواره ومدد جسده متوسدًا ذراعه اليمنى، قبل أن يسلم جفنيه للنعاس، جامعًا كيانه وفكره ووعيه، ذاهبًا بها لعالم الرّؤى والأحلام.

\* \* \*

زفر العقيد (يحيى) زفرةً حارةً وهو يسير مع مساعده في أروقة مطار (برج العرب) بالإسكندرية قائلًا في غضبٍ جم:

- إنه أسوأ أيام حياتي بلا شك.. تغيير مفاجئ في سير أحداث قضية يُدرك أغبى عسكري أن وراءها أمرًا مريبًا، ثم تكليفي المفاجئ بحراسة

(1) سورة يونس، الآية ٢٦

التفت (يحيى) حيثُ ينظر مساعده ليلمح شيخا طاعنًا في السن محني الظهر قليلاً، تمسك كفه المعروقة بعضا يتكئ عليها في السير وقد ارتدى معطفًا أسود طويلًا، من تحته قميصٌ أبيض، وعلى رأسه قبعةٌ كبيرةٌ تُشبه تلك التي كان يرتديها أبطال هوليوود في أفلام الـ"كاوبوي"، ومن أسفلها تتدلى خصلاتٌ حلزونيةٌ طويلةٌ، فيما ضُفّر بعض شعيرات لحيته الطويلة على الجانبين.

بعد أن فحصه من قمة رأسه حتّى أخمص قدميه غمغم العقيد وهو يتجه نحوّه:

- قياداتنا أخبرونا بأن نُظهر شيئًا من الود في استقباله باعتباره من أصل مصري.. تَبَّأ للميري الذي يحرمنا من النقاش وإبداء الرأي مع من هم أعلى رتبة.. كنت أريد أن أصرخ فيهم: هذا يؤكد حقارة أصله.. مؤكّد أن جدوده كانوا من الرعايا الذين تركوا وطنهم الأم الذي تربوا في خيراته وتمرغوا في نعمه من أجل حلمٍ عنصري قائم على تعصّبٍ ديني صهيوني.. ونحن.. نُكلّف بحراسته.. يا للسخافة!

لم يعلق الضابط على كلمات رئيسه بعد أن أصبح أمام الحاخام الذي تقدم الوفد بخطواتٍ، قبل أن يُفاجأ (يحيى) بمساعده يقول للوفد بابتسامَةٍ بدت حقيقية:

- روش هاشناه<sup>(1)</sup> سعيد.

ابتسم الحاخام وحيّاه على الطريقة العبرية قائلاً:

- فليكتب اسمك هذا العام في سجل الحياة السعيدة.  
رمى العقيد مساعده بنظرةٍ ناريةٍ، وحينَ تبادل مع الحاخام النظر، تطلع كل منهما للآخر بنظرةٍ طويلةٍ كانت تحتاج إلى مصور سينمائي ومخرجٍ محترفٍ لتخليدها للتاريخ..

(1) روش هاشناه: تعني رأس السنة العبرية، وهو عيد يهودي يحتفل به اليهود كل عام في الأول والثاني من شهر تشرية العبري الذي يوافق في التقويم الميلادي شهر سبتمبر وأحياناً مطلع أكتوبر

وتأمين حاخام إسرائيلي جاء ليُدنّس أرضنا ويحتفل مع حفنةٍ من اليهود المتبنقين في الإسكندرية بعيد رأس السنة العبرية وكأنّهم يريدون استعبادي وإقحامي في أمرٍ آخر يشغلني.. هل رأيت أمرًا يبعث على القياء أكثر من ذلك؟ أوصل بنا الحد لدرجة استقبال إسرائيليين يُقيمون شعائرهم على أرضنا؟  
أجابه مساعده:

- إنها قواعد دينهم يا سيدي.. فمن تبقى منهم على أرضنا بعد قيام دولة إسرائيل أخذ يتآكل حتّى صار اليوم في مدينتنا 22 يهوديًا فقط، مقسمين بين 4 رجال و18 سيدة، جميعهم من الكهول والعجزة، وتنحصر أعمارهم بين السبعينات والتسعينات، حتّى إن نصفهم لا يغادر سكنه بسبب الحالة الصحية الحرجة، ويحتاج النّصاب اللازم للصلاة إلى 10 رجال على الأقل، فضلًا عن حاخام لإتمام الطقس حسب العقيدة اليهودية؛ لذا يتم تعويض النقص العددي بدعوة اليهود الأجانب الموجودين في مصر، سواء العاملين بالقنصليات أو المصالح الأجنبية، أو استقدام اليهود من إسرائيل أحيانًا إذا لزم الأمر، مثلما حدث هذه المرة.

رفع العقيد (يحيى) حاجبه بدهشةٍ، فابتسم مساعده وعقّب سريعًا:

- لقد عرفت الكثير عن هؤلاء القوم بحكم مشاركاتي المتعددة في تأمينهم وحمايتهم في المواسم والأعياد اليهودية الماضية.. في المرة الأولى كان لديّ نفس شعورك تمامًا، لكن مع الوقت رأيت النّصف المملوء من الكوب حينَ تفتحت عيناى على عالم غريب ومثير لا نعرف عنه سوى الصهيونية والثأر والحروب والدّم والاحتلال، فيما له جذور أخرى تمتد لأبناء ورسول تفوق قصصهم الممتعة حكايات ألف ليلة وليلة وباقي الأساطير.. هل تعلم أن...

بتر عبارته فجأة ورسم على ملامح وجهه الصرامة والجدية وهو يقول للعقيد سريعًا:

- فلنؤجل كلامنا لوقتٍ لاحق، فقد وصل الحاخام مع الوفد الديني الإسرائيلي.

الحاخام، يتأمل ذلك العقيد المصري الذي حاول رسم ابتسامته مصطنعة تُعبر عن الترحيب، لكن كوامن القلب تسلتت رغماً عنها إلى العينين..

والعقيد، يستشف تلك المشاعر المضطربة ونظرات الزيف في عين الحاخام الإسرائيلي الذي بدا وكأنه يبحث عن شيء فقدته، رغم أنه حط رحاله للتو، ووصل إلى تلك الأرض التي لم يأخذ أحدٌ رأيها في أن يطأها بقدميه..

ثم.. مصافحة بدت باردة، رسمية، وكلمات ترحيب مزيفة، تحمل في ظاهرها التملق والكذب، قبل أن ينتهي الأمر بركوب الحاخام مع العقيد (يحيى) في سيارة، فيما ركب مساعده مع باقي أعضاء الوفد الديني في سيارة أخرى لتأمينهم.

انطلقت السيارات من المطار، في طريقهما إلى معبد (إياهو حنابي) بشارع (النبي دانيال)، ليخفي (يحيى) الذي يجلس في المقعد الأمامي إلى جوار السائق نظراته الحانقة ومشاعره البغيضة خلف نظراته الشمسية، ملتزمًا بفضيلة الصمت في لحظاتٍ قد يكلفه فيها الكلام الكثير، لكن الحاخام بادره بالكلام من المقعد الخلفي بلهجةٍ حانية:

- بعد إذنك يا بُني.. أريد زيارة صديقٍ قديمٍ في شارع سعد زغلول قبل الذهاب للمعبد.

أدار (يحيى) عنقه نحوّه وتأمّله لثوانٍ قبل أن يقول بلهجةٍ رسمية:

- لكنك لم تبلغنا بتلك الزيارة من قبل يا سيد موريس.. كان من الواجب أن يحدث ذلك لتأمينك جيدًا.

- ثمة أمور لا تدري أنك ستقوم بها مسبقًا إلا حين يأخذك إليها حينئذٍ جارفًا، ثم إنني أريد أن تكون مفاجأة.

- شغلنا لا يعرف المفاجآت يا سيدي.

- شغلكم قائم على توقع المفاجآت والتعامل معها يا ولدي.

شعر (يحيى) بغصّةٍ شديدةٍ في حلقه عندما ردد الحاخام كلمة (ولدي)، وابتلعها أذناه على مَضِضٍ دون أن يدري أن ملامح وجهه جاشت بما يُحاول أن يخفيه مُنذُ أن بدأ اللقاء، فابتسم الحاخام وأردف:

- آسف إن ضابقتك كلمة (ولدي)، فلو كنتُ في موقفك لربما انتابني الشّعور نفسه، لكن... من كان مجبرًا على الاختيار كان عليه التنازل.. ستفهم يومًا كلماتي.

عقد (يحيى) حاجبيه، وقد أنبأته كلمات الحاخام أن رغبته في الزيارة تُخفي وراءها سرًّا دفينًا، لكن شيئًا ما لا يدري كنهه جعله يهز رأسه بالموافقة قائلًا:

- لك ما تريد سيد موريس.

ثم نظر إلى ساعته وأردف:

- لكن من المفترض أنك جئت لإقامة الصلاة في الكنيس والاحتفال بالعيد الذي سيبدأ قبل غروب الشمس بحوالي ساعة.. وعلى حد علمي؛ هذه زيارتك الأولى لمصر مُنذُ أن هاجرت إلى إسرائيل.. فهل سيمهلك الوقت الفرصة للعثور على صديقك الذي ربما يكون قد غيّر محل إقامته أو توفاه الله؟

ارتعشت خلجات الحاخام وقال بلهجةٍ حزينةٍ تتشبث بالأمل:

- فلن فعل ما علينا فعله، ونترك للرب القرار الأخير.

\* \* \*

لم يبال (موريس) بنظرات الدهشة والاستنكار والبُغض التي صوّبها نحوّه المارة في شارع (سعد زغلول) فور مغادرته السيارة، وقد التصقت العيون بهيئته اليهودية غير مُصدقةٍ أن يهوديًا يسير بهيئته الصريحة المستفزة بين ظهرائهم، فيما بدا غير مبالٍ بردود الأفعال التي قد تكلفه حياته نفسها.

كانت على ملامح وجهه دهشة أكبر بكثير وهو يدور حول نفسه متكئًا على عصاه، متأملًا ما فعلته الأيام والسّنون من تغييراتٍ جذريةٍ



في شكل الشّارع الذي شهد أجمل أيام عمره، كل شيء تبدل وتغير وكأَنه في مدينةٍ غير المدينة..

كانت الإسكندرية وطناً يعيش فيه، وتسير بكل تفاصيلها وملامحها في دمه وهو بعيدٌ عنها، والآن يشعر على أرضها وأمام العقار الذي تربى فيه بالغربة!

"الإسكندرية هي الأميرة والبغي، وهي المدينة الملكية والمؤخرة اللواتية، إنها لن تتغير أبداً طالما استمرت الأجناس المختلفة تضطّرم فيها مثل عصير العنب الذي يتخمر في الراقود، وطالما ظلّت فيها الشوارع والميادين تتدفق وتنبجس، وتتخمر فيها هذه الأهواء المختلفة والضغائن المتباينة، والتي سرعان ما تهدأ فجأة، إنها الصّحراء المغطاة بعظام هؤلاء المنفيين فيها".

لا تزال كلمات الكاتب الإنجليزي (لورانس داريل) تسكن مخيلته حين قرأ رائعته (رباعية الإسكندرية) في الستينيات، وصدق أن الإسكندرية لن تتغير أبداً.. كان يُكذّب كل من لحق به في إسرائيل من اليهود المصريين، ويخبرونه بأن الإسكندرية التي عرفوها وتربوها فيها اندثرت في قبر الزمن، وقامت على أنقاضها مدينة أخرى لا يعرفونها ولا تعرفهم.. حين قرأ تلك الرباعية رفعها في الوجوه وصاح: ها هي الإسكندرية في أنظار الإنجليز الذين يقولون مثلي: "لن تتغير أبداً"، فأكملوا له باقي الجملة: "طالما استمرت الأجناس المختلفة تضطّرم فيها" .. لكنها اليوم لا تحتمل حتّى بني الجنس الواحد من المصريين، أو بمعنى أدق: هم الذين لا يحتلمون أنفسهم!

الآن أيقن أنها استسلمت لفعل الزمن، وهي التي كانت في نظره مُحصّنة، أبيّة على التغيير.

تولى العقيد (يحيى) هسّ البشر حين هموا بالتجمهر وأطالوا النّظر، وأخرس السنّة الصبية الصغار حين حاولت الغمز واللمز، لينفضّ التجمع قبل أن يبدأ وتسكت الأفواه خوفاً من جسده الضخم، وهيئته المهيبه ونبرة صوته الغليظة الرنانة، ونظراته المتجهمة التي كانت أكثر سواداً

من نظارته الشّمسية ذات العدسات العاكسة كمرآة.. والأهم من ذلك كله؛ جراب المسدس الذي بدا من تحت جاكيت بذلته.. فلغة السلاح هي الأكثر قدرةً على الإقناع أحياناً.

صعد درجات السلم وحده بعد أن طلب من العقيد وألحّ في طلبه أن يتركه بمفرده في هذا اللقاء لحاجةٍ في نفس (يعقوب).

مع كل درجة سلّم كان يصعداها كان يهبط درجةً في درك الذكريات والأيام الخوالي لتهب عليه نسائم الماضي، وتطير معها طاقيته، ولحيته، وشعرات المشيب، وتسقط سنوات العجز والكهولة من على عاتقيه ويعود من جديد طفلاً غصّاً ببراءة ونقاء الأمس البعيد.

استعادت درجات السلم نظافتها ولمعانها، وعادت الألوان الزاهية لحوائط الجدران، والتأم زجاج نوافذ السلم المكسور، وخلا خشب "الدرابزين" من الخدوش والتآكل واستعاد بريقه البنيّ، وهو يرى (دميانة) تقفز الدرجات ركضاً وهو يركض وراءها.

تسللت إلى أذنيه أصوات الضحكات البريئة الصاخبة قبل أن يهتك عرضها تبدل الظروف والأحوال، ثم اصطبغ كل شيء حوله بالدم حين وصل إلى السطح.

مال جانباً بذعر ليتفادى انقضاضة (جرجس) الأشبه باندفاعه ثور هائج، لكن (جرجس) تخطاه وقد سلط ناظره على ذلك الصبي الذي يُناور عزرائيل وهو يصرخ في هولٍ وفزعٍ، قبل أن يغير الصبي موضعه في اللحظة الأخيرة ويتركه يلتحم بالهواء ويأخذه بحضنٍ أخير سبح بعده في الفراغ خلال رحلة ذات اتجاهٍ واحدٍ للقاع، أسلم بعدها روحه يدًا بيدٍ لملك الموت الذي حضر، وأبى أن ينصرف خالي الوفاض.

هزّ الحاخام رأسه بقوةٍ محاولاً طرد هذا المشهد الذي تزوج بذاكرته زواجاً كاثوليكياً لا انفصال فيه، دون أن تنجح السنون الطويلة في محوه، قبل أن تطرق يده المرتعشة على باب الحجرة.

إن هي إلا ثوانٍ حتّى فتحت له (آيات) التي شهقت فور رؤيته وهي تتراجع خطوةً للخلف وقد اتسعت عيناها من هيئته التي ما





كانت تتخيل أن تراها على الحقيقة، أما هو فقد سقط قلبه بين قدميه وهو يسألها بصوتٍ مرتجفٍ وقد تلاعبت الاحتمالات بأعصابه، وكأن القدر يلصق برأسه فوهة مسدس ذات ساقية دوّارة، ويلعب معه لعبة الروليت الروسي:

- دميانة موجودة؟

ظلت على دهشتها ثواني حاولت أن تستوعب فيها الموقف، وهي تعتصر ذاكرتها حول أي معلومة ذكرتها لها (دميانة) من قبل عن معرفتها بشخص يهودي دون جدوى..  
"هل هي على قيد الحياة؟"

أعاد (موريس) سؤاله بقلبٍ مرتجفٍ، فهزت رأسها إيجابًا ببطء مُتمتمةً بدهشة:

- نعم.

ثم سألته بتحفظ:

- من أنت؟

- موريس زي؛ صديق قديم جاء لمقابلتها.

- لكنها نائمة الآن.

- فقط أخبرها باسمي ولنر رد فعلها.. فقد طال الانتظار سنوات فاقت عمرك كله.. هل أنتِ ابنتها؟

- لست ابنتها لكنها أُمي على كل حال.. اجلس حتى أوقظها!

قالت جملتها الأخيرة وهي تشير نحو المصطبة، فجلس مُتكئًا على عصاه، وفي الدّاخل هزت (آيات) كتف (دميانة) لتوقظها عبثًا، دون أن تدري أن المسيطر على الجسد الآن قد غادره ليوصل غيه في مكانٍ آخر، تاركًا هذا الجسد بروحٍ حبيسةٍ معذبةٍ داخله، لم تعد تملك السلطان والنفوذ عليه.

وداخل الجسد، كانت (دميانة) تسمع (آيات) وهي تردد اسمها بنبرةٍ تصاعديّةٍ أخذت تتعالى بتناسُبٍ طردي مع قوة الهز وقد انتابها رغبة

مُلّحة في إيقافها من باب الفضول لتعرف أي صلة تربطها بهذا اليهودي الذي يجلس في الخارج.

انتفضت روح (دميانة) الحبيسة داخل جسدها المهزوم حين وصل إلى مسامعها صوت (آيات) الرنان البعيد ذو الأحرف البطيئة المتقطعة، وكأنّه صدى صوت يأتي من كهف جبل قائلًا: "يقول إنه صديق قديم اسمه موريس زي".

وظلّ طيف (دميانة) الأثري يصرخُ بكل ما أوتيت من قوة دون أن يسمعا أو يشعر بها أحدٌ كهاتف يتلقى أهم مكالمة ينتظرها صاحبه على الإطلاق، لكنه كان على الوضع الصامت!

وبعد دقائق، خرجت (آيات) من الحجرة بملامح عابسةٍ، وقالت بخيبة أمل:

- للأسف لا تريد أن تصحو، حتى بعدما أخبرتها باسمك.

امتقع وجهه غير مصدق أذنيه، ثم فجأة تهللت أساريره وهو ينظر إلى ما خلف كتفها راسمًا على وجهه أقصى ما يملك البشّر أن يرسموه في التعبير عن السعادة المطلقة، كمن انتهى للتو من حساب يوم القيامة وسمع اسمه مع أهل الجنّة، وأي جنة على الأرض كانت أعلى عنده من (دميانة)!

لكن سرعان ما يحل الألم مكان السعادة حين تظهر الحقيقة كاملة.. وحين يتضح أن (دميانة) التي لاتزال حية تُرزق قد صارت بهذا الحال المُزري!

لم يكن يعلم كيف بذلت ما فاق الخيال، فقط لتنهض قائمة، وتغادر سريرها بخطواتٍ ثقيلةٍ متناقلة، وظهرٍ محني كمن تحمل على عاتقها الكرة الأرضية بأكملها.

كانت تطير فرحًا داخلها، وتهتف بأسمى معاني الحب واللهفة، لكن ملامحها الخارجية حملت البؤس والشقاء في وجهٍ لم تعد قادرةً على التحكم في قسماته، ل يبدو عابسًا مكفهرًا.



بلهجة مليئةٍ بالعافية والقوة، وطلبت مني أن أتركها نائمةً ولا أوقظها مهما حدث.. لا أعلم ما الذي أصابها.

وضع (موريس) يده تحت ذقن (دميانه) ورفع وجهها إليه قائلاً:

- عودي كما كنتِ من أجلي ولو للحظةٍ واحدةٍ أسمع فيها صوتك الذي افتقدته كثيراً.. هيا يا دميانه لا تخذليني.. حلفتك بالمسيح الذي اختلفنا على دمائه وتقاربنا في محبته أن تفعلها!

هزّت (آيات) رأسها وقد شعرت أنها تحلم.. مُنذُ متى وكان للمسيح مكاناً في حياة هذه الكافرة العجوز التي طالما تفاخرت بكراهيتها للأديان؟!

"ما الخطب يا سيد موريس؟!"

قالها العقيد (يحيى) وهو ينظر للمشهد بدهشةٍ شديدةٍ بعد أن شعر بتأخر الحاخام وصعد للاطمئنان عليه، فنظر إليه الحاخام من مكانه بخجلٍ وحزنٍ قبل أن يُحاول النهوض وتعاونه (آيات) في النهوض بـ(دميانه)، وقال وهو يلتقط عصاه من على الأرض:

- لا شيء يا سيادة العقيد.. يبدو أن جاري القديمة في حالةٍ صحيةٍ سيئةٍ.

ثم نظر إلى (آيات) وقال بنبرةٍ هزيلةٍ من فرط الحزن:

- سأعود زيارتها يا ابنتي بعد الانتهاء من الاحتفال برأس السنة العبرية.. إذا احتجت شيئاً فستجديني في معبد إياهو حنابي رهن إشارتك.

ثم نظر إلى (يحيى)، وتابع:

- هيا يا بُني.. أقصد يا سيادة العقيد.

\* \* \*

"أوحشتني يا موريس.. كنت على يقين من أن أيام العمر الفاني لن تنقضي قبل أن يصلح القدر ما بدر منه في حقنا".

قالتها روحها الداخليّة بسعادة الكون، لكن لسانها الخارجي خذلها في النطق مع ملامح وجهها المتحجر الذي ينظر للأرض، لتتحول كلمات الروح إلى همهمةٍ غريبةٍ غير مفهومة، تبعثرت على لسان الجسد الذي أخذ يئن ويذوم كالممسوسين، قبل أن تسقط على الأرض.

انتفض جسد (موريس) ودبّ فيه شاباً مفاجئاً حين ترك عصاه وهول نحوها بخفةٍ لا تناسب كهولته، لتلتقي الأيدي وتتعانق الأصابع من جديد.. ومع الالتقاء، التحم الموجب بالسالب وسرى بينهما تيار من المشاعر القديمة المقطوعة مُنذُ زمنٍ، بعد أن حان وقت وصلها..

التحم الماضي بالحاضر وصار المستقبل مستعداً للظهور بعد أن أظلتته غيمةٌ كثيفةٌ أعمت العيون.

لم يسمع صوتها الداخلي الحبيس وهي تصرخ:

- أُنقذني يا حبيب الأمس.. أرشدني كيف أسترد نفسي لتنفك عقدة لساني وتحرر ذراعاي حتّى أحتويك بينهما.

لكنّ عينيها اللتين لمعتا بالدمع أخبرتاها بأن ثمة أمراً خفياً جعلها على غير ما يُرام.. رفع ذقنها ونظر إلى حدقتيها اللتين طالما فُتن بهما سحرًا ورأى فيهما الأمل والسكينة حين كان صبيّاً، فإذا بهما اليوم -لسبب مجهول- مصدرٌ لضيق النفس وانقباض القلب.. ثمة شرور وجحيم مستعر يطل منهما فيلغح أرواح الناظرين بنيرانٍ غير مرئيةٍ للعيون.. تشبثت بيديه أكثر وكأَنَّها تريد أن تحكي لها بلمساتها المتشعبة ما عجز لسأئها عن البوح به في تلك الهنيهات الحزينة، ثم بدأت قواها تخور، وارتخت الأصابع ولم تعد قادرةً على الانقباض!

كل هذا و(آيات) تتابع ما يحدث غير مُصدقةٍ عينيها، قبل أن تردف:

- حتّى الأمس كانت في أفضل حال، ثم تعرضت لوعكةٍ صحيةٍ في الصبح فقدت على أثرها الوعي، وحينَ أفاقت أخبرتني بأنها بخير،



- عبد الرسول محمد.. فجميع العاملين هنا مسلمون ومعنا مُحاسب مسيحي، والجميع هنا متحابون؛ لأننا لا نُقيم علاقتنا وفقًا للعقيدة الدّينية.. فالمعبد مغلق معظم العام بحكم قلة عدد اليهود الباقيين في الإسكندرية، ولا يُهَوَّن علينا اليوم الطّويل في معبدٍ شبه مهجور من البَشَر إلا حُسن المعشر والعلاقة الطّيبة بين المسلم والمسيحي واليهودي، وجميعنا يشعر بالسّعادة حقًا عندما تأتي الوفود للاحتفال برأس السّنة اليهودي في شهر سبتمبر، بخلاف أعياد الغفران، والحانوكا، والبوريم، والمظنّة، وسمحات أورات، وعيد الفصح..

اتسعت ابتسامة الرجل وأردف:

- لقد علمت -بحكم عملي- عن هذا المكان ما يفوق معلومات من تبقى من يهود الإسكندرية أنفسهم.. فما تقف عليه قدمك الآن واحد من أقدم وأشهر المعابد اليهودية المتبقية في العالم.. شُيّد عام 1354م، وتعرّض للقصف على يد الحملة الفرنسية على مصر، عندما أمر نابليون بقصفه لإقامة حاجز رمابية للمدفعية بين حصن كوم الدكة والبحر، وأعيد بناؤه مرةً أخرى عام 1850م بتوجيه وإسهام من أسرة محمد علي مُنذُ هذه اللّحظة وجد العقيد موظفًا طيبًا بدرجة مرشدٍ سياحي تجوّل به داخل المعبد الزاخر بأعمدةٍ رخاميةٍ مرتفعةٍ ذات أسلوبٍ إيطالي ولافئاتٍ نُحاسيةٍ تحمل أسماء حراسه الذكور، ومقاعد تسع أكثر من 700 شخص، بخلاف مقاعد إضافية للسيدات في الدّور العلوي.. وأشار (عبد الرسول) عند مقدمة المبنى إلى غرفةٍ مغلقةٍ أخبره بأنها تحتوي على 30 لوحًا من ألواح التّوراة التي تم جمعها من المعابد الأخرى في الإسكندرية قبل إغلاقها وبيعها.

"حتّى عام 1930م كان هناك 20 معبدًا في الإسكندرية تنتمي إلى مجموعات ومجتمعات متباينة بين يهود مغاربة وأتراك وإيطاليين وإسبان وفرنسيين ويهود مستعربين، مثل معبد إياهو حزان بشارع فاطمة اليوسف في حي سبورتنج، ومعبد جرين الذي شيّدته عائلة جرين في حي محرم بك، ومعبد يعقوب ساسون في جليم، ومعبد كاسترو الذي أنشأه موسى كاسترو في حي محرم بك، ومعبد نزاح إسرائيل الأشكنازي،

## (14)

استقبل (إبراهيم منير)، رئيس الطائفة اليهودية بالإسكندرية، ذو العمر الخمسيني، الحاخام الإسرائيلي والوفد اليهودي بحفاوةٍ شديدةٍ على باب معبد إياهو حناي الذي يطلق عليه السكندريين أيضًا اسم معبد النبي دانيال.. كما صافح العقيد (يحيى) ومساعدته بابتسامةٍ حار في فَمَهما رجل الأمن الذي لا يُفرق بين كراهية اليهود والكيان الصهيوني.. هل هي ابتسامةٌ ودودٌ من القلب، أم مزيفة لزوم الاستخدام الاجتماعي؟ لكنه على الأقل ردّ بواحدة "تيك أوي" تخرج وقت الحاجة لمن تضطره الظروف للتعامل معهم بحكم عمله..

تجرّد من الرسميات، وأخذ يدور حول نفسه وقد أخذته قدماه في جولةٍ غير مقصودة داخل أرجاء المعبد بشكلٍ مختلفٍ عن جولته التفقدية التي قام بها من قبل لتأمين المكان، حتّى وجد نفسه أمام حجرةٍ مُعلّقةٍ بها آيات قرآنيةٍ فعقد حاجبِيه وهو يُطالع وجه الرّجل الأصلع ذي الشعر الأبيض الجالس فيها وسأله حائرًا وهو يشير للآيات:

- ما هذا؟

ابتسم الرّجل وهو ينهض من على مكتبه قائلاً بلهجةٍ تفيض بالود:

- قل سلام عليكم أوّلاً!

ثم مدّ يده مصافحًا وهو يقول دون أن يتخلى عن ابتسامته:

- اسمي عبد الرسول، المسئول الإداري بالمعبد، وأعمل به مُنذُ 20 عامًا.

- عبد الرسول؟!



ومعبد شعار تفيله الذي أسسته عائلتا إنزاراوت وشاربيه في حي كامب شيزار.. وكان للطائفة مجلس عام يتكون من حاخام باشي، ونائب الحاخام، ورئيس، ونائبه، وسكرتير، لكن اليوم تبقى فقط هذا المعبد، ومعبد منشه الذي أسسه البارون يعقوب دي منشه عام 1860م بميدان المنشية، وكان مبنى بسيطاً مكوّنًا من طابقين، لكنه الآن متهدم ومغلق، ويحاول رئيس الطائفة اليهودية الحفاظ عليه بأي شكل؛ لأن من يسقط لا تقوم له قائمة مرة أخرى خاصة أنه غير مسجل كأثر".

قالها (عبد الرسول) وهو يواصل جولته مع العقيد (يحيى)، ثم أشار إلى عددٍ كبيرٍ من الحضور تحمل وجوههم ملامح متباينة ومختلفة الأعراق والألوان:

- كل اليهود الذين يعيشون في الإسكندرية اليوم من العجائز، معظمهم يعيشون في ملاجئ، وبعضهم يقيمون في شققهم ومعهم جليسات يدفع رواتبهن السيد إبراهيم منير من واقع مسئوليته كرئيس للطائفة اليهودية التي تمتلك العديد من العمارات والمباني المحيطة بالمعبد ويذهب ريعها للطائفة.. اليهود الباقون حتّى اليوم في مدينتنا رفضوا باتًا أن يُهاجروا إلى إسرائيل، وقالوا إن وطننا الحقيقي هنا في مصر، ولدنا فيه، وسموت على ترابه حينَ يحيى الأجل، حتّى بعد تلك الضغوط التي تعرّضوا لها حينَ هاجر أزواجهم أو زوجاتهم وأخذوا معهم أطفالهم الذين كبروا وصاروا شبابًا ورجالًا يحملون الجنسية الإسرائيلية ويأتون لزيارتهم في فتراتٍ متباعدة، لكن الوجه الطريف والمشرق في الأمر مرتبط بأولئك الذين تزوّجوا من مسلمين ومسيحيين، وصارت عائلاتهم تتشكل من أكثر من دين، سواء الجدود أو الأبناء أو الأحفاد الصغار، وكلهم يحضرون للاحتفال برأس العام هنا في المعبد، ويأكلون التفاح المغموس في العسل للاستبشار بعامٍ جديدٍ ربما يكون بطعم وصفاء العسل أيضًا، بخلاف الرمان الذي ترمز حياته الكثيرة إلى الوفرة والخير والبركات.

ثم أشار لسيدة عجوز بدت على ملامحها آثار جمالٍ قديمٍ غرب مع الزمن، وبدلت قسماته الأيام بعد أن انتزعت منه نضارته وبريقه، لتحل محله خطوطٌ معوجةٌ من التجاعيد، وقفت تتكلم بحميمية

شديدة مع (موريس) ليبدو على ملامحها التأثر الشديد والانفعال دون أن يسمع العقيد كلماتها وكأنّه يشاهد مشهدًا صامتًا، وأردف (عبد الرسول) مبتسمًا:

- هل ترى تلك السيدة التي تقف هناك؟ إنها أنجيل سليم، ملاك هجين من اليونان ولبنان، عمرها الآن 80 عامًا وتستعد لدخول الجنة.. أعرف ذلك لأنني على مدى عشريتي معها منذ سنوات لم أشعر يومًا أنني أجلس مع جسد؛ بل روح خفيفة ومرحة.. لم تكسبها الحياة مرارة الحسرة على ما قد مضى، بقدر ما أكسبتها مزيدًا من الحب وخفة الدّم.. هي مسيحية، لكنها تواظب على الحضور في كل مناسبة؛ لأنها تشم داخل هذا المعبد -حسب ما أخبرتني- رائحة الماضي وإسكندرية القدمة التي نشأت وترعرعت فيها، وتحرص على تهنئة أصدقائها اليهود العجائز الذين لم يغيرهم الزمن في علاقاتهم بها ومعاملاتهم معها مثلما غير آخرين.

كانت متزوجةً من رجلٍ يوناني يُدعى باسيلي، مات مبكرًا بعد أن ترك لها طفليها نيكولا وأنطوانيت.. ثم كبرت أنطوانيت وأصبحت خياطة شهيرة يُنادونها بمدام تونة، واكتسبت الجنسية المصرية بزواجها من سليم داود؛ رجل تركي الأصل جاء أبوه هربًا من الحرب الأهلية في تركيا.. أما نيكولا الابن الثاني لأنجيل وباسيلي فلا يزال يوناني الجنسية، يأتي كل 6 أشهر إلى مصر بتصريح إقامة.. كلهم يتحدثون اللهجة السكندرية بطلاقة، ولا تجد في أحاديثهم أثرًا للكلمة الأجنبية، وتشم في حضرتهم الرائحة الودودة لكوكتيل الجنسيات الطيبة التي جمعتها الإسكندرية بالأمس واقتربت من الاندثار اليوم.

اقترب العقيد (يحيى) من (أنجيل) ليسترق السمع لكلماتها وقد أشارت ملامحها ولغة جسدها فضوله، في تلك الأثناء التي كانت تقول وهي تُغالب دموعها:

- ما زلت لا أصدق عيني يا موريس.. مرحى يا أخ الأمس الذي حضر أخيرًا قبل ملك الموت.



ابتسم (موريس) مُعلِّقًا:

- أُم يقولوا أن تأتي متأخرًا خيرٌ من ألا تأتي أبدًا؟

- لكنك جئت متأخرًا للغاية.. لنا جلسة طويلة نحتسي فيها القهوة في فناجيننا الضخمة التي كنت تسخر منها وتسميها "كروانة"؛ لأحكي لك كيف ضاعت الإسكندرية وتشوه وجهها الجميل، بعد أن كانت مدينة كوزموبوليتان تحتضن كل الجنسيات والأديان بلا تمييزٍ أو تفرقة، فإذا بها تتعرض لقرصنة العقل وتأميم الوجدان بعد أن أمم عبد الناصر محالنا وممتلكاتنا.

التمعت عينها بالدَّمع، واستطردت بانكسار:

- أيقنت أنها لم تعد تلك المدينة الكونية التي كنا نعتبرها أممًا متحدة مُصغرة حينَ طردنا أحد أبناء البلد من عمارتنا بالإجبار في الخمسينيات، وأسكنها للصعايدة لأنهم أولى من الجريج والأرمن -على حد تعبيره- يومها صرخت فيه: لنا رب يتولانا.. ستموت في نفس اليوم الذي استوليت فيه على حقي، وبعدها بعام توفي في التَّاريخ نفسه بالفعل.. وبعد أن هاجر معظمنا خوفًا من التأميم وبطش عبد الناصر، اشترى أولاد البلد محالنا قبل الهجرة بأبخس الأثمان ولم يُحافظوا على أنافتها وأسمائها العريقة، قبل أن يزاحمهم الصعايدة الذين جاءوا سريجة صغارًا من كل حذب وصوب، وبدءوا نشاطهم في الحوار والأزقة وأعينهم على امتلاك المحال والعقارات.. كانوا يأكلون كسر الخبز المغموس في الماء ويضعون القرش فوق القرش لتوسيع نشاطهم وتوغلهم في المدينة حتَّى استفحل أمرهم وتفاقم عددهم وصاروا قوةً ضاريةً احتلت الشوارع الرئيسة وهيمنت على المحال بعد مشاجراتٍ ومعاركٍ طاحنةٍ بالأسلحة النَّارية انتصروا فيها حتَّى صارت لهم اليد العليا وكأنهم دولةٌ داخل الدولة، تمامًا مثلما تنبأ (كفافيس) ذات يوم في قصيدته الشهيرة "في انتظار البرابرة".

الفيلات والقصور الأثرية العريقة تهدمت وقامت على أنقاضها أبراجٌ مشوهة يسكنها أناسٌ لا يقدرّون قيمة الأماكن وعبقها التاريخي.. قام على أنقاض ممتلكاتنا القديمة سوقٌ جديدٌ يتاجر أبناءه في الأنتيكات والتحف التي تركناها خلفنا، بخلاف أولئك الذين أطلقوا على أنفسهم

لقب (الفزان)، وصارت مهمتهم نبش بيوت العطارين القديمة المهجورة، واستخلاص كل ما هو ثمين ليعرضوه على مهاويس جمع الأنتيكات على مقهى علبة.

مُنذُ شهور وقعت أسقف البيت على أنطوانيت ابنتي.. كانت تقريبًا مدفونة، ودخل ولاد البلد لإنقاذها، لكنهم سرقوا أنتيكات المكان.. أجد أشياء في بيت جاري وعندما ألمح لها تقسم لي إنها اشترتها من السوق.. هم نفس جيران الماضي الجميل حينَ كنا ندخل بيوت بعضنا البعض ونتبادل السهرات، لكل بيت يوم تكون السهرة فيه، لكنهم اليوم يتجنّبوني ليس لأنني يونانية الأصل؛ بل لأنني مسيحية، ولم أعد أدري هل الرّمن هو الذي تغير أم النَّاس.

على كل حال، سنتجول معًا في (العطارين) لتشاهد بنفسك تغيّر خريطتها، وتلك المقاهي التي صارت تبيع المخدرات جهازًا نهارًا، تمامًا مثلما تفشت تلك التجارة في حارة اليهود التي صارت "باطنية" جديدة لو كنت سمعت عنها.

"وماذا عن دميانة؟"

أطلق (موريس) السؤال الأهم لديه من كل ما سبق، مع أول مساحة صمت من فم السيدة الجعانة للحكي، فامتعضت ملامحها وأجابت:

- لم أعد أعرفها بعد أن باعت المسيح وضلت طريقها.. فقد أتسامح مع من لا يؤمنون به، لكنني لا أغفر لمن ذاقوا متعة محبته ثم خرجوا منها.

عبست ملامح (موريس) وغربت ابتسامته، فيما أدار العقيد وجهه بعد أن وصل الحديث لفصل الختام، وأخذ يتجول بعينه في المكان غير مُصدِّقٍ أنه يقف على أرضٍ مصرية، وإن أخبره حسه الأمني أن ثمة أمرًا جَلَلًا على وَشك الحدوث!

\* \* \*

اخترقت أسماع الشَّاب الوسيم أصوات همهمة تسللت لحلمه غير الواضح، قبل أن تهزه يد معروقة لرجل يقول:



- يا أخ.. يا أخ

فتح عينيه بصعوبة، وشاهد من خلالهما صورةً باهتةً لرجل أربعيني يقف وسط زحام من الوجوه العديدة أخذت تتضح ملامحها رويداً رويداً وقد انصبت أنظار أصحابها جميعهم نحوه، وهم يتهامسون بأصواتٍ غير واضحة، فيما قال له الرجل:

- ماذا تفعل هنا؟

تذكر الشاب كيف نزل درجات السلم الخشبي ونام إلى جوار الضريح وهو في حالة إرهاق شديد، فأجاب:

- كنت أبحث عن مكان أنام فيه، حتّى غلبنى النعاس.

اقترب منه الرجل أكثر ومدّ رأسه للأمام قليلاً مُصدراً أنفه الذي أخذ يتشمم رائحة الشاب الخلاب، ثم زوى ما بين حاجبيه وهو يسأل:

- ما نوع العطر الذي تضعه؟

هز الشاب كتفيه قائلاً:

- لم أضع أي عطور.

تسللت السماحة إلى وجه الرجل وهو يُععن النظر في قسّمات وجه الشاب المنحوتة من ضياء البدر في ليلة تمامه وتبسّم قائلاً:

- لقد جاءني جموع المصلين بسببك وقالوا لي ثمة رائحة جميلة ليس لها مثيلٌ تبعث من تحت المسجد يا شيخ، حتّى إن بعضهم ظن أن صاحب الضريح قد قام من رقدته!

ثم التفت نحو المصلين وخاطبهم قائلاً:

- والآن وقد علمتم علة الأمر، هيا بنا نعد لإقامة الصلاة!

قالها وهو يشير بيديه للناس ويدفعهم لفض الجمع والصعود لأعلى، لكنهم بدوا كتماثيلٍ منحوتةٍ في أماكنهم مُنذُ عشرات السنين، وقد حملقوا في ملامح الشاب الساحرة، غير مصدقين أن يكون بشرٌ بهذا الجمال، وتلك الراححة.

أخذ أحدهم يُسبح ويُحوقل في حضرة الشاب حتّى حُيّل إليه أطيافٌ من الأنوار البيضاء المجنحة تمرق إلى جواره ثم تختفي في لحظة فتلفت

حوله في كل الاتجاهات بحثاً عنها غير مصدق عينيه، وهو يُكبّر الله بصوتٍ مرتجفٍ، وبالمثل شعر البعض الآخر بمخلوقاتٍ نورانيةٍ حولهم ارتبط حضورها بظهور هذا الشاب الوسيم، فسرت همهمة في الجمع الذي زاد تزاممه حول الشاب، وبدا للإمام أن الأمور ستفرط من بين يديه فأمسك بيد الشاب وسحبه معه نحو سلم الصعود قائلاً:

- هيا بنا نعد لنصلي صلاة المغرب، وليبق هنا من يريد أن يبقى.

شعر الشاب بالارتباك والخجل عندما وجد نفسه مُقبلاً على صلاة لا يعرف كيف يُصليها، فقرر الالتزام بالصمت وتقليد الناس فيما يفعلون.

\*\*\*

دخل الشاب الميضة حيث يتوضأ المصلون، بعد أن خلع جوربيه وجاكت بذلته وشمر أكمام القميص مثلما فعل الكثيرون، ليشاهد عباد الرحمن الذين يتطهرون استعداداً للصلاة بين من يمسح أذنيه، ومن يغسل قدميه، وأخذ يراقبهم حتّى يفعل مثلهم شاعراً أنه رأى مثل هذا المشهد من قبل لكنه لا يذكر متى وأين، وحين اقترب من أحد الصنابير ليتوضأ فرك عينيه غير مُصدّق ما يشاهده.

ماء الوضوء الذي يتساقط من المصلين تصنع كل قطرة منه فور ارتطامها بالأرض صورةً ضوئيةً أشبه بتلك التي تصدر من أجهزة البروجكتور، وتظهر في تلك الصور ذنوبهم، كاشفةً عن أدق أسرار الخطايا التي ارتكبوها في الخفاء ولا يكاد يعرفها أحدٌ سواهم!

رأى الشاب في إحدى القطرات التي تنزلق من رجل -يمسح مرفقه- صورته مع فتاة غانية كتلك اللاقي شاهدين في الملهى الليلي الخاص بـ(ريمون)، ثم أدار وجهه خجلاً حين رأى في صورة القطرة التي تليها مشهد جماع بينه وبين الفتاة، لتقع عيناه على رجلٍ آخر حليق الذقن، غائر العينين، تظهر صورته في القطرات التي تتساقط منه وهو يمسك مجموعةً من المتفجرات!

تابع الشاب باقي القطرات التي تتابع فيها الخطايا ليرى الرجل الحليق بصحبة مجموعةٍ من الأشخاص غير الملتحين يحملون صناديق



متعددة في إحدى الشقق، ثم يرصونها إلى جوار نافذة تطل على مبنى ضخم..

بعد أن فرغوا من رص الصناديق، وضع الرجل المتفجرات التي في يده فوق أحد الصناديق ووصلها بعدد رقمي، ثم ضغط على أحد الأزرار لتتناقص الأرقام تنازليًا.

في قطرة الماء الأخيرة كانوا يُغادرون العقار، ثم نظر أحدهم ساخرًا إلى ذلك المبنى الضخم الذي كانت شرفة الشقة التي كانوا فيها تطل عليه، ولم يكن هذا المبنى سوى... المعبد اليهودي!

قطع الشاب وضوءه واستوقف ذلك الرجل وهو يُغادر الميضة مرتبًا لسانه بالدعاء والذكر، أثناء تنزيل أكام قميصه قائلاً بلهجة صارمة وعينين يتطاير منهما الشرر:

- هل تعرف أنني لن أصلي؟

نظر إليه الرجل بدهشة شابهة التوتر، فأكمل الشاب وهو يمسك بكتفيه ويجذبه نحوه:

- فهناك مجموعة من الأبرياء مهددون بالقتل والدمار على يديك أنت وجماعتك بعد أن جهزتم لهم كمينًا مليئًا بالمتفجرات.. ألا ترى أن في ذلك واجبًا أقدس من الصلاة؟

اتسعت عينا الرجل في رهبة، ثم دفع الشاب فجأة صائحًا بكل غلظة:

- إليك عني!

ليركض الرجل حافيًا خارج المسجد كمن يفر من الموت، في الوقت الذي عبر فيه رجلٌ مُسنٌّ من أمام الشاب معترضًا طريقه، وهو ما حال دون الإمساك بالإرهابي الهارب الذي سلّم ساقئه للرياح، فتأمل الشاب ذلك المُسنَّ غاضبًا ليتضح له أنه نفس الشَّيخ الأسمر الذي قابلته في المولد أمس، وقبل أن ينبس بنبت شفة منحه الرجل ابتسامة غامضة ولحق سريعًا بجموع المصلين الواقفين صفوفًا في حضرة الرب كأنهم بُنيانٌ مرصوص.

كظم الشاب الوسيم غيظه وارتدى جوربيه وغادر المسجد ليرتدي حذاءه في عَجالة، ثم سرعان ما ركض وهو يرتدي جاكته بذلته متوجهًا نحو المعبد اليهودي وهو يدعو من أعماق أعماقه أن يصل في الوقت المناسب.

\* \* \*

اقترب الشاب مهرولاً من المعبد اليهودي ليجد النطاق المحيط به وقد تحوّل إلى ما يُشبه منطقةً عسكريةً مُحصَّنةً بالحواجز والمتاريس، بعد أن تم إغلاق شارع (النبي دانيال) ومنع السيارات من دخوله، وفي كل شبر رجل أمن مدجج بالسلاح وعلى وجهه علامات الاستعداد والتأهب.

تلاحقت أنفاسه بسبب قطع المسافة من المسجد للمعبد في ثوانٍ قليلة أكلت فيها قدماه الأرض وهو يجري بسرعة مذهلة، ثم وقع بصره على ذلك العقار المطل على المعبد، والمتطابق في هيئته مع ما شاهده في ماء الوضوء بالمسجد، وأخذ يبحث بعينه عن شرفة الشقة التي تطل على المعبد وبها المتفجرات؛ حيث لم يتبين حين رآها في أي دور تقع.

الآن عثر عليها وعرف أنها في الدور الثاني..

"علام تنظر؟"

أناه السؤال من خلفه لينظر إلى السائل فإذا به ضابط شرطة ينظر له في صرامةٍ متابعًا دون أن ينتظر إجابته عن السؤال:

- تحقيق شخصيتك إذا سمحت!

ارتبكت ملامح الشاب، وأجاب متلعثمًا:

- ليست معي أوراق تحقيق شخصية، فأنا فاقد الذاكرة لكن دعك من ذلك كله الآن (وأشار بيده نحو شرفة الدور الثاني وتابع) ففي هذه الشقة قبله ستفجر في أي لحظة وتأتي على هذا المكان بكل من فيه.

اتسعت عينا الضابط وهو يقبض على يد الشاب متسائلًا:

- من أين جئت بهذه المعلومة؟



## "ماذا هناك يا محمود؟"

قالها العقيد (يحيى) وهو يقتربُ منهما وقد شعر بأن هناك أمرًا مريبًا.  
"هذا الفتى يزعم أن هناك قنبلة في الدُور الثاني ستأتي على المعبد  
بكل من فيه يا سيدي".

أجابه الضابط بلهجة متوترة، فنظر العقيد بقلبٍ مُنقبض نحو  
الشاب وتأمل ملامحه وهلةً تأكد فيها بحسه أنه صادق قبل أن يصيح  
بصوتٍ زاعق:

- استدعوا خبير المفرقات فوراً!

- فصاح فيه الشاب بتوترٍ مماثل:

- ليس هناك وقت.. سيقع الانفجار في أي لحظة.

- صاح العقيد في أفراد خدمة التأمين:

- فليستعد الجميع لإخلاء المعبد وتأمين عملية الإخلاء.

- ثم أمسك بيد الشاب، وقال للضابط بكلماتٍ سريعةٍ مُقتضبة:

- سأصعد لأبني الأمر، إذا ما أعطيتك إشارة نفذ عملية الإخلاء فوراً.

- ثم جذب الشاب من يده مردداً:

- هيا بنا.

\* \* \*

اقتحم العقيد (يحيى) الشُّقة بعد أن ضرب الباب بكتفه ضربة أودع  
فيها كل قوته، وخلفه الشاب الوسيم..

آثار دماء على الأرضية قادت العقيد للعثور على جثة رجلٍ عجوز  
ملقاةً في الحمام..

خبرته الأمنية صنعت في خياله صورةً لذلك الشَّيخ وهو يفتح باب  
شققته فيباغته الإرهابيون بهجومٍ عنيفٍ حاول أن يُقاوم فيه قبل أن  
يقتلوه ويسحبوا جثته للحمام للسيطرة على الشُّقة وتنفيذ مخططهم  
من خلالها..

تلك الصناديق تحوي مادة الـ TNT شديدة الانفجار.. الكمية كبيرة  
جداً تكفي لتدمير المعبد وباقي العقارات والمحال المجاورة.. وتلك  
المتفجرات مرتبطة بشاشة رقمية موصل بمُفجر موضوع على أحد  
الصناديق.. حينَ ينفجر ستفجر معه كل الكمية الهائلة التي تملأ باقي  
الصناديق لتخرج معها نيران جهنم ومحو كل شيء في لحظات..  
والأرقام التي تتناقص تنازلياً على شاشتها تشير إلى تبقي 31 ثانية  
فقط، ثم 30 ثم...

هل سيكفي الوقت اللازم لإخلاء المعبد من اليهود الذين جاءوا من  
مختلف بلاد العالم للاحتفال بعيدهم التوراتي المقدس؟

27،26، 28

"محمود.. أخلِ المعبد فوراً".

قالها صارخاً في جهازه اللاسلكي؛ من باب أداء واجبٍ يعرف مُسبقاً  
أنه لن يُجدي لمنع الكارثة.  
نظر للشاب، وقال مسرعاً:

- هيا تغادر فوراً!

- يمكنك أن تغادر بمفردك للنجاة بحياتك، ودعني هنا أقم بواجبي!

- هل تعرف كيف تُبطل مفعول القنبلة؟

- كلا، لكنني سأحاول.

حاول العقيد أن يجادل، لكن رقم 18 الذي ظهر على الشاشة نسف  
أي محاولة نقاش، ليغادر العقيد الشُّقة مسرعاً، بينما حاول الشاب انتزاع  
المُفجر من فوق الصندوق دون جدوى..

حمل الصندوق الثقيل المثبت به القنبلة وترك باقي الصناديق التي  
ستصبح عديمة الخطورة مع ابتعاد القنبلة عنها، واستعان باسم الله  
الذي يكفي ترديده لضخ القدرات الهائلة في عروقه، واتجه مسرعاً نحو  
السُّطح غير مُبالٍ بالأرقام التي تناقصت إلى حدٍ مخيف..





عندما وصل الشّاب إلى السّطح كان اليهود يخرجون مُهرولين من داخل المعبد دون أن يغادروا ساحته الواسعة، فيما ظهر على شاشة عداد التفجير رقم 4.

نظر الشّاب للسماء وردد اسم الله، ثم دفع الصندوق الثقيل بقوة خارقة جعلته يرتفع لأكثر من مائة متر دفعة واحدة، لكنه لم ينفجر ليسقط سريعًا ويقترّب من المعبد.. ثم حدث الانفجار.

اندلع جحيم أنار سماء الإسكندرية، واختلط صوته بصرخات الفرع والذعر التي خرجت من الحناجر، وأطلق موجةً تضاعفيةً هزّت المعبد ليفقد أفراد اليهود وقوات الشرطة توازنهم ويسقط بعضهم أرضًا فيما شبّك البعض الآخر أصابع كفيه فوق مؤخرة رأسه حامياً دماغه بين مرفقي ذراعيه المثنيتين المضمومتين، في الوقت الذي هبطت فيه شظايا الصندوق المشتعلة كنيازك وشهب نارية تبحث عن تعيسي الحظ ممن انتخبتهم الأقدار؛ لتصيب إحداها سيدة مُسنة، وتمحو الأخرى سقف إحدى السيّارات، فيما تطايرت الحواجز الحديدية الخاصة بالأمن في مشهدٍ لم يشهده تاريخ الشّارع مُنذُ بناء تلك المدينة العالمية الآمنة!

وحده الحاخام الذي شخص بصره نحو السّماء في الوقت الذي كان الجميع يخفضون فيه رءوسهم ويتحاشون النّظر نحو جحيمٍ مستعر في الأعالي؛ كنعام يدفن رأسه في الرمل خوفًا من الخطر.

وحين هدأت الأوضاع وصعد العقيد (يحيى) من جديد للعقار وفتش الشّقة والسّطح، كان الشّاب الوسيم قد اختفى تمامًا دون أن يترك خلفه أدنى أثر، وكأنّه قد تبخّر.

\* \* \*

## (15)

اصطبغت ساحة المعبد اليهودي بألوان الإضاءة الصادرة عن سارينه سيارات الشّرطة والإسعاف الرابضة في شارع (التّبي دانيال)، فيما حمل رجال الإسعاف جثة الرّجل الطاعن الذي قتله الإرهابيون في شقته، وجثمان العجوز التي أصابتها إحدى الشّظايا.

كان ذلك حين وقف رئيس الطائفة اليهودية بملامح جامدة تنعكس عليها ألوان الإضاءة المختلفة، قائلاً بصرامةٍ وغلظةٍ للعقيد (يحيى):

- هذا ما لن أسمح به يا سيادة العقيد، لو انطبقت السّماء على الأرض لن يفتش أحد معبدنا.

أجابه العقيد بصرامةٍ مماثلة:

- يبدو أنك لا تقدر الأمر حق قدره يا سيد إبراهيم، لقد كدتم تُمحون من الوجود بمعبدكم الذي ترفض الآن تفتيشه.. بخلاف أن ذلك القتل الذي عثرنا عليه في مسرح الأحداث كان يهوديًا.. لا بد أن نعرف أمر هذا الشّاب، فحتمًا لديه ما يفيدنا في القضية.

- قلت لك إنه لم يدخل المعبد، ثم إنه غير مُدان ليختبئ.. المُدان الحقيقي حُر طليق الآن وعليكم العثور عليه.

- من السابق لأوانه أن نحكم بعدم إدانته؛ فلقد رفض أن يبرز تحقيق شخصيته وتحجج بحجةٍ تُشبه الأفلام العربي الرديئة، ومن المحتمل أن يكون ضمن الإرهابيين الذين حاولوا تنفيذ المخطط ثم استيقظ ضميره في آخر وقت.

- هذا أيضًا سيناريو خيالي لا يقل رداءً؛ فالإرهابيون الذين تستيقظ ضمائرهم في اللحظات الأخيرة لا وجود لهم إلا في المسلسلات الدرامية الهابطة.

"هذه هي نهاية الحياة اليهودية في مصر التي أثبتت فئة عنصرية من شعبها أن تلك الأرض لا تتسع لكل الأديان كما كانت من ذي قبل، حتى وإن كانوا يحملون الجنسية ذاتها".

ترددت تلك الكلمات بالإنجليزية على لسان (يفعات شمير) رئيسة الرابطة الدولية للمصريين اليهود في إسرائيل، والتي كانت من ضمن الحضور في احتفالات المعبد برأس السنة العبرية، وحمل وجهها غضب الدنيا أمام كاميرا شبكة (بي بي سي) الإخبارية لتبتر حديث العقيد (يحيى)، وتوجه إليها الأعين، قبل أن ينتفض رئيس الطائفة اليهودية في الإسكندرية ويسرع الخطى نحو الكاميرا مقاطعًا كلمات (يفعات) قائلاً:

- اسمي إبراهيم منير وأمثلة يهود الإسكندرية باعتباري رئيس طائفتهم هنا.. في الحقيقة أنا لا أحب التحدث مع وسائل الإعلام، لكنني مضطراً لتوضيح أن كلمات السيدة (يفعات) لا تمثل إلا وجهة نظرها الشخصية؛ فالفارق شاسع بين من ترك وطنه الأم واختار وطناً بديلاً وذلك الذي صمم على البقاء في أرض مصر رغم كل التغيرات الجذرية التي طرأت على خريطة السكان والأديان بعد أن عاش هنا يوماً الآباء والأجداد كأهل بلد حقيقيين، وجزء من نسيجها الوطني، يتمتعون بما يميز شعبها منخفة دم وروح دعابة وكرم ضيافة وحُسن معشر، وقبل قيام إسرائيل كان التسامح والتلقائي وعلاقات الود تسود الجميع، مسلمين وأقباطاً ويهوداً، يجاملون بعضهم في الأفراح والأتراح، ويهنتون بعضهم في الأعياد والمناسبات، يسهروا نعل أغاني أم كلثوم ويضحكون على مسرحيات الريحاني، وليسوا مجرد جالية أجنبية أو أقلية عرقية مثلما كان وضع اليهود في باقي الأمم.

"لكن هذا لا ينفي أن ما وقع كان حادثاً إرهابياً بكل المقاييس".

قالها الحاخام (موريس) وهو ينضم للمشهد مرتدياً ملابس الاحتفال، لتلمع على وجهه فلاشات الكاميرات الفوتوغرافية، قبل أن يتابع:

فاستهدف يهود أو أي بشر مدينين أبرياء بغض النظر عن ديانتهم لا يمثل سوى فعلٍ خسيسٍ لو أردنا الدقة.. غير أننا علينا أن نتأمل الحدث بنظرة متأنية لندرك أنه رد فعل على إرهابٍ مماثلٍ يحدث في مكانٍ آخر بوضعٍ معكوسٍ يُعاقب فيه المسلمون المدينون على ديانتهم أيضاً.

وسرح قليلاً، ثم تحدّث وهو يستدعي من الذاكرة أحداثاً مؤسفةً تجري في مدينة (القدس) كل عام بالتزامن مع عيد (روش هاشناه) العبراني..

- قبل هذا العيد بأيام، تنتشر الدعوات الصهيونية لاقتحام المسجد الأقصى بين الإسرائيليين ومنظمات المعبد المزعوم، ومع صباح روش هاشناه تتدفق أعدادٌ كبيرةٌ من اليهود على الجامع، وتدخله في صحبة كبار المسؤولين والوزراء في دولة إسرائيل.

مع تكرار الأمر على مدى أعوام، ارتبط العيد التوراتي بإطلاق النفير العام لدى المسلمين من كل الأعمار، سواء أهل القدس أو أهل الداخل الفلسطيني، للمرابطة بأعدادٍ ضخمةٍ داخل المسجد وحوله في الطرقات والأزقة المؤدية إليه لمواجهة تلك الاقتحامات.

في هذا العام مُنذُ خمسة أشهر قبل عيد رأس السنة العبرية، قامت قوات الأمن الإسرائيلية بمنع عشرات الشّباب المنتمين لحركة حراس الأقصى من الوصول للمسجد، وقامت باعتقال عددٍ كبيرٍ جداً منهم، وأخيراً قامت بمنع عددٍ من نساء الأقصى المرابطات؛ تهميداً لهذا اليوم وما بعده، بخلاف مصادرة الهُويات، واعتبار التكبير تهمَةً يتم اعتقال من يقوم بها.

صار الوقوف في وجه الاقتحامات الإسرائيلية تهمَةً يُمنع القائم بها من دخول الأقصى لثلاثة أشهر.. منعت قوات الاحتلال من هم دون الـ50 عاماً من دخول المسجد من كلا الجنسين، وفرضت طوقاً مشدداً على أبوابه.

تحول وسط ومركز مدينة القدس إلى ما يُشبه الثكنة العسكرية بعد أن غابت عنها مظاهر الحياة الطبيعية، وتغلّبت عليها المظاهر الشرطية.



الكنيست الإسرائيلي أعطى أوامره للشرطة بتسهيل كل الاقتحامات، ومنع كل مظاهر التكبير في الأقصى، وأمر بإغلاق المسجد خلال الأعياد التوراتية.

لكنّ الشبان المقدسين لم يستسلموا..

أدوا صلاة الفجر في الشوارع والطرق القريبة من محيط الأقصى وأطلقوا دعوة النفير العام ولم يبالوا بالاستعدادات العسكرية، فيما دعت بعض الصفحات الإسرائيلية على مواقع التواصل الاجتماعي لمسيرات صهيونية جماعية عند جميع أبواب المسجد، ونفذت بالفعل مسيرة حاشدة جابت شوارع القدس حتّى باب الأسباط للمدينة، رفعت خلالها رايات الهيكل المزعوم، وشهد المسجد الأقصى اقتحامات لم يسبق لها مثيل في تاريخه كمًّا ونوعًا، ومنعوا أي مسلم من دخوله، واستمر المنع حتّى قبيل صلاة الظهر، إلا أن أعدادًا حاشدة وكبيرة تجمّعت عند أبواب المسجد الأقصى واستطاعوا كسر الحصار حوله وتدفقوا إليه أفواجًا، قبل أن تحدث المذبحة..

عشرات من القتلى المسلمين سقطوا برصاصات الأمن الإسرائيلي، بخلاف اعتقال المئات.. بالطبع سقط مصابون وقتلى إسرائيليون، لكن بعدد ضئيل جدًّا أبرزته وسائل الإعلام الإسرائيلية والغربية التي ركزت على صور الدماء والجثث اليهودية فقط، ووصفت المسلمين بالإرهابيين. "نتعرف بك؟".

قالها المرسل وهو يُقرب الميكروفون من فمه، فأجابه (موريس):

— موريس زي، حاخام يهودي ذو أصولٍ مصريةٍ، وواحد من أكثر المعارضين لقيام دولة إسرائيل الصهيونية بحكم انتمائي لجماعة ناطوري كارتا<sup>(1)</sup>.

\* \* \*

في الغرفة المغلقة التي تحوي ألواح التّوراة بالمعبد، وقف الشّاب الوسيم أمام رئيس الطائفة اليهودية، والحاخام اليهودي الذي حكى حكايته من بدايتها واستكمل:

— بعد سفري الاضطراري إلى إسرائيل، عشت أيامًا حالكة السّواد؛ صبي وحيد بلا أهل وسط السّنة ترطن لغاتٍ مختلفةً، وجنسيات متعددة لا يجمعها سوى النقم على أوطانهم الأم التي فروا منها كمن يفرّ من الجحيم، وتفرقة مؤلمة بين المواطنين ذوي الأصول الشّرقية، والأصول الأوربية.

ضابط الموساد الذي كان يتعاون مع أبي في الإسكندرية قرأ عليّ وصيته، وأخبرني بأنني سأحصل على ميراثي قريبًا، وسلمني إلى حاخام تعهد برعايتي وأخذ يقرأ على مسامعي عشرات الفتاوى التي زعم أنها مستندةٌ إلى التّوراة ووصايا الرّب.. كانت الفتاوى تُبيح قتل الأغيار من غير اليهود حتّى لو كانوا من غير الأعداء في حال عرّض وجودهم شعب إسرائيل للخطر، وتستبيح دم المدنيين الأغيار إذا ما ساعدوا جيش الأشرار العرب، أو حتّى قاموا بتشجيعه على الحرب على اليهود وأعرّبوا عن ارتياحهم إزاء أعماله دون الحاجة لقرار بقتلهم على مستوى الأمة؛ إذ يكفي بضعة أفراد فحسب، وحلّل أيضًا قتل الأطفال الأغيار في حال إذا كان واضحًا أنهم سيلحقون الضرر باليهود عند نضوجهم، مؤكّدًا أنه يحل قتل هؤلاء الأطفال عمدًا ومباشرةً لا من خلال محاربة ذويهم الكبار فحسب، خاصة أولاد زعماء الأغيار لممارسة الضغوط عليهم<sup>(1)</sup>.

كان يُحرّض المصلين أمامي على قتل الفلسطينيين وممارسة عمليات إرهابية ضدهم بتأكيد صلاحية الأفراد العاديين من دولة إسرائيل بسفك دماء العرب أتباع مملكة الشّر، خارج إطار قرارات الحكومة أو الجيش.

(1) هذه الفتاوى حقيقية بالفعل، ويروج لها عدد من الحاخامات في إسرائيل، وقد صدر منذ فترة في إسرائيل كتابٌ أثار ضجة بعنوان (عقيدة الملك) تبيح فتاواه قتل الأغيار؛ استنادًا إلى تفسيرات العهد القديم ومصادر التشريع اليهودي، للحاخامئ إسحاق شبيرا وزميله الحاخام يوسي إيليتسور.

(1) ناطوري كارتا: باللغة الآرامية تعني (حُراس المدينة)، وهي جماعة يهودية معارضة لإنشاء دولة إسرائيل الصهيونية.

الفلسطيني سلوم شمئويل، واستضافني في منزله وعرّفني بأبنائه الإنسي عشر، وكانت زوجته منتقبة.

كنت أظن أن كل يهودي في فلسطين إسرائيلي بالتبعية، قبل أن ألتقي هذا الحاخام المتدين الذي انتمى لليهود الأرثوذكس الحريديم.. أخبرني بأن اليهود الفلسطينيين هم نسل اليهود الذين كانوا يعيشون في فلسطين التاريخية كجزء من السكان الأصليين قبل بدء الهجرات الصهيونية.. تمركزوا في صفد وطبريا والخليل والقدس، وعاشوا في سلام ومحبة مع جيرانهم المسلمين والمسيحيين.

ومع صدور وعد بلفور وهجرة اليهود إلى فلسطين تباغًا، ازدادت حدة التوتر إلى أعلى مستوياتها بين الطوائف اليهودية المؤيدة للصهيونية، وتلك المعارضة لها في فلسطين حتى تم اغتيال جاكوب دي هان المتحدث الرسمي باسم جماعة إسرائيل "أغودات" المعارضة لإقامة دولة يهودية، وتم تأسيس جماعة "ناطوري كارتا" التي ترفض الصهيونية بكل أشكالها وتعارض وجود دولة إسرائيل عام 1935، وكان هذا الحاخام الذي التقيته من أول المؤسسين لها بعد أن أيقن تمامًا أن الصهيونية من أخطر المؤامرات الشيطانية على الديانة اليهودية والإنسانية بأكملها؛ إذ تقوم على مُعاداة الرب ومخالفة تعاليم التوراة، والانسلاخ عن التراث الديني اليهودي.

كان بيته هو البيت الوحيد الذي شعرت فيه أنني لم أغادر مصر، لا سيما حين فسّر لي الرؤيا التي رأيتها وأخبرني بأن تأويلها يعني أن الرب يأمرني بالانضمام لتلك الجماعة والدفاع عن تعاليم التوراة الحقيقية ونصرة المظلومين، وألا أعود لوطني حتى تأتيني بشارته في رؤيا أخرى تملي عليّ ذلك، وما إن تسلمت ثروة والدي حتى منحتها بالكامل لذلك الحاخام الطيب وخضت معه هو وجماعته حربًا ضروريًا لنقل في وجه دولة بُنيت على التعصب: نحن اليهود الحقيقيون هنا، أما الباقي فهم العابرون.

وبعد هذا كله، يخبرني بأن التبشيرية مرتبطة مع الله بالعهد النوحى الذي أقامه مع نوح وذريته بعد الطوفان العظيم، كما ورد في سفر التكوين، حيث حرم علينا الرب القتل وسفك الدماء!

وجدت نفسي أمام نموذجٍ مختلفٍ تمامًا عن الحاخامات الذين قابلتهم وتربيت بكنفهم في مصر.. بل وجدته أمام دين غير الدين الذي فهمته من أمي المتدينة.. أعيتني قلة الحيلة وحنيني لوطني الحقيقي ولم تكف الكوابيس عن مطاردتي في نومي؛ لأرى نفسي فيها أقتل الأطفال الأبرياء وأرقص على جثثهم بيدين مخضبتين بالدم لأنهض في كل مرة صارخًا دون أن أجد حزنًا دافئًا يحتوييني ويهدئ من روعي.

عزمت على الهرب، وبكيت في صلاتي للرب طالبًا منه النصح والرشاد، حتى أخذتني سنة من النوم رأيت فيها وأنا بين اليقظة والنعاس طريقيًا موحشًا يقبض ظلامه القلب تقف (دميانة) في نهايته، وما إن تبادلنا النظر حتى أخذ كل منا يركض نحو الآخر بأقصى ما لديه من قوة دون أن تتناقص المسافة بيننا مهما ركضنا، ثم لاحت في الأفق سحابة من نور أخذت تقترب مني رويدًا رويدًا حتى تبينت أنه واحدٌ من "السارافيم"<sup>(1)</sup> ذي الأجنحة الستة، حملني على ظهره وحلق بي في سماء القدس المظلمة وأثار الطرقات والشوارع من تحته لأبصر خط سيره إلى أن وصلنا فوق بيت يصدر خيوطًا من الضياء تصل بين الأرض والتنجوم، فهبط بي "السارافيم" أمام مدخله، وقال لي: من هنا ستعود إلى وطنك مرة أخرى بعد أن تكفّر عن ذنبك وتؤدي مهمة الرب التي من أجلها خلقك.. لا تعد قبل أن تأتيك سحابة النور مرة أخرى بالأمر المحسوم.

فركت عينيّ وقلبي يخفق بشدة على ما آتاني من يقين، وما إن أشرقت الشمس حتى ذهبت إلى حي مئة شعريم في القدس، وتتبع مسار سحابة النور التي رأيتها في الحلم حتى عثرت على البيت نفسه الذي شاهدته، وحين طرقت بابه فتح لي رجل طيب أخبرني بأنه الحاخام

(1) السارافيم: طائفة من الملائكة في الديانة اليهودية.. ولكلمة السارافيم أصول عبرانية يغلب أن يكون معناها "كائنات مشتعلة"، أو ربما كان معناها "شرفاء".



ذكَرْنَا هُمْ بِغَضَبِ اللَّهِ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ الَّذِينَ عَصَى أَجْدَادَهُمْ وَأَمْرَهُ مُنْذُ آلَافِ السِّنِينَ، وَبِسَبَبِ خَطَايَاهُمْ تَمَّ طَرْدُهُمْ مِنْ أورشَلِيمَ وَهَدَمَ هَيْكَلَهُمْ، فَبَاتُوا مَمْنُوعِينَ مِنَ الصُّعُودِ إِلَى جَبَلِ الْهَيْكَلِ أَوْ حَفْرِ الْأَرْضِ تَحْتَهُ، وَبِنَاءِ عَلَى التَّلْمُودِ الْبَابِلِيِّ فَإِنَّ أَيْةَ مَحَاوَلَةِ لاسْتِرْدَادِ أَرْضِ إِسْرَائِيلَ بِالْقُوَّةِ هِيَ مَخَالَفَةُ لِلْإِرَادَةِ الْإِلَهِيَّةِ حَتَّى يَأْتِيَ الْمَسِيحُ يَوْمًا وَيُؤَسِّسَ تِلْكَ الدَّوْلَةَ عَلَى قِيَمِ الْمَحَبَّةِ وَالْخَيْرِ وَالسَّلَامِ وَالْعَدْلِ.

جُبْنَا الْقُدْسَ نِعْظُ فِي النَّاسِ وَنُوضِحْ لَهُمْ حَقِيقَةَ الْأَمْرِ، مُطَالِبِينَ بِتَحْرِيرِ فِلَسْطِينَ مِنْ عَرَبِيَّةِ الصَّهَابِيَّةِ حَتَّى يَعِيشَ الْجَمِيعُ تَحْتَ حُكْمِ فِلَسْطِينِيِّ لَا فَرْقَ فِيهِ بَيْنَ مُسْلِمٍ أَوْ مَسِيحِي أَوْ يَهُودِي.

حَتَّى بَعْدَ تَضْيِيقِ دَوْلَةِ إِسْرَائِيلَ الْخَنَاقِ عَلَى الْيَهُودِ الْفِلَسْطِينِيِّينَ وَمَنْحِهِمُ الْجَنْسِيَّةَ الْإِسْرَائِيلِيَّةَ بِالْإِجْبَارِ فِي الثَّمَانِيَّاتِ مِنَ الْقَرْنِ الْمَاضِي، رَفَضُوا أَنْ يَتَقَاضُوا شَيْكَلًا وَاحِدًا مِنْ دَوْلَةِ إِسْرَائِيلِ أَوْ الْخِدْمَةَ فِي مَوْسَسَتِهَا الْعَسْكَرِيَّةِ.. وَحِينَ تَلِدُ زَوْجَةً أَحَدَ أَعْضَاءِ "نَاطُورِي كَارْتَا" فِي الْمَسْتَشْفَى يَرْفُضُ أَنْ يَأْخُذَ أَيَّ مَسَاعَدَةٍ مِنَ الضَّمَانِ الصَّحِيِّ الْإِسْرَائِيلِيِّ.

مَعْظَمُهُمْ لَا يَتَحَدَّثُ اللُّغَةَ الْعَبْرِيَّةَ، وَلِغَتَهُمُ الرَّسْمِيَّةُ هِيَ الْإِنْجِلِيزِيَّةُ.. يُقِيمُونَ الْحَدَادَ فِي عِيدِ قِيَامِ دَوْلَةِ إِسْرَائِيلِ كُلِّ عَامٍ، وَيَخْرُجُونَ فِي مَسِيرَاتٍ حَاشِدَةٍ تَدْعُو اللَّهَ بِزَوَالِ ذَلِكَ الْكِيَانِ الصَّهْيُونِيِّ وَتَفْكِيكِهِ، يَرْفَعُونَ عِلْمَ فِلَسْطِينَ، وَيَحْرِقُونَ عِلْمَ إِسْرَائِيلِ، دُونَ أَنْ تُثْنِيَهُمْ عَنِ عَقِيدَتِهِمْ حَمَلَاتِ الْإِعْتِقَالِ، وَهَجُومِ الْمَوَاطِنِينَ الصَّهَابِيَّةَ عَلَى بِيُوتِهِمْ وَاقْتِحَامِهَا، وَضَرْبِهِمْ بِالْهَرَاوَاتِ الْحَدِيدِيَّةِ وَنَبْشِ قُبُورِهِمْ، وَغَيْرِهَا مِنْ صُنُوفِ التَّعْذِيبِ وَالْإِظْهَادِ.

ثُمَّ اقْتَرَبَ (مُورِيس) مِنَ الشَّابِّ الْوَسِيمِ وَتَأَمَّلَ مَلَاحِجَهُ بِإِعْجَابٍ شَدِيدٍ وَكَأَنَّهُ لَا يَصْدُقُ عَيْنِيهِ، ثُمَّ ارْتَعَشَتْ أَطْرَافُهُ وَهُوَ يَرْدِفُ بِكَلِمَاتٍ يَقُولُهَا ببطءٍ مِنْ فِرطِ الْإِنْفِعَالِ وَكَأَنَّهُ يُلْقِي قَوْلًا ثَقِيلًا:

- وَحِينَ حَدَّثَتْ اقْتِحَامَاتِ الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى مُنْذُ شُهُورٍ، وَوَلَّحَتْ فِي الْأَفْقِ مَذْبَحَةً جَدِيدَةً سَّتْرَاقَ فِيهَا الدَّمَاءَ، جَاءَ نِي الْإِذْنَ أَخِيرًا بِالْعُودَةِ إِلَى وَطَنِي بَعْدَ كُلِّ هَذَا الْعَمْرِ.. كَانَ ذَلِكَ وَأَنَا فِي نَفْسِ الْحَالِ بَيْنَ النَّوْمِ وَالْيَقِظَةِ

حِينَ رَأَيْتَ الطَّرِيقَ الْمُوْحَشَ الْمَظْلَمَ نَفْسَهُ، وَقَدْ وَقَفْتَ فِيهِ (دَمِيَانَةَ) الَّتِي شَاخَتْ مَلَاحِجَهَا، تَلُوحُ لِي بِالْمَجِيءِ وَكَلَانَا يَسِيرُ نَحْوَ الْآخِرِ، لَكِنَّا كُنَّا نَقْتَرِبُ وَتَذُوبُ بَيْنَنَا الْمَسَافَاتُ هَذِهِ الْمَرَّةَ، غَيْرَ أَنَّهَا سَقَطَتْ فِي حَفْرَةٍ عَمِيقَةٍ قَبْلَ أَنْ نَتَلَاقِيَ، وَوَقَفْتُ عَاجِزًا عَنِ مَسَاعَدَتِهَا، فِإِذَا بِالسَّارَافِيمِ يَأْتِي إِلَيَّ مُجْدِدًا، وَيَقُولُ لِي: اهِبْطِ مِصْرَ وَمَدِّ يَدَ الْعَوْنِ لِمَنْ ضَلُّوا الطَّرِيقَ، وَقُلْ كَلِمَةَ الْإِنْصَافِ هُنَاكَ مِثْلَمَا قَلْتَهَا هُنَا مَرَارًا.

ارْتَجَفْتُ هَوْلًا، وَقَلْتُ كَيْفَ أَفْعَلُ وَقَدْ وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا؟ فَقَالَ لِي السَّارَافِيمُ: لَا تَخَفْ وَامْضِ قُدَمًا؛ فَللربِّ جُنْدُهُ فِي كُلِّ مَكَانٍ، وَإِنْ كُنْتَ فِي قَلْبِ الْجَحِيمِ.

عِنْدَهَا فَقَطُّ وَافَقْتُ عَلَى دَعْوَةِ الْقُدُومِ لِلْإِحْتِفَالِ بِـ "رُوشْ هَاشِنَاهُ" بَعْدَ سَلْسَلَةٍ مِنَ الدَّعَوَاتِ الَّتِي تَلَقَيْتَهَا عَلَى مَدَى سَنِينَ طَوِيلَةٍ كَانَ رَدِي فِيهَا حَاسِمًا بِالْإِعْتِزَارِ.. وَحِينَ ارْتَجَّتِ السَّمَاءُ وَخَفَضَ الْجَمِيعُ أَعْيُنَهُمْ خَوْفًا مِنْ لَهَيْبِ النَّيْرَانِ الَّذِي مَرَّقَ فَوْقَ الرَّءُوسِ، رَفَعْتُ رَأْسِي نَحْوَ الْجَحِيمِ وَأَنَا أَتَذَكَّرُ كَلِمَاتِ السَّارَافِيمِ، حَتَّى رَأَيْتُكَ وَأَنْتَ تَقْفُزُ قَفْزَتَكَ الْهَائِلَةَ مِنْ سَطْحِ الْمَنْزَلِ إِلَى سَطْحِ الْمَعْبَدِ وَكَأَنَّ يَدَ الرَّبِّ هِيَ الَّتِي حَمَلْتِكَ.

ثُمَّ اسْتَدَارَ نَحْوَ رَئِيسِ الطَّائِفَةِ الْيَهُودِيَّةِ وَقَالَ لَهُ:

- هَلْ فَطَنْتِ الْآنَ يَا إِبْرَاهِيمَ لِمَاذَا طَلَبْتَ مِنْكَ إِخْفَاءَ الْفَتَى فِي أَسْرَعِ وَقْتٍ حِينَ قَلْتَ لَكَ سَأْشَرِحُ لَكَ لَاحِقًا؟

نَظَرَ رَئِيسَ الطَّائِفَةِ الْيَهُودِيَّةِ لِلشَّابِّ بَانْبَهَارٍ، ثُمَّ قَالَ لِلْحَاخَامِ:

- مَعَكَ حَقٌّ يَا سَيِّدِي؛ فَكُلُّ رِجَالِ الْأَمْنِ يَفَكِّرُونَ بِنَفْسِ الْعَقْلِيَّةِ فِي كُلِّ مَكَانٍ بِالْعَامِ.. مَنَهَجُهُمُ الْقَبْضَ عَلَى مَنْ يَصْلِحُ أَنْ يَكُونَ مَتَهَمًا وَسَدَّ خَانَةَ الْجَائِي بِأَيِّ ثَمَنِ بَغْضِ النَّظَرِ عَنِ الْحَقِيقَةِ.. الْمَهْمُ أَنْ تَكُونَ هُنَاكَ إِجَابَةً لِلرَّأْيِ الْعَامِ، وَمَجْرَمٌ خَلْفَ الْقَضْبَانِ تَنْزِلُ صُورَتُهُ فِي الصَّحْفِ وَوَسَائِلِ الْإِعْلَامِ.

ثُمَّ عَادَ يَنْظُرُ إِلَى الشَّابِّ بَعِينِينَ يَمْلُؤُهُمَا الْإِعْجَابُ وَالتَّأَثُّرُ وَقَالَ لَهُ بَامْتِنَانٍ:



إذا ما أراد تركيبها، فيعيش على ذكرى رائحة لا تبرح روحه وإن اختلفى من الواقع شذاها.

### "حدثني أكثر عن الملائكة".

قالها الشاب بلهجة ظمآن يبحث عن الارتواء، فسأله الحاخام متبسماً:

- ألا تعرفهم؟

بُهِتت ملامح الشاب وغزتها الحيرة والارتباك وهو يجتر ذاكرته الممحية، شاعراً أن ثمة شفرةً على هذا الأمر لا يعرف مفتاح فكها، فأجاب قائلاً:

- أعرف عنهم القليل، لكنني أشعر دائماً أنهم قريبون مني.

تأمل الحاخام ملامحه وسرت داخله رعشة داخلية حين وقر في قلبه شعور أخيره بأن لهذا الشاب خصوصيةً ما تربطه بهم، ثم قال:

- هي مخلوقاتٌ من نار يا ولدي تنقسم إلى نوعين: نوع لا يطرأ عليه الموت خلقه الرب في اليوم الثاني من أيام الخلق، ونوع آخر خُلِقَ في اليوم الخامس يموت بعد أن يمكث زمناً طويلاً قدّر له فيه الحياة بأجلٍ محددٍ، ومنهم من يموت في يوم خلقه بعد أن يقرأ التلمود ويُسَبِّح التسابيح.

ويخلق الله كل يوم ملكاً جديداً عند كل كلمة يقولها.. فهؤلاء الملائكة يأتون إلى عالم الوجود بسرعة كما يخرجون منه؛ منهم ميخائيل للنار وإنضاج الأثمار، وجركيمو للبرد، ومنهم من وظيفته حفظ الأعشاب التي تنبت في الأرض، وهم واحد وعشرون ألفاً بعدد أنواع الأعشاب؛ كل واحد منهم يحفظ النوع الذي نيط به.. بعضهم مخصص بالخير، وبعضهم بالشر، وبعضهم لِبَيْتِ المحبة والإصلاح، وبعضهم لحفظ الطيور والأسماك والحيوانات المتوحشة، وبعضهم مختص بصناعة الطب، وبعضهم لمراقبة حركة الشمس والقمر والكواكب، ومنهم المجاورون لعرش الرب وحملته والمسبحون بأقداسه.. وتشغل الملائكة ليلاً ببث النوم في الإنسان، وتصلي لأجله نهاراً<sup>(1)</sup>.

(1) هذه المعلومات عن الملائكة جاءت حسب ما ورد في العقيدة اليهودية.

- بفضلك سيظلّ معبدنا شامخاً لتُقام فيه الصلوات والاحتفالات من قلة قليلة لا تزال تتمسك بديانتها وجنسيتها معاً رغم استحالة الجمع بينهما في هذا الوطن الحزين.. كلمات قصتك التي رويتها تبدو صادقة رغم غرابتها التي تجعلها جديرة بحكايات ألف ليلة وليلة، لا سيما أنها تتفق مع رؤية سيدي الحاخام.. لكن لا بأس؛ فكل حكايات الرب في توراته تبدو أقرب للأساطير رغم أنها واقع يفوق الخيال. بتأثر مماثل رد عليه الحاخام قائلاً:

- مهما بلغ خيالك يا إبراهيم فلن تصل إلى ما شاهدته من هذا الفتى وهو يقفز فوق الجحيم.. (ثم نظر للشاب وأردف) حتماً هو أنت ما قصده السارافيم حين قال إن للرب جنده في كل مكان، حتّى وإن كنا في قلب الجحيم.

كان الشاب يسمعها ويحول بينهما النظر وهو يشعر بدقات قلبه تتسارع بشدة وتزلزل كيانه، ليحينَ دوره في الانبهار أيضاً ويصبح مفعولاً به بعد أن لعب دور الفاعل مُنذُ أن فتح عينيه في المقابر، وحينَ صمت كلاهما وجد نفسه يسأل الحاخام بلسانٍ مرتعش:

- هل لك أن تخبرني ماذا تقصد بالسارافيم؟

- هي ملائكة خُلقت من نار، جمالها يفوق الوصف، لكل منهم 6 أجنحة، بائنين يغطي وجهه، وبائنين يُغطي رجله، وبائنين يطير.. يقفون فوق عرش إيل عليون<sup>(1)</sup> وعملهم تسبيح اسمه في السماء والإشادة بسجايه الإلهية المجيدة، وتطهير خُدّامه المصطفين مثلما طهروا فم النبي (إشعيا) من النجاسة.

سرت فُشعريرة في جسد الشاب حينَ رددت شفتا الحاخام كلمة (الملائكة) وتخبّطت بداخله المشاعر..

ثمة حنين داخله لذكريات لا يتذكرها، وأوقات سعيدة ذهبت وبقيت منها رائحة السعادة التي لا يذكر أسبابها، كمن يشتم رائحة جميلة ويريد أن يحتفظ بها لكنه لا يعرف لها اسماً حتّى يخبر به بانح العطور

(1) إيل عليون: تعنى الإله الأعلى في العقيدة اليهودية.



ثم نظر إلى عيني الشاب هنيهات سيطر فيها الحزن على قسماته واستطرد:

- بيّد أن الملائكة لم تظهر يوماً لبشر أو تتصل به في الواقع أو الرؤية إلا ومسه في حياته بأسّ وغمّ عظيمٌ ثمناً لرسالة مقدسة يتلقاها، وأمانة ثقيلة الحمل عليه أن يُبلّغها مهما كان حجم الألم والمعاناة.. هكذا كان قدر الأنبياء والصالحين على هذه الأرض التي تنبت أشواكاً تحت أقدام المكلفين، مثلما حدث مع الكليم.  
عقد الشاب حاجبيه متسائلاً:

- الكليم؟

ارتسمت الدهشة على وجه (موريس) وسأله:

- ألا تعرفه؟

ظلّ الفتى ينظر إليه بحيرةٍ وعيناه تجيبان: "وكأنني سمعت عنه أنباء طواها النسيان".

فقال الحاخام:

- حسناً.. ربما كان من المفيد أن أقصص عليك خبره.

وبدأ الحاخام يحيكي للشاب عن معجزات (موسى) التسع التي أيده الله بها ليثبت نبوته إلى فرعون وبني إسرائيل، وذلك الفارق بين من يؤمن بأسفار موسى الخمسة المكونة للتوراة وأولئك التلموديين الذين قالوا على الله ما لا يليق في تلمودهم المزعوم الذي لا يؤمن به هو شخصياً، مثل: "يتندم الله على تركه اليهود في حالة التعاسة حتّى إنه يلطم ويبيكي كل يوم، فتسقط من عينيه دمعتان في البحر فيسمع دويهما من بدء العالم إلى أقصاه، وتضرب المياه وترتجف الأرض في أغلب الأحيان فتحدث الزلازل"، وأن النهار اثنتا عشرة ساعة.. في الثلاث الأولى يجلس الله ويطالع الشريعة، وفي الثلاث الثانية يحكّم، وفي الثلاث الثالثة يطعم العالم، وفي الثلاث الأخيرة يجلس ويلعب مع الحوت ملك الأسماك، وإنه لا شغل لله في الليل غير تعليمه التلمود مع الملائكة، ومع إسموديه ملك الشياطين في مدرسة السماء، بخلاف العنصرية الفجة التي ترى اليهود

بشراً لهم إنسانيتهم، أما الشعوب الأخرى فهم عبارة عن حيوانات، فضلاً عن تقديس الحاخامات، حتّى إن الله يستشيرهم على الأرض عندما توجد مسألة عويصة لا يُمكن حلها في السماء!

ومع كل حرف من هذه القصص كان الشاب ينتفض ويرتجف، وقد اختلطت داخله مشاعر الرهبة من قدرات الله ولحظة كلامه مع البشر، والاستنكار من تجديف وجحود بني إسرائيل تجاه الربّ، والمحبة الشديدة لكليم الله العظيم الذي فاقت حكايته الخيال والأساطير، وأنى بما لم يأتيه أحدٌ قبله من المعجزات وتأييد السماء، حتّى أشفق عليه الحاخام فنظر لأطباق موضوع عليها التفاح المغموس في العسل وثمار الرمان، وأشار إليها قائلاً للشاب:

- دعنا نكمل ذلك ونحن نتزود يا ولدي بما يُعيننا على ما هو قادم؛ ففي انتظارنا أيامٌ عجاف.

\*\*\*



- تحرياتنا أفادت بأنك خريجة مؤسسة الأحداث، قبل أن عملي مع المَجني عليه (ريمون عزيز) الذي اتهمك بمحاولة قتله وأبلغ عنك أنتِ وفتاك السّاحر.

أطفأ سيجارته في منفضة السجائر وهو يردف بلهجة ثعلب يجلد فريسته المحاصرة بنظراته الماكرة قبل افتراسها:

- يؤسفني أن موقفك حرج للغاية.. لا مفر من إلقاءك في الحجز. نجحت كذبتة في قلب كيائها حتّى تلالأت عينها بدمعٍ رقيق، وشعرت أنها ضل عنها العون والسند..

غاب الشّاب الوسيم القوي الذي ظنت أنه طوق نجاة في بحر الأقدار.. تبدل حال (دميانة) وصارت عديمة الفائدة أكثر من ذي قبل.. وصارت غزاة مُغرية في قفص الدّنيا الضيق المليء بالأسود الجوعى، ولا مناص للنجاة إلا بالاحتماء بأسدٍ قوي يذود عنها ويمنع افتراس الآخرين، رغم أنه لن يخرجها في النهاية من القفص؛ لذا قالت في توسل:

- أقبل يديك قف إلى جانبي.. سأحكي لك كل شيء! بدأت في الحكي، وأشعل العقيد سيجارة جديدة لم يأخذ منها نفساً واحداً وقد نسي الزّمان والمكان وتوحّد مع الأحداث التي لم يستوعبها عقله، وإن شعر قلبه أن بها ضرباً من الصدق، لمسه بنفسه حين التقت عيناه بعيني الشّاب عند المعبد اليهودي..

وحين انتهت (آيات) من الكلام، كان العقيد مجرد جسد يجلس أمامها، بينما أوحى عيناه السارحتان اللتان لا تتظران إليها بأن عقله وكيانه باتا في عالمٍ آخر..

عالم من الخيال تحولت فيه كلمات الحكي إلى حركات وأفعال أخبرتة غريزته بأنها حقيقية، لكنه سقط في فخ: كيف حدث ذلك إن كان صدقاً؟ من أين جاء هذا الفتى؟!

لو كان ساحراً حقاً لبحث عن المال، واستغل تلك القدرات في أن يكون سيّداً بين حفنة من الجهلة والمفتونين بسحره، ليحني من أغنيائهم المال، ويضاجع من فقرائهم النّساء، ويحول الصعاليك إلى خدم تحت

## (16)

وقفت (آيات) بهلامح مرتبكة على عتبة مكتب العقيد (يحيى)، وإلى جوارها عسكري أشار له الأخير بالانصراف قبل أن يقول لها:

- تفضلي بالجلوس يا آنسة (آيات).. أم أقول يا مدام؟ ختم سؤاله بنبرة تهكمية، وهو يلتقط سيجارةً دسّها بين شفّتيه وأشعلها بقداحه دون أن يبالي بإجابتها وهي تتمتم بصوتٍ خفيض: "آنسة".

وبعد أن أخذ نفساً ضاقت معه حدقتاه مع شفّتيه المضمومتين، أخرج دخانه ببطء وهو يتأمل فريسته التي تنظر للأرض وتهز رجليها بتوتر، بينما خيّل إليه أنه يسمع صوت دقات قلبها المتسارعة قبل أن ينقضّ عليها:

- باختصار لأنني لا أحب الثّرة.. لا حديث في شارع (النّبي دانيال) إلّا عن ذلك الشّاب الوسيم الذي ظهر برفقتك حين قدم فقرة السيرك وسحر أعين النّاس حتّى اعتقدوا أن التراب قد صار ذهباً.. المواصفات تنطبق تماماً على الشّخص نفسه الذي حدّر من انفجار المعبد اليهودي قبل أن يختفي تماماً فور وقوع الانفجار.. ألم يستنتج عقلك بعد أنك صرت متورطة في أمرٍ بالغ الخطورة قد يجعلك تقضين ما بقي من عمرك في السّجن؟

كفّت عن النّظر للأرض ونظرت نحوّه كالمسوسة بهلامح يحتلها الهول، فأيقن من انتفاضتها ونظراتها الزائغة أن حصون مراوغتها الهشة قد انهارت فور بدء الاشتباك، فواصل طرّق الحديد وهو ساخن:





لم تكثر بتلك المكاملة التي أجراها العقيد مع مُساعدِه الذي كان يُجري تحرياته عند المعبد اليهودي ويُحاول التوصل لهوية الشَّاب الوسيم.

فقط التقطت أذناها الجملة التي ختم بها مكالمته: "كنت واثقًا بأن هناك لعبة خفية في قضية ذلك المدعو (ريمون).. ستخبرنا الأسطوانات المدمجة التي في حوزة الفتاة بالكثير والكثير.. هيا قابلني هناك."

غادرت السيارة بعد أن وصلت أمام العقار، ولمحت بطرف عينها مساعد العقيد وهو يقترب منه ويصافحه، قبل أن تدخل مدخل العقار..

صعدت إلى السطح فوجدت (دميانة) تجلس على المصطبة وهي لا تزال على تلك الحالة البائسة من اللاموت واللاحياء، منكسة الرأس، مَحنية الظهر، مُعلقة بين النوم واليقظة، وبالطبع لم ترد عليها السلام. فتحت (آيات) باب الغرفة فحفظت عينها وامتنع وجهها حين وجدت محتويات الحجره مقلوبة رأسًا على عقبٍ دون أن يبقى فيها شيء على مكانه..

انكبت على الأرض تُفرز المحتويات بعينين زانغتين سال منهما الدَّمع، ويدين أخذتا تقلابان في كل كبيرةٍ وصغيرةٍ بلهفةٍ غريقٍ يُحاول التعلق بالماء في لحظات الاحتضار؛ شأن كل مُبتلٍ بالفقد وهو يبحث عما فقده للمرة الألف دون جدوى، قبل أن تقتنع -أخيرًا- بأن الأسطوانات قد سُرقت بالفعل ولا أثر لها!

فتحت باب الحجره بصعوبةٍ وهي تُجرجر قدميها للخارج، شاعرةً أنها تُغادر باب الدنيا..

اقتربت من سور السطح وألقت نظرةً واجمةً على سيارة أول رجل أمن يُبدي استعداده لمساعدتها؛ حيثُ يجلس فيها مع مساعده استعدادًا لاستقبالها بكنزها الثمين الذي سيغيب به رؤساءه بعد أن انقلب موقفهم في القضية بشكل مفاجئ، واشتم منهم رائحة التواطؤ والتورط.

ابتلعت ريقها بصعوبةٍ وهي تُحاول أن تتخيل رد فعله لتتسأل الدَّموع من عينها، قبل أن يقطع خيط أحزانها مشهدً غريبً لسيارة

رجليه؛ شأنه شأن الكثير من السحرة الذين صادفهم في حياته وانتهى بهم الحال خلف القضبان..

ما الذي كان يعنيه بانفجار معبد على رءوس أصحابه ليخاطر بحياته أمام قبلةٍ لو انفجرت لانفتحت أبواب الجحيم على مصاريحها إلا إذا كان لديه يقين في أمرٍ أعلى عنده من حياته..

عاد إلى وعيه وتركيزه حين مرَّت شعلة السيارة بين إصبعيه السبابة والوسطى لتتحرقه بعد أن وصلت إلى الرمق الأخير، فوضع فلتر سيجارته العذراء في المطفأة، ثم هبَّ واقفًا بشكلٍ مفاجئٍ وهو يقول:

- هيا بنا!

ارتدى جراب السلاح فوق قميصه، ثم التقط سلاحه الميري ودسّه فيه قبل أن يرتدي فوفه جاكِت بذلته الذي وضع فيه هاتفه المحمول وعلبة سجائره، مستطرًا:

- ستصحبيني إلى غرفة (دميانة) لأخذ الأسطوانات المدمجة التي حصلت عليها.. أعدك بأن أخرجك من المأزق لو وجدت في الأسطوانات ما يدل على صدق كلامك.

- وماذا عن الشَّاب؟

أجابها بنبرةٍ غامضة:

- سنعثر عليه حتمًا.. لا أحد يفر من قبضتنا.

وجمت ملامحها، وقد حارت في تفسير كلماته، لكنها سارت معه على كل حال، مستسلمةً له كدابةٍ يسحبها صاحبها من لجامٍ حين غادرا مكتبه وتوجَّها إلى سيارته التي استقلها بعد أن جلست إلى جواره وهي تُحاول أن تتخيل ما ستسفر عنه الدقائق المقبلة.

انطلقت السيارة في طريقها لغرفة (دميانة)، و(آيات) تُحلق في سماء كوابيس اليقظة، تبحث عن بادرة أمل محتملة وخاتمة سعيدة لهذا التسلسل الأسود من عواصف قدر لم تتخيل يومًا أن يُخبئ كل هذه المفاجآت.



مسرعةً اقتربت من سيارة العقيد، وفجأة ألقى أحدهم منها جسمًا غريبًا ما إن اصطدم بالسيارة حتى انفجرت وأحدث انفجارها دويًا هائلًا جذب الأنظار، ليركض نحوها المارة وأهل المنطقة ويتجمعوا حولها في ثوانٍ بعد أن صارت منطقتهم بؤرة للإرهاب، ومركز جذب للانفجارات في يومين متتابعين، دون أن يشعر أحدهم بذلك الانفجار الذي يحدث بالأعلى في نفسية فتاة تهز رأسها يمينا ويسارًا وهي تتابع الموقف بعينين تكيانٍ بحرقه، واضعةً يدها على فمها لتكتم صرخة هادرة، فيها آخر ما تبقى من إنسانيتها التي تبعثرت مع الانفجار وتحولت إلى أشلاء من اليأس، وشظايا من الانكسار وخيبة الرجاء.

ارتسم التوتر على ملامح (ريمون) وهو يتلقى تلك المحادثة التي أخبره فيها رجاله بأنه تم تفجير سيارة العقيد (يحيى) بنجاح، قبل أن يُنهي المكالمة ويتأمل الرجل ذا العينين الزرقاوين الذي أعطاه ظهره ووقف أمام زجاج الشرفة يمارس هوايته في تنفيث دخانه وهو يتأمل الشئب غير مُبالٍ بتفاصيل المكالمة..

تقدم (ريمون) نحوه، وقال بارتباكٍ وهو ينظر إلى ظهره دون أن يرى عينيه المتوهجتين:

- الأمور تسير من سيئٍ لأسوأ.. فجّرنا سيارة العقيد بعد أن أخبرتنا مصادرننا بأنه عاد يدسُ أنفه في قضيتنا مُجددًا رغم استبعاده، لكنه نجا بمعجزة.. صحيح هو في حالةٍ حرجيةٍ ولم يمت مثل مساعده، لكن احتمال عودته سيظل قائمًا، بخلاف رجالنا الذين لم يعثروا على الأسطوانات المدمجة بعد أن فتشوا غرفة تلك المرأة العجوز ملي ملي.. لماذا لا نخطف (آيات) وتتصدى بنفسك لفتاها الذي تزعم أنك الوحيد القادر على هزيمته؟

أخذ الرجل نفسًا طويلًا من سيجاره، وصنع من زفيره دوائر من الدخان وهو ينظر إلى أعلى متجاهلاً إجابة ذلك المتحدث التافه، منتبهًا لذلك الخصم الذي فاجأه بلعبةٍ جديدةٍ أربكت حساباته وغيّرت مسار المباراة..

رغم صمته، كانت عيناه تقولان الكثير والكثير..

لم يكن في حسابه أن يظهر ذلك الحاخام اليهودي، ولا أن يتورط الشّاب في حادث المعبد ليعتد بهذا الشكل عن (آيات) و(دميانة) التي تلبّسها خبيصًا ليكون بالقرب منه..

ابتسم ساخرًا في وجه السماء وقد شعر بأنها رقعة شطرنج تتقاطع فيها النجوم والكواكب بخطوطٍ طوليةٍ وعرضيةٍ، بينما أمسكت يد من نور بجسد (موريس) وحركته للأمام، فردد في نفسه: "حسنًا.. أعتزف بأنها لعبةٌ مفاجئةٌ وغير متوقعة، لكنني أيضًا لاعب محترف.. هاك لُعبتي الجديدة إن كنت تفضل الاستعانة برجال الدّين وأصحاب السلطات الروحية".

قالها وهو يتخيل يديه تمتدان إلى داخل إحدى الكنائس لتلتقط إحدى النساء من أمام لوحة العشاء الأخير للسيد المسيح، وتضعها في رقعة الشطرنج حيث..

"إحم!"

خرج الصّوت من (ريمون) وهو يصطنع سعلَةً مفتعلةً لجذب الانتباه، فرمقه الرجل بنظرةٍ ناريةٍ وقطّب حاجبيه وهو يُجيب بلهجةٍ بدت كلسعة سَوْطٍ أرعبت السامعين:

- سيحدث ذلك عما قريب.. لا تجعل ما يحدث حولك يُربكك؛ فالمفاجآت أمرٌ محتملٌ دائمًا في أي لعبة، لكن الرابح هو من يُحافظ على هدوء أعصابه ولا تتنيه المخاطر والفواجع عما عزم عليه.  
ثم عاد ينفث دخانه في وجه السماء وهو يتابع ببرود:  
- فقط تابع في صمت، وتعلم أصول اللعب حين تكون المباراة بين الكبار!

\* \* \*

سار الشّاب الوسيم في شارع (الثّبي دانيال) بخطواتٍ متحفزةٍ رغم محاولته المُضنية في أن تبدو طبيعية حتّى لا يجذب الأنظار إليه، لا سيما أنه قام بتغيير هيئته بتلك العباءة البيضاء المزوّدة بغطاء رأس وضعه



على دماغه ليخفي به معظم ملامح وجهه، بعد أن غيّر بذلته التي لَبَّت عليه وصارت جزءًا من تكوينه، ليغادر المعبد اليهودي بمعرفة رئيس الطائفة اليهودية الذي أمّن له عملية الخروج..

تحركت حدقتا عينيه ميمناً ويساراً مع كل خطوة يخطوها، متأهباً لخطر مجهول من رجال الشرطة، وعقله يسترجع كلمات الحاخام (موريس) الأخيرة..

"وجودك هنا يا ولدي صار يُمثل خطورةً عليك وعلينا.. لقد اتصلت بصديقي المُمص يوسف أرمانوس وحكيت له كل ما سبق، ورحب باستضافتك في كاتدرائية مارمرقس.. إنها هنا إلى جوارنا في شارع النَّبي دانيال، لكن مدخلها الرئيسي ستجده في 19 شارع كنيسة الأقباط المتفرع من هذا الشارع.. لقد أخبرني بأنه لديه اجتماع<sup>(1)</sup> اليوم، وسيكون في انتظارك".

تذكر الشَّاب حينَ سأله كيف جمعت الصداقة بينك وبين قس مصري رغم أنك لم تأتِ إلى مصر مُنذُ أن غادرتها، فأجابته الحاخام أنه حضر العديد من مؤتمرات الحوار بين ممثلي الديانات الإبراهيمية الثلاث، اليهودية، والمسيحية، والإسلام، بإشراف الاتحاد الدولي لحوار الثقافات والأديان وتعليم السلام "ADIC"، لا سيما تلك اللقاءات التي عُقدت في جامعة الـ(سوربون) بدولة (فرنسا) الأشبه بالبوقة التي تذوب فيها جميع الفوارق العرقية والعنصرية بين مختلف الأجناس..

هناك التقى الكثير من رجال الأديان الإبراهيمية الذين حملوا جنسياتٍ مختلفةً وجاءوا من أوطانهم بحثًا عن لحظة سلام وتعايش ممكن بين أتباع الأديان الثلاثة الذين تفوق أعدادهم أكثر من نصف البشرية، من خلال البحث الدقيق في النصوص المقدسة اليهودية

(1) خدمة الاجتماع: بخلاف القدايس والأعياد، تعقد الكنائس اجتماعاتٍ بشكلٍ دوري مع شعبها، ويُخصص لكل فئةٍ من البشر اجتماعٌ خاص به، مثل: اجتماع للفتيان والفتيات؛ واجتماع للسيدات؛ واجتماع لشباب الخريجين.. وهكذا.

والمسيحية والإسلامية، وعقد جلسات حوار عميقة تبحث عن الوصايا والتعاليم المشتركة بين تلك الأديان التي تعود في النهاية لنبعٍ إلهي واحدٍ سيعود إليه البشر يومًا، ويقفون خاشعين بين يديه.

"الآن تنتقل الرحلة إلى أرضٍ جديدةٍ حتَّى يقضي الرَّب كلمته.. سنلتقي مجددًا حينَ يحين الوقت المناسب.. لا تفقد ثققتك بالخالق مهما حدث".

ترددت كلمات (موريس) الأخيرة في ذهنه حينَ رأى من بعيد أمين شرطة يتجه نحوه..

أدار وجهه بعيدًا وطوّح بصره ناظرًا إلى اتجاهٍ آخر؛ حتَّى لا يجذب انتباهه.. وفجأةً، ظهر الشَّيخ الأسمر مجددًا بنفس جلابه ناصع البياض، كعادة ظهوره في الأوقات الغريبة ليمنح الشَّاب ابتسامهً غامضةً وهو يمرق إلى جانبه، ثم تعثر في خطاه وأمسك بيد الأمين الذي تشتت انتباهه وهو يُساعد الرَّجل على استعادة توازنه، وحينَ عاد للنظر إلى حيثُ موضع الشَّاب كان الأخير قد اختفى تمامًا.

مع الدَّاخِلين إلى حضرة الرَّب في هيكله، دخل الشَّاب الكاتدرائية المُرقسية بعد أن أزاح عن رأسه ذلك الغطاء المرتبط بالعبادة التي يرتديها من ناحية القفا، ل يبدو في ردائه الجديد الأبيض ملاكًا فعليًا يمشي على قدمين، وليس شابًا ذا أصول ملائكية.

ولج الكاتدرائية وهو لا يعرف أنها قد تهدمت وأعيد بناؤها أكثر من مرّة على مر التَّاريخ.. وفي عام 1870م، تم بناؤها على الطراز البيزنطي مع تزيينها بعددٍ كبيرٍ من الأيقونات المسيحية، ثم تم نقل الأعمدة الرخامية الستة التي كانت ترتكز عليها الكنيسة إلى مدخل الهيكل الذي تُقام فيه الصلاة والقُدَّاس، بخلاف الاحتفاظ بالمنارات بعد تليتها وتزويدها بنقوشٍ قبطيةٍ جميلةٍ وتقويتها.

لمح على يسار الباب الخارجي للكاتدرائية مبنى، لكنَّ أحدًا لم يخبره بأنه يعود للقرن الماضي ويحتوي على مقر البابا ووكيله بالإسكندرية، وقاعات الكلية الإكليريكية المختصة بالعلوم المسيحية.



أرهف الشَّاب السَّمع فتسللت إلى أذنيه ترنيمه (غالي عليك) التي تعمل في الشاشات، ويُشارك شباب الكنيسة الجالسون على المقاعد الخشبية في ترديد كلماتها بأصوات جميلة شجيَّة ليتمايل بعضهم ميمًا ويسارًا وهو يُرثم مندمجًا مع الكلمات ومتأثرًا بها، فيما بكت بالقرب منه عند مدخل الهيكل فتاة كانت تشعل شمعة جديدة عند المنارة اليمنى، وأخذت تتمتم بدعاء سري بينها وبين الرَّب وهي مُغمضة العينين..

وضع الشَّاب قدمه في الهيكل وبدأ يسير بخطواتٍ وثيدةٍ استكشفت فيها عيناه ذلك العالم الجديد؛ ليرى سقف الهيكل المقوس ذا الأطر المتعددة التي تقسمه إلى ما يُشبه أقواسًا مفتوحةً ناحية الاتجاه الأسفل، وقد تدلت منها 7 نجفات على استقامةٍ طويلةٍ واحدةٍ كأنها في طابورٍ ينتظر الوصول إلى لوحة (العشاء الأخير) للسيد المسيح وحوارييه المعلقة فوق المذبح في منتصف الهيكل، وأسفلها نافذة زجاجية على هيئة صليب من الزجاج الملون، وأمام النافذة ثلاثة صلبان كبيرة أحدها على اليمين، والآخر على اليسار، والثالث في المنتصف وترمز للأقنيم الثلاثة الأب، والابن، والروح القدس.

تطلع الشَّاب إلى لوحة العشاء الأخير للمسيح وتلاميذه، وتعلقت بها عيناه لفترة، ثم تداعت في ذاكرته أصواتٍ متداخلةٍ بشكلٍ مشوش دون أن يُفسرها بشكلٍ واضح..

صيحات جنود غاضبين.. أصوات السياط الحارقة وهي تُنسل الجلد وتسيل منه الدماء الساخنة.. طرقٌ وخبطٌ عنيفٌ يخترق اللحم والعظم.. صرخات ألم واستغاثة..

أغمض الشَّاب عينيه وكرمش ملامح وجهه وقد بلغ التشويش والتداخل بين الأصوات مبلغه، ثم فتح عينيه ببطء ووضع تلك الصورة في ذاكرته الجديدة مع باقي ما شاهده من أيقونات أثرية في تلك الكاتدرائية، أحدها ليسوع، والأخرى لمريم العذراء وكلاهما مطلي

ترجَّل داخل الكاتدرائية مُتجهًا نحو الهيكل الذي تقف عنده العمدان الستة، وعلى عتبة بابه شعر برهبةٍ تسري في أوصاله دون أن يعرف سرها، ليقف في مكانه لحظاتٍ أرسل خلالها حواسه إلى الدَّاخل ليستكشف ذلك الاجتماع الذي يحدث بين رجال الكنيسة وشعبها.. اشتَمَّ أنفه رائحة البخور النفاذة الذي أشعله أحد القساوسة في الشورية بعد أن ملأها خُدَام الكنيسة بالجمر، لتملأ رائحة البخور نفوس شعب الكنيسة بالروحانيات، بعد أن اختلطت برائحة الشموع المحترقة.. رأت عيناه عند المدخل (صندوقيّ عطاء) حمل كل منهما اسم أحد المنتحين الذي تم تقديم الصندوق باسمه كصدقةٍ جاريةٍ على روحه؛ حتَّى يضع المصلون الصدقات في ثقب الصندوق من أعلى وتذهب لصالح الكنيسة..

وعلى أقصى اليمين واليسار كانت هناك مكتبتان تحملان الكُتُب المُقدَّسة، وفي المكتبة اليمنى تحديداً مطويات ورقية تحمل اسم (الينابيع الإلهية) تصدر بشكلٍ دوري عن الكاتدرائية، وتحمل دروسًا ومواعظ وصلواتٍ مكتوبةً، متاحة لمن يريد أن يأخذها..

وإلى جوار كل مكتبة كان هناك سلم حديدي حلزوني يقود لأعلى، بخلاف منارتين كنسيتين، كل منهما عبارة عن قائمٍ معدني يحمل صينيةً بها رمالٌ عُرسَت فيها الشموع المشتعلة، بخلاف شموع أخرى جديدة موضوعة في باكت بلاستيكي، تنتظر من يُخرجها ويغرسها في الرمال ويشعلها تقريبًا للرب، وترمز كلتا المنارتين إلى العهد القديم قبل ظهور المسيح، والعهد الجديد المرتبط بميلاده وظهور المسيحية على يديه.

داخل الهيكل كانت هناك مصفوفات من المقاعد الخشبية المترصَّة يجلس عليها فتیان وفتيات الكنيسة؛ حيثُ كان الاجتماع مُخصَّصًا هذه المرَّة للشباب، وإلى جوار تلك المقاعد الخشبية على أقصى اليمين وأقصى اليسار أعمدة رخامية ملصوقٌ عليها ورق حائط منقوش عليه صلبان، ومعلق على هذه الأعمدة من أعلى شاشات LCD تذبذب ترانيم مسيحية حلوة الصَّوت، هادئة اللحن الذي تغلب فيه الآلات الوترية..



بالذهب والفضة، وأيقونات أخرى أثرية للقدسين الشهداء مارمرقس ومارجرس ومارمينا، بخلاف أيقونتين للأبنا أنطونيوس والأبنا شنودة. شعر الشَّاب بأن ثمة رابطًا يربطها جميعًا لا يدري كنهه، وكان صادقًا في إحساسه؛ حيثُ انتمت جميعًا للفن القبطي.. لكنه في ظلِّ هذا التَّأمل والتطلع لهذا العالم الجديد لم يكن يعلم أنه نفسه صار محط أنظار الجالسين حينَ غزا سحرُ شذاه أنوفهم جميعًا في وقتٍ واحدٍ جالبًا معه مملكة السَّماء إلى الأرض!

تركيبةً روحانيةً صنعها القدر في ظرفٍ استثنائي نادر الحدوث؛ حينَ اتحد في وقتٍ واحدٍ عطرُ الملائكة الذي لا مثيل له على الأرض بجمال (يوسف الصديق) غير المتكرر، مع صوت ترانيم مُجَّد اسم الربِّ، لتهب تحت سقف الهيكل مع دخول الشَّاب نسمة رقيقة داعبت الوجوه، وتسَلَّت عبر الأنوف إلى الأرواح والأنفس لتحملهم إلى عالم الملكوت وهم لا يزالون جالسين على مقاعدهم في بيت الرب بالأرض.

بعضهم تعرَّض لهزَّةٍ نفسيةٍ وظلَّ ينتفض فجأة، وأخرى أخذت تنتحب بشدة بعد أن شعرت بخطاياها تتجسد أمام المسيح فانهارت خجلًا، ليلاحظ الشَّاب الوسيم ذلك قبل أن يقع بصره على صاروخ! وهكذا كان أهل البلد يقبون فتياتهم بالغات الجمال والجادبية.. وهكذا كانت تستحق أن تُسمى.

لو شاهد الشَّاب الوسيم (سكارلت جوهانسون) من قبل لظن أن تلك الفتاة التي تُحملك فيه هي توءمها المطابقة لمواصفاتها الشكلية تمامًا بفارق شعرها الأسود ذي الخصلات الحمراء المصبوغة بدم الغزال، والذي كان مُسرَّحًا بطريقة الـ "كيرلي".

انهارت الحصون الدفاعية لفاتنة الكنيسة أمام سحره الطاغي، وأعلنت استسلامها من أول ثانية، وهي التي حصلت على "توب سكور" في مغامرات جمع القلوب المحطمة، وأكبر عددٍ من علامات الإعجاب والتعليقات على صورها في مواقع التواصل الاجتماعي والتدوينات القصيرة، دون أن ينجح سهم كيوبيد يومًا في إصابتها ولو بخدشٍ واحدٍ على مدى

جولات لعبة الإغراء التي بدأتها مُنذُ أن خرَّطها خراط البنات بمواصفاتها الصاروخية، حتَّى إنها تجاهلت كل من حولها، ولم تبالِ بـ "بريستيجها" كـ(فينوس) التي اعتادت النَّظر للجميع من فوق برجٍ عاجي، حينَ أشارت إليه مبتسمةً ليجلس في ذلك المقعد الخالي بصف الشَّباب ويجاور مقعدها بصف الفتيات، وإن فتنت عليها نظراتها وقالت عيناها إنها تتمنى لو خالف العُرف وجلس إلى جانبها على نفس مقعدها لتسأله: ما اسمك؟ وتخبره أن اسمها (كريستين عيَّاد).

انتهت الترانيم وحن موعِد العظة، فجلس الشَّاب في المكان الذي أشارت إليه سبابة الفتاة، وقد عاوده عند النَّظر إلى عينيها ذلك الشَّعور المؤلم الذي انتابه حينَ بات في السَّطح بجوار غرفة (دميانة)، وشعر أن شيئًا ما داخله ليس على ما يرام، لينقذه من تلك الأحاسيس والهواجس عظة القمص (يوسف أرمانوس) ذي الملامح الهادئة الرصينة التي تدل على سنوات عمره الخمسينية، وقد ارتدى نظارةً طبيةً ذات إطارٍ أسود تماشى مع لون بشرته الأبيض، وقال بكلماتٍ هادئةٍ عبر الميكروفون:

- بسم الأب والابن والروح القدس، الإله الواحد أمين.. نشكر الله على هذه الفرصة المباركة التي سمح بها أن نجتمع في بيته لنظهر خطايانا، ونعيد تذكير أنفسنا بنعمه ومجده.

حديثنا اليوم يا أحبائنا المسيح سيكون عن الملائكة، وكيفية سقوط الشياطين لتتعلم منهم أعظم درس على الإطلاق.. لا أحد في أمان تام من السقوط في ظلمات الجحيم حتَّى وإن كان ملاكًا!

كلمة ملاك تعني رسولًا، وللملائكة أجسادٌ لطيفةٌ من النَّار أو الهواء.. قدراتهم غير محدودة.. هم أكثر قوةً، وسرعةً، ونشاطًا من الإنسان.. سواء في معرفة الأشياء، أو التوصل إلى حقائق الأمور.. ملاكٌ واحدٌ قادرٌ على هزيمة جيوشٍ بأكملها.. لا يمرضون، ولا يضعفون، ولا ينامون، ولا يموتون؛ لأنهم كائناتٌ روحانية.. ولا يحتاجون إلى زمنٍ كبيرٍ في انتقالاتهم، ولا يتزوجون..



خلقهم الله في اليوم الأول من أيام الخلق؛ حيثُ خلق الله النُّور؛ لذا قال لنا الكتاب المُقدَّس أكثر من مرّة، -وفي أكثر من آية- إنهم أرواحٌ مقدسةٌ؛ أو أرواحٌ قاهرة؛ وهم أيضًا قديسون ونورانيون؛ طبيعتهم نورانية.. لكن رغم ذلك سقط بعضهم بخطيئة التكبر وأصبحوا شياطين، ومنهم الرئيس لوسيفر زهرة بنت الصبح الذي ورد ذكره في سفر (إشعياء).

أما عن أنواع وفصائل الملائكة يا إخواني فهم ثلاث طغمت..

الطغمة الأولى تشتمل على ثلاثة أنواع: السارافيم، وهم ملائكة يضطرون بحجة الله أكثر من بقية الملائكة.. والكاروبيم، وهم أعلم وأكثر نورًا، ومنهم الكاروبيم المتسلح بسيف لهيب نار على الفردوس، يحفظ شجرة الحياة بعد طرد آدم وحواء.. ومنهم العروش، وهم الملائكة الذين يكونون للعزة الإلهية بمنزلة منابر وكراسيٍ مجيدة.

وكذلك تشمل الطغمة الثانية ثلاثة أنواع: القوات، وهم الذين وهبهم الله قوةً عظيمةً لفعل العجائب.. والسلاطين، وهم الأرواح الذين يضبطون سلطان الشياطين وجهنم، وقد أقامهم الله -عز اسمه- على الأرض لحفظ نظام العالم، وقد سموا سلاطين؛ لأنهم يُظهرون سلطان الله تعالى وقدرته الضابطة.. والسيادات، وهم الأرواح الذين لهم سلطانٌ على البشر وعلى الملائكة الذين هم أقل منهم كمالًا.

أما الطغمة الثالثة من الملائكة فتتكون بالمثل من ثلاث فصائل: الفصيلة الأولى اسمها الرياسات، وهم الملائكة الذين لهم سلطانٌ خاص على الممالك لحفظها.. أما الفصيلة الثانية فتتكون من رؤساء الملائكة، وهم الملائكة المرسلون لأعظم الأمور.. ويقول عنهم يوحنا الرائي في سفر الرؤيا: "ورأيت السبعة الملائكة الذين يقفون أمام الله؛ أي أن رؤساء الملائكة سبعة وهم: الملاك الأول ميخائيل الذي يعني اسمه (من مثل الله)، وهذه العبارة قالها الملاك ميخائيل حينما حارب الشيطان حين تكبر وأراد أن تكون له قدسية مثل قدسية الرب، ويعد ميخائيل رئيسًا لجميع طغمت الملائكة، وملاك القيامة الذي بشر النسوة حاملات الطيب قائلاً لهن: المسيح قام من الأموات.. والملاك الثاني جبرائيل أو

غبريال حسب بعض الترجمات القبطية، ومعنى اسمه: رجل الله، وحمل كثيرًا لبني الإنسان البشائر الطيبة التي غيرت تاريخ الإنسانية؛ فقد أرسل إلى أورشليم ليحمل البشارة لزيكيا في شأن ولادة يوحنا المعمدان، وأرسل أيضًا إلى الناصرة ليُبشر العذراء مريم بأنها ستكون أمًا للمسيح.. والملاك الثالث رافائيل الذي كشف عن نفسه في سفر طوبيا قائلاً: "أنا رافائيل الملاك، أحد السبعة الواقفين أمام الرب"، وكلمة رافائيل معناها دواء الله، وبعض الآباء يقبونه مُفَرِّح القلوب لقوة شفاعته لدى المؤمنين وحرصه على إدخال الفرحة والسعادة على قلوبهم.. وباقي الملائكة الرؤساء السبعة لم يرد ذكرهم في الكتاب المقدس، وإنما ذكروا في كتاب التسابيح المسمى (الإبصلمودية)، وهم: سورئيل، وسداكيئيل، وسرائيئيل، وأنانيئيل.. أما الفصيلة الثالثة في الطغمة الثالثة فتتكون من باقي الملائكة الذين يخدمون في شتى الأعمال الأخرى<sup>(١)</sup>.

والملائكة يا إخواني تشفع لنا مثلما يشفع القديسون العظام من صالحى البَشَر؛ لذا تتوسل إليهم في صلواتنا بالشفاعة حتّى يصعدوا بصلواتنا إلى الله، ويشفعوا من أجل سلامة العالم، وتوبة الخطاة التي يفرحون بها.. فهم يحبوننا وعلينا بالمثل أن نبادلهم المحبة، بل نعي أن تقديسهم وتمجيدهم هو في الواقع تمجيد لله نفسه؛ إذ يقول الوحي الإلهي على فم داود النبي: "الله يتمجد في قديسيه"، وقال أيضًا: "سُحوا الله في جميع قديسيه"، ومن مظاهر التمجيد والإكرام وضعت الكنيسة -بإرشاد الروح القدس- تماجيد خاصة باسماء الملائكة، تُذكر في التسابيح الكنسية في مناسبات تذكاراتهم وأعيادهم.

ولكن بعض الملائكة وعلى رأسهم "سطانائيل" الذي كان ينتمي لجماعة "الكاروبيم"، انحرف بفكره إلى الخطأ، وأراد أن يُساوي نفسه بالخالق، معتقدًا أن مجده ذاتي، وليس مكتسبًا من الله، فدخله المجد الباطل وأراد أن يصير مثل الله؛ لذا يقول له (إشعياء النبي): "أنت قلت

(١) وردت هذه المعلومات عن الملائكة (في العقيدة المسيحية) في تقسيم القديس غريغوريوس في كتابه (مروج الأخبار في تراجم الأبرار)، وموقع الأنبا تكلا وعدد من المواقع المسيحية.

في قلبك أصدد إلى السَّمَاوَاتِ.. أرفع كرسيّ فوق كواكب الله، وأجلس على جبل الاجتماع في أقصى الشمال.. أصدد فوق مرتفعات السَّحاب، أصير مثل العَلِي، لكنك انحدرت إلى الهاوية، إلى أسافل الجُبِّ".

وهكذا سقط الشَّيْطَان بعد أن كان رئيس الملائكة وأعظمهم شأنًا، رغم الحكمة الكاملة التي وهبها الرَّبُّ إياه.. وفقد مع السقوط قداسه ليتحول إلى وحشٍ روحي أغوى معه بعض الملائكة من الرتب السَّمائية المختلفة، وجرَّ سقوطه كثيرين من جماعة الكاروبيم، والرؤساء، والقواد، والسلاطين، والأرباب، وسُمِّي مُنذُ هذه اللَّحظة بـ(سطنائيل)؛ أي المعاند أو المقاوم لله؛ لأنه لم يرجع عن سقطته، ولم يشعر بخطئه، ولم يطلب التَّوبة.

زوى الشَّاب الوسيم ما بين حاجبيه وسرح في كلمات القُمص التي ضربت شيئًا خفيًّا في أعماق أعماقه، ف شعر أنه ينفصل عن الجمع المحيط به بعد أن تلاشت صورة الهيكل في عينيه وظن أن الأرض تتبدل بغير الأرض، والسَّمَاء بغير السَّمَاء، ليبقى فقط من المشهد صوت القُمص الذي استطرد:

- ورغم علو منزلة الملائكة فلم يشفق الله على الذين سقطوا وأخطأوا منهم؛ بل في سلاسل الظَّلام طرحهم في جهنم، وسلمهم محروسين للقضاء بقِيودٍ أبديةٍ تحت الظَّلام، والمقصود بالقضاء هنا هو يوم الدَّيْنُونَة.

ويقول سفر الرؤيا: "حدثت حربٌ في السَّمَاء.. ميخائيل وملائكته حاربوا التنين.. وحارب التنين وملائكته ولم يقووا، فلم يوجد مكانهم بعد ذلك في السَّمَاء.. فطرح التنين العظيم الحيَّة القديمة المدعو إبليس والشَّيْطَان الذي يضل العالم كله، طُرح إلي الأرض وطُرح معه ملائكته".

ويقول سفر الرؤيا أيضًا: "ويلٌ لساكبي الأرض والبحر؛ لأن إبليس نزل إليكم وبه غضب عظيم، عالمًا أن له زمانًا قليلًا"، وهذا ما حدث بالفعل حين انتحل إبليس هيئة الحيَّة ودخل الجنَّة وأغوى حواء وآدم وجعلهما يتساويان معه في نفس خطية عدم الطَّاعة لله، ثم سقط الجنس البشري نتيجة لذلك ودخلت الخطية العالم.

أغمض الشَّاب عينيه ليولي جُل تركيزه مع حاسة السمع فقط؛ محاولًا أن يستعيض البصر بصورةٍ بديلةٍ أخذ ينقُب عنها في الذاكرة، دون أن يشعر بالرَّجُل ذي العينين الزرقاوين والبدلة الرمادية وهو يدلف الهيكل، ويجذب شمعةً يُوقدها ثم يغرسها في الرمل وعلى وجهه ملامح يَحَار في فهمها وتفسيرها أبرع قارئٍ لغة الجسد وأشهرهم فراسةً، في الوقت الذي كان القُمص يقول فيه:

- والكتاب المقدس يشهد أن هذا الملاك الساقط قد أغوى الجميع وحاول إسقاطهم بشتى الطرق والأساليب بمقاصده الشَّريفة وتجاربه المتنوعة للعينة، حتَّى إنه تجرَّأ وأقدم على محاولة فتنة السَّيِّد المسيح نفسه، وكل هذا يجعلنا نتوخى الحذر في علاقتنا بربنا.. فقد سقطت الملائكة وأبونا آدم.. وكلنا معرضٌ للسقوط مهما كانت درجة الإيمان.

لمعت عينا الشَّاب بالدموع، بينما ابتسم الرَّجُل ذو العينين الزرقاوين ابتسامةً غامضةً وهو يتأمل الهالات المحيطة بأجساد الحاضرين قبل أن تلفت نظره الهالة الحمراء المحيطة بـ(كريستين) حين قال القُمص:

- لكن كيف توقع بنا الشَّيْطَان دون أن نشعر؟ يحدث ذلك من خلال كلماتنا، أو الأمور التي نحباها؛ فهم يكتشفون الأفكار التي يطرحونها علينا من خلال الانفعالات والعلامات الظاهرية التي يفعلها الإنسان عندما يتلقَّى وساوسهم.. فحين يكون الواحد منا صائمًا يهيئون أمام عينيه مناظر أتعمة شهية وراقبون رد فعله وتصرفه.. فإذا ما رأوه يتطلع إلى السَّاعة منتظرًا ميعاد إفطاره من الصوم الانقطاعي، على الفور يُدركون أنه قد قبل شهوة النهم، وأنها مدخل جيد للتغريب به.. وإذا ما أثاروا فينا بواعث الحزن أو الغضب أو الشهوة الجنسية فإنهم يستطيعون أن يدركوا إن كانت لها جذورٌ في القلب أم لا عبر حركات الجسد والاضطرابات المنظورة على وجه الإنسان، أو أعضاء جسمه المختلفة، وبهذا يكتشفون بدهاء الأخطاء التي يسقط فيها الإنسان ومدى تقبله لها؛ لأنهم يعلمون إن لكل إنسان خطيةً معينةً ينجذب إليها على الدوام، وهذا ليس بعجيب؛ فالإنسان نفسه يستطيع



أن يكشف حال غيره من الإنس ويعرف كيف يشعرون من الدّاخل من خلال نظراتهم وحركاتهم الخارجية، فما بالنّا بمن هم أكثر دهاءً وحذافةً من البَشَر؟

لذا راقبوا أنفسكم من الدّاخل واحرصوا على تهذيبها في الخفاء أكثر مما تحرصون على إظهارها بالمظهر المُنمَّق أمام النَّاس؛ فهناك أعينٌ لا تنام تراقبكم وتتسلل إلى أرواحكم من أبواب النَّفس التي تتركونها مفتوحةً وأنتم لا تشعرون.

ومع كلمات القُمص الأخيرة، اتسعت ابتسامَةُ الرَّجل ذي العينين الزرقاوين وهو يتأمل هالة الشّاب التي فقدت الكثير من وهجها وبدا لونها الأخضر باهتًا، ليغادر الرَّجل الهيكل ويقطف زهرة من إحدى الأشجار ويشمها ساحبًا من أنفه نفسًا طويلًا وهو مغمض العينين، قبل أن تنقلب سحنته وهو يلقيها أرضًا ويدهسها بحذاءه.

\* \* \*

## (17)

مالت الشَّمس إلى المغيّب حينَ تعالت يد (موريس) بالطَّرْقِ على باب غرفة (دميانة) دون أن يفقد الأمل في رؤيتها مجددًا رغم إجابة الصّمت التام على طرقاته وكأنّه يقف أمام قبرٍ قديمٍ تعفّن كل من فيه، لكن... الانتظار في حرم الأحبّة فضيلة.

واصل الطَّرْق بلا يأسٍ، وشيء داخله يخبره بأن خلف هذا الباب حبًّا قديمًا لن يخلده بعد كل هذه السنين، وما أصدق حدس العاشقين حينَ تستبد بهم المشاعر.

هوى قلب الحاخام بين ضلوعه حينَ تراجع الباب للخلف مع صوت الصرير المميز لمفصلاته البالية، ثم طلّ وجه (دميانة) العابس الذي ذهب عنه صَعْف وتخاذل الأمس، وقد حلت محله الصرامة والقسوة التي تطل من عينين متمرتين قبل أن تزم شفيتها وتقول بصوتٍ خشنٍ:  
- ماذا تريد؟

صفحه سؤالها بكل ما فيه من جحودٍ لذكريات الأمس البعيد، وأثارت دهشته تلك النبرة الغريبة ذات الرنة المعدنية التي لم يتخيل أن تسيطر على أحبالها الصّوتية يومًا حتّى وهي عجوز مُسننة!  
استغرق ثواني أخذ فيها يتطلع إلى ملامحها وهو لا يُصدق نفسه، قبل أن بعينين متسعيتين وقلبٍ يتخبط بفعل زلزال الصدمة:

- أهذا ما جاد به لسانك بعد كل هذه السنين؟ هل نسيت (موريس) يا (دميانة)؟!





جسدها المُحتل أن تفعل شيئًا حيال قصة حبها الوحيدة وهي تكتب فصلها الأخير رغماً عنها بيد لا سلطان عليها أو إرادة.

\* \* \*

ارتعدت فرائص (آيات) وهي تقتربُ من الكاتدرائية في الساعات الأولى من الصُّباح، بعد ليلة ليلاء لم تذق فيها طعم النَّوم؛ خوفًا من طَرَقَاتٍ مفاجئةٍ قد تدوي في أي لحظةٍ على باب حجرتها من قوات الأمن لاستجوابها بشأن ما حدث للعقيد (يحيى)، وإعادة فتح ملفاتها القديمة التي تبذل قصارى جهدها لدفنها في سابع أرض، أو من رجال (ريمون) الذي حتمًا ما سيعود للانتقام دون أن يكون إلى جوارها ملاكها الحارس، لكنَّ أحدًا لم يأت؛ لتستنتج أن وزارة الدَّاخلية لم تعرف بتفاصيل لقاء العقيد الأخير بها -على الأقل حثَّى الآن- ولم تربط بينها وبين الشَّاب الوسيم مثلما ربط هو، وأن (ريمون) لا يزال في أزمةٍ تؤجل انتقامه، وهو ما قد يؤجل العاصفة، لكنها آتيةٌ لا ريب، وعليها تدبير أمرها.

لكن.. أين ذهب فتاهما الذي أرسلته إليها الأقدار في لحظةٍ فارقةٍ في حياتها؟ هل افتقدت حمايته وقوته الخارقة التي جعلتها تُغمض عينيها وتنام في سكينَةٍ وهدوءٍ لأول مرّة في حياتها مُنذُ أكثر من 20 عامًا مضت، أم افتقدت ذلك الشُّعور نفسه الذي غزا قلبها في حضرته وغيرَ نظرتها للحياة والبشر؟

ارتعبت حينَ تخيلت (ريمون) ورجاله يقتحمون حجرتها ويجذبونها من شعرها ليختطفوها في مكانٍ آمنٍ يُدبقوها فيه كل صنوف التَّعذيب الوحشي انتقامًا منها على ما تسببت فيه، دون أن تجد من تحتمي به هذه المرّة من بطشهم، لكن (دميانة) التي استردت وعيها وصار صوتها أكثر غلظةً وخشونةً بشكل مفاجئ، أخبرتها بأن (ريمون) لن يُغامر بالإتيان إلى مكانٍ تعرّض لهجومٍ إرهابي يومين متتاليين، ومن المحتمل أن رجال المباحث والشُّرطة منتشرون في كل جنباته، ثم فجّرت أقصى مفاجأتها حينَ مدّت يدها بمبلغٍ سخّي من المال وطلبت منها أن تأخذه وتدبر به حالها مؤقتًا، ثم تُعيده حينَ ميسرة!

"مُحال أن أفعل.. لا تصدق تلك الكلمات المكذوبة التي ينطقها لسانٌ فقدت السيطرة على لجامه.. خذ بيدي وحررني مما أنا فيه لأجيبك بكلماتٍ لم تنطقها من قبلُ السَّنة العاشقين".

هكذا صرخت من داخلها بصوتٍ لم يتجاوز شفيتها، بينما نطق لسانها المزيف وشفاتها المُحتلتان:

- بل سأظلُّ أذكر قاتل أبي، خائن العهد الذي تركني في أمسِّ الحاجة إليه وعاد بكل صفاقةٍ بعد عشرات السنين التي انقطعت فيها أخباره تمامًا، ينتظرنني أفتح له ذراعِي ليرقي في حِضني.. لم يدركم عانيت حينَ تركني وحيدة.. لم يعرف أنني سافرتُ إلى القُدس وصار النَّاس ينادونني بالمقدِّسة فقط من أجل عينيهِ؛ لعلني أراه ولو صُدفةً وأقنعه بالعودة معي قبل أن أعود بخفي حُنين.. فهل رأيت سفالة أكثر من ذلك؟

- لا تجعلني نظرك القاصر هو المعيار الأوحده في تقييم الأمور يا حبيبة الأمس.. أنتِ لم تسمعي حكايته بعد.. رُب أمورٍ تجهلونها قد تجعلني مجنيًا عليه مثلك تمامًا ويستحق شفقتك.

- فلتبحث عن الشفقة في بيوت الرِّب التي يتضرع فيها المغفلون لإله لا يسمع الأوجاع أو يشعر بها، أما هذا المكان فقد صار وطئًا لا يتسع سوى لقلبٍ مُحطمٍ كَفَّر بكل شيء.

قالت كلماتها الأخيرة وهي تشير بسبابتها للخارج لتطرده من حياتها للأبد، فحفظت عيناه وارتسم الهول على ملامحه لثوانٍ تمنى فيها أن يكون كل هذا مجرد كابوسٍ لا أساس له في الواقع، لكنَّ الإصرار والشراسة المنحوّتين على قسمات وجهها كجلمود صخر حطما آخر ما تبقى لديه من أمل لينسحب بقدمين لا تطاوعانه على المشي، ويُغادر السُّطح ساحبًا خلفه أذيال الخيبة ولُثات حبه القديم، دون أن يلاحظ في تلك اللحظات النحسات أنه رغم وجه (دميانة) الكامس، اللابدة فيه القسوة بأعنى صورها، ثمة دموع ساخنة نزلت لتُبدي لواعج الأسف، لكن نزولها جاء متأخرًا بعد أن ولأها ظهره مُنصرقًا، دون أن تملك روحها الحبيسةً داخل



اقتربت من الهيكل مع عشرات الوافدين من شعب الكنيسة وهي لا تزال تشعر بالاغتراب والخوف وكأَنَّها ابنة دين آخر تتسلل إلى القُدَّاس الإلهي لاستكشافه، ولا تعرف ماذا ستقول إذا ما انكشف أمرها!

فور أن أصبحت داخل الهيكل عقدت حاجبيها، ثم أخذت من أنفها نفسًا عميقًا عبَّأت به صدرها وهي تتلفت حولها بحثًا عن الشَّاب الوسيم الذي شَمَّت رائحته المتفردة حولها، بينما اشْرأب عنقها في محاولةٍ لإرسال النَّظر إلى كل ركنٍ بعيدٍ قد يكون فتاها واقفًا فيه، بينما تتردد الصلوات داخل الهيكل:

- كيرالييسون كيرالييسون<sup>(1)</sup> يا رب ارحم.. كيرالييسون كيرالييسون ارحمنا يا الله.. كيرالييسون كيرالييسون اسمعنا وارحمنا. اختارت (آيات) مكانها في إحدى مصفوفات الهيكل الخشبية، وقد أشعل يقينها بوجود الشَّاب ثورتها، لتفتش عن وجهه الملائكي في كل وجهٍ يسقط عليه ناظرها..

مرَّت عيناها أثناء البحث عنه على رجال الكهنوت بتونياتهم البيضاء التي يرتدونها في القُدَّاس الإلهي رمزًا ليوم القيامة الذي سُبِّعت فيه الخلائق بأجسادٍ روحانية، متسرلين بثيابٍ بيض كما جاء في سفر الرؤيا، بينما اختلفت باقي الأزياء حسب درجاتهم ورتبهم المتفاوتة؛ بين شماسين وكهنة وأساقفة، ثم واصلت البحث عنه بقلبٍ تسارعت دقاته وهز كيائها بعنف حتَّى كادت تغطي على صوتي الدُف والترانيم اللذين يتم استخدامهما في القُدَّاس الإلهي لتحريك مشاعر المُصلِّين، وتعميق الإيمان في أرواحهم، وجذب عواطفهم نحو الله، بينما لعبت رائحة الشَّاب في الهيكل دورًا روحانيًا أعظم من كل الألحان الكُنسية والشموع والبخور، وجعلت الحضور يقسمون في قرارة أنفسهم إن هذا القُدَّاس هو أعظم قُدَّاس إلهي حضروه في حياتهم، حتَّى خُيِّل إليهم أن المسيح كاد يتحرك في لوحة العشاء الأخير!

(١) كيرالييسون: كلمة يونانية تتكون من مقطعين: (كيري) وهي اختصار لكلمة (كيربوس) أي يا رب، وكلمة (ليسون) أي ارحم؛ ومعناها الإجمالي (يا رب ارحم)، وتقال في الصَّلَاة عامة، والصلوات الطقسية خاصة، وفي صلوات القُدَّاس.

وحَتَّى تكتمل ليلة المفاجآت، زارها (ألبرت) أمين عام الخدمة واجتماعات الخريجين في الكاتدرائية، وأخبرها بأن إخوانها هناك يفقدونها<sup>(1)</sup>، بعد أن ظنت أن الكنيسة قد نسيتها وصارت نسيًا منسيًا. صحيح أنها كانت غاضبةً منه مُنذُ أن كانت ملتزمةً وتذهب للكنيسة قبل انحرافها، بعد ذلك الموقف السخيف حينٍ تحدث في أحد الاجتماعات عن عذوبة الحياة في السَّماء يوم الدينونة، وكيف سيتعرف المسيحيون إلى أفراد عائلاتهم وأصدقائهم والأنبياء والقديسين، وقَدَّم براهين كثيرة من الكتاب المقدس، فسألته حينها بحنق: وهل يعرف بعضنا بعضًا على الأرض؟ ليندهش كل الحاضرين من سؤالها، قبل أن تُتابع بقهر: لى ثلاث سنوات أشترك في هذا الاجتماع ولم يسألني أحدٌ عن مشكلاتي التي تذرف بسببها عيناى الدموع وأنا معكم دون أن يشعر بي أحد، أو يهتم بالسؤال، فهل نهتم بالذين سبقونا إلى الفردوس، بينما لا نهتم نحن هنا ببعضنا البعض؟ ثم رحلت ولم تعد من يومها بعد أن تركت (ألبرت) مبلولًا ليشعر بالذنب ويحاول استعادتها من يومها بلا جدوى، بعد أن أدرك مدى فداحة خطئه حينٍ نسي أن الخادم الروحي هو إنجيلٌ متجسدٌ، وكنيسةٌ متحركةٌ، بل صورة الله أمام تلاميذه، ووسيلةٌ إيضاح لكل الفضائل وها هو ذا يأتي إليها في الوقت المناسب ليأخذ بيديها مجددًا إلى الرب، دون أن تتجاهله أو تصده مثلما فعلت من قبل.

دخلت الكاتدرائية غير مُصدقةٍ أن قدميها عرفتا الطَّريق مجددًا للمسيح، بعد أن هجرته أعوامًا كانت فيها صورته هو وأمه لا تفارق عينيها، دون أن تجرؤ على الارتقاء في حِضنه بجسدٍ أثقلته الخطايا والدنس، أو حتَّى لبس صليبه في عشرات السلاسل الذهبية التي تداولت على صدرها بعد أن فركتها الأيادي!

(١) خدمة الافتقاد: خدمة كُنسية تطوعية، يقوم من خلالها بعض المتطوعين الذين يُطلق عليهم (خُدَّام الكنيسة) بتفقد إخوانهم المنقطعين عن الكنيسة والأخذ بأيديهم حتى يعودوا إليها مرةً أخرى، وهي مستوحاة من مقولة للقديس بولس الرسول: "لنرجع ونفقد إخوتنا في كل مدينة نادينا فيها بكلمة الرب كيف هم".

وعلى مدى ما يقرب من السّاعة التي استغرقها قداس الموعوظين الذي يُسمح فيه للجميع بالحضور سواء مسيحيين أو غير مسيحيين، استمعت (آيات) للبولس والكاثوليكول والسكسار والإيراكسيس والمزمور والإنجيل دون أن تئنس من التنقيب والتفتيش عن الشّاب بعينها، حتّى إنّ دعواتها ليسوع بعينها وهي تتأمله في لوحة العشاء الأخير ركزت على أن يجمعها بفتاها من جديد دون أن يفترقا بعدها، حتّى غطت هذه الأمانة اللحوح على دعواتها لنفسها بالتوبة والنّجاة من برائن (ريمون) ورجال الشّرطة.

وبعد انتهاء العظة تم إخلاء الهيكل من غير المسيحيين الأرثوذكس المتعمّدين؛ تهيئاً لتناول جسد المسيح من الرجال والنساء الذين انفصلوا على جانبي الهيكل في النّصف الثاني من القدّاس المخصص للمؤمنين بالعقيدة المسيحية فقط..

كان لقاءً من نوعٍ خاص مع المسيح من خلال تقديس النفس بالتوبة، ثم تناول جسده الذي يرمز إليه بالخبز، والشرب من دمه الذي يرمز إليه بالنبيذ، من خلال طقس (التناول) الذي يُعد سرّاً من أسرار الكنيسة السبعة أو أسرار الملكوت.. سر المعمودية، سر الميرون، سر تناول جسد المسيح ودمه، سر التوبة والاعتراف، سر مسحة المرضى، سر الزيجة، سر الكهنوت، ويُعدّ تناول تذكاراً للعشاء الأخير للمسيح مع تلامذته حين قال لهم: "في كل مرةٍ تأكلون من هذا الخبز، وتشربون من هذه الكأس، تبشرون بموتي، وتعترفون بقيامتي، وتذكرونني إلى أن أجيء"، وتحل على نفوس الحاضرين -بعد التوبة والتناول- القدسات الإلهية، وتتحد أجسادهم بجسد المسيح ويعيشون معه حياة أبدية حسب إنجيل يوحنا: "من يأكل جسدي ويشرب دمي فله حياة أبدية، وأنا أقيم في اليوم الأخير".

خلا الهيكل من رائحة الشّاب المميزة حين غادر مع غير المسيحيين الأرثوذكس، فغادرت (آيات) المكان كمن ندهتها النّداهة وظلت تبحث عنه بأنفها وهي مغمضة العينين قبل أن تعثر عليه حاسة شمها، لتفتح

عينها ويقع عليه ناظرها بالخارج، لكنه لم يعد وحده، بعد أن تعرف إلى الجميلة (كريستين) التي ارتسمت على ملامحها الفاتنة أعذب ابتسامة من الممكن أن تبتسمها امرأةٌ لا سيما حين صبغت شعرها باللون الأصفر الذهبى وسلّمته إلى السيشوار وال"بيبي ليس" لتصير أكثر جمالاً وسحرًا مع تلك النعومة الحريرية التي جعلت خصلاتها تتطاير مع نسيمات الهواء وتتدلى على وجهها الحليبي وعينها الخضراوين المحفوفتين بمحدّد عيون أسود جعلهما مسحوبتين على الطريفة الفرنسية، وقد خرجت مع الشّاب من الهيكل بعد أن حضرت في منتصف القدّاس ولم يعد مسموحًا لها بالتناول.

تزلزل كيان (آيات)، وشعرت بأنها تتلقى ألف ألف طلقة من مدفع جرينوف في كل ملي من جسدها، حين فجّعها ما ترى بعينين تمت لو كانتا تكذبان عليها، لكن رائحة الشّاب ما كانت لتأتي بتلك الروعة من شخصٍ سواه.

شأن كل النساء، لم تبالِ بباقي التّفاصيل أو تتوقف عندها، سواء ذلك الرداء الأبيض الذي يرتديه، وأين وكيف قضى ليلته بعيداً عنها، وما سر ارتباطه بقنبلة كادت تودي معبده بأكمله بكل من فيه.. فقط يكفي أنه يقف مع أنثى بدرجة صاروخ، تمنحه كل هذا الدلال بنظراتٍ وُلدت سِفاحًا في بيت الرّب!

ابتلعت حنقها ومرارة حلقها العلقم، ثم نمّرت عينها وهي تسير نحوهما وقد شحذت قواها وكيدها؛ استعداداً لمباراةٍ أنثويةٍ ما من معلق رياضي على هذا الكوكب قادر على التعليق عليها. "أهذا ما تعاهدنا عليه؟ تتركني بهذه السرعة دون حتّى أن تدلني على مكانك الجديد؟".

ألقت كلماتها وكأنّها تُلقِي دلوًا من الماء المثلج على نافوخ (كريستين) دون أن تنزل أيّ منهما عينها عن الأخرى لتتبدلا النظرات بطريقةٍ لن تفهمها إلا من تشترك معهما في هرمون الأستروجين الأنثوي، قبل أن يجيها الشّاب الوسيم:



- لم أكن لأحسث بوعدى، لكن بعض الأمور العارضة قد تُدخلنا أحياناً في مساراتٍ جانبيةٍ قبل أن نعود بعد زوالها للطريق الرئيسي.

ابتسمت من قلبها وشعرت مع كلماته بجناحينٍ يشقان جسدها ويبرزان خلف ظهرها لتقترب منه أكثر بخطواتٍ بدت كالتحليق، ثم هبطت أمام (كريستين) وتمادت في دلالها وهي تهمس بشبقي أجادت التعبير عنه كعاهرةٍ قديمة:

- عدُ إلى مسارك الرئيسي في أسرع وقتٍ إذن؛ فقد افتقدتك كثيراً من مجرد ليلة واحدة مضت كآلف عام.  
"هل تعرفان بعضكما؟"

قالها (ألبرت) وهو يُغادر الهيكل بعد انتهاء القداس ليقترّب من ثلاثتهم قبل أن تجيبه (كريستين) ساخرةً:

- بكل تأكيد، سمعتها تتحدث عن الطرق والمسارات فعلمت أنها من هيئة التخطيط والكباري.

أحرقتها (آيات) بنظرةٍ ازدراءٍ من قمة رأسها إلى أخمص قدميها، قبل أن يضحك (ألبرت) مُعلقاً:

- كلا يا كريستين.. إنها (آيات)؛ صديقةٌ قديمةٌ طالما أمتعتنا بصوتها الرائع وعزفها البديع على آلة الكمان في فريق الترانيم قبل أن ترحل لظروفي عارضةٍ وتحلين محلها؛ فصوتها ينافسك في الجمال والروعة.  
ردّت (كريستين) نظرةً الازدراء لـ(آيات) وقالت بكيدٍ أنثويٍ مماثلٍ وهي تمد يدها للمصافحة بأطراف أصابعها:

- رائع، فأنا أعشق المنافسة.  
"رحبوا معي بأختنا (آيات) التي افتقدناها كثيراً طوال الفترة الماضية، وقبل أن ندعوها لتشاركنا باقتراحاتها وأفكارها لخدمة المسيح وأبنائه اسمحوا لي أن أعرفها بالوجوه التي انضمت إلينا في غيابها."

قالها (ألبرت) أمين عام الخدمة لاجتماعات الخريجين في اجتماعه بمجموعةٍ من الشباب والفتيات في مبنى الخدمات الملحق بالكاتدرائية المرقسية، والذي يجتمع فيه المسيحيون باعتباره نادياً وحضانةً مع

التصريح بإقامة الشعائر الدينية لأبناء الطائفة الأرثوذكسية، ثم أشار للشباب الذين انضموا في غياب (آيات) قائلاً:

- كريستين عياد تجيد الغناء والعزف على البيانو.. أندرو ميشيل يُجيد العزف على الجيتار.. أمير برسوم أستاذ في الدرامز.. جميعهم أعضاء فريق تسابيح للترانيم، ومعنا أيضاً في الاجتماع مايكل ماجد، ومينا مجدي، وسمير عزيز، وماريان رسمي، ومريم فهمي، لكن علاقتهم بالغناء كعلاقتي بكوكب بلوتو تماماً.

ضحك الجميع، ثم أشار (ألبرت) للشباب الوسيم وقال:

- ورغم أن هذا الشاب ليس من شعب الكنيسة، لكنّ أبانا يوسف أمر بالإحسان إليه وحُسن معاملته، وسيعمل خادماً لحراسة وتنظيف المكان مع عم حنّا حارس المبنى حتّى يتم البت في أمره، واستأذني أن يحضر معنا اجتماعاتنا وأخبرته بأنه مُرحّب به، والآن فلنستمع إلى أختنا (آيات).

شعرت الأخيرة بالحرّج حين صُوّبت الأنظار عليها وحاولت الإمساك بالأحرف الفارة من على شفثيها حين قالت بكلماتٍ متجلجلة:

- كان شعوري بالاغتراب هنا سبباً ضمن أسباب انقطاعي عن الاجتماع والكنيسة.. وقد أوحى حُسن استقبال أبينا يوسف لهذا الشاب الذي لا نعرف أصله ودينه بفكرةٍ تتعلق بالاغتراب أيضاً؛ فبعضنا يشعر بالغربة داخل الكنيسة لأن من حوله يهتم بكلام عام لا يمس مشكلاته وآلامه الشخصية، ولا يسأله عما به وكيف يمكن تقديم العون له.. وبعضنا يشعر بالغربة في وطنه.. ويعمّق هذا الإحساس وقائع اضطهاد وسوء فهم لديننا العظيم.. والإساءة لأتباع يسوع المُخلّص الفادي.. فهل نكتفي بالتفوق والنشيج والدُموع الصامتة داخل جدران كنائسنا لتظلّ الفجوة تتسع بيننا وبين من لا يفهمون ديننا بشكلٍ سليمٍ تحت دعوى الصبر والتحمل؟

أجابتها (كريستين) بعصبية:

- وماذا تريدن أن نفعل؟ هل نذهب لنغني ترانيمنا لهم في المساجد؟



يناير 2011، أحداث ماسبيرو في أكتوبر 2011، وفي كل لحظة تمضي يظلل الخطر محيطًا بنا.

قالت جملتها الأخيرة وقد انفتحت قنوات الدَّمع على مصاريعها ليسود المكان صمت مُطبق، والتمعت بعض العيون المتعاطفة بالدَّموع الحبيسة التي صنع احتباسها على المقالِق بريقًا أخادًا، قبل أن تأخذ (كريستين) نفسًا عميقًا وتقول بلهجة حماسيةٍ شحذت الجميع:

- رُمُّوا معي واجعلوا تراتيلنا تصل إلى جيوش الملائكة التي تسبح الله في الأعالي بغير سكوت.

وبدأت أصابعها في مداعبة مفاتيح البيانو الذي أصدر نغمةً حزينةً لترنم ترنيمة "ونبيك لي" قائلة:

ونبيك لي، ما هو إلهنا قال لنا .. باسمه هيكون لنا اضهاد

ووعده لنا، محدش يمسننا .. إلا ولينا، يكون إكليل جهاد.

ومن جانبهم تفاعل الحاضرون معها، وأمسك كل منهم بآلته ليوصلوا معها الغناء والعزف، ورجمًا عنها شعرت (آيات) بالتأثر والتعاطف، وتراجعت في حلقها الكلمات، بينما سرح الشَّاب الوسيم في كلمات (كريستين) والوقائع التي ذكرتها بينما تُعاد أمام عينيه مشهد القنبلة وصناديق المواد شديدة الانفجار التي كادت تأتي على حياة بشر أبرياء عُزِّل من السلاح وهم يُصلون بالمثل في المعبد اليهودي، وذلك الذي كان يتوضأ تمهيدًا للصلاة رغم مشاركته في قتل الرِّجل المُسنُّ وزرع المتفجرات، ليصعد من أعماق أعماقه سؤالٌ وصل إلى سطح الإدراك وتردد على لسان التفكير بصوتٍ داخلي لم يسمعه سواه:

- ما أمر هؤلاء المسلمين؟!

\* \* \*

- بل نغني معهم خارج دور العبادة في حفلاتٍ مشتركةٍ بيننا.. نعلمهم كيف يحبوننا بلغة الموسيقى التي تفهمها كل الإنسانية وتتأثر بها.. نُوصِّل لهم تعاليمنا مع الألحان والأوتار التي تخترق القلب والعقل، وترسخ في الوجدان، فترسُخ معها كلمات ترانيمنا.. وبالمثل نسمع لهم وتتفاعل معهم فيخرجون أجمل ما فيهم بدلاً من شعورهم الحانق بأننا معزولون عنهم، ونقول خلف الجدران ما يسبب نبيهم وعقيدتهم وكأننا لا شغل لنا في الكنيسة سوى ذلك، رغم أنه أبعد ما يكون عن حقيقتنا.

- إنهم يحرمون الأوتار والمعازف.. يحرمون تهنتتنا في أعيادنا ومناسباتنا، بل يحرمون حتَّى محبتنا.. حتَّى من يبدون اعتدالهم واستنكارهم لتصرفات أقرانهم يفعلون ذلك بشكلٍ عارضٍ سرعان ما ينقلب على عقبيه مع أول خلاف يدبُّ بينهم وبين واحدٍ منا، فيتذكرون حينها أننا كفار، ديننا محرف، خبثاء، ماكرون، حلال فينا أي فعل يشفي غليلهم ويُخرس ألسنتنا لنظِّل عبيدًا لهم.. دعك من كلامك الحالم واطلبي من المسيح أن يغمرك بمحبته.

- هذا كلام مَنْ لا تعرف تعاليم المسيح ووصاياه التي أمرتنا أن نحب أعداءنا ونبارك لاعيننا ونُحسن إلى مُبغضينا ونُصلي لأجل الذين يسئون إلينا.

انفجرت دموع (كريستين) وصرخت فيها:

- بل كلامك هو كلام مَنْ لم تجرب استشهاد أبيها وأمها في انفجارٍ ضخمٍ أطاح بهما أمام عينيها في كنيسة القديسين، بعد الانتهاء من قداس كنا نتمنى فيه الخير للجميع.

ثم التقطت جهاز البيانو وقالت بدموعها الساخنة وقد تحوّلت نبرتها المتهدجة إلى نههة:

- اقرئي في التاريخ وتعلمي مما حدث لنا في الأمس القريب.. أحداث الخانكة عام 1972، أحداث الزاوية الحمراء في سبتمبر 1981، أحداث الكشح في ديسمبر 1999، أحداث نجع حمادي في يناير 2010، أحداث العمرانية في نوفمبر 2010، أحداث كنيسة القديسين في سيدي بشر في



مثل: شحاتة هارون، ويوسف درويش، وهنري كوريال الذي أسهم في مقاومة العدوان الثلاثي على مصر عام 1956م.

نعم، البعض أثبت خيائته وولائه للحركة الصهيونية أكثر من ولاءه للأرض التي عاش فيها، مثل أولئك الذين تورطوا -على سبيل المثال- في عملية لافون عام 1954م لتفجير أهداف مصرية وأمريكية وبريطانية؛ بهدف إحراج مصر أمام العالم وإثبات أنها دولة غير آمنة على رعاياها الأجانب؛ حتى يتم ترهيب اليهود المصريين وإيهامهم بأنهم مضطهدون داخل مصر بهدف ترغيبهم في السفر إلى إسرائيل، وزيادة الكثافة السكانية هناك وإنعاش الاقتصاد الإسرائيلي من خلال تحويل المزيد من الودائع والأموال إليه.. لكن الأمور وصلت إلى فصل الختام مع حرب 1967م حين تم اعتقال كل الشباب اليهودي الأكبر من 17 سنة في مصر، والقبض على المواطنين اليهود حسب الهوية وليس حسب أدلة الاتهام، وهو ما برره البعض بأنه نفس ما حدث في الحرب العالمية الثانية حين قبضت أمريكا على اليابانيين المقيمين على أرضها حتى وإن كانوا حاصلين على الجنسية الأمريكية وفقاً لنظرية الاحتياط الأمني في حالة الحروب، لكن على أي حال فقدت مصر في النهاية أكثر من 70 ألف يهودي ليصبح عدد اليهود فيها اليوم أقل من 25 يهودياً، وفقدت أيضاً حالة الحب والاحتضان للجنسيات والأعراق الأخرى بعد أن كانت يوماً حاضنة لأكثر من 13 جنسية مختلفة، وهو ما انعكس وألقى بظلاله مؤخراً بشكل عملي وتطبيقي على حادث معبد إياهو حنابي بشارع النبي دانيال في الإسكندرية؛ لذا سنفتح اليوم ملف يهود مصر الشائك مع ضيف حلقتنا الحاخام موريس زكي؛ الإسرائيلي الجنسية ذي الأصول المصرية، والذي تصلح قصة حياته أن تكون فيلماً سينمائياً من الطراز الأول.

تطلع الشاب الوسيم إلى شاشة هاتف (آيات) الذي ذي مقاس الـ7 بوصات، والذي يعرض اللقاء المرفوع على موقع **Youtube** وهما يجلسان في ساحة مبنى الخدّات في وقتٍ مالت فيه الشمس للغروب قائلاً:

## (18)

ظهر أحد مشاهير مقدمي البرامج الليلية التي تحظى بنسبة مشاهدة عالية على شاشة التلفاز، وقال عبر برنامجه الشهير في مفتتح الحلقة بلهجةٍ يسودها الحماس الشديد:

- يهودُ مصر.. من الملفات التي يعتبرها الناس للأسف الشديد ملفاً شائكاً؛ لذا يتفاداه الإعلام المصري ولا يقترب منه إلا بصورةٍ حذرة. رغم ارتباطهم الوثيق بتاريخ بلدنا، وإسهامهم فيه بشكلٍ أو بآخر؛ سواء في السياسة؛ أو الاقتصاد بفروعه المتعددة من زراعة وصناعة وتجارة؛ أو الفن سواء في المسرح الذي أسسه في مصر اليهودي يعقوب صنوع، أو السينما التي لمع فيها نجم العديد من الفنانين اليهود كالفنان عمر الشريف الذي كان اسمه ميشيل شلهوب قبل أن يُعلن إسلامه، وليلى مراد التي كان اسمها ليليان زكي موردخاي، ونجوى سالم التي كان اسمها نينات شالوم، بخلاف بعض الشخصيات التي حامت حولها الشبهات في التواطؤ مع إسرائيل كالفنانة كاميليا التي كان اسمها ليليان فيكتور كوهين، والخاتنة راقية إبراهيم واسمها الحقيقي راشيل ليفي، وغيرهم.. جميعنا في مصر على مدى سنواتٍ طويلةٍ وقعنا في فخ الخلط بين اليهودي والإسرائيلي.. جميعنا عمم كراهيته لليهود بشكلٍ مُجحفٍ ونسينا أنهم كانوا يوماً أشقاءنا في الوطن والإنسانية، حتى إن الرئيس محمد نجيب قام بزيارة اليهود القرائين خلال عيد كيبور في بداية قيام ثورة يوليو، وهنأهم بعيدهم، ولا تزال تهنئته محفوظةً بسجل المعبد اليهودي بالعباسية حتى يومنا هذا، وبعضهم لعب دوراً وطنياً عظيماً،

- كل ما يُقال قصّه عليّ هذا الرّجل الجليل في تلك اللّيلة التي لا تُنسى، حينَ سهرنا معًا حتّى الصّباح.  
مررت (آيات) إصبعها على الشّاشة فوق خط الرّمن لمقطع الفيديو، لتتخطى أكثر من 15 دقيقة من زمن الحوار، ثم قالت:

- دعك من ذلك كله، وأخبرني عن رأيك في هذا الكلام!

وضغطت بإصبعها مجددًا على الشّاشة فعاد (موريس) للكلام قائلاً:

- كانت أمي تُقاوم في أبي عنصريته المفرطة التي بُنيت عليها إسرائيل؛ لذا ربّنتي بعيدًا عنه وهي تُحاول استئصال تلك الجينات، لكن مع عودتي بعد عشرات السنين فوجئت بهذا السّرطان وقد تفشّى حتّى أصبح منهج ومُط حياة في مصر وشعبها بأكمله، ولا يحتاج الأمر لاكتشافه سوى الاختلاط بالمصريين ليومٍ واحدٍ فقط على أحد المقاهي والاستماع لهم حتّى تلاحظ ما لاحظت.. في الدّين.. المسلم يكره المسيحي باعتباره كافرًا، والمسيحي يرى المسلم إرهابيًا جاهلًا.. وداخل الدّين الواحد السلفي يسخر من الصوفي والصوفي يضيق بجهل السلفي، وكلاهما ليس على وفاق مع المنتمي لطائفة الإخوان المسلمين، بخلاف ذلك العلماني الذي يتلقى سيلاً من الشتائم.

وفي المدارس.. ترى أبناء المدارس الأجنبية يحتقرون أقرانهم من تلاميذ المدارس الحكومية، وآباء الأطفال يأمرونهم بعدم اللعب مع أبناء حارس العقار وبائعي الخضراوات وعمال النّظافة؛ لأنهم ليسوا من مستواهم.. في السكن يذهب الأثرياء والمقتدرون إلى تجمعاتٍ سكنيةٍ خاصة، محاطة بالأسوار والبوابات حتّى لا يختلطوا بأبناء الطبقة المتوسطة أو الدّنيا، وتُرسّخ إعلانات التلفاز هذا الفصل الاجتماعي وتُركّبه.. بخلاف نظرة أبناء المدينة الدونية للفلاحين وساكني القرى والنجوع، وتبادل النكات التهكمية بين أبناء المحافظات المختلفة في الصعيد وبورسعيد والمنوفية والشرقية وغيرهم.. وفي الرياضة ينعت مشجعو النادي الأهلي أقرانهم من مشجعي نادي الزمالك بالبوابين، ويصف الزمالكوية أقرانهم الأهلاوية بالماليم.. حتّى كلمة "بلدي" التي من المفترض أن تشير للجدور صارت

سُبةً ووصفًا لما هو سيئٌ ودون المستوى في الذوق.. فلا عجب بعد كل هذا أن يرفع أئمة المساجد أكف الضراعة إلى الخالق ويدعوا على اليهود أحفاد القردة والخنازير بأن يشنت الله شملهم ويفرق جمعهم ويرمل نساءهم ويبيتم أطفالهم، أو تظهرنا الأعمال الفنية دائمًا بالخونة، الجواسيس، شديدي البُخل.

- هل يؤلمك ذلك؟

- بلا شك، لكنه يؤلمني بصفتي إنسانًا وليس يهوديًا؛ أن يتفشى الغل والكرهية في القلوب إلى هذا الحد.. ففي إسرائيل عانيتُ العنصرية بصفتي مُدافعًا عن القضية الفلسطينية، وهنا كدت أموت فقط لكوني يهوديًا مؤمنًا، يعبد الرّب نفسه الذي يعبدونه، وكأن حملة الحق في هذا الرّمان لا بد أن يتجرعوا العذاب من الأطراف كافة، لكن على كل حال دعني أوضح لمن يشاهدونا الآن ما تعلمته من الحوارات المشتركة التي حضرتها مع ممثلي الأديان السّماوية الثلاثة بإشراف الاتحاد الدولي لحوار الثقافات والأديان وتعليم السّلام؛ لعل ذلك التّور الذي تسلل إلى قلبي يتسلل إلى باقي القلوب.

وفَقًا للحكيم اليهودي شمعون بن عازي فإن أهم مبدأ في الكتاب المقدس يوجد على وجه التّحديد في فقرة في سفر التكوين تقول: "هَذَا كِتَابُ مَوَالِيدِ آدَمَ، يَوْمَ خَلَقَ اللهُ الْإِنْسَانَ.. عَلَى شَبهِ اللهِ عَمَلَهُ.. ذَكَرًا وَأُنْثَى خَلَقَهُ، وَبَارَكَهُ وَدَعَا اسْمَهُ آدَمَ يَوْمَ خَلِقَ.. وهو ما يتطابق مع الآية القرآنية التي تقول: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَنْتَأْكُمُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾، وآية أخرى تقول: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾.

وفي سفر (إشعيا) يقول الرّب: "أَطْلُبُوا الرَّبَّ مَا دَامَ يُوجَدُ.. ادْعُوهُ وَهُوَ قَرِيبٌ"، وفي القرآن يقول الله: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ﴾.



وفي سفر اللاويين يقول: "إِذَا سَلَكَتُمْ فِي فَرَائِضِي وَحَفِظْتُمْ وَصَايَايَ وَعَمِلْتُمْ بِهَا، أُعْطِي مَطَرَكُمْ فِي حِينِهِ، وَتُعْطِي الْأَرْضُ غَلَّتْهَا، وَتُعْطِي أَشْجَارُ الْحَقْلِ أَثْمَارَهَا، وَيَلْحَقُ دِرَاسُكُمْ بِالْقِطَافِ، وَيَلْحَقُ الْقِطَافُ بِالرَّزْعِ، فَتَأْكُلُونَ خُبْزَكُمْ لِلشَّعْبِ وَتَسْكُنُونَ فِي أَرْضِكُمْ آمِنِينَ"، والمعنى نفسه نجده في القرآن الكريم؛ حين قال الله: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾.

هذه كلها أمثلة بسيطة لمدى التشابه بين تعاليم التوراة والقرآن.. وانتماء اليهود والمسلمين للإله نفسه.

- لكن سيدي، ألا تتفق معي أن إسرائيل دولة دينية يهودية، بقدر يجعل تصرفاتها محسوبة على اليهود بشكل عام؟  
- لا تقل دولة يهودية، بل هي دولة صهيونية تتخذ من التوراة ستارًا خدعت به الآلاف.. وإليك وصايا التوراة التي تناقض كل ما يحدث في إسرائيل منذ نشأتها حتى اليوم..

ليس المطلوب من أتباع الدين اليهودي احترام حياة الآخرين وكراماتهم وأسرهم وممتلكاتهم فحسب؛ فالتوراة تذكرنا دائمًا بمسئوليتنا نحو الضعفاء؛ سواء كانوا فقراء، أو أيتامًا، أو أرامل، أو غرباء.. وتطلب منا أن نتنازل عن جزء من حقولنا وحصاننا سواء لفقراء اليهود أو غير اليهود الذين يعيشون بيننا ويفتقرون إلى دعم الأسرة والمجتمع الذي ولدوا به، وهو ما أوصى به سفر اللاويين حين قال: "وَعِنْدَمَا تَحْصِدُونَ حَصِيدَ أَرْضِكُمْ لَا تَكْمُلْ زَوَايَا حَقْلِكَ فِي الْحَصَادِ. وَلِقَاطِ حَصِيدِكَ لَا تَلْتَقِطُ وَكْرَمَكَ لَا تَعْلَلُهُ، وَبِنَارِ كْرَمِكَ لَا تَلْتَقِطُ. لِلْمَسْكِينِ وَالْغَرِيبِ تَتْرُكُهُ. أَنَا الرَّبُّ إِلَهُكُمْ" .. بخلاف سفر التثنية الذي قال معنيًا مشابهًا في قوله: "والمحب الغريب ليعطيه طعامًا ولباسًا".

وقد ذكرت واجبات الشعب اليهودي تجاه الغرباء في أسفار موسى الخمسة حوالي 36 مرة، ولا توجد وصية أخرى في التوراة تحتل هذه المكانة البارزة، ولا يقتصر واجبنا نحو الغرباء على معاملتهم معاملة عادلة فقط، بل أيضًا يتحتم علينا حمايتهم ومحبتهم حسبما ينص سفر

اللاويين قائلًا: "وَإِذَا نَزَلَ عِنْدَكَ غَرِيبٌ فِي أَرْضِكُمْ فَلَا تَظْلَمُوهُ كَالْوَطَنِيِّ مِنْكُمْ يَكُونُ لَكُمْ الْغَرِيبُ النَّازِلُ عِنْدَكُمْ، وَتُحِبُّهُ كَنَفْسِكَ، لِأَنَّكُمْ كُنْتُمْ غُرَبَاءَ فِي أَرْضِ مِصْرَ".

ويعتبر الصريح اليهودي المقدس والمعبد في القدس أماكن مفتوحة تحق زيارتها للبشرية جمعاء؛ إذ يقول الملك سليمان وقت تدشين المعبد حسب ما جاء في سفر الخروج: "وَكَذَلِكَ الْأَجْنَبِيُّ الَّذِي لَيْسَ مِنْ شَعْبِكَ إِسْرَائِيلَ هُوَ، وَجَاءَ مِنْ أَرْضٍ بَعِيدَةٍ مِنْ أَجْلِ اسْمِكَ لِأَنَّهُمْ يَسْمَعُونَ بِاسْمِكَ الْعَظِيمِ وَبِيَدِكَ الْقُوَّةِ وَذِرَاعِكَ الْمَمْدُودَةِ، فَمَتَى جَاءَ وَصَلَّى فِي هَذَا الْبَيْتِ فَاسْمَعْ أَنْتَ مِنَ السَّمَاءِ مَكَانَ سُكْنَاكَ، وَأَفْعَلْ حَسَبَ كُلِّ مَا يَدْعُو بِهِ إِلَيْكَ الْأَجْنَبِيُّ؛ لِكَيْ يَعْلَمَ كُلُّ شُعُوبِ الْأَرْضِ اسْمَكَ، فَيَخَافُوكَ كَشَعْبِكَ إِسْرَائِيلَ، وَلِكَيْ يَعْلَمُوا أَنَّهُ قَدْ دُعِيَ اسْمُكَ عَلَى هَذَا الْبَيْتِ الَّذِي بَنَيْتُ".

هكذا كل من آمن بالله بغض النظر عن عقيدته، استحق الرحمة والعدالة.. هذه هي الدعائم الرئيسية للأخلاق اليهودية والأساس الذي يبنى عليه بيت الله، فما ذنب اليهودي المؤمن اللاوي<sup>(1)</sup> الذي ينفذ تلك التعاليم ليكون له نصيب في الكراهية والدعاء عليه بأقسى أنواع الدعاء؟

- بصفتك يهوديًا له مواصفات خاصة، تجمع بين الأصول المصرية، والجنسية الإسرائيلية، بجانب موقفك الواضح من القضية الفلسطينية.. هل لديك رoshة تعالج تلك الأزمة التاريخية القديمة ليحل بعدها السلام؟

- الحل موجود منذ قديم الأزل يا سيدي في التوراة، وفي الرؤية السائدة في العصر اليهودي المسيحي، والقائمة على رفض جميع أشكال العنف والعداء بين بني الإنسان، حينها تنطبق علينا نبوءة (إشعيا) ويسكن الذئب مع الخروف، ويربض النمر مع الجدي، والعجل والشبل والمسمن معًا، وصبي صغير يسوقها، والبقرة والدبة ترعيان وتربض أولادهما معًا،

(١) اللاوي: كلمة يهودية تعني المؤمن الموحّد بالله.



إليها يُعد جزءًا لا يتجزأ من عقيدتنا المسيحية التي تُسمي كنبهم بالعهد القديم، لكنني لم أتعلم فيهما يومًا أو أقرأها على هذا النحو، لذا لم أهدم ذلك الحاجز النفسي بيني وبين اليهود رغم أصولي اليهودية كما أخبرتك من ذي قبل، لكنني صرتُ على استعدادٍ لصدقاتهم لو كانوا بهذه العقلية.

- ربما كانت صديقتنا (كريستين) ومن هم على شاكلتها في حاجةٍ لشخصٍ مُسلمٍ يتحدث بنفس ثقة هذا الحاخام في دينه ويركز في حديثه عما هو مشتركٌ ومتشابهٌ بين الإسلام والمسيحية حتى تتخلص من عقدها مثلك، أم أن لك رأيًا آخر؟

انطفأت البهجةُ في ملامحها وغرب المرخُ عن عينيها حينَ ظلَّهما حاجباها المعقودان وهي تُجيبه بغضبٍ وتحفُّزٍ:

- نعم لي رأي آخر، يقول إن اهتمامك قد زاد على حده بتلك الفتاة الأشبه بعروس المولد الملطخ وجهها بألوانٍ تليق بمُهرج.

ثم غمرته بأنفاسها وهي تقتربُ منه أكثرَ قائلَةً بدلالٍ ورقةً:

- لن يتسع وقتك للوقوف إلى جوار كل الناس والاهتمام بمشكلاتهم.. فأتمم مهمتك حيال من كان وعدك الأول لها!

حاول التراجع بكياسةٍ، لكنه شعر بأطرافه تعصى أوامره وقد وقف متمسراً في نطاق جاذبيتها لا يقوى على الانسحاب، فلاحظت ذلك وعادت لعينيها بسمتها وقد دنا الأمل لأول مرةٍ في ذوبان ذلك الجبل الجليدي الشامخ بينهما بلهيب جاذبيتها وهيامها به، قبل أن تقول:

- يا إلهي! كدت أنسى ما جئتكَ مخصوًّا بشأنه.

أطلَّ من عينيهِ التساؤلُ دون أن ينبسَ ببنت شفة، وقد شعر بأن الصمت في حضرة تلك اللحظات شيء يُثاب عليه، فيما فتحت حقيبتها وأخرجت منها هاتفًا محمولًا ذكيًا صوّبت كاميرته على وجهه الأخاذ والتقطت له صورةً وهي تبتسمُ ابتسامَةً كشفت عن أسنانها اللؤلؤية من فرط سعادتها بما تفعل، لتتسعَ ابتسامتها وهي تشاهد أول صورةٍ فوتوغرافية له على شاشة الهاتف، قبل أن تضعه في يده وهي تشير نحو صورته قائلَةً:

والأسد كالبقرة يأكل تبنًا، ويلعب الرضيع على سرب الصل، ويمد الفطيم يده على جحر الأفعوان، لا يسيئون ولا يُفسدون في كل جبلٍ قدسي؛ لأن الأرض تمتلئ من معرفة الرب كما تُغطي المياه البحار.

وما جاء في نبوءة سفر (إشعيا) يتفوق في كثيرٍ منه مع النبوءة الإسلامية المتعلقة بآخر الزمان لا سيما في الجزء القائل: "ويكون في آخر الأيام أن جبل بيت الرب يكون ثابتًا في رأس الجبال ويرتفع فوق التلال وتجري إليه كل الأمم، وتسير شعوبٌ كثيرةٌ ويقولون: هلم نصعد إلى جبل الرب.. إلى بيت إله يعقوب فيعلمنا من طريقه نسلك في سبله.. لأنه من صهيون تخرج الشريعة ومن أورشليم كلمة الرب فيقضي بين الأمم وينصف لشعوب كثيرين، فيطبعون سيفهم سكرًا، ورماحهم مناجل.. لا ترفع أمة على أمة سيفًا، ولا يتعلمون الحرب فيما بعد".

وضعت (آيات) سبابتها على شاشة الهاتف لتوقف الحلقة عند هذا الحد، ثم ابتسمت ابتسامَةً ساحرةً وهي تقول للشباب بمرح:

- لقد وقعت في حب هذا الرجل.

ثم تابعت بجديّةٍ لم تخلُ من الإعجاب:

- لم أتخيل يومًا أن يشعر يهودي بواقعنا ويفنده بهذه الدقة، حتى إنني تعلمت منه في دقائق ما لم أتعلمه عمرًا بأكمله في ذلك البلد الثائه أهله.. لا أدري أي حماقة تلك التي دفعت (دميانه) لقطع صلتهما به والتنبيه على طرده لو عاود المجيء مرةً أخرى.. وحينَ حاولت معرفة طبيعة العلاقة التي جمعتهم يومًا رفضت بشدة وكأنها قد تبسها ألف عفريت.. لكن هذا لا ينفي أنه من طراز نادرٍ بحق.. مؤكد أن بابا الفاتيكان قد جلس مع حاخامات بتلك العقلية حينَ أعلن رسميًا تبرئة اليهود من دم المسيح.

احتواها الشاب في بحر عينيهِ الذهبي العميق وهو يسأل:

- وماذا كان رأيك في اليهود قبل أن تستمعي إليه؟

- بصراحة؟ كنت واقعةً في الفخ نفسه الذي أشار إليه، وكان قلبي يكره كل ما هو يهودي.. رغم أن الإيمان بالتوراة وتلك الأسفار التي أشار



- انظر كم يبدو وجهك جميلاً حين تكون الصورةُ برؤية فنانةٍ مثلى،  
مبروك عليك هاتفك الجديد.

- هاتفى؟

- نعم.. أنسيت أنني لا أزال مهددةً من (ريمون) ورجاله، وصار مبيتك  
معنا في السطح فيه خطورة عليك.. هب أنني تعرضت للخطر في أي  
لحظة، فكيف أستغيث بك وقتها؟

- من أين جئتِ بثمانه؟

- لن تصدق، لقد أعطتني (دميانة) مبلغاً من المال، وقالت إنها غير  
متعجلة في استرداده.. يبدو أن مائة يهودي سيموتون كما يقول المثل  
حين يُسلفنا شخصٌ بخيلٌ.. إحم! لا مؤاخذه يا عم (موريس)!

قلِّب الهاتف في يديه وهو يتأمل مفاتيحه وشاشته بحيرةٍ شديدةٍ  
قائلاً:

- لكنني لا أعرفُ كيف أتعامل مع هذا الشيء.

- سأعلمك كل كبيرةٍ وصغيرةٍ فيه.. لقد اشتركت لك أيضاً في باقة  
الإنترنت لتتواصل عبر "فيس بوك" و"واتس أب" و"فايبر".

- ماذا؟

- يا إلهي! ما تخيلت أن يجهل أحدٌ بهذه التطبيقات حتّى وإن كان  
فاقدًا للذاكرة.. على كل حال لا تحمل همًا، لكن لا بد أن يكون لك اسمٌ  
في هذا العالم الافتراضي، ما رأيك في نور؟

- نور؟

- لقد أضأت حياتي وديناري منذُ أول لحظة التقيتك.. ما كنتُ لأتخيل  
أن يسميك أي مخلوقٍ عاقلٍ باسمٍ آخر سوى هذا الذي خلُق خصيصًا  
من أجلك وحدك.

انتفض قلبه مع تلك الطريقة التي نطقت بها جملتها الأخيرة  
وهي تفتنه بغواية سحر عينيها، فردَّ عليها بصمت نظراته الأبلغ من أي  
كلام، قبل أن تخونه شفتاه بابتسامةٍ عاريةٍ ائتمنها ألا تُفصح عنها حتّى  
يكسوها بوقاره فخرجت مثيرةً للإغواء بشكلٍ شعرت معه (آيات) أن  
قلبها يكاد ينفجر من دقاته الصاخبة، قبل أن تشير إلى تطبيق تسجيل

الصوت في الهاتف وتقول بسعادةٍ مُفرطةٍ وهي تغوص أكثر وأكثر في نهره  
العذب الأجمل من العسل المُصقَى:

- لقد حرصت أيضًا على شراء كارت ذاكرة بسعةٍ تخزينيةٍ كبيرةٍ؛ حتّى  
يكفي لتسجيل كل ما يجول بخاطرك من أفكار، ملاحظات، هواجس، أو  
حتّى مشاعر.

قالت كلمتها الأخيرة وهي تمنحه أجمل ابتساماتها، ثم تابعت:

- أنا أيضًا سأفعل المثل على هاتفى، ثم نتبادل الملفات الصوتية، لعل  
من بين الكلمات المسموعة نجد كلامًا جديدًا محذوفًا من النص، لكن  
الضمت والسُّكات يبوحان به.. ثم أخرجت أوراقًا وقلماً ولوحت بهما  
وهي تردف:

- لكن هذا لا يمنع أنني أحب البوح بالكتابة أكثر، فقد كانت هي  
سلواي الوحيدة حينَ عشتُ عُمرًا بمفردي بلا صديقٍ حقيقي سوى  
الورقة والقلم، كلما حاولت الهروبَ بهما إلى عالمٍ جديدٍ من نسج  
الخيال ابتلَّت الكرايس والكشاكيل بدموعي البائسة حينَ اكتشف -في  
كل مرّة- أنني لا أجد سوى التعاسة حتّى في الخيال.. وقد حان الوقتُ  
لأضيفَ إلى الكتاب المُقدَّس سفرًا جديدًا يمليه عليّ الإله الذي استجاب  
أخيرًا لدعواتي المتأخرة بعد سنواتٍ ظلَّت فيها عالقةً بين السماء والأرض،  
ومنحني أقصى مما كنتُ أحلم به.

\*\*\*



وتتحفز النظرات، وتتسلل إلى الوجوه ملامح يصعب الحُكم عليها إن كان ما يعترئها هو الغضب، أم الحزن، أم القهر.

وعلى روعة الصّوتين لتلكما الجميلتين، والآلات المحايدة التي تعزف الألحان المطلوبة منها بلا أدنى تحيُّز لما تحمله الكلمات من معانٍ يتيه الوجدان بين الصفاء والكدر، المسالمة والتحفز، الراحة والألم، الابتسام والدَّمع، ولكل شعورٍ مُريدوه المستعدون لاستقباله وإزكائه.



### تسجيلات الشّاب الوسيم

في كل دقيقةٍ تمضي، أتعلم الكثير من هؤلاء المسيحيين الطيبين..

لم يجمعني اللقاء بعدُ بشخصٍ مسلم لأسأله لماذا يعتبرونهم كفارًا، وعلى أي أساس يَسْتَجِل البعض دماءهم، لكن بغض النظر عن ذلك فإن ما أمر به معهم أمرًا رائعًا بحق.. ولا يُكدرّ صفوه سوى تلك اللحظات الأليمة التي تُذكّرنا فيها (كريستين) بطعم الظلم والاضطهاد؛ فتغتال البسمة على الوجوه، وتُسَمِّ شعورًا بالسكينة تتسلل إلى أرواحنا مع نغمات الترانيم التي تُغنيها (آيات) عن أمجاد المسيح، وعظمة تعاليمه، بعد أن تجلب الأولى من ذاكرتها المشحونة ترانيم عن أرواح الضحايا المجني عليهم وكيف لم يأت أحدٌ بحقهم حتّى الآن..

هذه تُرثم فتقول: "حُبك، شيء احترنا فيه.. زي الهوا، دايمًا بنلاقه.. شمس تدفي ليل البردانيين.. نور ينور عتمة الحياة"، فتتميل معها الأجساد، وتنجلي أصوات المحبة لتصل إلى أعالي السّماء.

وهذه تُرثم: "هو إحنا عشان ساكتين.. فكّرتونا خايفين.. لأ ده إحنا ما بنخافشي.. قدام الموت ثابتين.. نقدر نمسك سلاح ونعمل زيكم.. وملاككم جراح ونسيح دمكم.. لكن مش هي دينا.. تعاليم المسيحية.. ويسوع سايب وصية.. إن إحنا نحبكم.. بنصلي لكم تعيشوا.. بمحبة زينا.. وتدوقوا من حلاوة.. وطيبة ربنا.. ما يهمش إحنا مين.. ما يهمش إنتوا مين.. وكفاية إن إحنا وإنتم.. بشر وبني آدمين.. وضروري تخلوا بالكم.. صحيح إحنا سكتنا لكم.. لكن لينا رب عظيم.. بيحارب عننا؛ فتلمع الأعين،

انتصرت (آيات) في وجهة نظرها.. وانضم إليها معظم الفريق الذي بدأ رحلة البحث عن مؤلفين ومُنشدين مسلمين؛ تمهيدًا لعمل حفلاتٍ باسم المحبة والجوانب المشتركة بين الإسلام والمسيحية..

جلسةً شخصيةً بين القمص (يوسف أرمانبوس) و(كريستين) انتهت بتوبيخ الأخيرة على إصرارها على إقحام الإسلام والمسلمين في أحاديثها، والتأكيد على أن تكرار ذلك بشكلٍ مبالغٍ فيه في كل شاردة وواردة "عيب، وما يصحش، وغير مسموح بيه هنا.. مفهوم واللا مش مفهوم؟" لتخادر (كريستين) المكان باكيةً، تاركةً وراءها مادةً ثريةً للنميمة والحكي، لا سيما على السنّة الشامتات فيها من جرّاء غيرة دفينّة من جمالها الذي يعمي العيون عمن سواها في أي مكان تذهب إليه.. وفي اليوم التالي، تم توزيع كُتيب بعنوان: "القرآن والمسيحية" كُتب على غلافه أنه تأليف قداسة البابا شنودة الثالث، وما زلت لا أعرف هل للقمص علاقة بتوزيع هذا الكتاب أم لا؛ فهو رجلٌ مهيبٌ لا يستطيع الكثيرون النظر في عينيه، وأكثر ما يُميّزه عن غيره من رجال الكنيسة هو الغموض وكثرة الاختلاء بنفسه، وعصاه التي يتوكأ عليها كصديقٍ وحيدٍ أفضل من البشر، وإن كان استقباله لي حافلًا، ولا أدري -حتّى الآن- لماذا حملق كثيرًا في وجهي، وشدّ على يدي اليمنى بيديه الاثنتين عند المصافحة، ثم لَمَعَت عيناه بالدّموع وهو يقول: "يا أهلاً بمن يحملون رائحة الأحبّة" .. تُرى، هل كان يقصد الحاخام (موريس)؟! ..



مهما كان الحال هاتقدر .. يا لبي بتشقى البحور

مهما كان ع الأرض ضلمة .. السما مليانة نور

تغنت (آيات) بهذه الترنيمه بصوت لا مثيل في جماله وقد نامت آلة الكمان على كتفها اليسرى، بينما أراحت خدها الجميل عليها فيما أخذت يدها تُحرك عصا الكمان بحرفية لتداعب أوتارها وتُخرج منها لحنًا شجيًّا مسَّ وجدان السامعين، وما إن اكتفت بنزر يسير من غناء وعزف الترنيمه حتّى طالبها الأطفال أن تُكملها مؤكدين أن صوتها الخلاب وكان معهم الحق في ذلك- يفوق جمال الأصوات الأصلية التي تُغنيها في التسجيلات، فاشتربت عليهم -وهي تنظر نحوّي وتبتسم ببراءة نافست براءتهم- أن يشاركوها الترنيم فصرخوا بحماس طفولي: "موافقييييين" لتمسك الكمان وترجه على كتفها من جديد وبعد ثوانٍ علت أصواتهم جميعًا حتّى شقت السماء وهم يرددون:

بارك بلادي .. بارك بلادي

يا سامع الصلاة .. في قلوب كل البشر

بارك بلادي .. بارك بلادي

التفت لصراخ قلوبنا .. وأرسل لنا المطر

يومًا ما، مرّ المسيح من هنا، ويبدو أن آثار قدميه ستظلّ محفورَةً أبد الدهر في هذا الوطن، وفي كيان كل من يسكنه.

.....

حوارٌ شيقٌ دار بيني وبين ذلك الفتى الطيب (آندرو) الذي كانت طريقة مسكنه للجيتار تُشبه احتضان عاشق لعشيقته..

قال لي وهو لا يزال محتضنًا جيتاره، بينما سرحت عيناه في ملكوت السماء:

- خلق الله الإنسان لهدف واحد؛ أن يُسبّحَهُ.

أن يتعلم أن يكونَ فنانًا، ويشعر بكل ما هو انعكاسٌ لله في الكون فيتغنى بعظمته ويزيده تمجيدًا..

خلق الله الإنسان على صورته؛ على أن يكونَ فنانًا؛ شاعرًا؛ رسامًا مثله.. والدليل أن واحدةً من أولى مهامه كانت إبداعيةً؛ ألا وهي تسمية الحيوانات من عدم.. ثم تدخّل الشيطان ورسم للإنسان هدفًا مُشوّهًا أحمقًا؛ وهو أن يصير مثل الله خالِدًا، عارفًا، وكأن الرب الذي خلق الإنسان على صورته كان رافضًا أن يصير ابنه شبهه وعلى البشر أن يحتالوا عليه لينالوا ما كان قد قرره لهم بالفعل!

فكانت بضاعة الشيطان هي المعرفة، والثمن الذي دفعه الإنسان هو الفضول..

وتمت الصفة، وباع الإنسان البركة السماوية في مقابل طبق عدس!

استبدل الإنسان موهبة إبداع اللاموجود ليشترى روتين معرفة ما هو موجود، ومن يومها سمح الشيطان لنفسه بأن ينزل بوابلٍ من الأكاذيب على العالم، وزعم أن الفن في العالم مجرد درجة ثانية، وأن الإبداع ما هو إلا مظهرٌ من مظاهر الترفيه؛ حتّى يُبعد أبناء آدم عن الخيط الوحيد الذي يربطهم بالخلود والتشابه مع الله، ويُخرجهم من جنة أنفسهم مثلما أخرجهم من جنة عدن، فانساق البعض منا خلفه، ونسوا أن جميعنا أظرف قد وضع فيها الله جوابات رسائل لهذا العالم، وكان طبيعياً على من اعتبر أن الفن مجرد نشاطٍ ترفيهي ألا يسعى لتسبيح الله بالبحث عن رسالته داخلنا حتّى يعيد اكتشاف كل شيء، بعد أن سمحوا للشيطان الأحمق المسكين الذي يفتقر للإبداع، والذي استقى حيله ووسائله من التجربة لقلّة خياله، أن يتحكم فينا ونحن من أودع الله الإبداع فيهم.

اهتمنا بعرق الوجه الذي يجلب الخبز رغم أنه عقاب؛ لأنه شغلنا عن التسبيح بالألسن، والأوتار، والرسم، كأخر مرادفات متبقية من مملكة الجنّة التي غادرناها.. ثم علمت كم يحبني هذا الفتى حين نزع محبوبته من حُضنه، ودسّها في يدي هو يمرق بأصابعه على أوتارها قائلاً:

- خذ يا صاحبي.. تعلم كيف تُسبّح الله.

.....



اعترف..

وقعت في حب المسيحية إلى الحد الذي جعلني اهتم بمعرفة أسرارها وحكاويها المذهلة عن مملكة السماء وملكوها الأبدي، ومعجزات القديسين والشُّفعا الذين مسَّتهم بركة المسيح، أكثر من اهتمامي بمعرفة حقيقتي الضائعة، واستعادة ذاكرتي المفقودة، وإزاء هذا الحب بدأت رحلة المعرفة مع القمص (يوسف).

ما كان لي أن أخفي إعجابي الشديد وانبهاري اللامحدود بشخصية المسيح الأسطورية الذي جاء ليقدم نموذجًا للتائر على ظلام العقول والقلوب، وقائدًا لعهدٍ جديدٍ يؤسس فيه لبناء المدينة الفاضلة التي يرفعى فيها الحرية والعدل والمساواة، ويُعلي من قيم الخير والحق والجمال؛ كحلّم ممكن الحدوث رغم قساوة الواقع البائس، وما أروع كلماته التي تُمتع السامعين وتريح قلوبهم كمقطوعةٍ موسيقيةٍ خالدةٍ لا يزول تأثير وقعها أبدًا:

"روح الرب نازل عليّ؛ لأنه مسحني لأبشر المساكين، أرسلني لأشفي منكسري القلوب، لأنادي للماسورين بالإطلاق، وللعمي بالبصير، وأرسل المنسحقين في الحرية".

"تعالوا إليّ يا جميع المتعبين والمثقلين بالأحمال، وأنا أريحكم.. احملوا نيري عليكم وتعلموا مني، لأنني وديع ومتواضع القلب، فتجدوا راحة لنفوسكم".

جاءه شابٌ غني أراد الانضمام لجماعته، وأكد أنه نفذ وصاياه بعدم القتل والزنا والسَّرقة وشهادة الزور، فقال له (يسوع): "إذا أردت أن تكون كاملاً فإذهب وبيع ما تملكه ووزع ثمنه على الفقراء، فيكون لك كنز في السماوات، وتعال اتبعني، فلما سمع الشاب هذا الكلام مضى حزينًا؛ لأنه كان يملك أموالًا كثيرة، وقال يسوع لتلاميذه: الحق أقول لكم: يصعب على الغني أن يدخل ملكوت السماوات، بل أقول لكم: مرور الجمل في ثقب الإبرة أسهل من دخول الغني ملكوت الله".

وحيث جاء نبي الله يوحنا المعمدان لا يأكل خبزًا ولا يشرب خمرًا، قال اليهود إن به شيطانًا.. وحيث جاء المسيح وأكل وسطهم وشرب قالوا: "هو ذا إنسان أكل وشرب خمر، محب للعشارين والخطاة"، فسأل اليهود الفريسيون<sup>(١)</sup> تلاميذه: "لماذا يؤاكل معلّمكم الخاطئين والعشارين؟" فسمع المسيح كلامهم وقال: "ليس الأصحاء محتاجين إلى طبيب، بل المرضى.. ما جئت لأدعو الأبرار، بل الخاطئين".

وقال للفريسيين أيضًا: "إن العشارين والزواني يسبقونكم إلى ملكوت الله، جاءكم يوحنا المعمدان سالگًا طريق البر فلم تؤمنوا به، وأمن به العشارون والزواني، وأنتم رأيتم ذلك فلم تندموا وتؤمنوا به ولو بعد حين".

سخر المسيح من أصحاب السلطة، وحضّ على إلغاء المراتب الاجتماعية التي تُصنّف الناس إلى طبقات، وقال لهم: "ملوك الأمم يسودونهم، والمتسلطون عليهم يدعون محسنين، وأما أنتم فليس هكذا، بل الكبير فيكم ليكن كأصغر، والمتزنس كالخادم".

وعندما كان يتناول العشاء الأخير مع تلاميذه، قام عن العشاء فخلع رداءه، وأخذ منشفةً فائزر بها، ثم صبّ ماء في مطهرة وشرع يغسل أقدام تلاميذه.. فلما غسل أقدامهم ولبس رداءه وعاد إلى المائدة قال لهم: "أنفهمون ما صنعت إليكم؟ أنتم تدعونني معلّمًا وسيّدًا، وأصبتم فيما تقولون، فهكذا أنا، وإذا كنت أنا المعلّم والسيد قد غسلت أقدامكم فيجب عليكم أيضًا أن يغسل بعضكم أقدام بعض؛ فقد جعلت لكم من نفسي قدوة لتصنعوا ما صنعت إليكم".

أدان سعي البشر المحموم إلى مراكمة الثروات والإفراط في استهلاك الخيرات فقال لهم: "لا تهتموا فتقولوا: ماذا نأكل؟ أو ماذا نشرب؟ أو ماذا نلبس؟ فهذا كله يسعى إليه الوثنيون، وأبوكم السماوي يعلم أنكم

(١) الفريسيون: يعود أصل المصطلح إلى اللغة الآرامية ويشير إلى الابتعاد والاعتزال عن الخاطئين، وكان الفريسيون جماعةً يهوديةً اعتزلت المجتمع اليهودي، واتبعت مذهبًا دينيًا متشدّدًا في الحفاظ على شريعة موسى والسنن الشفهية التي استنبطوها.

تحتاجون إلى هذا كله فاطلبوا أولاً ملكوته وبره تزدادوا هذا كله.. لا يهتمكم أمر الغد؛ فالغد يهتم بنفسه.. ولكل يوم من العناء ما يكفيه".

أحدث (يسوع) انقلاباً على القيم القديمة، وهو يعلم أنه لن يحدث بسهولة ويسر، وأعد تلاميذه وأتباعه لصراعٍ كان يعلم أنه سيحدث لا محالة بكل عنفٍ وشراسةٍ حين يبدأ الصدام بتعاليم العهد القديم فقال لهم: "لا تظنوا أنني جئتُ لأرسي سلاماً على الأرض، ما جئتُ لأرسي سلاماً، بل سيقاً، فإني جئتُ لأجعل الإنسان على خلافٍ مع أبيه، والبنات مع أمهاتهن، والكنة مع حماتهن، وهكذا يصير أعداء الإنسان أهل بيته".

"جئتُ لألقي على الأرض ناراً؛ لأن العالم القديم يجب أن يحترق ليخرج من رماده العالم الجديد.

فتحّى الوثنيون الذين كانوا يعبدون الآلهة كانت لديهم تعاليم ووصايا ترتقي بتعاملاتهم، ثم تحولت عباداتهم إلى عباداتٍ شكلية خالية من أي انعكاسٍ على سلوكيات التعامل، وعمّ الظلم والقسوة أرجاء أرض الزيتون؛ إما على يد جنود الإمبراطور الروماني وولاته؛ وإما على يد أكبر اليهود لا سيما علماء الدين منهم الذين جعلوا من الديانة اليهودية شريعةً باليةً تكمن خصوصيتها في أنها شريعةٌ طقوسٍ تهدف بالدرجة الأولى إلى تأسيس الطرائق التي يُحب الإله يهوه أن يُبجل بها، ونوع الأضاحي المقربة إليه، والحفاظ على قُدسية يوم السبت، والاحتفالات الدنيوية الدورية، والطقوس والعيادات التي يتوجب إقامتها، وما يجوز وما لا يجوز في كل مناحي الحياة؛ حتّى زادت القواعد التي تُقيد حياة اليهودي وسلوكه اليومي إلى 600 قاعدة، بعد أن كان الشغل الشاغل لليهود -قبل ميلاد المسيح بخمسة قرون- الحفاظ على تفردهم الدنيوي بأيّ شئ، وترفعهم عن الاختلاط الكافي بباقي الأمم دون أن يمنعهم ذلك عن أن يأخذوا من الأمم ما يفيدهم ويضيف إليهم.

وتم ربط حياة اليهود بأوامر ونواهي حُرّاس الشريعة الذين وضعوا حاجزاً يفصل بين اليهود وبقية الأمم؛ فجاء المسيح وهدّد الكهنة والكتبة وعلماء الشريعة من الناموسيين والفريسيين الذين مثلوا النخبة المتعلمة

من المجتمع اليهودي، وبدأ في تغيير شريعة موسى التي شوّوها أتباعه، وأحل محلها شريعة القلب والروح التي تخدم الإنسان وتفتح آفاقه نحو السماء بعد أن تحوّل الدين بفعل العُلّة إلى استعبادٍ وألم.

مرّ (يسوع) خلال المزارع في يوم السبت وهو اليوم المحرم على اليهود العمل فيه، فأخذ تلاميذه يقطفون السنابل وهم سائرون، فقال له الفريسيون: انظر، لماذا يفعلون في السبت ما لا يحل، فقال لهم إن السبت جعل لخدمة الإنسان، لا الإنسان لأجل السبت.

هاجم حراس الشريعة وقال لهم: "الويل لكم أيها الناموسيون؛ تُحمّلون الناس أحمالاً باهظة، وأنتم لا تمسّون هذه الأحمال بإحدى أصابعكم.. الويل لكم أيها الناموسيون؛ فقد استوليتم على مفتاح المعرفة فلا أنتم دخلتم، ولا الذين أرادوا الدخول تركتموهم يدخلون".

غيّر شريعة موسى التي كانت تُحلل الطلاق بفعل قساوة قلب أتباعه، وقال إن الزوج والزوجة حين يتزوجان يصيران جسداً واحداً، ومن يجمعه الله لا يفرقه إنسان.

وضع أجمل وأرقى أسس المحبة..

"أحب ربك بجميع قلبك، وجميع نفسك، وجميع ذهنك.. تلك هي الوصية الكبرى والأولى".

"أحب قريبك حبك لنفسك".

"وصية جديدة أنا أعطيها لكم؛ أن يحب بعضكم بعضاً".

"افعلوا للناس ما أردتم أن يفعله الناس لكم، هذه هي خلاصة الشريعة وكلام الأنبياء".

شيئاً فشيئاً كان المسيح يلغي شريعة الطقوس القديمة، ويحل محلها شرع المحبة والأخلاق..

لكنني لم أفهم بعدُ كيف يفعل ذلك، وفي الوقت نفسه يقول في إنجيل متى: "إن الكتبة والفريسيين على كرسى موسى جالسون، فافعلوا



ما يقولونه لكم، واحفظوه، ولكن لا تفعلوا مثل أفعالهم؛ لأنهم يقولون ولا يفعلون!".

كيف وصف المسيح -المحب للجميع- الكنعانيين بالكلاب، واليهود بأولاد الأفاعي، ورفض شفاء ابنة امرأة كنعانية في نواحي (صيدا) بحجة أنه مرسلٌ فقط لبني إسرائيل، فدنا منه تلاميذه يتوسلون إليه قائلين: "أجب طلبها واصرفها لأنها تتبعنا بصياحها، فأجابهم: لم أرسل إلا إلى الخراف الضالة من بيت إسرائيل"، وحين وصلت إليه، وسجدت له وقالت: "أغثني سيدي"، أجابها: "لا يحسن أن يؤخذ خبز البنين ويُلقى إلى جراء الكلاب!"!

ألم يقل لتلاميذه في إنجيل متى: "اذهبوا وتلمذوا جميع الأمم، وعمدوهم باسم الآب والابن والروح القدس"؟ فكيف صدّ إذن هذه المرأة لمجرد أنها كنعانية إذن؟!

هذا كان السؤال الذي أجابني عليه القمص (يوسف): "لقد جاء يسوع ليهدّي أولاً الشعب اليهودي الضال، ويُضرم في قلوب أبنائه عواطف الإيمان والتوبة والمحبة لله، ويُنقذهم من سلاسل الفرائض اليهودية الحديدية التي كانت تشدهم إلى الأرض، وتمنعهم من أن يرفعوا رءوسهم إلى العلاء ليقدموا لله العبادة الصحيحة؛ لذلك كانوا بحاجة إلى المعجزات الكثيرة التي تُنبّه أفكارهم وتذكّرهم بواجباتهم الدينية تجاه خالقهم وربهم، ووصفه للبعض منهم بأولاد الأفاعي لم يكن سبباً بقدر ما كان تشبيهاً حقيقياً لسلوكياتهم التي تُشبه سلوك الثعابين حقاً في التلون والخبث، غير أن يسوع لم ينس الوثنيين ولم يهملهم، فإن لهم مكانهم المحدد في مخطّطه الخلاصي، وبالفعل أتى اليوم الذي أرسل إليهم تلاميذه ليطلعوهم على طريق الخلاص، ويهدوهم إلى الإيمان والتوبة؛ لذلك فإن كلامه لا يتضمّن أي إهانة للمرأة الكنعانية ولا للوثنيين عموماً، لكنه يعرض -بأسلوبٍ شعبي شائع يفهمه الجميع- المخطّط الإلهي الذي رسمه لليهود أولاً، ثم للوثنيين من بعدهم، بدليل أنها حين قالت له: "رُحماك سيدي، حتّى جراء الكلاب تأكل من الفتات الذي يتساقط

عن موايد أصحابها"، أجابها قائلاً: "ما أعظم إيمانك أيتها المرأة.. فليكن لك ما تريدين.. فشفيت ابنتها من ساعتها".

وهكذا تعلمت أن الإنجيل مكتوبٌ بلغةٍ أدبيةٍ رمزيةٍ، لا ينبغي أن تُفسّر كل حرف فيه بالمعنى الظاهر الصريح.

.....

ما زلتُ أبهر في المسيحية، وأندهش في كل لحظة معرفة.. ثمة آيات أحفظها في الإنجيل عن ظهر قلب، بل استشهدت بها في أحاديث سابقة لي من قبل دون أن أعرف أصلاً أنها وردت في الإنجيل!

ما تعلمته مجدداً أن الكتاب المقدّس يتكون لدى المسيحيين الأرثوذكس من جزأين؛ هما العهد القديم الذي يتضمن أسفار موسى الخمسة المعروفة باسم التوراة اليهودية؛ وأسفار بني إسرائيل التاريخية، وبها عرضٌ لبني إسرائيل مُنذ دخولهم فلسطين إلى الفترة التي تلت عودتهم من السبي البابلي، وأسفار الأناشيد الشعرية التي تحتوي على مواظ دينية، وأسفار أنبياء بني إسرائيل الذين جاءوا من بعد موسى مثل سفر (إشعيا) الذي انتابتني عند قراءته حالةٌ عجيبةٌ من الحنين والحب لهذا النبي رغم أنني لا أذكر عنه شيئاً، ووجدتني أشعر بسعادةٍ غامرةٍ حين أنت سيرة ملاك الرب الذي ناصر إشعيا، وقتل بمفرده أكثر من 185 ألف جندي من جيش آشور في ليلةٍ واحدة، لكن سرعان ما تحولت سعادتي إلى بكاء حار وأنا أقرأ لحظة نشره بالمنشار على يد الملك منسي الذي أعاد الوثنية لأورشليم مخالفاً تعاليم والده الملك حزقيا، وسألت نفسي: كيف صمت ملاك الرب حيال ذلك؟

قرأتُ أيضاً أسفار (إرميا ودانيال وحزقيال ويونان وحجي وزكريا) وغيرها من أسفار العهد القديم التي لا يؤمن اليهود بطبيعة الحال إلا بها.. أمّا العهد الجديد في المسيحية فهو عهدٌ بدأ مع ميلاد السيد المسيح المعجز من أمه العذراء مريم، ويتكون من 27 سفرًا مقدّساً، هم الأناجيل الأربعة القانونية متى، ومرقص، ولوقا، ويوحنا، ورسائل بولس، وأعمال الرسل، ورسالة يعقوب، ورسالتين لبطرس، وثلاث رسائل ليوحنا، ورسالة



على هذه الظاهرة، قائلاً إن الحصول على الخلاص أو غفران الخطايا هدية مجانية ونعمة الله من خلال الإيمان بيسوع المسيح مُخلَّصاً، وبالتالي ليس من شروط نيل الغفران القيام بأي عمل تكفيري يُلزم صاحبه بشراء هذه الصكوك.. كما رفض سلطة الكنيسة الكاثوليكية في منح البابا وحده الحق في تفسير الكتاب المقدس، مُعتبراً أن لكل امرئ الحق في التفسير، وقال إن الكتاب المُقدَّس هو المصدر الوحيد للمعرفة المختصة بأمور الإيمان، وعارض سلطة الكهنوت المسيحية في كثيرٍ من الأمور حتَّى إنه سمح للقساوسة بالزواج.

قدّم مارتن لوثر أيضاً ترجمةً خاصةً به للكتاب المقدس بلغته المحلية بدلاً من اللغة اللاتينية التي كانت اللغة الوحيدة المسموح باستخدامها لقراءة الكتاب المقدس من الكنيسة الرومانية، وهو ما أثر بشكلٍ كبيرٍ على الكنيسة وقاد إلى ترجمة الكتاب المقدس فيما بعد لأكثر من لغة، وغيرها من الأمور الشهيرة التي قام بها، وأدّت إلى حدوث موجةٍ واسعةٍ من احتجاجات المسيحيين ضد الكنيسة؛ فظهر المذهب البروتستانتي الذي يعني الاحتجاج، غير أن القمص يوسف أخبرني بأن الكاثوليك والبروتستانت محرومون من ملكوت الله في السّماء ولن يدخلوه مثل الأرثوذكسيين.

علمت أن بين الأرثوذكس والكاثوليك والبروتستانت الكثير من الخلافات الجوهرية في أهمّ أسس وقواعد الدين المسيحي، مثل أسرار الكنيسة السبعة، وغيرها.

وقرأت قانون الإيمان المسيحي الذي تمت كتابته على فترتين؛ الأولى بعد ظهور الأسقف آريوس الذي أنكر ألوهية المسيح، وقال إن المسيح هو مجرد مخلوقٍ بشري وليس واحداً مع الله الأب أو معادلاً له، فَعقد أول مجمع مسكوني للمباحثة في هذه القضية وهو ما يُعرف بالمجمع المسكوني الأول أو مجمع نيقية نسبةً إلى المدينة التي عُقد فيها بين عددٍ كبيرٍ من الأساقفة معظمهم من الشّرق، وحضروا المجمع لحسم هذه المسألة، وبعد معركةٍ طويلةٍ انتصر الرأي القائل بألوهية

يهوذا، ورؤيا يوحنا التي سُميت سفر الرؤيا، ولقد انتقت الكنيسة الرسمية هذه الأسفار تحديداً في القرن الرابع الميلادي من بين عشرات الأسفار التي كانت متداولةً بين المسيحيين وأدت إلى حدوث الخلافات والصّراعات بينهم، ووصمت الكنيسة بقية الأسفار بالمنحولة الزائفة، ودعت أولئك الذين يتداولونها بالهرطقة المنحرفين عن الإيمان القويم.

سألت عن معنى الكنيسة الأرثوذكسية فعلمت أنها الكنيسة قومية الإيمان، وكلمة أرثوذكسية يونانية الأصل؛ تعني الرأي القويم أو الإيمان السليم.. ثم قادي السؤال لسؤال آخر عن الفارق بين الأرثوذكس والكاثوليك والبروتستانت لأبداً في التبصر أكثر وأكثر، وأعرف أن الديانة المسيحية في الأصل كانت تتبع تعاليم كنيسةٍ واحدةٍ تُسمّى كاثوليكية في الوثائق الرسمية، وتُسمّى أيضاً أرثوذكسية لتمييزها عن الجماعات التي خرجت عن الاعتقاد الرسمي.. ورغم التنوع المشروع الذي كان قائماً بين كنائس الغرب وسائر الكنائس أو البطريركيات الشّرقية، كانت الشراكة قائمة والاتصالات متواترةً بين شقي العالم المسيحي، ولم تكن تسمية كاثوليكي أو أرثوذكسي تأخذ منحىً مذهبياً بعد، ثم مع الوقت دبّ الخلاف والشقاق لأسبابٍ ثقافيةٍ وسياسيةٍ بين الكنيسة الغربية المتمثلة في الفاتيكان التي أصبحت الكنيسة الكاثوليكية فيما بعد، والكنيسة البيزنطية الشّرقية التي أصبحت فيما بعد الرومية الأرثوذكسية، وكانت البطريركيات الملكية في الإسكندرية وأنطاكية وأورشليم تحت الحكم العربي، ولم يكن لها دورٌ مباشرٌ في الخصومة القائمة بين الكنيسة الرومانية والكنيسة البيزنطية.

ثم استفحل الخلاف على أيام ميخائيل كيرولاس بطيرك القسطنطينية عام 1054 ميلادياً، ومُنذُ ذاك التاريخ وهناك مسيحيون كاثوليك يتبعون الكنيسة الكاثوليكية في الفاتيكان وأرثوذكس يتبعون الطقوس الدّينية اليونانية البيزنطية.

ونتيجة لظاهرة بيع صكوك الغفران من الكنيسة الكاثوليكية وعدم وجود أي أملٍ لمغفرة ذنوب المسيحيين إلا بشراء هذه الصكوك، ظهر الراهب والقس الألماني مارتن لوثر في بداية القرن السادس عشر واعترض





المسيح، بإشراف الإمبراطور الروماني قسطنطين الأول، وتم وضع قانون الإيمان:

نؤمن بإله واحد  
الأب ضابط الكل  
وخالق السماء والأرض  
وكل ما يرى وما لا يرى  
وبرب واحد يسوع المسيح  
ابن الله الوحيد . المولود من الأب قبل كل الدهور  
إله من إله، نور من نور. إله حق من إله حق  
مولود غير مخلوق  
مساوي الأب في الجوهر  
الذي على يده صار كل شيء  
الذي من أجلنا نحن البشر  
ومن أجل خلاصنا  
نزل من السماء  
وتجسد من الروح القدس  
وولد من مريم العذراء وصار إنساناً  
وُصِّبَ عوضاً في عهد بيلاطس البنطي  
تألم ومات ودُفِنَ وقام في اليوم الثالث كما في الكتب  
وصعد إلى السماء  
وجلس على يمين الله الأب  
وأيضاً سيأتي بمجده العظيم  
ليدين الأحياء والأموات  
الذي ليس ملكه انقضاء  
وبعد فترةٍ حدث جدلٌ واسعٌ حول 3 آراءٍ جديدةٍ مسّت صلب  
العقيدة المسيحية..

الرأي الأول كان لمكدونيوس أسقف القسطنطينية الذي قال إن الروح القدس عملٌ إلهي منتشرٌ في الكون، وليس بأقنوم متميزٍ عن الأب والابن، بل هو مخلوقٌ يُشبه الملائكة وليس ذا رتبةٍ أسمى منهم..

الرأي الثاني كان لأبوليناريوس أسقف اللاذقية الذي قال إن لاهوت المسيح قام مقام الروح الجسدية وتحمل الآلام والصلب والموت مع الجسد، كما قال بوجود تفاوتٍ بين الأقانيم الثلاثة التي يتكوّن منها الثالوث المسيحي فقال إن الروح القدس عظيم، والابن أعظم، أما الأب فهو الأعظم.

أما الرأي الثالث فكان لأوسابيوس الذي قال إن الثالوث ذاتٌ واحدة، وأقنوم واحد، وليسوا ثلاثة أقانيم.

فانعقد المجمع المسكوني الثاني في مدينة القسطنطينية، العاصمة الجديدة للإمبراطورية الرومانية عام 381 ميلادياً، برئاسة 150 أسقفًا من كنائس الشرق والغرب، وهناك جاء النص الثاني من قانون الإيمان المعروف بقانون الإيمان النيقاوي القسطنطيني المكمل للقانون الأول:

ونؤمن بالروح القدس.. الرب المحيي.. المنبثق من الأب

ومع الأب والابن.. يسجد له ويمجد

الناطق بالأنبياء

وبكنيسة واحدة جامعة مقدسة رسولية..

نُقر ونعترف بمعمودية واحدة لمغفرة الخطايا

وننتظر قيامة الموتى وحياة جديدة في العالم العتيد

أمين

وهكذا كانت المجمع المسكونية انعقد من عصرٍ لعصر بسبب ظهور انشقاقات في الكنيسة والعقيدة المسيحية، وكانت انعقد بدعوة من الإمبراطور الروماني، وتحضرها غالبية أساقفة الكنيسة شرقاً وغرباً؛ بحيث يتم تمثيل كامل للكنيسة الجامعة ككل، ويقرر المجمع حكماً جديداً غالباً ما يكون حرماناً أو نفي صاحب الرأي المخالف؛ لتشكل هذه المجمع علاماتٍ فارقةً في تاريخ العقيدة المسيحية.



بلغت هذه المجامع سبعة مجامع، كان من أهمها مجمع خلقيدونية الذي انعقد سنة 451 ميلادياً، ونجم عن هذا المجمع انشقاق أدى إلى ابتعاد الكنائس الشرقية (القبطية والأرمنية والسريانية) عن الشراكة مع الكنيستين الرومانية والبيزنطية اللتين اتفقتا على أن للمسيح طبيعتين: "الكلمة يفعل ما يختص به الكلمة، واللحم يفعل ما يختص به اللحم؛ فالواحد من المذكورين يبهر بالمعجزات، والآخر ملقى للإهانات" .. بينما رأت الكنائس الشرقية أن كلمة (طبيعتين للمسيح) تعني أنه شخصان، بينما هو في حقيقة الأمر طبيعة واحدة.

يا ويلي! يكاد عقلي ينفجر.. فإذا كان المسيح بطبيعة واحدة إلهية وإنسانية في الوقت نفسه؛ فمعنى هذا أن واقعة الصلب ماتت فيها الطبيعة الواحدة الإلهية والإنسانية، فهل عاش الكون بدون إله لمدة ثلاثة أيام إلى أن قام المسيح من بين الأموات؟!

وماذا عن مجمع أفسس الأول الذي انعقد بعد ما صرح به الراهب القس الإنجليزي بيلاجيوس بأن خطية آدم مقصورة عليه وحده دون أن تمتد إلى بقية الجنس البشري، وأن كل إنسان مُنذُ ولادته يكون كآدم قبل سقوطه؛ بخلاف قوله إن الإنسان بقوته الطبيعية يستطيع الوصول إلى أسمى درجات القداسة بدون انتظار إلى مساعدة النعمة، فقالوا إن تعاليمه فاسدة وتهديم سر الفداء المجيد الذي قام به السيد المسيح من أجل تحرير البشر من خطيتهم، وتقلل من أهمية دمائه التي سالت على الصليب؟!

هل الله حقاً من الممكن أن يُحاسب البشرية كلها بذنوب آدم؟

هل تُورث الخطية؟

وماذا عن الذين عاشوا وماتوا قبل ميلاد وصلب المسيح ليفديهم من خطية آدم؟

أجابني القمص يوسف أن بولس الرسول قال في رسالته لأهل رومية: "قد صولحنا مع الله بموت ابنه"، وقال لهم أيضاً: "بإنسان واحد دخلت

الخطية إلى العالم، وبالخطية الموت" .. هذه هي عقيدتنا يا ولدي، وما جاء في كلام بيلاجيوس يتنافى معها، بل يهدمها.

لكنه لم يسمعني وأنا أهتم بيني وبين نفسي بصوتٍ خفيض:

- يا أله! ما كل هذا التاريخ الصَّعب المليء بالخلافات والانشقاقات في رحلة تكوين ديانة إلهية أخذت تتشكل ويُضاف إليها الوصايا والقوانين مع كل اجتماع على مدى قرون، رغم أن المسيح قال عند صلبه إن دينه قد تم؟! ..

.....

أصبحتُ حريصاً على حضور اجتماعات مع خُدام آخرين من الكنيسة، والاستماع إلى العظة والدروس..

اليوم انجذبت بكل حواسي لسؤال تلك الفتاة التي سألت الخادم:

قالت لي صديقة مسلمة إن المسيح لم يُصلب، وإن القرآن يقول: ﴿وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم﴾، وإن هناك بعض الأقوال الإسلامية تقول إن يهوذا الإسخريوطي هو الذي تم صلبه بدلاً منه بعد أن جعله الله شبه المسيح، وإنه لم يكن سوى مجرد نبي، فما الرد الذي أقوله لمن يقول لي مثل هذا الكلام؟

فأجابها قائلاً:

- المسيح لم تكن شخصيته مجهولة في المجتمع اليهودي؛ لأنه كان يجول في كل مدينة وقريّة يركز مملوكوت الله، وصنع مع الشعب معجزاتٍ لا يُحصى عددها، وكانت تجتمع إليه ألوف من البشر لكي تستمع إلى تعاليمه، ثم إنه قُبِلَ الصلب مرَّ بخميس محاكماتٍ أمام ولاة، مثل هيرودس وبيلاطس، وأمام رؤساء الدِّين مثل حنَّان وقيافا رئيسي الكهنة، وبعد هذه المحاكمات وقف بيلاطس والي اليهودية أمام جموع الشعب وخيَّروهم بين تسليم المسيح لهم ليُصلب وبين باراباس اللص، وعندما طلبوا صلب المسيح سلَّمه بيلاطس إلى جند الرومان ومرَّ بمراحل الجلد واللحم والتعيير وإكليل الشوك، وأخيراً سار في طريق الآلام حاملاً الصليب



يُحبون اللعب معي والجلوس حولي في حلقةٍ يزداد عددُ المنضمين إليها يوميًا، لتسامر ونضحك معًا، وعم (حنا) حارس المبنى يضرب كفاً بكفٍّ متسائلًا: كيف تحوّل هؤلاء القروء المشاغبون إلى خرافٍ وديعةٍ؟ فأجيبه مبتسمًا وأتمنى أن أكون مُحفِّمًا: ربما وَجَدَت أخيرًا الراعي الذي يستحق أن تستكينَ إليه.

انتهزت (آيات) الفرصة وانضمت إلينا، لتجلس معي في قلب دائرة الأطفال الذين ما زالوا على طُهر ونقاء الملائكة، بعد أن أخبرتني بلهجةٍ حملت قدرًا كبيرًا من الصدق أنها تعلمت مني -وأنا الذي لم يتيقن أحدٌ بعد من ديني الحقيقي- ما لم تتعلمه طوال عمرها من الرهبان والقسيسين، وسألت: "لماذا لم ألتقيك قبل الوقوع في الخطيئة؟"، فحضرت أنا معها بالمثل تلك الدروس التي علّمت فيها الأطفال العزف على آلة الكمان والرسم، وأجبتها: "حتّى يكون ثمن وقوعك هو التكفير عن الذنب بهذه الطريقة الرائعة التي لا يُقبل عليها الكثيرون ممن لم يسقطوا مثلك" .. ولأول مرّة أرى كيف تمتزج البسمة بالدموع على وجه البَشَر بهذا المزيج المدهش الذي ارتسم على ملامحها.

.....

الخوف.. الرعشة.. الرغبة في الهرب من شيء لا أعرفه، هي المشاعر التي انتابتني حينَ قام (بيشوي) -ذلك الطُفل الأسمر اللطيف- برسم وجهي بالقلم الرصاص على جسدٍ أبيض اللون وعلى جانبيه جناحان عظيمان موهبةً فريدةً من نوعها -لمن هم في مثل سنه- قائلاً بابتسامةٍ لن أنساها ما حييت: "خلّك واحدًا منهم، فأنت تُشبه تلك الرسومات التي رأيتها في العديد من الكنائس للمخلوقات السماوية الجميلة"، وتزامن مع كلماته نظرة مؤثرة منحتها لي (آيات) تصديقًا على كلامه وهي تتأرجح بين الابتسامة والرغبة؛ فأدركت في تلك اللحظة كيف على المرء أن يفر أحيانًا من التقدير والتبجيل، مثلما يفر دائمًا من اللوم والعتاب والتبكيك؛ لذا غادرت مبنى الخدمات بخطواتٍ مرتبكةٍ لا تعرف اتجاهًا أو جهةً.

تحت حراسةٍ مشددةٍ إلى أن بلغ مكان الجلجثة<sup>(1)</sup>، وهناك سمّروه ورفعوه على الصليب وكان في رفقته -في طريق آلامه حتّى مكان صلبه- أمه مريم ويوحنا الحبيب وبقية المريمات.. وهو على الصليب نطق بكلماتٍ لا ينطق بها لسانٌ بشري.. فمتى اندسَّ يهوذا في هذا المشوار العلني المكشوف أمام كل بشر ليضع نفسه مكان المسيح؟!

وكيف أن يهوذا بعد خيانتته يفعل هذا؟ وبأ تَرى لِمَنْ سَلَّمَ يهوذا نفسه لكي يُصلبَ عَوْضًا عن المسيح؟ وهل لو كان يهوذا هو الذي صُلِبَ لحدثت كل مظاهر الطبيعة التي قال بسببها ديونيسيوس الأريوباغي: ذلك العالم الفلكي الشهير: "لا بد أن إله الطبيعة يتألّم الآن؟".

إن رواية يهوذا هذه هي فريضةٌ ضد المسيحية لا يُصدقها عقلٌ إنسانٍ، ومن يُنكر واقعة صلب المسيح يُنكر بالتبعية حقيقةً تاريخيةً أجمع عليها اليهود والمسيحيون الذين عاصروا صلب المسيح ومن بعدهم، بغض النظر عن كونها واقعةً دينيةً.. وأما عن إنكار ألوهيته فمن الذي يُحيي الموتى سوى الله؟!

ومن جديد وجدنتي أتساءل:

- ما أمر هؤلاء المسلمين؟

.....

الجميل في الأمر رغم آلام عقلي السقيم في رحلة المعرفة أن كل من حولي لا يُمانعون الإجابة عن كل أسئلتني، ومن لا يعرف يُحيلني إلى من هو أكثر منه علمًا وتعمقًا في الدين، لكن الأجل أنهم يُبدون دهشتهم من درجة استيعابي الفائقة، ويستحسنون أسئلتني التي يصفونها بالذكية، لدرجة أنهم أحيانًا لا يجدون لها إجابةً تُريح عقلي!

لكن هذا لا ينفي أن ثمة إجاباتٍ تكون وافيةً، وهي التي أهضمها وأستوعبها جيدًا، ثم أخرجها بشكلٍ مبسطٍ لأطفال الحضانة الذين

(1) **الجلجثة:** هي اسم يشير إلى مكان يقع خارج مدينة القدس القديمة، يعتقد بحسب الإنجيل أن يسوع صلب عنده. تعود تسمية هذه المنطقة إلى الآرامية גולגותא جاولثا بمعنى موقع الجمجمة

انفصلت عن هذا العالم بكل ما فيه، اللهم إلا لمساتٍ رقيقةً داعب بها الموج قدميَّ الحافيتين وأنا أسير على رمال البحر وحدي في (بحري)، وقد أسدل الليل ستاره في ليلةٍ بدت فيها السَّماءُ مُعتمَةً، بعد أن سجَّل القمر اسمه في دفتر الغياب.

أخذ الهواء البارد أخذ يضرب جسدي حتَّى شعرت ببرودةٍ تُنمِّل أطرافي.. فالشتاءُ دائم انتهاز الفرص للانقضاض على ليل الإسكندرية الأعرل من الحرارة، دون أي اعتبارٍ لمعاهداته مع فصل الصيف الذي كان في طريقه للانسحاب من معركةٍ غير متكافئة الأطراف.

انتزعتني من البرودة والشُّرود صوتٌ نغمات غريبة لم أعرف مصدرها وأنا أتلفتُ حول نفسي، قبل أن أكتشف مع ذلك الاهتزاز في جيب جلابي أنه رنين الاتصال على الهاتف المحمول الذي أهدته إليَّ تلك الفتاة التي لا أعرف إلى أين ستمضي بنا الأقدار.. بالطَّبْع كانت هي المتصل ومن يكون سواها.

بصوتٍ ملهوفٍ سألتُ عن حالي، واستفسرتُ عن سر ذلك التحول المفاجئ الذي انتابني إلى حد المخاطرة بخروجي من المبنى بشكلٍ مفاجئ رغم احتمالية بحث الشرطة عني، واستحلفتني بالعودة سريعًا وأن أتوخى الحذر أثناء رجوعي.

جلست على صخرةٍ بعد انتهاء المكالمة، ونظرتُ إلى شاشة ذلك الشيء السَّاحر القادر على إذابة المسافات والفواصل بين البَشَر بضغطة زر، وسألتُ نفسي دون أن أصل لإجابةٍ شافيةٍ: لماذا بدا صوتها عبر الهاتف أكثر دفئًا وجاذبيَّةً؟

لا أنكر أن مكالمتها جاءت في وقتها.. بصراحة، لم أعد قادرًا على تفسير ذلك الشَّعور بالارتياح المرتبط بسماع صوتها..

أهي التي في حاجةٍ إليَّ، أم أنا الذي لا أستطيع الاستغناء عن حواء عالمي الذي كنت فيه (آدم) الوحيد البائس، لا سيما مع ذلك الحنان الجارف في عينيها، والاهتمام البارز في تصرفاتها، ولمساتها الدافئة ليديَّ في

لحظاتٍ خاطفةٍ تتصنع بعدها الاعتذار بحجة أنها لم تكن تقصد، فيما تقول نظراتها الشقية إنها كانت لمساتٍ مع سبق الإصرار والترصد.

غوتني شاشة ذلك الهاتف التي تستجيب لمجرد لمسات الإصبع، فضغطت سبابتي على تطبيق "فيس بوك" الذي أخبرني (آيات) أنه يجمع البَشَر من كل أنحاء العالم، لأتأمل صورتي وهي تنظر بابتسامةٍ خفيفةٍ نحو الكاميرا.

كانت هي الصديقة الوحيدة لي، فدخلتُ على حسابها الشَّخصي وبه وجدتُ اسمًا إضافيًّا لها مكتوبًا بين قوسين كان (عاشقة الورد)، ووضعتُ في الغلاف الخلفي لحسابها صورةً أكثر من رائعةٍ لباقة ورد أنيقة الشكل، جميلة الألوان، بخلاف كثير من الخواطر التي اكتشفتُ أنني أجيد القراءة عندما استطعت قراءتها بسهولةٍ، لكن هذه الخاطرة تحديداً كانت أروعها بالنسبة لي على الأقل، حتَّى إنني قرأتها بعينيَّ وأنا أسمع كلماتها تتردد بصوتها في أذني:

— قبل هذه الكلمات كانت هناك ألف تجربة سابقة محاها زر المسح في لوحة مفاتيح خرقاء، فشلت في توصيل ما يجيش به القلب، وتحويل تلك المشاعر الحزينة إلى كلماتٍ تُعبِّر لك عما هو أكبر من الكلام.



ماتت على عبات دنياك كل التشبيهات البليغة، واحتضرت الاستعارات والكنيات، وانتحرت ألفاظ الحب والغرام في ياسٍ أمام فتى فوق مستوى اللغات، وبقيت أنا وحدي في ملكوتك الهائل كدرويشة لا يشعر بمكنونات قلبها سوى مجاذيب العشق الذين سحرتهم قلوب فاتنة كقلبك الأخاذ.

أصبح وجودك لقلبي بعد الدَّين دِينًا، وصرت أكتب في جيبك أسفار الشوق، ومزامير الهيام والوله، وتلمود الوفاء لذاتك التي جاءت إلى الوجود من أجلي، وأحيا فقط من أجل انتظار لحظة تحقيق النبوءة، حينَ تنظر لعينيَّ الدامعتين، وتمنحني أجمل ابتساماتك وأنت تقول في



ذهبت عيناى بعدها إلى طرف الشّاشة، فحملت الذهول والتعجب هذه المرّة؛ إذ لم أتوقع أن تبلغ طلبات الصداقة أكثر من ألفي طلب في هذا الوقت القصير في عالم لا يعرفني فيه أحد!

مهلاً.. من الذي قال إنهم لا يعرفونني؟ ربما كان أحدهم يعرف هويتي السابقة.. سأقبل كل طلبات الإضافة إذن.

هاهاها.. اتضح أن أحدهم يعرفني بالفعل، لكن بهويتي الحالية ذات الذاكرة المعدومة.. إنها (كريستين) التي كانت أول اسم في قائمة الراغبين في صداقتي، مع صورة قريية لملامح وجهها السّاحر، تقول للناظرين إن اشتهاً صاحبة تلك العينين لا يمكن أن يكون ذنباً على الإطلاق!  
"إحم! أستغفر الله...".

قلتها وأنا أراجع عن ذلك الشّعور الذي ومض فجأةً داخلي وكاد يُسيطر عليّ، قبل أن أستعيد لجام نفسي.. لكنني قبلت طلب الإضافة على أي حال!

.....

صافحتني (آيات) حين التقينا مجددًا بلهفةٍ أكثر من الأمس، وستكون بالتأكيد أقل من الغد شأن كل مرّة نلتقي ويزداد فيها اهتمامها بشكلٍ أظنه وصل إلى الحد الأقصى، قبل أن أكتشف في المرّة التالية أنها قادرةٌ على اختراق السقف، والوصول لأبعادٍ جديدةٍ من اللهفة التي لا نهاية لها..

تمامًا مثل عينيها اللتين أعدتُ اكتشافهما في لحظات السّلام واستتباب الأوضاع بعيدًا عن الصّخب والصّراع، فإذا بهما بحرٌ لا ساحل له.

لا شك أن (كريستين) أكثر جمالًا، لكن ما أشعر به تجاه (آيات) لا أعتقد أنني مررتُ به من قبل.. حتّى وإن كانت ساقطةً ذات يوم، يكفيني أن علاقتي بها بدأت بمعركةٍ من أجل الشّرف!

حنان: لقد سمعت صوت قلبك وفسرت لغة دقائقه المشفرة بالعشق، ثم تلخص الشّرق في كتفك اليمنى، والغرب في كتفك اليسرى، وتضمني في صدرٍ صار لي في رحابة الكوكب لأحيا في عالمك وحدك، مستبدلة به كل العوالم.

أه لو تسقط المحاذير، ويمحو الغرام بمحاته تلك الخطوط الحمراء التي تُقيّد البشّر، لتقدمت نحوك وجذبت أناملك الرقيقة الملكية لأضعها على قلبي فتدرك مدى بؤسي وشقائي في حبك، مع تلك الدقات الصاخبة التي تلهيني بسياط الحب..

لأخبرتك أن ثمة لغة وحيدة لا تعجزها المفردات الهزيلة أو ترهقها الأوصاف المحدودة، ثم أضع شفطيّ على شفتيك لتتنال رُوحى من جسدي وتحل في جسدي حاملّةً معها كل المعاني التي لا يمكن أن تُعبّر عنها الكلمات، وما لا يمكن أن يُقال بالتشبيهات، فتبرق عيناك ككوكبٍ دُرّي وأنا أسألك: هل فهمت ما أريد أن أقول؟ وتهز رأسك بالإيجاب وعلى شفتيك الابتسامة السّاحرة نفسها وقد فهمت أخيراً ما عجز اللسان عن البوح به، فأقبلك ألف مرّة دون أن يزيلنا الضجر، أو يحتوينا الزّمان والمكان.

سألتك بالله، لا تبتسم وأنت تقرّأ هذا الكلام كمعجب بنصٍّ من عاشقةٍ مجنونةٍ غرقت في حب محبوبها حتّى أدّنيها، دون أن تدري أنك أنت المقصود.. لا تظن أن الأمر لا يعدو كونه كلماتٍ لطيفةٍ من إنسانةٍ تصنع حالاتٍ حاملّةٍ من الوهم..

فحروفي حياة كاملة، وددت لو قدمتها قربانًا تحت قدميك.. وأنت المحبوب يا حبيبي، وأنا المحبة حقًا وصدقًا..

فمتى تُدرك يا أعظم الرجال وسيدهم في نظري؟!

#أحبك.

ابتسمت بلا وعي مني، رغم أنها أقسمت على القارئ ألا يبتسم، لكنها لم تكن ابتسامة مُعجب بالنّص كما كانت تخشى.. بل ابتسامة قبول.



هي أول عاهرة أحبها رغم أنني لا أتذكر باقي النساء اللاتي مررن في شريط حياتي، لكن العُهر من المستحيل أن يُنسى من ذاكرة الرجال حتّى وإن كانت تلك الذاكرة مفقودة.

ذلك هو الحب.. عَصِيٌّ على الفهم والتفسير كلغةٍ ميتةٍ لم يعد هناك من يعرفها من البشر، صعب عليّ النسيان كإلهٍ من المستحيل أن ينسى مخلوقاته.. نستخدمه مضطربين كمشروبٍ غازيٍ فوّارٍ لبلع ما نتعاطاه على مائدة الحياة من وجباتٍ سريعةٍ طبختها الأقدار بقسوةٍ عسيرةٍ الهضم، فلا نملك الاستغناء عنه مهما سمعنا عن آثاره الجانبية التي تُسبب هشاشة القلب.

عُهر نظراتها معي كان فضيلة.. إغواؤها لي غير من كراهيتي للمكياج الذي كنت أراه حيلةً غير شريفة لتجميل ما هو دميم، لكن زيادة مقدار انحطاط العالم إلى حدٍّ غير محتمل جعلت عينيّ في حاجةٍ لمن يخدمهما ولو بجمالٍ زائفٍ بعد أن تمّنت أن تزول منهما نعمة الإبصار من فرط الفُبح، فإذا بيدها الرقيقة تمسك فرشاة توزيع أحمر الخدود، وتوزع حُمْرةً الجمال الحقيقي على وجه هذا العالم القبيح.

حينَ أطالت النَّظر إلى وجهي، سمعتُ صوتها الداخلي بشكلٍ واضحٍ، ظننته خيالاً في بادئ الأمر قبل أن أكتشف أنه خاصية عجيبةٌ مدهشةٌ في جعبة قدراتي التي لا أزال أكتشفها على يديها..

كان ذلك حينَ ثَبَّتت بصرها في مواجهة عينيّ وردّدت داخلها بصوتٍ خفي فضحته عيناها:

- كم شعرنا بالألفة والثقة في بأصدقاء سُرعان ما ألفناهم، فأفرجنا عما نُخفيه سراننا بين الصدور، وحكيما لهم أوجاعنا وأسرارنا في اللحظات الحزينة الحالكة، وكأننا لا تُناجي سوى أنفسنا، أو نفضض مع السماء التي لن تفشي السرّ، ثم عضضنا الأنامل من فرط الندم، لا لأنهم خانوا الثقة؛ بل لأن القلب انتخب أحدهم لينتقل إلى خانة الحبيب، والحبيب في بداية الحب لا ينبغي أن يعرف ما يعرفه الصديق القديم.

ماذا لو عرفني وأنا بلاصقة الضمان، ولا تزال بكارتي على ضبط المصنح؟

ماذا لو قدمتنى له الظروف كأبي فتاةٍ شريفةٍ، لتقح عيناه فقط على الجانب المبهر في شخصي؟ أما كان هناك أملٌ وقتها أن تكون قصتنا أقوى من أن يُهددها ماضٍ لا أملك آلة الرّمن للعودة إليه ومنعه قبل حدوثه؟ الآن صار كل ما يميزني في نظره مجرد غواية من بائعة هوى رخيصة تريد الإيقاع به، وكل نظرات بريئة ومشاعر طاهرة سرعان ما سيفسرها بكذبةٍ متقنةٍ وحبكةٍ بارعةٍ من ساقطةٍ تُجيد التغير بالرجال!

ليتني ما حكيت له كل شيء.. فأحياناً يكون كل ما نقوله صحيحاً تماماً.. والخطأ الوحيد فيه أنه قيل من الأساس!

لكنني أيضاً لم أطلع على سره الخفي وشخصيته الغامضة، فرمما كان هو الذي لا يستحق أن أمنحه قلبي ومشاعري..

ماذا؟

هل يمكن؟

لا.. لا أستطيع حتّى أن أتخيل ذلك.. ثم إن الشيطان نفسه إذا ما تاب قد يكون جديراً بالحب والصدقة أكثر من ملاك قد تُسقطه خبراته المعدومة وصحيفة أعماله الطاهرة في سقطة لا خلاص منها، وهذا الفتى لديه من الخبرات والمهارات ما يغفر له زلة سلطانائيل، فهل يغفر لي زلتي أنا الأخرى؟

ابتسمت لكلماتها ورددت عليها بصوتي الداخلي أيضاً تاركاً لفراستها القدرة على ترجمة ما تبوح به عيناها:

- الحب هو الغسول الوحيد الذي ينظف وساخات الماضي، والإله الذي يسكن في قلوبنا، يغفر زلات الأحمّة مهما كانت خطاياهم قبل أن نلتقيهم؛ فقد وُلدوا مُنذُ أن عرفناهم.

لمعت عيناها بمزيجٍ من دموع الفرحة والتأثر، جعلني أقسم إنها سمعت ما جال بخاطري أيضاً.. فهذه أبسط معجزات العشاق.. ثم



تيقنت من هذا حينَ ابتسمت من بين دموعها الماسية وقالت ببطء وهي تتأمل عينيَّ بهيام:

- أخبرتك في أول معرفتنا أنني كنتُ أحب شخصًا لم تشأ الأقدار أن تكلم قصتنا بالنجاح.. الآن أيقنت أن الحُب الأول لا يموت.. لكن... حينَ يأتي الحُب الحقيقي فإنه يدفنه حيًّا، كما قرأت للشاعر محمود درويش ثم ارتبكت ملامحها حينَ شعرت أنها قالتها بلا مناسبة، فاستطردت في خجل:

- قرأت هذه المقولة بالأمس في كتابٍ من كتبي القديمة وشعرت أنها كتبت من أجلي.. ما رأيك فيها؟

جاوبتها بابتسامةٍ تمنحني الفرصة لتأجيل الإجابة وأنا أفكر بيني وبين نفسي: هل أخبرها بأن (كريستين) صارت صديقة لي على هذا الموقع الاجتماعي الذي اكتشفت أنه يُشكل إدمانًا لكثير من البشر؟ هل أعتزف لها بأنني تصفحت ألبومات صور تلك الأخيرة المرفوعة على الموقع وعليها رقم قياسي من التعليقات وعلامات الإعجاب وتلك الأيقونات التي تُعبر عن المشاعر بنكهةٍ إلكترونية تغمز فيها الأعين، وتُخرج فيها الرسومات ألسنتها؟

هل أبلغها أنها حادثتني عبر صندوق المحادثات، ورغمًا عني أبدت إعجابي بصورها الفاتنة، فأرسلت لي صورًا أخرى "سيلفي" أخبرتني بأنها "إكسكلوسيف" لي وحدي في أوضاعٍ غريبةٍ يظن من يراها أنها تتعرض للاغتصاب من شخصٍ خفي لا يظهر جسده لكن تظهر أثار فعلته، وتذكرت وأنا أشاهدها بقلبٍ يرتجف ذلك الشعور الذي أحرق كياني فوق سطح منزل (دميانة) حينَ سمعت أصوات المتعة والشبق وشعرت بالعطش، قبل أن ينتهي الأمر بتبادل أرقام الهاتف حينَ طلبت مساعدتي بشدةٍ في موضوعٍ تريد أن تحكيه لي على انفراد، ولم أستطع أن أخرجها وأنا الذي لا يستطيع أن يخذل من يحتاج منه يد العون ما دمت قادرًا على ذلك؟

وحينَ طال شرودي سألتني: "روحت فين؟!"، وقبل أن أجيب قطع حديثنا عم (حنا) الذي أخبرني بأن القمص (يوسف) يُريدني..

ذهبت إلى ذلك الرّجل الجليل، وبين يديه اكتشفت أنني لم أكسر بعد حاجز المهابة تجاهه رغم وده البالغ نحوِّي، واحترامه لشخصي المجهول بشكلٍ يدفعني دائمًا للحيرة والتساؤل.

ابتسم بشكلٍ نادر الحدوث، وأبدى إعجابه الشديد بنشاطي الملحوظ تجاه الأطفال، ثم اتسعت ابتسامته وهو يسأل بصيغةٍ بدت تقريريةً أكثر منها سؤالًا -وكأنه يعرف الإجابة- كيف فهمت طقس تقسيم القربان في الاعتراف الأخير واستخراج الجزء المسمّى "الإسباديقون" الذي يرمز إلى جسد (عمانوثيل)، رغم أن مسيحيين كثيرًا يحضرون القدّاس مُنذُ سنواتٍ ولا يستطيعون شرح القسمة المتصلة والمنفصلة بهذه السلاسة.

أخبرته بخجلٍ أنني حضرت القدّاس لنهايته ولم أنصرف مع المنصرفين حينَ جاء النصف الأخير المخصص للمسيحيين المتعمدين فقط، لكنني لم أتناول بعد أن عرفت أن الشماسين كانوا يقولون قديمًا محدّرين: "من كان طاهرًا فليدن من الأسرار المقدسة، ومن كان غير طاهر فلا يُدني منها، ولا يقترب وإلا يحترق بنار اللاهوت.. من كانت له عثرة مع صاحب، من كان به فكر زنا، من كان سكرانًا فلا يُدني"، وأنا لا أعرف يا أبانا درجة طهارتي، ولست محسوبًا حتّى الآن على (شعب الكنيسة)، لكنني على أية حال مُعجب بهذا المصطلح لأقصى حدٍّ بعدما وجدته بالفعل على أرض الواقع، وليس مجرد فكرة تُردها الألسن.

فالكنيسة بمثابة وطن متكامل لأبنائه في الاحتضان والتكافل بين الرعية.. وكلمة وطن يعني وطنًا، بكل مشتملاته ومؤسساته..

السكفيات التي تُشبه وزارات هذه الدولة للتعليم، والرياضة، وغيرهما.. دور المُسنين التابعة لدولة الكنيسة ومخصصة لاستقبال العجائز الذين شردتهم الأقدار ولم يجدوا مُعينًا وسندًا في آخر أيام العمر.. دور رعاية وتربية الأيتام المساكين.. المستوصفات الطبية التي تحمل أسماء السيدة مريم العذراء ومشاهير القديسين القدامى لتوقيع الكشف الطبي



الصليب عند مباركة الشعب إشارة إلى أن الذي علق على الصليب هو المسيح نور العالم، وأنه بالصليب نقلنا من الظلمة إلى نوره العجيب. والشعلة كالعابد ليس لها فخرٌ في ذاتها؛ فهي مفحمة لا نور فيها، باردة بلا حرارة، وتظل هكذا إلى أن تتحد بالنار.. حينئذ تلتهب وتضيء، فتبدد حُجب الظلام المحيطة بها، وتبعث الحرارة والدفء إلى مَنْ حولها.. فطبيعتها بدون عمل النار تافهةً مهملة، مثل طبيعة الإنسان بدون عمل النعمة والإيمان في قلبه، حتى إذا اشتعلت بالنار صارت من طبيعة النار، وأنارت لا بطبيعتها الأولى وإنما بطبيعة النار المتحدة بها.. كذلك المؤمن الذي ليس فيه صلاحٌ من ذاته ولكن كل عطية صالحة وكل موهبة تامة هي من فوق، نازلة من عند أبي الأنوار.. من عند شمس البر الذي جعل وجه موسى النبي يضيء بعد اقترابه منه؛ لذا توضع الشموع أمام أيقونات القديسين إشارة إلى أنهم كانوا نورًا للعالم؛ وأنهم كالشموع التي تذوبُ لتنيرَ للآخرين دروبهم.. وعندما نوقد شمعة أمام أيقونات القديسين فإننا نطلب شفاعتهم وصلواتهم أمام عرش النعمة.

وكلما كان المحيط ظلامًا ظهر نور الشمعة بقوة أكثر مهما كانت صغيرة وضعيفة، فينتفع بها كثيرون.. فظلام الكون بأكمله لا يستطيع أن يكتسب ضوء شمعة.. منه عرفت سر تصميم معظم الكنائس على هيئة سفينة واقفة بشكل عمودي تتجه مقدمتها نحو السماء؛ كرمز لسفينة (نوح) التي أقلت الفئة الناجية من البشر من غضبة الرب، حين أفنى عقابه الإلهي كل من عداهم من خلائق.

وعلى هاتفه المحمول شاهدت صورًا عديدة له مع البابا كيرلس السادس بابا الإسكندرية وبطريك الكرازة المرقسية، ومن بعده البابا شنودة، والبابا تواضروس في أكثر من مناسبة؛ سواء عيد الغطاس الذي يتم تعميد الأطفال فيه على نهج تعميد يوحنا المعمدان للمسيح في نهر الأردن باعتبار التعميد هو البوابة الوحيدة للملكوت؛ أو عيد التجلي الذي تجلى فيه المسيح مع النبيين موسى وإيليا فوق جبل طابور، أو رسامة القسيسين الكهنة من البابا، وغيرها من المناسبات الكنسية.

على المرضى بأسعارٍ رمزية.. المُدرسون الذين يُقدمون مجموعاتٍ دراسيةً لغير القادرين.. حضانات رعاية الأطفال.. الدورات التي تُقدمها الكنيسة لتنمية مهارات الشباب وتطويرها لتناسب سوق العمل مع العديد من المتخصصين المسيحيين الذين يتبرعون بالوقت والجهد في نقل علومهم وخبراتهم للشباب، بخلاف الارتقاء بوجدان شعب الكنيسة بتعليم العزف والغناء والرسم، وغيرها من الأنشطة التي يصعب حصرها.

أنهى القمص الغامض اللقاء بابتسامة حانية مُعلِّقًا على كلماتي قائلاً: "رما كنتُ واحدًا من رعايا الكنيسة قبل أن تفقد ذاكرتك" فقلت له: "أوكنت واحدًا من خصومكم المسلمين"، ولا أدري لِمَ سرح طويلًا في كلمتي الأخيرة، ثم ردد شارداً وكأنه يُخاطب نفسه: "لستُ أعاديهم ويشهد الرب على كلماتي.. ليتك كنت مسلماً لتشهد بنفسك"، ثم لمعت عيناه الأبيتان لأول مرة أمامي بالدموع!

.....

اكتشفت أن عم (حنًا) حارس مبنى الخدمات الذي أقيم فيه حكاية بمفرده..

تاريخ وموسوعة كُنسية تمشي على قدمين..

سألته عن معنى كلمة (كرازة) فأجابني:

- الكرازة هي المناداة علناً بالإنجيل في العالم غير المسيحي، والتبشير العلني بعمل يسوع الفدائي، والدعوة إلى وصاياه وتعاليمه وتعريف الجميع بها، سواء كانوا مسيحيين أو غير مسيحيين. أخبرني أيضًا عن جدوى استخدام الشموع هنا في الكاتدرائية وباقي الكنائس كطقسٍ كنسي لا غناء عنه، بخلاف إشعالها أمام أيقونات القديسين:

- الشمعة التي يخرج بها الشمَّاس من باب الهيكل ويتقدم الكاهن عند قراءة إنجيل القُدَّاس تشير إلى يوحنا المعمدان الذي سبق السيد المسيح ليمهد الطريق أمامه، كما أن وضع شمعة أو ثلاث شمعات على





الكنيسة اجعل هذا المبلغ خميرة للبركة وستبني الكنيسة به.. فلم أطلب شيئاً إلا وحصلت عليه وغداً سترى صدق كلامي".

العجيب أنه لم يمض أسبوعٌ واحد حتى جاء إلى الكنيسة رجلٌ وقورٌ، جاوز الستين من عمره، كان يعمل مفتشاً للغة الإنجليزية هو وزوجته، ولم يكن لهما أولاد وكان يسكن في فيلا يمتلكها في منطقة مصطفى باشا، إلا أنها كانت فيلا صغيرةً في شارع ضيقٍ ومنطقةٍ مقطوعةٍ، ليس فيها حركة ولا أنوار في الليل، يخاف الإنسان أن يسير فيها، وعدد المسيحيين محدود، وكان البابا كيرلس السادس موجوداً بالإسكندرية، فقال: "غداً ستتغير الدنيا وتبقى كنيسة كويسة"، وفي اليوم التالي كان الأستاذ ميخائيل يُوقِّع على التنازل، وكتب أنه يتنازل عن ملكية الفيلا للطبيريكية لإقامة كنيسةٍ باسم رئيس الملائكة ميخائيل، كما تمت المرأة تماماً!

وتم دفعُ الخمسين جنيهاً في هدم الفيلات، وإقامة مبنى بسيطٍ لكنيسة الملاك ميخائيل في مصطفى باشا، وفيما كان العمال يحفرون الأساسات إذا بهم يجدون قطعةً من حجر جيري برسم قربانة مملوء صلباناً، وعَلِمَ الجميع بما لا يدع مجالاً للشك أن العمل من البداية هو عملٌ إلهي، وأن رغبة الست (أم مراد) أن تبني كنيسة كانت تُحركها يدٌ خفية؛ إذ يتكلم الله في قلب مُختاربه ويُحركهم لعمل مسرته.

بعد سنواتٍ أراد أحد أبناء الست (أم مراد) وكان يعمل طبيباً أن يذهب إلى السعودية ليعمل هناك بعض الوقت، وبعد مقابلةٍ مع وفد العمل السعودي الذي جاء إلى مصر وضع أمامهم شروطه التي توافقه من جهة الراتب وخلافه، لكن الوفد لم يوافق على هذه الشروط، ورجع الابن من القاهرة تبدو عليه علاماتُ الضيق وحبى لأمه تفاصيل المقابلة التي انتهت بالفرض.. وكان يومها 7 سبتمبر، وكان تذكُّر الملاك روفائيل مُفرِّج القلوب يقع في اليوم التالي، فرفعت هذه البارة قلبها بالصلاة، وقالت: "يا ملاك الله رافائيل، يا مُفرِّج القلوب، إن أسمعت ابني خبراً يفرح قلبه قبل منتصف الليل فسأعرف أن الرب سمع طلبي بشفاعتك المقبولة"، وقبل منتصف الليل بدقائق دق تليفون المنزل، وكان المتكلم

وعلى لسانه أيضاً ترددت حكاياتٌ لا تنتهي عن معجزات القديسين (مارمينا العجايبى) و(مارجرجس) والأم (تماف إيريني) وغيرهم، بعد أن عاش عمره كله بقلبٍ مُعلقٍ بالكنايس والأديرة، راضياً بأن يكون مجرد حارس بسيط دون أن يسلك السلك الكنسي الذي لا يرى نفسه أهلاً لأمانته الثقيلة رغم إيمانه الأكثر رسوخاً من إيمان العديد من رجال الكنيسة.

ماتت زوجته فتولى تربية ابنه الوحيد (ماجد) الذي سافر إلى ألمانيا مؤخراً "يشوف حاله بعدما قلت له: لقد ولدت في الأرض التي رعت المسيح في المهدي، ولن أتركها أبداً حتى أموت وأدفن فيها.. روح إنث وسبيني هنا مش مهم.. فيه معايا ملايكة هترعاني وتفرحني، مثلما رعى ميخائيل وروفائيل أم مراد".

وحتى لي قصة (أم مراد) صديقة الملائكة حسبما سمعها من المُقص (لوقا سيداروس) في كنيسة (مارجرجس) في الإسكندرية حين ذهبت إليه وعرفته بنفسها أنها أرملة وأم ثلاثة شبان من بني سوييف، ثم إذا بها تُخرج لفة قماش مصرورة وقدمتها للمُقص قائلة: "خذ هذه الخمسين جنيهاً وابن لي بها كنيسة على اسم الملاك ميخائيل" فقال لها: "إن خمسين جنيهاً لا تكفي لشراء رخام للمذبح، ونحن نبني الآن كنيسةً على اسم القديس تكلا هيمانوت الحبشي بالإبراهيمية، وهو صديقٌ للملاك ميخائيل، فممكن توجيه هذا المبلغ لبناء مذبح بالكنيسة باسم الملاك ميخائيل وهذا يوفي بالغرض، أما بناء كنيسة بأموالك القليلة فهذا أمر مستحيل".

حينها أخذت منه النقود، وقالت له: "أنت لا تملك الإيمان الكافي بأن ربنا ممكن يعمل بالقليل"، وبدأت تقص عجائب الملاك ميخائيل رئيس الملائكة معها، حتى قالت: "اطلب من السماء أي حاجة، وصدقني سأحضرها لك.. إياك ألا تصدق، فهذا الملاك صنع معي الكثير".. ثم ردت إليه المبلغ مرةً أخرى وهي تقول: "احتفظ بالنقود عندك، وحين تظهر



هو رئيس الوفد السعودي الذي أبلغ ابنها بقبول جميع الشروط وهنأه بحصوله على الوظيفة؛ فترعت هذه المرة بمبلغ 200 جنيه، وتم حفظه كخميرة صغيرة تستطيع أن تخمر العجين كله.. وفي غضون أسابيع قليلة تم شراء الأرض وبنيت كنيسة باسم الملاك روفائيل.. مُفْرَح القلوب. (1)

وحين سألته: لماذا لم تفكر في الهجرة خارج تلك البلاد ما دام ابنك قد وجد خارجها ما أغراه على البقاء هناك؟ ضحك بطريقة لم أفهمها وأجاب:

- التقيت مُنذُ قريبٍ شابًا ابن حلال اسمه شريف، جاء إلى مصر في إجازة سنوية حيثُ يعمل مترجمًا بوزارة العدل الألمانية.. في أحد الأيام، كانت لديه مهمة ترجمة 4 قضايا خاصة بمحكمة القضاء الإداري الألماني.. وبالصدفة كانت كل القضايا تخص مصريين؛ القضية الأولى كانت أسرة مسيحية كاملة تطالب باللجوء؛ لأنَّ رب الأسرة كان يُشارك في تبشير الفتيات المسلمات في الصعيد بالمسيحية، وتسفير من تقتنع بالمسيحية منهم إلى أوروبا للزواج هناك، وسبب الرغبة في اللجوء السياسي هو الخوف من بطش الإخوان وضباط جهاز أمن الدولة الذين يضطهدون المسيحيين.

القضية الثانية كانت تخص أحد أفراد جماعة الإخوان المسلمين الذي دخل ألمانيا عن طريق صربيا والمجر، وسبب طلب اللجوء السياسي هو الخوف من بطش أمن الدولة والمخابرات وأنصار الرئيس الجديد الذين ينتمي معظمهم للمسيحيين!

القضية الثالثة كانت لأسرة مسيحية صغيرة جميعها تريد اللجوء السياسي، وسبب الطلب هو الخوف من بطش النظام السياسي والأحداث الإرهابية وتهديدات جماعة الإخوان المسلمين.

أما القضية الرابعة فكانت لمواطنٍ مسلمٍ معارضٍ للنظام السياسي الحاكم، وكارهٍ لجماعات الإسلام السياسي ويريد اللجوء السياسي؛ خوفًا من بطش النظام وتهديدات الإسلاميين.

(1) ما ورد عن (أم مراد) مأخوذٌ من كتاب (رائحة المسيح الزكية في أبرار معاصرين) للقمص لوقا سيداروس.

ثم ابتسم وأنهى حديثه قائلاً:

- أخبرني الشاب المترجم بأن القاضية استشاطت غضبًا وصرخت فيه بعد القضية الثالثة، وقالت: لا بد أن هناك شيئًا ما خطأ.. فيما أنك تترجم بشكلٍ غير دقيقٍ أو أن كل هؤلاء لديهم أزمة في فهم أوطانهم رغم كل هذا العمر الذي قضوه فيها.

وبعد القضية الرابعة انفجرت من الضحك، وقالت: من المستحيل أن تجتمع كل هذه الأضداد في بشرٍ أسوأ؛ فمصر والشرق الأوسط في حاجةٍ لدراسةٍ عميقةٍ يكون عنوانها: صدقٌ أو لا تُصدق!

ترى قبل أن أفقد ذاكرتي كنت أنتمي حقًا لتلك المنطقة الملهبة في العالم، أم كنتُ أنتمي لمملكةٍ أخرى أعيش فيها حياةً كريمةً، ثم ألقيني الأقدار البائسة في هذا الأتون لتلتهمني ظروفه القاسية كألف ألف ضحية تسقط فيه يوميًا ولا تعرف وهي تصرخ وتتقافز ألمًا بأي ذنبٍ جاءوا؟ وما السبيل إلى الخروج؟!

.....

مع كل يومٍ يمضي أكتشفُ داخلي شيئًا جديدًا لم يكن بهذا الوضوح حينٍ استعدت وعيي لأول مرة في المقابر..

صوتي الجميل الذي بهر الجميع حينٍ اندمجت مع ترانيمهم ذات مرة للحد الذي دفعني إلى إغماض عيني وترديد تلك الكلمات التي لمست أعماقي بصوتٍ لم أحدد إن كان عاليًا أو خفيصًا؛ فقط تركت العنان لمشاعري حتى تُعبرَ بالدرجة والنبرة الملائمتين لاستمتاعي وتصديقي ما أردد، ولم أفق إلا وقد اختفت كل الأصوات من حولي ليكون صوتي هو الصوت الوحيد المتردد في الآفاق، وحين فتحت عيني كانت كل العيون تُحاصرني بنظرات الدهشة والإعجاب، في الوقت الذي اصطدمت فيه الكفوف وتباعدت بشكلٍ متكررٍ متلاحقٍ بسرعةٍ شديدةٍ حماسية.. علمت منهم بعدها أن هذا اسمه (تصفيق) للتعبير عن الإعجاب وتشجيع المبدع على إبداعه، أيًا كان هذا الإبداع فكان هذا سببًا للتماذي في عالم الغناء السّاحر بعد أن وجدت لديّ حنجرةً قويةً وحسًا مرهفًا وصفوه



بأنه قادرٌ على غزو الآذان دون استئذان، والسَّيطرة على الحواس والأَنْفَس مع أول حرف يُغادر شَفَتَيْ..

بدأ الأمر بغناء الترانيم، ثم تدرجت إلى أغانيٍ أخرى بت أسمعها عبر موقعي "يوتيوب" و"ساوند كلاود" في ذلك الهاتف الذي أهدتني (آيات) إياه، بعد أن أخبرتني بأن هذين الموقعين من أكثر المواقع التي ستمتعني في ليالي الوحدة حينَ ينام الكون من حولي وتبقى عيناى مفتوحتين..

جربت مرّة أن أكسر روتين الترانيم، واستعدت من ذاكرتي الجديدة بضع أغاني غير كنسيةٍ لأسماء مطربين ومطرباتٍ لم أعرف مدى شهرتهم ونجاحهم الجماهيري حينَ عشقت أغانيهم وأنا أسمعها لأول مرّة، لكن يكفي أن تعليقات المستمعين والمستمتعين بتلك الأغاني في خانة التعليقات، كانت خير دليل على أن ما شعرت به لم يكن أمرًا خاصًا بي وحدي؛ إذ حلقت بي أصواتهم، والألحان المصاحبة للكلمات التي يشدون بها في عالمٍ آخر.. أرضه من الحنين، وسماؤه من الشجن، وهواؤه من الصّبا، وأنهاره من الشغف، سكانه ممن أصابتهم أسهم العشق فاستمتعوا بما ينزفون من لوعةٍ وأنينٍ، في صحبة الليل المُقمر ذي الثور الأبلج الذي يضيء القلوب ويسر الناظرين رغم مقدار الأم!

ما إن بدأت في غناء مقتطفاتٍ من الأغاني التي علقت بذاكرتي حتّى انقلب الحال..

بدأت (آيات) الأمر حينَ داعبت الكمان، ثم تسلل (أندرو) من خلف ألحان الترانيم وجاء معنا إلى عالم المغنى، وأخيرًا لحق بنا (أمير) بالدرامز، قبل أن تُفاجئنا (كريستين) بحضورها وكأنَّ القدر يُرتب لنا كل شيء على مسرح الحياة لتشارك معنا بالبيانو في وصلة غناء وعزف لم يشهدها مبنى الخدّمات من قبل، ويصنع الجميع ما سمّوه "بلاي ليست" بذائقة الحزن المُستتر وراء ابتساماتهم الباهتة، ورائحة الماضي الذي رحل بكل شيء حلو، وترك ذكريات توجعهم حلاوتها بقدر عدم استطاعتهم أن يكرروها، فيما شعرت من جانبي بمتعةٍ مع إيقاف التنفيذ في ذاكرةٍ لا يسكنها سوى الخواء والتشويش.

لكل ما سبق وجدتني فجأة أردد:

ساعات بشتاق ليوم عشته وأنا صغير.. لشكلي قبل ما أتغير

لأيام فيها راحة البال.. عشان كنا ساعتها عيال

يبدو أن الأغنية جاءت على الجرح، حتّى إن الجميع سرحوا في ذكرياتهم وهم يُشاركوني الغناء بصوتٍ يملؤه الشجن، وعزفوا على آلاتهم عزفًا وتربًا بطيئًا زاد من اللحن الأصلي ألمًا وبؤسًا.. ومع انتهاء الأغنية أخذت (آيات) تعزف بكمانها الحزين مقدمة أغنية (أوقات)، ثم بدأت الغناء وحتنتني بعينها أن أشاركها فرددنا معًا:

أوقات يا دنيا معاكى بعيش.. وساعات ما بفهمكيش

وإنتِ ولا فهماني

وتألقت في عيوننا الدّمع ونحن ننظر لبعضنا وننسى الكون كله من حولنا ونواصل الغناء ببطءٍ وحزنٍ كصوت كورال يضرب المثل في التناغم والتوحد بين المرّدين:

صابر ع اللي بيجرالي.. وإنتِ لا ليكي عزيز ولا غالي

ثم سال خطان من الدّمع الأسود الممزوج بالكحل من عينها حينَ خفتت سرعة إيقاع اللحن المعزوف في اتفاقٍ لم يتفق عليه الجميع ليبدو غناؤنا أقرب إلى الهمس، ونحن نقول بصوتٍ مذبوح:

أوقات بتاخدي أعز الناس.. وأقول نصيب وخلص

وأصبر على أحزاني

خفت الكلام حتّى احتضر مع الحرف الأخير، واحتجنا لاستراحة محارب وكل منا يسمع صوت دقات قلب الآخر؛ فكانت فرصة لـ(كريستين) أن تخرجنا من سحر وتأثير أغاني (محمد فؤاد) لتضربَ أصابعها لوحات مفاتيح البيانو ضربات بدت أقرب للزغزغة وهي تعزفُ عزفًا منفردًا "صولو" وتغني لـ(دينا الوديدي) بصوتٍ بدا شديد الشبه بصوتها:

بعد البيان في بيان.. مرصوصة ورا بعضها

أفتح بقلب جبان.. والا احتمي ف ضهرها



رد اللي بعد الباب، قال لي الطّريق مفتوح

عدّي البيبان دي حياة.. ما تجوزش غير لطمّوح

أشعل غناء (كريستين) غيرة وحماس (آيات) فاستنهضت إبداعها  
الذي غلبته الدّموع، وبدأت في الغناء لـ(هبة طوجي) مع عزف اللحن  
الرحباني:

هلاً أنا عرفت مين اللي بيختار.. مرسوم ومكتوب بالعالي المسار

هلاً أنا عرفت ما عدت هالبت.. اليوم كبرت وصرت وحدي اللي بختار

ثم تضاعف حماسها، وحلّقت بها المشاعر عاليًا ليزيد اندماجها،  
وتلجّم في الأغنية أغنيةً أخرى لـ(هبة طوجي) أيضًا:

مثل الريح والريح ما إلها بيت

ولا حبك إلو بيت مثل الريح

نازل بالحوراء تلويح

وبقلبي دمع وتجريح

ثم نظرت إليّ، وتابعت باندماجٍ شديدٍ ضغطت فيه على أحبالها  
الصّوتية لأقصى درجة وهي تُغني غناء بدا أشبه بالصراخ:

أنا ياريت فيّ أغيّر الأيام

أكتب قدري بإيدي ودهري والأحلام

أنا ياريت فيّ.. أحبس لك المية

شي ألف خبريّه.. خبّرهن للريح

ورغم أنني لم أدخل عقلها لكن حركات يدها وهي تعلو وتزيح  
أشياء غير مرئية لنا جعلتني أجزم بأنها تتخيل نفسها محاطة بعشرات  
الستائر البيضاء، ومع كل خطوة تخطوها تزيح ستارًا جديدًا حتّى تجدني  
في آخر الطّريق المغطى بالستائر وهي لا تزال تُغني:

البارح جمعت لك.. من كل حقلي زهرة

واديتلك عطرا يا بكرة أو مش بكرة

رسالة صغيورة.. لا كلمة ولا صورة

جوانحها المكسورة.. مرسومة ع الريح

بعدها جاء دوري وقلت لهم قبل أن أبدأ: "زي الملايكة" التي  
سحرتني حين سمعتها من (عمرو دياب).

فعرزت (آيات) مقدمتها الوترية السّاحرة بكمائها الذي عانقت  
نغماته نغمات بيانو (كريستين)، وكل منهما تنظر إليّ وتسالني بعينيها:  
"أنقصدني أنا؟" وقبل أن أشرع في الغناء جاء (ألبرت) الذي تأخر علينا وفي  
عينيه غضبٌ شديدٌ من هذا الـ DJ الذي أقمناه في بيت الرّب!

ذكرنا بأن مثل تلك الأغاني لا تُناسب طبيعة المكان الذي ينبغي أن  
نرثم فيه فقط ونملأه بالقدسيات والروحانيات، إلا أن (أندرو) رد عليه  
مُستشهدًا بالقمص (بيشوي كامل) الذي كان قديمًا وفي الوقت نفسه من  
عشاق (أم كلثوم) إلى حد أنه كان يسمعها باستمرار عبر شرائط الكاسيت  
في سيارته، وانتبهت في نقاشهما الساخن كيف أن المرء داخله صراعٌ أبدي  
بين أنوار الروح وظلام المادة.

وحدها الأغاني -بعد كلمات الرّب- قادرة على فرض حالة من  
الهدنة؛ ليجد البدن والروح أخيرًا حلًا وسطًا يُرضي كلا الطرفين في الطّريق  
إلى الراحة والسّعادة، فقط إن كانت بإحساسٍ صادقٍ، وعزفٍ راقٍ يمس  
الروح والجسد، ويصعد بهما إلى درجة أعلى، وإلا فستكون فتنةً تؤدّي  
إلى السقوط.

.....

ثمّة اكتشافاتٌ أخرى في ذاتك قد تكون مصدرًا للحرج، وتجلّب  
ضحكات الآخرين عليك بعد أن كانوا يصفقون لك بالأمس؛ مثل حُب  
الأكل والشّرب لدرجة النهم والاستيقاظ في منتصف الليل وأنت تشكو من



معدة جائعة تكاد تلتهمك بكل شراسة إن لم تلق إليها ما يُخرس عواءها  
المزعج الضارب في كل حواسك ووجدانك.

تبّاً لك يا (آيات)..

ففي عنقك الجميل سيظلّ ذنبي عالماً للأبد بعد أن عرّفتني بشهوة  
الطعام الذي تناولته معك من أشهر مطاعم الإسكندرية، وحوّلت المأكّل  
من مجرد وسيلة لكفاف الجسد وسد رمقه بكسرة خبز وشربة ماء إلى  
تعاويد وطلاسم يستخدمها الطبّاخون المهرة في محال الطعام لسحر من  
يأكل ما صنعتهم أيديهم وإخضاعه لعبودية البطن، فيتحكمون به ولو كان  
يغطّ في سابع نومة على سريريه، حتّى يستيقظ ويبحث عن أرقام خدمة  
التوصيل للمنازل!

لاحظ عم (حنّاً) ذلك فأخبرني -بعتاب- بأن المسيح والأنبياء وكل  
الأحرار العظام الذين صنعوا الأمجاد وغيروا التاريخ الإنساني وخريطة  
التفسّ البشريّة كانوا أقلّ الناس اهتماماً ببناء البطن؛ حتّى لا يقعوا  
عبيداً لنهمهم وشهواتهم، ويضيعوا أعمارهم في البحث عن الطعام وإشباع  
ملذاتهم بدلاً من تحقيق رسالاتهم في أقوامهم.

أخبرني عن ذلك الفيلسوف (غاندي) الذي كان أكثر الناس حريةً  
وهو ينطلق هنا وهناك حافيّاً على قدميه، لا يملك إلا مغزل صوف  
يدويّاً بسيطاً، وكيساً به بضع تمرات، وعنزة يشرب من لبنها ويصنع من  
صوفها أقمشته التي يلفها حول جسده.

"خلق الطعام ليكون في خدمة الإنسان، ولم يخلق الإنسان ليكون في  
خدمة الطعام.. ولا يحق للمرء منا أن يصرخ: "أين الطعام؟ لقد فقدت  
حريتي في الأكل والشرب"، إن كان لديه الحد الأدنى من الكفاف، وما يزيد  
على الكفاف ليس حرية، بل عبودية لما تلوح به أيادي الدنيا الفاتنة في  
تحالفها مع الشياطين".

صدقت يا عم (حنّاً)..

لكنني جوعان للغاية!

.....

تقول المسيحية إننا سنقوم في القيامة العتيدة بأجسادٍ نورانية،  
روحانية، كملائكة الله في السماء، وهو إحساسٌ ينتابني بالفشعريرة كلما  
حاولت تخيله..

هؤلاء الملائكة محظوظون حقاً بقربهم من الخالق، وقدراتهم  
الفائقة، وعيشتهم السعيدة في الملكوت الأبدي.. تُرى، هل أستحق يوماً  
أن أكون مثلهم؟

هل سأخلص من الخطية والحروب الروحية؟

هل سأخلص من المادة وأخلع هذا الجسد، وأترك العالم المادي  
كله؟

هل يعينني وضعي الحالي كفاقد ذاكرة من ماضٍ قد يكون بغيضاً  
أو كارثياً؟

وماذا عن الحاضر؟

والمستقبل؟

والاختيار الواجب عليّ اتخاذه في الخطوات التالية لأنال السعادة  
التي يحلم بها كل البشر في العالم الآخر؟

كلها تساؤلاتٌ تؤرقني؛ في اختبار قد ينتهي الوقت المحدد له في أي  
لحظة..

وما زلت لا أعرف الإجابة.

.....

من جديد التقيتُ الحاخام (موريس)..

كان ذلك حينَ فوجئتُ به أمامي في مبنى الخدمات، بابتسامته  
الودود، قائلاً إنه جاء لزيارة صديقه القمص (يوسف) والاطمئنان عليّ  
بعد أن وجد في آخر أيام عمره من شعر أنه -على حد قوله- مثل أولاده  
بحق..

اندهش الرجل حينَ شاهد معي هاتفني المحمول، وغمز بعينه وهو  
يسألني عن أهداه لي، ثم أعطاني رقم الخط الذي اشتراه في مصر،



وساعدني على حفظه في هاتفي، مؤكداً أن إقامته ربما تطول لأيام، وعندما سألته عن السبب شرد قليلاً ولم يُجِب، قبل أن يربت على كتفي ويغيّر مجرى الحديث قائلاً:

– انتبه يا ولدي؛ ففي لحظةٍ واحدةٍ قد يتغير كل شيء!

.....

ذهبت اليوم للقاء (كريستين) بعد اتصالاتٍ عديدةٍ من جانبها كانت تبدأ بأسبابٍ مفتعلةٍ وحججٍ واهيةٍ، قبل أن ينعم صوتها الرقيق الناعم ويصير أكثر جمالاً وسحرًا، ثم تخطفني وتحلق بي عاليًا مع ضحكاتها المثيرة التي تترك وراءها خرابًا أكثر هولًا من دمار الحروب؛ لأسألها بأنفاسٍ لاهثةٍ لتماسكٍ يحتضرٍ وقدرةٍ على الاحتمال وجدت أخيرًا من يكسرهما بما يفوق طاقتها:

– إنّ عايضةٍ إيه؟

– عايضةٍ أقطعك!

– !!!!!!!!!!!!!

– بهزر على فكرة.

وكم من هزلٍ عابرٍ كشف عن جدّ دفين!

فشلت في طريقي إليها عن إجابة تلك الأسئلة التي دارت بيني وبين نفسي: هل ستقابلها لتعلن استسلامك بعد أن تحطمت أخيرًا قدرتك على الصمود، أم لتقول لها كُفّي عن هذا الهراء وابحثي عن فريسةٍ أخرى تستسلم لحيلك المكشوفة، أم لتسترحمها أن تعيد إليك تماسكك وتوازنك اللذين سرقتهما منك بعد أن احتلت جهازك العصبي إلى الحد الذي منع إصبعك من طاعة أوامرك حين هممت بالضغط على زر إغلاق الخط وهي تتعدى حدودها معك في أكثر من مكالمة؟

وقبل أن أصل إلى الإجابة كنت قد وصلت إلى شاطئ البحر الذي فيه توعدنا لأجدها تنتظرنني وقد حضرت قبلي لتكون في شرف استقبالها كما قالت باسمّة.

كعروس بحرٍ جميلةٍ فرّت من عالم الأساطير.. كانت ترتدي فستانًا أبيضَ قصيرًا يكشف عن ساقين ملبنيتين، وذراعين ملفوفتين لم تجدًا أكمامًا تسترهما.. فقط كانت هناك حمالتا كتفٍ رفيفتان، فيما التصقت حبات الرمال المحظوظة بقدميها الحافيتين المبللتين بماء البحر، وعلى بُعد خطواتٍ كانت هناك فردتا صندلها الأبيض مقلوبتان على الجنب بعد أن تحررت أصابعها الجميلة من سطوتهما.

أفنعنتني قبل أن يبدأ الكلام بتحرير قدمي أنا الآخر؛ حتّى لا تقيدنا القيود، وتكون للكلمات مُطلق الحرية في الخروج من الفم دون أن تعبر على أي فلتر من فلاتر التردد وحسابات التفكير البغيضة التي طالما تسببت في خسارة البشر لا سيما حين يتعلق الأمر بالعاطفة.

إذن، فقد حانت لحظة المصارحة، وهذا أكثر ما يعنيني بعد أن أعلنت استسلامي في محاولات الإجابة عن ذلك السؤال المستحيل: "ماذا تريد النساء؟".

دغدغة في باطن القدمين تسللت إلى نفسي أثناء السير معها بفعل الرمال التي تعشق اللهو واللغو، لكنها وقت الجد تبيع خطى السائرين فوقها وتمحو آثار أقدامهم مع أول موجة بحر تصل إليها، أو أول هبة هواء تُحرك حياتها، دون أن يكون لها عزيزٌ أو غالٍ.

بدأت الحكى الصريح، فقالت:

– الحب مثل المخدرات، إن كان متاحًا مباحًا سهل المنال فسيزهده البشر ولن يلهثوا وراءه.. قيمته الحقيقية تتناسب طرديًا مع عذابه وألمه واستحالة حدوثة أو وصوله إلى النهايات السعيدة.

الذين يحملون الزهور، ويستأذنون قبل الدخول، ويحافظون على كل ما ينتمي لمنهج الأخلاق الحميدة قد يكونون أناسًا لطفاء حقًا ويستحقون الثناء والمديح، لكنهم يؤساء إلى الحد الذي يستحق الرثاء على افتقارهم "كتالوج" الحب الحقيقي الذي تنص صفحاته المليار على أنه لا فرق بين العاشق والمدمن، كلاهما متعته الحقيقية في مخالفة القوانين، والسير في الحوار الضيقة والأزقة المظلمة وهم يتلفتون حولهم حذرًا من الشرطة،



وبحثًا عن ذلك "الدليل" الذي يهدمهم بالمخدرات التي ستكون بلا جدوى أو أهمية إن لم يسبق الحصول عليها بالإحساس بالمغامرة، وذلك الأدرينالين الذي يتدفق في العروق لمقاومة الشّعور بالخطر، وهو السر وراء انخفاض نسبة الإقبال على شراء المخدرات المغلفة من السوبر ماركت في هولندا بعد أن جعلت تجارة المخدرات متاحة ومشروعة، والسر نفسه في عدم اكتمال قصص الحب التي تبدأ بـ: أسمحين لي؟ أو بعد إذناك!

لذا لم أكرث بكل من هاموا بي حبًا؛ لأنهم لم يدركوا أن المرأة الجميلة تعشق من يُعازلها بوقاحة.. من ينظر لها بجرأة.. من لا يكتث بأقاويل البشر ونظراتهم إليه وهو يتمادى في التعبير عن إعجابه.. لكنها أكثر انجذابًا وعشقًا لمن تقع عليه عينها وحده، رغم أنه يقف وسط عشرات البشر، ورغم فتنة الآلاف بها فإنه يبادلها النظرات، ويمضي في دربه كمغناطيس لا يُبالي بالمسامير التي تتطاير حوله وتنجذب إليه، حينها فقط تزداد فرصة انجذابهما كقطبي مغناطيس مختلفين مصيرهما الالتصاق إذا ما اقتربا.

قبضت على يدي فجأةً بقبضة قوية مُحكمة لا فكأك منها وهي تتطلع إلى عيني بنظرة مليئة بالشبق والرغبة، وأردفت:

للحب صيغة مدوخة لا تكتمل أبدًا، وكل دقيقة في أي علاقة تعمل ضد الدقيقة التي كانت قبلها وفقًا لناموس الزمن الذي يُضعف من قوة العلاقات، فلماذا لا نجعل الفراق خيارًا بمحض إرادتنا لتبقى من بعده طعم المتعة في ألسنتنا إلى الأبد، بدلًا من فراقٍ جبري ننشر فيه غسيلنا المتسخ أمام العالم شأن كل العشاق الحمقى بعد أن يكتشفوا الوجه الآخر لعملة الحب القبيحة؟!

لماذا لا يمنح كل منا الآخر ما يشتاقي إليه ويمضي في سلام متصالحًا مع الوداع، بدلًا من الخوف منه بشكل يفقدنا طعم الإحساس بالنشوة في لحظات الاقتراب؟

دعنا نقترب قليلًا، ثم يرحل كل منا إلى وجهةٍ أخرى سُرعان ما يُبدلها مثل النحل الذي يحط على كل أنواع الزهور فيُخرج عسلًا مُصَفًى.. فأنا

لا أريدك لي وحدي مثل كل العشاق الأنانيين الذين كلما حاولوا تحقيق هذا الحلم المستحيل كانوا قاب قوسين أو أدنى من الخيانة أو الفراق.

أريدك أن تدخل عالمي، وأعدك بأنك ستكتشف مواطن جديدةً للمتعة لم يطأها بشرٌ قبلك، وبالمثل امنحني شرف دخول عالمك الذي أثق بأنه مليء بالأسرار الجديرة بالاكشاف بعد أن نوقف عمل الضمائر بكذبةٍ مشروعةٍ تقول إننا لم نكن نقصد!

هيّا بنا نكذب بطريقةٍ أكثر احترافية كرجال الدين، والمفكرين، والساسة، وكل الذين يبدون في غاية الاحترام والمهابة من ذوي اللحي ورابطات العنق الأنيقة الذين يقولون لأنفسهم المبرر نفسه.

مع كلماتها الأخيرة، كنا قد وصلنا إلى شاليه فخم يُطل على البحر.. أمسكت بيدي واقتربت منه ولم تتركني إلا لُخرج مفاتيحها وتفتح بابه بسرعةٍ قبل أن تسحبني من يدي بابتسامةٍ ساحرة، وهي تكرر:

- قلت لك من الأول لا تفكر كثيرًا في كل فعل تُقدّم عليه؛ فهناك أمورٌ تفقد الكثير من طعمها إذا ما مرّت على فلتر العقل الذي يُنقي الحياة من المتع والسعادة الخفية، فبئس من يستخدمونه!

\*\*\*





(20)

### مذكرات آيات

لا أصدق أنني عُدت للكتابة والتدوين من جديد بعد سنواتٍ طويلة استبدلت فيها إغواء القلم بفتنة الجسد، وتحولت خلالها من راوٍ ينسج مصائر الشخوص إلى مجرد شخصيةٍ دراميةٍ بأئسةٍ حبيسة المفعول به، وها قد حان الوقت أخيراً لتصحيح الأوضاع، وإعادة رسم خطة الغد بخطوطٍ عريضةٍ؛ لعلني أجد في الصفحة الأخيرة خاتمة السعادة معك.

الكتابة ليست سوى استرجاع لحظات نادرة، الحياة نفسها مرّت عليها بشكلٍ عابرٍ ولم تلتفت إليها أو تسجلها في سجلات البشَر، وابتكار لحظات جديدة نحيها على الورق قبل أن تدبّ فيها الروح. هي تعويضٌ جميلٌ عن كل الخسائر؛ وإنقاذ مواقف ومشاعر من الاحتضار بتخليدها أبد الدهر في عالمٍ يزول فيه كل شيء بالموت إلا ما هو مكتوب.

وحين نكتب عن الحب، فالناس جميعهم كُتّابٌ يُحاولون استشراف الخطوة التالية، لكن ماذا لو جاء الحب بشكلٍ مآكرٍ في اللحظة غير المناسبة؟

هنا تكون الخطوة التالية مثيرةً للشفقة وتشبه عمل الخير للحصول على نعمة الجنة المؤجلة في اختبار وجودي، الرسوب فيه لا يُعطي فرصةً أخرى في دور ثانٍ للإعادة، وهذه هي الخسارة المعقدة التي تخاف منها الكتابة حين تتنبأ؛ لأن الخاسر لن يجد أبداً ما يعوضه!

.....

كل شيء في حياتي تغير بعد أن ظهرت في عالمي المظلم وأنرت دروبه القاحلة..

عُدت لِحُضن أبينا (يسوع) الذي لم أهجره فحسب، بل مررت بلحظاتٍ نسيت فيها أنه موجودٌ أصلاً!

استعدتُ حريتي وخرجتُ من سجن الشيكات، وسجن الجسد في آنٍ واحدٍ وصرتُ كعصفورةٍ تُحلّق في الأعالي بعد أن انقرضت النسور والصقور، واختفت من الأرض بنادق الصيادين!

حتّى (دميانة) المهجنة من لبؤةٍ شرسةٍ وثعلبيةٍ مآكرةٍ، صارت هجيناً آخر يحوي وداعة الحِملان ووفاء الكلاب، وإن احتفظت في كلتا الحالتين بخفة ظلّ القروء؛ مثل تلك اللحظة التي عادت فيها لسيرتها الأولى حين مصمتت شفيتها وتندّرت على سخريتي من بخلها وموافقها القديمة التي لا تُنسى معي، قائلةً بجد أقرب للهنزل:

- تَبّاً للطيبين عديمي الأصل الذين لا يصونون سوء المعاملة!

لكن، لم يكن تحولها جذرياً إلى درجة تغيير قناعاتها من النقيض للنقيض في كل شيء؛ فقط تبدلت في طريقة معاملتها معي وصارت أكثر كرمًا وعطاءً بشكلٍ مذهلٍ وكأنّها تدفعني دفعاً للاقتراب من هذا الفتى الخارق، بينما لا يزال الطريق بينها وبين الربّ وعراً للغاية، وبعد أن كان مغلقاً للتحسينات وضعت فيه أكبر قدرٍ من المتاريس والعراقيل بإصرارٍ أثار دهشتي وحيرتي كنفس الدهشة والحيرة التي أصابتنني مع تغير نبرة صوتها المفاجئ، وتقلب أحوالها على مدى اليوم بين لحظاتٍ سقيمةٍ ينحني فيها ظهرها وتخدم حركاتها وكلماتها، ولحظاتٍ أخرى يدبُّ في جسدها الطاقة والحركة، ويتوهج حماسها مع تلك الكلمات التي بها أكبر حشد من الإقناع والحجج التي تنكر كل ما هو مقدس وتهدم أساسه.

خلتُ أنها ستنظر للسماء أخيراً وتفيء للخالق على ما بدر منها بعد أن رأت معجزة تحول التراب إلى ذهب بفعل قلبٍ مؤمنٍ حق الإيمان، فإذا بها تزيد إصراراً على التعنت والعناد إلى حد تحولها من ناقمةٍ على





للسماء في لحظة مصارحة مع الرب الذي غضبنا من تأخره في العطاء بقدر ثقنتا في قدرته على الإجابة..

فإذا كانت أطرافنا وحواسنا ستشهد علينا يوم القيامة بما اقترفنا بها في الدنيا فسأطلب من الله أن يستنطق وسادتي التي لم أنفذ بها الخطايا لكنها تعلم ما وراء الأفعال والأقوال بينما كانت الأطراف مجرد أدوات تنفذ بلا فهم..

أه لو تحققت المعجزة وبعث المسيح من جديد في هذه الدنيا.. سأطلب منه أن يخلق فيها الروح مثلما أحيا الموتى ذات يوم، وعندها ستعلم يا حبيبي من هي عاشقتك حقًا وصدقًا، مثلما نظر يسوع إلى المجدلية ورأها من الداخل!

.....

حتّى بعد إسدال ستار النّوم على عينيّ بشكلٍ مباشرٍ وكأنّ أحدهم جذب مقبس الحياة وفصل عني تيار الوجود، ما زلتُ أراك أمام عينيّ وكان صورتك البهية قد تزوجت من مقلتيّ عينيّ زواجًا قبطيًا لا انفصال فيه في البقطة والنّوم، فأزاحت كل ما عداها من صور، وصارت هي أصل الأشياء وكل ما دونها مجرد استثناء وشذوذ عن القاعدة.

الفارق الوحيد بين الواقع والخيال أنني أراك الآن في أعظم لحظة في تاريخ البشريّة..

أنا (حواء) تتأبط ذراع أبينا (آدم) في يوم القيامة على باب الفردوس ينتظران إتمام مراسم الدخول، وفريق هائل من الأطفال بيض الملابس يقفون على جانبيّ جسرٍ عظيمٍ تسير عليه البشريّة ببطءٍ وحذرٍ، من تحته جهنم التي يتساقط فيها الملايين، وأنا وأنت نسير بتأنٍ ودخلنا اليقين في أننا من الناجين..

فجأةً، أصابتنّي طاقةٌ غريبةٌ حوّلت جسدي المادي إلى جسدٍ نورانيٍ سرعان ما اندفع للأمام ليعبر الجسر ويصل إلى بر الأمان وحيّدًا، وحين نظرت نحوك رأيتك لا تزال تخطو بخطواتٍ وثيدةٍ متمهلةٍ في منتصف

الرب الذي تخلّى عنها وتسبب في الكراهية بين البشر -على حد زعمها- إلى ناكرةٍ لوجوده بأدلةٍ بدت أكثر عقلانية وحرفية في الإقناع، لا أعرف متى وكيف اكتسبتها، لكنها أربكتني للغاية وأنا التي تركب مركبًا بدائية الصنع في بحر الإيمان متلاطم الأمواج، لا يحتمل شراعي ربحًا قويّةً، ولم أتعلم بعدُ السباحة في مائه إذا ما سقطت مجددًا، وقد نلتُ من الغرق في وحل الماضي ما يكفي، فكنت أفرّ من حصار كلماتها وسخف إصرارها إلى دين عينيك الذي رسخ إيمانه في قلبي إلى حدّ يكفي أن أكون نبيّةً تُبشّر بها الإنسانية كلها، لكنني لن أفعل لأنني لا أريد أن يؤمن بك سوى، لأحصل وحدي على جنّتك التي لا أقبل أن ينازعي فيها أحد.

فكم مقدس أنت، حتّى إنني أفكر في خلع نعليّ حين تجول بخاطري!  
عيناى تحرقانني، ونعاسُ الدنيا كله قد حلّ عليهما.. تبًا للنّعاس الذي يأتي دائمًا في أوقاتٍ غير مرغوبٍ فيها ووجوده، يفرض نفسه كمحبّ لزجٍ يريد الارتباط بمحبوبته قسرًا.

(هاااااااااا) حسنًا.. ها أنا أعلن استسلامي.. سأخلد إلى النّوم، ثم أعاود الكتابة عنك غدًا..

كلا.. لم أستطع النّوم والعقل والقلب يفكران فيك بيقظةٍ أقوى من سلطان النعاس، والقلم يتجلى عليه الإلهام في صورته البكر المُفعمّة بالإبداع.. سأعاود الكتابة إذن بعينٍ مغمضةٍ وأخرى مفتوحة، بعد أن دُقت معك متعة الكتابة التي أسمع فيها صوتي وهو يحكيّني، وجعلتك بطلي الوحيد في قصةٍ ليس فيها سوانا..

وكيف لي أن أنهي قصةً أنت بطلها!؟

.....

تحت وسادة كل منا حقيقة التي لم يقترب منها بشرٌ.. دموعنا الحزينة التي لم يشهدنا أحد حين دفنا فيها وجوهنا وباحت الصدور بأصوات القهر والنهضة، دعواتنا التي كنا يومًا مستعدين لأن ندفع أعمارنا بأكملها ونضحى بكل ما نملك من أجل تحقيقها، لومنا وعتابنا



الطريق، ثم إذا بآلة كمان تهبط عليّ من أعلى، وصوت عميق يقول لي:  
فلتعزفي مقطوعةً موسيقيةً تليق بلحظة دخول الجنّة!

بدأت يداي بالفعل في العزف على الكمان النائمة على كتفي،  
وصاحب عزفي همهمات عميقة ذات طبيعة أوبرالية جعلت من الأمر  
ما يُشبه الملحمة في اللحظة التي انفتحت فيها أبواب الفردوس على  
مصاريحها لينساب الأطفال بيض الملابس من على جانبي الجسر ويكونوا  
أول من يدخل، وخلفهم توافدت باقي البشرية في الدخول، فيما قرر  
(آدم) و(حواء) أن يكونا آخر الداخلين بعد الاطمئنان على نسلهما.

حمدًا للرب، ها أنت تصل يا حبيبي إلى نهاية الجسر، لكن...

نظرة (آدم) المرئية نحوك لم تطمئني، وحين أشار بحزن نحو يدك  
انتهت بدوري لأول مرة إلى تلك التفاحة التي تمسكها ويبدو أنه مقضومٌ  
منها جزء كبيرٌ..

توقفت بدوري عن العزف في اللحظة التي نظرت فيها بدورك إلى  
التفاحة التي تمسكها وأنت ترفعها أمام وجهك ببطء، وكأنك فوجئت بها  
ولم تنتبه إليها من قبل، وتبادل كلانا نظرةً ملتاعةً قبل أن ينهار الجسر  
بك كآخر الساقطين بعد أن كان بينك وبين النجاة خطوةً واحدةً، فأخذتُ  
أصرخ وأصرخ وأصرخ، ثم أستيقظ من النوم وأنا أردد: "بسم الصليب.. لا  
يمكن أن تكون هذه النهاية"، ولم أدر وقتها لماذا خُيل إليّ أنني سمعتُ  
ضحكاتٍ مجلجلةً من (دميانة) رغم أنني حين نظرتُ نحوها وجدتها  
تغطّي في نوم عميق!

.....

طوال عمري محرومةً من خيار الحظ في حياتي، لكنني لم أكن أعرف  
أن الحظ يكرهني إلى هذه الدرجة؛ إلا حين زارنا في السطح ذلك المندوب  
من إحدى شركات مساحيق الغسيل الكبرى.. سألت عن نوع المسحوق  
الذي نستعمله فوجدنا نستعمل مسحوق شركته.. طلب 5 أكياس ليتأكد  
وبالفعل كان لدينا وأعطيناها إياها؛ فكانت الهدية رحلة حج إلى أراضي  
المسلمين المقدسة!

هذه بلا فخر الجائزة الوحيدة التي فزت بها في حياتي؛ لذا تركت  
الرد المناسب عليه لـ(دميانة) وأنا أضحك بشدة، وكم من ضحكةٍ يختبئ  
خلفها حزن عميق، أو غيظٌ مكتوم، أو حجة مهزومة فشلت في فرض  
نفسها على السامعين، أو خجل من حقيقة لا يمكن نفيها أو التبرؤ منها،  
أو خليطٌ من هذا وذاك.

.....

مُنذ نجاتي من براثن (ريمون) ورجاله، وأنا عديمة الاعتناء بجسدي  
الذي كان رأس مالي ذات يوم.. فما أسوأ أن يُذكرك جسدك الذي يتعين  
عليك مشاهدته كلما نظرت للمرأة بمأساتك وماضيك، فلا أنت تستطيع  
أن تخلع وتغير هذا الجسد الذي ترتديه روحك، ولا أنت بقادرٍ على  
التصالح مع الماضي؛ لهذا السبب طالت شعيرات ذراعيّ، ورجليّ، وإبطيّ،  
وعانتي، وكل شيء دون أن أخشى من اشمئزاز الزبائن، لكن كلما تخيلتك  
معي في لحظة سيهاديني بها القدر، وتساوي في سعادتها شعوري وأنا  
أسمع اسمي في كشوف الفائزين بدخول الجنّة، كان التخلص من هذا  
العار فضيلةً واجبةً.. فاستعادةً أنوثتي فرضٌ أساسي في عقيدة التّعبد في  
عينيك التي يجب ألا تقع إلا على ما هو جميل.

مع كل شعرةٍ أنتزعها من جسدي بوسيلة إزالة الشعر التقليدية التي  
تأخذ من الحلاوة اسمها، وتخفي في باطنها الألم الشديد، كنت أتأوه بشدةٍ  
لوجعٍ لم أعتده يومًا بعد مرور كل هذه السنين، لكنّ عينيّ المغمضتين  
كانتا تريانا في خيالهما صورتي وأنا أرتدي فستان الزفاف الأبيض العاري،  
وقد كشف عن جسدي الأملس الناعم، فينتزعني الخيال من هذا العالم  
الكريه بكل ألمه، كما يُنزع الشعر الزائد من الجسد.

.....

ولا تزال مأساتي مستمرة؛ مع الصور الفوتوغرافية التي لا يُعجبني  
فيها شكلي دون أن أجد إجابةً لذلك السؤال الأزلي: لماذا لا أظهر في  
الكاميرا بالهيئة الجميلة نفسها التي أراي بها في المرأة؟



ما فائدة وجه البطة والغمزة والقُبلة والكتف البارزة المائلة للأمام مع نظرة إغراء وغيرها من إماءات وحركات أستكشف بها ما أبدو عليه وأنا أجربها أمام المرآة كبروفة للحظة زمنية أريد تخليدها في صورة، فإذا بالصورة في كل مرّة أقرب لشوقي المكوجي مني؟! ثرى، كيف أبدو في عينيه اللتين ترياننا بشكلٍ يختلف عن عدسة الكاميرات وزجاج المرايا؟

رغم كل المخاوف من رجال الشرطة، ورجال (رهبون)، والمخاطر المجهولة الأخرى التي لا نعلمها ويعلمها القدر الذي ربّها لنا، طلبت منه أن نقضي يوماً معاً، بعيداً عن أعين كل من نعرفهم ويعرفوننا؛ لأذوق طعم القرب منه بمفردي، دون الحرج من نظرة قس، أو خادم.

صحيح أن الكنيسة وخدماتها في وجوده صار لها طعم آخر، لكن حتّى ملكوت السماء لا نستطيع أن نكتفي به طوال الوقت ما دمنا نسكن الأرض.. ثمة أمور أخرى فينا لا تشبعها الروحانيات وقد خلقت النفس في جسد حيواني كثيفٍ له مشبعات أخرى غير الدين؛ لذا يبحث عنها -رغمًا عنه- خارج دور العبادة.

فوجئت أن داخله الاحتياج نفسه، ورغبة شديدة في البحث، لكنه لم يوضح إن كان البحث عني أو البحث معي.

التقيته أمام مبنى الخدمتات في تلك الساعة التي تسبق شروق الشمس، حتّى نغادر المكان في حماية جُنح الظلام الساتر، وأنا أتمرّ قبعةً بيضاء كبيرة ذات قرص عريض، وأرتدي سروالاً قصيراً من نوعية الـ"برمودا"، و"سابو" سهل الخلع في أي لحظة أود فيها أن أسير معه حافية، وعلى كتفي حقيبة كبيرة بها فستان أحمر حمّالات، من قماش ستان لامع قصير ليناسب السهرة، وجورب شيفون أسود أعشق منظر رجلي فيه استعداداً لارتدائه حين يحل الليل بعد أن مُضي يوماً بأكمله من أجمل ليالي العُمر..

غمرتني سعادة الكون كله فور أن وقعت عيناى عليه، غير مُصدقة أنني سأنال شرف مواعده وصحبته بعيداً عن الصخب، والعراك، والدم،

والمطامع، وتلك الحيوانة التي تحوم حوله واسمها (كريستين).. فصحيح أنني لم أدرس الطب البيطري، لكنّ لديّ خبرة لا بأس بها في الكلاب الضالة.

سنصنع يوماً استثنائياً يُباهي به الله ملائكته ومن يأتي من بعدنا من البشر، ليعرض عليهم تفاصيل هذا اليوم، قائلاً: "لم لا تكونون مثل هذين القلبين؟!"

يومٌ بلا ذنوب وخطايا.. تتحقق فيه الأمانى المشروعة، وتُستجاب فيه الدعوات، ولا تعرف القلوب الضيم.. يوم تفصيل على مقاس قلبينا.

فوجئ حين التقاني بألة الكمان في جرابها المعلق على ظهري، فابتسمت ابتسامة لم أشاهدني وأنا أتبسّمها، لكنني خلّت أنها كانت رقيقة صافية كقلب طفلٍ طاهرٍ حين قلتُ له: "سأغني لك وحدك، وأعزف لك وأنت تغني لي بمفردي، في تلك اللحظات التي سنقتنصها على بحرٍ خاوٍ من البشر وكأنه خلق لنا وحدنا، فيما نامت كل العيون حولنا واستيقظنا معاً قبل باقي المتطفلين".

وحينّ صعدنا تلك الصخرة في قلب البحر، أخبرته بأن لي فيها ذكرياتٍ أليمةً حين كُنْتُ أناجي البحر مناجاةً حزينةً بدموعٍ لم أجد يوماً من يسحها؛ لذا أردت أن أمحو بأخباري السعيدة التي نكتبها اليوم لذاكرة الغد ذكريات الأمس البائسة التي كتبها الأقدار لليوم.. ثم أخرجتُ الكمان وقد بدأ نور الشروق يتسلل في السماء على استحياء خالفاً لوناً رمادياً حائراً بين الظلام والضياء، وطلبت منه أن يختار أغنية أعزفها له، فاختار (دوريني) التي أعشقها لفريق (المغنى خانة) رغم أنها كانت تحتاج إلى بيانو، لكنني أعطيت لمقدمتها طعمًا آخر بلمساتي على الأوتار قبل أن يختلط صوته بعزفي قائلاً:

دوريني في عقل بالك.. في الرخام أو في الكلام

في الدولاب المستخبي .. جوة في أوضة المنام

دوريني في أسطوانتك

غنوة كل كلامها عنك

## في عينيكي وف مرايتك أو في كشكول الغرام

كدت ألقى الكمان، وألقي نفسي في حِضنه؛ فثمة أصوات جميلة من فرط فتنتها لا يكفيها التصفيق وكلمات الإشادة والإعجاب، ويكون الحِضن هو أقل جائزة تمنح لها، لكنني تماكنت نفسي بمعجزة ورددت على عظمة صوته ومشاعره بأغنية (حيطة أمل) التي عزفتها وغنيتها وعيناها سارحتان في ملكوته، وقد شعرت بكل حرف فيها وكأنه كُتب لي وحدي:

معلّق روحه ع الشماعة جنب الباب  
وسايب باب ماضيه المر متوارب  
كعبه اللي دار ف الدنيا لف وداب  
ساب للحياة الحبل ع الغارب

"جربنا الغناء كثيرًا، فما رأيك أن نرقص؟".

ألقيت عليه سؤالي وقلبي يخفق بشدة، وأنا أنتظر أن يقول: "لا مانع" لأرتقي في حِضنه ويقترّب قلبانا فيتهاهما بشكل مباشر بعيدًا عن لغة الألسن القاصرة التي لم تُخلق للمحبين، لكنه سأل بحيرة: "كيف؟".

"هكذا" ..

قلتها وأنا أضع الكمان على الصخرة، وأشغل على هاتفني المحمول أغنية "يا حبيبي" لمطربتي المفضلة (هبة طوجي)، ثم ارتيمت في حِضنه فور عمل الأغنية لأراقصه على اللحن الرحباني والكلمات التي كتبها عاشق مثلنا:

يا حبيبي.. كل ما في الصمت نادى  
يا حبيبي.. ومضى الموج وعاد  
وأنا في موج عينيك شرع يتهادى

حاول أن يُجاريني بخطواتٍ مرتبكةٍ داست فيها قدمه على قدمي الحافيتين، وتسببت في غرس الصخر فيهما، لكنني كنتُ في عالم آخر منزوع الألم والتأوه، وقد هامت عيناها في عينيه غير مُكترثةٍ بخطواته التي أخذتُ أصححها بشكلٍ عملي دون أن أنبس ببنت شفة؛ حتّى لا أقطع صلاة الحب المرتلّة في تلك الأغنية:

عند أبواب المدينة ينتهي النسيان

وأنا والليل

أنا والقرصان

والمحبون على أرصفة البحّر

بحار من سكيّة

تركوا الشارع يبكي

تركوا الأرض الحزينة

والمصاييح الحزينة

أبحروا صاروا سفينة

أترى نحن ال هربنا

أم تُراها هربت فينا المدينة

بدأ أدأوه يتحسن؛ كعبقري يُحسن التعلّم والمحاكاة بشكلٍ مذهلٍ، ليراقصني في النصف الثاني من الأغنية باحترافٍ شديدٍ وكأنه يرقص طوال عمره، ثم ترك نفسه مثلي وحن دوره ليهيم في عينيّ هو الآخر مع نغمات الأغنية التي تصعد بنا في سماءاتٍ طلبنا من ربها أن يوقف الزّمن فيها عند تلك اللحظات حتّى يؤبدها إلى أبد الأبدين وصوت (هبة طوجي) يتردد داخلنا:

يا حبيبي.. وتعالّ تعال  
يا حبيبي.. إن أيامك عطرٌ  
وانتظاري.. لك خمّر  
ليس بالسُّكر ولكن فيه سُكرٌ

ليس بالنهر ولكن فيه نهرٌ  
له في القلبِ هدير  
في الهُنيئاتِ هدير  
ف تعالَ تعال

توقفت الأغنيةُ لكن قلوبنا لم تتوقف ونحن نلتهم بعضنا بالنظرات.. كل شيء فينا يذوب ويتفتت.. الزمن يذوب، والمكان يذوب، والعقل يذوب، والقلب يذوب.. تعطلت اللغة، وحل محلها سكوتٌ ناطقٌ معبرٌ، ونحن في غيبوبةٍ صاحبة تكف فيها اللحظات عن التداعي، والكون كله ينصهر في إحساسٍ عميقٍ بالنشوة والسعادة والانتصار.

حتّى وإن كانت النشوة معك يا حبيبي لحظةً واحدةً فستصبح كالأبد، وتستمر ما حيت ماثلةً أمام الشّعور، ممتزجةً بصحوي ونومي وأحلامي وهدياني، ملتصقة بكياتي الداخلي دون أن تنفضها منغصات الحياة أو تكدر صفوها الظروف الصعبة ولو عشت ألف عام؛ فالشّعور بحبك أصبح بعضًا من نفسي، أحيا بحياته، وأموت بمماته.

قال لي بابتسامةٍ خلابةٍ أضاءت فيها عيناه الذهبيتان أكثر من شمس الصّباح:

- هل تعلمين...؟ كنت أحسد الملائكة على قدراتهم ومكانتهم في الملكوت، لكنّ همة أمورًا اكتشفتها معك جعلتهم أحرى بأن يحسدونا لو كان يجوز لهم ذلك.. فالإنسان يستطيع أن يعزف، يكتب، يرسم، يبدع في شتى ميادين الإبداع.. يلمس السماء دون الحاجة إلى أجنحةٍ وهو يغني ويرقص في لحظة سعادة.. لديه القدرة على الحب والفن اللذين ينفذان إلى القلب ويكشفان عن ذاتنا العميقة، ويُطلعاننا على كنوزنا وأسرارنا الدفينة المختبئة وراء أجسادنا التي نرتديها كقمصانٍ من الجبس المقيدة للحركة والانطلاق، فنذكر هـما يخفق به القلب من حب يبقى بعد الفناء، وما يبدعه الخيال من فنٍّ خالدٍ أننا نحتوي على بذرة الخلود في دواخلنا، ونحتوي على الأبدية في قلوبنا.

وحينَ نظرت معه إلى السّحاب الأبيض الخلاب في الأفق، شعرت أنني أراه لأول مرّة على حقيقته، بعد أن كنت أعتبره -سابقًا- مجرد ضماد من القطن والشاش الأبيض على وجه صفحة السماء المصابة بلعنة الناقلين على القدر!

بعدها كنت أتجه معه إلى محل (محمد أحمد)، أشهر محال الفول والفلافل في إسكندرية بأكملها، والذي أنشئ في الخمسينيات بشارعٍ صغيرٍ متفرع من شارع (سعد زغلول) بمنطقة (محطة الرمل) وسط المدينة، ومع مرور الوقت أصبح أحد أشهر معالم مدينتنا، وأخبرته بأن إفطارنا في نزهتنا المقبلة سيكون في محل (ألبان سويسرا) بشارع (بورسعيد) في (كامب شيزار) حيثُ طبق (السدق بالجبنة) الذي يُعد جريمة مكتملة الأركان!

طلبت لنفسي طبق فول بالزبد، واختار لنفسه واحدًا بزيت الزيتون، لكن حينَ ذاق من طبقي طلب التبديل!

طريقته وهو يأكل الفلافل الساخنة لتذوب بين شفثيه الورديتين كانت جديدةً بألف كتاب، حتّى حينَ سعل بعد أن أكل المخلل، وبرقت عيناه وأخذ يهوي بيديه أمام وجهه قائلاً بطفوليةٍ شديدة: "يح"، كان في تلك الحالة أيضًا وسيئًا جذابًا، وكأن فتنته عصية على أن تشتتها مقارف البشّر.

هذا الفتى يُشعّرني كلما التقيته وكأنه ولد الآن، ويعيش الحياة لأول مرّة! قبل أن أحاسب ونصرف ثرثرنا قليلًا فأخبرته بأن هذا المكان زاره العديد من المشاهير في مجالات السياسة والفن والأدب؛ منهم الملكة (صوفيا) ملكة إسبانيا؛ والمطرب اليوناني العالمي ذو الأصول الإسكندرية (دميس روسوس)؛ والأديب العبقرى (نجيب محفوظ) الذي تعلمت من رواياته الكثير ولا أزال أتحمس منها طريقي في لحظات الكتابة؛ والفنان (فؤاد المهندس) الذي كتب تعليقًا بعد تناول الطعام، وضعه صاحب المطعم في برواز بصالة الطعام قال فيه: "كلمتين وبس.. الفول يجتنّ"،



لكن ذاكرة بطلي الممسوحة للأسف لم تقف عند أي اسم منهم، فتساوى في أذنيه وَقَعُ الأسماء مع أي اسم آخر غير رنان.

.....

يقولون إن البُن هو علامة عمق الأماكن، يصبح شهيئاً وثقيلًا في الأماكن العريقة ذات الأصول التاريخية مثل (القطارين، والمنشية، ومحطة الرمل)، وشائهاً ومائعاً في الأماكن الوليدة، مثل: سيدي بشر، ومول سان إستيفانو، وذلك الملهى الحقيير الذي كنتُ أعمل فيه، وقریباً من رائحة الجنّة عندما يكون برازيلياً؛ لذا اقترحت عليه أن نحتمي فجانين من القهوة في محل (البن البرازيلي) ونُحلي بـ"شيز كيك".

وحيثُ رشف أول رشفة، كاد يسقط فنجاناه وهو يغمض عينيه ويهز رأسه متسائلاً: "ما هذا المرار؟"، فأجبتُه: "وأنا في الأحداث قالت لي مشرفتي أحبّي القهوة، فستُعلمك كيف تُعجبك المرارة وتستمتعين بها!".

ثم ران علينا صمتٌ لم يقطعه سوى صوت (فيروز) جارة القمر وهي تشدو بكلمات (جبران خليل جبران) الخالدة على ألسان (نجيب حنكش) المسروقة من لحن السماء:

**هل تَخَذت الغاب مثلي منزلاً دون القصور**

**فتتَبَّعت السواقي وتسَلَّقت الصخور**

**هل تحمَّمت بعبطٍ وتنشَّفت بنور**

**وشربت الفجر خمراً في كئوس من أثر**

حاولت وأنا أسمع أن أفر من نظراته إليّ أو نظراتي إليه، لكن... كل الطرق كانت تؤدى إلى عينيه.

استغرقتنا الكلام لفترةٍ لم أكرث ما بها من دقائق بقدر ما اهتممت بما فيها من دفء الوصال وتمعن الاقتراب من تحقيق الهدف؛ إنه سحر البدايات في كل قصص الحب الذي يجعل كل شيء حولنا يبدو جميلاً وكأننا نكتشف الحياة لأول مرّة بذات الدهشة والمتعة اللتين كانتا تتناوبا ونحن صغار؛ الضحك الصاخب لأسبابٍ قد لا تستحق؛ دقائق القلب المدوية والمتلاحقة مع أبسط فرحة؛ تصويب النظر والتّحديق إلى البشر

والأشياء حولك مع رغبة عينيك الدؤوب في سبر الأغوار والوصول إلى ما خلف مستوى الرؤية؛ رغبتك العارمة في لمس كل ما حولك وكأنك تريد احتواء الكون كله في كفك الصّغيرة.

سألني بَعَثَةً:

- ألا يوجد أصدقاء مسلمون لديك؟

فجأني سؤاله حتّى إنني ظللتُ أصدق به ثواني، فتابع:

- أنتِ عيناى اللتان أرى بهما عالمي الجديد.. لقد تعرفت إلى مسيحين بما يكفي، حتّى اليهود الذين من النادر العثور عليهم في هذا الوطن التقيتهم بصدفةٍ قدريةٍ غير متوقعة، لكنني لم أقابل أحداً من الأغلبية التي تملأ أرجاء تلك المدينة بعد، وأردت معرفتهم عن قُرب. سرحتُ في كلامه وأنا أعود بالزّمن، وقلتُ:

- في وقتٍ من الأوقات كانت كل مشكلتي أن كل من حولي مسلمون، لما كنت أنا المسيحية الوحيدة في مؤسسة الأحداث.. لم يكن لديّ حتّى إنجيل أقرأ منه، والصليب الوحيد المتاح لي كان هذا: ورفعتُ ذراعي ليرى ذلك الوشم الصليبي المحفور في جلدي، ثم تابعت بابتسامةٍ حزينة:

- أن تكون مسيحياً يعني أن تتقبل بصدر رحب تلك النكات التي يقولها المسلمون علناً عن القسيسين والرهبان والقديسين بل يسوع أحياناً؛ لأن مسيحا غير مسيحاهم بكل تأكيد.. وتضحك أحياناً لأنهم اعتادوا أن يجعلوا إهانتهم خفيفة الظل رغم قساوتها وألمها.. أن ينادوك بالكفتس، أو الأربعة ريشة، وتعتبر أن هذا اسمٌ حركي مازح لا يقلل منك ولو من باب خداع النفس.. كان المسيحيون يضعون الصليبان وأيقونات الشفعاء والقديسين حتّى يتباركوا بها، لكن مع الوقت أصبح هدفهم من ذلك هو الإفصاح عن مسيحتيتهم أمام الغرباء؛ حتّى لا يسب أحدٌ في المسيحيين أمامهم على الأقل ويكتفي بسبهم في غيابهم.. وفي الوقت نفسه، من يقولون في وجهك بضحكةٍ سمجة: "إنت كافر ورايح جهنم



أساسًا"، ستجد منهم مواقف لا تُنسى من الشهامة والإنسانية إذا ما مسك سوء، أو احتجت منهم خدمة!

"باكديج" عبثية عليك أن تأخذها كما هي في هذا الوطن المجنون الذي لا تنطبق عليه دراسات علم النفس والاجتماع، حتى الذين هنا في مصر -أي دين- لديه نكهة وقواعد مختلفة، رغم أن معلوماتي الدينية سطحية جدًا.

وبعد خروجي من الكنيسة وعملي بمكتب الجرافيك اكتشفت أن هذا الجنون تحوّل من العلاقة الثنائية بين المسلمين والمسيحيين إلى كل الأديان.. في داخل كل دين ستجد فرقًا مُنشقةً تحتكر الحقيقة وتكفر من دون سواها.. سنة، شيعة، أرثوذكس، إنجيليين، وشهود يهوه.

سأقول لك نكتة تختصر ذلك كله؛ عندما قامت القيامة وبعد انتهاء الحساب وقف ملاك على باب الجنة يسأل الناس: إنت أرثوذكس؟ فمن يجيبه بنعم يتركه يدخل، وحين قال له أحدهم: "لا" صاح فيه الملاك: لن تدخل، وبعد انتهاء اليوم دخل الملاك فوجد الرجل الذي أخبره بأنه غير أرثوذكس في الجنة، فقال له: "كيف وصلت إلى هنا؟ ألم أمنعك؟"، فقال له الرجل: "وجدت ملاكًا آخر جعلنا نقفز من على السور" .. فهمت حاجة؟

فهز رأسه بنعم ولا!

في خطوتنا التالية لم يُعجَب فتاي الأسطوري بحال الملابس في شارع (مصطفى كامل) رغم فخامتها من الخارج والدّاخل، ربما لأنها بدت عصرية أكثر من اللازم وصاحبنا اعتادت عيناه كل ما هو مرتبط بالعراقية والتاريخ، أو لأنّ الحداثة جعلت المكان كأنثى صاروخية الجمال، لكن بمواصفاتٍ اصطناعيةٍ من صنع السيليكون والمؤخرة البلاستيكية.

على أية حال، لم يغادر المكان إلا بعد أن ألححتُ عليه أن أشتري له طقمًا جديدًا من تلك المحال: سروال جينز كحلي، قميص لبني كاروهات، بلوفر تريكو أبيض اللون شبكي التطريز بفتحاتٍ واسعة تُبرز القميص الملبوس تحت منها، وكوتشي adidas أبيض؛ ليبدو بعوده الفارع، ومنكيه

العريضتين، وعضلاته المفتولة، وشعره الكستنائي الناعم في هذا الطقم أجمل وأوسم من (براد بيت) و(توم كروز) و(ليوناردو دي كابريو) حتى إن المنطقة قد انقلبت -بلا مبالغة- رأسًا على عقب.

وحيثُ حان موعد الغداء اقترحت عليه محل (هولمز) الذي أكلت عنده أعظم ساندويتشات برجر في حياتي.. اتجهنا إلى شارع (سوريا) في منطقة (رشدي)، ثم وصلنا إلى ذلك المحل الضيق لكن بين حوائطه الأربعة متعة تسع الدنيا كلها.. بالطبع لم يفهم قائمة الساندوتشات ذات الطبيعة الأجنبية، فاخترت له **Cheesy Mushroom** واخترت لنفسني **Bloody Hell** بالهاليبينو وصوص الفلفل المُسكّر، وخلال انتظار تجهيز الساندوتشين على نغمات أغنياتهم الأجنبية الرائعة التي يختارونها بحسّ فني عالٍ، أخذت أتأمل تلك الأوراق المستطيلة الملوّقة على حوائط المحل كذاكر وانطباعات مكتوبة من الزبائن لتخليد لحظات ممتعة قضوها في هذا المكان، وضحكت كثيرًا حين قرأت جملة كتبها أحدهم باللغة الإنجليزية: **It teaches you how to make sex with Stomach** وقبل أن أترجمها له قال: "إنها تعني أن المحل يُعلمك كيف تمارس الجنس مع المعدة"؛ لأكتشف أنه يُجيد الإنجليزية، وربما لغات أخرى في بحر مفاجآته التي لا تنضب.

أخذتُ قلمًا وورقتين، وطلبت منه أن يكتب كلانا ما يجول بخاطره لنحذو حذو من سبقونا ونترك كلماتنا لمن سيأتي بعدنا.

انهمك كل منا في الكتابة باهتمامٍ شديدٍ وكأننا في لجنة اختبار ثانوية عامة، وبعد انتهينا أعطى كل منا لآخر ورقته ليقرأها فسمعت صوته في كلماته المكتوبة:

- أجمل ما في الحب بداياته التي تسبق الاعتراف به بشكلٍ صريح.. وأسوأ ما فيه أن تكون له نهاية حتى وإن كانت سعيدة.. فالسعادة يضعها الملل والاعتیاد، وإن حافظ عليها المحبون تبقى كسلعةٍ مُجمدة، فقدت حيويتها وفائدتها، فليت كل العشاق يحبون من البداية إلى البداية!



سرحت بشدة في كلماته العميقة التي وُلدت من طفلٍ بدرجة فيلسوف، وحَمَل بقوة تين، وتساءلت في نفسي: "كم تجربة خاضها هذا الفتى العاشق ليصل إلى خلاصة الحب بهذا الاحتراف؟".

كان هذا قبل أن أنظر إليه وألاحظ تأمله أيضًا للكلمات المكتوبة التي جاء فيها:

العلاقة الجميلة تقوم على ما لا نؤمن به، ما لا نفهمه، وفي كثير من الأحيان على ما نحتقره أمام الآخرين، كمن تخلت عن كبريائها وشعورها بالاشمئزاز حين خلعت جوربي حبييها ووضعت قدميه في إناء لتغسلهما وتدعك أصابعه بكل الحب، أو ذلك الذي تخلى عن كرامته وركع أمامها على الملأ ليطلب منها الزواج، وحين اختليا ببعضهما في ليلة الزفاف جثا على ركبتيه وحرّر قدميها من حذائها الأبيض وطبع بشفتيه عليهما قبله رقيقةً بكل الحب والسعادة.. وهذا ما يُعطينا الأمل في أن الحب لا يعرف المستحيلات، ويُطمئن قلبي رغم فارق المسافات.

وبدون اتفاقٍ مسبق، وضع كل منا ورقة الآخر في جيب ملابسه، ولم نلصقهما مع باقي الورق المملصوق، وحين لاحظنا ذلك اكتفينا بتبادل الابتسامات التي خرجت من القلب بطعم كل شيء جميل من ثمار الجنة التي لم نذوقها بعد، وإن كنا قد حصلنا الآن على تجربةٍ مصغرةٍ لمذاقها. جاء النادل وأعطانا الساندوتشين الضخمين جدًّا، ومع كل ساندوتش قفاز بلاستيكي، طلبت منه أن يرتديه، وأخبرته بأنه سيعرف فائدته فور أن يبدأ الأكل، وحين تدفقت الجبن من كل جانب وغرقت شفثيه وأنفه وذقنه ابتسم وقال إنه فهم، فاقترنت تلك اللحظة بكاميرا هاتفي النقال.

وحين زحفت الشمس المطعونة بسكين الغروب تاركَةً خلفها نزيقًا من الطيف الأحمر في الأفق، وحين بدأت ستائر الليل في النزول تدريجيًا استقللنا مشروعًا (ميكروباص باللهجة السكندرية) إلى منطقة (المنتزه) حيثُ (روستري كافيه) الذي أبدلت فيه ملابسني بفستان السهرة الحَمَّالَات.

تذكرت وأنا أرتديه حين كنت أحلم وأنا صغيرة بذلك النزيف الفسيولوجي الذي لا تنسى أي امرأة على وجه الأرض أول ميعاد فاجأها فيه، ليسقي أرضي البريئة وُئبت ثمار أنوثتي، ويُغريني على وضع الكثير من أحمر الشفاه بلون الكريز اللامع، وأرتدي فستانًا أحمر ذا حمالتني كتف وظهر عارٍ، وينحسر عن رجليّ إلى ما أعلى الركبة، فيما ترتاح قدمي الجميلتان ذواتا الأصابع التي يعشقها كل الرجال في كل النساء، لا سيما حين تكون أظافرها ملونة بطلاء أبيض شفاف في صندل أسود ذي كعب عالٍ، وخيوط تلتف حول الساقين كأخطبوط يستمتع وحده بطعم أنوثة فريسته؛ لأجذب الأنظار وأسقط القلوب حولي، بينما تمطر على أسماعي كلمات الغزل والإعجاب بمذاق السعادة، وحين ضلت عني أحلام المراهقة وشخّ قبل الشباب، انحصرت الأماني فقط في أن أجد في هذا الكون حُسنًا يحتويه، وها قد جاء.

خرَجْتُ من دورة المياه أنثى مكتملة الأركان في الوقت الذي عملت فيه أغنية **Old Money** للرائعة **Lana Del Rey**، وفي طريقي إلى مائدته جذبت في طريقي كل ما حلمت أن أجذبه يومًا من نظراتٍ وتمتمةٍ خافتةٍ على موائد الشباب، غير أنني اليوم لم أعد أبالي إلا بنظرةٍ واحدةٍ تُغني عن كل النظرات، بل عن العالم بأكمله.

استقبلني بابتسامة إعجاب كدت أدفع عمري كله لأحظى بها، وها أنا أحصل عليها، بينما تجاهل هو بدوره كل العيون التي حطت على وجهه الوسيم الذي كان كمينًا كل من يدخل في نطاقه يتم القبض عليه. "لماذا اخترت هذا المكان لنقضي فيه سهرتنا؟".

قاطع حبل أفكارني بسؤاله فأجبت بحماس:

- هنا أجمل أطباق أكل إيطالية يُمكن أن تتناولها في حياتك، بخلاف صداقتي مع الـ "شيشة مان" الذي يحضر لي شيشة مخصصة على طريقي.. يضرب ماءها المثلج في الخلاط مع الليمون والحبهان، ثم يصفّيها ويصبها في الدُورق فتعطي لمعسل التفاحتين الفاخر مذاقًا ولا الخيال.

ثم غمزت بعيني:





أحبك هي الحبر الذي سأكتب نفسي به وأنت معي، فبدونك أنا  
اللاشيء!

سأكتب حتّى أدكّر نفسي بما أصبو لتحقيقه، وأعوّض في الوقت  
نفسه كل ما فاتني من خسائر فادحة بما فيها خسارة الموت الذي  
لاحقني دائماً في كل محطات حياتي.. موت الأهل والأحبّة، موت الشّعور  
بالإنسانية، موت التعاطف، موت الصداقة، موت الشّعور بأهمية الشكل  
التييل للوطن..

ربما لا تعيد الكتابة شيئاً إلى مكانه، لكنها تساعدنا على ترتيب  
أثاث الماضي تماماً مثلما تركناه بلا أي تغييراتٍ تعبت بتفاصيله فتبدّل  
حقيقته في لحظة تخوننا فيها الذاكرة، وقد تساعدنا في معرفة الخطوة  
التالية إذا ما تحررنا الدقة في الحسابات، وأنا لا أريد التنبؤ بخطوتي  
القادمة معك فحسب، بل أريد أن أصنعها على مقياس أحلامي، إلا أن  
للكتابة أثراً جانبيّة مؤلمة حين تحثك على شراء تفاصيل جديدة من  
متجر الحياة حتّى يكتمل النص، فتكتشف أنك في حالة إفلاس، فهلاً  
أقرضتني عمرك؟!

لكنه لم ينتبه أنني كنت في هذه اللحظة أكتب على حسابي  
بـ"فيس بوك" حالة جديدة:

- دائماً ما كنتُ أخجل من ذكرياتي وأحاول الفرار منها، معك فقط  
تعلمت أنه ليس بالضروري أن ندخل الذكريات بين شفرتي مقص لتكون  
حياتنا أفضل، وأن الماضي الذي يتعرض لعملية مونتاج تزيل الأمور  
المخجلة وتقص حواشي وزوائد الخطايا، لن يجعل المستقبل سوى مسخ  
أكثر تشوهاً ومدعاةً للخجل.

ها هي فقرة الكاريوكي قد بدأت.. طلبت الميكروفون وكنت أعرف  
ما أريد تحديداً قبل حتّى أن يبدأ هذا اليوم، فنظرت إلى عينيه وغنيت  
أغنية (حالة حب) التي أشعر كلما أسمعها أن (إيسا) تغنيها بلساني  
ومشاعري، دون أن أعرف أن سعادة اليوم ومتعته كانت رصيذاً ستسحبه  
دموعي التي انفتحت على مصراعها وأنا أردد:

- كما أنهم يقيمون حفلات كاريوكي، يُطلقون فيها أشهر ألحان الأغاني  
المفضلة، ويتركون للحضور فرصة الغناء عليها.. أريد أن تغني معاً وأركز  
معك في الغناء دون الانشغال بالعزف.

وبعد نصف ساعة كنا نأكل طبق المعكرونة الفوتوتشيني، بالمشروم  
والصوص الأبيض، لكنني كنت قد شبعت بابتساماته الحانية، فرمى لا  
تمنحنا الابتسامات خبزاً نأكله لكن يكفي أنها تشبع جوع الروح الأشد  
قسوةً وإيلاماً من جوع الجسد.

وحيث نزلت الشبشة أخذت نفساً عميقاً لم أتذذ مثله مُنذُ زمن،  
ومددت المبسم نحوّه وعرضت عليه أن يجرب الأمر فأبى، لكنني ألححتُ  
أن يجرب ولو نفساً واحداً فأخذه ويبدو أنه استلذ طعمه لكنه لم يكمل  
بعد أن سعل 3 مرات.

أخبرته بأنني كفتُ عن تدخين السجائر مؤخراً، أما الشبشة فشربها  
مجرد "تفاريح" قد أكف عنها هي الأخرى بعد أن وجدت أخيراً فرحة  
تلخص كل أنواع الفرح، ثم هربت من نظراته بسحب الدخان من  
المبسم وتنفيسه بسحب كثيفة ممتعة عبأت المكان كله برائحة قلبي  
الذي غمرته السعادة، في الوقت الذي أمسك فيه بهاتفه المحمول وأخذ  
يفحص شاشته قبل أن ينظر نحوّي ويبتسم وهو يعيد على مسامعي  
قراءة تلك الخاطرة التي كتبتها في حسابي الشخصي في "فيس بوك" مُنذُ  
وقتٍ قريبٍ:

- في سباق الحب فقط، يحصل المتسابق الأخير على المركز الأول،  
ويفوز بجائزة قلب محبوبه وروحه وكيانه!

فكلمة (أحبك) هي التعويض الوحيد الذي يفتح بوابة العالم من  
جديد.. ولا أحد ولا شيء يمكنه معرفة ما الذي كان ينقص هذا الحب  
ليأتي في اللحظة المناسبة، وهل الآن هي الفرصة المناسبة أصلاً أم لا، لكنه  
يأتي ومعه التعويض المدفوع بشكل فوري وكاش عن كل ما سبق، حاملاً  
معه أفرحاً أبصمنا بالعبارة أنها لن تأتي بسهولة.



## وأنا جنبك شايقة منك.. حاجة من ريحة أبويا

كان إيقاف دموعي المطيرة مستحيلًا كنفس استحالة لقاء سنتنا (مريم) في زنفة الستات، وكيف لا وقد استيقظ الماضي بكل ألمه وبؤسه في لحظةٍ واحدةٍ تراكمت فيها كل أوجاع الكون.

واصلت الغناء، واستمرت الدموع، حتّى اختفى صوتي تمامًا رغمًا عني فتركت المايك وأنا أشير بيدي بما معناه: "انتهى"، دون أن يملك لساني القدرة على نطقها، وأدفن وجهي بين كفيّ وقد استفردت بي آلام الماضي وهو اجس الحاضر، ومخاوف المستقبل، فإذا بفتاي العاشق يُداويني بالتي كانت هي الداء، حينَ فوجئت بصوته يعلو في الميكروفون ويغني بدوره:

### لما النسيم يبعدي بين شعرك حبيبتى بسمعه.. يقول أهات

كان صوته رهيبًا بمعنى الكلمة، كنفس روعة رائحته التي ما زلتُ لا أعرف مصدرها، ومع كل حرف ينطقه كانت دمعاي تنهمر أكثر، بفارق أنها تخلصت من ملحها وألمها، وصارت دموعًا مُسكّرةً تريح القلب وتغسل أوجاعه.

وبعد انتهائه من الغناء ظلّ ممسكًا بالميكروفون، وقال على الملأ:

- هذه الأغنية تصف كل ما أشعر به تجاهك، فأنا أحبك بالفعل (وقرب وجهه إلى وجهي والتهمني بنظرته وهو يردف) والعلاقات الجميلة تقوم على ما لا نؤمن به.. ولا نفهمه!

ارتيمت في حُضنه ولم أبال بأي شيء، ليصفق كل الحضور بشدة، وتطلق بعضهن صرخات التشجيع، ويشغل الكافيه أغنية Je t'aime التي تعني "أحبك" باللغة الفرنسية للمطربة العالمية لارا فابيان، فرقصنا عليها في أول لحظة إفراج عن قصة حبنا الذي كان حبيسًا في الصدر.

.....

عدتُ إلى غرفتي في السطح، هابطةً من السماء في تلك الليلة، بعد أن كنتُ أرفرف بجناحين من الشوق والولّه، أخذاني إلى الجنة ونسيت هناك أي جذور لي على الأرض قبل أن أعود من جديد لوجه (دميانة)

البائس الذي كان في انتظاري، وفي عينيها نظرات ساخرةً تذكرني دومًا بأن كل الأمنيات الطيبة مشروعة لبني البشر، لكنها تبقى في النهاية مجرد أمنيات!

باركت لي حينَ حكيت لها ما حدث مُنذُ قليل، وأبدت استعدادها التام لمساعدتنا إذا ما رغبتنا في الزواج، ولكن... وآه من الكلام الذي يأتي من بعدٍ لكن...

ماذا لو استعاد ذاكرته المفقودة واكتشفت أنه ينتمي لدينٍ آخر؟

هل سيبارك قساوسة الكاتدرائية تلك الزيجة؟

هل سيرحبون بوجوده في مبنى الخدمتات، ويساعدون شخصًا غير مسيحي على الارتباط بفتاةٍ مسيحية؟

أفقت على كلماتها التي أعادتني من جديد للواقع البائس المختبئ دومًا في الظلام يتحينَ الفرصة لطعن السعادة في ظهرها من الخلف، بينما تابعت صديقتي العجوز بحماسٍ أكبر:

- قلت لك يومًا -ولم تصدقيني- أن الأديان هي أكبر عائق أمام المحبة بين البشر، وسعادة قلوب الإنس، حتّى إن الحيوانات تفرح عنا؛ لأنها لا تجد مثل تلك المنغصات والمحاذير الدينية في علاقاتها.

ثم كست وجهها بصرامةٍ مفاجئةٍ، وقالت بجديّةٍ مصطنعة:

- بسم الحب، والمشاعر، والأحاسيس، القلب الواحد أمين. صحتُ فيها غاضبة:

- ماذا تقولين أيتها المأفونة؟

صعدت فوق المصطبة واصطنعت من نفسها خطيبةً تخاطب مستمعيها على غرار خطبة الجمعة، قائلةً بتهكم:

- بربك الذي تؤمنين أليست كلماتي أكثر جمالًا؟ على الأقل ثالوثي يجعلك تنالين الجنة على الأرض بدلًا من انتظارها في عالم الملكوت.

صحتُ مجددًا:

- اصمتي يا (دميانة)!



فصعدت فوق المصطبة واصطنعت من نفسها خطيئة تُخاطب مستمعيها على غرار خطبة الجمعة، لكن بشكلٍ ساخر:

- حسناً.. خُذِهَا عَلَى الطراز الإسلامي حتَّى لا تصابي بالحساسية.. إن الحمد للحُب.. نحمده ونستعينه ونذوب فيه.. من يشعر بالحُب فلا مظلٌ له، ومن يفقد الحُبَّ فلا هادي له.. ونعوذ بالحُبِّ من شرور الأديان، ودنَسِ الأوثان، والدِّماء التي تُسْفِكُ باسمِ الرحمن.

اتسعت عيناى وشعرت برهبةٍ من عينيها اللتين زاد بريقهما بلمعةٍ مخيفةٍ، لكن قلبي المطعون وعقلي أسير التساؤلات لم يستطيعا إثناءها عن مواصلة الكلام وقد أنهكت قواى بالبحث عن مأزق لتساؤلاتها المحتملة إلى حد الفجيعة، قبل أن تهبط من فوق المصطبة وتقترب منى وتقول بصوتها الذي زاد خشونة:

- بادري بالفرار من سطوة مسيحٍ مزيف، وتثليث مخادع، وقيود كنسيةٍ طالما حرمت الملايين من السعادة والعشق.. انقذي أجمل ليالى العمر مع الذي خلقتَه الظروف لينقذك ويملاً حياتك بالفرح، مثلما ولدتنا الظروف من العدم دون الحاجة لوجود أكذوبة اسمها الخالق. كدت أسقط في فخ كلماتها التي كانت تعني أن أربح حبيبي وأخسر كل ما آمنت به من ثوابت ومقدسات خلتُ أنها كانت وراء إرسال هذا الفتى في حياتي، ومع كلماتها التي أخذت تخترق أسماعي بلا هوادة، وتجد صدَى في نفسي، دبت في جسدي طاقةً غضب هائلة جعلتني أدفعها في صدرها وأنا أصرخ فيها بأخر ما تبقت لديّ من قدرة على الرفض:

- إليك عني أيتها الخريفة وكُفّي عن هذا الهُراء، إنها معركة قلبين وليست معركة أديان.

اقتربت منى بإصرار وعزيمة لا تنثني دون أي تأثير من لطمتي وتابعت:

- كُفّي أنتِ أيتها التعسة عن المراوغة.. ألا تُحكّمون الأديان في مصائرهم وتجعلونها ميزاناً لقياس الصّواب من الخطأ؟ اجعلي من كلامي مسألةً وانظري بما سيحلها الدّين؟

الإجابة أنه سيفرق بينكما كما فرق بين ملايين القلوب.. وحين ترتبطين يوماً برجلٍ آخر تكتشفين ظلمه وجبروته، وتحاولين تصحيح خطأك بالطلاق منه، ستجدين الدّين نفسه يقف حائلاً بينك وبين سبيل نجاتك الوحيد بدعوى أن الرّب قال: "الذي جمعه الله لا يفرقه إنسان"، وتضمين إلى قائمة الآلاف الذين يتسولون الرحمة من البابا، ويتسولون إليه ليرأف بحالهم، فيجيبهم بكل صلف أن لا سبيل إلا بإثبات واقعة زنا؛ فيستسلم بعضهم يائساً من رحمة ربه، ويلجأ البعض الآخر لتغيير ملته.. هيّا اهربي بحياتك قبل فوات الأوان.

بدأت عزيمة رفضي لكلماتها في الوهن، وانفتح داخلي شيء ما كان مغلقاً وبات مستعداً للاستقبال وأنا أتمتم بصعوبة:

- ما رأيت في المسيح وأمنا مريم سوى الرحمة والمحبة.. بينما كانت، وستظلّ، الشّرور من صنْع البَشَر.

- نعم يا عزيزتي.. أخيراً بدأنا نتفق.. كل الشّرور بالفعل من صنع البَشَر، بما فيهم الأديان التي نجحت في الانتشار بعد أن التقى أول نصاب بأول غبي.

إنها ليست معركة بين خير وشر، أو بشر وشياطين اختلقها الأنبياء لتكون فزاعة لبني الإنسان، لكنها معركة عقل لغاه أصحابه وعبدوا نصوصاً مقدسة من عصور غابرة لايزال العلم ينفيها في العصر الحديث بعد أن نفذ إلى عمق الذرات والجزيئات، واخترق السّموات، ورأى هذا الكوكب وخالقه على حقيقتها.. ولو نزع أتباع الأديان عنها قداستها وتأمّلوها بعد تجريدتها في عصر العلم لماتوا من الضحك لكنهم لا يجرؤون؛ لأن قوة الأديان الحقيقية تكمن في تخييب عقول أتباعها.

شعرت أن عينيها تتسعان أكثر، ونبرة صوتها تزداد خشونةً وهي تشير بسبابتها نحو السّماء وتتابع:



- إلهك ومخلصك المسيح مثلًا.. له ثلاثة أقانيم هي الأب والابن والروح القدس؛ فهل هي صُدفة أن ترتبط فكرة التثليث بأغلب العبادات الدينية القديمة؟ في الحضارة الفرعونية هناك ثالوث طيبة من الأب (آمون)، والأم (مون)، والابن (خنسو) بخلاف ثالوث أبيدوس من الأب (أوزوريس)، والأم (إيزيس)، والابن (حورس).. وفي الثالوث الهندي القديم ستجدين للإله ثلاث صور أيضًا هي (براهما) الخالق، و(شيفا) المهلك، و(فشنو) الحافظ.. وحينَ خاطبهم النبي (أتينيس) في ابتهالاته قائلاً: "أيها الأرباب الثلاثة، اعلموا أنني أعترف بوجود إله واحد، فأخبروني أيكم الإله الحقيقي لأقرب له نذري وصلاتي؟" فظهرت الآلهة الثلاثة وقالوا له: "اعلم يا أيها العابد أنه لا يوجد فرق حقيقي بيننا، وأما ما تراه من ثلاثة فما هو إلا بالشبه أو الشكل، والكائن الواحد الظاهر بالأقانيم الثلاثة هو واحد بالذات".

حتى صيغة الأمانة التي انبثق عنها مجمع نيقية الذي أنهى جدلاً واختلافًا واسعًا حول شخص المسيح إن كان مجرد بشر أم له طبيعة إلهية بها اقتباس واضح وصريح من الوثنيات السابقة؛ إذ قال الهنود القدامى: "نؤمن بشافستري (الشمس) إله ضابط الكل، خالق السموات والأرض، وبابنه الوحيد آبي (النار)، نور من نور، مولود غير مخلوق، مساوٍ للأب في الجوهر، تجسد من فايو (الروح) في بطن مايا العذراء، ونؤمن بفايو الروح المنبثق من الأب والابن الذي هو الأب، والابن يسجد له ويمجد". وفي الحضارة الفينيقية ستجدين (أدون) المولود من العذراء (عشتار) والأب الإله (إيل)، وعند الفرس كان الثالوث من (زروان)، و(أورمزد)، و(أهرمان)، ثم تطور وأصبح (أورمزد)، و(أهرمان)، و(ميترا).. كذلك عبد البوذيون إلهًا مثلث الأقانيم، يسمونه الثالوث النقي (فو)، ويقولون أيضًا إن (فو) واحد لكنه ذو ثلاثة أشكال، وفي أحد معابدهم هناك تمثال لـ(فو) مثلث الأقانيم.

هزرت رأسي بعينين زانغتين وصرختُ فيها:

- كل هذا محض افتراء وكذب، من أين جئتِ بهذه التخاريف؟

- من التاريخ غير الكنسي.. التاريخ الحقيقي غير المغلوط أو المعبوث فيه ببصمات رجال الدين.. من الكتب التي هال رجال الكنيسة عليها التراب قبل أن يسير خلفهم أتباع حرموا أنفسهم من الفهم والمعرفة والتحري، وسلكوا طريق الإيمان بالوراثة والنقل الأعمى.. لديّ مئات الكتب والمصادر التي يمكنني أن أطلعك عليها لو أردت.. وعلى هاتفك المتصل بشبكة الإنترنت آلاف المواقع، لكن شعب الكنيسة يخشى إزاحة أطنان التراب من الرؤوس، وفتح العقول الصدئة وتحريرها من ربقة القداسة الخادعة.

فأمام ضعف عقيدة التثليث وعجز العقل البشري عن تصويرها، لم يجد رجال الكنيسة من سبيل إلا القول بأن تثليثهم سر من الأسرار التي لا يُمكن للعقل أن يقف على كنهها، واعترف القديس سان أوغسطين بتعارض المسيحية مع العقل فقال: "أنا مؤمن؛ لأن ذلك لا يتفق والعقل"، وقال كير كجارد: "إن كل محاولة يراد بها جعل المسيحية ديانة معقولة لا بد أن تؤدي إلى القضاء عليها"، ولم يختلف عنهم الأب جيمس تد حين قال: "العقيدة المسيحية تعلق على فهم العقل"، وكذا قال القس أنيس شروش: "واحد في ثلاثة، وثلاثة في واحد، سر ليس عليكم أن تفهموه، بل عليكم أن تتقبلوه".

ارجعي إلى النصف الآخر من الحقيقة، وتتبعي عجز الحجج الواهية.. قلبتي صفحات التاريخ حين كانت الكتب المقدسة سرًا مخفيًا في الكنائس والأديرة، لا يطلع عليه سوى رجال الدين، وممنوع على العامة قراءتها أو الوصول إليها لتعريف أي عبث مرت به المسيحية في العصور الوسطى التي لقبها الأوروبيون بعصور الظلام.

اقرئي للمؤرخ وول ديورانت صاحب موسوعة "قصة حضارة" واسمعي إليه وهو يقول: "لما فتحت المسيحية روما انتقلت إلى الدين الجديد دمء الدين الوثني القديم".. اقرئي في دائرة المعارف البريطانية التي تذهب إلى أن القالب الفكري لعقيدة التثليث هو يوناني الأصل؛ لأن



التصورات الدينية فيها مأخوذة من الكتاب المقدس، لكنها مغموسة في فلسفات أجنبية.

شعرتُ بالدوار والعجز، فومضت عيناى (دميانة) أكثر كلبوةً تلتذذ باستسلام فريستها، وقررت أن تلعب بها قبل افتراسها حين تابعت:

— هل تريدان إبهاراً أكثر؟

اقرئي كتاب المُخلَّصون الستة عشر!

المصلوبون فداء للبشرية؛ لتعلمي أن واقعة صلب المسيح بهدف الفداء للبشرية ليست الأولى من نوعها؛ إذ سبقه إليها 16 شخصية تاريخية دينية مثل كريشنا الهندوسي، وهيسوس إله قبائل السلتي، وثولس المصري، وبروميثيوس، وغيرهم من الذين صلبوا بتفاصيل تتشابه كثيراً مع قصة صلب المسيح بل للأسباب نفسها أحياناً.

اقرئي في عقيدة الفرس الثنوية التي يتنازع فيها النور والظلام على سيادة الوجود حيث يحكم الكون إلهان؛ إله الملاء الأعلى وهو رب الكون الذي خلق نوراً لا يحرق، وخلق الوردة والبلبل، ثم تصدى له إله العالم الأسفل فحجب عنه خلائق الخير وشنتها حرباً لا تزال حتى اليوم حامية الأوار، فمن عمل خيراً من الناس فهم خدام الإله الأعلى، ومن عمل شراً منهم فهم خدام الإله الأسفل، وسوف تحتدم الحرب كرة أخرى، فيصعد الإله الأسفل إلى السماء السابعة، تخلق معه ألوف الألوف من جنده، وتطير بينها الحيات والثعابين، فيدور القتال سجالاً، حتى ينهزم الإله الأسفل، ويلقى عصا الطاعة لإله السماء.

والآن قارني هذا بما ساقه القديس أوريجين عن ملاحم الحرب بين ميخائيل رئيس الملائكة، وإبليس رئيس الشياطين، وأطوار السجال الذي يدور بين الفريقين، ويؤسّر فيه بعض الشياطين فيحبسون في باطن الأرض أو يقيدون بالأغلال حتى الموعد الأخير، ثم تنشب الملاحمة الأخيرة قبل القيامة، وبعد ظهور المسيح الأول بألف سنة فيذهب أهل النار إلى النار، ويرتفع أهل النعيم إلى النعيم.

تأملي عبادة الإله (ميتر) في بلاد فارس الذي خلقه إله النور (أورمز) لكي يحمي أتباعه من أتباع إله الظلام (أهريمان)؛ فخلقه من صخرة متوالدة على ضفة النهر تحت ظل شجرة مقدسة، وكان بعض رعاة الجبل شهوداً على معجزة دخوله إلى العالم، فقد رأوه يخرج من الصخرة، ورأسه متوج بقبعة ملوكية، متسلحاً بسكين صياد، وهو يقود شعلة كانت تضيء الظلمات، فقدّم الرعاة للطفل الإلهي ثمار محاصيلهم الأولى، وريع مواشهم، ومع ذلك فالفتى البطل كان عارياً ومُعَرَّضاً للريح الباردة، فاختم في شجرة تين وأكل من ثمارها، وصنع من أوراقها ثوباً له، وخرج على هذا النحو لكي يواجه كل قوى العالم، قبل أن ينتهي الأمر بصعوده إلى السماوات مرفوعاً من قبل الشمس، وسط الإشعاع الصادر عن عربته التي ترفعه بواسطة أربعة أحصنة كما ورد في قصة إيليا في الكتاب المقدس، ولكن هناك ومن أعالي السماوات لم يتخل عن حماية المؤمنين الذين أخذوا على عاتقهم خدمته بتقوى وأصغوا إلى كلماته، وهو يفعل مشيئة الأب كما كان يسوع يقول.

وكان لميترا ثور يركبه، وحين حاول الفرار منه يوماً أمسك به من خلال فتحة أنفه بإحدى يديه، وطعن باليد الأخرى الجوانب السفلية لبطن الحيوان بسكينه الصياد، فنبتت من جسم الثور المملكة النباتية، وولدت من عموده الفقري الجنطة التي تمح الخبز، وطلع من دمه النبيذ الذي يُنتج الشراب المقدس للأسرار..

ألا يذكر ذلك بطقس تناول المقدس في الكنائس؟

ادخلي على موقع متحف اللوفر في باريس وشاهدي بأم عينيك الآثار المكتشفة في بلاد فارس والموجودة حالياً لأتباع الإله ميتر وهم يتناولون الخبز والتبنيذ، وابعثي بعدها عن تصريحات الكاتب الفرنسي فرانس كومون في مجلة علم الآثار لعام 1946 حين قال: نظراً لأن لحم الثور كان صعب المنال أحياناً، فقد اضطر أتباع الإله ميتر إلى استخدام الخبز والتبنيذ مكان اللحم، وكانوا يرمزون بذلك إلى لحم معبودهم ميتر ودمه.

يوم الدّيونونة ويسوع الذي سيقف البّشر أمام كرسي دينونته ليقدموا حساباً عمّا فعلوه في الجسد.

وفي دائرة التشابهات نفسها، عبّر المصريون بإيمانهم بالحياة بعد الموت من خلال مفتاح الحياة أو (الأُنكا) كما كانوا يسمونه، والذي يُعد صليباً فرعونياً.

"كل هذا الكلام من تأليفك.. فكل المخبولين أمثالك يخلطون التاريخ والعلم بأرائهم الشخصية ليلووا عنق النّصوص والكلمات ويصلوا إلى ما يُشبع جنونهم.. أما الواقع فلا يزال يشهد بمعجزات المسيح وأتباعه إلى يومنا هذا.. فكيف فعلوا ما فعلوا بفعل دينٍ مسروقٍ من الأساطير...؟".

قاطعتها وأنا أنفض عن عقلي أي تأثير لكلماتها المسمومة، وقد شعرت بأن الاستشهاد بالمعجزات سيُخرسها فعادت لجدّالها وأجابت:

- ولماذا لا ترجعين للعلم والتاريخ وتحكمين بنفسك؟ فكل ما ذكرته موجود في كتب ومراجع من السهل الرجوع إليها.. أما المعجزات التي تتغنين بها أنتِ وباقي المغيبين أمثالك فما هي إلا قدرات خاصة لدى كثيرٍ من البّشر، سواء كانوا مسيحيين، أو مسلمين، أو بوذيين، أو هندوساً.. والعلم اليوم يصنع ما هو أكثر إعجازاً؛ من طيران، وأجهزة محمول، وشبكة إنترنت فهل نقدر من ابتكر كل هذا ونتخذهم أنبياء وألهة؟ لاحظي أننا لم نتحدث بعد عن تاريخ تدوين الأناجيل بعد وفاة المسيح أصلاً، من مدونين لم يُعاصروا الأحداث التي يروونها، وإنما نقلوها عمّن عاصرها وهذا ما يفسر بعض التناقضات التي نراها حتّى يومنا هذا، بخلاف موجةٍ من البلبلة والتشتت التي حدثت بين كثيرٍ من القساوسة وجماعات المسيحيين في القرن الأول والثاني بعد الميلاد، حتّى الجزء الثاني من القرن الثالث الميلادي عندما تم اعتماد صيغة نهائية متفق عليها لهذه الأناجيل الأربعة.

ألم تسألِي نفسك: لماذا يوجد هذا العدد الكبير من الأناجيل؟ ألا يكفي إنجيل واحد؟

والآن حاولي استيعاب أن المسيحيين في روما كانوا ينصرفون لسهرات الوثنيين أتباع ميتر في الخامس والعشرين من شهر ديسمبر لاعتقادهم أنه اليوم الذي يقصر فيه الليل ويطول النهار كهزيمة لإله الظلام وانتصار لإله النور، وانظري كيف تم تحويل هذا التاريخ تحديداً إلى تاريخ ميلاد المسيح لصرف أنظار مسيحيي روما وأوربا عن هذا العيد الوثني، وللأسبب نفسه تم تحويل يوم الأحد الذي يسمى Sunday أي يوم الشّمس في عقيدة عبّاد الشّمس والنور ليصبح عطلةً أسبوعيةً للمسيحيين واليوم الأخير المقدس في الأسبوع الذي سيشهد خلاص المسيحيين والقيامة بعد أن تم دمجها بالرمزية الشّمسية مُنذ القدم لمزاحمة هذا الدّين الوثني وإزاحته عن طريق المسيحية.

حتّى فكرة تجسد الإله في صورة بشر يعيش وسط النّاس ويحدثهم ويحدثونه؛ هي فكرة مقتبسة من الأساطير والديانات الوثنية، منهم أوزوريس في مصر، وبعل في بابل، وأنيس في فرجيا، وناموس في سوريا، وهركليز ند الإغريق، وكريشنا في الهند، وأندرا في التبت، وبودا في الصين، وميترا في فارس.

زاغت عينا، وزادت دقات قلبي وهي تواصل بكل شراسة:

- ألسنتِ مصرية يا عزيزتي؟

تأملي معي إذن غطاء رأس المسيح، ولحيته، عصا الراعي، ثم اقربي في تاريخ الفراعنة عن أوزوريس أو أوزار التي تعني الراعي؛ ذلك الرّجل الملتحي أيضاً، ذو الشعر الطويل المغطى بغطاء الرأس الممتد من مقدمة الرأس وينسدل على الكتف، والذقن الطويل..

أوزوريس أوّل من سجّل التاريخ البشري خبر انتصاره على مملكة الموت، وقيامته ظافراً فاتحاً طريقاً للحياة الأبدية لكل بني البّشر؛ ليصبح القاضي العام للجنس البشري الذي يحاسب البّشر على أعمالهم خيراً كانت أم شراً، فيدخل الأبرار ملكوت النعيم، بينما يحيق الهلاك بمن حادوا عن جادة الصواب، وهي الفكرة نفسها الموجودة في المسيحية عن



والإجابة أن هذه الأناجيل كُتبت لجماعاتٍ مختلفةٍ في شتى الحضارات والبلدان؛ حتى يتم إقناعهم بالمسيحية، ولعل هذا يُفسّر لنا الانشقاقات الباكورة بين اليعقوبيّة والبولسية والمصرية؛ ليصبح عندنا مسيحية يعقوبية يهودية أريدت في أورشليم، ومسيحية بولسية يونانية الثقافة رومانية الهوى، حكمت فيما بعد، ومسيحية مصرية أصلية اندثرت مع اندثار ما أسمتهم الكنيسة الهرطقة، وبقيت لها آثار هنا وهناك.

كل هذا ولم أقل إلا النزر اليسير؛ فالأكاذيب والتلفيق التي لا يقبلها العقل لا حصر لها، بخلاف علامات الاستفهام حول الكنيسة التي لا تخضع أموالها لرقابة الدولة رغم أن مواردها تُقدّر بالمليارات سنويًا؛ سواء من العشور، والتبرعات الداخليّة والخارجية، والنذور، وتحويلات كنائس المهجر، ومغزى فتح الحسابات في البنوك بأسماء القساوسة وزوجاتهم، في الوقت الذي ثبت فيه بالدليل القاطع فساد بعض رجال الكنيسة حتى إنه تم نشر تحذيرات تطالب بعدم حقهم في جمع تبرعاتٍ مالية أو عينية.

سألته بدهشة الكون: "متى تعلّمت كل ذلك يا دميانة؟" فأجبت:

- طوال عمري أقرأ وأبحث، قبل أن ألتقيك بسنينٍ طويلة، وقت أن كانت الكتب والمعرفة هي سلوأي الوحيدة، ثم أيقنت أخيرًا أن الإنسان هو إله نفسه القادر على إسعادها أو خزيها، وبعد أن وجدت كل من حولي حمقى لا أمل في شفائهم من مرض الأديان، قررت استغلال جهلهم المشفع بالدين، تمامًا مثلما فعل البابا والقساوسة حين باعوا صكوك الغفران في العصور الوسطى لراغبي التوبة.. لم أكن بحاجة لإقناعك بمثل هذه الطريقة؛ لأنك كنت مسيحية في البطاقة فحسب، لكن اليوم أراك تفنن نفسك بالانغماس في تعاليم غبية ستزيدك بؤسًا أكثر من البؤس الذي دقته مع ريمون و...

"هل تجيئين معي إلى الكنيسة وتواجهينهم بما لديك ولننظر من منكم سينتصر؟".

قاطعتها من بين دموعي الصامته التي فشلت في الانتصار ليسوع، فقهقتها بشكلٍ مريبٍ، ثم أجابت:

- ولماذا أسألهم وأنا لديّ الإجابة واليقين فيما وصلت إليه.. اذهبي إليهم واسألهم وحدك، وأراهنك على كل ما أملك أنهم لن يجيبوك على أيّ من أسئلتك.. بشرطٍ واحدٍ..

- أي شرط؟  
- أن تخبرهم بأن كل هذه المعلومات قد قالتها لك صديقةٌ مُسلمة، وانظري رد فعل أتباع إله المحبة نحو كلام خصومهم لتوقني بأنني على حق.

ثم اقتربت مني أكثر، ووضعت وجهي بين يديها الساخنتين وأردفت بصوتٍ جاهدت أن يبدو حنونًا رغم نبرتها شديدة الخشونة:

- صدقيني يا ابنتي، لا أريد لك سوى السعادة قبل أن تضيع منك أجمل سنوات العمر مثلما ضاعت مني.. فما أشقى الوصول للحقيقة في سنٍّ متأخرة، بعد أن يبلى الجسد ويُسّي عاجزًا عن استعادة ما أخفاه الجهل من متعٍ وهبات تمنحها لنا الطبيعة كل يوم، لكننا لا نلمسها بأيدينا بفعل قيود صعبة من الحرمات التي فرضتها الأديان العقيمة.. فتبًا لأمة تظن أن ممارسة الحب تكون في حضور الشيطان، وممارسة القتل في حضور الله!<sup>(1)</sup>

\* \* \*

(1) مقولة أعجبتني على مواقع التواصل الاجتماعي، ولم أصل لقائلها الحقيقي حتى أشير إلى اسمه.



نظرت إليه نظرة أخيرة بعينين تلمعان بدموع القهر وخيبة الأمل، وما إن غادرت الحجرة حتّى تركت لدموعها العنان غير مصدقة أن (دميانة) كانت على حق عندما راهنتها بأنه لن يجيب عن تساؤلاتها أبدًا!

دخلت الهيكل وهي تضم كتفيها وتغطي صدرها بإحدى يديها، بينما وضعت الأخرى على فَرْجها الذي حاولت إخفاءه بين ساقها المضمومتين لتداري عوراتٍ ظنت أنها انكشفت، وقد شعرت بالشيطان يجردها من ثيابها بعد أن استفرد بها وسط المقاعد الخشبية الخالية من البشر والملائكة!

وفي غمرةٍ نحيبها، أخذت أصوات الترانيم والموسيقى الكنسية وهمهمات القُدّاس العظيمة تفر من أذنيها وتبتعد وتبتعد، بينما اختفى المسيح من على الصليب، وفر تلاميذه من لوحة العشاء الأخيرة التي وقف فيها (يهودا) وحده مبتسمًا بسخرية.

"ماذا بك يا آيات؟"

قالها الشّابّ الوسيم بنبرةٍ متوجسةٍ وقد هاله خطأ الكحلّ السائلان على خديها من عينين ممتعتين، قبل أن تنظر إلى عينيه وقطر عينها أكثر وأكثر، لتجيب عن سؤاله بسؤال خرج بصوتٍ متلجلجٍ لمقاتلٍ يحتضر:

- أين المسيح؟!

عقد حاجبيه في دهشةٍ، وسأل:

- ماذا؟

- أين المسيح؟

ثم ألقت بنفسها في حضنه بشكلٍ مباغتٍ، ودفنت وجهها في صدره، لتتحول دموعها الصامتة إلى نحيبٍ ونههةٍ غير منتظمي الإيقاع، قبل أن تخمد حركتها تمامًا ويتوقف صوت بكائها، فأبعدها عن صدره وتأمل وجهها مغمض العينين وقد ثقل وزنها في يده التي باتت تحمل جسدها بالكامل بعد أن تراخت قدمها وهو يردد اسمها بلوعة: "آيات.. آيات".

\*\*\*

## (21)

"هذا الكلام غير مقبول هنا.. مليون مرّة أنبه ألا نفتح مثل هذه النقاشات مع إخواننا المسلمين؛ حتّى لا تحمل النفوس أي كراهية أو تشاحن، ولنترك للرب حسم هذا الخلاف يوم الدّينونة.. هل تريدان فتح الباب للمشكلات والصّراعات التي لن تنتهي قبل أن تقضي على الجميع؟!"

قالها القمص (يوسف أرمانوس) بنبرةٍ غاضبةٍ في حجرته التي استقبل فيها (آيات)، فأجابته الأخيرة بتلعثم وارتباك:

- كلا يا أبانا، لكن صديقتي المسلمة راهنتني أنك لن تجيب عن تساؤلاتي.  
- صديقتك هذه لم تعرف المسيحية حق معرفتها، واكتفت بقراءة كلام محفوظ هي نفسها لم تتأكد من صحته، واكتفت بتريد ما تلقنته مثل الببغاء، وأجزم بأنها لم تمسك يومًا إنجيلًا لتقرأه بقلبها حتّى تستكشف الأمر بنفسها، ولا حتّى مُصحفًا.. اطلبني منها أن توظف الوقت الذي تقضيه في تريد ما لا تفهمه في أديان الآخرين في فهم دينها أولًا.

- وماذا عني؟

- لو كان الإيمان بيسوع يملأ قلبك لما هزتك هذه الكلمات.. اقتربي من المسيح أكثر واطلبي منه أن ينير قلبك بحبته ثم نتحدث بعدها، وإياك أن تُفحمي المسلمين مرّة أخرى في شئونٍ خاصة بالكنيسة.. فقد نذرت نفسي ألا أكرههم مهما بدر منهم.. عن إذنك.. لديّ أمورٌ أخرى أريد الانتهاء منها.

قال جملته الأخيرة وهو ينهض في مكانه لحسم انتهاء اللقاء؛ حتّى لا يعطيها فرصة أخرى للمزيد من النقاش والجدل.





## "لماذا عاملتها بهذه الطريقة يا أبانا؟"

قالت الشَّاب الوسيم في حجرة القُمص (يوسف) بعد أن أفافت (آيات) بعد جهود مُضنيةٍ بذلها هو وباقي خُدَّام الكنيسة؛ لتقص عليه بعد إفاقتها ما حدث بالتفصيل المُمل، ثم ترحل وتطلب منه أن يخرج معها، لكنه طلب منها العودة لحجرتها والحصول على قسطٍ من الراحة أولاً.

تأمله القُمص بملامح مترددة، تتأرجح بين الغضب والندم قبل أن يجيب بصوتٍ خافتٍ يستدعيه من غياهب الذاكرة السوداء التي طالما حاول غسلها بعشرات الأعمال الصالحة:

- لقد نكأت "آيات" دون أن تقصد جُرْحًا قديمًا يا ولدي، كلما ظننت أنه اندمل ساق لي الرَّب من يُدْكرني به، ويبدو أنه لن يطيب أبدًا.

صمت الشَّاب ولم يُعقِّب بحرف، وقد أدرك بفطرته أن ما يمر به القُمص لحظة اعتراف لا إرادية، تحل على لسان الإنسان المكلوم في وقتٍ لا يختاره بعد أن تستبد به الأحزان، ولا يكون هناك مناص من البوح أمام أشخاص لا يختارهم المرء، ولكن تسوقهم الأقدار ليشهدوا هذا الاعتراف، وبالفعل مضت ثوانٍ قال القُمص بعدها:

- لم أصل إلى هذه المرتبة في غمضة عين.. فقبل أن أصبح قُمصًا عشت سنواتٍ طويلةً في الكنيسة، وبين جدرانها بدأت الحكاية..

- كنت طفلًا نابغًا لأم وأب في غاية التدين، حتَّى إنهما حرصا على أن أكون من رجال الكنيسة مُنذُ نعومة أظفاري، ولم أخذل دعوتهما المُلحة للمسيح بأن يحفظني ويرعاني ويجعلني من رجاله المقربين، فأصبحت شماسًا وأنا ابن 10 سنوات وسط دُحول الأوساط الكنسية، ثم ترقيت في السلك الكنسي بسرعةٍ ولمع نجمي في دوائر الدراسات اللاهوتية؛ إذ كنت من طلاب مدارس أحد في الكنيسة، وتربيت في المعمودية.

لم أكن ابنتهما الوحيد، فقد كانت لي شقيقة تُدعى (مريم) تصغرني بعامين.. وكانت كلما كبرت في السن ابتعدت عن الكنيسة، حتَّى أصبحت مُقلَّة جدًّا في حضور القُدَّاس والتناول، ولم تكن تصوم مثلنا، حتَّى إن

والدي كان يضربها ويوبخها ثم يئس منها مع مرور الوقت، لكن رغم كل هذا كانت أقرب إنسانة لقلبي في هذا العالم.. كانت أمي وأختي وصديقتي، وكان كل منا خازن أسرار الآخر، وصديقه النَّاصح المُخلص حين يحار العقل ويعجز الفكر عن التوصل لحل في معضلةٍ ما.

صمت القمص ليبتلع ريقه، ثم طال صمته وكأنه سيُلقي قولًا ثَقيلًا قبل أن يبوح أخيرًا:

- وذات يوم، صَدَرَ قرار بتشكيل لجنة خاصة سُمِّيت (لجنة القرآن)، تضم 5 أعضاء من كل كنيسة على مستوى الجمهورية، ينحصر عملهم في قراءة القرآن واستنباط التناقضات والمعلومات المغلوطة التي تجافي التاريخ أو المنطق فيه؛ لاستخدامها في المناظرات التي تحدث مع شيوخ وعلماء المسلمين، ووضعها في مواقع الويب المسيحية، وكانت أول مرَّة أمسك فيها مصحفًا في حياتي، قبل أن أتبحر في كُتب التفسير لقرآن الإسلام، سواء تفسير القرطبي، أو ابن كثير، والجلالين، بخلاف كتب البُخاري ومُسلم التي جمعت أحاديث وسيرة نبي الإسلام، وكتب أخرى شهيرة في الدين الإسلامي اهتمت بجمع سيرة (محمد)، وقصة الخلق مُنذُ مجيء (آدم) حتَّى بعثة نبي آخر الزمان حسب رؤية المسلمين، مثل (السيرة النبوية) لابن هشام، و(تاريخ الرسل والملوك) المعروف بتاريخ الطبري، والبداية والنهاية لابن كثير، و(زاد المعاد في هدي خير العباد) تأليف ابن قيم الجوزية، و(المِلل والنحل) للشهرستاني، و(السيرة الحلبية) لعلي بن برهان الدين الحلبي، وغيرها من الكتب التي أجزم بأن أغلب المسلمين أنفسهم لم يطلعوا عليها.

ومع القراءة والتبُّع في الإسلام وربط الأمر بالتاريخ والأديان الأخرى، وجدت الكثير من الشبهات واندحشت كثيرًا كيف لم ينتبه المسلمون لهذه الأمور، وأدركت أن هذا يرجع إلى سبب عدم قراءة كتب التاريخ والسيرة والتفاسير والتأمل فيها، وبالتالي لم ينتبهوا إلى أن لفظة (الله) كانت موجودة في شبه الجزيرة العربية قبل بعثة نبي الإسلام، وكانت تعود لإله القمر (الإلاه) وتمَّ اختصارها إلى (الله) في عصور ما قبل الإسلام،

بدماء الحيض، وكان دم الحيض عند المرأة في اعتقاد الأقدمين هو سر الميلا؛ فمن المرأة الدّم؛ ومن الرّجل المنّي؛ ومن الإله الروح.

أخذ القُمص نفسًا طويلًا وقد شعر بأن الحمل الثقيل الجاثم على نفسه يخف في وطأته، فأردف:

- مع كل وقت يمضي كنت أكتشف المزيد والمزيد؛ مثل تلك التناقضات بين الرواة في واقعة الإسراء والمعراج في كتب الأحاديث والسيرة التي يقدسونها ولا يجرؤ أحد على التشكيك فيها، فإذا بها تحمل أكثر من رواية بتفاصيل مختلفة، لكن المفاجأة الأكبر لم تكن في التناقضات بين الروايات بقدر ما كانت في تشابه الواقعة نفسها مع قصة النبي (يعقوب) في "سفر التكوين" حين انطلق هاربًا من وجه أخيه (عيسو)، محرومًا من عاطفة والديه واهتمامهما ليصير في الطريق عند غروب الشمس وحده معرضًا لمخاطر كثيرة، وحين وضع رأسه على حجر واضطجع، رأى السّماوات مفتوحة، وسلّمًا سماويًا منصوبًا على الأرض رأسه يمس السّماء، ثم تجلى له الله قائلاً: "ها أنا معك"؛ ليسد كل عوز ويعطى بفيض أكثر مما سأل وفوق ما طلب، فيما كانت الملائكة نازلة وصاعدة على هذا السلم، بخلاف ما ورد في أسطورة (ميترا) الذي صعد إلى سماء مقسومة إلى سبع سماوات، وكل واحدة مرتبطة بكوكب، وثمة سلّم مكوّن من ثمانية أبواب متموضعة بعضها فوق بعض، ولعبور الأتباع من درجة إلى الدرجة التي تليها، كان على الفرد أن يتعرّف عبارات مقدّسة لكي يرضي ملاك الإله (أورمازد) الذي يحرس البوابة، بشكل يشابه إلى حد بعيد حين كان (جبريل) يستفتح باب كل سماء يصعد بها مع (محمد) فيسألونه: "من؟" فيجيب: "جبريل"، فيسألونه: "ومن معك؟"، فيجيب: "محمد"، فيسألونه: "أو قد أرسل إليه؟" وكأن الملائكة التي تؤمن بالأنبياء وتناصرهم لا تعرف إذا كانوا قد بُعثوا أم لا.

ثم اشتدت دهشتي عند قراءتي في العلاقة بين الديانة الزرادشتية والإسلام لا سيما في واقعة الإسراء والمعراج أيضًا..

حتّى إن العرب الوثنيين استعملوا كلمة (الله) في تسمية أطفالهم، والدليل على ذلك أن والد (محمد) كان يُدعى (عبدالله)، كما أن (الله) هو الاسم المذكور من (اللات) التي كانت تعني إلهة الشمس، ولجذب اهتمام أهل قريش ومحاولة استرضائهم، تعددت أسماء إله الإسلام بطرق تشابه مع أوثانهم، فأصبحت كلمة (العزير) مرادفة لـ(العزى)، والمنان مرادفة لـ(مناة)، بل إن لفظة (الله أكبر) كانت موجودة قبل بعثة (محمد)؛ للدلالة على أن إله القمر كان أكبر الآلهة، واكتشفت أن كلمة الله دخلت المسيحية مع ترجمة الإنجيل إلى اللغة العربية، وتأثر المسيحيون بالكلمة السائدة والمنتشرة في المجتمعات العربية، حتّى أصبحت لصيقة بألسنتنا وصعب تخليص اللسان منها بعد أن اعتادها، بخلاف كثير من التفاصيل الوثنية التي لا تزال لصيقة بالإسلام إلى يومنا هذا؛ مثل حج البيت.

عقد الشّاب حاجبيه وثبتت نظراته على وجه القُمص دون حتّى أن يرمش، بينما واصل الأخير:

- فقد كان الحج الجاهلي في شهر ذي الحجة أيضًا، في موعد الحج الإسلامي نفسه، وكان الحجاج يقبلون محرمين مُلبين، وتختلف التلبية بحسب الإله الذي نسك له الحاج؛ حيث مثلًا يقول من نسك لللات: "لبيك اللهم لبيك، لبيك، كفى ببيتنا بنية، ليس بهجور ولا بلية، لكنه من تربة زكية، أربابه من صالحى البرية"، ويقول من نسك للعزى: "لبيك اللهم لبيك، لبيك وسعديك ما أحبنا إليك"، وكان نسك قريش للإله إساف، وكانت تلبيتهم: "لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك إلا شريك هو لك، تملكه وما ملك"، وكلها صيغ شديدة التشابه بصيغة الحج الإسلامي، وكان الحاج يطوف بالكعبة سبعة أشواط تبدأ من عند الحجر الأسود أيضًا.

كما اكتشفت أن المصادر التاريخية القديمة تقول إن أصل كلمة الحج هو (الحك)؛ إذ كان يُمارس في الحج طقس غريب وهو الاحتكاك بالحجر الأسود، وهناك رواية إسلامية تقول إن الحجر الأسود كان أبيض ولكنه أسود من مس الحيض في الجاهلية؛ حيث كانت النساء تمس الحجر

فلما أخذت ديانة (زرادشت) في الانحطاط في بلاد الفرس، ورغب المجوس في إحيائها في قلوب الناس، انتخبوا شاباً يُدعى (أرتاويراف) وأرسلوا روحه إلى السماء، ووقع على جسده سُبَات، وكان الهدف من سفره إلى السماء أن يَطَّلِع على كل شيء فيها ويأتيهم نبأ، فعرج هذا الشاب إلى السماء بقيادة وإرشاد رئيس من رؤساء الملائكة يُدعى (سروش)، فجاء من طبقة إلى أخرى وترقى بالتدرج إلى أعلى فأعلى.

ويقول (أرتاويراف) عن واقعة معجازه: "قدمت القدم الأولى حتّى ارتقيت إلى طبقة النجوم في حومت، ورأيت أرواح أولئك المقدسين الذين ينبعث منهم النور كما من كوكب ساطع، ويوجد عرش ومقعد باهٍ باهر رفيع زاهر جدًّا، ثم استفهمت من سروش (الملاك) المقدس ومن الملاك (آذر) ما هذا المكان".

وكان (آذر) هو الملاك الذي له الرئاسة على النار، و(سروش) هو ملاك الطاعة، وهو أحد المقدسين المؤيدين؛ أي الملائكة المقرّبين لديانة (زرادشت)، وهو الذي أرشد (أرتاويراف) في جميع أنحاء السماء وأطرافها المتنوعة، كما فعل (جبرائيل) مع (محمد).

ولما اطلع (أرتاويراف) على كل شيء، أمره (أورمزد) -الإله الصالح الذي كان سند وعضد مذهب النبي (زرادشت)- أن يرجع إلى الأرض ويخبر الزرادشتيين بما شاهد، ودوّنت هذه الأشياء بحذافيرها وكل ما جرى له أثناء معجازه في كتاب اسمه (أرتاويراف نامك).

لم يجد الشاب ما يُعقّب به، فاكتفى بالصمت وهو يتأمل صورة العذراء وهي تحمل المسيح الصّغير وحولهما ملائكة على هيئة أطفال تُحيط رءوسهم هالات من الضوء، بينما استطرد القمص:

حتّى واقعة الطير الأبايل الشهيرة التي يتغنى بها التاريخ الإسلامي، ونزلت فيها "سورة الفيل" تاريخًا لحماية الرّبّ لكعبته من جيش أبرهة الأشرم حين أراد هدمها، ثبت عدم وجودها في أنباء وقصص العرب قبل بعثة نبي الإسلام، رغم أنهم كانوا يدونون كل كبيرة وصغيرة، فكيف يتجاهلون واقعة بهذا الإعجاز، وكيف يحمي الرّبّ كعبته قبل بعثة

رسول آخر الزّمان بطيور ترمي الجنود بقطع من الأحجار المشتعلة، ثم يتخلى عن نفس الكعبة المقدسة مرّة حين ضربها الحجّاج بن يوسف الثقفي بالمنجنيق في حربه مع عبدالله بن الزبير في القرن الأول هجريًا، ومرّة حين هجم القرامطة على الحجّاج في موسم الحج بيوم التروية وقتلوا الحجيج العزل من السلاح، فأخذ الناس يلقون بأنفسهم في الآبار ويفرون إلى رءوس الجبال؛ خوفًا من سيوف القرامطة الذين نهبوا أموالهم، واستباحوا دماءهم، وقتلوا الحجيج في رحاب مكة وشعابها حتّى في المسجد الحرام وفي جوف الكعبة، وجلس أميرهم أبو طاهر سليمان على باب الكعبة، والرجال تصرع حوله في المسجد الحرام وهو يقول ساخرًا: "أنا بالله وبالله أنا، يخلق الخلق وأفنيهم أنا"، والناس يفرون ويتعلقون بأستار الكعبة فلا يجدي ذلك عنهم شيئًا ويقتلون وهم كذلك، حتّى بلغ عدد من استشهد من الحجيج أكثر من ثلاثين ألفًا، وبعد انتهاء المذبحة أمر أمير القرامطة بأن تدفن القتلى في بئر زمزم، ودفن كثيرًا منهم في أماكنهم بالمسجد الحرام، وهدم قبة زمزم، وأمر بقلع باب الكعبة ونزع كسوتها وشققها بين أصحابه، ثم أمر بعد ذلك بقلع الحجر الأسود وهو يقول: "أين الطير الأبايل؟ أين الحجارة من سجيل؟" ثم قلع الحجر الأسود ونادى بأعلى صوته: "يا حمير، أليس قلتم في بيتكم هذا ومَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا؟ فأين الأمن؟"، وأخذوا الحجر الأسود إلى بلادهم وخرجوا وهم يقولون: "فلو كان هذا البيت لله ربنا لصب علينا النار من فوقنا صبا"، وبقي الحجر الأسود عندهم أكثر من 20 عامًا.

ثم عاد أطرق القمص وجهه للأرض ولاذ بالصمت وقد وصل إلى أثقل ما في حكايته الأليمة، فلم يستطع الشاب الوسيم مع الصمت صبرًا، وقد شحذت الكلمات فضوله فسأل:

- ما الذي حدث بعدها؟

نفس القمص زفيرًا طويلًا، اتكأ فيه وهو يخرج على حرف الحاء الذي برز زينه وصداه قبل أن يجيب:



- ما زلت بعد كل هذه السنين أذكر ما أوردته في تقريرتي حين كتبت: "لقد تعرضنا لآراء وأحاديث كوكبة ضخمة من كبار العلماء والمفسرين ورواة الأحاديث، فوجدت ما يليق وصفه بأنه مجرد أساطير وتجميع لعبادات قديمة"، ثم سألت في التقرير نفسه: "كيف تتخذ آلاف من المدارس والمعاهد والجامعات الإسلامية من هذه الخرافات منهجاً تدرسه لطلابها؟ وماذا نتظر من خريجي هذه الجامعات والمعاهد والمدارس؟ إن هذه الكتب وأمثالها وضعت عقل المسلم في محنة ما بعدها محنة؛ فإما أن يعمل المسلم عقله ويرفض هذه الأشياء ويكتب حينها شهادة وفاته بيده، أو يستغني عن العقل الذي منحه الله إياه ويصدق فكر الأسطورة كما هي بعد أن يُخرس صوت الفكر ويخمده داخله..". وأنهيت تقريرتي بكلماتٍ جريئةٍ قلت فيها: "علينا التصدي لمثل هذه الكتب والعودة إلى الوراء أربعة عشر قرناً لنبداً من مرحلة ما قبل هذا الفكر الصحراوي البدوي إن كنا صادقين في البحث عن حل لحالنا المتردّي، وإن كانت لدينا الشجاعة على تحمل المسئوليات أمام أنفسنا، وأمام الله، وأمام الشعوب".

ثم لمعت عينا القمص بالدموع، وأردف بكلماتٍ ثقيلةٍ تخرج بالكاد:

- في تلك الأثناء، كان لي صديق في لجنة القرآن يُدعى (إبرام يونان)، طالما اعتبرته أخي الذي لم تلده أُمِّي، فجّر مفاجأة مدوية حين سأله أحد الأساقفة عما وجد في القرآن وسيرة نبي الإسلام من أخطاء، فأجاب: "لم أجد في القرآن ما يعيبه أو ينقده..". ثم بدأ يفند ما ورد في تقاريرنا من أخطاء إسلامية، وحين زاد اللغط والجدل قلب المائدة على الجميع وشكك في التثليث وصب المسيح وألوهيته، مؤكداً أن الاعتقاد في ألوهية المسيح لم يصبح عقيدة مستقرة وسائدة بين المسيحيين إلا بعد انقضاء عهد الحواريين والتلاميذ الأوائل للمسيح، ومرور قرن على الأقل على ميلاد يسوع، وقال إنه حين دخل المسيحية مؤمنون جدد من الأميين الوثنيين كانوا متشبعين بثقافة عصرهم الوثنية الهيلينية التي تنظر للعظماء من أباطرة أو قادة فاتحين أو فلاسفة عظام على أنهم أنصافُ آلهة، أو أبناء آلهة هبطت لعالم الدنيا وتجسدت لخلص بني الإنسان وهدايتهم، فصار

كثيرٌ منهم ينظرون إلى شخصية المسيح بالمنظار نفسه، مستغلين التعبير الرمزي عن المسيح في لغة الأناجيل؛ ليأخذوا البنوة على معناها الحرفي الذي اتفق مع ثقافتهم الوثنية، ورأوا فيه ابن الله الحقيقي الذي كان إلهاً فتجسد ونزل لعالم البشر لخلصهم، وأكد إبرام أن مصطلح ابن الله لم يكن مقصوراً على المسيح فحسب، بل شمل العديد من البشر مثلما جاء في سفر التكوين.

صعقتنا كلماته، وحين حاولنا نقاشه صمم على موقفه، وأكد أن عقيدة الصلب والتثليث والتجسيد لاقت رواجاً لدى العوام الذين أعجبهم الغلو في رفع مقام من يقدسونه، قبل أن تلعب عدة عوامل سياسية وثقافية واجتماعية ولغوية لصالح الاتجاه الوثني في النظر لشخصية المسيح، وشيئاً فشيئاً صار هو الأصل وصارت مخالفته هرطقة وخيانة لحقيقة يسوع.. ورغم أن الموحدين بالإله والمؤمنين ببشرية المسيح صاروا فئاتٍ ضئيلةٍ يُنظر إليها على أنها مبتدعة ضالة، مثلما حدث مع الأسقف أريوس في الإسكندرية، إلا أن إبرام اعتبرهم موحدين وليسوا مهرطقين، وأخذ يذكر أمثلة وأسماء لم نعرفها من قبل مثل الطبيب الإسباني ميخائيل سيرفيتوس الذي أعلن بطلان عقيدة التثليث ورفض ألوهية المسيح بشدة، وسمى الثالوث الوحش الشيطاني ذا الرؤوس الثلاثة، وقام بحركةٍ نشطةٍ جداً في الدعوة إلى التوحيد الخالص، ثم اتهمته الكنيسة بالهرطقة واعتقلته، ثم أعدمته حرقاً حسبما قال إبرام مستشهداً بكتبٍ ودراساتٍ قال إنها متاحة معه لمن يريد الاطلاع عليها، والإيطالي فاوستو بوللو سوزيني الذي نشر كتاباً إصلاحياً ينقد عقائد الكنيسة الأساسية من تثليث وتجسد وكفارة، ثم توصل للتوحيد الخالص وأخذ يؤكد في كتاباته حتى انتشرت تعاليمه في كل مكان، وتعرض أتباعه لاضطهادٍ وحشي، وحرق الكثير منهم أحياءً أو حرموا حقوقهم المدنية وحُرقت كتبهم، والبريطاني جون بيدل الذي قام بنشاطٍ إصلاحٍ قوي في بريطانيا ونشر رسائله التوحيدية المدللة بأقوى البراهين المنطقية على بطلان إلهية المسيح وبطلان إلهية الروح القدس، وتفرد الأب وحده بالإلهية والرّبوبية، وتعرض هو وأتباعه لاضطهادٍ شديدٍ

وُحُوكُمْ وَسُجُنَ عِدَّةَ مَرَاتٍ، وَتُوْفِي أٰخِرًا وَهُوَ سَجِيْنٌ بِسَبَبِ سُوءِ ظُرُوْفِ السُّجُنِ وَسُوءِ الْمَعَامَلَةِ فِيْهِ، وَغَيْرِهِمْ كَثِيْرٌ عَلٰى مَرَّةٍ التَّارِيْخِ.

بالطَّبْعِ قَامَتِ الدُّنْيَا وَلَمْ تَقْعُدْ بَعْدَ تِلْكَ الْقَبْلَةِ الَّتِي أَلْقَاهَا إِبْرَامُ، خَاصَّةً بَعْدَ أَنْ تَأَكَّدْنَا مِنْ اعْتِنَاقِهِ الْإِسْلَامَ، وَبَدَأَ كِبَارَ الْأَسَاقِفَةِ فِي نَصْحِهِ وَإِرْشَادِهِ، لَكِنْ ثَمَّةُ مَفَاجَأَةٌ أَكْبَرُ شَغَلْتَنِي عَنْ مَتَابَعَةِ مَشْكَلَتِهِ، حِيْنَ طَلَبْتَ مِنِّي أُخْتِي مَرْيَمَ أَنْ تَحَدِّثَنِي فِي أَمْرِ خَطِيْرٍ.

لمعت عينا القمص بالدموع عند هذا الحد، وخيّل للشباب أنه يبذل مجهودًا مضيئًا لمنعها، وهو يتابع:

- قالت لي في بادئ الأمر إنها ذهبت إلى رحلاتٍ في دير مارميننا ببرج العرب الذي يوجد به قبر الأديب كيرلوس؛ فوجدت الناس يسجدون أمام قبره ويطلبون منه طلباتٍ كثيرةً تتعلق بالشفاء من المرض، أو النجاح في الدراسة، فلماذا يلجئون للقديسين والشفعاء ولا يدعون ربهم بلا أي وساطة؟ ولماذا نعتز لقسيسين هم بشرٌ مثلنا، ولا نتوب إلى الله بشكلٍ مباشرٍ بدلاً من هتك أسرارنا وخصوصياتنا أمام أناسٍ داخلهم الشهوات نفسها، وتراودهم الوسواس نفسها، ومن الممكن أن يستغلوا اعترافات البشر ويسيطروا عليهم مثلما حدث ذلك من قساوسة ورهبان تم شلحهم؟

سألتها: "أنا أستمع للاعتراف، فهل تعتقدان أن أخاك قد يفعل ذلك؟" فبكت وأجابت: "مستحيل أن تفعل؛ لذا لا أريدك أن تكون مثلهم.. وأدعوك إلى الإسلام!"

تحولت الدموع اللامعة في عيني القمص إلى خطين ساخين يسيلان ببطء على خديه وهو يتابع:

- ورغم أنها وثقت بي كأقرب المقربين لها، ورغم طبيعتي الكهنوتية التي كانت تحتم عليّ التحلي بصفاتٍ معينةٍ في التعامل مع الأزمت، لكنني ضربت بكل ذلك عرض الحائط حين علمت بإسلامها.. (بكي بصوتٍ مسموعٍ بعد أن كانت دموعه صامتة، ورفع يديه المرتعشتين أمام وجهه وهو يتابع) سلمتها بيديّ للهلاك حين أخبرت والديّ بما

استأمنتني عليه في لحظة غضبٍ أعمى شعرت فيها أن إسلامها انتصار على كل ما كتبه في تقريره، ودعماً لصديقي الذي باع المسيح بعد كل ما تعلمه وترى عليه.. نسيت تعاليم يسوع بالمحبة حتى تجاه أعدائنا ولاعيننا، ولم أفق إلا وأختي قتيلة وأبي في السجن، وكان هذا اليوم الذي لا يُنسى علامة فارقة في حياتي.

تعرّضت أسرتي بعدها للتهجير من المنطقة التي كان أغلب سكانها من المسلمين بعدما انتفضوا لمقتل أختي، وفقد إبرام كل ممتلكاته وأمواله، وتم طرده من منطقته التي كان أغلب سكانها من المسيحيين، فقررتُ استكشاف الإسلام من جديد.

أعدت قراءة القرآن لأستنبط التشابهات مع الإنجيل، وأعدت قراءة الأناجيل لاستخراج كل ما يقربنا من المسلمين الذين كنت أجزم يومًا بأن مصيرهم جهنم كما يقولون عنا تمامًا، غير أن الفارق بيني وبينهم أن لي أختًا صارت منهم ولم يعد من الممكن استعادتها بعد أن ماتت على ملتهم دون إمهالها الوقت لثراجع نفسها.

زاد نحيب القمص دون أن يُجدي مسح يديه على عينيه في تجفيف دموعه السحاحة، وهو يتابع بصعوبة:

- كلما تذكرت أجمل أيام حياتنا ومعزتها الشديدة في قلبي كنت أسأل نفسي: هل سنلتقي مرةً أخرى في ذلك العالم السماوي المقدس الذي اختلفنا على رؤيته وطريقة الوصول لنعيمه؟ فحاولت مرارًا أن ألعب دور المحامي الذي يفتش في كل القوانين والدساتير السماوية عن البراءة لأخته التي لا يقوى على فراقها وصارت فرصة لقائها الوحيدة في يوم المحاكمة.

تعمقت في الإسلام بمنطقٍ مختلفٍ، ووجدت للشبهات والتناقضات التي ارتأيتها في الإسلام ردودًا واجتهاداتٍ إسلاميةً كان من المستحيل أن أفهمها وأنا أقرؤها بعينٍ متحفزة وعقلٍ متربصٍ، وكتبت بالمثل اجتهادات لكل الشبهات التي ذكرها إبرام وغيره تجاه المسيحية، وذكرت معها

الوصفة السحرية نفسها التي تجعلها سهلة الهضم.. أن يتخلى قارئها عن التحفز والتربص والأحكام المسبقة قبل قراءتها.

قبل أن أحظى بحضور مؤتمرات الحوار بين ممثلي الديانات الإبراهيمية الثلاث، بإشراف الاتحاد الدولي لحوار الثقافات والأديان وتعليم السّلام.

التقيت هناك الحاخام (موريس) وعدداً كبيراً من رجال الدّين اليهودي والإسلامي، ولأول مرّة في حياتي تفهّمت دعوات بعضهم لي بالإسلام من منطلق أنهم يُريدون لي الخير والنّجاة، ولأول مرّة في حياتي كنتُ أتمنى أن تكون النّجاة ليست مقصورة على المسيحيين فقط.

سألت الرّب من بين دموعي هناك وفي أماكن أخرى: لِمَ فرضت علينا هذا الاختبار القاسي؟ لِمَ علينا أن نفارق الأحبة في عالم الفردوس باسم طاعتك التي من المفترض أن تجمعنا؟ وما فائدة الخلود إن لم نكن مع من نحب؟ فكم من أناسٍ تجمعهم أواصر القرابة والصدقة والمواقف والذكريات التي لا تُنسى، غير أنهم ليسوا على دينٍ واحدٍ، فلماذا سيتفرون يوماً بسببك وأنت إله المحبة الأجدر بتجميع كل الأشتات...؟  
قاطع الشّاب بشروءٍ وكأنّه يجيب نفسه:

- ربما كانت الإجابة أنه ترك لبني الإنسان حرية الاختيار ليتفقوا جميعاً على منهجٍ واحدٍ إن أرادوا، فرفضوا ذلك وتمسك كل منهم بمنهجه، ثم لاموا خالقهم لأنهم مُخَيَّرُون، ولو كانوا من الخراف أو البهائم لسألوه: لِمَ فرضت علينا الذبح والقتل من بني الإنسان ليأكلوا لحومنا؟ وعاتبوه على أنهم مُسَيَّرُون؛ فكل المخلوقات تسأل الخالق في ما لا تفهمه، ومن المستحيل أن تفهمه إلا لو كان كل منهم إلهاً مثله.

انتحب القمص أكثر، وبدا وكأنّه يحتضر وهو ينظر للشّاب بانبهارٍ وتأثر قائلاً:

- هو ذاك يا ولدي.. هو ذاك.

- لكنك لم ترد على ما ساقته لك "آيات" من شبهاتٍ وتساوّلاتٍ رغم أنك لديك ما يُقال.

- لأنني كففتُ عن هذا الهراء مُنذُ زمنٍ، حينَ أن اكتشفت أنه حرث في ماء البحر، وعبث لن يصل بأبناء أي دين إلى الحقيقة التي يزعمون أنهم يبحثون عنها؛ فقد صار الأمر بمثابة لعبة تحدّ ممتعة، يتفنن كل طرف في كيد الطرف الآخر رغم أن معظم من يثيرون تلك الموضوعات والتساؤلات في كلا الجانبين غير ملتزمين بدينهم ولم يبحروا فيه، إن هي إلا أسئلة وشبهات جاهزة يأخذونها كما هي ويلقونها في وجه خصومهم غالباً من وراء جُدُر إلكترونية في مواقع ومنتديات شبكة الإنترنت وبرنامج البالتوك، فيتجادلون، ويتهمون، ثم ينتهي الأمر بوصلةٍ من السباب والكراهية وتبادل الأمنيات البشعة، دون أن يغير أي طرف قناعاته.. أما الإيمان الحقيقي فيعيد كل البُعد عن ذلك.. وحينَ يوقر في القلب يضرب في الروح والكيان والنفس فيتغير كل شيء، دون أن يحتويه العقل أو تكفيه الكلمات.

- على الأقل عليك أن تؤدي واجبك.

- واجبي هو أن أمنع العبث وأصحح مفاهيم الإيمان وطرق النقاش لمن يبحثون عن المناقشة؛ فقمّة الإيمان بالمسيح في تلك الحالة هي الصّمت ما دمنا نثق بتضحيت الخالدة من أجل تخلصنا من الخطية، بل نُصلي من أجل الذين يلعنوننا ويسيتون إلينا؛ إذ إن معركة من أجل إثبات الصّواب بين جيشين يقفان على قشرة ثلج ضعيفةٍ معرضة للانهيان، هي الخطيئة في حد ذاتها، ولا تعني سوى أن الطرفين أحقمان، وكلاهما على خطأ.

- ألا ترى أن الصّمت أحياناً يتم تفسيره بأنه ضعفٌ في الحُجة وإفلاسٌ في الرد، وهو ما يدفع الطرف الآخر في التمادي؟

- والرد أحياناً لا يحسم الجدل، ولكنه يجركُ إلى معركةٍ قد لا تنتهي.. وندخل جميعاً حرباً كلاميةً تُوغر القلوب بالحقد والمقت ويكون الالتقاء بالأسلحة أمراً حتمياً في نهاية المطاف.

- صدقني يا بُني الحرب الكلامية الدائرة حول الله لن تصل لشيء ما دام الأمر مجرد مقارعة للحجج واستخدام مقصور على العقل العاجز بطبعه على استيعاب أمور فوق مستوى الفكر.. ومهما سدد أبناء كل



## (22)

قهقهت (دميانه) بضحكةٍ ساخرةٍ، حملت جلجلتها الرنانة شماتة الكون، قبل أن تقول لـ(آيات) الباكية بتشفُّ:

– هل صدقتِ كلماتي الآن، أم لا يزال يساورك الشك في أن رجال الذين لا يهمهم سوى الرغبة في السيادة على البشر، والتَّصَب عليهم باسم تعاليم ومقدسات زائفةٍ، ليفوزوا وحدهم بالجنَّة المزعومة، لكن على الأرض، قبل الموت، حيثُ لا ينتظرنا بعده سوى العدم.

ظَلَّت (آيات) على بكائها الصامت، فواصلت (دميانه):

– وكيف ستمتلئ كروشهم، ويحصلون على أفخر السيارات والبيوت، ومُلاً أرصدتهم في البنوك بالأموال، إن لم يكن هناك إله يخوفون به العبيد، ويستمدون من سلطاته وبطشه سلطاتٍ أقوى من سلطات الرؤساء والملوك والقيصرة والجيوش والحكومات.

اكتفت (آيات) بتحريك رأسها يمينا ويساراً بسرعةٍ أخذت تزداد وتزداد، فعقدت (دميانه) حاجبيها وأمسكتها من كتفيها وهي تسألها:

– لماذا تهزين رأسك هكذا؟

انتفضت (آيات) وصرخت فيها:

– سأكذب كلامك حتَّى ولو بمنطق التعنت والعناد الذي يصدر عن عديمي الحجة.. وكفاني أن أتكى على انتمائي وقناعاتي الدنيوية بحكم الوراثة، واعتبار أن كل ما سمعته منك محض كذب وافتراء وجهل، حتَّى ولو لم يكن لديّ ما يثبت ذلك.. فقط سأظلّ فخورةً بمسيحيتي التي ستدخلني الفردوس، ولو لم أنل ما أصبو إليه في عالم الملكوت ووجدت

دين من كلمات الإهانة والتكفير نحو الآخر ظنًا منهم أنها ضرباتٌ قاضيةٌ ستحسم الجولة وتهدم الدين المخالف، فلن يجدوا إلا تعلقًا زائدًا من الآخرين بدينهم حتَّى وإن لم يجدوا الرد المناسب على من يشنون عليهم الحرب.. فحقيقة الأمر أن الأديان تكتسب قوتها كلما زاد ضعف معتقبيها وشعروا بالاضطهاد، ومهما اشتد وطيس المعركة فلن يصل أي طرف إلى شيء؛ لأن مفتاح الإيمان في القلب وليس العقل.

ثم التقط القمص نفسًا طويلًا ليقول آخر كلماته في تلك الجلسة:

– وبافتراض أن كل الأديان صحيحة ومقبولة من الرب دون اتهام لدينٍ بالتحريف أو الكفر، فسيدخل معظم البشر الجحيم أيضًا؛ لأنهم لم ينفذوا تعاليم الكتب التي آمنوا بها.. فلماذا لا يبحث كل إنسان في دينه ويهتم بتنفيذ تعاليمه واجتناب نواهيه قبل أن ينصب من نفسه إلهًا وحكمًا على أديان ومعتقدات الآخرين؟ هل لديك إجابة؟  
هز الشاب رأسه بالنفي، فقال القمص بأسى:

– أنا أخبرك.. فالمتشددون لا يعبدون الله، ولا يعبدون الذين، بل يعبدون انتماءهم نفسه.

\* \* \*



بعد موتي العدم، فيكفيني أن أعيش على تعاليم فيها الخير والسعادة  
لمتبعيها.

لمعت عينا (دميانة) بالسخرية والتهكم، وسألتها:

– وقتاك الوسيم؟

– سأتزوجه مهما حدث، حتّى وإن ثبت أنه غير مسيحي، مثلي  
في ذلك مثل كثير من المسيحيات اللاتي تزوجن من غير مسيحيين ولم  
يتسبب الدين في تعاستهن كما زعمت.

– أخشى أنه هو الذي قد يُفرط فيك بعد أن وجد في غيرك ما تعففت  
عن منحه إياه بعد أن منحته لغيره قبل أن ترمي في حُضن المسيح.

– ماذا تقصدين؟

– فثشي وراءه جيداً يا عزيزتي، فرما وجدت من تنافسك على الفوز به.

ألقت (دميانة) قنبلتها ثم نهضت من على المصطبة متجهةً إلى  
غرفتها قائلةً وهي تمصص شفيتها:

– فللخطايا رائحةً فواحةً تستشنيها أنوفُ العاشقين، ويشمها من على  
بُعد أصحاب الخبرات ممن أكل عليهم الدهر وشرب مثلي، وللمرة الثانية  
ستدركين أنني كنتُ محقة.

ثم أغلقت الباب خلفها بعنفٍ لتنتفض (آيات) في مكانها وهي  
تحاول أن تطرد من رأسها أي أثر للشك في فتاها الأعلى من مستوى  
الشبهات، لكن عبثاً ما كان لأنثى أن تستثني حبيبها من تساؤلات الريبة  
والشك لا سيما إن كان محط أنظار الآخرين.

أخرجت هاتفها المحمول من حقيبتها، مدفوعةً بكلمات (دميانة)  
التي قادت تصرفاتها، لتفتح موقع فيس بوك، وتبحث عن الحساب  
الشخصي للمدعوة (كريستين)، دون أن تعرف لم اختارت هذا الاسم  
تحديداً حين طرأت في رأسها الوسواس..

وجدت حسابها الذي لم يكن ضمن قائمة أصدقائها، وتصفّحت عند  
دخوله تلك الصور الجديدة المرفوعة مؤخراً، وكم اللاهثين خلفها في  
التعليقات، دون أن تعثر على ما يبرد نيران الشك المتوهجة في أعماقها،

ثم أخذت تتصفح الكلمات التي يكتبها المستخدمون للتعبير عن حالاتهم  
المزاجية، وما يفكرون فيه، وفجأة وقعت عيناها على كلمات ليست  
كالكلمات كتبتها (كريستين) مُنذ أيام قلائل:

صار للخطيئة معك طعامٌ خاصٌ فاق روعة الحلال.. حتّى إنني  
ندمت على كل لحظةٍ لم أذُق فيها طعمك، وكأنّ الذنب الأكبر في حُبك هو  
عدم الوقوع في الذنب..

هل ستحكي في خواطرك حين تجردنا من الملابس واللحم والدّم  
والعظام وصرنا نفساً واحداً أنا شهيقه، وأنت زفيره؟

حين عانقتني وكأن لا أحد غيرك يعرف معنى العناق..

حين قبّلتني وكأن القُبلة لم تُخترع بعد..

أم سترمز لذاتك باسمٍ مستعارٍ في بطلٍ يحكي جزءاً من الحقيقة؛  
لتبقى حقيقتك جزءاً محذوفاً من النص، لا يظهر حتّى في ضمير الغائب؟  
لا يهم ما ستخبر به الآخرين، فقط يعينني كم أنا محظوظة بك يا  
شيطاني الحارس.

انخرست الكلمات في قلب (آيات) كحرايبٍ حبشيةٍ مسنونةٍ على  
أسننتها السم الزعاف، وشعرت وهي تخور أن جسدها لوح زجاجي أصابه  
السرطان فتصدع وامتلاً بخيوط الشّروخ والوهن، ولم يعد ينقصه سوى  
لمسةٍ بسيطةٍ ليتفتت إلى ذراتٍ تذرّوها الرياح كأن لم يكن.

دخلت على حساب فتاها الوسيم وسألت صورته بنظراتها الدامعة  
بعد أن صارت شكوكها في منزلة اليقين: لِمَ فعلت ذلك؟!

ومن جديدٍ فرّت من الواقع المؤلم إلى مملكة الورقة والقلم، بيّدت  
أنها في هذه المرة لم تكن ترسم عالماً جديداً على مقياس أحلامها وأمنياتها  
مثلما اعتادت؛ بل تكتب بحبر من دم أصعب لحظات الألم حين ينزف  
قلب العشاق في لحظة الاستيقاظ على حقيقةٍ غير متوقعة، ولا محتملة  
التصديق..

وبدأت يدها في الكتابة بما تمليه عليها دقائق قلبها:







- قبل أن ألقاك، كنت أعيش أكلينيكيًا.. مجرد عقل موصل بأجهزة الوجود وخرائطيم الحياة. وبعد أن التقيتك أدركت لأول مرة كيف يمكن أن تكون الحياة أجمل من الجنة؛ فقط إذا كنت فيها.. فقد كنت من قبلك أرضًا بورًا هامدة، فلما وطنتها قدماك اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج، وصار أمل لقائك -من حين لحين- وقودًا يدفع آلة زماني نحو غدٍ أفضل أممي روحي به، دون أن أكف عن التفكير في اختلاق الحجج والمبررات لجذب انتباهك، ومشاهدة الاهتمام في عينيك الوضءتين الأعظم من ألف ألف شمس..

كنت كلما هربت منك فررت إليك في موضع آخر من الخيال، أنصب فيه مسرًا لا يحوي سوى ديكور ملامحك التي تغار منها الملائكة، وأجري فيه بروفاتٍ لا نهائية لأحاديث ينطلق فيها لساني بالبلاغة والفصاحة والعمق تارةً، وأستجلب فيها النكات والمواقف الكوميديّة تارةً أخرى، وأفكر كيف أصنع منها حديثًا ممتعًا يسرق قلبك ومشاعرك ويسلمهما لقلبي المفتون بك، فيأتي الواقع بما لا تشتهي السفن، وأقف في حضرتك كالمسحورة، لا أملك سوى التلعثم كطفل يتعلم الكلام.. تحته عينك على أن ينطق؛ أن يبوح، لكن عبثًا تنتحر الكلمات على شفتيه وتلقي بنفسها في عالم النسيان!

مع حروف كلماتها الأخيرة، أمطرت عيناها من جديد لتغرق دموعها دولة الصفحة التي أوت إليها بخواطرها ومشاعرها كأخر ملاذٍ تبقى لها في خضم تلك اللحظات العصبية، فواصلت الكتابة دون أن تجفف الدموع:

- كنت أموت في حضرتك ألف مرة وأنا أدرك أن اللقاء مهما طال سينتهي بوداع، وأحيا في الوقت نفسه لحظات سعيدة سيؤبدها الدهر حتى بعد أن أفنى ويطويني النسيان، قائلةً لنفسي: لو لم تمنحني تلك الحياة البائسة سوى هذا الإنسان لكفى.

حتى حين اهتزت إيماني بالمسيحية التي انتظرت منها أن تدخلني الفردوس وتعوضني عن آلام الدنيا، قلتُ لنفسي: كل هذا لم يعد يهم، فقد أتى إليّ الملكوت هنا على الأرض مع هذا الإنسان الذي لا مثل له؛ فهو أول تعويض من نوعه عن الجنة بما هو أعلى من الجنة! ربما كانت وقاحةً مني أن ألومك على الوقوع في خطيئة واحدة، وأنا التي سقّطت قبلك في كل أنواع الخطايا مع كل صنوف البشر، بعد أن سرت مع الشيطان الخفّ بالخفّ في تلازمٍ لا انفصال فيه، لكنني صرّ بعد العثور عليك إنسانة أخرى لعلها تكون جديرة بذلك النموذج النادر الذي لم تر له مثيلًا في البشر، وقد ارتقى إلى مصافّ الملائكة؛ فإذا به أسفًا صار بعد معرفتي مجرد ساقط، مثلما سقط الكاروب وتنجست مقادسه!

شعرت بأنفها يحرقها بمخاطه اللزج الذي لم تعد قادرةً على شنشنته، فتزكت دفترها وفتحت حقيبتها لتخرج منها مناديلها الورقية وتمسح بها ذلك البلبل المالح الذي يحضر بلا استئذان كلما تفاقمت مشاعر البشر في الحزن أو الفرح على حدّ سواء، ثم تمتت وهي تمسح دموعها وقد حل التحفز في ملامحها بدلًا من الانكسار:

- إن كانت الخطيئة هي قدر كل البشر لا محالة فلنخطئ مع من نحب!

\* \* \*

"لن يكتمل مخطئك.. خذها مني كلمة، ستفشل في النهاية".

قالها طيف (دميانة) الحبيس داخل جسدها إلى طيف الرّجل ذي العينين الزرقاوين المسيطر على بدنهما، فابتسم ساخرًا وتألقت عيناها بشدة وهو يرد عليها بثقةٍ مطلقة:

- جميعهم يسقطون.

دائمًا ما تكون فرصة الإغواء الأولى صعبةً تجاه من يملكون المبادئ الخيرة؛ لذا ترجح كفة الإيمان الراسخ أمام كفة الخطيئة عند أول محك،



- عظيم.. الآن يمكنني القول إن هناك أملاً في أن تحصيلي على سعادتك.  
انتجبت (آيات) وهي تقول بنظراتٍ زائغةٍ وعينين ذابلتين:
- لقد فقدت الثقة بكل شيء.. سأعيشُ وأموت في تعاسةٍ وبؤسٍ يا (دميانة).
- احتوتها (دميانة) في حضنها، وأخذت تمسح على شعرها وهي تقول:
- ما زلتِ صغيرة على هذا الكلام يا عزيزتي؛ فالعمر ممتد أمامك لتحصيلي على ما تريدين.
- سألتها (آيات) وهي لا تزال تريح رأسها على صدرها:
- هل تساعديني على ذلك؟  
أجابتها (دميانة) بخُيِّث:
- كيف يا عزيزتي، فأنا امرأةٌ عجوزٌ كما ترين؟  
رفعت (آيات) رأسها وتسوّلت منها الحنان وهي تقول بتوسل واستضعاف:
- فقط أريد غرفتك ليلةً واحدةً.. سأسرق السعادة ما دامت الدنيا تبخل أن تهاديني إياها.
- وداخل جسد (دميانة) أخذت روحها الحبيسة تصرخ: "لا يا آيات، إياكِ أن تفعلني".
- لكن لسانها الخاضع لإرادة الرجل المرعب قال بترحابٍ شديدٍ:
- على الرحب والسعة يا ابنتي.. فصدق من قال: "وما نيل المطالب بالتمني ولكن تُؤخذ الدنيا غلاباً"، ثم إنني لددّي بالفعل أمور أخرى طالما أردت الانتهاء منها مُنذُ زمن، وهذه أفضل فرصة.
- قالت جملتها الأخيرة بطريقةٍ ذات مغزى، وقد لمعت عينها ببريقٍ مريبٍ لم تلحظه (آيات)، فيما تردد داخل الجسد ضحكات الرجل المجلجلة غير عابئٍ بصرخات طيف (دميانة) التي لم تبتس وهي تواصل النداء بصوتٍ داخلي مُكبَّلٍ بقيود الصمت: "لا يا آيات.. احترسي قبل فوات الأوان".

\* \* \*

لكن عبقرية الدُّنوب والشهوات أنها تتراكم وتتكاثر طوال الوقت، بينما مأساة الإيمان أنه يضعف ويتناقص باستمرار مع ضربات القدرة المؤلمة، واختبارات الحياة التي غالباً ما تكون عسيرة، حتّى تأتي اللحظة التي تخور فيها القدرة على الصمود والاحتمال تدريجيّاً، فتزجج كفة السيئات وتهبط لأسفل شيئاً فشيئاً وهي تُخرج لسانها لكفة الفضيلة التي تخف وترتفع، حتّى يأتي الوقت الذي يجد فيه صاحب الخطيئة نفسه وقد تورط فيها، لا يعرف متى وكيف سقط، بذات الدهشة حين ينظر أحدهم لصورته وهو صغير ويتساءل: متى وكيف كبرت إلى هذا الحد الذي يفصلني عن شكلي القديم؟!

سرحت في كلماته قليلاً، ثم حاولت أن تُكذِّبه قائلةً بتوتر:

- لقد علّمتها الفضيلة، ونأى بها عن السقوط.. لو كانت إرادته قابلةً للشني لخار مُنذُ أول لحظة لقاء، ما رأيته منه -بعيني- يجعلني على يقين بأن لديه إيماناً أعتى من الشهوات.. سيُدجِّض منطقه حيلك الرخيصة وسترى.

- النزوات والخطايا تحدث أصلاً لأنها لا تخضع للمنطق، وإلا ما سقط فيها حكماء ورهبان وشيوخ وقادة هم أبعد ما يكونون عن السقوط بمنطق البشر، ثم إنكِ لم تشاهدي ما شاهدت حين انفرد بتلك الصاروخ الأخرى...

قاطع حديثهما صوت طرقات على باب الحجرة، فبرقت عيناه وقال لها:

- ها هي فتاتك جاءت لتطلب مني المساعدة على أن تبيت الريشة في المكحلة.

ثم انتشر طيفه في جسد (دميانة) ودبَّت فيه الحركة، فنهضت من على السرير لتفتح يدها الباب وتتأمل وجه (آيات) الباهت، المرسوم على وجنتيه خطان من الكحل..

- هل فكرت في كلامي؟

قالتها (دميانة) بصوتٍ أجش، فأجابتها (آيات) بصوتٍ باكِ:

- بل صدقته.

حب امرأة تدعى الزهرة وطلب وصالها، لكنها تمنعت واشترطت عليه أن يطلقها على اسم الله الأعظم الخفي الذي يُعْرَج به إلى السماء، ففعل ذلك إرضاءً لها، وما إن حازت على الاسم حتّى استخدمت قوته في الصعود إلى السماء قبل أن تفي بوعددها لشمهازي، ولكن الله أوقفها بين أفلاك الأجرام السماوية السيارة، وحوّلها إلى الجرم المعروف بكوكب الزهرة؛ لذا أنفق معك أن الشاب والفتاة كليهما خطر على الآخر بالفعل. وابتسم ابتسامة يشوبها الألم، قبل أن يستطرد:

- لكن... ليس بسبب أن أحدهما معلومة ديانتها، والآخر قد ينتمي لديني آخر.. الأمر تكمن خطورته في أنهما قطبان مختلفان، وحتماً ما سينجذبان حتّى الالتصاق. علّق القمص على كلماته:

- ما دمت تتفق معي فلا بد أن نجد للشباب مكاناً آخر يسكن فيه بعيداً عن مبنى الخدّمات التابع للكاثدرائية، رغم أنني أحببته، لكن أفضل أن أتواصل معه بعيداً عن هنا. لوّح (موريس) بسبابته قائلاً:

- حسناً، لكن عليك أنت أيضاً أن تُعيد الفتاة التي عاملتها بفظاظة إلى حضن الكنيسة، وأن تشرح لها ما سألت عنه، قبل أن تفقد ثقافتها بالرّب وتنحرف.. لا تنس أن الشيطان اختبر مسيحه نفسه 40 يوماً ما بين رشوة، وجوع، فما بالناس بضعاف الإيمان وقد غلّق رجل الكنيسة الباب في وجوههم.

ارتسم التوتّر على ملامح (يوسف) وهو يتذكر حين فشل الشيطان في إغواء المسيح، كيف لجأ إلى إلحاق الضرر به عن طريق تلامذته، فدخل في تلميذه (يهوذا الإسخريوطي) وأفشى سره مع رؤساء الكهنة وقواد الجند، واتفق معهم على خطة تسليمه إليهم، حتّى تم الإيقاع بـ(يسوع) في النهاية.

\* \* \*

## (23)

"هل تصدق أنني بحثتُ له -رغم معرفتنا منذُ أيام قليلة- بذلك السرّ الذي حكيتُه لك بعد معرفتنا بسنوات؟".

قالها القمص (يوسف) بدهشةٍ وتعجبٍ للحاخام (موريس)، فابتسم الأخير وقال:

- لهذا الفتى قدرةٌ عجيبةٌ في اختراق دواخل من يعرفهم خلال فترةٍ وجيزةٍ دون استئذان.

ثم سيطر الحزن على ملامحه، وأردف:

- لقد حكيت له أيضاً عن حكايتي مع (دميانة)، وأدق أسرار حياتي التي لم أقصها لمخلوقٍ من قبله. عبث القمص بلحيته وهو يقول:

- وهذا كل ما أحشاه يا (موريس).. فلا نزال نجهل هوية هذا الفتى، ورغم ذلك أرى انجذاب تلك الفتاة إليه بشدة، وهذا وضع لا أرضى به في كاثدرائيتنا.. فأبناء الله سقطوا بفعل النساء كما جاء في سفر التكوين حين عاشروا بنات الناس بعد أن رأوا من حسنهن وجمالهن، فولدن لهم أولاداً عمالقة كان بهم ابتداء الشر على الأرض. رد عليه الحاخام، وقال:

- أزيدك من الشعر بيتاً بشأن ما ورد في تراثنا العبراني حول قصة هبوط ملاكين إلى الأرض أحدهما يدعى عزازيل والآخر شمهازي؛ ليثبتا للخالق تفوق الملائكة على الإنسان في الأخلاق وفي طاعة الله، وأن الإنسان غير جدير بالدور الذي رسمه الله له، لكن شمهازي ما لبث أن وقع في



طرق الشاب الوسيم باب حجرة (دميانة)، فأناه صوت (آيات) من الدّاخل:

- ادخل!

وضع راحته على الباب فوجده مفتوحًا ويتحرك مع دفعة يده للدّاخل بصريٍّ مزعجٍ شتته شذى ذلك العطر الذي عبأ هواء الحجرة وتسلسل لأنف الشاب وملاً نفسه بالانتشاء.

وقع بصره على (آيات) النّائمة على السرير بمفردها وقد توردّ خدها، وتكحّلت عيناها، فيما تركت خصلات شعرها الحريريّة ذات اللون البني الفاتح تسبح بحريّة على وسادتها البيضاء، وتذكر مكالمتها الهاتفية التي استغاثت به فيها، مؤكدة أنها تشعر بألم شديد لا يُحتمل، ولم تجد سواه لتطلب منه المساعدة بعد أن غادرت (دميانة) المكان وقالت إنها ستبيت في الخارج هذه اللّيلة.

"هل يجعل المرض النساء بهذا الجمال الصارخ؟"

كاد أن يلقي سؤاله بصوتٍ مسموعٍ وقد تسارعت دقات قلبه مع رؤية وجهها الملائكي، وعيناها اللتان تناديانه بهيامٍ ووليه، لكنه سرّها في نفسه وحاول أن يبدو مترنّاً وهو يقول:

- ألف سلامة عليك يا حبيبتني.

افتعلت سَعلةً مُصطنعةً حركت خصلات شعرها على وجهها، وحسرت الغطاء عن كتفيها العاريتين بفعل قميص نوم أبيض ذي حمالتين رفيعتين، أبرز مفاستها بشكلٍ مثيرٍ، قبل أن تقول بلهجةٍ مزجت بين النّعومة والضعف:

- آسفة على إزعاجك، لكنني متعبةٌ جدًّا.. لا أستطيع حتّى أن أرفع رأسي من على الوسادة لأتناول الدواء.. (رفعت ذراعها العارية من تحت الغطاء وأشارت للشاب) هل لك أن تساعدني على الجلوس لو سمحت؟ تجمّد في مكانه لحظاتٍ تضاعفت فيها دقات قلبه، فمدّت ذراعها أكثر ليريّ بياض إبطها وجزءاً من صدرها و...

"ألا تريد مساعدتي؟"

قطعت حبل أفكاره وتيار الأسئلة الذي توافد على عقله بصوتٍ أكثر رقةً وضعفًا في آنٍ واحدٍ، فشعر أن كل ما فيه يذهب إليها، إلا قدميه اللتين تكادان أن تنزلقا هما الأخريان رغماً عنه كمن يتعرض لسحبٍ شديدةٍ في بحرٍ لُجّي يغشاه موج، فقرر أن يسبح عكس التيار وقال بصعوبةٍ وهو يُجاهد نفسه:

- سامحيّني يا (آيات)، أريد فعلاً لكنني لا أستطيع.

لمعت عيناها بدموعٍ حقيقيّة، ثم تصنّعت الألم والمعاناة وهي تمد ذراعها لتأخذ الدواء من كومود مجاور لسريها، قبل أن تسقط زجاجة الدواء أرضاً فانثنت تلتقطها ليبدو ظهرها العاري الجذاب وقد انسدلت عليه خصلات شعرها وجعلتها أشبه بامرأةٍ من نساء الجنّة لكنها غطست ولم تطفُ ثانية لتسقط من فوق السرير بشكلٍ مفاجئ وهي تتأوه بصوتٍ في ظاهره الألم وباطنه الإغراء، حتّى أن لكتلة الصخر أن تذوب بفعل نيران الحب والشهوة التي قضت على احتماله البشري الذي مهما كان قويًّا إلا أنه في النّهاية كان له حدود.

اندفع، وهو في حقيقة الأمر مدفوع، ليقطع المسافة التي تفصله عنها، ويمسك بيدها ويعينها على النهوض، فتعلقت في كتفيه وتأرجح صدرها أمامه قبل أن ترقي في حِضنه وتتنظر إليه بعينين يملؤهما الشبق، بينما لسعته أنفاسها بأجمل حمم يمكن أن تصفع وجه العاشق..

مسحت شعره بيدها وأراحت ذقنها على كتفه وهي تضمه أكثر لِحضنها وتقول بكلماتٍ مرتعشةٍ خرجت مع زفير صدرها الحار:

- الآن فقط بدأت أتعافى.

ومن خارج الحجرة كانت (دميانة) تسترق النّظر عبر فتحة الباب الموارب وقد أخذت عيناها تتوهجان، قبل أن تعقد حاجبيها وقد شعرت بشيء ما غير طبيعي يحدث حولها، فاقتربت من سور السّطح وألقت نظرةً للأسفل ضاقت معها عيناها كعينيّ مر وهي تجز على أسنانها بغضبٍ شديدٍ قائلةً بصوتٍ لا يمت لصوتها الحقيقي بصلة:

- سُحقًا.

وداخل الغرفة كان الشَّابُّ الوسيم يلوذ بالصَّمْت، وقد ماتت ذراعاها على كِتْفَيْ فئاته شاعراً لأول مرّة بهذا الطعم المميز من اللذة التي تُشبهه الماء المالح، كلما شرب منها شاربها ازداد عطشاً، وقد استيقظت داخله كل الخواصل النَّائمة التي استيقظت من قبل عندما سمع فوق نفس السُّطح أصوات الشَّبِقِ والمتعة في جنح اللَّيْلِ وتساءل عن سر مصدرها، ويبدو أنه على أعتاب عالمٍ جديدٍ سيولجه لأول مرّة ويسرر أغواره؛ فقط إذا نجح في إسكات صوت الصُّراع المشتعل داخله بين رغبةٍ في ضم من أحبها قلبه بقوةٍ أكبر إلى حد الالتصاق والتطابق، وبين صوت يتردد صداه في أعماقه دون أن يعرف مصدره، ويقول له بإصرارٍ لا يكمل ولا يمل: **توقف..**

أسقطت (آيات) ورقة التوت الأخيرة وتجردت من قميصها قائلة: "هَيْتُ لك"، فضمها أكثر وشعر برغبةٍ عارمةٍ في اقتحامها اقتحاماً يتحولان بعده من اثنين لواحد له نفس المشاعر، والأحلام، والآمال، فتتلامس الحقائق والمعاني والأحاسيس، ويحدث الانسجام من هذا التماس ليسقط معه آخر قناع اللواقع، وتذوب الأنانية، ويصبح لهما مصيرٌ مشتركٌ، وطريقٌ يمشيانه معاً دون أن تفرقهما تفريعاته ومساراته الجانبية.

**لا تزال أمامك الفرصة للتراجع..**

بدأت في فك أزرار قميصه، فطاوعها باستسلام وقد همّت به وهمّ بها..

**هناك خطايا يقع فيها المرء، فلا تعود حياته بعدها إلى ما كانت عليه أبداً..**

خلعت قميصه من على جسده، ثم أمسكت حزامه فأغمض عينيه حتّى لا يتردد أو يتراجع وهو يدفعها بعيداً عنه قائلاً بصوتٍ ضعيفٍ كاد ينهزم أمام شهوته التي تضخمت كوحشٍ قادرٍ على ابتلاع الجميع: **"معاذ الله"**.

اتسعت عينها وهي تسقط أرضاً غير مصدقةٍ نفسها، فيما أخذ ينهج ليعلو صدره ويخفق بسرعة من فرط مقاومة نفسه التي جرفها التيار، واستعادها بمعجزة..

ثم جذب قميصه ووضع على جسده، وحاول مغادرة الغرفة، فركضت نحو الباب لتمنعه، فتسابقا في الخطوات حتّى جذب الباب قبلها وفتحه بسرعة في الوقت الذي تعلق فيه بقميصه من الخلف، وبمجرد انفتاح الباب إذا بهما أمام..

**"أبونا يوسف؟!"**

قالتها (آيات) بهلعٍ وهي تجذب ملاءة السَّرير لتستر بها جسدها العاري، بينما اتسعت عينا القُمص وهو يوزع نظراته بينها وبين الشَّابِّ الذي حاول تزيير أزرار قميصه بارتباكٍ شديدٍ..

**"صدق من قال إن الزّمن أفضل جهاز لكشف الكذب.. وكشف الحقيقة"**.

قالها القُمص بصوتٍ يملؤه القرف والاستهجان، وقد أطلت من عينيه نظرات استهلكت مخزون الإنسانية الاستراتيجية من الاحتقار والاشمئزاز، ثم أردف موجهًا حديثه للشَّابِّ:

- من الآن لا مكان لك معنا أيها المُمثل البارِع.. عُد إلى حيثُ أتيت (حوّل نظره نحو آيات وتابع) وأنتِ أيتها الورعة الكاذبة، ابحْثي عن شرفك أولاً قبل أن تبْحْثي عن الحقيقة خلف الشبهات المتعلقة بدينك. وقبل أن ينبس الشَّابُّ ببنت شفة، دوى في المكان صوت سارينة النجدة، فصرخت فيه (آيات) محذرةً بنبرةٍ يملؤها الارتياح:

- ربا، الشَّرطة علمت أنك هنا.

أزاح الشَّابُّ القُمص، وغادر الغرفة سريعاً ليُلقي نظرةً من فوق السُّطح شاهد من خلالها 3 سيارات شرطة يُغادرها مجموعة من الجنود والضباط المدججين بالسلاح، فضم قبضته بغضبٍ ثم تذكر أنهم يؤدون واجبه، ولا ينبغي له أن يقاتلهم، فاتجه نحو (آيات) التي ارتدت قميص نومها ولكمها في وجهها لكمّةً تفجّرت معها الدماء فصرخت بشدة، بينما اتسعت عينا القُمص وحاول التراجع لكن الشَّابُّ قبض على يده وقال بصرامة:



- لا تخف يا أبانا.. كان ذلك لمصلحتها حتّى تقول للشرطة إني تهجمت عليها وتنفي عن نفسها شبهة إخفائي.. ستشهد معها أنك جئت لتتفقدتها، فوجدتني أهددها للمبيت عندها بالإجبار بدلاً من أن تعرضا نفسيكما للمساءلة من أجل بائس مثلي.

ومن مكانها المختبئة فيه بالسّطح، شاهدت (دميانة) بعيونٍ ترمي بشرر ذلك الفتى وهو يقفز قفزةً من قفزاته المبهرة سيح فيها في الهواء كأنه صقر يحلق بجناحيه المبسوطين فوق أعالي الجبال، ليهبط فوق سطح بعيد، ومنه واصل القفز فوق باقي الأسطح حتّى توارى عن الأنظار تمامًا.

\* \* \*

## (24)

هرول الطّبيب المعالج للعقيد (يحيى) في الطريقة المؤدية إلى غرفته بذلك المستشفى الذي يُعالج فيه، قبل أن يثني مقبض الباب ويندفع إلى الدّاخل فتستقبله ممرضة وامرأة شحبت ملامحها وذبلت عيناها الباكيتان، وهي تشير إلى جسد العقيد العاري الموصل بالأجهزة الطّبية والتنفس الصناعي، قائلة:

- ساعدنا يا دكتور.. زوجي يحتضر.

ثم تابعت الممرضة بسرعةٍ وهي تشير إلى شاشة جهاز رسم القلب الذي أخذ يرسم منحنياتٍ مخيفةً تفيد بتدهور حالة قلب العقيد:

- لقد تعرّض جسده لانتفاضةٍ عنيفةٍ، ثم اضطربت من بعدها نبضات قلبه كما ترى.

عقد الطّبيب حاجبيه وهو يُلقي نظرةً على الشّاشة قبل أن تتحول منحنيات قياس نبض القلب إلى خط مستقيم فصاح في الممرضة:

- إلى جهاز الصدمات الكهربائية.

ناولته الجهاز المكون من صاعقين كهربائيين فأمسك به واتجه نحو صدر العقيد العاري وقد أدرك أن مريضه تعرّض لموتٍ مفاجئٍ للقلب ورجفانٍ بطيني مع ارتفاعٍ في ضغط الدّم فصاح في الممرضة:

- استدعي فريق الطوارئ فوراً.

ثم وضع الصاعقين على صدر العقيد ومنحه صدمةً كهربائيةً وعيناه تتأملان شاشة جهاز رسم القلب التي لا يزال رسم القلب عليها في صورة



خط مستقيم دون أي تحسن، قبل أن يمدّه بصعقةٍ جديدةٍ وهو يُغمغم حتى تسمعه زوجة (يحيى):

- "لو عاد قلبه للحياة فسيفيق من غيبوبته.. ادعي الله كثيراً في تلك اللحظات التي نأمل أن تمضي على خير".

\* \* \*

هام الشاب الوسيم على وجهه في الشوارع والطرق، منكسر النظر، مترنح الخطى، مترجرج الأعطاف، لا يدري إلى أين ستحط رحاله هذه المرة بعد أن تهالكت سفينته، وتمزّق شراعها، وغاب في الأفق أي أثر لبرّ جديد يرسو عليه، فيما بهت نور الشمس في السماء وخفت حرارتها في ساعة العصري.

تحسّس ملابسه فاكتشف ضياع هاتفه المحمول ليفقد معه وسيلة اتصاله الوحيدة بهذا العالم.

ومن جديد، وجد نفسه في منطقة (بحري)، على كورنيش البحر نفسه، الذي يُحاول أن يلامس فيه الحقيقة..

نظر إلى السماء وقد حارت على شفّته الكلمات، لكن قلبه الذي ينبض بحب ربه لم يكن في حاجة إلى الكلام، وقد ارتقى شعوره بخالقه عن المفردات والألفاظ..

"قمر.. قمر.. قمر سيدنا النبي قمر".

اخترقت الكلمات مسامعه بصوتٍ خلابٍ شجي، يضع تنوين الضمتين على حرف الراء الذي يمدّه في النطق بغنة جميلة تتسلل من الأذن إلى القلب، فأرهف السمع ليواصل الصوت جملةً جديدةً مدّ فيها حرف الياء بنفس الغنة الممتعة:

"وجَمييل.. وجَمييل.. وجَمييل سيدنا النبي وجَمييل".

ثم بدأ صوتٌ من حشود البشر يردد خلفه بنفس طريقته في الإنشاد، فيما هبّت على وجه الشاب الوسيم نسمةٌ عليلّةٌ هدّأت من روعه ليتردد صدى الإنشاد في عقله وقلبه، فأغمض عينيه وشعر أنه مرّ

بأجواء مشابهةٍ كهذه من قبل، وفجأةً انتفض وفتح عينيه سريعاً حين رأى بقلبه حين كانت عيناه مغمضتين أطيافاً بيضاء تصعد إلى الملاء الأعلى وكادت روحه تصعد معها، لتتلاحق أنفاسه وينظر حوله بتوتر، فإذا به أمام مسجد (أبو العباس المُرسِي) الذي يُطلق أهل (الإسكندرية) عليه بالخطأ (المُرسِي أبو العباس)، لتبدو قبابه المميّزة شامخةً في الأفق وقد غطتها أنوار الزينة مختلفة الألوان، بينما امتلأت ساحته وكل الشوارع المجاورة له بسيلٍ متدفقٍ من آلاف البشر الذين أتوا من كل فج عميق للاحتفال بالليلة الأخيرة من سبع ليالٍ تُقام احتفالاً بمولد ذلك الشيخ الصوفي؛ أحد كبار العارفين بالله في تاريخ الصوفية، وأحد تلامذة الشيخ (أبي الحسن الشاذلي)، بينما واصل المنشد:

"وَكفُّ المُصطفى كالوردِ نَادي.."

فردد الجمع خلفه: "الله الله".

وعِطرُها يبقى إذا مسّت أيادي

الله الله

وعمّ نوالها كُّل العبادِ

حبيبُ الله يا خير البرايا

ولا ظلّ له بل كان نورا

الله الله

تنال الشمس منه والبدورَ

الله الله

ولم يكن الهدى لولا ظهوره

وكل الكون أنار بنور طه

ثم بدأ حاملو الدفوف الذين يرتدون جلابيب بيضاء في الضرب عليها بإيقاعٍ منتظمٍ مريحٍ للأذان، بينما أخذ الجمع يردد مع المنشد:

مولاي صلّ وسلّم دائماً أبداً

على حبيبك خير الخلق كلهم



يا أكرمَ الخلقِ ما لي من ألودُ بهِ

سِواكَ عِنْدَ خُلُولِ الحادِثِ العَمَمِ

مولاي صَلِّ وَسَلِّمْ دائِماً أبداً

على حَبِيبِكَ خَيْرِ الخلقِ كُلِّهِمِ

ولن يضيق رسول الله جاهك بي.. إذا الكريم تحلّى باسم مُنتَقِمِ

مولاي صَلِّ وَسَلِّمْ دائِماً أبداً

على حَبِيبِكَ خَيْرِ الخلقِ كُلِّهِمِ

ثم تغير إيقاع الدفوف ليزداد بضرباتٍ أقوى وأسرع مع كلمات  
نشيدٍ جديدٍ غناه مُنشدٌ آخر، قائلاً:

النَّبِي صَلِّوا عليه.. صلوات الله عليه

وينال البركات كل من صلى عليه

النَّبِي يجلي الهوى.. النَّبِي حبه دوا

يالا بينا نكونُ سوا.. عند النَّبِي ونصلي عليه

النَّبِي أنواره بانث.. والحجارة لمحمد لانت

والطَّريقة الصَّعبة هانت.. كرامة لرسول الله

أخذ الحاضرون يتمايلون يمينًا ويسارًا باندماجٍ شديدٍ وقد أسكرهم  
الحب الإلهي، والحنين لرسول الله حتّى فقدوا الإحساس والسَّيطرة على  
أجسادهم التي خُفَّ وزنها وبدت في خُفِّ الريشة.. بينما واصل المنشد  
إنشاده في اللّحظة التي عقد فيها الشَّاب حاجبيه، وهو يتطلع إلى ذلك  
المشهد الأخاذ بعين الرهبة والحيرة.. فطالما تساءل عن المسلمين الذين لم  
يلتقي واحدًا منهم، فإذا به الآن أمام مليون منهم!  
"بل مليونين".

اخترقت الجملةُ مسامعه وهو يشعر بيدٍ تربت على كتفه، فانتفض  
كعصفورٍ في يومٍ عاصفٍ وهو يلتفت إلى مصدر الصوت الذي خرج من  
فم ذلك المُسن الغامض، بنفس ملامح وجهه شديد التجاعيد، رغم جسده  
العفويّ منتصب القامة، ووجهه المُشرق الوضوء رغم اسمراره الشَّديد،

وتلك اللحية الكثيفة شديدة النُّعومة التي تحيط وجهه بلونها الأبيض  
الثلجي، وتتدلى حتّى صدره، فيما طالت شعيرات حاجبيه حتّى كادت  
تغطي عينيه الواسعتين المرحتين للنفس لا سيما حينَ يكون مظهرهما  
عسليًّا فاقح اللّون يسرُّ الناظرين، وقد غطت شعر رأسه عمامة ناصعة  
البياض بنفس لون جلبابه خفيف الملمس وكأنّه مصنوعٌ من الشاش،  
وعلى وجهه الابتسامة الغامضة ذاتها التي لا تفارقه.

فغر الشَّاب فاه وهو يتأمله، بينما تساءل في نفسه: هل قلت مليون  
بصوتٍ عالٍ أم اخترق هذا الرّجل فكري؟

"كلما اقتربت من الحقيقة استغنيت عن الحواس التقليدية التي  
يتشارك فيها البَشَر مع الحيوانات؛ حيثُ هناك وسائل أخرى للتواصل  
بين الواصلين".

قالها الرّجل المُسن بنبرةٍ هادئةٍ وقد بدأت ابتسامته تغرّب عن  
وجهه، فاتسعت عينا الشَّاب وتسارعت دقات قلبه، حينَ خُيِّل إليه أن  
عيني الرّجل تتألقان بوهجٍ غريبٍ قبل أن يمد يده نحوه، باسطًا كفه  
وهو يقول بصوتٍ واثقٍ يسحر نفوس السامعين فلا تملك إلا الانصياع له:  
- هيا بنا يا بُنيّ؛ فقد حان دوري في رحلتك.

\* \* \*





- لقد ضاق عليه الحصار وخارت قواه.. سأواجهه قريبًا وأقضي عليه.  
صاح (ريمون) بنفاد صبر:

- لقد سئمت من كلماتك التي لا تحفظ غيرها وترددتها ببرودٍ سخيفٍ  
وكأنك تقف على خشبة مسرح.. (ألقى سيجاره وصرخ وقد نفذ صبره  
تمامًا)، قل لي كلاً ما جديداً يا رجل، حتّى ولو اعترفت بأنك عاجزٌ عن  
هزيمته.

توترت ملامح (نُصحي)، وران على المكان صمتٌ تام بعد أن توقف  
العمال عن عملهم، والتفت جميعهم نحو (ريمون) وذلك الرّجل الذي  
كانوا يشعرون تجاهه بالرهبة لأسبابٍ يجهلونّها.

فقدت ملامح الرّجل سخريتها المميزة، وتوهّجت عيناه الزرقاوان  
بشكلٍ أثار رجفة الجميع حتّى إنهم كدّبوا أعينهم وهم يشاهدون ذلك  
النور المنبعث منها بشكلٍ مخيفٍ، ثم تجمّد بهم الرّمن فجأةً لتثبت  
حركتهم تمامًا وكأنهم تماثيل صلصالية، إلا (ريمون) الذي أخذ يدور حول  
نفسه محملاً فيهم برعب، وحين اكتملت دورته وجد نفسه أمام الرّجل  
الغامض الذي جذب به بيدٍ واحدةٍ من عنقه ورفعته من على الأرض قائلاً  
بلهجةٍ باردةٍ لكنها برودة الثلج الذي يجمد الدّماء والأطراف:

- أنا لا ألومك يا صديقي على وقاحتك.. بل هو خطئي من البداية  
حين لم أخبرك من أكون بقدرٍ كافٍ أن تصمت في حضرتي للأبد.. ثم نفخ  
فيه نفخةً بسيطةً، لكنه شعر بأن أعاصير الأرض بأكملها تضرب جسده  
وتقتلعه من بين يدي الرّجل ليطير للخلف مسافة 20 متراً ويرطم بأحد  
الحوائط الجبسية فيحطمها ويسقط معها بعنفٍ، شاعراً بكل عظمةٍ  
من عظامه تنّ وكأنّها انسحقت في مكابس من فولاذ، وحين همّ برفع  
رأسه وجد الرّجل ذا العينين الزرقاوين أمامه وقد ذابت المسافة الفاصلة  
بينهما في لمح البصر فاحتضن حذاءً به الضّخمين وقال بصعوبةٍ وهو  
يسعل بشدةٍ، وقد تعفر وجهه وشعره وملابسه بلون الجبس الأبيض:  
- أقبل قدميك كفى، لقد علمت من أنت يا سيدي!

## (25)

ضحّ الملهى الليلي بحركة العمال الذين يقومون بإعادة بنائه على  
قدمٍ وساقٍ تحت إشراف مهندس الديكور الشاب الذي قال ل(ريمون)  
بابتسامةٍ واثقة:

- كما ترى يا (ريمون بك)، أوشكنا على الانتهاء خلال وقتٍ قياسي  
كما وعدتك، وبتصميماتٍ وديكوراتٍ أقوى بكثيرٍ من الشكل القديم.  
التقط (ريمون) نفساً من سيجاره وقال "بعتظة":

- كان هذا عملك الذي منحتك عليه الرقم الفلكي الذي طلبت.

بهتت ملامح المهندس، ثم قال بغيظٍ مكتوم:

- أنا في الخدمة دائماً.. عن إذنك.

ثم افتعل حديثاً مصطنعاً مع أحد العمال، بينما نظر (ريمون) للرجل  
ذي العينين الزرقاوين وتوسل إليه بعينيه قائلاً بتوتر:

- كما ترى، لقد اقتربت ساعة الافتتاح.

تأمل الرّجل المكان بنظرةٍ ساخرةٍ، ثم أجاب:

- مبروك.

تبادل (ريمون) النّظر مع مساعده (نُصحي) فأشار له الأخير حتّى  
يكتم غضبه ولا يتسرع في الرد، قبل أن يتولى عنه مهمة الحديث قائلاً  
للرجل:

- نريد أن تكون الفرحة فرحتين يا سيدي كما وعدتنا.. فلا يزال أمر  
هذا الشاب...

قاطعته الرّجل:



وحينَ لاحت منه نظرةٌ لأعلى ارتعدت فرائصه حينَ وجد السقف قد اختلف في ما استطالت هيئة الرّجل لتبلغ عنان السّماء، ومن أعلى تألقت عيناه الزرقاوان ككوكبين يلمعان في السّماء، قبل أن يعود الرّجل لهيئته ويعود السقف فوقه، قبل أن يتسم ساخرًا ويمد يده نحوَ (ريمون) ليساعده على الوقوف قائلاً:

- لا تقل ذلك يا صديقي.. لقد كنتُ أمزح معك فحسب.

ثم طرّح بإصبعيه الإبهام والوسطى فعاد (نصحي) والعمال إلى وعيهم وكأنّهم لم يغيّبوا طرفة عين، قبل أن ينظر المهندس إلى حائط الجبس المتهدم، ويسأل بذهول:

- متى سقط هذا الحائط؟ لقد كنت أنظر إليه للتو وكان سليمًا!

دون أن يجد أحدهم ردًّا يقوله، فيما اكتفى الرّجل ذو العينين الزرقاوين برفع كتفيه ومط شفّيته بشكلٍ ساخرٍ بما معناه: "لا أعرف"، رغم أن نظراته كانت تشي بأنه يعلم الكثير.

\* \* \*

اخترق الرّجل المُسنُّ الأسمر أمواج البّشر الرهيبة في مولد (أبوالعباس المرسي)، ساحبًا في يده الشّاب الوسيم كجدٍ يمسك بيد حفيده في رحلةٍ إلى مكان يشاهده لأول مرّة، مُكتفيًا بالسير والمشاهدة دون أن ينبس ببنت شفة، فيما أخذت عينا الشّاب ترصدان وتحفظان تفاصيل هذا العالم الجديد.

في الشّوارع الجانبية المحيطة بالمسجد كانت هناك الأرجوحات، وعربات "النشان" ببنادق الرش، والألعاب النارية، وبائعو الحلوى المنتشرون في كل مكان، وغيرهم من عمال "أرزقية" خلّعوا عباءة مهنهم ومشاغلم، وارتدوا عباءة المهن والأنشطة المصاحبة للمولد ما بين بيع المسك، والعنبر، والعود، والسواك، والأسطوانات المدمجة المسجل عليها القرآن الكريم، ومطويات أذكار الصّباح والمساء وقِصار السور القرآنية؛ للحصول على مكاسب مالية بطعم النفحات والبركات، وحوّلهم أطفال ونساء بملابس متواضعة، ترتسم البسمة على وجوههم من شدة السّعادة.

اختلفت روائح الطّيب بارود "البُنب" ودخانها، مع عرق الزحام.. تعانقت السّكينة والروحانية بضجيج البّشر وأصواتهم المختلطة، وبدا المشهد برمته لوحةً سرياليةً سمت على التّفاصيل، ولخصت التناقضات والتّفاصيل المتضاربة في خطوطٍ وألوانٍ ممتزجةٍ يستشعرها كل ناظر بشكلٍ يختلف مع باقي الناظرين، ويتفق مع ما ينبض داخله من قناعاتٍ وأفكارٍ ومعتقدات.

شعر الشّاب بيدٍ تجذبه من ساقه، فنظر نحوها فإذا بها الطّفلة التي التقاها من قبل فوق سطح (دميانة) حينَ سألتها عن دُمية تلعب بها مع باقي السائلين الذين سألوه يومها أن يلبي لهم مطالبهم..

ابتسمت له ببراءتها الملائكية، فانشئ نحوها وضمها بذراعه وهو يتذكر كيف قاسمته ساندوتش البرجر حينَ كان جوعانًا على البحر، قبل أن تجد وهي في حِضنه يدًا تمتد نحوها بدُمية جميلة، أجمل من التي كانت تتمناها..

تطلعت لوجه الرّجل المُسن الأسمر الذي ابتسم لها وهو يحمل الدُمية صائحًا فيها بصوتٍ عالٍ حتّى تتضح كلماته في هذا الضجيج:

- اشكري هذا الفتى؛ فهذه الدُمية هدية منه.

هتفت بسعادةٍ وهي تُوزع نظراتها بينهما:

- شكرًا.

ثم أخذت الدُمية وركضت بها حتّى ابتلعها الزحام.

وفي ساحة ميدان المساجد الفسيحة سارت قوافل متساوية في مسيرة لجميع الطرق الصّوفية التي بلغت 77 طريقة، وعلى رأسها الطّريقة (الشاذلية) بصفةٍ خاصةٍ التي تربي عليها الولي صاحب المولد، وانطلقت المسيرة عقب صلاة العصر من مسجد (سيدي علي تماراز) حتّى ميدان مسجد (سيدي أبوالعباس المرسي)، وطافوا حول ساحته مرتدين جلابيب مختلفة الألوان، بينما تميّز الأشخاص الذين كانوا يقودون المسيرة عن الآخرين بارتدائهم الجلابيب البيضاء ذات الشارات الخضراء، والمدون عليها الطّريقة الصّوفية المنتمون إليها.. يتقدمهم أشخاصٌ يقومون بالتبديل



والتذمير مع أداء حركاتٍ لرقصٍ ارتجالي وهم ينشدون ويهللون: "الله أكبر .. الله حي .. لا إله إلا الله .. سيدنا المرسي حبيب الله".

بدأ بعدها تنظيم المؤتمر الصوفي السنوي، بحضور شيخ مشايخ الطرق الصوفية، ومحافظ الإسكندرية، ومشايخ الطرق وأعضاء المجلس الصوفي الأعلى، وممثلين عن وزارة الأوقاف، وقيادات دينية من الأزهر الشريف، والقيادات التنفيذية والمحلية والسياسية.

استمع الشَّابُّ لكلمات الضيوف فعرف أن هذا المسجد والمولد، يخصان شخصاً يُدعى (شهاب الدين أبو العباس أحمد بن حسن بن علي الخزرجي الأنصاري المرسي)، وُلِدَ في مدينة (مرسية) بالأندلس عام 616 هجرًا، الموافق 1219 ميلاديًا، ومن مدينته حصل على لقبه (المرسي)؛ حيث نشأ في بيئةٍ صالحةٍ أعدته للتصوف، وحين أصبح عمره 23 عامًا اعترّم والده الحج إلى بيت الله الحرام فصحبه معه هو وأخاه وأمهما، فركبوا البحر عن طريق (الجزائر)، حتّى إذا كانوا على مقربةٍ من شاطئ (تونس) هبّت ريحٌ عاصفٌ أغرقت المركب بمن فيها، ونجا (أبو العباس المرسي) وأخوه من الغرق فقصدا (تونس) واتخذاها دارًا لهما، وهناك قابل المتصوف الكبير (أبو الحسن الشاذلي) أحد أقطاب التصوف في التاريخ الإسلامي، وانتقل معه إلى مصر، وأصبح لقبه (المرسي) متداولًا في مصر بعد حذف لام التعريف.

عرف أيضًا أن (أبو العباس المرسي) أقام في الإسكندرية ثلاثًا وأربعين سنة ينشر العلم، ويُهذّب النفوس، حتّى صار يُضربُ المثلُ بورعه وتقواه، وتولّى مشيخة الطريقة الشاذلية بعد وفاة (أبي الحسن الشاذلي)، وظلَّ يحمل لواء العلم والتصوف حتّى وفاته، وترتّب على يديه عددٌ كبيرٌ من العلماء أبرزهم (ابن عطاء الله السكندري)، حتّى تُوفي ودُفِنَ بالإسكندرية في مقبرة باب البحر، وبعد وفاته بعشرين عامًا بنى الشيخ (زين الدين بن القطان) كبير تجار الإسكندرية عليه مسجدًا على الميناء الشرقي بـ(الأنفوشي) على الطراز الأندلسي، ثم تعرّض الجامع لسلسلةٍ من التجديدات والتوسعات حتّى أمر الملك (فؤاد) الأول بإنشاء ميدانٍ فسيحٍ

يُطلق عليه ميدان المساجد، على أن يضم مسجدًا كبيرًا لـ(أبي العباس المرسي) ومسجدًا للإمام (البوصيري) والشيخ (ياقوت العرش)، وقام بوضع التصميم الحالي له المهندس المعماري الإيطالي (ماريو روسي)، وتم الانتهاء من بنائه عام 1943م.

وداخل المسجد وخارجه، شاهد الشَّابُّ حلقات الذكر والحضرات بالساحات العلوية والخلفية والمحيطة بساحة الأولياء في سرادقات استقبلت أبناء الطرق الصوفية من جميع محافظات الجمهورية؛ إذ لم تقتصر الاحتفالات بتلك الموالد يومًا على أهل الحي أو أهل المدينة. أعجبه الأعمدة الرخامية والنحاسية للمسجد، وتطلع إلى أعمدته ثمينة الشكل، وشعر بألفةٍ شديدةٍ نحو الزخارف ذات الطراز العربي والأندلسي المميزة للمكان، وأسفل صحن القبة الغربية كان هناك ضريح (أبي العباس) وولديه.

وعلى بُعد 6 أمتار من مسجد وضريح سيدي (أبي العباس المرسي)، جلس كهلاً مُسنٌ وزوجته على حصيرةٍ بسيطةٍ، والاثنان كانا يرتديان زيًا متشابهًا؛ إذ كان الأول يرتدي جلبابًا أخضر ذا عمامةٍ بيضاء حاملاً بين يديه سبحة، بينما كانت ترتدي زوجته جلبابًا أخضر أيضًا ذا طرحة بيضاء، وأخذتا يتناولان "النفحة"، وهي عبارة عن طعام "أرز ولحم" وزعه أحد مريدي المولد ومحبي آل بيت النبوة وكل من سار على نهجهم حتّى ظهرت كراماته مهما حاول إخفاءها حتّى لا يفتن الناس، بينما ارتشفا عصير الدوم المحبب لدى الصوفيين.

وحيث عجز الشَّابُّ عن فهم ارتباطهما بالضريح ومحاولتهما لحمايته، قال له الكهل الأسمر:

- هذا الرجل يعمل مهنة "التوباتية" أو كما يسميها البعض الآخر "تطويف المساجد" مُنذُ 20 عامًا، وتمثل تلك المهنة في تنظيف الأضرحة والتوابيت الخاصة بأولياء الله الصالحين، وتعطيرها، وجمع النفحات من أحباب ومريدي آل البيت، والحفاظ على تابوت الولي بمنع وصول أي مريدٍ إلى داخله. أتى من الأقصر مُنذُ 7 أيام وهو وزوجته لحضور المولد



الرَّجُل الذي كان يتكئ على عكازه على الحال نفسه، وكيف تستجاب دعوة له بالشفاء وهو لم يكن مريضًا من الأصل!

انقلب حال المسجد في ثوانٍ معدودة، وتصايح البعض وهو يتشمم بأنفه رائحة الشَّاب التي عبات أرجاء المكان بشذا لم تعتده الأنوف من قبل:

- أتشمون رائحة سيدنا أبي المرسي.. الرَّجُل يُرسل لنا بركاته ويوصل دعواتنا لربنا الآن، فليطلب كل منكم مسألته.

تكاثف الزحام حول الضَّرِيح المُبْتَل بمطر الأعين الباكية، فيما أخذت الألسن تُردد الدعوات بصوتٍ عالٍ، بينما فاضت الكفوف بأموالٍ كثيرةٍ انهالت على الفقراء والمساكين في مظاهرةٍ من نوعٍ خاص!

ودون أن يشعر بهما أحدٌ، اتسعت ابتسامة الكهل الأسمر وهو يتأمل الشَّاب الوسيم الذي عقد حاجبيه وسأل سؤاله القديم نفسه دون أن يجد له إجابة:

- ما أمر هؤلاء المسلمين؟!

\* \* \*

على كورنيش منطقة (بحري) الذي يضجُّ بالمراكب، سار الشَّاب ماسكًا بيده عُلبَة بلاستيكية بها أكلة "بليلة" ساخنة، بعد أن اشتراها له الكهل الأسمر من محل (الشَّيخ وفيق) ليأكل منها بنهمٍ شديدٍ بعد أن استبد به الجوع مجددًا، دون أن يشغله الاستمتاع عن الاستماع بتركيزٍ شديدٍ لكلام الشَّيخ:

- اسأل أي شخص في (بحري) عن الشَّيخ خضر، وسيخبرك الجميع -من أصغر طفلٍ لأكبر كبير- بأنني شيخ الصيادين، وأقدم من سكن في تلك المنطقة على الإطلاق.. لكنَّ أحدًا منهم لن يُخبرك متى جئت إلى هنا بالضبط؛ فالجميع جاءوا من بعدي.

أشار نحو مراكب "الفلوكة" الرابضة فوق الشَّاطئ، كسباع البحر واستطرد:

وممارسة مهنته بالضَّرِيح، ويقىم طوال فترة المولد في الحديقة المجاورة لدى المسجد، ويعيشان تلك الأيام على نفحات القادرين من الصوفيين الذين يعطونهما الأموال والطَّعام؛ للحفاظ على أمن تابوت سيدي المرسي، ويعمل تلك المهنة في كل محافظات مصر؛ حيثُ يطوف ويخدم توابيت أولياء الله الصَّالحين على مدى العام حبًا فيهم وفي آل البيت. تطلع الشَّاب إلى ملامحه وحاول سبر أغواره وهو يسأله:

- وأنت.. من تكون؟

ابتسم الرَّجُل ابتسامةً أضاءت وجهه وهو يجيب:

- لا يزال أماننا متمسِّحٌ من الوقت، لعلك تجد أسئلةً أكثر أهميةً وإلحاحًا.

ومع آخر حرف من كلماته أشار بعينه إلى مجموعة من البشر البسطاء، أحدهم كان امرأةً كفيفةً، وآخر كان عاجزًا يتكئ على عكاز، فيما حملت سيدهُ أخرى ترتدي عباءة سوداء شأبًا مصابًا بشللٍ في أطرافه الأربعة، وبدت ملامح وجهه غير متزنةٍ لا سيما فمه الذي كان لسانه يبرز خارجه، وآخرون جميعهم كان يضع النذور والهبات عند الضَّرِيح، وهم يطلبون من الوليِّ تفريج كُرْباتهم وتحقيق مطالبهم، فيما وضع البعض الآخر مطوياتٍ لسور قرآنية، وخطابات بها أمانيتهم العاجزة عن التحقق، ليشاهد الشَّاب الوسيم ما يحدث بعينين متسعيتين من الدهشة والانبهار، ليتمتم في تعاطفٍ واستنكارٍ في الوقت نفسه:

- مساكين.. اللهم خذ بأيديهم إليك.

وفجأةً صاحت المرأة الكفيفةُ بعينين متسعيتين زاد بريقهما وقد ارتسمت على وجهها أعتى أمارات الدهول:

- ربااااااااااا! (ثم مدَّت يديها أمام وجهها وتابعت) لقد أبصرت.. أنا أرى... أرى... (انطلقت دموع الفرح السحاحة من عينيها وهي تقول باكية) شيء لله يا يا مُرسي يا أبو العباس!

وفي الوقت نفسه، انطلقت الزغاريد في المسجد حين نزل الشَّاب العاجز من يد أمه المتعبة وقد صار جسده سليمًا معافي، فيما ظلَّ



- علمني الصيد وركوب البحر ما لن يتعلمه المرء في أي مهنةٍ أخرى؛ فالصياد هو أكثر الأشخاص الذين يتعاملون مع الله بشكلٍ مباشرٍ؛ يلقي شبابه فيحدد له الرزاق حصّةً معلومةً من الرزق، يأخذها يدًا بيدي وينصرف في صمت، دون الحاجة للتوقيع في دفاتر الحضور والانصراف، أو الوقوف على أبواب مكاتب المسئولين.. ومع الزمن، صار لي الكثير والكثير من المراكب التي يعمل عليها صيادون تحت إشرافي، اتفقت معهم أن يتم توزيع المكاسب عليهم وعلى الفقراء والمساكين، وأحصل منهم فقط على ما أحتاج من أكلٍ وشربٍ بسيط، ويا للعجب لا يكف المال عن مطاردتي بأضعاف مضاعفةٍ كلما ألقيته على قارعة الطريق لأهل السبيل. في دولة الصيادين تعلمت الكثير من السماء والبحر.. اقتربت من الرّب، واستجلت أسراره، وكان سخياً في علومه التي خصني بها ولا تخضع لما جاء في الكتب ودوّنه الأقدمون في الوثائق والمراجع؛ بل هو من العلم اللدنيّ الضنين الذي يأتي في صورته البكر من مصادره العليا، بالمكاشفة والفتوحات من الله نفسه حين يختار قلوباً من عباده يلقي فيها المعاني والمدلولات التي لا تكفيها العبارات والكلمات، فتصل النفس إلى ما وراء الكلام واللغات، بعد أن تشرق الشمس الإلهية على الروح فيلهم ضياؤها القلب أسراراً وكشوفاتٍ تحمي تعلقه بهذه الدنيا الفانية، وتزيد من احتقاره لكل ما فيها وما عليها، فمن وهبه الله الذوق التقط الإشارة وترجم العبارة، ومن لم يفهم وتوقف به السير فقد نال حظه، إنما يأخذ كل واحد قدر مشربه.

توقف الشّاب عن الأكل، وأعطى علبه البليلة لأحد الشّحاذين، وقد ارتعشت أطرافه فور ذكر سيرة الرّب التي سدّت جوع بطنه بما هو أرقى من الإحساس بالشبع، وتأمّل ملامح عم (خضر) وهو يُحدّث نفسه: "أي مكاشفات يقصدها هذا الشّخ المُسن؟ ولماذا اختصه بها الله وهو بهذه الهيئة المتواضعة؟".

ابتسم (خضر)، وتساءل:

- هل سمعت عن الشّخ الشعرائي يا ولدي؟

- كلا.

تأمل (خضر) البحر الواسع وقد تلاطمت أمواجه، واسودت مياهه الشفافة بانعكاس ظلام الليل عليها، ثم دخل الشاطئ وسار على رماله وخلفه الشّاب الذي تبعه وهو يستمع إلى قوله:

- كان الشّخ الشعرائي أحد كبار الصوفيين الذين بهروا العوام بعلومهم ومعارفهم.. قبل أن يدخل في سلك التّصوف كان عالم زمانه فيما يتعلق بالفقه والفُتيا، أو بلغة اليوم كان بمثابة مفتي الديار الإسلامية.. وفي زمنه نفسه كان هناك وليٌّ صالحٌ يُدعى علي الخوّاص، لكنه كان أمياً، لا يقرأ ولا يكتب، ورغم ذلك اشتهر أمره بين النّاس، وتداولت الألسن كراماته، ومكاشفاته، والعلوم التي تنساب من فمه، فجلس بين يديه العلماء يتلقون منه العلم اللدنيّ غصّاً طريّاً، وكان مجلس هذا الولي في طريق عمل الشّخ الشعرائي الذي كان يُحدّث نفسه في كل مرّة مرّاً بها من أمامه قائلاً: "كيف يتخذ الله من شخصٍ جاهلٍ وليّاً ويمده بالعلم؟". توقف الشّخ عند إحدى مراكب "الفلوكة" ذات المجدّافين، ثم التفت نحو الشّاب واستطرد:

- وذات يوم، كان الشّخ الشعرائي يلاطف زوجته زينب ويلعب معها لعبةً فغلبته، وحددت له عقوبة أن تتركب على ظهره كما يفعل الأبناء مع آبائهم، ثم مرّ بمجلس الشّخ الخوّاص، ومن جديدٍ قال لنفسه: "ما اتخذ الله من وليٍّ جاهلٍ، فأشار الخوّاص لبغلة الشّخ الشعرائي التي يركبها فأطاعته وغيّرت مسارها تجاهه، ثم قال للشّعرائي: "لو اتخذته لعلمه يا جحش زينب".

دفع (خضر) المركب في المياه لتستعد للإقلاع، ثم التفت نحو الشّاب ومدّ يده ليعينه على الركوب ليجلس كلاهما في الفلوكة، ثم أشعل مصباحاً وتابع:

- نزل الشّخ الشعرائي من على بغلته، وقد أدرك أن من يكلمه إمّا هو ولي مكاشفٌ من الله تعالى، فلم يُعاند ويكابر، وطلب منه أن يقبله في زمرة تلاميذه، فقبله الخوّاص بشرطين: أولهما أن يبيع كل الكتب التي

يمتلكها في مكتبته وجعلته يغير بعلمه ويعجب بنفسه، وكان هذا أمرًا شاقًا جدًّا على عالمٍ مثله، فكُتِبَ هي ثروته بما فيها من الهوامش والملاحظات القيمة التي كتبها على مرِّ السنين، غير أنه قد صدق الله النية فتخلص من كل كتبه وباعها بالفعل.

أما الشَّرْطُ الثاني فكان أن ينزل في السوق ويركب بغلته بالعكس، ويضع جرسًا في عنقه ويُنَادِي على نفسه: "عَبْدٌ مَن يَشْتَرِيهِ؟"، وهو شيخ الشيوخ وعالم البلاد، لكنه أيضًا فعل وكسر نفسه وكبره تمامًا، وهنا قبله الخَوَاصُ وخصه بعلم لم يخص بها أحدًا سواه، وأصبح الشعراي من أعلم أهل الأرض حتَّى إن مكانته السَّابِقة، رغم علوها، لم يعد لها مكانٌ مقارنة بما وصل إليه، وقال إنه ما إن باع الكتب وتخلص منها حتَّى وجد كل كلمة ومعلومة منها تنسال في ذهنه، فأدرك أن الله قد قبل منه بدايته، وعوَّضَ الكُتُبَ التي تخلص منها باندماج العلم الذي فيها في عقله، فلا تنظر إلى البَشَر من الخارج وتجعل نظرك القاصر حَكَمًا عليهم.

هذا أول درس عليك أن تتعلمه؛ حتَّى لا تسقط في فخ المظاهر المتلونة كالأكاذيب، وتخفي في باطنها الحقائق الخفية التي لا تراها الأعين وإِذَا تدرَكها القلوب.. ثم بدأ الشَّيخ في التجديف لتبدأ المركب في السير وهي تتأرجح بهما بشدة بفعل الأمواج العالية، دون أن يبالي كلاهما ببرودة الجو، وخلو البحر من المراكب والبَشَر ل يبدو مظلمًا حالك السَّواد مثيرًا للرهبة، دون أن يقطع صوت الموج سوى صوت الشَّيخ (خِضِر) الرخيم:

— موعدا اليوم مع أهل الله وأحبائه؛ ممَّن انشرفت صدورهم لتلقي الأسرار الإلهية الذين هاموا بالله حبًّا، وجردوا ذواتهم من الإخلاص لأي وجود سوى وجوده، فمنحهم ما لم يمنحه لسواهم.. أحذرك يا ولدي؛ فالرحلة شاقة، والمسيرة ستجد حتمًا ما يعترضها من حيرةٍ وغموضٍ، وقد يُبْهِم عليك الأمر؛ لأننا سنحاول النفاذ عبر أفطار السَّمَاوَات والأرض، والخروج من حدود الزَّمَان والمكان؛ لنتحسس المطلق حيثُ لا تسعفنا العبارة، ولا نجد الكلمة التي تعبر عما سنراه ونستشعره.. ففي العالم الذي سنذهب إليه ستتقاصر الحروف عن المعاني، ولن تكفي لغة الكلام

المحدودة لشرح ووصف ما لا يُقال، إمَّا هي أنوار وإشارات وإلهامات، والنَّفْس تذوق من المعاني بقدر ما وهبها الله.. وكما هو معلومٌ فالعبارة لا تكشف الحقيقة، ولو أن اللغة قادرة على إيصال الشَّرْح كاملاً لما بقي على وجه الأرض من كافر.

عقد الشَّاب حاجبٍه وسأله وهو يتأرجح يمينًا ويسارًا مع حركة المركب المنزلة على صفحة الماء بفعل الموج:

— لماذا الأمر بهذه الصعوبة؟

واصل الشَّيخ التجديف وهو يجيب:

— لأن الله من صفاته أنه العزيز، الممتنع، الذي لا يبيح أسرارهِ إلا لمن كان أهلًا لتلك الأسرار، فهي ليست شرعة لكل وارد.. ومُنذُ بدء الخليقة والقافلة مليئةً بالركب، لكنَّ قليلين هم من يصلون في التَّهَيِّة.. ومن توقف به السير فقد أدرك حظه، إمَّا يأخذ كل واحد من الكلمات على قدر مشربه.. جفَّت الأقلام وطويت الصحف.

وأخذ الشَّاطِئ يتباعد ويتباعد في عيني الشَّاب الوسيم حتَّى أصبح البحر وحده هو عالمه الوحيد الذي لا يتجاوزه امتداد البصر في كل الاتجاهات، ولم يعد هناك بصيصٌ للضوء إلا أشعة المصباح الذي أنار ضياؤه وجه الشَّيخ (خِضِر).

\*\*\*



صاح (موريس):

- سنكمل كلامنا في الطريق، هيا اركبا!

رد القمص باقتضابٍ وغضبٍ مكتوم:

- شكرًا يا موريس، معي سيارتي التي أتيت بها، فما كان للشرطة أن  
تصحبني في سيارتهم.

غادر الحاخام التاكسي ونقد سائقه أجرته وهو يقول بإصرار:

- لركب معك إذن.

انطلق التاكسي مغادرًا، بينما نظر القمص باستحقار لـ(آيات)، فقالت  
باكيةً:

- هل تذكر يا أبانا قصة القديسة مريم التي فرّت من أهلها وهي  
ابنة 12 عامًا إلى شواطئ الإسكندرية، لتلامس الأمواج الباردة قدميها وهي  
تحفر على رمل البحر الناعم رسوماتٍ بلا معنى، قبل أن تتعرف إلى  
شاب ذهب مع بلا نقاشٍ إلى منزله لتفقد معه عذريتها وتتعرف لأول  
مرة على متعة الجسد التي كانت شغوفًا باكتشافها وتجربتها في هذه  
السن الصغيرة، حتّى راقها الأمر وظلّت تمارسه 17 عامًا بشكلٍ مجاني بلا  
مقابلٍ رغم احتياجها الشديد للمال، لكن احتياجها للمتعة كان أشد؟

ألم تُخبرنا بأنها حينَ رأت ذات يوم حشودًا من المصريين واللبيين  
تتجه إلى البحر ذاهبين إلى القدس لحضور عيد تمجيد الصليب المقدس،  
وأرادت الركوب معهم لحضور هذه المناسبة العظيمة، اكتشفت أنها لا  
تمتلك المال الكافي، فقدمت جسدها ثمنا لتذهب إلى العيد المقدس بعد  
أن استهوتها التجربة.

وكيف ذهبت إلى هناك وتوجّهت إلى الكنيسة في الفجر مع الجميع  
لتشهد ساعة الصعود المقدس، وفشلت في دخول الكنيسة 4 مرات كانت  
في كل مرة تراحم الناس حتّى تصل إلى بابها الذي كان مفتوحًا أمامها،  
ورغم ذلك كانت تشعر بقوة تضربها وتدفعها إلى الخلف لتحول دون  
دخولها.

زاد انهمار دموعها وهي تنتحب:

## (26)

زفرت (آيات) زفرةً حارّةً وهي تُغادر مديرية الأمن على خيرٍ بعد  
أن انطلت عليهم الخدعة وصدّقوا أن الشاب الوسيم تهجّم عليها، وأنها  
لم تكن تؤويه، بعد أن أسفرت التحريات عن رؤية الشاب وهو يصعد  
للعقار.

نظرت للقمص (يوسف) وهو يُغادر معها بخجل، بعد أن زجّت  
به معها في هذا الموقف الحرج واضطر أن يؤيد كلامها بالداخل، مؤكّدًا  
أنه بالفعل ذهب ليتفقددها ويطمئن عليها وفوجئ بالشاب وهو يعتدي  
عليها بالضرب، ولاحظت أثناء حديثه مع الضابط احمرار وجهه الشديد  
من فرط الضيق والندم؛ لاضطراره أن يكذب لإنهاء الموقف بأقل قدر  
من الخسائر، قبل أن يتلقيا تعليماتٍ صارمةً بالإبلاغ عنه فور رؤيته مرةً  
أخرى.

وقبل أن يُسرع الخطى ويبتعد عنها توقفت سيارة تاكسي ذات لونين  
أسود وأصفر أمامهما، ونادى عليهما الحاخام (موريس) من داخلها:

- حمدًا لله على سلامتيكما.. هيا اركبا!

سأله القمص (يوسف) بدهشة:

- كيف علمت أننا هنا؟

أجابه (موريس):

- أخبرتني (دميانة).

هتفت (آيات) بدهشةٍ شديدة:

- دميانة؟!!



- أتذكر يا أبانا كيف لمست نعمة الرب قلبها حتى بكيت واستغفرت، وبدأت تضرب على صدرها، حتى رأيت فوقها أيقونة العذراء مريم، فشهقت من أعماق قلبها وصلت إليها قائلة: "أيتها العذراء مريم.. إنني مثيرة للكراهية والاشمئزاز أمام نقائك، لكنني أعلم أيضاً أن الرب يدعو الخطاة إلى التوبة.. ساعديني أيتها النقية.. اجعليني أدخل الكنيسة.. اسمحي لي أن أنظر للخشب الذي صُلب عليه الرب بجسده وسال دمه عليه من أجل أن يتوب الخطاة ومن أجلي أنا أيضاً.. كوني شاهدي أمام ابنك بأنني لن أدنس جسدي مجدداً بنجاسة الزنا.. وفي اللحظة التي سأرى فيها صليب ابنك سأنتحلي عن العالم وأذهب إلى حيث تقوديني" لتنجح بالفعل بعدها في دخول الكنيسة، ثم ترحل إلى الأردن وتزهد في كل متع الدنيا، وتتعبد إلى الله في الصحراء بلا أكل أو شرب حتى أصبحت قديسةً عجوزاً، عثر عليها بالصدفة الراهب زوسيموس، وحين ماتت وحيدةً في الصحراء دفن جثمانها أسدً بدلاً من أن يأكلها.

لقد قال البابا شنودة يا أبانا إنه لا عقوبة للزنا في المسيحية، وإن بعض القديسين قد زنوا قبل أن يغمر الإيمان قلوبهم ويقبلهم الله، فهل تريدني أن أكون أفضل من القديسين؟

لمعت الدموع في عيني القمص، قبل أن يكمل الحاخام:

- أنت قمص يا صديقي ولست إنساناً عادياً.. انظر إلى عينيها الدامعتين مثلما نظرت إلى خطيتها!  
نظرت (آيات) للأرض خجلاً وواصلت نحيبها، فربت (يوسف) على كتفها قائلاً:

- سأصلي من أجلك يا ابنتي.. هيا اركبي معنا!  
وركب ثلاثتهم سيارة القمص وانطلقت بهم من أمام مبنى مديرية الأمن.

\* \* \*

تأملت (دميانة) سقف حجرتها وهي تنام على ظهرها طريحة الفراش، عديمة الحركة، لا تُصدق أنها استطاعت أخيراً أن تبعث بمعاناتها لأقرب إنسان لقلبها بعد أن ظنت أن روحها المكبلت ستظل أسيرة جسدها

الذي فقدت السيطرة عليه في أصعب محنة مرت بها في حياتها على الإطلاق.

لا يزال عقلها يسترجع ما حدث في الساعات الماضية حين قفز الشاب الوسيم قفزته الهائلة التي أثارت دهشتها، فانطلق خلفه أثر ذلك الرجل ذي العينين الزرقاوين الذي كان يحتل جسدها، دون أن يهتم بتكبيها بتلك القيود الروحانية بنفس القدر والكيفية المعتادة، وقد شغله تقفي أثر الشاب ومعرفة وجهته الجديدة، تاركاً لها فرصة ذهبية لن تتكرر.

حاولت أن تتحرك وتخرج من مخبئها فنجحت، لكن بصعوبة شديدة، وقد نسيت كيف تحرك جسدها أو تسيطر عليه بعد أيام طويلة من الأسر.

زحفت على أرضية السطح القذرة، وهمت بمغادرة السطح كحيّة عجوز تهرب من صيادٍ عتيٍّ، لكنها وجدت أن الأمر أعسر من أن تُحاول، فأتجهت إلى غرفتها بصعوبة بالغة لعلها تصعد إلى سريها وتلتقط أنفاسها.

فتحت الباب الموارب بيدها وواصلت الزحف نحو السري، فإذا بهاتف الشاب المحمول ملقى أمامها على الأرض بعد أن سقط منه حين راودته (آيات) عن نفسه.

التقطت الهاتف بيدٍ مرتعشة وأصابع متصلبة، ولمست شاشته التي تعمل باللمس، لتدخل على قائمة أسماء جهات الاتصال فلم تجد سوى (آيات)، و(كريستين)، و(موريس).. التمعت عينها بالدموع وهي تتأمل الاسم الأخير قبل أن تضغط عليه، لتظهر على الشاشة جملة (جاري الاتصال)، قبل أن تعقبها عبارة (لم يتم الرد).

غزت خيبة الأمل عينيها الحزبتين وهي تتأمل الشاشة، ثم ضغطت على خيار(إرسال رسالة) لتلامس أصابعها بصعوبة الحروف التي تراصت أمامها، وتكتب بمعاناةٍ ضمنيةٍ رسالةً مقتضبةً جاء فيها: "قبضوا على آيات والقمص يوسف واختفى الشاب بشكل مفاجئ.. أنقذ حبيبتيك دميانة يا موريس!"





ثم انسال الهاتف من يدها ليسقط أرضًا، قبل أن تمسك بأحد قوائم السرير وتتكئ عليها وهي تتأوه وتصرخ فقط من أجل أن تبسط عودها المحني لتسقط بعدها على السرير عاجزًا عن الحركة بعد أن نفذ رصيدها من المجهود والطاقة، دون أن تستطيع أن تجيب على اتصالات المحمول المتكررة التي تواتت بعد إرسال الرسالة بدقائق، ولم تتوقف من لحظتها.

فجأة انفتح الباب لتقول (آيات) بلوعة:

- دميانة!

وخلفها دخل (موريس) الذي عاون (آيات) على الإمساك بحُب عمره ومساعدتها على الجلوس نصف جلسة، بينما شخص بصر (دميانة) نحو الصليب المتدلي من رقبة القمص (يوسف) الذي قال لها بصرامة: - إذن فأنت من حشى رأس هذه المسكينة بالشك، وتكذبين رسالة المسيح.

أدركت أن (آيات) قد قصّت عليه الأمر برتمته هو و(موريس)، وأسعدتها ذلك بقدر ما أثار خجلها ورغبتها في أن تشرح لهم ما لم يُذكر بعد، لكنها عجزت عن ذلك وأعدمت كل الحيل، فانسالت من عينيها دموعٌ ساخنة، ومدت يدها بصعوبة نحو صليبه المعلق فتخشيت ذراعها فجأة، وتقوس ظهرها للأعلى حتّى كاد بطنها يلامس سقف الغرفة، فيما انقلبت عيناها اللتان لم يظهر منهما سوى البياض في الوقت الذي عضت فيه على لسانها وهي تُطبق أسنانها بشدةٍ ويسيل الزبد الأبيض من فمها.

اقترب منها القمص عاقداً حاجبيه وقد أدرك أن للأمر بُعداً روحانيًا، لا سيما حين غمغمت (آيات) بصوتٍ مرتبك:

- لم يصل الأمر لهذا الحد من قبل، لكنها أصبحت غريبة الأطوار في الآونة الأخيرة بشكلٍ غير مفهوم يا أبانا.

ماتت يد (دميانة) على كتف (موريس) الذي عقد حاجبيه وهو يصيحُ فيها بتوتر:

- اطلبي الشفاء من الرب بثقةٍ ويقين!

ثم شعرت بيد القمص تمسك يدها ليقول بدوره:

- إيمانك هو الذي سيخلصك مثلما تخلّصت المرأة الممزوقة من آلامها حين صدقت أنها ستشفى، وقال لها المسيح إيمانك خلّصك، فأذهبي بسلام، وتعاي من علتك.

ومن أعماقها صرخت (دميانة):

- يا رب.

بينما تابع القمص:

- كل رؤية، كل سحر، كل عمل شيطاني يبطل.. تقطّع كل الرباطات، تبطل كل المحاربات، هذا الجسد يتحرر باسم الرب.

شعر القمص بالألم حين اعتصرت قبضة (دميانة) كفه بقوة تفوق بكثير عظام جسدها الهشة، بينما قبل (موريس) يدها الأخرى وهو يقول بحب وحنان الكون:

- سامحيني يا حبيبي.. لا تتخلي عني بعد أن عثرت عليك أخيرًا.. أقسم إنني لن أفارقك أبدًا.

ثم تمتم بينه وبين نفسه:

- يا رب اشفها ببركتك.

ومع كل حرفٍ يُردده كان داخله يقينٌ تام بأن في دعاء الغيب حُب الصادقين، وأجمل رابط يجمعهم في الخفاء، دون أن يلحظ أن (آيات) تراقب نظراته العاشقة لحبيته بعد كل هذا العمر، وبدلاً من أن تدعو لصديقتها الوحيدة بالشفاء، كانت تدعو الله أن يرزقها بنظرة عشقٍ مشابهة لنظرة (موريس) من فتاها الوسيم!

ومن جانبها اتسعت عينا (دميانة) وهي ترى هيئةً مشابهةً في ملابسها لما كان يرتديه ذلك الرجل الصالح الذي رآته في السماء حين انفصلت بروحها الأثرية عن جسدها من قبل، بفارق أن ملامح وجهه كانت مختلفة تماماً هذه المرة.. فقد كانت بشرته داكنة، وعيناها سمرائين، ولديه لحيّة وشعره مجعد وغير طويل!



حمدًا لله.. رُذِّتِ إليَّ روحي يا أعلى من رُوحِي.. كنت أخشى أن  
أموت قبل أن ألقاك.. حينها كنت سأموت...

قاطعها مبتسمًا:

- ناقصة عُمر؟

- بل ناقصة حُب.

مسح شعرها وقال بحنانٍ يفوق ألف قلبٍ شاب:

- سَعَوْضُ كل ما فات يا حبيبي.

- بعد كل هذه السنين؟

- لقد مرَّت السَّنون في عمر البَشَر فحسب، لكن زماننا توقف مُنذُ  
أن افترقنا في شبابنا.. وها نحن استعدناهِ مجدداً لنبدأ من عند نفس  
الشَّبَاب كل ما فات.. نقطة ومن أول الحُب.

\* \* \*

جلس الشَّاب الوسيم برفقة الشَّيخ (خَضْر) على جزيرةٍ نائيةٍ في عرض  
البحر، يُحيطها الظُّلام إلا من ضوء المصباح اليدوي الخافت، ويُعْلِفُهُما  
الصُّمْت الذي لم يخرق حرمة سوى صوت الموج الذي بدا وكأنه تراتيل  
تتغنى بعظمة الخالق، ومناجاة عظيمة لن يُدركها إلا من خشع قلبه،  
فيما ركنت المركب الصَّغيرة في فجوة صخريةٍ كَبَلت حركته، وتركت له  
فقط حرية التمايل.

تأمل الشَّاب الوسيم ملامح الـ(خَضْر) وقد فاقت وضاءة وجهه  
السمح نور المصباح الذي بدا وكأنه هو الذي يستمد منه الضياء، وهو  
يقول متأملاً نجمات السماء:

- ليس إنساناً من لم يتوقف يوماً ليسأل نفسه: من أين جئت؟ وإلى  
أين سأذهب؟

أكان لنا وجود قبل الميلاد؟

وماذا كنت قبل أن أُولد؟

وما حكمة وجودي؟

اقترَب منها دون أن يشعر بوجوده أحد، وقال متبسمًا:

- لا تخافي يا (دميانة)؛ إنه أنا نصير الضَّعفاء والمقهورين.

هتفت فيه روحها:

- لكن ملامحك وشكلك...

قاطعها:

- هذا هو شكلي الحقيقي.. فقد وُلدت في بيت لحم، حيثُ بشرتنا  
المُشْرِبة من طين الأرض وسمار الجلد المُعْرَض لأشعة الشَّمس.. ما كنتُ  
يومًا من سكان روما وباقي دول أوروبا من ذوي البَشرة البيضاء والعيون  
الملونة، مثلما خدعوكم بصورٍ زائفةٍ في لوحاتٍ تحمل بصمات رساميهم  
الذين زيفوا شكلي وسرقوا مني هويتي مثلما سرقوا منكم المسيحية  
الحقيقية، وكأنهم أرادوا احتكار الحضارة، والفنون، والدين لتسير كل  
الأُمور حسب أهوائهم، ويصبح ما دون سواهم مجرد أشباه بشر درجة  
ثانية تابعين لهم.. لكن هذا لا ينفي أن اللون الأبيض هو لوني المفضل  
حينَ يكون هو لون القلوب الطاهرة، العامرة بالإيمان.

- لقد آمنت بك حق الإيمان.

- لو كان ذلك حقًا لأخذتك معي إلى عالم الملكوت، لكنك لا تزالين  
بحاجةٍ لإعادة النَّظر في كثير من الأمور.. فأليكِ فرصةً ثانيةً قبل فوات  
الأوان واحتفظي بكل ما مررت به سرًّا؛ حتَّى لا تفسدي على الآخرين  
اختباراتهم.. فلو علم الجميع حقيقتي فما جدوى الاختبار؟

ثم مدَّ يده إليها، وما إن لامسته حتَّى شعرت بذاتها تتحرر، وكأن  
حول عنقها وجسدها آلاف الأغلال والأصفاد التي انفكت وسقطت في  
لحظةٍ واحدةٍ.

"موريس" ..

خرجت الكلمة بغتةً من (دميانة) بنبرةٍ مرتعشةٍ يملؤها الأُم من  
فرط الإنهاك والاحتلال الروحي الذي طال في بدنها، وهي تسترد لسانها  
لأول مرَّة حتَّى تنطق به ما تمنَّت أن تقوله حينَ رأت حبيبها أول مرَّة  
بعد كل هذه السنين:



وهل أنا وحدي في هذه الغربة الوجودية؟

أم أن هناك من يراني ويرعاني ويعتني بأمرى؟

وما سر القدر المكتوب فيه مصيرنا؟ وما دورنا لو كانت مصائرنا

محسومة من قبل؟

وماذا بعد الموت؟

أينتهي كل شيء إلى تراب؟

أليكون الأمر عبثًا وهزلًا؟

أم إنها قصة سوف تتعدد فصولًا في الآخرة التي وعد بها الأنبياء

والمرسلون؟

ومن الذي سيكون على صواب حقًا في خضم كل هذا الجدل

الصاحب بين البشر في الأديان والعقائد؟

هل سنرى الله هناك؟ وهل يمكن أن نراه في الدنيا؟ وما الحُجُب

التي تحول بيننا وبين الحقائق؟ وما السبيل إلى رفعها ونحن على قيد

الحياة؟ وماذا يرى الرائي بعد رفع الحجاب؟

وغيرها من أسئلة كثيرة ليس إنسانًا من لم يُحاول حل ألغازها

وكشف أسرارها، ليستمتع بكل أشواقه إلى من يقول عندي جواب..

فالمسألة ليست ترفًا فلسفيًا، وإنما هي كل شيء، وسوف يتوقف عليها

كل شيء.

ثم نظر إلى عيني الشاب، واستطرد:

— أغلب بني (آدم) شغلوا أنفسهم باللحمة، والنكاح، ولذة الساعة عن

هذه الأسئلة العظيمة، فما أبعدهم عن الإنسانية والهدف الذي خُلقوا

من أجله، حتَّى استحقوا أن يقودهم الساسة وأرباب رأس المال بالجوع،

ويدفعوهم بالحقد، ويحركوهم بالأهواء، قطعانًا من البهائم لا ترى إلا على

مدى شبر أمامها.

وما أبعد هذه الصورة المشوهة عن الصورة الأخرى للفطرة النقية

التي عبَّر عنها ذلك البدوي البسيط الذي وقف يتلفت حوله في الصحراء،

ينقل بصره بين السَّمَاوَات والأرض، ويُحدِّث نفسه وهو يتتبع آثار بعيره

على الرمل: "إن البعرة تدل على البعير، والأثر يدل على المسير، أفلا

تدل سماوات ذات أبراج، وأرض ذات فجاج، وبحار ذات أمواج، على مبدع

لطيف خبير؟"، فأدركت فطرته الشفافة الحكمة والنظام من نظرة واحدة،

وأنكرت العبث، وأمنت بالبعث، وهَدَّت صاحبها إلى الحقيقة، واليوم، وفي

ظلِّ هذا الانفتاح الكوني وتلك الكشوفات التي تؤكد يومًا بعد يوم أن

ثمة إلهًا واحدًا مبدعًا لهذا الكون، تراجعت فطرة البشر بعد أن سوَّدتها

المداخن، وأصمها ضجيج الملكن، وألهبها عواء الغرائز، فاستغرقتها المطلب

العاجل للشهوات والأمانى، ونسيت أصل الأصول الكامن خلف كل شيء؛

فكانت أصدق مثال على قول الخالق: ﴿إِنَّ هَؤُلاءِ يُجِبُّونَ العاجلةَ

ويَدْرُونَ وراءَهُم يومًا ثقیلاً﴾.

زادت كلماته من شغف الشاب وأشواقه لحقيقة كلما أمسك بها

انسالت من بين يديه كما ينساب الماء من الأصابع الممسكة بها، فوجد

نفسه يسأل:

— وهل لديك الإجابة سيدي؟

— لعلها معي بعد أن استقصيت، وفتشت في ثنايا نفسي، ورجعت

إلى السَّادة العارفين، واستعنت بالهلمات الأقطاب الكبار الكُمَّل من كبار

الصوفيين الذين سلكوا طريقًا روحيًا متفردًا، وحلَّقوا بالتجربة الدنيوية

في سماوات الحضرة الإلهية بعد أن تروحت حواسهم وفارقت الحس

والمنطق.

خفقت دقات قلب الشاب، وسرت الفُشعريرة في أوصاله وهو يهمس

بلا وعي:

— ربه! أيمكن للبشر أن يفعلوا ذلك؟!!

— نعم يا ولدي؛ فالقلوب كالمرايا، تنعكس عليها التجليات الإلهية في

الكون، والطرائق إلى الله كثيرة ومتعددة، على عدد أنفاس الخلائق؛ لذا

خلقنا الله شعوبًا وقبائل لنسلِّكَ إليه مسالكَ مختلفةً، ونكتشفَ في كل

مسلك مظهرًا مختلفًا وجديدًا لهذا الإله الذي عجزت الكلمات والأوصاف



عن أن تُحيط بجلاله وجماله، لكنَّ له جوهرًا واحدًا وذاتًا واحدةً خفيةً لا تتغير أو تتعدد، إذا وصلنا إليها واتفقنا حولها فسنعود للوحدة والاتحاد تحت ظلّه وفي كنفه، لكن أُنّي للعقول أن تفهم، وأُنّي للقلوب أن تؤمن.

- وما وجه الاختلاف بين الصوفيين المسلمين والعبدين لله المتقربين له في باقي الأديان؟

- التّصوف هو حركةٌ روحيةٌ لارتقاء الإنسان عن جسده الطّيني الغارق في الوحل، وقد ظهرت في كل الحضارات الإنسانية كافةً.. لدى الهنود القدماء كانت مرادفةً لحالة التّرقّي الروحي المعروفة باسم ال(نرفانا) وهي حالة الانطفاء الكامل التي يصل إليها الإنسان بعد فترةٍ طويلةٍ من التأمّل العميق؛ فلا يشعر بالموثّرات الخارجية المحيطة به على الإطلاق حتّى يصبح منفصلاً تمامًا بذهنه وجسده عن العالم الخارجي، والهدف من ذلك هو شحذ طاقات الروح من أجل تحقيق النشوة والسّعادة القصوى والقناعة وقتل الشهوات، وتجلت في التراث المصري القديم باسم (الكهانة)، وعرفها اليهود القدامى باسم (القبّالي)، وفي الفلسفة اليونانية معروفة باسم (الغنوص)، وفي المسيحية اسمها (الرهبة)، والمسلمون عرفوها باسم التّصوف، وكلها تسميات تدل على جوهرٍ واحدٍ، وهو محاولة الإنسان في الوصول من الأرض للسماء، من الفاني إلى الباقي، من الوهم إلى الحقيقة، من المحدود إلى اللانهائي، من الخلق إلى الخالق، لكن الفارق أن الدروب تختلف باختلاف الشرائع والمعتقدات؛ فلكل أمة قدم نبي تسير على دربه، والصوفيون ينهلون النور من الميراث النوراني المُحمدي الذي تركه لنا محمد بن عبدالله (صلى الله عليه وسلم).

صمت الشّاب، فقال له الشّيح متبسّمًا:

- قل: عليه الصّلاة والسّلام!

سرح الشّاب قليلاً، ثم شعر بأنه لا يحمل أية مشاعر سلبية تجاه أي عقيدة أو ملة.. كما أن تلك الأنوار المُشعّة من كلمات الشّيح حتّى ملأت نفسه بالسّكينة والطّمأنينة جعلته يرتاح للمسلمين ولا يجد غضاضةً في الصّلاة على نبيهم قائلاً:

- عليه الصّلاة والسّلام.  
دَسّ ال(خِضْر) يده داخل جلبابه ليمسك بسلسلة مُعلّقة حول عنقه ويخلعها قائلاً للشّاب:

- لعلّك تسأل نفسك الآن لم اخترت هذا المكان تحديداً لأبدأ منه حديثنا؛ فقد كان في الإمكان أن يُقال في جهة أخرى.

ابتسم الشّاب مؤيداً، دون أن ينبهر وكأنه اعتاد أن يقرأ ال(خِضْر) ما في نفسه، قبل أن يكشف الأخير عن صندوقٍ معدني صغيرٍ يتدلى من السلسلة، عرضه أمام الشّاب لثوانٍ، ثم فتحه فلاحته داخله مطوية صغيرة بسطها ودسّها في يد الفتى قائلاً:

- اقرأ هذه!

تأمل الشّاب الكلمات الباهتة في الورقة المهترئة التي يبدو أنها مكتوبةٌ مُنذُ زمنٍ طويلٍ، ثم بدأ القراءة بصوتٍ خفيضٍ..

"كنتُ خائفاً فأمنّاك.. وشريداً فأوينّاك.. ومطارداً مكشوقاً أمره للجميع فستزناك.. فإذا ما جاءك ابن النور يوماً في نهاية الرحلة فهذا عهدنا إليك، أن تأمنه، وتؤويه، وتمنحه مما منحناك".

لم ترو الكلمات ظمأه، فقرأها بعينيه مرّة ثانية وثالثة، وفي كل مرّة يشعر أنه يضع يده على شيء هلامي، يلمسه لكنه لا يستطيع الإمساك به، فنظر للشّيح نظرةً مليئةً بالزيغ والتشتت، قبل أن يقول له ال(خِضْر):

- تلقيت هذا العهد هنا على تلك الجزيرة مُنذُ ربح من الزّمن، ومن يومها وأنا في انتظارك بعد أن جهّزت لك مركباً مخصوصةً أعدتها لهذا المشهد الذي سيجمعي بابن النور.

عقد الشّاب حاجبيه وتساءل:

- ابن النور؟!

- نعم يا ولدي.. ربما كان نور الإيمان، أو نور الحقيقة، أو نور التكوين.. لكن المؤكّد أنك أنت المُنتظر الذي علمت أنه قادم لا محالة، دون أن أعرف متى وكيف أعثر عليه، وخُبرّت بأنه سيلاقيني حين تأتي السّاعة الموعودة، وها قد أتت.



(27)

### مذكرات (آيات) - 2

عدتُ من جديدٍ إلى القلم والأوراق، لكن شتان بين ما سطرته بالأمس وما أكتبه بدموعي اليوم..

ها أنا أوصل البوح على نغمات ترنيمه "يَغْفِرُ ذُنُوبِي" بعد أن تعلمت على يدك أن لكل ما نفقده ثمناً نكسب به شيئاً بديلاً، الخبرة مقابل الدُموع والدم، أحضان الأصدقاء الجدد بعد فقد الأعبة، حتّى الخسارة، هي فن في حدّ ذاته لا يكتشفه سوى قلةٍ من الموهوبين يحوّلون به الوجع، والحزن، والألم، لإبداعاتٍ خالدةٍ من مقطوعاتٍ موسيقيةٍ، ولوحاتٍ زيتيةٍ، وأشعارٍ مرثاةٍ، ومذكراتٍ تحمل رائحة الفراق ولبل الدُموع.

لكنك لم تُعلّمني كيف أعوض غيابك ليظلّ استثناءً للقاعدة، وخسارة لا تُعوّض أو تُحتمل؛ فحبك مثل الموت لا يأتي في العُمُر سوى مرّة واحدة.

.....

تسجيلااتك التي تركتها على هاتفك المحمول، وصورتك المزيّنة لخلفيته هي آخر ما تبقي منك في ظلّ اختفائك الغامض الذي لم تعد لي دعوةً أرفعها للسماء سوى أن ينتهي هذا الكابوس في اللحظة نفسها التي أدعو الله فيها لأجلك أمامي قبل أن تغادر الحروف شفّتي، والدُموع عيني، مثلما أسمع في قصص الدعوات المستجابة لصالحى البشر والقديسين.

لماذا يا رب لا تستجب سوى للصالحين؟ كرمك ومعجزتك الحقيقية أن تستجب لمن هم مثلي؛ فالصالحون لديهم من الإيمان ما يُصبر قلوبهم إذا ما تأخرت الإجابة، ومن اليقين فيك ما يُغني عن سرعة الاستجابة

لاذ الفتى بالصمت، وقد عصفت به التساؤلات والحيرة، فتابع الشيخ:

- ما زلت بعيداً يا ولدي لتدرك مقصدي كاملاً؛ فمن يسير في بحر الحقائق بدون مصباح الشريعة فاتته الإشارة، وأبهمت عليه العبارة.. ومن آمن بالله حق إيمانه التقط الإشارة، وترجم العبارة، فثمة حقائق لا تدرکها الأسماع والأبصار وإنما تُعاینها القلوب وحدها.

استطعم الفتى كلام ال(خضر)، حتّى إنه شعر أن ريقه الذي يبلغه قد صار حلو المذاق، مسكر الطعم، ووجد لقلبه صدّى في نفسه بعد أن اخترق كيانه ووجدانه، وملاً قلبه بالراحة والاطمئنان، بخلاف كل ما شاهده في هذا الرّجل من روحانيةٍ غير عاديةٍ سبرت أغواره واطلعت على مكامن نفسه بكل سهولة، ورغم تلك المهازل التي شاهدها بجوار ضريح (أبي العباس المرسي)، وما سمعه سابقاً عن الإسلام من أراجيف تثير القلق والتوتر، إلا إنه استشعر على يد ال(خضر) أن للأمر جانباً آخر روحياً، أعظم وأعمق بكثيرٍ من مجرد كلمات تُقال من الألسن للآذان، بل هي موجاتٌ روحانيةٌ تسري بين السماء والأرض، فتلتقطها قلوبٌ صافيةٌ ذات قدرة عالية على الاستقبال وفك شفرات البث التي لا يفقهها المؤمنون، فتضرب في جذور النفس المتخبطة، وتهدئ من روعها مهما كان البحر حولها هائجاً مضطرباً، يُثير فزع وهول عبّاد الدنيا.

ومن جديد عادت ل(الخضر) نبرته الغامضة بعد أن اطلع على ما يدور في نفس الشاب، واستطرد:

- وستطمئن أكثر بعد أن تسمع المزيد من قول الرحمن، وتنهل من حكمة ووصايا نبيه.. فإنه لقولٌ فصل، وما هو بالهزل.

\* \* \*



- بكل تأكيد، لو كان ذلك في الحلال، ومع الإنسانة التي اختارها قلبي.  
ثم تحوّلت مسكتي لخصرها إلى دَفْعَةٍ دفعتها إلى جسدها للوراء، وأنا أتابع:  
- واسمها آيات.

ارتطم جسدها بالحائط، ثم ارتدّت إليّ ككرة مطاطية، وهي تواصل تصويب أنفاسها الساخنة إلى أنفي بلا كلل أو ملل قائلة بشفتين بلون الكريز:

- لا يعني من تحب.. فأحياناً يسكن البشر في مساكن لا تربطهم بها العاطفة، لكن يكفيهم أن يناموا فيها لساعات يجدون فيها المأوى، واليوم أمنحك جسدي إيجاراً جديداً بلا أي مقدم أو تأمين.  
قلتُ لها بإصرار على الطهر يفوق إصرارها على الخطيئة:

- لقد سكنت بالفعل، ولا يمكن للمرء أن ينام في سكتين مختلفين في وقتٍ واحدٍ، ثم إنك مسكونة أنتِ الأخرى بساكنٍ لا يمكنني مجاورته.  
سألتنى بدهشةٍ غاضبة:

- ومن الذي يسكنني يا حكيم عصرك؟  
فأجبته:

- الشيطان.

ارتمت في حِضني، وهي تقول بتوسل:

- بل ملاك الحب.. ضع يدك على قلبي لتتحسسها!  
دفعتها بقسوةٍ أسقطتها أرضاً وجعلتها تصيح في تأوُّهِ وأنا أقول بحسم:

- ملائكة الحُب ليست سوى شياطين تُجيد التنكر، والنفس هي معينها في رحلة السقوط.  
ثم فتحت الباب وغادرتُ إلى غير أوبة.

.....

ليتأكدوا من وجودك، أما أنا فلا أزال أتأرجح على حبلٍ رفيعٍ من تحته الجحيم، فهل تتخلى عني؟!  
كلا..

تيقنت أنك كبيرٌ حقاً يا إلهي حينَ رأيت قبساً من رحمتك بقلبي الممزق، وأنا أوصل الاستماع إلى يوميات حبيبي المسجلة على الهاتف المحمول بصوته الأشبه بعزف قيثارة في السماء وهو يحكي ما حدث له مع تلك الـ(كريستين) وهي تراوده عن نفسه:

- أريدك أن تدخل عالمي، وأعدك بأنك ستكتشف مواطنَ جديدةً للمتعة لم يطأها بشرٌ قبلك، وبالمثل امنحني شرف دخول عالمك الذي أثق بأنه مليء بالأسرار الجديرة بالاكشاف بعد أن نوقف عمل الضمائر بكذبةٍ مشروعةٍ تقول إننا لم نكن نقصد!

هيا بنا نكذب بطريقة أكثر احترافية كرجال الدين، والمفكرين، والساسة، وكل الذين يبدون في غاية الاحترام والمهابة من ذوي اللحي ورباطات العنق الأنيقة الذين يقولون لأنفسهم المبرر نفسه.  
مع كلماتها الأخيرة كنا قد وصلنا إلى شاليه فخمٍ يطل على البحر..

أمسكت بيدي واقتربت منه ولم تتركني إلا لتُخرج مفاتيحها وتفتح بابه بسرعةٍ قبل أن تسحبني من يدي بابتسامةٍ ساحرةٍ وهي تكرر:

- قلتُ لك من الأول لا تفكر كثيراً في كل فعلٍ تُقدِّم عليه؛ فهناك أمورٌ تفقد الكثير من طعمها إذا ما مرّت على فلتر العقل الذي ينقي الحياة من المتع والسعادة الخفية، فبئس من يستخدمونه!

وما إن صرنا بالدّاخل حتّى اقتربت مني، وحاصرت رأسي بين ذراعيها وهي تقول بعينين مملأهما مملؤهما الشبق والرغبة فيما خرج مع حروف كلماتها ذلك البخار الأشبه بدخان سجائرهما:

- ما رأيك في هذا الشاليه؟ ألا يُغري موقعه بقضاء ليلةٍ ساخنةٍ تُبدد برودة الجو المحيط بنا؟

وضعت يديّ على خصرها وأنا أجيب:



أحدث اكتشافي لعفته في أحلك لحظات العُهر هِزَّةً نفسيةً بمقدار 1000 ريختر..

فالفارق كبير بين من يترفع عن الخطيئة مع من لا تتوق إليها نفسه، ومن يأتي مجرد لمس شعرةٍ واحدةٍ ممن أفاض في وصف جمالها وسحرها الطاغي حين انفردت به وقدمت له جسدها ليستلذ منه كيفما شاء، لكن كيانه وقلبه كانا مشغولين بي وحدي رغم غيابي، ثم لفظني حين كان في حضرتي!

ففي علاقة بتلك الغرابة الثرية بالتناقضات، تُضاف التفاصيل الصغيرة إلى بعضها كي تُؤلف رواية ذات نهاية ستظل مفتوحة، وقابلة لكل الاحتمالات، مهما حاولت أن أحسم مصائر الشُخوص أثناء الكتابة.

مُحال أن أكف عن تعديل نصٍ يحتويوني ويحتويك وأنا أفتش في القدر، والزمان، والمكان عن كل ما يأتي أبكر من اللازم، وكل ما يأتي متأخرًا أكثر من اللازم؛ في محاولةٍ لإعادة تجميع خط العمر المُرتب بشكلٍ عشوائيٍ فوضوي، وتتراص فيه السعادة والمصائب بطريقةٍ مربكةٍ للمشاعر والأحاسيس، وتعدم أي أمل في الاستقرار على حالة إنسانية ثابتة، ونحن على مائدة الحياة التي تفترسنا بالشوكة والسكين، وقد أقسمت ألا تموت إلا بعد أن تأخذ العزاء فينا بالكامل.

حاولت اكتشاف حقيقة تلك الحياة فوجدتها تختبئ خلف انشغالنا عن تأملها.. لا تتعري طواعيةً لمن يبحث عن ماء فحشها، بل على من يحمل القلم مثلي أن يفك أزرار ثوبها على مهل، والصعب من هذه الأزرار عليه أن يستمتع وهو يفكه بأسنانه.. يفسخه بيديه المعروفقتين، حتّى وهو يفعل ذلك يجب أن تكون الحياة راضية عنه كعاهرةٍ سادية تومئ له برأسها قائلة: "افعل ذلك ببطء أيها الشَّيرير، برشاقة، بلهفة، بمتعة، بحكمة، لكن مع كثيرٍ من السيطرة والعنف في بعض الأحيان".. وهذه الميزة الوحيدة لاحتراف الدعارة التي ساعدتني كثيرًا في فهم العُهر الأكبر الذي نعيش فيه!

فالحياة ليست كريمةً لتتوج القصص الجميلة بالنهايات السعيدة، وليست حكيمة بما يكفي للعثور على الحبيب أو الحبيبة في الوقت المناسب والمكان المناسب، والشيء الوحيد الذي تقدمه -بضمير لا مُتناهٍ- هو درسٌ مؤمٌ مفاده أن نجاح الارتباط يطيح بهالة الحب، وتتويج الحب بزغرودةٍ مجلجلةٍ يعني الفشل في استمراره، وأن طريق النجاح في الحب يُفضي إلى غرفةٍ مظلمةٍ تشتعل فيها شمعةٌ واحدةٌ ترخُّمًا على روحه المقبوضة، لكنني لا أكف عن تذكيرها بأن الحب كالوطن، والنصيحة بالخروج منه مؤلمة، حتّى لو كان هذا الوطن يملؤه الخراب، فتصم أذنيها عن كلامي وتمضي في أفعالها ببني البشر؛ لأنها تعتقد أن روعتها لا تكتمل إلا بهذه النسخ المملة للفراق، والحزن، والضياح، والإصرار غير المبرر لإغلاق شبكٍ واحدٍ مفتوحٍ يكفي لدخول نور الأمل إلى عالمنا الأسود الكئيب، لكنها تضن علينا ببصيصه، فنتخبط جميعًا في الظلام!

في غيابك يا حبيبي لا أزال هنا بدونك أحاول إتلاف حياتي بشكلٍ فظٍّ ومُضحك، ومع ذلك ولّهي بك لا يزال أكبر من عملية الإتلاف المتعمدة.. أنا هنا بدونك أحاول تجنب نوبات غضبي من عدم قدرتي على الاعتناء بنفسني، والتوقف عن الحوارات الحميمة مع الشغف والرغبات المُفترطة في كآبتها.

أنا هنا بالقرب من صوتك وهو يزداد جاذبيةً مع الأيام.. بالقرب من شعورك بالتشاؤم بعد وجبةٍ دسمةٍ تناولناها، وشعوري بالكسل بعد ممارسة حب ممارستها مع الجميع إلا مع من أحب.. بالقرب من شعلة النار التي يطفئها لعابك برطوبةٍ عذبةٍ تمنع أوراق العمر من الذبول..

لا يمكن أن أكون في أي مكانٍ آخر غير هنا؛ لأظلل قريبةً من الضجيج الذي يحدثه حبي لك وتفكيرٍ فيك.. هنا أقف عاريةً تمامًا وأنا أعيد نزع شعيراتي الزائدة وكلي ثقة في عودتك، وما أكتبه عنك يصنع موجة حارة في قلب برودة الشتاء تحميني من صُدفة المطر، وخرافة الخير الذي ينتهي دائمًا بالشَّر في هذا العالم القبيح.



أنا هنا لا أدري ما الذي يمكن أن أفعله عندما تفوح فجأة رائحتك في الهواء مجددًا بعد أن تحملها ريحٌ مُعجزة أوقن بأن الرب سيُحْدِثُها من أجلي..

أنا هنا لا أعرف كيف يمكن أن أفهم الليل من غير الشعور بأن عينيك تسهران معي لتحمياني وأنا مُتَكِنَةٌ معك على ظلِّ غد، أقسمنا أن نصنعه على مقياس الحلم مهما كانت احتمالية أن يتحول إلى كابوس. أنا هنا أسأل الأرض والسَّماء: لماذا يصبح لون العالم رماديًا في غياب من نحب؟

لماذا يتحول إلى غرفةٍ نفتش فيها عن النُّوم ولا نجده؟ إلى مقعد يجلس عليه الصبر وحيدًا في سرادق عزاء لن تقوم أمواتها؟ فاللهفة إليك أكبر من رجوع النشوة مهزومة والدموع على خديها، من الممدن الجميلة، من المغامرات المدهشة، من الموسيقى التي لم يُخلق بعد من يُبطل سحرها.

حتَّى حينٍ أغادر غرفتي البائسة وأمشي على البحر وحدي، يجاورني الألم القادم من كل مكان، من كل زمان، من كل شيء تم حرمانه من فتنة حضورك، حتَّى إن الكلمات فقدت معناها.

فمُنذُ أن بدأ التاريخ بكتابة كلماته وهو يتحدث عن بؤس هذه الإنسانية وترك لنا نحن الكتابة عن الخير والجمال والحب، حتَّى تحوَّلت رومانسية الأدباء إلى نكتةٍ سيئةٍ تُقال في اللحظة التي يستعد فيها العالم للانتحار، لكن في روايتنا فقط وجدت الكتابة عنك تمنح العالم قيمته، وتجعل من نكتة الأدباء مُزيلاً للاكتئاب بقدرٍ كافٍ لوقف هذا الانتحار.

أتعلم لماذا؟ لأنني أنا وأنت لا نشبه أبطال الروايات التي تُحاول أن تُفهمنا أن للحب مُنًا باهظًا لا يستطيع الجميع دفعه بمن فيهم حتَّى الأغنياء، وأنا جميعًا بؤساء نختار الدموع وينتهي بنا الأمر دائمًا إلى زنزانةٍ من خيبة الأمل ليس لها باب، لكنني مُصرّة على أن أجعل النهاية السعيدة خيارًا جديدًا يليق بالروايات الملحمية، ولا يقتصر على الأفلام العربية الأبيض وأسود.

كيف أكتب روايةً تسلسل الكلمات فيها لا يعني سوى موتي أو موتك أنت بالذات دونًا عمن يستحقون الموت في هذا العالم؟!!

كيف يصبح الفراق والنهايات الأليمة هما القاعدة الوحيدة التي لم ينجح أحد من البشر بعد في جعل قصته شذوذًا واستثناءً لها؟! كيف نكذب على أنفسنا بهذا الصدق؟!

سأكتبك يا حبيبي كما أنت، بغموضك، بماضيك الخفي، بمستقبلك المجهول، كبطل لم يخلق مثله في البلاد.. لن أبحث لك عن اسم غير اسمك، ولا عن مكانٍ آخر غير مكانك، أو جنسيةٍ أخرى غير جنسيتك؛ فكلها حماقات وقع فيها من كتبوا حكاياتهم ووضعوا شخص محبيهم بأسماء مغايرةٍ في روايات دخل على أحداثها التعديل والتغيير وهم يظنون أن الأدب يعيش حذف الحقيقة من النص لأن كل شيء فيه مستعار، أما أنا فأؤمن بأن الحب في الأدب يكتب نفسه ويعشق التفاصيل الحقيقية، خاصة إذا كانت أروع من الخيال مع بطلٍ أسطوريٍ مثلك خُلق ليبقى حتَّى بعد الفناء.

نعم كل المحبين يموتون، لكن ما لا يمكن أن يبلى في الحب هو الحكاية؛ هو ذاك السرد الذي يصعب تقاسمه مع الآخرين؛ هي تلك الكلمات التي تُتيح لنا أن نغلق علينا صفتي كتاب لننفرد بأنفسنا ونركض خلف بعضها في صفحاتٍ لا نهاية لها، كعُمر حينا المفسوخ الذي انتظر أن يُرتقه القدر، قبل أن تأخذني بين أحضانك لتقيني دموع القراء وتأويلهم الخاطئ للأحداث.. والحالة الوحيدة التي تصبح فيها الكتابة قبرا، حينٍ نتحول أنا وأنت إلى ضميرٍ غائب، ورمزٍ خفي غير واضحٍ في السطور.

فالعالم وحشي، قاسٍ، مُفرط في ابتذاله، لكن بدون التفكير فيك والكتابة عنك سيكون أكثر من مجرد كارثة؛ فنحن نكره الجحيم لكننا لا نسعى إلى إلغائه؛ لأننا بإلغائه نلغي الجنة، وهذا يعذب أكثر من نار الجحيم نفسها!





المقصودة كغيرهم من العباقر؛ فهل كل الأذكيا آمنوا بالله؟ وهل كل محدودي الفهم كفروا؟

قلت أيضًا إن كلام الإله كان من المفترض أن يكون بلغةٍ واحدةٍ يفهمها كل البشر حتّى يؤمنوا، فإذا بالتّوراة نزلت بالعبرية، ولم يؤمن بها حق الإيمان كل من يتحدثون العبرية.. وكُتب الإنجيل باليونانية واللاتينية؛ فكم مسيحيًا اليوم يعرف هاتين اللغتين؟ وكم مسلمًا في العالم لا يعرف اللغة العربية؟

حتّى وجودك على موقع فيس بوك يا ابنتي احتاج إلى اسم وصورة وهوية محددة حتّى تسجلي دخولك، ويعرفك النَّاس بهذه الهوية.. فكيف جئنا إلى هذه الدُّنيا دون أن يكون هناك خالقٌ منحنا شكلاً وصورةً وهويةً محددةً يعرفنا بها النَّاس حولنا؟

فالفرقة والعذاب اللذان نمر بهما باستمرارٍ يا ابنتي هما أكبر دليل على وجود الإله الذي أراد أن يُعرِّفنا قيمة الحلو بالمُر، وخلقنا مثل الورقة البيضاء، لكننا ملأناها باللون الأسود حتّى ندرك الفارق بين العباد ورب العباد.

ثم أَلقت قنبلتها في وجهي مع نهاية حديثها حين قالت بغتة: "أريد أن نذهب معًا إلى الكاتدرائية غدًا!"

.....

من جديدٍ عدتُ لأحضان الكاتدرائية، ولأول مرّة أحضر القديس الإلهي ومعني (دميانة) بعد أن طلبت أن تعترف لأيننا (يوسف)، وخرّجت من عنده بعينين دامتعتين رافضةً أن تحكي تفاصيل ما قد دار بينهما، مؤكدةً أنه سر استأمنها عليه المسيح شخصيًا!

وهو المبرر نفسه الذي جعلها لم تحك لي حتّى الآن ما مرّت به في تلك الفترة العجيبة الماضية حين كانت نصف حية ونصف ميتة، مؤكدةً أن ثمة أسرارًا لو قيلت فلن يبقى بعدها سوى الموت، وهي تريد لي ولها الحياة.

بعيدًا عن ساعات الأُم الطويلة التي أقضيها يوميًا في البحث عن فارسي النَّبيل، لم يكسر دائرة الوجد التي تحاصرني سوى تلك اللحظات السّاحرة التي أتأمل فيها ذلك العشق والهيام بين (موريس) و(دميانة)، ضاربين المثل بحُبّ لا يموت حتّى وإن كان صاحبه يقفان على بوابة الرحيل.

لأول مرّة في حياتي -مُنذُ أن عرفتُها- أرى على خريطة وجهها ملامح أخرى غير العبوس والتجهم اللذين كانا محنطين على وجهها بشكلٍ دائمٍ يُنَافس تحنيط الفراغة.

صارت ملامحها الجامدة تنفرج وتنقبض وهي تبتسم، تضحك، تخجل، تَسْرَح، تهيم حُبًا كئيلةً قادرةً على العطاء والطرح رغم عمرها الطويل الذي شارف على المائة، وفجأةً بدأ يرجع للخلف متحديًا كل قوانين الكون لتصغر في كل لحظة تملي فيها عينيها برؤية حبيب الأمس الذي ينسى في حضرتها مكانته الدّينية، وعصاه التي يتكئ عليها، بعد أن أصبحت هي عكازه، وأمست أصابعه وهي تتخلل أصابعها سر بقائها ووجودها.

مرحبًا بك يا (دميانة) في عالم البشر بعد أن كنت مجرد حجر من بقايا صنمٍ قديمٍ كسره الأنبياء، ونسوا أن يسحقوا آخر ما تبقى منه!

الآن فقط عدتِ حواء بعد أن عثرت على آدمك!

.....

ولا تزال المعجزات تتوالى لتثبت أنها موجودةٌ بيننا لم تنضب بعدُ مثلما ردد ضعاف الإيمان أن زمن المعجزات قد ولى وانتهى..

من يصدق أن (دميانة) هي التي تمنحني درسًا في الدّين؟

كان ذلك حين أنكرت كلماتها القديمة المكذّبة للإله والأديان قائلة:

- طالما قلت إن كلام الإله لا بد أن يكون مفهومًا لكل البشر، وإن الإله غير عادل لأنه خلق فئةً من الأذكيا القادرين على الاستيعاب بشكلٍ أسرع، وفئةً من محدودي الفهم الذين لا يفنون على المعاني الخفية



فقط باحت لي بمعلومة لا أعلم إن كانت مهمة أم لا.. فالأسطوانات والشيكات التي تخص (ريمون) وطلنت أنها سُرقت من غرفتها هي التي خبأتها في خزانة سرية خلف دولابها العتيق؛ خوفًا من أي مكروه محتمل.. وإلى جوار الشيكات والأسطوانات المدمجة في الخزانة توجد أموال كثيرة جمعتها بالمكر والحيلة على مدى سنوات طويلة من النَّصب واللعب بالبيضة والحجر، ولم تعد تخشى الإفصاح عنها الآن بعد أن عثرت على ما هو أغلى من كل أموال وكنوز الأرض.

ودَّعتها لتزحل مع الحاخام (موريس) الذي كان في انتظارها بالخارج بعد أن توترت علاقته بأبينا، بينما حان دوري لأعترف لنفس القمص الذي رأى بنفسه ما أريد التطهر منه على يديه..

حدَّرني من أن الشهوة تتحل اسم الحب وتتنكر في شخصه لتخدع المحبين، بينما هي في الحقيقة مجرد طاقة زائدة إذا ما أسرفنا فيها تتحول إلى وسيلة للإغماء، والإعياء، والبلادة، كالخمر والمخدرات والقمار..

قال لي إن الحب علاقة بين شخصين ينظر كل منهما داخل الآخر، وما يحمله من أفكار وقيم ومبادئ وقناعات وأحلام؛ لذا لا يمكن أن تستبدل الحبيبة إنسانًا آخر محبوبها حتَّى ولو كان توءمه، لكن الشهوة مجرد علاقة بين ذكر وأنثى يقتصر فيها النظر على الشكل الخارجي الذي سرعان ما تمّله ونضجر منه فنسارع إلى استبداله بجسدٍ آخر؛ تمامًا كما نغير ملابسنا وأحذيتنا.

وحيث لاحظ شرودي وعينيِّ الزائغتين وهو يتكلم سألتني بحذر إن كنت لا أزال أفكر في تساؤلاتي التي تهدم العقيدة المسيحية فأجبتة: "بل لديَّ أسئلة تهدم فكرة الوجود نفسه!"

كان في هذه المرّة أكثر هدوءً ولطفًا، حتَّى إنه تركني أخرج كل ما في جعبتي:

– لماذا يُحاسبنا الله يا أبانا وكل شيء فينا وحولنا من اختياره وحده؟ هل يُحاسبنا أم يُحاسب نفسه؟

لقد جننا إلى هذه الحياة في قوالب جاهزة، ووُضعنا في مسارات مرسومة بعناية بالغة، دون أن يكون لنا فيها أي اختيار: الأهل، والبيئة، واللون، والطول، وموعد الميلاد؛ كلها أمورٌ لم نخترها رغم أنها تلعب دورًا رئيسيًا في تشكيل حياتنا.. وتقودنا إلى كل الاختيارات القادمة..

جميعنا يجري وراء المستقبل، لكن المستقبل لا يأتي أبدًا، وحيثما نقترّب منه يصبح حاضرًا بغيضًا فنواصل التفتيش عن المستقبل المزعوم الذي يحمل سراب الراحة والسعادة، والعمر يمضي دون أن أعرف من أنا، ولماذا أتيت، وإلى أين أسير.

إذا كنا أحرارًا حقًا فما معنى القانون والأخلاق والأديان ولوائح العمل والحياة المدنية؟

القوانين يا أبانا تمنعنا من عمل أشياء، والأخلاق توبخنا إذا فعلنا أشياء أخرى، والأديان تخيفنا من أشياء ثلاثة وثقيّدنا بضوابط وأوامر ونواهٍ، والمدنية تربط البشر بعجلة الأسرة والبيت والمصنع، وتضبطهم كالساعة على مواعيد للنوم والصحيان؛ كلها قيود في قيود.

كيف يمكن للإنسان أن يكون مُسيرًا ومقهورًا ومجبورًا بهذه الكيفية، ثم يحاسبه الله فيعاقبه أو يجازيه؟ وأين وجه العدالة الإلهية في القضية؟ أخشى أن المرء منا لا يملك إلا حرية قتل نفسه!

وحيث تأكد أنني أخرجت كل ما في جعبتي من تساؤلاتٍ وهو اجسّ أجابني بكل هدوء:

– تأملاتك مشروعة، وأسئلتك على قدر ما بها من جرأة لكن ما أعظمها إن كانت ستصل بك إلى إجابة تزيد من إيمانك، بدلًا من أولئك الذين يدورون في حلقاتٍ مفرغةٍ من التدين الشكلي الذي ورثوه ولم يفكروا فيه.

أول دليل على حريتك يا ابنتي هو تساؤلاتك في حد ذاتها.. راجعي ما قلتِ وستجدين أن لديك القدرة على الاعتراض، والرغبة في الوصول إلى الحقيقة، وكلها أمورٌ ليست متوافرة للحيوان والجماد اللذين نتحكم فيهما ولا يملكان أي خيار.. ولو نظرتِ إلى تأملات البشر في مثل تلك



- كل شيء في الكون حولنا يخضع لنظم وقوانين محسوبة تجعل لسلكه بداية ونهاية.. حركة الشمس والنجوم والكواكب، دورات زراعة أنواع الفاكهة والخضراوات، ومواسم الحصاد، فصول السنة الأربعة، جميعها لا تمتلك تغيير المسارات المرسومة لها والخروج على القوانين المنظمة لحركتها؛ إلا الإنسان.. فهو وحده الحر المتمرّد، الثائر على طبيعته وظروفه؛ لذا يصطدم بالعالم ويصارع، ويستحيل في أي لحظة أن التنبؤ بمصيره.. في لحظة قد تطرأ عليه فكرة فيتحمس لتنفيذها، وفي لحظة قد يصرف النظر عنها ليلهث وراء فكرة أخرى دون سبب واضح ومحدد.. مجرد إرادته سبب في غير حاجة إلى سبب.. هو المخلوق الوحيد الذي يبنى نفسه بنفسه، ويولد كل يوم ميلاداً جديداً، فيتطور ويتكون، وتتغير شخصيته وتدخل عليها التعديلات والتبديلات، وبالتالي هو المخلوق الوحيد الذي يمتلك ناصية أحلامه.

لكن هذه الحرية البكر الطليقة داخله سرعان ما تصطدم بقوانين العالم وقبوه حين تحتك به لأول مرة في لحظة الفعل فيحدث الصّراع بين الحلم والواقع.. بين الرغبة والإمكان.. وأول قيد يواجهنا هو الجسد نفسه الذي ترتديه أرواحنا كبذلة جيس ضيقة تتخبط فيها رغباتنا، وتخنق أحلامنا وطموحاتنا وراء مطالب لا تنتهي بالطعام والشّراب والملبس والجنس، فنجري وراء اللقمة، ونلهث وراء الوظيفة، ونصارع على أهداف فرعية غير التي بداخلنا.

وفي الغابة الإنسانية نفسها يجري معنا باقي البشر الذين يشاركوننا المأساة نفسها، ويخوضون الصّراع نفسه، على الأهداف والأحلام نفسها التي لا تتسع للجميع؛ فنضيق في صراع التكبّس حتّى نفقد حريتنا.

وبعد أن نصطدم بأجسادنا، ثم أجساد الآخرين، يأتي الدور بعدها على الصدام مع باقي قوانين الكون من جاذبية الأرض، وضغط الهواء، ومياه البحار والمحيطات، التي تطالبنا بالانصياع لها والوفاق معها، فنكتشف أن كل هذه الصّراعات لا حل لها إلا بالوفاق، وحسن الاختيار، والتفكير، الذي يجعلنا نمتطي العالم ونقوده كيفما نريد.

التساؤلات التي طرحتها لوجدت أن لكل منهم رأياً مستقلاً ارتاح إليه عقله وقلبه، وهذا في حد ذاته اختيار يؤكد أننا مُخيرون، لكننا في الوقت نفسه مُجبرون على الاختيار الذي حتّى لو تمردنا عليه وقررنا ألا نختار فسيكون ذلك خياراً في حد ذاته، ومن هذا الإجبار نكون بالتالي مُسيّرين أيضاً.

نهض من على مكتبه ولوّح بيده بطريقةٍ مسرحية:

- سلي نفسك ما أنسب تعريف للحرية، وستجدين فطرتك تخبرك بأن الحرية هي قدرتك على الاختيار بين متعدد، ومقاومة القيود المفروضة.. فلا بد من قيودٍ إذن نقاومها ونغالبها؛ حتّى تكون هناك حريةٌ وإلا لسقط معناها بسقوط القيد والجبر.. امتلاكنا كل شيء في أي وقت معناه انتفاء أي نقص فينا ووصولنا لمرحلة الكمال، وحينها سنصبح آلهةً ليست لها مطالب ورغبات؛ لأن المطالب والرغبات منبعها احتياجاتنا.. مشكلة الحرية دائماً إنها رغبة تتأجج في الصدور ومقاومة تقف في سبيلها حتّى تنتصر الإرادة وتحصل على مبتغاه.. وبانعدام الرغبة والمقاومة يسقط معنى الحرية؛ لأنها تكون استهدافاً فارغاً إلى لا شيء، وتكون هي ذاتها لا شيء؛ لهذا خلق الله القيود!

بعضها يصل إلينا بالوراثة كالاسم والجنس والدين والوطن والجسم.. وبعضها يصل إلينا من بيئتنا كحر الطبيعة وبردها وأمراضها وناسها.. والبعض الثالث من صنّعا وابتكارنا كالقوانين والأخلاق والنظم السياسية، لكن في النهاية لدينا عصا سحرية للتغيير اسمها "الإرادة".

صحتّ فيه:

- لكن يا أبانا..

استوقفني بإشارةٍ من يده، وقال بحزم:

- اسمعيني للنهاية، وإن لم تجدي ما يروي ظمأك للحقيقة سلي ما بدا لك بعدها!  
أوماثّ له برأسي، فتابع:



فحينَ نتوافق مع قدرات أجسادنا نحولها من سراويل ضيقة تحبسنا في الجلد والعظام إلى أيادٍ تصنع الطائرات فنطير دون الحاجة إلى أجنحة، ونطلق قذائف تزن أطناناً إلى القمر، ونخترق الفضاء، ونغزو الكواكب.

وحيثَ نتوافق مع الناس ونسير في اتجاه نفعهم فإننا نكسبهم ونكسب معونتهم، ولا نتصارع على الحرية بقدر ما نتبادلها معهم.. فنحن نمنح جزءاً من حريتنا للعمل وأكل العيش؛ فيأخذ الآخرون ما قدمناه في عملنا نظير جزءٍ من حريتنا، وفي الوقت نفسه نتقاضى نحن أيضاً ثمن الحرية التي قدموها في عملهم؛ فننتفع بما صنعه العامل، وما زرعه الفلاح، وما كتبه الكاتب، وما شيده المهندس.

وحيثَ نتوافق مع قوانين الكون ونضع أشرعة مراكبنا في مواجهة الرياح فإننا نسخرها لخدمتنا.. وحيثَ نضع التوربينات تحت مساقط المياه تتولد الكهرباء.

حتىَ الأخلاق التي اعتبرتها قيوداً على حريتنا ما هي إلا إشارة مرور عند مفترق الطرق، تعطي البعض شارة حمراء ليتوقف، وتعطي البعض الآخر إشارة خضراء ليسير، حتىَ تُنظم حركتنا وتحمينا من الصدام، وإلا لتخبط الجميع، وتوقف المرور، وفقد كل سائق حريته في فوضى لا متناهية.

فحينَ تضبط أخلاقك شهوتك مثلاً، تكسبين حريتك وليس العكس، لأنك تصبحين سيدة نفسك لا جارية لغريزتك التي تطيح بعقلك في لحظاتٍ وتقودك وتتحكم فيك.

والحرية تكمن دائماً في اكتشاف القانون الطبيعي والعمل في اتجاهه وليس ضده، ومن أجل هذا التحدي خلق الله الحياة، وجعل الإنسان معجزة المتناقضات؛ ليتعلم من تناقضاته كيف يسير مع التيار.. مخلوقٌ فانٍ ويحتوي على أفكار وإبداعات خالدة.. ميت ويشتمل على حي.. مقيّد بالزمن ويتجه للأبدية.. الدنيا كلها تقيده لكن كل قيود العالم لا تمنعه من أن يضمّر في نفسه شيئاً، وأن يفرض هذا الشيء على ظروفه؛ فيصهر الحديد، ويسوّي الجبال بالأرض وهو جسمٌ صغيرٌ هلامي من

اللحم والدّم، شبكة دبوس كفيفة بإطلاق صرخاته.. يبدو ضعيفاً تقتله رصاصة بلميم، لكنه قادرٌ قبل وفاته على أن يطلق صيحة تهدم نظاماً بأكمله.

- وماذا عن الحب يا أبانا؟ هل نحن مُسيرون فيه أم مخيرون؟ وكيف نحصل فيه على الوفاق الذي تحدثت عنه فلا نحزن أو نفشل؟  
ابتسم القمص (يوسف) ابتسامةً حزينةً، وأجاب:

- في الحب أنا تلميذ بليد.. لو كانت لديّ أي خبرةٍ لما أصبحت قُمصاً.  
يا الله.. كانت أسئلتني مقدمةً لأفهم منه سرّ الحب وكيف ننال فيه حريتنا رغم قيود الظروف والقدر، فإذا به يُجيبني عن كل شيء إلا السؤال الأهم..

فهناك إجاباتٌ تُقال أحياناً دون الحاجة لأسئلة تُطرح، وهناك أسئلة وُلدت في ملجأ الحياة كطفلٍ غير شرعي يبحث طوال الوقت عن أبيه (الإجابة) دون جدوى!

"ألا توجد أي أخبار جديدة عن ذلك الفتى؟"

سألني القمص في نهاية حوارنا فأجبت به بأسى:

- - هذا أيضاً مثل الحب.. سؤال بلا إجابة!

.....

بتُّ أعشق التّوم وأكرره بأقصى قدر ممكن على مدى اليوم، كشعبانة لا تكف عن الأكل حتى تنفس عن غضبها من الدنيا والأيام.. كنتُ أتسول من النعاس ومملكة الجفون المغلقة رؤية عابرة لطيفك.. كلمة يتردد فيها صدى صوتك الآتي من بعيد تُخبرني فيها عن حالك.. صورة مهزوزة ملامحك الأسطورية أروي بها ظمئي للقياك.. أي شيء يضع حدّاً لتلك المأساة التي أحاطت بي ولم أجد معيئاً لكسر حصارها.  
حتى الموت الذي يخشاه الجميع ويفرون منه، بت أفتش عنه في أقداري المجهولة؛ لعله نومة طويلة تتخللها رؤياك التي ستغنيني في عالم الموتى عن حياةٍ لا قيمة لها بدون النظر إلى عينيك.



لكن من قال إن في النّوم راحةً لبائسةٍ مثلي، لا سيما أن داخله خيارًا مقررًا اسمه الكوابيس!

في هذه المرّة كان كابوسي حريقًا ضخماً ابتلع الجميع.. والأبشع أنه أخذ حبيبي مني في اللحظة التي عاد فيها إلى أحضاني، وعلى طريقة السينما كان الحريق يلتهم الكُل بطريقة الـ"سلو موشن" وأنا أغني تلك الأغنية التي أعشق سماعها من (نبيلة معن) بصوتها الأسطوري، ولحنها المقتبس من ألحان السّماء:

حينَ قالت وهي ترقى.. في سماءاتِ الفتور

أوتّهوى يا شقيا؟ هكذا سحرُ العيون

وتُعاني ما تُعاني.. من ذهولٍ من جُنون

.....

على مائدةٍ وضعتها في منتصف السّطح، عليها فنجان قهوة ومطفأة سجاثر لاستيعاب بقايا سيجارة بين إصبعي السبابة والوسطى، ومقعد متهالك يطل على السّماء، لا أزال أستمع لنفس أغنية (فيروز) الخالدة، وقد صار لها وَقْعٌ أجمل على القلب والحواس بعد أن تناولت على أنغامها -ذات يوم- قهوتي المفضلة وأنا أتطلع إلى عينيه في يوم صعب التكرار..

هل جلستَ العصرَ مثلي.. بينَ جَفَنَاتِ العِنبِ

والعناقيدُ تدتُّ.. كثرِيَّاتِ الذهبِ

هل قرّشتَ العُشبَ ليلاً.. وتلحّفتَ الفصاً

زاهداً في ما سيأتي.. ناسياً ما قد مضى

أعطني الناي وغنّ.. وأنسَ داءً ودواء

إمّا الناسُ سَطُورٌ.. كُتِبَت، لكن بهاء

أمسكت بهاتفني المحمول وتأمّلت حسابي على "فيس بوك" لبرهة، ثم ألقيت به على المائدة بحنق..

اللّعنة على مواقع التواصل الاجتماعي التي جعلت من الاستماع لـ(فيروز) وشرب القهوة موضة أديعاء العمق والفكر والثقافة، من ذوي العقول الخاوية الذين يصنعون حولهم هالة زائفة بصور وكلمات يرددونها كاللبغاء، دون أن يفهموها أو يشعروا بلذتها في دواخلهم.

اللّعنة على مواقع التواصل الاجتماعي حينَ تصبح جدياء مقفرة، خالية من كلمات المحبين، وحالات اليأس، وصور جديدة مشرقة تملأ حياتنا بالشغف، ويطل من خواتمها رسالة قدرية تتكرر بلا هوادة: "لقد أوشك صيد الصبر على النفاذ"، دون أن أعرف كيف السبيل لإعادة شحن البطاقة.

اللّعنة على القهوة التي لم تعد تُصبرني على طعم المرار.. اللّعنة على التبغ الذي لم يعد نيكوتينه كافياً للتصالح مع غضبي واضطراب أعصابي. اللّعنة على اللّعنة، وليذهب الجحيم إلى الجحيم.

أحسست بلمسة حانية على كتفي فلم ارتجف أو أفزع؛ إنها لمسة الحاخام (موريس) الحانية الأرق من يد (دميانة) الخشنة..

رغم أحزاني التي غرقت فيها حتّى أذنيّ فإنني كلما شاهدته ضحكْتُ رغماً عني على هذا الحاخام المُسن بدرجة (روميو) وهو يسير متبخترًا، متأبطاً ذراع (جوليت) الشبيهة بمومياء غرب عنها جمالها وانحنى ظهرها، لكنهما لا يكفان عن تبادل كلمات الدلال والغزل في رومانسية متناقضة مع قساوة الحياة الأقسى من الموت نفسه، صانعين من جهما الذي تم استثنافه في الوقت الضائع كوميدياً سوداء تشبه مأساة سمكة ماتت من الغرق!

عآوَدتُ بعدها البُكاء مجدداً بعد أن تخللته ضحكة استثنائية شدّت عن قاعدة حياتي، قبل أن تمتد يد ذلك المُسن اليهودي الحنون لتمسح دموعي، وهو يسأل بابتسامةٍ مُفعمة بالعطف الأبوي:

- أهو شعور بالعزلة والوحشة؟

أجبتُه بدموعي السّاخنة دون أن أنبس ببنت شفة، فواصل:



- لو عانيت ما عانيتُه وأنا وحيد بدون هذا الملاك الرقيق (ثم منح دميانة نظرة رومانسية وتشابكت أصابعهما قبل أن يتابع) لأدركت - يا عزيزتي- أنك تعيشين الآن أجمل لحظات العمر.

فدموع الحُب هي متعته.. وناره هي الاختبار الذي علينا أن نكتوي به لندرك ثمن جنته التي سنفهم بعد أن ندخلها أن الله خلقه مثل العاصفة.. تأتي فجأة، ثم تمضي تاركة خلفها الخراب الذي تسببت فيه؛ فيحنني العشاق لالتقاط ما سقط منهم، ويعيدون ترتيب حياتهم المبعثرة دون أن يشعروا في البداية بآلام الظهر من جرّاء الانحناء، لكن مع الوقت يشعر كل عاشق بالثقل الذي تُسببه إضافته إلى شخصٍ آخر، فتكون العزلة والوحدة هي وسيلة الحفاظ الوحيدة ليبقى الحُب مجتمداً بذات المشاعر والأحاسيس في ثلاجة الحياة التي تحميه من أن يذبل أو يُصبح حامضاً؛ حتّى لا يكون مصيره أقرب سلة مهملات مثلما حدث مع قصص حب عشاق آخرين كانوا يُقسمون يوماً إن مشاعرهم لن تسقط كأوراق الخريف، لكنها خذلتهم وسقطت بعد أن تركوها مكشوفة أكثر من اللازم دون حفظ.

تسلل الدّمع إلى عيني (دميانة) التي كانت أكثر من يشعر بكل حرف يستنطقها وكأنّها هي التي تتكلم، فمسح أسفل جفنيها بأربعة أصابع لم تكن الإبهام من بينها، ثم ضمها إليه بذراعه وهو يُكمل حديثه معي:

- صدقيني يا ابنتي، من يمرون بحالة بائسة مثلك عليهم أن يقولوا مرحى بالدموع التي جعلنا نعيش على أمل العثور على ما ضاع منا ذات يوم، بدلاً من ضحكاتٍ تنتهي بخوفٍ من الفراق والفقد بعد أن عثر أصحابها على السعادة بالفعل ولم يعد في انتظارهم سوى الوجه الآخر للظروف المستعدة لتقلب الصفحة الأخيرة في أية لحظة؛ فالحب الباقي حقاً هو الذي يؤسس على عزلة قلبين كل منهما منحه القدر فرصة ليرى الأمور بعد انفصاله عن حبيبه كميتٍ يراقب الدُّنيا من قبره ويكتشف بنفسه كيف ستصبح الحياة من بعده عند من يُحب، بفارق

أنه موت مؤقت سيقوم منه يوماً ليقف أمام معشوقه من جديد؛ فإمّا أن تكون وقفة احتفاء، وإمّا وقفة عتاب وتوبيخ.

العزلة تجعلنا لا نُخطئ عنواناً جميلاً لكتاب يسكن الرفّ البعيد في مكتبتنا الزاخرة بكتب لم نقرأها بعد؛ جعلنا نعيد التأمّل في كل اللوحات الرائعة؛ كل الموسيقى الخاصة بصوت الحنين؛ كل الأشواق والتعلُّق؛ جعلنا نُرسل برفياتنا عبر نور القمر والنجوم قائلين فيها لنصفنا الآخر: حتّى وإن كنت هناك وأنا هنا وحيد فستظلّ وحدك معي، بجانبني، وكل الباقي كماليات لا مبرر لها.

متى تفهمي ذلك ستوقنين أننا مدينين بالكثير للعزلة التي تكشف بكشّاف قسوتها المظلم عن الكثير من الأمور التي أخفاها بريق السعادة الخادع، مثل تذوقنا للحب الجريح بمتعة أكبر؛ واكتشافنا للتناقض اللذيذ بين الحضور والغياب؛ وأهمية الصمت الذي يُلهمنا الحكمة المناسبة في الأوقات المتأخرة من الليل بعيداً عن ضجيج النهار، وديب البشّر والدواب؛ فنرى الصورة بشكلٍ أوضح، ونضع أيدينا على ما وراء الظاهر من المشاعر والغرام.

ثم صمت وهو يتأمّل عينيّ الباكتين اللتين زادت دموعهما، دون أن يسمع صوت نفسي المبهورة بكلماته وهي تردد بصوتٍ مُفعم بالألم:  
- ما أعظم رجال الدّين حين يكونون قديسين بدرجة عُشاق! فيفكون شفرة الحُب بروحانية الدّين وحكمة الوجد التي لا يستقيها إلا من أحب لدرجة العشق.

حاولت ألا أبذو كئيبةً إلى الحد الذي يفسد فرحتهما وقد نالا من البؤس ما يكفي؛ فمسحت دموعي واختبرت قدرتي على التمثيل وأنا أبذل قصارى جهدي لتخرج نبرتي مرحةً حين قلت لهما:

- هيا استعدّا.. أريد أن أفرح بكما قبل أن تسافرا إلى إسرائيل وتركا لي هذه الغرفة لعلي أقاسم فيها من أُحِبُّ بعد أن يعود بعد "مائة عام من العزلة".



فكنت كمن قال نكتةً سمجةً، قبل أن يلتفت إليّ (موريس) ويقول بجديّة:

– مُحال أن أغادر الإسكندرية مرّةً أخرى؛ فهنا شتاء قديم وجميل خبأته في عيون البلاد التي رحلت إليها مضطراً؛ كي لا يضيع مني وسط شعوري بالاغتراب وأنا أبحث في كل الوجوه والأشياء عن كل ما هو سكندري.. مُدن وأحلام، شواطئ وسُفن، رحلة مؤلمة انتهت بعودتي إلى منبتي من جديدٍ بطريقةٍ جعلتني أغفر للحياة قسوتها بعد أن أبدت لي رغبتها في التصالح معي؛ فالإسكندرية يا ابنتي هي المدينة العريقة التي كان يأتيها النَّاس من كل مكان للعيش فيها، لكنني لم أفكر فيها إلا كمدينة جميلة يمكن الموت فيها؛ وهذا بالنسبة لي قمة الرضا. انقبض قلبي مع كلماته؛ ربما لذكر سيرة الموت؛ وربما لأن هذا يعني أنهما قد يتزوجان في تلك الغرفة ولا يبقى لي سوى الشّارع..

"اطمئني يا فتاة.. فوريس يقوم الآن بتصفية كل ما يملك في الخارج، وسنشترى شقة صغيرة نعيش فيها ما تبقى لنا من العمر.. هل جال بخاطرك أي سألتيك في الشّارع بعد كل هذه العشرة؟"

قالتها (دميانة) بنبرةٍ مشاكسةٍ وقد قرأت نظرائي الممتقعة، فسألتها بدهشة:

– وهل ستوافق الكنيسة على زواجكما؟

نظرت (دميانة) إلى (موريس) وتبادلا ابتسامَةً حزينةً قبل أن تقول:

– ولماذا ألهث وراء إرضاء البَشَر والرَّب نفسه أخبرنا بأن الله محبة.. ما الذي سيضيفه موريس للمسيحية أو أضيفه أنا لليهودية لو خدعنا الرَّب وغيرنا عقيدتنا، لا من أجل إيمان وقناعة حقيقية بل من أجل إتمام زيجة أيامها في الدُّنيا معدودة.. فمُنذُ آلاف السنين وجيوش البَشَر تتطاحن، كل فريق يرى أن دينه هو الصّواب، ولم تنجح السيوف والقذائف في حل المسألة بشكلٍ نهائيّ، وبالتأكيد البَشَرية لا تنتظر طاعنين في السن مثلنا لحل معضلة الأعضاء التي لم يحسمها يسوع نفسه بشكلٍ نهائيّ حينَ كان على الأرض.. ثم إن العهد الجديد في المسيحية لا يمكننا أن نفهمه

ونشعر بعظمته من دون الإيمان بالعهد القديم التوراتي.. لنكتفِ بالحب ولنترك أمر الإيمان بيد الله عند ملاقاته.

شجعني سياق الكلام على الإفراج عما يجيش في صدري تجاه مسألة الخلاف بين المسيحية واليهودية، رغم أنني لست قديسة ولا متبحرة في الدين، لكن مناقشة حاخام كانت فكرة رائعة تتبع روعتها من أنها قد لا تُتاح في العمر سوى مرّة واحدة؛ لذا سألت (موريس):

– سيدي، بالفعل مسيحيتنا تعترف بأسفار التّوراة الخمسة، وتعتبرها جزءاً لا يتجزأ من عقيدتنا، فإذا دخلت ديننا فستجد الأسفار نفسها التي تؤمن بها، ومعها عهدٌ جديدٌ سيضمن لك أن تكون مع حبيبتيك في الجنّة أيضاً.. ألا يبدو ذلك أكثر إغراءً من التشدُّق بملاقة بعضكما في آخر أيام العمر ثم تعودان لافتراقٍ أبديّ؟

رد على سؤالي بسؤالٍ بدا لي ساذجاً حينَ قال:

– ولماذا لا تؤمنين أنتِ باليهودية ما دامت في صميم عقيدتك؟ أجبته بعقلانية:

– إذا آمنت أنت بالمسيحية فستؤمن بأسفارك ومعها أناجيلنا التي حَوّت استكمالاً لناموس الرّب الذي يحمل المحبة والخير لكل البَشَر، بما يجعل الفوز بالجنّة أمراً مؤكّداً، في حينَ إذا آمنت أنا باليهودية وحدها وثبت في الآخرة أن المسيح الذي صلبتموه كان على حق، فسيكون مصري ومصيرك النّار.

ابتسم وأجاب:

– هذا منطقٌ رائعٌ يُشبه ما ساقه لي أحد أصدقائي المسلمين حينَ قال لي ذات يوم: "حتّى وإن كانت اليهودية هي الصّواب فستدخلون الجنّة ونحن معكم؛ لأننا نؤمن بموسى كليم الله ورسائله السّماوية.. وإذا ثبت أن المسيحية هي الصّواب فسندخل الجنّة مع النّصارى؛ لأننا نؤمن مثلهم بتعاليم المسيح الراقية وطهارة أمه العذراء التي نزلت فيها سورة قرآنية كاملة".. فهل تُطبّقين منطقك الخاص على نفسك وتحويلين إلى الإسلام؟



بُهِتُ من سؤاله وأنا أهز رأسي بالنفي دون أن أعرف ما أقول،  
فاتسعتُ ابتسامته وأردف:

- ما الذي سيضيفه تحولي للدين المسيحي لو كنت مسيحيًا استباح  
دم إخوانه المسيحيين مثلما حدث في مذبحه (سانت بارتليميو) في  
الرابع والعشرين من أغسطس 1572 حين انقض الكاثوليك بمباركة البابا  
جريجوري الثالث عشر على البروتستانت أثناء أحد الأعياد وذبحوا منهم  
الآلاف وشنقوا العديد على أغصان الشجر، وبلغ عدد القتلى في هذه  
المذبحة أكثر من 30 ألفًا نتيجة لظهور المذهب البروتستانتى الذي لا  
يعترف بسلطة البابا.

هل كان المسيح سيفتخر بي إذا كنتُ واحدًا من الإنجليز الذين  
حاولوا إخضاع أيرلندا دينيًا بفرض المذهب البروتستانتى لتستمر الحروب  
بين الكاثوليك والبروتستانت من بداية القرن السادس عشر حتّى القرن  
الثامن عشر؟

ماذا لو كنتُ مسيحيًا وشاركت في حرب الثلاثين عامًا التي اندلعت  
بين الكاثوليك والبروتستانت في أغلب دول أوروبا سواء ألمانيا أو فرنسا أو  
النمسا أو إسبانيا من عام 1618 إلى 1648 فأسفرت عن إبادة ثلث الأوربيين،  
وهبطت بسكان ألمانيا وحدها من 20 مليون نسمة إلى 13.5 مليون،  
وانخفض تعداد الرجال في أوروبا كلها لدرجة أن رجال الدين المسيحي  
قاموا بتشريع تعدد الزوجات، كما ورد في العهد القديم، وقالوا بالنص:  
"لا يُقَبَل في الأديرة الرجال دون الستين، وعلى القساوسة ومساعدتهم إذا  
لم يكونوا قد رسموا، وكنهنة المؤسسات الدينية، أن يتزوجوا، ويسمح لكل  
ذكر بأن يتزوج زوجته؟!"

يمكنك أن ترجعي للتاريخ لتقرئي أيضًا عن الحرب الأهلية التي  
اندلعت في إسبانيا بين الكاثوليك والبروتستانت بين عامي 1936 و1939  
وبلغ عدد القتلى فيها 306 آلاف؛ من ضمنهم 6845 رجل دين كاثوليكيًا  
تم ذبح معظمهم كالخراف، بخلاف استعباد الرجال البيض للهنود الحمر

والأفارقة في أمريكا التي انتشرت فيها المسيحية بحدّ السيف باعتراف بابا  
الفاثيكان.

وإذا كنتَ اليوم تقرئين أسفار العهد القديم ولا يكتمل إيمانك  
الأرثوذكسي إلا بها، فلتعلمي أنه ما كان ذلك ليحدث إلا بفعل تلك  
الحروب الشنيعة التي اشتعلت بين الكاثوليك والبروتستانت ليحصل  
بموجبها المحتجون على كتب العهد القديم بعدما كانت حبيسة الأديرة،  
ويصبح في متناول الجميع قراءتها وترجمتها بعد أن كانت في يد رجال  
الكنيسة الكاثوليكية وحدها.

بحثت عن كلمات أهرب بها من تحدّ تأكدت أن لساني كان يستحق  
أن يُقَطَّع قبل أن ينسحب مني ويزج بي في معركةٍ لا قبل لي بها قبل أن  
يقطع (موريس) عليّ أي أمل في الانسحاب مستدرگًا:

- وفي الإسلام نفسه لا يختلف الأمر كثيرًا؛ فما إن مات نبيه حتّى  
تقاتل المسلمون فقتلوا الصحابي والخليفة عثمان بن عفان، ثم اقتتلوا في  
موقعة الجمل، وموقعة صفين، وتفرقوا إلى سنة وشيعة وفرق ومذاهب  
وجماعات سالت بينها الدماء أنهارًا على امتداد نهر الزمان الذي اصطبغ  
باللون الأحمر الإسلامى القاني.

وحينَ دعاني صديقي المسلم للتخلّي عن معتقدي اليهودي ودخول  
الإسلام، واصفًا يهوديتي بالكُفر الذي سينتهي بي إلى نار الله في الآخرة  
أخبرته بتلك القصة الجميلة عن النبي محمد وجاره اليهودي الذي كان  
يلحق به الأذى والرسول يصبر عليه، وعندما مرض اليهودي زاره النبي  
فخجل اليهودي من أخلاقه ودخل الإسلام، حينَ كانت تصرفات وأخلاق  
محمد هي مقياس اليهودي للإعجاب بالإسلام واعتناقه قبل حتّى أن  
يقرأ ما في القرآن، وسألت صديقي حينها: "تُرى، ما الذي سيغري به  
المسلمون اليوم يهوديًا مثلي لدخول الإسلام؟".

تلعثم صديقي وقتها فأخبرته بأن المسلمين اليوم مذاهب متعددة،  
والكثيرون في كل مذهب يعتبرون أبناء المذاهب الأخرى كافرين ويحللون  
قتلهم، وسألته مجددًا: "هَبْ أني أردت دخول الإسلام فهل أدخله من





باب السّنة أم الشيعة أم المذاهب الأخرى؟ وفي أي منها أعيش بسلام ولا يحل دمي على يد مسلمٍ مثلي، لا سيما أن المسلمين يُرددون كلامًا مقدسًا للنبي محمد بأن الإسلام سيتفرق إلى 70 فرقة جميعهم سيعذبهم الله في النّار باستثناء فرقةٍ واحدةٍ ستدخل الجنّة، وكل فرقة تدّعي أنها هي الفرقة الناجية؟

وأخيرًا حتّى لا أطيل عليك، فقد قرأت تقريرًا تم تقديمه للأمم المتحدة يتحدث عن 80 ألف مسلم تم قتلهم في سوريا خلال سنتين فقط بأيدي المسلمين سواء من النظام أو المعارضة، ورأيت مقطع فيديو لأحد مقاتلي المعارضة وهو يُخرج قلب جندي ويأكله.. فأبي مسلم هذا الذي يأكل قلب أخيه المسلم؟

كما قرأت إحصائيات عن عدد القتلى في العراق خلال الحرب الأهلية المذهبية بين السّنة والشيعة، ووصلوا لأكثر من 280 ألف عراقي، غالبيتهم العظمى مسلمون وقليل جدًا بينهم مسيحيون، ونفس ما حدث بين الكاثوليك والبروتستانت في حرب الثلاثين عامًا في أوروبا لا يزال شبحها يُخيم على الأجواء بين السّنة والشيعة المسلمين مُنذ 1400 عام، كحرب مفتوحة النهايات، وما من أحدٍ سيضع خاتمة لها سوى نظام قوي يضع السني والشيوعي في ززانةٍ واحدةٍ لو تخاصما يومًا على أساس ديني أو مذهبي؛ لتكون الدول العلمانية الديمقراطية هي السدادة الملائمة التي تُخلق فتحة القنينة التي تتسرب منها غازات الطائفية السامة.

ابتسمت (دميانة) رغم هول كلماته المفزعة، والتقطت من كلامه طرف الخيط قائلةً:

مهلاً يا عزيزي؛ فكلماتك قد تجعل هذه المسكينة تعتقد أنك عنصري مُجد من يزعمون أنهم شعب الله المختار.. أخبرها بأن اليهود أيضًا منقسمون لقرائين وربانيين، بخلاف أولئك السامريين الذين وردوا في الأنجيل بوصفهم جماعةً منبوذةً ومحتقرةً، ولا يزال احتقارهم ممتدًا حتّى اليوم حتّى إن بعض اليهود في المجتمع الإسرائيلي لا يزالون يعتبرون السامري مصدر نجاسة، ويوقفون الحافلة أحيانًا لإنزاله منها، بخلاف

التفرقة العرقية بين اليهود الأشكيناز واليهود السفارديم في إسرائيل.. عد معها أيضًا بالتاريخ والأسفار واحك لها كيف شن اليهود حروب إبادة ضد بعضهم البعض مُنذ آلاف السنين، وخير شاهد على ذلك إبادة بني إسرائيل لسبط بنيامين حين رجع رجال بني إسرائيل إلى بني بنيامين وضربوهم بحد السيف من المدينة بأسرها، حتّى البهائم وكل ما وُجد، وأيضًا جميع المدن التي وُجدت أحرقوها بالنّار، وقتل يفتاح الجلعادي من سبط أفرايم 42 ألفًا وجميعهم من بني إسرائيل.

تنهد (موريس) بأسى، وقال:

- نعم يا حبيبتي، بخلاف تبرئتي التامة من كل ما فعله الإسرائيليون تجاه الفلسطينيين من مجازر ومذابح أغلبها بدون وجه حق، والغريب أن كل هذه الوقائع المؤسفة حدثت بين من يزعمون أنهم ينتمون لأديان سماوية ووصلت أعدادهم لنصف تعداد سكان البشريّة، وهذا يثبت أن النّجاة من عذاب الرّب لا تتم بالانتماء لدينٍ بحد ذاته وكفى؛ فالبوذي أو الهندوسي أو الزرادشتي أو الشنتو وغيرهم من أبناء الديانات الأخرى الذين لم تنغمس أياديهم في دماء البشريّة أشرف عندي ممن يفتخر بدينه السماوي الذي يجعله يستحل إزهاق الأرواح من بني الإنسان بدون وجه حق.

ثم صوّب بصره نحوّي وهو ينهي كلامه قائلاً:

- كل أبناء الأديان في النّار ما لم يرتبط انتماؤهم الديني بمحبةٍ حقيقيةٍ لإخوانهم في نسل آدم وحواء، وترك أمر الحساب بيد من له السلطة العليا في هذا الكون فحسب.

.....

استقبلني العزيز (ألبرت) بابتسامته المرحّة وروحه الشفافة في مبني الخدمات، مؤكّدًا أنه افتقدني كثيرًا، وأمّن على كلامه كل من (أندرو) و(أمير) وعدد آخر من شباب وفتيات انضموا لفريق (تسايح) بعد أن قررت الكاتدرائية إحياء حفلٍ ضخمٍ تلقى فيه الترانيم المسيحية والأناشيد الإسلامية، ولم يعد باقيًا سوى اختيار المنشدين المسلمين، وبدء



البروفات، قائلين إنهم كانوا سيتصلون بي اليوم، لكنني سبقتهم وجئت بنفسى لأنني بنت حلال.

لم أهتمز للخبر السعيد الذي قام على فكري التي أيدها القمص (يوسف)، ولم أبدأ أي تحمس واستعداد للمشاركة في الحفل؛ فكل ما كنت أشعر به وقتها هو اختناقٌ شديدٌ وكأن أحدهم جرد الهواء من الأكسجين، أو بمعنى أدق جرّد المبنى من الشّاب الوسيم.

ما إن لمحني الأطفال حتّى التفوا حولي وسألوا عن صديقي الذي تعلقت به القلوب، فسألتهم بالمثل عن ذلك الصّغير الذي كان لديهم رسمة رائعة له، فأتوا به وكأنّهم قبضوا على لصّ خطيرٍ أعلنت الشرطة عن مكافأةٍ مُجزيةٍ لمن يقودهم إليه، ولم أتركه إلا بعد أن أخذت منه رسمته مقابل 10 جنيهات فطار من الفرحة وهو يأخذهم، وطرت أنا من السعادة وأنا أمسك آخر ما تبقي من حبيبي، بفارق أن سعادي كانت بطعم الدّموع.

بدون قصد جلدي الجميع وهم يسألون عنه، وقد نمتي إلى مسامعهم أنه رحل بشكل مفاجئ دون أن يعرفوا السرّ، وظنوا أنني قد أعرف التفاصيل، وعلى رأسهم عم (حنّا) الذي نافسني بحزنه وعينيه الباكيتين على غيابه.

ما الذي أتى بي إلى هنا؟!

آه! نسيت.. إنها (كريستين)..

اتصلت على هاتف حبيبي في ساعة متأخرة من الليل، والغريب أنها لم تندهش حين قمت بالرد عليها.. قاطعت فظاظتي عندما صحت فيها: "عايزة إيه؟" بنبرة بكاء، ثم طلبت مني بصوتٍ باكٍ متقطع الحروف أن نلتقي في مبنى الخدمت.

أخذت أبحث عنها بعيني دون أن تظهر في حيز الرؤية قبل أن يباغتني صوتها من الخلف:

- أنا هنا.

التفتُ نحوها، واكتشفت أن عيني قد مرتا عليها لكنهما لم تُمَيّزاهما.. فما كانت هذه ملامحها الجميلة بعد أن دب فيها الهزال والشحوب، ولا كان هذا اللبس المحتشم هو لبسها!

بعدها بدقائق كنا نجلس بأحد الكافيهات في مائدة بركن قصي، بعيدٍ عن زحام الشّباب والفتيات وضجيجهم، وبدأت تقص عليّ مأساتها.

- أنا مصابة بمرض نادر وخطير لا يقل في خطورته عن سرطان القولون، وهو القولون التقرحي الذي يحرق القولون ويتسبب في الإسهال المصاحب بنزف كتلٍ من الدّم، وآلام شديدة بأسفل البطن، مع الإحساس بفقد الشهية والضعف العام وقلّة الوزن، ولا بد من استئصال القولون في أسرع وقت وسأضطر بعدها أن أعيش والمصران خارج بطني.

لمعت عينها بالدموع، ففرّت من مواجهتي بالنظر للأسفل وتابعت:

- حدث ذلك بشكّل سريع ومتلاحق، بعد أن حاولت إغراء ذلك الوسيم لأنام معه.. فطالما عشقت تعذيب كل ذكر ساقه حظه العاثر ليمر في حياتي حتّى وإن كان ذكر العنكبوت! لعبت بالجميع وجعلتهم أضحوكة ألهو بها لتمضية أوقات الملل.. استمتعت ببكائهم وتوسلاتهم.. بعضهم قبّل حذائي وبعضهم ركع أمامي بلا أدنى تفكير حين أخبرتهم بأن هذا شرطي لأنأكد من صدق مشاعرهم.. وحده الذي حطّم أسطوري وأذل أنفي.. وحين قابلته بعد أن غادر الشاليه وحكيت له ما كان بلهجة متفاخرة يملؤها الزهو، وأكدت له أنني لن أتركه مهما كان، قال لي بلهجة لن أسأها ما حييت: "لطالما سقط من هم أكثر منك جبروتًا وقوةً بأتفه وأحقر الأسباب مثل مرض عضال لم تُجدِ معه حيلهم وأساليبهم.. أسأل الله أن يطهرك قبل فوات الأوان".

ثم بكت بحرقّة وهي ترفع رأسها نحوّي ببطء:

- ها هي ذي دعوته تُستجاب؛ ليطهرني المرض ويذل ناصيتي لأدرك مؤخرًا أن كل جمال مصيره إلى زوال، وكل قوة مآلها إلى ضعف، وكل المشاعر الجميلة يُزِيلها القدر لتبلى وتفنّى كالرماد.





(28)

### مذكرات الشاب الوسيم - 2

فقدت هاتفني المحمول؛ لذا طلبت من الشيخ (خضر) قلمًا وأوراقًا حتى أوصل تسجيل كل ما أمر به وأتعلّمه بالكتابة بدلًا من الصوت، بعد أن اكتشفت أن التدوين ليس خيارًا أو رفاهيّة لمن يخوض رحلة عجيبة كرحلتي، لعله يعثر على نفسه بين السطور.

كان ذلك بعد أن عدت معه إلى بيته القديم المكوّن من 4 أدوار، وتربط بوابته سلسلة حديدية ضخمة ما إن فتحها لدخل ثم أغلقها من الداخل وبدأنا نصعد إلى أعلى، حيثُ وجدت كل الشقق مفتوحة دون أن تكون لها أبواب تغلقها، وكل شقة ملاءى بمئات الكتب التي تغطي حوائطها وأرضيتها، صانعة ممراتٍ ضيقة تكفي للمرور من بينها بالجنب إذا ما أردت الدخول، بخلاف ألوف الوثائق الملفوفة، والمطويات المحفوظة خلف زجاج سميك.

"هنا يقبع رأس مالي الوحيد الذي أخشى عليه من الضياع، والكنز الحقيقي الذي لا يُقدّر بثمن، ومن حسن الحظ أنه الكنز الوحيد الذي لا يجذب اللصوص والخطافين رغم بريقه الأخاذ وقيّمته اللامحدودة لو كانوا يعلمون".

قالها عم (خضر) وهو يواصل صعوده على السلم دون أن يلتفت نحوّي، وهو على يقين من أن عينيّ تتأملان المشهد المبهّر بأعنى علامات الدهشة والتعجب.

تمامًا مثلما أدركت أن رأس المال الحقيقي ليس الأشياء التي يمتلكها المرء في يده أو في رصيده البنكي، ولكنها الأشياء التي يستطيع أن يستغنى عنها ويعيش بدونها مهما كانت غالية أو ثمينة في نظر باقي الناس؛ فطوبى لأغنياء النفس.

سأترهبن يا (آيات)، وكنت أتمنى أن يكون فتاك موجودًا مكانك اليوم لأطلب منه أن يصلي من أجلي؛ فهذا الفتى موصول بالله بشكلٍ أو بآخر رغم ماضيه الذي نجهل عنه كل شيء.

\* \* \*



"إنها نفائس العلم الذي جمعته من منابعه الأولى بكل اللغات على مدى سنواتٍ طويلة.. بعضها لا توجد نسخ أخرى له على وجه الأرض إلا في هذا المكان".

جاءت جملته الثانية حين وصلنا إلى السطح المفروش بالحصير، وتراصت فوقه مجموعة من الوسائد على غرار (القعدة العربي)، وتتوسطها صينية عريضة القطر ذات لون ذهبي لامع، وعليها نقوشٌ تُشبه تلك الموجودة على الكؤوس النحاسية المتراسة فوقها، وعلى إحدى الوسائد كان هناك جهاز حاسوب محمول علمت أن اسمه "لاب توب".

أما في ركن السطح فكان هناك موقد كيروسين عليه براد ضخم من المعدن، يكفي كمية كبيرة من الماء، بجانبه برطمانات من الشاي والقهوة والسكر والينسون وغيرها من فصيلة المشروبات الساخنة.

"هنا نقيم الحضرات مع أهل الله وأحبائه الطامعين في العروج إلى ملكوته، والتنعيم بأنواره المتجلية حول سبحات وجهه الكريم.. أردد على مسامع الحاضرين دوماً بلا يأس: من الممكن أن تشعر أنفسكم بالغبية وأنتم في أوطانكم.. ومن الممكن أن تشعر أرواحكم بالغبية داخل أجسادكم.. فهاجروا بالروح إلى العالم السماوي مثلما تتمنوا الهجرة من حيز الأماكن الموحشة.. وحينها ستجدون ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر".

دفعتنى كلماته للنظر نحو السماء في تلك الليلة المقمرة التي تالأت فيها النجوم المتناثرة في صفحة السماء فشعرت وأنا أتأملها أنني وحدي في هذا الوجود المضيء، وأن الأرض ومن عليها قد خلقت لأجلي، غير أنني لم أفهم كيف ينفذ الإنسان عبر أقطار السماوات في الأعالي إلى عالم الملكوت وقدماه لا تزالان راibضتين هنا في الأسفل، ولم أخرج من تلك الحالة العجيبة إلا ويده تربت على كتفي وهو يردف مبتسماً بعد أن اختلس نظرة نحو السماء، ثم صوّب بصره نحوّي وقال بلهجته المعتادة كقارئ أفكار لم أر له مثيلاً:

- سترى كل شيء بنفسك يا ولدي؛ فالإيمان لا يأتي إلا بالتأمل، والتجربة، والتبحر في آيات الله حولنا، وفي أنفسنا.. وسأتولى تلخيص وشرح ما جاء في كل الكتب والوثائق التي بهرتك كثرتها بعد أن صرت حافظاً كل حرف فيها.. فقد خضت رحلة طويلة أخشى أن الوقت المتبقي لك لن يكفي لتخوضها، وليس على الإنسان أن يمر بكامل خبرات الآخرين ليصل إلى ما وصلوا إليه، فافهم!

ثم أعد الرجل لنا كوبين من الشاي وبدأ يحيي..

"ينتمي أنبياء اليهود والمسيحيين والمسلمين لأصل واحد وهو نبي الله إبراهيم (عليه السلام)، وبدون تتبع الخيوط والأنسال والوصايا والتعاليم التي بدأت من الجد الأكبر إبراهيم -بعد أبينا آدم- سيكون من العسير علينا العثور على رابط منطقي بين تلك الجزر المنعزلة التي يعيش فيها أتباع هذه الأديان.. فتعال نبدأ الحكاية من عند أبي الأنبياء".

وقبل أن يواصل خضر حديثه قاطعه هذه المرة صوت السماء ونداء الخالق متمثلاً في أذان الفجر، فابتسم وقال لي:

- لن أدعوك للصلاة بجسدك حتى تؤمن بقلبك أولاً، فقط تعال معي إلى المسجد واسأل الله بكل كيائك أن يأتيك من لدنه رحمة، وأن يهيئ لك من أمرك رشداً.

.....

انتهى (الخضر) من حكاية قصة الخلق مُنذُ أبينا آدم حتى بعثة نبي الإسلام محمد بن عبدالله، ولمست فيما حكى الكثير من الأمور المشتركة بين جواهر الأديان الإبراهيمية..

وما كنت لأفهم الصورة الكاملة للإسلام بدون الجذور القصصية والتاريخية التي وردت في العهدين القديم والجديد، والتي جعلتني أعرف أسماء وتفصيل تمت الإشارة إليها بأسلوب رمزي لا سيما في قصة موسى مع قومه؛ إذ جاء في القرآن: ﴿قَالَ رَجُلَانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِنَّ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾، فعلمت أنهما كالب بن يفته، ويوشع بن



نون الذي قاد بني إسرائيل في دخول الأرض المقدسة وهزيمة الكنعانيين..  
 وحينَ قال القرآن: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَكِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى  
 إِذْ قَالُوا لَنَبِيِّ لَّهُمْ إِنْعُثْ لَنَا مَلِكًا نُنْقِذَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ قَالَهُ هَلْ عَسَيْتُمْ  
 إِنْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا قَالُوا وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ  
 وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِنْ دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلًا  
 مِّنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾، علمت أن هذا النبي اسمه صموئيل، مثلما  
 علمت أن شاول في العهد القديم هو طالوت في القرآن، وجليات هو  
 جالوت، وغيرها من الأسماء والتفاصيل.

والمذهل أنني وجدت نفسي -للمرة الثانية- حافظًا بعض آيات  
 القرآن التي أنزلها حتى إنني كنت أرددها في أحاديثي قبل أن أعرف  
 أنها مأخوذة من كتابٍ مقدسٍ يؤمن به ملايين البشر، تمامًا مثلما حدث  
 معي في بعض الآيات الإنجيلية!

لكن بعض الخلافات بين التوراة والإنجيل والقرآن كانت مربكةً  
 بحق، إلى حد أعيا عقلي عن الاستيعاب والفهم..

فقصة ذبح إسحق في التوراة والعهد القديم وفدائه بكبش عظيم،  
 وجدتها في القرآن تنطبق على إسماعيل بن إبراهيم وهاجر، وكل الأنبياء  
 الذين وردوا في الإسلام نزهتهم الآيات القرآنية والسيرة النبوية عما علق  
 بهم من خطايا وأثام وموبقات، فلم يذكر الإسلام بأي حالٍ واقعة زنا  
 بنات لوط عليه السلام بأبيهما، ولا كراهية يعقوب لأخيه عيشو واحتياله  
 عليه ليأخذ البركة من أبيه إسحق بدلًا منه، ولا مصارعة يعقوب لربه  
 يهوذا وانتصاره عليه حتى أخذ البركة منه وتحول اسمه بعدها إلى  
 إسرائيل، وكلها وقائع قرأتها في سفر التكوين، بخلاف زنا داود بزوجة  
 أحد قواده، ثم تأمره على قتله بعد ذلك كما جاء في سفر صموئيل  
 الذي ذكر أيضًا ما قام به داود وشاول (طالوت) من احتيال وسفك دماء  
 الكهنة الصالحين والأبرياء من النساء والأطفال والرضع دون أن أرى لذلك  
 مثيلًا في الإسلام.

حتى قصة موسى التي استفدت من قراءتي التوراتية في فهمها في  
 السياق القرآني جاء في سفر الخروج أن أخاه (هارون) هو الذي صنع  
 العجل الذي عبده بنو إسرائيل حين صعد موسى الجبل لملاقات ربه  
 وأخذ الألواح المقدسة التي فيها وصايا وتعاليم الرب، بينما نفى القرآن  
 ذلك وقال إن من فعل ذلك كان شخصًا يدعى السامري.

أما مفهوم الرب نفسه بين الأديان الثلاثة فكان الاختلاف فيه من  
 أعجب ما يكون..

في العهد القديم التوراتي شعرت بأن الرب يهوه مثله كمثل إمبراطور  
 أو ملك يتحدث مع البشر كمن يخطب في جنده، فهو يتعب ويستريح،  
 وينام، ويغير، ويغضب، ويتشكل في صورة بشر.

وفي العهد الجديد يأخذ طبيعة إنسانية ناسوتية فينزل في صورة  
 يسوع ليفدي البشر من خطيئة أبيهم آدم ويصلب من أجل خلاصهم،  
 رغم أنهم لا ذنب لهم في خطيئة لم يقترفوها من الأساس.

وفي الإسلام نرى الرب بقدراتٍ لا نهائية، تجعله مع مخلوقاته طوال  
 الوقت دون أن يحتويه زمانٌ ولا مكانٌ، ووجود عرشه فوق سبع سماوات  
 لا يرتبط بوجوده هناك دون الأرض أو أي مكان في الكون الفسيح.. صفاته  
 غير محدودة، وأفعاله لا يحدها حد، لكنني لم أفهم بعد كيف يكرر  
 الإله، وما جدوى وجود الجنة إن كان الله قد قال: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْ  
 الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾!

"ما كل هذا التخبط الذي تركنا الله فيه يا شيخ خضر؟"

قلتها وأنا أشعر بحيرةٍ لا نهاية لها، فأجاب:

- الله لم يخلق التخبط.. كما لم يخلق الشر.. إنما انعدام الطيبات من  
 حياتنا هو الذي يحيلها إلى خبائث.. فالشر في حقيقته انعدام الخير..  
 والتخبط في حقيقته انعدام المعرفة.. الشيطان ينفي الطيبات ليعم الخبث  
 يا ولدي ويسهل الإغواء.

- ولماذا تركنا الله في حيرةٍ تفوق قدراتنا، ثم يحاسبنا في النهاية على  
 حمل ما لا طاقة لنا به؟

- لو لم يكن لك طاقة به لما حمله لك.. هكذا قال في كتابه العزيز:  
﴿رَبِنَا وَلَا تُحْمِلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ﴾.. فرغم كل هذه الشرور والتخبط  
منحك الله عقلاً ليفكر، وقلباً ليستشعر.. منحك الورقة والقلم لتدوّن..  
منحك صفحات التاريخ والعلوم والمعارف لتقرأ؛ فإذا ما أخلصت النية  
واجتهدت حقاً استطعت ربط كل المتفرقات وحقّتها منها ثوب الهدى  
والفهم ليرتديه عقلك وقلبك الحائران وتصبح من العارفين؛ لذا كان أول  
أمر إلهي في الإسلام: "اقرأ"؛ حتّى تخرج البشريّة من جهلها وضلالها،  
وتصل إلى الحقائق التي زيفها الشيطان وعبث بها وشوهها لتكون معيّنًا  
له في رحلة الإغواء التي بدأت مُنذُ عهد أبينا آدم.

يقول المولى عز وجل: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي  
مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾.. كنت أعتقد في البداية أن المشيئة  
المذكورة في الآية تعود على الله الذي يهدي من يريد له الهداية، لكنني  
اكتشفت فيما بعد أن كلمة (من يشاء) في الآية تعني الشخص الذي  
يريد الهداية ويسعى لها؛ لذا أعقبها بقوله: ﴿وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾؛  
أي الذين يريدون نور الهدى ويبحثون عن الحقيقة، وكل إنسان  
سيحاسب على قدر صعوبة الاختبار والابتلاءات التي مرّ بها؛ فمحاسبة  
الله للإنسان الفقير الضعيف المقهور لن تتساوى بمحاسبته لذي الجاه  
والمال.. ومحاسبة الشخص السليم الصحيح لن تتساوى بمحاسبة ذي  
العاهة والمرضى.. ومحاسبة الشخص الذي لن تتساوى بمحاسبة محدود  
الفكر.. لكن جميعهم على اختلافاتهم عليهم واجبٌ مشتركٌ هو عبادة  
الله حق عبادته، والتأمل والتفكير وعدم التّقصير في الفهم والبحث  
والتحري ومحاولة الوصول للحقيقة.. حتّى أولئك الذين على صواب  
لمجرد أنهم ورثوه سيحاسبهم على الاكتفاء بالوراثة.. فما جدوى الصواب  
لو لم يقتنعوا به ويستقر الإيمان في قلوبهم عن حق.

ستجد يا ولدي الأمر صعبًا وشائكًا، وستشعر باختلاط الأمر عليك  
كثيرًا، لكن ثق بأن تمسكك بحبل الله سيجعلك في مأمن من سهام القدر.

- إن كان الله تعالى يرمينا بسهام القدر التي تُصيبنا فكيف لنا  
بالنّجاة؟!

- كن بجوار الرامي تنجوا!

لي حبيب أزوره في الخلوات .. حاضر غائب عن اللحظات

ما تراني أصغى إليه بسري .. كي أعني ما يقول من كلمات

كلمات من غير شكل ولا نقط .. ولا مثل نغمة الأصوات

حاضر غائب قريب بعيد .. لم تحوه رسوم الصفات<sup>(1)</sup>

هزنتي تلك الأبيات الشعرية التي ردها الشيخ (خضر) في حضرة  
العشق الإلهي التي يردد فيها أشعارًا قالها سادة وأقطاب التصوف،  
وتحمل معاني عميقة تحتاج للتفكير والتدبر فيها مرات ومرات، ومع  
كل مرّة يتضح بها دلالة جديدة وإشارة خفية، ويشاركه في ذلك  
تلك الجماعة التي تجتمع معه كل يوم بعد صلاة الفجر، فيجلسون  
يذكرون الله بتسايبح ومحامد ومشاعر بكلماتٍ شديدة الجمال والروعة،  
وبأصواتٍ خلابة شجية لا أدري متى سمعت أصواتًا تُشبهها لكنني أشعر  
معها بالألفة الشديدة، ومع كل حرفٍ في الأذكار والتسايبح يزداد انتفاضهم  
وتأثرهم حتّى تحل بهم أحوالٌ غريبةٌ وكأنّهم ذهبوا لعالم غير العالم،  
يشاهدون فيه مخلوقاتٍ لا وجود لها إلا في أعينهم وينجلي أثر ذلك  
في ملامحهم ونظراتهم، ويصلون على النبي محمد حتّى تفيض أعينهم  
بالدمع، وهم يبدون جُلَّ أشواقهم للقائه في الفردوس الأعلى، والشرب  
من يده الشريفة شربة هنيئة لا يظمأون بعدها أبدًا.

بالحق أقسم.. ما رأيت عشقًا للإله ولأحد أنبيائه مثل هذا من قبل.

"لكن ماذا تعني كلمة الصوفيين يا شيخنا؟"

سألته، فأجابني:

(1) هذه الأبيات ل: أبو عبدالله حسين بن منصور الحلاج، أحد أعلام التصوف في  
التاريخ الإسلامي

- إن بحر التصوف لا قرار له يا ولدي، به طرق ومعارج تؤدي بسالكها إلى الله، وبه دجل وشعوذة وأساطير أقحمت عليه وتورد متبعتها مورد الهلاك.. البعض يحذر من شطحات الصوفيين، والبعض يقول إنهم أهل شطط وضلال وانحراف، وينصح برفض التراث الصوفي كله لأنه لم يرد فيه نص قرآني أو من السنة النبوية، والبعض يؤمن بتقديس كامل لكبار الصوفيين ويتناول أقوالهم وأفعالهم على أنهم معصومون، لا يأتيهم الباطل من بين أيديهم ولا من خلفهم، والحقيقة هو بحر عميق فيه اللآلئ والأصداف، وفيه أيضًا التماسيح والحيتان، وسالك طريق التصوف يشبه من ينشد الملاحه في بحر الظلمات بقاربٍ شراعي، والتور الوحيد الهادي للسالك في هذا البحر هو نور القرآن والسنة، وبدون الشريعة لا يمكن أن يصل القارئ لبر أمان. وقد يئس الباحثون والدارسون في حصر تعريف التصوف، لكن ثمة تعريفات تبدو أقرب من غيرها.. البعض قال إن التصوف مشتق من الصوف الذي كان رداء الأنبياء والرُهاد، ويدل على التقشف.. والبعض رأى أنه مشتق من الصفا لما يؤدي إليه من صفاء النفس عن كدر المحسوسات، ويؤهلها للتزقي في طريق الأحوال والمقامات..

والبعض ذهب إلى أنه مأخوذ من الكلمة اليونانية "سوفيا" وتعني الحكمة باعتبار الصوفية هم الحكماء الإلهيين الذين جمعوا بين العلم الظاهر والمعرفة اللدنية التي يد بها الله قلوب من يصطفيهم من عباده.. والبعض نسبه إلى أهل الصفة وهم جماعة من فقراء الصحابة انقطعوا للعبادة في المسجد النبوي بالمدينة.. والبعض نسبه إلى صوفة وهي قبيلة يمنية كانت تُجيز الحجيج وتخدم الكعبة، فصار الاسم علمًا على الانقطاع لخدمة الله، لكن ما يعنينا أنه طريق روعي ونور يتخلل سريرة العبد، فتحمل حركاته وسكناته على جناحي المحبة والإخلاص لله، وتظل ترقى به من أوهام الحياة الدنيوية إلى حقائق العيش الأبدي بقرب الحق تعالى، وهذا كله يبدأ بالالتزام بظاهر العبادات والمعاملات التي أمر بها الإسلام ولا يغني عنها أبدًا، وإلا صار السائر في هذا الطريق كحاطب الليل الذي لا يأمن الأفاعي، وربما خدعته الأماني كما خدعت

كثيرين فخرجت به عن مراده؛ فطريق أهل الحقائق شائك، محفوف بالمخاطر، ولولا التزود بمصاييح الشرع وظاهر الشريعة لانغرست في القلب الأشواك.

ما إن جاء ذكر كلمة الشريعة على لسانه حتى سألته:

- لماذا أرسل الله محمدًا بشريعة جديدة بعد ما جاء في العهدين القديم والجديد من دين به كثير من التعاليم والوصايا بشكل واضح للبشر كافة، ومن شأنه أن يوصل أتباعه أيضًا لملكوت السماء؟  
ابتسم، ثم أجاب:

- لو كنت تؤمن بالكتاب المقدس بعهديه القديم والجديد لأدرت أن الله ما أرسل أنبياءه منذ بدء الخليقة بشكل عشوائي، بل كان لكل منهم أهميته سواء في عصره أو المنطقة الجغرافية التي بُعث فيها، فتعال نتحدث بشكل عقلي.. من كان لهداية شبه الجزيرة العربية وأمة العرب أبناء إبراهيم من نسل إسماعيل؟

كان هناك يهود في مكة والمدينة وشبه الجزيرة العربية يا ولدي فماذا فعلوا تجاه عبادة الأصنام التي تفتت في ذاك الحين بجانب انتشار الظلم والقسوة؟ فقط اكتفوا باعتزال ذلك، ولم يحاولوا استيعاب العرب حولهم وتنويرهم بتعاليم التوراة انتصارًا لوحداية الإله الذي به يؤمنون، بل ظلوا يرددون أن الوقت قد حان لميلاد نبي آخر الزمان ليوحدهم ويقودهم لاستعادة أمجاد بني إسرائيل، ويؤكد التاريخ نبوءاتهم وأقوالهم.

كان هناك مسيحيون أيضًا، وكانت هناك نبوءات كذلك بينهم بنبي كثير الحمد يأتي من بعد المسيح، فلم تفلح اليهودية ولا المسيحية في تهذيب وتوحيد ذلك المجتمع العربي البدوي بكل ما فيه من قبائل ترتكب أشد الموبقات جرمًا سواء عبادة الآلهة الوثنية، أو قطع الطرق وسبي الأحرار، بخلاف القمار وشرب الخمر وغيرهما، أليس ذلك وحده كافيًا لبعث نبي جديد لهذا المكان وهؤلاء القوم؟



ففي العهد القديم كان من الممكن أن يبعث أكثر من نبي في وقتٍ ومكانٍ واحدٍ ليشدوا من أزر بعضهم في إتمام الرسالة ومواجهة قومهم مثل موسى وأخيه هارون، فماذا عن مجتمعٍ لم تقم فيه اليهودية والمسيحية بدورهما.. ألم يكن في حاجة ولو لشخصٍ واحدٍ يتمم رسالة الله؟

وقد جاءت في القرآن آياتٌ كثيرةٌ عن بشارة الرسل والأنبياء بنبوة محمد مثل دعوة إبراهيم حين قال تعالى: ﴿رَبَّنَا وَأَبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُرَكِّبُهُمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾، وقد توافقت تعاليم الإسلام مع تعاليم ووصايا الجد الأكبر إبراهيم أبي الأنبياء الذي كان حنيفًا عابدًا وموحدًا لله، ولن تجد في الإسلام ما يتناقض مع هذه التعاليم والمنهج الرباني المشترك بين جميع الرسل والأنبياء.

وكان أهل الكتاب من اليهود والمسيحيين يعلمون بحقيقته أيضًا بشكله ووصفه مثل الأب الذي يعرف ابنه تمام المعرفة ولا يمكن أن يخطئه، فأمن به البعض من اليهود مثل أبي بن كعب بن قيس الذي كان من أحبار اليهود، وكعب بن ماتع الحميري الشهير بكعب الأحبار وغيرهما، والبعض الآخر من المسيحيين مثل سليمان الفارسي وعديّ حاتم الطائي وأخته سفانة، وهناك من أنكره من كلا الفريقين لأن محمداً لم يبعث من قومه أو عشيرته، وهو ما قال الله تعالى عنه: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ الْحَقَّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾.

فضلاً عن أن آخر رسالة إلهية كان لا بد أن تعيد تصحيح الكثير من المفاهيم والتشريعات في الأديان السابقة، مثل: قضية صلب المسيح، وما أُلصق بأنبياء الله من تصرفات وأفعال هم منها براء.. والطبيعي أن أتباع كل دين يرون في دينهم الكمال والتمام الذي يُغني عن الإيمان بدين آخر جديدٍ يُصحح المفاهيم ويُيسر على الناس حياتها.. فلا اليهود يؤمنون بالمسيحية، ولا المسيحيون يؤمنون بالإسلام، ولا الإسلام يؤمن بالبهائية.

قلْتُ له ملهوفًا:

- هذه النقطة تؤرقني بشدة يا سيدي، فالخلافات التي بين...  
قاطعني بإشارةٍ من يده قائلاً:

- في آلاف الكتب الموجودة تحتنا يا ولدي هناك آلاف الأبحاث والمنظرات والتفسيرات في كل الأديان والملل سواء الإبراهيمية أو غيرها.. الإسلام، المسيحية، اليهودية، البوذية، الهندوسية، الزرادشتية، المانوية، الجانتية، البهائية، الداوية، بخلاف وثائق وأبحاث أخرى عن علاقة الأديان بالأساطير، لكن ما قادني للإيمان بالله على نهج نبيه الكريم كان الحب في المقام الأول قبل عقد أي مقارنة مع باقي الأديان، أو قراءة أبحاث ودراسات في هذا الصدد.

- الحب؟!!

- نعم.. الحب الصافي الذي يُعيد الإنسان إلى منابعه الأولى.. فعندما تذكر كلمة (الحب) أول ما يخطر ببالك هي تلك المشاعر والأحاسيس بين رجل وامرأة، رغم أنه حب هامشي جاء فرعاً من جذورٍ أبعد وأعمق تقود إلى حب الخالق الذي هو أصل كل شيء..

- فالحب هو المرادف الوحيد للإيمان؛ لأنه ينفذ للقلب مثله ويكشف مثله عن ذاتنا العميقة، ويُطلعنا على كنوزنا وأسرارنا، والحب الذي هو أعمق من كل حب لا يفجره في القلب إلا التصوف والشعور الديني؛ لأن الدِّين هو الذي يأخذ الإنسان الساقط في حدود الزمان والمكان ليرفعه إلى السماوات الأبدية، ولا يرفعه إلى هذه السماوات إلا الحب.

فما حب الإنسان للبشر، وما حب الإنسان للفن، وما حب الإنسان للجمال إلا محطات سفر مؤقتة تقودنا إلى محطة الوصول النهائية التي ينتظرنا فيها أعظم محبوب يستحق الحب.

هو أصل كل شيء، وصورة جميع الصور، وقد اتجه العالم كله إلى الله بالحب مُنذُ لحظة كُن، حينما نظر الله إلى أعيان المخلوقات في العدم وأمرها بالوجود، فتطلعت إليه وهامت به حُبًا، ولولا هذا الحب الخفي ما كانت حركة العالم وسيره نحو الكمال ولا كمال إلا وجهه..





عندها سيشعر أنه وجد نفسه حقًا، وعرف إلهه، وحدد هدفه وطريقه.. سيدرك أن كل ما عاناه من عذاب وألم وإحباط ويأس لم يذهب سُدًى؛ فقد كانت كل تلك الآلام هي بوصلته وطريقه في بحر الظلمات.

أهل العزائم بالأرواح قد ساروا لم تُلهِمهم زينة الدنيا وآثارُ  
غابوا هولاهم عنهم فقرَّبهم لا جنة الخلد تشغلهم ولا النَّارُ  
غابوا عن الكون والأشواق تجذبهم لأنهم في سما الملكوت أنوارُ  
قد وجهوا الوجه لله العليّ فلم يقهرهم حالهم فيه وأوطارُ

.....

الآن بدأت أعرف الله أكثر من ذي قبل، حينَ توجهت إليه بقلب المحب لخالقه، وحاولت استجلاء سره الخفي خلف حجاب المظاهر.. فمعرفة حقيقة الإله لا تقتصر فقط على ما أنبأنا به عن نفسه في كتبه المقدسة؛ بل يقول الصوفيون إن عدد الطرائق إلى الله كثيرة جدًا بعدد أنفاس مخلوقاته، ولها مسالك أخرى كالتأمل والتفكير حولنا وربطهما بصفاته وقدراته المتجلية لنا في الكون..

تيقنت من ذلك حينَ وجدت الشمس تأفل، والزهور تذبل، والربيع ينتهي إلى خريف، والصحة تنتهي إلى مرض، والحياة تنتهي إلى موت، والإمبراطوريات تزدهر وتندثر، والقارات يبتلعها المحيط، والنجوم تنفجر في فضاء الكون وتختفي، وعالم المظاهر حولنا عالم خادع مخادع، يتلون كالأكاذيب، ويتحرك إلى زوال وفناء، وكأنَّه رسوم على الماء، أو نقش على رمال تذرره الرياح.. بينما الله ليس من هذا العالم، وإنما "متعال" عليه.

العالم باطل والله حق.. العالم زائل والله دائم.. العالم متغير والله ثابت.. العالم سجين في حدود الزمان والمكان والله لا يتحيز في زمان أو مكان، فليس له حجم، ولا مواصفات مكانية، ولا يمكن أن يُقال إنه فوق أو تحت، أو عن يمين أو شمال، أو داخل أو خارج، وليس له عمر، وليس

وهو سبحانه المطلوب وإن تخفى تحت أسماء وصور عديدة.. فكل أنواع الحب ما هي إلا أتعبة وأسماء لحب الله وصفاته المتنزلة فينا.. فالطفل يحب في أمه وأبيه وأوصاف المُعطي الوهاب الرزاق الحافظ.. والفنان المبدع يحب ما تجسده صنعته من أسماء الخالق البارئ المصور البديع.. والمفكر والفيلسوف يحب أسماء الحق العليم اللطيف الخبير المحيط.. ومحِب الله لا يخاف فراقه.. فليس عنده هذه المشاعر السوقية المبتذلة سواء اللوعة أو الضنى أو الصباية أو الهجر.. فهو يشعر أن محبوبه أقرب إليه من حبل الوريد، وأقرب إليه من نفسه حتَّى إنه يراه ظاهرًا له في كل شيء؛ في بسمته وليده؛ وأوراق الشجر؛ ورقصة عصفور الصَّباح.. ويزداد الشوق مع ازدياد المشاهدة والتأمل، بخلاف أشواق المحبين التي تخفت عند اللقاء.

أما ما هو دون الله من حب فهو مجرد وسيلة لها فترة صلاحية حتمًا ستنتهي.. فمرة بعد مرة يكتشف الإنسان أن موضوعات حبه لا تملك وجودًا حقيقيًّا؛ فالوردة تذبل؛ والشمس تغرب؛ والجديد في الفن يبلى.. وما رآه في المرأة جمالًا يكتشف أنها لا تملكه، وأنه يزايلها بالشيخوخة، فقد كان وديعة أودعت عندها ثم استردها صاحبها، وتبرد الشهوة، وتفتت العاطفة، ويتجه إلى امرأة أخرى لتتجدد الخيبة، ويتجدد الملل والضجر، قبل أن يكتشف أن حبه أكبر من أن تستوعبه ذراعان وفرج.

حبه الحقيقي يعبر به الغايات المحدودة حتَّى يتجرد عنها، وحينَ يقف على عتبة المجردات سيدرك أن الله هو الغاية الأسمى التي يجب أن نعشقها بكل ما فينا؛ هو الواحد الذي تتجسد فيه كل هذه القيم اللانهائية.. هو اللامحدود في مقابل المحدود.

إن حب الإنسان لنفسه، وحبه للمرأة، وحبه للجاه والسلطان يقوده إلى يأس بعد يأس، وملل بعد ملل، وإحباط بعد إحباط، حتَّى يشرق فيه حب الحق ليدله على الطريق إلى الواحد الأحد الذي تجتمع فيه كل الكمالات؛ فيزداد حبه عمقًا ويصبح عبادة وصلوة وهو يصعد في طريق العودة إلى منبع الأنوار.



له بداية أو نهاية، وليس له ماضٍ وحاضر ومستقبل، وإنما هو حضورٌ مطلقٌ، وأنَّ مستمر، وديمومة أبدية ماثلة في الغيب والشهادة على الدوام. ولأنه منزّه عن الزّمان والمكان فهو لا يتحرك ولا ينتقل، وإنما هو ساكن سكوتاً مطلقاً.. صامد.. وكل ما حوله يضطرب، وهذا معنى "الصمد"؛ أي الثابت ثباتاً مطلقاً؛ لذا فهو الملجأ والأمان من خضم الاضطراب..

تلقي النفوس إليه مراسيها كما ترسو السفن وتلقي بمراسيها إلى القاع الساكن، وتستمد ثباتها من ثباته؛ فهو الصمد الذي يصمد إليه. نحن في القيد (الزّمان والمكان).. والله في الإطلاق (الأزل والأبد)، ليس له مبتدأ ولا منتهى ولا حدود.

وهو "اللطيف" منتهى اللطف.. ليس له جسم ولا مادة ولا كتلة ولا ثقل ولا كثافة تعوقه، ومن ثم فهو يتخلل كل شيء في حضور كامل مع كل شيء، في كل وقت.

هو معنا أينما كنا، قريب منا، منتهى القرب بحيث لا نراه كما لا يرى الواحد منا سواد عينيه..

هو الواحد في وجوده.. الأحد في تفرده، والأحدية هي أنه لا ينقسم ولا يتجزأ، ولا يمكن أن يكون له بعض أو جزء أو ضد أو ند، ولا يجوز عليه التعدد أو التناقض أو الازدياد.. وهو لا ينحل ولا يتركب ولا ينفرد ولا يتحد ولا يتصل ولا ينفصل.

الله يتجلّى فينا لكنه لا يحل بنا، مثل الرقم (واحد) المدرج في جميع الأعداد ويسري فيها باستمرار، وباقي الأعداد تُعد من مضعفاته، فرقم (اثنان) أصله واحد وواحد، لكنه في النهاية اسمه (اثنان)؛ حيث يسري فيه الواحد بشكلٍ خفي، وبالمثل تسري الأحديّة الإلهية في كثرة المظاهر والعلوم؛ لتبقى خفية ككنزٍ مطموسٍ جاهز أن يكتشفه كل ذي عقل راجح، وقلب مؤمنٍ ينظر إلى ما وراء المظاهر، فإن افتتن بالمظاهر احتجب عنه الكنز وضل الطريق، ومن تجاوز الظاهر إلى الخافي المرموز اهتدى إلى المسار السليم ونال نعمة النعم.

فالنور الذي يتجلّى في مصابيح النيون قد يكون نوراً أحمر أو أزرق، لكنه في النهاية له أصل واحد وهو النور الأبيض، ذلك مثل الله؛ نبغٌ واحدٌ، تتعدد صفاته وقدراته كتعدد ألوان الضياء النابعة من أصل نوراني واحد.. وقد يكون المصباح نفسه على شكلٍ حلزوني أو أنبوبي أسطواني، أو شكل قلب أو دائرة، تلك هي المخلوقات تأخذ أشكالاً وقوالب مختلفة تحل فيها صفات الله وعلومه وقدراته؛ لنعاين الخالق المحتجب وراء صفاته الدالة عليه فينا وحولنا.

تلقي فيه الأضداد (الجبار الرحيم) و(المعز المذل) و(النافع الضار) في وحدة مطلقة لا تضاد فيها ولا تناقض ولا تصارع مثلما تحدث الصراعات داخل البشر، ومن هنا كان اسمه "السلام"؛ حيث لا حرب داخله، بينما تجتمع هذه الأضداد داخل البشر فتجعل أحوالهم تتبدل وأمزجتهم تتغير.

هو "القيوم" الذي يقيم كل شيء حي، ويمنح الحياة للعدم، وكل شيء يقوم بالله ولله.. النجوم في أفلاكها تمسكها قوانين الله فتقوم به، والأشجار ترفع قامتها به ويمدده، ونحن نقوم كل يوم من نومنا به ويمدده.. نرى به، ونسمع به.. بالمواهب التي بثها فينا.. والكون كله يدين بقيومته لله.. فهو قيوم كل شيء.. وهو مقيمنا من الموت يوم القيامة.

في بعض المخطوطات القديمة هنا في الدار عثرت على واحدة لمُتصوِّفٍ قديمٍ يدعى النُّقري، تناول تفسير اسم الله "العزیز" فقال:

"يقول الله لعبده: ما أنا معيون للعيون، وما أنا معلوم للعلوم، وما أنا مُعرَّف للمعارف، أنا العزيز الذي لا يُنال".

أنا الملك الظاهر بالكرم، المحتجب بالعزة، أنا الظاهر ولا ترائي العيون، وأنا الباطن ولا تطيف بي الظنون.

أعجبنى كلامه، فتابعت كتاباته حتى شعرت بقشعريرة غير عادية وأنا أقرأ له تفسير الآية القرآنية:

﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الْمُنتَهَىٰ﴾ التي استشعر في تفسيرها أن الله يقول لعبده:

يا عبدي، إذا حصلت على كل شيء فأين غناك؟!

إذا فاتك كل شيء، فأين ففرك؟!

إذا أعدتكَ من النَّار، فأين سكينتك؟!

إنما أنا سكينك، وعند مقرك، وبين يديّ موقفك.. أنا المنتهى وليس دون المنتهى راحة.

لم أعرف إلى أين أوجه بصري لله وأنا أسأله، فرددت في قلبي: "ألهذا السبب يعيش أغلب البشر في بؤس وشقاء يا رب؟!".

.....

"والآن وقد عرفت الله بقلبك، وحاولت الوصول إليه بالتأمل والتدبر، تعال نعرفه بطريق آخر، ووسيلة مختلفة وهي العلم المادي".

قالها الشيخ خضر ونحن نجلس فوق السطح المضيء بنور القمر والنجوم، وبدأ يتحدث بلسان العلوم والمعارف:

— أنا وأنت، وكل ركاب هذه السفينة الفضائية التي اسمها الأرض، نعلم أنها تمخر عباب هذا الفضاء منذ ملايين السنين، في صحبة كوكبة من الفرسان من أبناء أسرة الشمس، والشمس بدورها مع مائة ألف مليون شمس أخرى تؤلف مدينة ساحبة تُسمى المجرة، ومثلها من المجرات مائة ألف مليون مجرة تسبح في طول الكون وعرضه على مدى اللانهاية من الرؤية.

رفع رأسه لأعلى ولوح بيده مشيراً للنجوم وتابع:

— نظرة في السماء في منتصف ليل ساج إلى هذه العمارة الكونية الهائلة سوف تثير ذهولك إذا ما سألت: إلى أين نسير؟ وما النهاية؟ ومن الذي خلق؟ وكيف؟

فيأتينا العلم بالإجابة حين يقول لنا إن هذه العمارة الهائلة على سعتها وتراميتها كلها مبنية من نسيجٍ واحدٍ وخامةٍ واحدةٍ، ومصممة كلها بأسلوبٍ واحدٍ وخطيةٍ واحدةٍ، ومحكومة بقوانينٍ واحدة.

سوف يقول لنا العقل لا بد أن الخالق واحد، والمبدع واحد، فإذا أدرنا البصر عائدتين إلى الأرض وأحوالها ورحنا نتأمل ما فيها من حياة

ونبات وحيوان وإنسان، وجدنا الشيء نفسه.. نفس القوانين الواحدة، والخامة الواحدة، والنسيج الواحد، والأسلوب الواحد، والخطية الواحدة في الجميع..

الذي بنى السماء هو نفسه الذي صنع أوراق الشجر، وهو الذي وضع السم في العقرب، والعطر في الورد، والعقل في البشر، وهو الذي صنع الجميع من خلايا متشابهة، كما تبنى البيوت من لبناتٍ واحدةٍ؛ لذا فإن وحدة القوانين المعمارية تؤكد لنا وحدة الخالق الذي انفرد وحده ببناء كل شيء قبل أن يكون هناك شيء.

صوّب بصره إلى عينيّ واستطرد:

— أكبر شيء في الدنيا كلها هو الواحد الصحيح.. فيإمكانه أن ينقسم إلى 2 ثم إلى 4 ثم إلى 8 ثم إلى 16 إلى ما لا نهاية؛ فيعطيك كل الأرقام التي تخطر بذهن عمالقة الحساب.

ثم التقط حاسبه الآلي الموجود إلى جواره وأشار لشاشته وبدأ يقلب صوراً عديدة قائلاً:

بدأت الحياة بخلية واحدة، انقسمت فأصبحت خليتين، ثم أربعاً، ثم ألوفاً وملايين وبلايين تنوعت بحسب البيئات والظروف، وخرج منها كل ما نرى حولنا من زواحف وطيور وفرشات وديدان وقردة وأدميين.

وبدأ الكون بغاز بسيطٍ واحدٍ هو الأيدروجين الذي يشتعل الآن في باطن النجوم؛ ليعطينا النور والدفء مع أشعة الشمس كل صباح.. ومن الأيدروجين في باطن الأفران النجمية الهائلة جاء الحديد والنحاس والذهب والقصدير والرصاص والكربون والسيليكون، وغيرها من عناصر ومكونات الطبيعة سواء الموجودة في صورة مواد أولية منفصلة أو متحدة على شكل مركبات.. وما نرى حولنا على الأرض من تصانيف الغازات والسوائل والجمادات ليس إلا هذه التواليف التي نشأت كلها من قسمة واحدٍ صحيحٍ اسمه ذرة الأيدروجين.

حتّى أنت في حد ذاتك واحد صحيح.. تبدو في نظر نفسك صغيراً ومحدوداً لكنك تستطيع أن تستوعب من المشاعر والمدركات والمعارف



ما لا حد له.. ورغم أنك أصغر من العالم بكثير لكنك تحتويه في داخلك وتصوره وتتخيله وتراه.. على شبكية عينيك ترتسم صورة واضحة ودقيقة للشمس والقمر والنجوم والمجرات، وفي عقلك تختصر الرموز والشفرات وهندسة الكون وسره ومفاتيحه ومغاليقه.. وكما قال الإمام علي بن أبي طالب (رضي الله عنه):

**أَتَزْعَمُ أَنَّكَ جِزْمٌ صَغِيرٌ وَفِيكَ انْطَوَى الْعَالَمُ الْأَكْبَرُ**

وكل ما في الوجود من ظواهر ونبات وجماد وحيوان وإنسان هي في الحقيقة أجزاء الواحد الصحيح الذي أوجدنا في الوجود، وكسانا بهيئاتنا وأشكالنا.. كل منا لحن وجملة موسيقية في سيمفونية متكاملة، والعذاب والألم لا يأتيان إلا مع الإحساس بالانفصال.. حين تنفصل في أنانية عن الكل، وتنسى أنك حرفٌ وسطرٌ في آية الوجود الكبرى.. أما إذا توجهت إلى الوجود في شعورٍ حميمٍ بالنسب والقرباة فستشعر بأنك تستطيع أن تؤاخي الأسد، وتتصاحب ضباع الغاب، وتروض الثعابين والأفاعي، فتلهو معك وتلهو معها، وكأنها عائلتك؛ ذلك بأن الوجود كله ما هو إلا وجوه مختلفة للواحد الصحيح.. كلنا أقربون يا بُني، وما فواصل المكان والزمان إلا وهم الأوهام، ومتاع الغرور، وما إن تخترق هذه الفواصل بعين وجدانك حتى تكتشف الإخوة والنسب والقرباة بينك وبين كل شيء، وتدرك أن حياتك الحقيقية في فنائك في هذا الكل الذي تعيش فيه؛ لأنك بهذا تسترد وحدتك وحقيقتك.. وما الحب بينك وبين الآخرين إلا الحنين إلى وحدتك الأولى، وما الحب الذي يؤلف الأسر والقبائل والمجتمعات والدول، إلا محاولة للعودة بها إلى الوحدة الأولى والواحد الأحد.. وما الجاذبية بين النجوم التي تؤلف الكواكب والمجرات إلا عودة بالكل إلى نظامٍ واحدٍ.

في النهاية، يعيدنا الموت إلى أمتنا الأرض ليتغذى علينا النبات كما كنا نتغذى عليه، ويصبح الأكل منا مأكولاً.. ففي حقلٍ واحدٍ يعطي نفس الطين ألف صنف وصنف من الفاكهة والخضراوات والزهور.. من الواحد يخرج الكل، وإلى الواحد يعود الكل.. وحين تحرقنا النار، جميعاً نحول

إلى فحم.. أشجار، وثعابين، وقرودة، وبشر، وجماد.. الكل ينتهي إلى المصير نفسه.. فحم.. إشارة إلى أصلنا الواحد، وما الحياة على الأرض إلا تصانيف تعود بنا للواحد، والفاقر فقط في النسب والعلاقات والكيفية..

ذرتان من الأكسجين تعطيانك ذلك الغاز اللطيف الذي تتنفسه، وثلاث ذرات تعطيك سُماً زعاقاً قاتلاً اسمه الأوزون.. الفرق بين سُم الثعبان وطبق شهوي من البيض المقلي مجرد فرق شكلي في معمار الذرات، لكنهما في الأصل مادة واحدة هي البروتين.. والفرق بين الإنسان والحيوان والحشرة هو الفرق في النسق والترتيب والكيفية التي تصطف بها الأحماض الأمينية في الجينات الوراثية والتي تصطف بطرقٍ مختلفةٍ كما تصطف الحروف فتؤدي إلى مخلوقاتٍ مختلفةٍ، كما يؤدي ترتيب الحروف بطرقٍ مختلفةٍ إلى عددٍ لا نهائيٍّ من الكلمات والعبارات في مختلف العلوم والمعارف والأدب..

كل مباهج الحياة ومتعتها وألوانها النابضة يمكن اختزالها في شفرة رياضية؛ فالفرق بين مقطوعةٍ موسيقيةٍ يطرب لها قلبك وتحلق بها روحك في السموات ومقطوعةٍ أخرى منفرة تؤلم أذنيك، مجرد ذبذبات وموجات صوتية تطرق طبلة الأذن؛ فأصل الموسيقى مجرد معادلات رياضية وذبذبات، لكنك تتعامل مع كل مقطوعة كما لو كانت كياناً مستقلاً، ومخلوقاً ذا شخصية.. الفرق بين الألوان الأحمر والأصفر والأخضر هو فرق في أطوال موجات الضوء.. مجرد فرق رقمي.. مشهد الغروب الذي يُضفي على نفسيتك السكينة والهدوء مجرد معادلة رياضية من الأطوال الموجية.. وفي النهاية تستقبل حواسك كل هذه الأرقام فيحولها جهاز الاستقبال إلى معانٍ مختلفةٍ من صور وأشكالٍ وأصواتٍ، وهي الآلية نفسها التي اقتبسناها حين صنعنا أجهزة التلفاز والراديو كمخلوقاتٍ عاقلةٍ خلقها الإله على صورته كما جاء في سفر التكوين، لكن المقصود بصورته هي صفاته وقدراته وأفعاله لتكون خلفاءه على الأرض ونسير على دربه، والكون شيء واحدٌ يُعاد صبه وسبكه في قوالب وأشكال وتراكيب لا حصر لها، والأصل في النهاية واحدٌ صحيح..



والخلية الأولى التي بدأت حياتها بنشيدان درجة معينة من الحرارة والجو والغذاء لانتعاشها وتكاثرها، كانت تُضمَر في جوفها غايات أبعد استمدتها من الخالق، وما ملكت ناصية حياتها في عقل الإنسان وتركيب باقي المخلوقات حتَّى أفصحت عن هذه الغايات البعيدة؛ فبدأت تنشد قيم الجمال والحق والخير والعدل والسَّلام.. فزهرة عباد الشَّمس تتطلع إلى الشَّمس؛ ونباتات الصَّبَّار تخرج تصانيف جميلة كأنها منحوتة بيد نحاسٍ فنَّانٍ عاكفٍ على ابتكار أفانين الجمال؛ والنحلة تبني بيتها في معمارٍ هندسي بديع؛ والفرَّاش يرسم زخارف بديعة على واجهة أجنحته؛ حتَّى بلورات الحديد والنيكل والصخور تحت الميكروسكوب لها أشكال هندسية مختلفة بديعة التصميم.

من هنا أراد الله أن يقرب تلك الدروس بشكلٍ إشاري رمزي جميل يقول إننا جميعاً نبعُ منه؛ فخطبنا في الثَّوراة والإنجيل بلغة الأبوة والنبوة على سبيل الاستعارة والتقريب في زمن لم يكن هناك فيه الميكروسكوب ولا التلسكوب لنعرف أننا خلفاؤه ومآذج مصغرة منه، وتدرك يا ابن الإنسان أنك أحد آحاد الأحد الأكبر، وما تعلن من حروب هي حروب تغلنها على نفسك، وما تقتل حينما تقتل إلا نفسك.

فحقائق الأشياء الدَّاخِلية تبدو دائماً لنا عكس ظواهرها.. وكلما كانت الأشياء قريبة أصبحت رؤيتها بالعين أسهل وأوضح، لكن الابتعاد عنها لمسافة وفترة طويلتين يجعل القلب والعقل يقفان على جوهرها الحقيقي الخفي.

"يا الله.. ما كل هذا العلم يا سيدي؟"

قلتها مبهوراً كالمشده، فارتسم الخجل على ملامح الخضر وأجاب:

- بل هو الجهل يا ولدي؛ لأن المعلوم بحره لا ينضب، وكلما ازدادت علماً أدركت مدى جهلك وجهالتك.. أما الآخرون من مدعي العلم وأهل التفاسح فتتطبق عليهم جملة القرآن ﴿كل حزبٍ بما لديهم فرحون﴾؛ فإحساس النَّفس بعلمها يوردها أحياناً مورد الهلاك، لا سيما المتعصبين الذين أغلقوا عقولهم وتصوروا أن ما عندهم من العلم هو كل العلم؛

فقال فيهم ربك: ﴿فلما جاءتهم رُسُلهم بالبينات فرحوا بما عندهم من العلم﴾ فأضلهم الله على علمهم، وكفروا رغم أنهم مستبصرون.. ولهذه الدُّنيا علومٌ كثيرةٌ، متشعبةٌ ومختلفةٌ، لكن أشرف العلوم هو العلم بأشرف معلوم.. إلها العظيم، أما من أعجبتهم باقي العلوم المادية حتَّى شغلتهم عن العلم بربهم؛ فقد قيل فيهم: ﴿يعلمون ظاهراً من الحياة الدُّنيا وهم عن الآخرة هم غافلون﴾.

عَيْنِي لِعَيْرِ جَمَالِكُمْ لَا تَنْظُرُ      وَسَوَاكُمُ فِي خَاطِرِي لَا يَخْطُرُ  
فَإِذَا نَطَقْتُ فِي حَدِيثِ جَمَالِكُمْ      وَإِذَا سَكَتُ فَفِيكُمْ أَتَفَكَّرُ  
حُبِّي لَكُمْ طَبَعٌ مِنْ غَيْرِ تَكَلَّفٍ      وَالطَّبَعُ فِي الْإِنْسَانِ لَا يَتَغَيَّرُ  
صَبْرْتُ قَلْبِي عَنْكُمْ فَأَجَابَنِي      لَا صَبْرَ لِي لَا صَبْرَ لِي لَا أَصْبِرُ  
لَا صَبْرَ لِي حَتَّى يَرَاكُمُ نَاطِرِي      وَعَلَى مَحَبَّتِكُمْ أُمُوتُ وَأُحْشَرُ

وبدأت رحلتي مع محمد بن عبد الله..

قرأت وتعلمت كيف كانت الحياة في شبه الجزيرة العربية قبل مولده، وذلك الموقف الغريب حينَ همَّ جده عبد المطلب بذبح أحد أولاده العشرة عند الكعبة حتَّى يفي بنذرٍ قديمٍ كان قد قطعته على نفسه، ووقع الاختيار على ابنه عبد الله والد محمد، لكنه نجا بمعجزةٍ بعد أن افتدته قريشُ بمائةٍ من الإبل ليتزوج بعدها من ابنة عمه أمنة بنت وهب ويسافر بعدها بأيامٍ في رحلةٍ تجاريةٍ مات فيها، تاركاً خلفه بذرته التي زرعها بين أحشائها فحزنت عليه حزناً شديداً، وحينَ بلغ محمد 6 أعوام أخذته أمه وسافرت به لزيارة قبر أبيه وظلَّت تبكي عنده، قبل أن تمرض مرضاً شديداً في رحلة العودة وتموت بين ذراعي طفلها، ليعاين الطفل في سنه الصَّغيرة فجיעة الموت وفقد الأُحبة، ويذوق مرار اليُتم وفقد الأبوين، ويعيش مع جده، ثم ينتقل بعد وفاته للعيش مع عمه.

بهرتني شخصية هذا الرَّجل الفدِّ قبل حتَّى أن يكون نبياً..

حسن سيرته في زمنٍ سادت فيه الرذائل والنقائص حتَّى لقبته قريش بالصادق الأمين.. انعزاله عن الملهذات والشهوات التي غرقت فيها القبائل؛ فلم يشرب الخمر، ولم يلعب القمار، ولم يواقع الجواري والعاهرات مثلما كان يفعل كل الشباب الذين في مثل سنه.. عمله في رعي الغنم، ثم انتقله إلى مجال التجارة مع خديجة بنت خويلد؛ تلك المرأة الثرية الجميلة، صاحبة المال والجاه التي تقدّم الكثيرون بطلب الزواج منها بعد وفاة زوجها لكنها رفضتهم جميعًا حتَّى أعجبت بذكاء وحُسن أخلاق محمد؛ فأرسلت له تطلب الزواج منه.. حكمته في التعامل مع أدق الأزمات التي كادت تشعل حربًا بين قبائل قريش حول أحقية كل منهم في وضع الحجر الأسود.. رفضه للانسياق وراء قبائل قريش في عبادة الأصنام الموجودة حول الكعبة، وتأمله في خلق السماوات والأرض في غار حراء؛ في محاولة للوصول إلى إجابة عن تساؤلاته بشأن حقيقة خالق هذا الكون الذي كان في خياله قبل أن يكون نبيًا أكبر وأرقى وأعظم من أصنام من الحجارة التي لا تنفع ولا تضر.

كان (خضر) مُحققًا فعلاً في ضرورة بعثته.. وكانت فعلاً آلامه وأخلاقه قبل البعثة تليق بسيرة نبي..

إبراهيم، ولوط، وموسى، والمسيح، ومحمد.. جميعهم رعو الغنم، وربّوا الخراف، حتَّى تشربوا وداعتها، وسكنت في قلوبهم الرأفة واللطف؛ فإذا انتقل من ذلك إلى رعاية الخلق كان قد هُذّب أولاً.

لم أنزعج أو أندesh من الغزوات والفتوحات والجهاد الإسلامي بعد أن قرأت الأسفار التاريخية التي تحكي أوامر الربّ إلى بني إسرائيل بالجهاد أيضًا لإعلان عظمته التي أنكرها الوثنيون، وما سال في حروبهم من دماء، وما أزهقت فيها من أرواح بشكل يفوق أي غزوة إسلامية بما فيها واقعة بني قريظة التي كانت من أقسى الغزوات الإسلامية في عهد النبوة.. فيما جاء في وصايا النبي محمد في الحروب: "أوصيكم بتقوى الله وبمن معكم من المسلمين خيرًا، اغزوا باسم الله تقاتلون في سبيل الله من كفر بالله، لا تغدروا، ولا تغلوا، ولا تقتلوا وليدًا، ولا امرأة، ولا كبيرًا

فانيًا، ولا راهبًا منعزلًا بصومعة، ولا تقربوا نخلًا، ولا تقطعوا شجرًا، ولا تذبحوا بعيرًا ولا بقرةً إلا لمأكل، ولا تهدموا بناءً".

بينما جاء في سفر حزقيال:

"واضربوا، لا تشفق أعينكم، ولا تعفوا الشيخ والشاب والعذراء والطفل والنساء.. اقتتلوا للهلاك... املأوا الدّور قتلى".

وفي سفر يشوع:

"وأخذوا المدينة، وحرّموا كلّ ما في المدينة من رجلٍ وامرأة، من طفلٍ وشيخٍ، حتّى البقر والغنم والحُمير بحدّ السيف".

وفي سفر أخبار الأيام الأول:

"أخرَج (داود) الشعب الذين بها (بلدة ربّة) ونشّرهم مِنناشيرٍ ونّوارجٍ حديدٍ وفؤوسٍ".

لم أشمئز أو أندesh من فكرة تعدد الزوجات والجواري؛ فقد كانت شريعة إبراهيم ومن بعده موسى تُجيز تعدد الزوجات، فكان لإبراهيم زوجته سارة، وأنجب من جاريته هاجر ولده إسماعيل.. ويعقوب أو إسرائيل كان متزوجًا من 4 نساء أنجب منهن 11 ولدًا وبناتًا، وكان لسليمان مئات الزوجات، وحين قرأت تعدد زوجات محمد بعد أن بلغ من العمر خمسين عامًا لنساء من قبائل وبلدان مختلفة لتوطيد دولة الإسلام، واختيار عائشة ابنة صاحبه أبي بكر رغم فارق السن الكبير الذي كان شائعًا وقتها، لتبقى من بعد وفاته وتنقل سيرته وتجيّب عن السائلين ممن لم يحضروا عهد النبوة، كان في عقلي صورة لما جاء في نشيد الإنشاد لسليمان من غزل وخمر وسكر وأوصاف جسدية صريحة للنساء.

سألت نفسي: إذا كان محمد يدّعي نبوةً مكذوبةً فما مكسبه؟ أهو المال والجاه؟ لقد عرضت قريش على عمه أبي طالب أن يجعلوا ابن أخيه ملكًا عليهم ويعطوه المال والنساء على أن يترك أمر هذا الدين الجديد الذي يُساوي بين الأسياد والعبيد، فرد على عمه ردًا حاسمًا: "وَاللّٰهِ يَا عَمِّ، لَوْ وَصَّعُوا الشَّمْسَ فِي يَمِينِي، وَالْقَمَرَ فِي شِمَالِي عَلَى أَنْ أَتْرُكَ هَذَا الْأَمْرَ مَا تَرَكْتُهُ، حَتَّى يُظْهَرَ اللَّهُ أَوْ أَهْلِكَ فِيهِ؛ فهذا إذن



إصرار نبي تام اليقين في دعوته المُنزَّلة عليه من الله، ولا يوجد في قلبه  
ثقال ذرة من الادعاء والكذب.

عاش فقيرًا زاهدًا، يصحو أحيانًا فلا يجد الطعام فينوي الصيام، وكان  
يرفض الصدقة من البَشَر، وكان أهله فقراء، حتَّى إن ابنته فاطمة كانت  
مریضةً ضعيفةً في حاجةٍ لمن يخدمها ويساعدها وبكت له من شدة  
فقرها وضعفها فلم يستغل مقامه كنبوي ويأمر أحدًا بخدمتها رغم أنه  
كان يستطيع.

تعرَّض للتكيل والعذاب والاستهزاء من قومه أكثر من 10 أعوام في  
مكة دون أن تنشي إرادته أو يلين إصراره، ولو كان هذا محض ادعاء فما  
الذي كان يحمله على فعل ذلك وهو من داخله يعلم أنه لا إله خلفه  
أو ملائكة تعضده؟!

لم يدع الرّجل إلا لعبادة الله (عز وجل) حق عبادته، وجعله إلهًا  
وحيدًا ليس كمثلته شيء، وتنفيذ وصاياه وتعاليمه التي تماشت مع  
وصايا وتعاليم باقي الأنبياء: آدم، وإدريس، ونوح، وإبراهيم، وإسحق،  
وإسماعيل، وموسى، وهارون الذين قال عنهم إنهم إخوته، ولم ينكر نبوة  
أحدهم أو يعيب فيه، بل انتصر لهم وطهر سيرتهم مما لحق بها من  
إضافاتٍ مليئةٍ بالنقص والخزي الذي لا يليق أبدًا بسيرة الأنبياء.

ظهر معه أنبياء كذبة مثل مسيلمة الكذاب الذي ألف كلامًا مخبولًا  
قال إنه من عند الله فجاء فيه: "الفيل، وما أدراك ما الفيل، له زلوم  
طويل .. وحين دعا لرجلٍ أصابه وجعٌ في عينه أصابه العمى وفقد بصره،  
وسقى بوضوئه نخلهً فيبست، وجيء له بطفلين ليباركهما فمسح على  
رأسيهما فقرع رأس أحدهما وزال شعره، ولثخ لسان الآخر، فما وجه  
المقارنة بين مسيلمة اليوم وبين دين الحق الذي نزل من السماء وصار  
له اليوم أكثر من مليار مسلم لم يمت نبينهم إلا بعد إتمام الرسالة كاملة،  
وفتح مكة التي هاجر منها مضطربًا ضعيفًا، فعاد إليها قويًا مع جيشٍ  
من الموحدین الذين كانوا مثله فقراء أذلاء فعزَّهم الإيمان، حتَّى تمَّت  
كلمة ربهم وانتصروا لوحديته وهم يكسرون 360 صنمًا حول وداخل

فوق الكعبة الشريفة، ويجعلون العبادة لله وحده، فأمن النَّاس ودخلوا  
في دين الله أفواجًا، ونزلت من السماء آياتٌ مُبيناتٌ قالت: ﴿الْيَوْمَ  
أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾  
في حجة الوداع التي أجهلها النَّبي محمد لآخر عام في حياته حتَّى ينهي  
حياته خير نهاية، بعد أن هبأ أمته لرحيله بخطبةٍ لا يقولها إلا نبي  
يضع آخر لينةٍ في بناء دينه الذي أخذ بيني ويؤسس فيه على مدى 23  
عامًا؛ فقال للمسلمين الذين معه: "قَدْ تَرَكْتُ فِيكُمْ مَا لَنْ تَضِلُّوا بَعْدَهُ  
إِنْ اِعْتَصَمْتُمْ بِهِ: كِتَابُ اللَّهِ، وَأَنْتُمْ تُسْأَلُونَ عَنِّي، فَمَا أَنْتُمْ قَائِلُونَ؟"  
فأجابهم المسلمون: نَشْهَدُ أَنَّكَ قَدْ بَلَّغْتَ وَأَدَّيْتَ وَنَصَحْتَ؛ فَأشار بِإصْبَعِهِ  
السَّبَابَةِ وَهُوَ يَرْفَعُهَا إِلَى السَّمَاءِ وَيُنْكِتُهَا إِلَى النَّاسِ قَائِلًا: "اللَّهُمَّ اشْهَدْ،  
اللَّهُمَّ اشْهَدْ، اللَّهُمَّ اشْهَدْ".

ولا أعلم لماذا أبكي الآن وأنا أردد: "يا حبيبي يا رسول الله"، بينما  
لا يزال صوت أولئك الصوفيين الأطهار يتردد في أذني وهم يتغنون في  
حضرتهم قائلين:

وَأَحْسَنُ مِنْكَ لَمْ تَرَ قَطُّ عَيْنِي وَأَجْمَلُ مِنْكَ لَمْ تَلِدِ النَّسَاءَ  
خَلَقْتَ مَبْرَأً مِنْ كُلِّ عَيْبٍ كَأَنَّكَ قَدْ خَلَقْتَ كَمَا تَشَاءُ

يبدو أنني على موعد مع أكثر الأمور جدلاً..

فالإسلام يأمر أتباعه بالإيمان بكل الأديان والرسالات، ويؤكد وجود  
الثَّوراة والإنجيل، لكنه ينفي ألوهية المسيح، وينفي أيضًا واقعة صلبه  
الشهيرة، ويؤكد بشريته كنبوي مثل باقي الأنبياء، فكيف يستشهد القرآن  
بالإنجيل في بعض الآيات، وينفي في الوقت نفسه واحدة من أهم ركائز  
الدين المسيحي وتم ذكرها في الإنجيل؟!

ابتسم الشَّيخ (خضر) حين سألته، وأجابني:

— بين القرآن والثَّوراة والإنجيل خطوطٌ عريضةٌ مشتركةٌ كثلاثة كتب  
جاءت من نفس الإله، وتشترك في وصاياها وتعاليمها الرئيسية مع ما

تعلمه آدم، ثم أخذه الله على نبيه نوح في العهد النوحى، وما تلاه من أنبياء ورسول، لكن الجدل والخلاف لم يتوقف بين أبناء أي دينٍ مُنذُ نزوله حتّى يومنا هذا..

على مرِّ التَّاريخ كانت هناك في كل دين فرقٌ كثيرةٌ اختلفت رواياتهم التي حكوها حول أمورٍ جوهريةٍ تمسُّ صميم دينهم، لتتفرع الحقيقة الكبرى إلى حقائق صغيرة بعضها صحيح، وبعضها تم دسُّه وتلفيقه ليثبت كل فريق حجته.. حدث ذلك في اليهودية، وفي المسيحية، ولا أستثني الإسلام من ذلك، والذي ستجد داخله اليوم سنةً وشيعةً وفرقًا أخرى، ومن يقرأ ويبحث ويعيد كل الفرق إلى بداية نقطة الخلاف ويربط الروايات المختلفة أو المتناقضة بالتاريخ دون أي تحيُّز لفريقٍ أو مذهبٍ سيصل إلى حقيقة الحقائق.

وبالرجوع إلى التَّاريخ، والتنقيب في رواياته وأخباره عن حقيقة حادثة الصلب، ومَن المصلوب فيها سنجد أن قدماء المسيحيين كثر منهم منكرو صلب المسيح، وقد ذكر المؤرخون المسيحيون أنفسهم أسماء فرقٍ كثيرةٍ أنكرت الصلب في البيئة المسيحية أصلًا قبل ظهور الإسلام نفسه مثل أتباع فرقتي السيرنثيين والكربوكراتيين الذين قالوا إن المسيح نفسه لم يُصلب ولم يُقتل، وإمَّا صُلب واحدٌ من تلاميذه، يُشبهه شبهًا تامًا، وهناك أيضًا الباسيليديون الذين يعتقدون أن شخصًا آخر صُلب بدلًا من المسيح.

وثمة فرقٍ مسيحيةٍ قالت بأن المسيح نجا من الصلب، وأنه رُفِع إلى السماء، ومنهم الروسييتية والمرسيونية والفلنطنيايتية، وهذه الفرق الثلاث تعتقد بألوهية المسيح بشكل يخالف عقيدتنا، لكنهم يرون أن القول بصلب المسيح وإهانته لا يلائم البنية والإلهية.

بخلاف فرقٍ أخرى أنكرت صلب المسيح مثل الكورنثيين، والساطرينوسية، والماركيونية، والبارديسيانية، والبارسكالبيونية، والبولسية، والماينسية، والتايتانيسيون، والدوسيتية، والمارسيونية، والفلنطنيايتية، والهرمسيين.. وبعض هذه الفرق قريبة العهد بميلاد المسيح؛ إذ يرجع بعضها للقرن الميلادي الأول، وقد تم وصف كل من أنكر ألوهية المسيح

أو صلبه بالهرطقة وتمت مطاردتهم، حتّى وإن كانوا يؤمنون بوصاياها وتعاليمه، وتم وصفهم بالغنوصيين.

– الغنوصيين؟

– الغنوصية كلمةٌ يونانيةٌ تعني المعرفة، وقد بدأت قبل المسيحية في فترة سيطرة الإمبراطورية الرومانية، وبدأت تعتمد على الفلسفة والتفكير في محاولة للوصول لأصل هذا العالم، وتذهب الغنوصية إلى أن الخلاص هو في تعلُّم الأسرار الخفية ومعرفة أصل الروح ومصدرها الحقيقي، وتؤمن بأن الروح الخيرة دائمًا ما تكون في مواجهة الجسد الشرير، وفي حالة تعارض دائم مع المادة الفاسدة، وهو ما تسبب في كراهيتهم للعالم المادية ودعوتهم الدائمة إلى التشفير. وفي العقيدة الغنوصية، فإن الإله الحقيقي هو إله يخفى عن عيون البشر ويتجلى بإله سفلي هو خالق العالم، وترفض الغنوصية إله العهد القديم التوراتي، وتعتبره خالقًا شيطانيًا، شريرًا وغيورًا ومسئولًا عن كل مآلح العالم، وتعتبر المسيح مُعلمًا روحيًا مُكلَّفًا بقيادة البشرية نحو معرفة الله الحقيقي الخفي، والمسيح حسب الغنوصية ليس ابن إله العهد القديم، بل هو من شيت الابن الثالث لآدم، وهي حركة فكرية شديدة الشبه بالتصوف الإسلامي، وتعتبر من ينتمي لها عارقًا من العارفين، غير أنها تنقسم إلى فرقٍ مختلفةٍ بعضها بعيدٌ كل البعد عن أي دينٍ سماوي.

واستمر صراع الغنوصيين مع المؤيدين لألوهية المسيح وصلبه حتّى القرن الثاني؛ إذ يقول المؤرخ جون فنتون: "إن إحدى الطوائف الغنوصية التي عاشت في القرن الثاني قالت بأن سمعان القيروني الذي ذكر في أناجيل مرقس ومثى ولوقا، قد صُلب بدلًا من يسوع". فقد أجمعت الأناجيل الثلاثة المتوازية على أن سمعان القيروني هو الذي حمل الصليب وليس يسوع، ودون ذكر سبب يبرر ذلك، عكس ما كان سائدًا وقتها وهي أن الشخص المقرر صلبه هو الذى يحمل صليبه وليس غيره؛ حيثُ كان الرومان يحرصون على أن يشعر من يُساق لعقوبة الصلب بالذل والخوف وهو يحمل الوسيلة التي سيموت عليها.





والأعياد الدينية، ونوع آخر من الأناجيل والمؤلفات الغنوصية أحدثت شرحًا حقيقيًا في الكنيسة مبكرًا.

- لكن يا سيدي الكنيسة لا تؤمن إلا بالأناجيل الأربعة الرسمية فقط، فما الذي يُمكن قوله لمن لم يقرأ سوى هذه الأناجيل فقط؟

- إذا كانت الكنيسة الرسمية لا تؤمن إلا بالأناجيل الأربعة الرسمية فقط فعقل الإنسان وقلبه لا يمكن احتكاره.. ونهر العلم والمعرفة والاطلاع لا حراس عليه يمنعون أحدًا يريد أن يشرب.. حتى هذه الأناجيل الأربعة توضح أن اليهود الذين جاءوا للقبض على المسيح لم يكونوا على علم تام بشكله وأوصافه، وإلا لماذا كانت هناك علامة بين يهوذا والجنود على تعريف المسيح.. فقد ورد في إنجيل متى: "وكان الذي أسلمه قد جعل لهم علامة؛ إذ قال: هو ذاك الذي أقبله فأمسكوه". كما يقول إنجيل يوحنا: "فجاء يهوذا بحرس الهيكل والحرس الذين أرسلهم عظماء الكهنة والفريسيون حتى بلغ ذلك المكان، ومعهم المصابيح والمشاعل والسلاح. وكان يسوع يعلم جميع ما سيحدث له، فخرج وقال لهم: من تطلبون؟ أجابوه: يسوع الناصري. قال لهم: أنا هو. وكان يهوذا الذي أسلمه واقفًا معهم"، كما توضح تلك الأناجيل أن المسيح كانت لديه قدرات هائلة في التخفي، وجعل العيون لا تعرفه، والدخول على تلامذته والأبواب مغلقة، إذن عملية إلقاء الشبه على آخر كانت سهلة وميسورة وقد أرانا يسوع منها الكثير.

ثم إن الأناجيل الأربعة القانونية منسوبة في كتابتها إلى أسماء 4 شخصيات من عصر الرسل الذين كانوا ييشرون الناس بالمسيحية، وهم مرقس، ومتى، ولوقا، ويوحنا، لكن يبدو أن نسبة كل إنجيل من الأناجيل الأربعة إلى واحد من هؤلاء ووضع أسماء هؤلاء الرسل على تلك الأناجيل كعناوين لها، قد حد بعد كتابتها بزمن طويل؛ لإضفاء السلطة والمصداقية عليها، بدليل أن أقدم إشارة إلى متى ومرقس بوصفهما مؤلفين لإنجيليهما قد وردت لدى أوزيبوس القيساري الذي عاش في القرن الرابع الميلادي، ووضع في تاريخ الكنيسة كتابًا اعتمد في أخباره عن الإنجيليين على الأسقف بابياس الذي عاش في القرن الثاني الميلادي، وقال الأسقف

واعتبر القديس إيرينيؤس الذي جاء في القرن الثاني أن الفرقة التي قالت عن المسيح ليس هو الذي مات بل سمعان القيروني الذي حمل الصليب وأخذ شبه يسوع وصلب مكانه، بينما أخذ يسوع صورة سمعان وكان يضحك على صاليبه وهو يقف بجوارهم أنهم هراطقة.

واستمر إنكار صلب المسيح بعد القرن الثاني؛ فكان من المنكرين الراهب تيودورس الذي عاش في القرن السادس، والأسقف يوحنا ابن حاكم قبرص الذي عاش في القرن السابع، وغيرهما. وفي أعمال يوحنا وهو من أسفار الأبوكريفا غير القانونية يقول المسيح: "لست أنا يسوع المعلق على الصليب".

وتوجد أناجيل أخرى تحمل أسماء تلاميذ يسوع تؤكد نجاة المسيح دون أن تذكر اسم المصلوب كرؤية بطرس صخرة الكنيسة التي جاء فيها: "قال لي يسوع إن الذي شاهدته يضحك على الشجرة فهو يسوع الحي، أما الذي تسمر المسامير في يده وساقيه فهو الجسد البديل أخذًا شبيهي لِساقٍ للعار".

فإلى جانب الأناجيل الأربعة المعتمدة حاليًا، والتي اعتُبرت وحدها قانونية، تداول المسيحيون خلال القرون الأولى الميلادية عددًا كبيرًا من الأناجيل والرؤى والأعمال التي دُعيت منحوّلة فيما بعد، ومُنح المسيحيون من قراءتها وتداولها، رغم أنها تتضمن رواياتٍ عن أسرة مريم العذراء، وميلادها، وحياتها، وتاريخ يوسف النجار، وميلاد المسيح، وطفولته، ويفاعته، وهو ما يغطي الفترة التي تجاهلتها الأناجيل الأربعة؛ حيث لم ترد فيها أية تفاصيل أو وقائع بعد ميلاد المسيح إلى أن عاد إلى بيت لحم بعد إتمامه الثلاثين عامًا، باستثناء واقعة وحيدة انفرد بها إنجيل لوقا حين كان عمره 12 سنة.. فلم نقرأ كيف عاش الإله وفقًا للعقيدة المسيحية مرحلة طفولته وصباه ومراهقته.. وهكذا أصبحت هناك أناجيل رسمية لكنها ليست ثرية، وأخرى منحوّلة بها الخيال الشعبي والتقوى المسيحية البسيطة ورغم منعها فإنها كان لها بالغ التأثير في الفن التشكيلي المسيحي، والموسيقى الكنسية، والمناسبات



بابياس إن مَتَّى كان أول من جمع تعاليم يسوع في كتاب دعاه بـ "الأقوال" باللغة الآرامية.

ثم قام الآخرون بترجمته، كلٌ حسب مقدرته، ولا أحد يعرف إذا كان هذا الكتاب هو إنجيل مَتَّى المعروف حاليًا أم لا، ولا أحد يعرف إذا كان مَتَّى الذي نقل أقوال المسيح هو نفسه مَتَّى العشار تلميذ المسيح أم لا، لا سيما أن معظم الباحثين بالعهد الجديد في القرن التاسع عشر يشكُّون بنسبة إنجيل مَتَّى إلى مَتَّى العشار تلميذ المسيح، وبالنظر إلى فكرة كتاب "الأقوال" التي أخذها مَتَّى من المسيح ومقارنتها بإنجيل مَتَّى الحالي، سنلاحظ أن مؤلفي الأناجيل الأربعة اعتمدوا مجموعة أو أكثر لأقوال المسيح مما نزل عليه من الله، ثم وضعوا لها مناسبات معينة وشبَّكوا هذه المناسبات إلى بعضها لتعطي الانطباع وكأنها سيرة أو ملحمة عن حياة المسيح رغم أنها ملحمة ينقصها الكثير من التفاصيل عن حياته كما أخبرتك، وبشكل عام هناك شبه إجماع بين دارسي العهد الجديد على أن مَتَّى ومرقس ولوقا مؤلفي الأناجيل الثلاثة لم يروا "يسوع" أو يسمعوا منه بشكل مباشر، وإنما كتبوا أناجيلهم بعد مضي جيل أو جيلين على وفاته.

وبالمثل، يقول الدكتور القس فهيم عزيز في كتابه (المدخل إلى العهد الجديد): "هذا الأمر يختلف عما يقوله الإسلام من أن الإنجيل نزل على "يسوع" أو (عيسى) بلغة القرآن؛ فالمسئول الأول عن كتابة هذا الكتاب الذي نسميه العهد الجديد ليس "يسوع" إنما المسيحيون، سواء من الجيل الأول أو من الجيل الثاني من التلاميذ.. وهذا الكتاب ليس كتابًا أزيًا كان محفوظًا في اللوح المحفوظ، ولكنه كتاب نشأ في وسط الكنيسة وبواسطتها ومن أجلها".

— ألهذا السبب هناك تناقضات بين تلك الأناجيل في كثيرٍ من النقاط الجوهرية؟

— بكل تأكيد يا ولدي.. فلو تتبعنا ميلاد "يسوع" في إنجيل مَتَّى وإنجيل لوقا لوجدنا العجب العجاب في قضية نسبه؛ فإنجيل مَتَّى يقول

إن السيدة مريم أم المسيح كانت متزوجةً من يوسف النجار الذي يمتد نسبه إلى أنبياء الله داود، وإسحق، وإبراهيم.. وإن اسم والد يوسف النجار كان يعقوب فإذا كانت مريم تشتهر بأنها العذراء فكيف كانت متزوجةً من يوسف؟ وما حاجتنا إلى معرفة نسب يوسف النجار إلى أنبياء الله داود وإبراهيم إن لم يكن هو الوالد الحقيقي للمسيح؟ وطالما وما دام المسيح ليس ابنًا ليوسف النجار الذي يمتد نسبه إلى نبي الله داود فكيف جاء في إنجيل مَتَّى أن المسيح تَبِعَهُ أَعْمَيَانِ يَصْرَخَانِ وَيَقُولَانِ: "ارْحَمْنَا يَا ابْنَ دَاوُدَ" رغم أن المسيح هو ابن الله وليس ابن يوسف النجار؟

والآن تعال نفحص نسب المسيح في إنجيل لوقا.. سنجد أن والد يوسف النجار كان اسمه "هالي" وليس "يعقوب"، وأن نسب يوسف النجار يمتد إلى نبي الله داود وإبراهيم، ثم يكمل هذه المرة إلى نبي الله آدم أبي البشرية، وكيفية التناقض بين سلسلة نسب يوسف النجار في كلا الإنجيلين رهيبه حتَّى لكأن كلا الإنجيلين يتحدث عن شخصين مختلفين وليس شخصًا واحدًا، والسؤال هنا: ما جدوى معرفة نسب يوسف النجار ما دام أنه ليس الأب الحقيقي للمسيح؟ ولماذا للمرة الثانية يأتي في إنجيل لوقا وصفٌ للمسيح بأنه ابن داود رغم أن الكتاب المقدس يقول إن يوسف ليس هو الوالد الحقيقي للمسيح؛ والطريف أن الذي يقول على المسيح إنه ابن داود هذه المرة هو الملاك جبرائيل نفسه حين قال لمريم: "وَيُعْطِيهِ الرَّبُّ الْإِلَهُ كُرْسِيَّ دَاوُدَ أَبِيهِ"، فأيهما والد المسيح.. الرَّبُّ أم داود؟

أتعرف السر في ذلك؟

سألني فهزت رأسي نافيًا، فأجاب:

— لأن نبوءات اليهود كانت تقول إن المسيح المنتظر سيكون من نسل بني إسرائيل، وكان لقب ابن داود يشير إلى ملك اليهود المنتظر؛ لذا كان لا بد من تليق نسبٍ للمسيح يمتد إلى داود ويعقوب وإبراهيم رغم



الخامس الميلادي، وتنفى واقعة صلب المسيح، لأرى وجه الشبه بين العارفين المسيحيين والمتصوفين المسلمين الذين ينشدون على اختلاف انتماءاتهم إلى العروج إلى السماء والارتقاء بالروح عن ظلم الجسد، وكان الأمر رهييبًا بحق.

فقد تحجرت أكثر وأكثر في الغنوصية، وعلمت أن المسيحية السائدة اليوم على اختلاف طوائفها ترجع في أصولها إلى صيغة اتخذت ملامحها العامة في نهايات القرن الثاني الميلادي، عندما تبنت كنيسة روما الأناجيل الأربعة المعروفة إضافة إلى رسائل بولس التي كانت متداولة بشكل مكتوب قبل تدوين الأناجيل الأربعة بوقتٍ طويلٍ، وفي نهاية القرن الرابع الميلادي تم اعتماد أسفار العهد الجديد بشكلها الحالي بأمر الكنيسة الرسمية التي انتقتها من بين عشرات الأسفار المقدسة التي كانت متداولة بين المسيحيين، ووصمت بقية الأسفار بالزيف ودعتها بالمنحولة، ودعت أولئك الذين يتداولونها بالهرطقة، وهو ما يعني أن المسيحية الرسمية لم تتشكل إلا عبر صراعٍ طويلٍ بين مجموعة من الفرق التي تنازعت فيما بينها بعد واقعة الصلب، وكان أول انشقاق بين كنيسة أورشليم وكنيسة الأمم.

وفي نهاية القرن الثاني، نجحت كنيسة الأمم في صياغة الشكل المبكر من قانون الإيمان المسيحي، ونظمت الكنيسة نفسها في مؤسسة لها هيكل تنظيمي يتكون من 3 شرائح كهنوتية هي الأساقفة، والقساوسة، والشمامسة الذين نظروا لأنفسهم باعتبارهم حُماة الإيمان الحق، والمصدر الوحيد لتفسير الكتاب المقدس.

في تلك الأثناء التي كان فيها صراعات بين كنيسة أورشليم وكنيسة الأمم، بدأ بالظهور في سوريا ومصر الحركة الغنوصية التي عارضت كلتا الكنيستين، واتخذت شكلًا كُنسيًا غير مُطبي، ولا توجد فيه المراتب الكُنسية الموجودة في الكنيسة الرسمية، وقالوا إن لديهم تعاليم ووصايا أخرى للمسيح، وعزلوا أنفسهم تمامًا عن كل ما هو يهودي، بعدما رأوا في التوراة أمورًا لا تليق بإله، وقالوا إن الإله الموجود في الكتب التوراتية

أن هذا ينسف عُذرية مريم من الأساس.. أما كان من الأفضل ما دام المسيح ابن مريم أن يتم تتبع سلسلة أجداد مريم نفسها؟

وأين واقعة اتهام بني إسرائيل لمريم بالزنا في هذين الإنجيلين رغم أن التاريخ والتلمود اليهودي يقولان إن اليهود رموا مريم بتهمة الزنا؟ وحده القرآن الذي ذكر الواقعة ودافع عن طهارة وعذرية مريم وفضلها على نساء العالمين، بينما يذكر التلمود اليهودي أن يسوع -حاشا لله- هو ابن العاهرة، وأسهم إنجيلا متّى ولوقا في تعصيد ذلك دون قصد!

ثم أخذ الشيخ (خضر) يُعَدُّ لي التناقضات بين الأناجيل الأربعة في كثيرٍ من الأمور الرئيسية المهمة؛ مثل اختلاف تاريخ ميلاده في الأناجيل؛ واختلاف تفاصيل واقعة الصلب؛ واختلاف تفاصيل قيامته من الموت بعد ثلاثة أيام، وغيرها دون أن أملك سوى الدهشة والحيرة مع كل حرفٍ يقوله، لينهي كلامه قائلاً:

- كل هذه التناقضات المحيرة لبني الإنسان أسهم في صناعتها الشيطان وأعوانه من الذين أراد بعضهم الانتصار لعقيدته فزاد عليها من خياله ما يُغري الناس على اتباعها، أو حذف منها ما قد يُنفر الناس من الانضمام إليها، أو أولئك الذين بدّلوا كلمات الله ليرضوا الملوك والقيصرة يبتغون عوضًا من المال والجاه، وجميعهم على اختلاف النوايا في حزبٍ واحدٍ أسهم في بؤس البشر وتشتيت تعاليم السماء.

فقد هوّن الشيطان من قدرات المسيح وهو حي فاتهمه اليهود بالسحر.. ثم هوّل من قدراته بعد رفعه فاعتقد أتباعه بألوهيته.. وهذه فتنة من أعظم الفتن التي هزت أرجاء الأرض.

حينها تساءلت في نفسي:

- لماذا لم ألاحظ ذلك حين قرأت الأناجيل الأربعة من قبل في الكاتدرائية؟ هل يقع الإنسان تحت تأثير حالة معينة حين يحاول الانتماء لدينٍ ما تجعله لا يُلاحظ أمورًا قد تبدو جلية لغيره؟

جذبني الفضول للاطلاع على صورة من المخطوطات الغنوصية التي عثر عليها بالمصادفة في نجع حمادي عام 1945 ميلاديًا وتعود للقرن



ويؤمن الغنوصيون بأن كل من تبع الروح وعرف مسلكها يستطيع التواصل الإلهي دون واسطة.. "يؤمن الناس بناءً على شهادة الآخرين أولاً، ثم يأتي وقت يستمدون إيمانهم فيه من الحقيقة نفسها، وتصبح الرؤيا منبع عرفانه الخاص".

علمت أيضًا أن بعض الغنوصيين يقولون إن الذين يبشرون بالأناجيل الرسمية لا يزالون تحت تأثير الفكر اليهودي؛ لذا يرى كاتب (رؤيا بطرس) أن الأساقفة والقساوسة والشمامسة الذين يدعون تلقي سلطتهم من الله ليسوا إلا جداول ماء جافة، ويتفاخرون بامتلاكهم وحدهم أسرار الحقيقة، على الرغم من أنهم لا يفقهون الأسرار، وأسسوا لكنيسة زائفة بدلًا من الأخوية المسيحية الحقيقية، لكنهم في حقيقة الأمر مجرد موظفين كنسيين؛ لذا فإن من حاز العرفان فقد تخطاهم بكثير، ولم يعد خاضعًا لسلطتهم، وهذا ما قاد إلى عدم وجود مؤسسة دينية غنوصية؛ لأن القيادة فيها تبقى تلقائية ومفتوحة ومتبدلة.

وفي إنجيل فيليب الغنوصي فإن ما يهم الكنيسة القويمة الرسمية هو تغطية الناس في ماء العماد لزيادة الكم، وطاعة الأتباع العمياء لرجال الدين، بينما تركز الغنوصية على حرية الفرد في سلوك طريقه. ويقول مؤلف نص بيان الحقيقة الغنوصية: "إن طاعة رجال الدين تسلم المؤمنين إلى قيادة عمياء تستمد سلطتها من إله العهد القديم، لا من الله الحق، وتربطهم إلى أيديولوجيا سقيمة وطقوس ساذجة، مثل طقس المناولة ذي الطابع السحري، وطقس العماد الذي يدعي ضمان الخلاص لهم، لكن الخلاص الحقيقي أكثر مشقةً من ذلك، ويقوم على معرفة النفس، ومعرفة الله في الداخل، وينتهي بالاستنارة التي تليها القيامة الروحية في هذا العالم لا بعد الموت، حين تسكن الروح إلى الساكن الأبدي".

ويقول مؤلف نص التعاليم المعتمدة الغنوصي: "إن المعرفة تكشف عن الأصل السماوي للروح التي هبطت مثل شرارة من الروح الأسمى، وسُجنت في الجسد المادي، وأن أتباع الكنيسة القويمة هم في غفلة عن

جدير بأن يكون إلهًا للشر، ثم أنتجوا أناجيلهم الخاصة التي قالوا باعتمادها على فهمهم الأصيل لتعاليم "يسوع"، بالإضافة إلى الرؤى والمكاشفات الروحانية التي جعلتهم يصلون إلى الحقيقة، وحين تحداهم البعض وسخروا منهم قالوا لهم إن بولس الرسول الذي تعتمد الكنيسة الرسمية على كتاباته قال أيضًا إنه اختطف إلى السماء الثالثة، ورأى الفردوس، وسمع كلمات لا تُلفظ، ولا يحل لإنسان أن يذكرها، وكما تلقى بولس تعاليم خفية من الملائكة الأعلى، قال المعلمون الغنوصيون إنهم تلقوا حكمة خفية من "يسوع الحي؛ حيث تلعب شخصية "يسوع" الروحاني لا "يسوع" الناصري دورًا مركزيًا في تعاليمهم، وتبدأ بعض أناجيلهم من حيث تنتهي الأنجيل الأربعة.

وفي كتاب يوحنا السري، ظهر المسيح الروحاني لتلميذه يوحنا، وأوضح له أهم المسائل التي خفيت عليهم حول أصل الكون والإنسان والشر وطبيعة الخلاص ليطمئن قلوبهم، وفي نص الأطروحة الثانية لشيت الكبير قال لهم إنه لم يمت حقيقةً على الصليب، وإن ما رأوه من موته لم يكن سوى مظهر خادع، وأنهم ما ضربوه وما أهانوه وما سقوه الخل والمرار، وإنما فعلوا ذلك بأخر اتخذ شبهه.

والمذهل أن الغنوصيين يرون في يهوذا الإسخريوطي قديسًا ضحى بنفسه وبسمعته، ووافق أن يلاحقه العار بوصمة خيانة المسيح وتسليمه للفريسيين التي اتهمته بها الأنجيل الرسمية، بينما كان في حقيقة الأمر هو الشخص الأقرب لـ(يسوع)، وهو الوحيد الذي كان يفهمه بعمق، وحين جاءت اللحظة المناسبة التي كان على المسيح فيها أن يُغادر هذا العالم كان لا بد أن يظهر أحدهم بمظهر الخائن حتى يطمئن إليه اليهود ويعطوه النقود الفضية مقابل تسليمهم (يسوع)؛ إذ يقول إنجيل يهوذا الغنوصي إن المسيح قال ليهوذا قبل واقعة الصلب بفترة: "لنبتعد عن الآخرين حتى أستطيع أن أروي لك عن أعجوبة العالم.. أنت ستصل إليها، ولكنها ستقدم لك مشكلات كبيرة".



أنفسهم؛ لأنهم لا يبحثون عن الله بل يقنعون بعددٍ من الإجابات السطحية المطمئنة.. ذلك أن أتباع الكنيسة القويمة يعبدون إله العهد القديم على أنه الله، ويعتقدون بأن المسيح الذي قام من بين الأموات سوف ينجيهم من الخطيئة.. أما الذين تلقوا العرفان فقد تعرفوا إلى المسيح باعتباره مرسلًا من "أبي الحقيقة".

ويأتي الخلاص عند الغنوصيين عن طريق فعالية روحانية داخلية تقود إلى معرفة النفس، ومعرفة النفس تقود إلى الطبيعة الإنسانية ومصير الإنسان، وفي أعماق مستوياتها تقود إلى معرفة الله ذوقًا وكشفًا وإلهامًا.. عند ذلك يمكن تحرير الروح الحبيسة في الجسد المادي والعالم المادي لتعود إلى العالم النوراني الذي صدرت عنه بعد أن تقوم قيامتها وهي على الأرض وتولد الميلاد الثاني.

"أترك التفتيش عن الله، والبحث في مسائل الخلق والتكوين وما إليها.. لمعرفة الله إبدأ بنفسك، واهتدِ إلى من في داخلك يقول: إلهي، وعقلي، وأفكاري، وروحي، وجسدي. اهتدِ إلى مصدر الأحران، والغبطة، والحب، والكراهية.. فإذا استقصيت هذه الأمور فإنك واجد الله في ذاتك". "خببتك تنطوي على طاقة جبارة هائلة" و"من لم يعرف نفسه لم يعرف شيئًا، ولكن من عرف نفسه حقق في الوقت نفسه معرفةً بأعماق الكل".

"الجهل نقيض المعرفة، ومن هنا فإن البؤس الإنساني يعود إلى الجهل لا إلى الخطيئة؛ حيث يعيش البشر في هذه الحياة في حالة نسيان وغفلة، وعدم إحساس بذواتهم الحقيقية".

"الوجود أشبه بالكابوس؛ فالنائم يرى أحيانًا أنه يسقط من جبل عالٍ، أو تُطارده الوحوش المفترسة، أو يُلاحقه قاتل، أو يطير في الهواء من دون جناح، لكنه حين يستيقظ من نومه يتلاشى ذلك كله.. هذا هو حال أهل العرفان الذين تخلصوا من جهلهم، مثلما يتخلص النائم من كابوسه، تاركين حياة الجهل مثلما يترك من أفاق من نومه أحلامه

وكوابيسه، مقبلين على عالمٍ جديدٍ يتلاشى فيه الجهل، مثلما يتلاشى الظلام أمام نور الصبح".

"قم من هذا النوم الذي يثقل عليك.. اصح من الغفلة التي تملؤك بالظلام.. لماذا تطلب الظلام مع أن النور متاح لك؟ الحكمة تناديك، ولكنك تطلب حماقة.. الإنسان الأحمق يتبع طريق الرغبات والشهوات، ويغرق في مستنقعاتها؛ مثل سفينة جانحة تدفعها الرياح في كل اتجاه، أو مثل حصان جامح بلا فارس، يحتاج لجامًا هو الرشد؛ فالعقل والرشد هما المرشد والمعلم".

"أفرع على باب ذاتك، وامش عليها كما تمشي على طريق ممهد مستقيم، فإذا مشيت في هذا الطريق فلن تضل أبدًا".

علمت من الغنوصيين كيف سأل التلاميذ المسيح أن يريهم مكان الحياة والنور النقي، فأجاب: "من علم منكم نفسه رآه.. ومن يبحث عن الحقيقة هو الذي يكشف عنها".

"من يحقق العرفان لا يغدو مسيحيًا فحسب، بل يغدو مسيحيًا". "إن الوجود الإنساني نوعٌ من الموت الروحي.. أما القيامة فهي لحظة الكشف والاستنارة التي تنقل العارف إلى عالمٍ جديدٍ، ومن يصحو على هذه الحقيقة يغدو حيًّا من الناحية الروحية.. باستطاعتك الانبعاث من عالم الموتى هنا والآن.. فالقيامة تحدث هنا، لا في مستقبلٍ ما".

نظرت إلى السماء بعد هذه الجولة المعرفية فوجدت النجوم أقرب إلى يدي من أي وقتٍ مضى.. الآن صرت فاهمًا لعالم الملكوت، ومحيطًا بعظمة الروح والنفس القادرة على احتواء الكون بأكمله داخلنا رغم هذا الجسد الطيني الضيق الذي يُكبلنا..

في نفسك يا ابن آدم الكون بأكمله.. الله وملائكته وأنبيأؤه ورسله وإبليس وجنده.. أنت مسيح نفسك ومحمدها، أو شيطانها كيفما أردت.

"مع كل يوم يمضي تقترب أكثر من الحقيقة، وتتخلص من قيود الجسد وأحواله الطينية.. ألم أقل لك إن الحد الفاصل بين الإنسان والملائكة يمكن تجاوزه بسهولة".



قالها لي الشيخ (خضر) بابتسامة أبويةٍ أطلت فيها من عينيه لمعة دامعة لم أعرف مصدرها، لكنني سألته على أي حال:

- بلى يا أبي، غير أنك لم تقل لي بعد كل شيء عن الملائكة.
- القرآن والسيرة النبوية بمثابة مأدبةٍ لكل من يريد أن يغترف من العلم والمعرفة، لا سيما عن عالم الملكوت.

فمُنذُ بدء الخليقة، وزع الله مهامه على ملائكته ليصنفهم إلى درجاتٍ ورُتبٍ وتخصصاتٍ لإدارة شئون الكون تحت إشرافه وسلطانه، وأناط بجزءٍ منهم متابعة آدم ونسله المرتقب؛ لأنه يعلم أن الإنسان في جسده الطيني الضعيف لن يحتمل التواصل المباشر مع الله، ولأن ظهور الله وحديثه المباشر ينسف اختباره الأزلي للبشر، جعل هناك ملائكة موكلين بتدوين حسنات وسيئات البشر؛ ليخصص لكل إنسان ملكين أحدهما عن يمينه يدون أفعاله الحسان، أو يتأمل الهالة الثورانية المحيطة به دون أن يراها البشر أو يدركوا ماهيتها، فإذا ما همَّ ابن آدم بفعل حسنة أو شيء محمود يُضمره في نفسه تتوهج الهالة المحيطة به فتعرف الملائكة أن بداخله نيات طيبة، فيكتب له الملك في صحيفة أعماله حسنةً حتَّى وإن لم ينفذ الفعل الذي كان ينتوي القيام به، أما إذا نفذه فيسجل له بدلاً من الحسنه 10 حسنات، مع إمكانية أن يضاعف الله الأجر لعباده الذين يُحبهم ويُريد إكرامهم.. وجعل هناك ملكاً آخر عن شمال الإنسان ليدون ذنوبه وخطاياهم فإذا ما همَّ بفعل السيئة توهجت الهالة الثورانية المحيطة به بما يشي بالشَّر المُقَدِّم عليه، فلا يكتبه الملكُ بسيئةٍ إلا إذا تحولت النيات إلى واقعٍ نفذه الإنسان وصار أمراً مفعولاً، بعد أن ينتظر مدة من الوقت قبل تدوين السيئة لعلَّ ابن آدم يتوب أو يستغفر، فلا تُكتب السيئة في صحيفة أعماله وكأنه لم يرتكبها.

هكذا تعلمت الملائكة أن تطلع على تفكير البشر من الخارج بفعل وهجٍ نوراني يبرز تصنيف الأفكار الكامنة في النوايا النيات ما بين خيرٍ أو شر، دون أن يبرز طبيعة الفكرة نفسها وماهيتها وأبعادها، بعد أن تعلمت الملائكة أن الرَّب يوقف كل جنده على باب ذات الإنسان العميقة التي

تكمُن فيها حقيقته الخالصة ونياته وأحلامه، ولا يسمح لأحدٍ بدخول تلك الذات بعد أن جعلها حرماً نسج حوله الخصوصية الشائكة، وخلقها حرَّةً كالطائر الغرد.

فرض الله حول ضمير الإنسان قيوداً سريَّةً تقف على أعتابها ملائكته وجميع مخلوقاته فلا يحاسبه أحدٌ على ذلك التدفق الرهيب من الأفكار، والتساؤلات، والهواجس، والرغبات، في طوفان محموم داخله لا أول له ولا آخر، ما دام كل ذلك يسبح في الذات ولم ينفذ إلى عالم الواقع، والماديات المتجسدة.

فكم من مؤمنين ستشني عليهم الملائكة وتصلي لهم، دون أن يكشفوا تلك اللحظات التي يتطرقون فيها لأسئلةٍ مُحرمَةٍ من عينة: كيف نشأ الله؟ ولماذا يتحكم فينا بهذا الشكل؟ وما جدوى الخلق؟ وما حقيقة الأنبياء والرسالات ويوم الدينونة؟ وبأي ذنب يدفع الإنسان ثمن خطيئة أبيه آدم حينَ أكل من الشجرة ليتوارث نسله المصير البائس؟ ليحتفظ الرَّب وحده بالقدرة على المروق داخل الأنفس والذوات، والاطلاع على الأسرار والخفايا والتساؤلات، فيعرف ما تنوء عن حمله القلوب والعقول، وتخشى في الوقت نفسه أن تجهر به، باعتباره الوحيد القادر على تفهم نقائص مخلوقاته والتجاوز عنها.

دمعت عيناى وسالت الدَّموع ساخنة على وجنتي، وقد جاء كلامه على جُرحٍ في أعماق النَّفس خجلاً مما تردد داخلني من خواطر وتساؤلات طالما رددتها، فمد يده بحنانٍ أبوي يمسخ دموعي وتابع:

- بخلاف ما سبق، هناك ملائكة الأرحام التي تنزل في رحم كل أم تخصبت بويضتها بحيوانٍ منوي وأصبحت داخلها نطفة في نواتها كل عوامل الوراثة لتكون خلية حية بسر الحياة الذي ابتدأ بخلق النَّفس الواحدة في آدم، وانتقل بعدها إلى كل فرد من ذريته لتوارثه البشرية حتَّى قيام السَّاعة، وتلازم هذه الملائكة الجنين ملازمةً تامَّةً، ويشاهدوا مراحل تصوره في الأرحام لكنهم لا يعلمون سر ما يشاهدون؛ ليسألوا الله بعد فترةٍ من خلق النطفة عن هذا المخلوق القادم: أذكر أم أنثى؟



أسويٌّ أم غير سَوِيٍّ؟ ما رِزْقُه؟ ما خُلُقُه؟ أشَقِيٌّ أم سَعِيدٌ؟ لتدون الملائكة إجابات الخالق في صحيفةٍ خاصةٍ بكل مولودٍ جديدٍ، في سجل القيد المدني بوحدة إدارة الكون!

كما خلق الله ملائكة سيّارة ليسيحوا في الأرض حتّى إذا وجدوا مجلس ذكر يتحدث المجتمعون فيه عن الله وقردياته جلسوا يستمعون، حتّى يتوافد الملائكة على المكان ويجلسون فوق بعضهم البعض درجاتٍ فوق درجاتٍ حتّى يصلوا إلى السّماء من فرط عددهم، فيسأل الله أعلامهم من أين جنّت؟ -وهو أعلم- فيحكي الملاك عن أهل الذكر وكلامهم الطيّب؛ فيغفر الله ذنوب الجمع ويبدلها حسنات.

وملائكة من الحفظة يحمون البشّر من أي طارئٍ أو مكروه غير مكتوبٍ في أقدارهم، فيتدخلون لمنعه والعمل على نجاة الإنسان، كما يتصدون للشياطين والجان ويحمون البشّر من فتكهم وبطشهم ولولاهم لتفتكت المخلوقات النّارية بنبي آدم.

وملائكة زاجرات، تزجر السّحاب من موضعٍ إلى موضعٍ في السّماء، ويزجرون قلوب بني آدم عن المعاصي، ويزجرون الشياطين عن التعرض للمؤمنين بالإيذاء.

وملائكة مقسّمات، تقسم الأرزاق على العباد بإذن ربها..

وأخرى مُدبرات، تُدبر أمر هذا الكون بأمر الخالق وحكمته التي ترشدتهم إلى ما ينبغي عليهم فعله، وتكون هذه الملائكة وسيطاً بين الله (تعالى) وخلقه؛ إذ إن جميع المخلوقات سواء أحياء أو جمادات لا تطيق تجلي الله (تعالى) لهم؛ حيثُ حجابهُ النّور، ولو كُشف الحجاب عنه لأحرقت سبحاتُ وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه، فجعل ملائكة للجبّال، والرعد، والسحب، والرياح.

وملائكة معقّبات، يتعاقبون في الأرض ليلاً ونهاراً، ويكون عددهم 10 ملائكة حول كل إنسان، بخلاف ملك قرين يكون على يمينه لا يأمره إلا بالخير، ويقابله جني قرين على الشمال يزين له سوء عمله، وهكذا يُخصص لكل ابن آدم 13 ملكاً؛ اثنين لحسناته وسيئاته؛ وملك قرين؛ و10

معقّبات؛ وملائكة أخرى تكون مع الإنسان عند الحاجة؛ وملائكة لزيارة المرضى ومراقبة صبرهم على الابتلاء؛ وملائكة تستغفر للمؤمنين وتدعو لهم بالرحمة؛ وملائكة تلعن الكفار والفاسقين.

وفي السّماء، جعل الله أنواعاً أخرى من الملائكة؛ ما بين حملة العرش والطائفين حوله يُسبحون الملك القدوس، ويعبدونه حتّى يذهبوا خلف العرش ولا يعودوا دون أن يعلم أحد إلى أين ذهبوا، بخلاف الملائكة الصافات الذين يقفون في السّماء صفوفًا في مواقف العبودية يسبحون الله ويحمدونه ويصلون على المؤمنين، لكل فريق منهم رتبة معينة، ودرجة محددة في الشّرف والفضيلة، حتّى إنه ما من موضع 4 أصابع في السّماء إلا وعليها ملكٌ ساجدٌ لرب العالمين.

وفوق كل هذه الدرجات والرتب، كانت هناك أكابر الملائكة العظام: (جبرائيل) كلمة الله وروحه القدس الموكل بالوحي، وله ستمائة جناح، طول كل جناح من المشرق إلى المغرب؛ و(إسرافيل) صاحب البوق العظيم الذي ينفخ فيه أشهر ثلاث نفخات في الكون: نفخة القيام؛ ونفخة صعق من في السّماوات ومن في الأرض؛ ونفخة البعث، وله ستمائة جناح، كل جناح قدر جميع أجنحة (جبرائيل)، ورجلاه تحت تخوم الأرض السّابعة السفلى، والسّماوات السبع إلى ركبتيه، وعنقه ملوي تحت عرش الله، واللوح المحفوظ بين عينيه، وقد مد الرّجل اليمنى وأخّر اليسرى، والتقم الصور وشخص ببصره نحو العرش وأنصت بأذنيه ينتظر متى يؤمر بالنفخ في الصور؛ و(ميكائيل) صاحب إنزال الأرزاق من الله تعالى إلى عباده وتوزيعها عليهم مع معاونيه وهو الذي يحمل اسم (ميكائيل) في المسيحية؛ وملك الموت ورسله من الملائكة الذين يعاونونه في قبض الأرواح، ما بين ﴿النازعات غرقاً﴾ الذين ينزعون نفوس الكفار من أجسادهم، و﴿الناشطات نشطاً﴾ الذين يأخذون أرواح المؤمنين النشطة المقبلّة على مغادرة الجسد بعد أن رأوا مقعدهم في الجنّة عند مليك مقتدر، و(رضوان) رئيس ملائكة الجنّة، و(مالك) رئيس ملائكة النّار.



وهناك ما ورد عن الملاك رثائل الذي يسأل الحزن من صدور المؤمنين، لكنه غير مؤكد ولا وجود له في السيرة النبوية.. ويدّعي إخواننا الشيعة وجود ملك من الملائكة اسمه فطرس، تروي قصصهم عنه أنه تأخر عن إجابة الله فغضب عليه وكسر جناحه ولم يجبر كسر جناحه إلا بعد أن تمرغ بفراش الإمام الحسين يوم مولده، ومُنذُ ذلك الحين وهو موكل بحمل السلام للإمام الحسين، وهناك ملك آخر في كتبهم اسمه صرائل مكتوب على كتفه: تزويج النور من النور، أي علي بن أبي طالب بفاطمة الزهراء بنت النبي محمد، وملك آخر يُقال له خرقائل له ثمانية عشر ألف جناح، ما بين الجناح والجناح مسيرة خمسمائة عام، لكن أهل السنة لا يؤمنون بما جاء في كتب الشيعة، والشيعة لا يؤمنون بأغلب كتب أهل السنة؛ شأن أي دين تحزب أتباعه لأكثر من فريق وجماعة، وكما قلت لك سلفاً يا ولدي: من يقرأ ويبحث ويعيد كل الفرق إلى بداية نقطة الخلاف، ويربط الروايات المختلفة أو المتناقضة بالتاريخ دون أي تحيز لفريق أو مذهب سيصل إلى حقيقة الحقائق.

فالعلوم السياسية الموجودة في الدنيا وتقسّم الناس لملوك ووزراء وريعية، مأخوذة من السماء الموجود فيها التقسيم نفسه، مع الفارق أن في الأعلى لا يوجد حاكم يظلم محكوماً.. ولا محكوم يدعو على الحاكم أو يرغب في الانتقام منه.

– أيهما أفضل يا شيخ.. البشر أم الملائكة؟

– قال الله جلّ وعلا في كتابه العزيز: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمْ مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾؛ فالإنسان لم يُخلق من أجل العالم، كما يظن البعض، وإنما تم خلق الكون نفسه من أجل الإنسان الذي مهد الله لخلقه في لوحه المحفوظ قبل بدء الخليقة نفسها، وجعله رمانة الميزان لصنع التوازن في الوجود كله بين باقي المخلوقات والخلائق، فإذا لم ينتج مثل هذا الإنسان لزم العبث في الخلق، وسارت الأمور على وتيرة واحدة بلا مخلوق عاقل يجمع قطع البازل ليُعيد ترتيب لوحة الإله بشكلٍ صحيح.. نعم خلق الله الإنسان

ظُلومًا جهولًا، لكنه غرس داخله كل مقومات العلم والعدل، حتّى يبحث أول ما يبحث في نفسه، ليقدم نسخًا أعلى وأفضل مهياة لإعمار الوجود، بعد وصول قوتي الفكر العقلي والإيمان القلبي إلى أفعال، وتحول النقص إلى كمال، فلم يقل الله على أي من مخلوقاته: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾.

أنت لغز ربك ورمزه؛ أنت الهيكل الطيني الذي يُخفي داخله الأنوار الإلهية مثلما تُخفي الصّدفَةُ اللؤلؤة.. فالخالق يقول في كتابه العزيز:

﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمَشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُّبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾..

والمعنى العميق من وراء الآية أن الدنيا مثل تلك الفجوة المحفورة في حائط بيتٍ قديمٍ؛ حيث كانوا يضعون فيها المصابيح المنيرة؛ لعل تلك الفجوة تجمع ضوء المصباح وتركزه ليزداد سطوعه في البيت، والمقصود بالمصباح قلبك الذي كلما عمر بالإيمان سطع وأنار الطريق أمام عينيك داخل الدنيا، هذا المصباح داخل زجاجة والمقصود بالزجاجة هو جسدك الطيني الذي إذا تشبّع بالإيمان صار كالكوكب الدرّي الساطع في الكون، ومصباح النفس الإلهي لا يأتي من اتجاهٍ واحدٍ؛ لذا قال الربّ: ﴿يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُّبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ﴾؛ أي أن أنواره لا تأتي من الشّرق فقط فتخفق وتتوارى بالغروب، ولا تأتي من الغرب فقط فيزائلها الشّرق، بل هي أنوار مطلقة لا تتقيد بالجهة والمكان والمقدار، يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسسه نار، نور على نور، يهدي الله لنوره من يشاء ويضرب الله الأمثال للناس، والله بكل شيء عليم.

فنحن لا نرى النور، بل نرى بالنور الأشياء التي يكشف عنها حين يبدد ظلمتها، وكلما كان ذلك الكشاف داخلك ذا إضاءة أقوى أضاء لك أكثر وجعلك ترى وتستكشف ما لا يراه أصحاب الكشافات الضعيفة.





وفي الوقت نفسه أنت ظلّ الله الذي يلقي سراج نوره في عالم الامتداد والإمكان فينعكس ظلّه فيك، وهو ما أشار إليه في قوله: ﴿الْم تَرِ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الْأَبْظَلَ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا ثُمَّ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا﴾.

فأنت ظلّ الإله وهو شمسك، وحين يأتي الأجل سيقبضك قبضاً يسيراً قصير الوقت، لأن الموت مرحلة يتلوها برزخ، ثم بعث. ومثلما يجتمع فيك النور والظلّ، يجتمع في خالك الأضداد ما بين مقدم ومؤخر، وقابض وباسط.

فالإنسان مجمع البحرين، يلتقيان ولا يمتزجان بينهما برزخ لا يبغيان.. بحر الروح، وبحر المادة.. بحر هوان العبودية، وبحر نور الألوهية..

إننا نسيج بين عوالم متعددة، عالم الصورة وما يتضح فيه من ماديات لها قشور ظاهرة، وستور بارزة، ويطلق عليه عالم الملك، وخلف الصور أمور باطنة ومعانٍ خافية، ومخلوقات لطيفة تنتمي لعالم "المللكوت؛ فالروح مجانسة للملكوت والملا الأعلى في صفاتها ونورانياتها، والجسد مجانس لعالم الملك والصورة بكثافته وظلامه وغلظته".

والإنسان ما هو إلا صورة مُصغرة للعوالم والأكوان.. عالم الملك كعالم جسمانيته، وعالم الملكوت كعالم روحانيته، كثيف العالم السفلي ككثيف جسمانيته، ولطيف العالم العلوي كلطيف روحانيته، وكل ما في الكون له ما يناظره ويقابله فيك.. فمثلما جُعِلت جبال الأرض أوتاداً لتثبيتها وتقويتها، كذلك جُعِلت العظام جبال جسدك وأوتاده.

وما في الكوكب من بحار مسجورة جارية وغير جارية، عذبة وغير عذبة، لها ما يناظرها في جسدك من دم يجري في تيار العروق، ويسكن في جداول الأعضاء.. فيكون الماء في جسدك أحياناً عذباً مثل ماء الريق، فيطيب بعجينه المأكَل والمشارب، أو مالحاً مثل ماء العين الذي ينزل في صورة دموع، أو مُراً مثل ماء الأذن المتجمد فيها لحمايتها من حيوان ودبيب يصل إليها فيقتله.. ثم في أرض جسد الإنسان ما ينبت كالأرض الخصيبة وهو رحم المرأة الولود، وما لا ينبت كالأرض البور وهو رحم

المرأة العقيم، ومثلما في الأرض أنهار عظيمة تتفرع منها ترع وسواقٍ لنفع الناس بها، كذلك في أرض جسدك عروق غلاظ كالتوتين الذي يبث الدّم، وتمتد العروق منه لتروى سائر الجسد.

حتّى عالم السّماء العلوي الذي جعل الله فيه شمساً كالسراج يستضيء به أهل الأرض، له ما يناظره في جسد الإنسان فُجِعِلت الروح في الجسد يستضيء بها، ولو غابت بالموت لأظلم الجسد كظلمة الأرض إذا غابت عنها الشّمس.. ثم جُعِل العقل بمنزلة القمر يستنير في فلك السّماء، تارةً يزيد وتارةً ينقص، فابتداؤه صغير وهو هلال كابتداء عقل الصّغير في صغره، ثم يزيد كزيادة القمر ليلة تمامه، ثم يعود للنقص في تركيبه وقوته وفق منازل العمر والأجل.

وجُعِل في عالم السّماء عرشٌ وكروسي، فالعرش أوجده الله وجعله وجهة قلوب عباده، ومحل رفع الأيدي إليه، لا محلاً لذاته، ولا مُجانساً لصفاته؛ لأن العرش خلقٌ من خلقه، لا متصلٌ به، ولا ملامسٌ له، ولا يُحمَل الرحمن عليه، وأما الكرسي فهو وعاء أسرارهِ، وكنانة أنوارهِ، ومستودع ما في دائرة ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾.

فجُعِل الصدر بمنزلة الكرسي؛ لأن فيه تحصيل العلوم، وجعل القلب بمنزلة العرش بالنسبة لباقي الجسد، وعرش القلوب أفضل من عرش السّماء؛ لأن عرش السّماء لا يسع الخالق، ولا يحمله، ولا يدركه، وعرش القلب يسعه حين ينظر إليه، ويتجلى عليه، وينزل من سماء كرمه إليه.. كما جاء في حديثه القدسي: "مَا وَسَعَنِي سَمَاوَاتِي وَلَا أَرْضِي، وَلَكِنِّي وَسَعَنِي قَلْبُ عَبْدِي الْمُؤْمِنِ".

ولما جعل في عالم الآخرة جنةً وناراً للنعيم والعذاب، جعل مكان سويدها القلب جنة عبده المؤمن؛ لأنه محل المشاهدة والتجلي والمناجاة والمنازلات ومنبع الأنوار، وجعل النَّفس بمنزلة النَّار؛ لأنها منبع الشّر، ومحل الوسواس، وزيف الشّيطان، ومحل الظلمة.. ثم جعل اللوح والقلم نسخة كتاب الكون، وما كان وما يكون إلى يوم الدين، وجعل الملائكة تستنسخ ما يؤمرون بنسخه من محو وإثبات، وموتٍ وحياءٍ، ونقصٍ



ولزمت مقامك.. فأنت أقوى من الأرض والسَّماء.. أقوى من الجنَّة والنَّار..  
أقوى من الحروف والأسماء.. أقوى من كل ما بدا.. في دنيا وآخرة.  
اتسعت عيناى، ووجدتني أردد بلا وعي مني: أشهد أن لا إله إلا الله  
وأَنَّ محمدًا رسول الله.

ترقرقت عينا (الخضر) ونظر للسماء وقال باكيًا:

- اللهم اشهد أني أديت رسالتك، وحافظت على أمانتك.. ثم وضع يده  
على كتفي، وتابع:
- ليس الجهل وحده هو الفتنة والخطر على قلوب البشر فاحترس  
يا ولدي.
- مم؟
- من إيمانك.
- إيماني؟!!

- نعم.. فالإغواء بالإيمان كثيرًا ما يكون أخطر من الإغواء بالجهل،  
حين يقود صاحبه إلى الكبر والتعالي على من هم أقل منه إيمانًا أو فهمًا  
للدين؛ كأولئك الذين يعتقدون أن رفض القرآن لواقعة صلب المسيح  
وألوهيته تعني أن نسبَّ المسيحيين ليلاً ونهارًا ونقل من شأنهم ونطلق  
عليهم النكات والمساخر، ونسوا أن الله قال في كتابه: ﴿فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ  
وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفِرْ﴾، وتناسوا قوله ﴿فَذَكَرْ إِمَّا أَنْتَ مُذَكَّرٌ لِسْتِ عَلَيْهِمْ  
بِمَسِيحٍ إِلَّا مَنْ تَوَلَّى وَكُفِرَ فَيُعَذِّبُهُ اللَّهُ الْعَذَابَ الْأَكْبَرَ﴾، وتجاهلوا حكمه  
حين قال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ  
بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمَلْ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ  
عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يُحْزَنُونَ﴾.

الله وحده هو الذي أطلق أحكامه، ووضع قوانينه، وترك للجميع  
حرية الاختيار؛ حتَّى لا تكون هناك حجةٌ لأحدٍ عند الحساب، ووحده  
من سيفصل بين مخلوقاته دون أن ينازعه أحدٌ في ذلك، والإسلام الذي  
أمرنا بالحفاظ على النبات والحيوان، أجدر بنا أن نفهم منه كيف نحترم  
إخواننا في البَشَريَّة ولا نوذِّي منهم أحدًا أو نحقر شأنه باسم الدِّين؛

وزيادة، فكذلك اللسان بمنزلة القلم، والصدر بمنزلة اللوح، فما نطق  
به اللسان، رقمته الأذهان في ألواح الصدور، وما أرخته إرادة القلب إلى  
الصدر عبَّرَ عنه اللسان كالترجمان.. ثم جعل الحواس مقابلاً للأنبياء  
والرسل؛ لتعبر عن رسالة الإنسان وتوصلها لمن حوله، ثم توصل له ردود  
أفعال البَشَر.

ثم جعل في الإنسان ما هو دلالة على الرُّبوبيَّة، وتصديق الرسالة  
المحمدية، فذلك الهيكل الإنساني يفتقر دائماً إلى مدبر وهو الروح غير  
المرئية، التي لا تتحيز في شيء من الجسد، ولا يتحرك شيء من الجسد إلا  
بشعورها به، وإرادتها له، ولا يحس ولا يمس إلا بها، وكان ذلك كله دلالة  
على أن العوالم لا بد لها من مدبرٍ ومحركٍ، عالمٌ بما يحدث في ملكه،  
قادرٌ على حدوثه، وأنه غير مكيف، ولا متمثل، ولا مربي، ولا متحيز، ولا  
محسوس، ولا ملموس؛ بل ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾.

ولما كان رسوله إلى خلقه اثنين: ظاهرًا وباطنًا، فرسوله الظاهر محمد  
رسول الله، ورسوله الباطن جبريل الذي كان يأتي محمدًا بالوحي بين  
قومه ولا يحسونه ولا يعرفونه، كذلك كان للروح المدبرة لجسدك رسولان:  
باطنٌ وظاهر، فالرسول الباطن هو الإرادة، بمنزلة جبريل الذي يوحي  
إلى اللسان، واللسان هو الرسول الظاهر الذي يُعبر عن الإرادة، وهو  
بمنزلة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم.. ثم لما جعل فيك دلالةً  
على صحة نبوته، وصدق رسالته، جعل فيك أيضًا دلالةً على ما جاء  
به من تحقيق شريعته، واتباع سنته، فكان أصل الأيدي خمسة أصابع  
وهي أركان الإسلام شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، وإقام  
الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصوم رمضان، والحج إلى بيت الله الحرام؛ لذا  
جاء في كتاب المخاطبات للمتصوف العظيم النَّفَرِي على لسان رب العزة:  
سرك يُرى بدون عين، ويُسَمع بدون أذن..

سرك يعيش في الأبد، وجسدك يعيش في المواقيت..

سرك تُحيط به الأبواب، ولا تتعلق به الأسباب.. أنت مني.. أنت  
تليني.. وكل شيء في الوجود يأتي بعدك.. لا شيء يقدر عليك إذا عرفت



ولدي الذين يهبطون بأديانهم إلى الحضيض وليس أبناء الأديان الأخرى.. هكذا يقول لنا التاريخ.

ففي قديم الزمان، كان البحارة متى أهدقت بسفينتهم المتاعب، ورأوا اضطراب البحر وصخب الأمواج والرياح، هتفوا صائحين: "لا بد أن ثمة جثة قد أخفيت في أحد صناديق البضائع المشحونة على ظهر السفينة"، ثم إذا بهم يشرون في البحث عنها للتخلص منها، مؤمنين بأنها سبب محتهم، وبأن التخلص منها بإلقائها في البحر كفيلاً بأن يرفع عنهم ما حل بهم من بلاءٍ ولعنةٍ، واليوم وقد عصفت بأقطار العالم الإسلامي الرياح، وتهددت سفينته بالغرق، بات من الجدير بالبحارة المسلمين التنقيب عن الجثة التي تهدد سلامة السفينة بكل من فيها.. حينها سيجدون الكثير من الجثث، وأخطرها تلك التي بلغت حدًا من الضخامة والتعفن، وصارت المستولة الأولى عما أصاب السفينة من نقمة وابتلاء، ألا وهي استعداد أبناء الأمة لتمكين يد الماضي الميتة من القبض على أعناقهم، لتتحكم قيم هذا الماضي ومعتقداته ومفاهيمه في حاضرهم ومستقبلهم. فضلا عن اجترار الماضي- بكل ما فيه- إلى الحاضر دون وعى.

— ألم يقل الرسول (عليه الصلاة والسلام) اتبع ولا تبتدع؟

— هذا صحيح.. لكنه أوصى باتباع الدين، وليس تقديس أقوال البشر من المفكرين والفقهاء الذين تناسبت أقوالهم وإرهاصاتهم مع أزمانهم ومجتمعاتهم.. فالكثير مما نخاله من الدين اليوم سيكتشف من يقرأ ويعود إلى أصوله وتاريخه أنه من نتاج اعتبارات تاريخية واجتماعية معينة، ومن إضافات بشر من حقب متعاقبة، فأسدلت هذه الإضافات والاجتهادات حجابًا كثيفًا على جوهر الدين وحقائقه الأساسية الخالدة.. قل لي يا بني.. هل يمكنك أن تحتفظ بالماء في يدك دون أن يكون هناك إناء يحتويه، أو الاحتفاظ بعنصر كيميائي غازي إلا بخلطه بعنصر غريب يحوله لأقراص صلبة؟

هزرت رأسي نفيًا، فاستطرد:

لأن الله ما كان ليخلقهم وينفخ فيهم من روحه لو لم يكن لوجودهم أهمية ودليل في تلك الحياة.. وأغلب الذين تبحروا في الأديان الأخرى ليصلوا إلى الحقيقة واقتنعوا في نهاية المطاف بصحة دينهم الذي يتبعون، تبحروا في باقي الأديان بعين الشك والبحث عن النقائص والمبهمات ليثبتوا لأنفسهم أنهم على صواب ثم يتخذونه منطلقًا لإطلاق موجات العنف والكراهية، لا بحثًا عن الحقيقة المجردة، دون أن يدروا أن الصواب حين تصنعه الأهواء والانتماءات من أجل الفوز بمكانة مقدسة أو اغتنام المغانم بقهر الآخرين وظلمهم يصبح من أكبر الأكاذيب، وأن أي دين نضيف إليه البارود من السهل أن ينشر الدّم ويصنع الإرهاب، وهكذا يتم اليوم هدم الإسلام من داخله، وعلى يد كثير من أتباعه الذين أساءوا إليه أكثر من أي عدو أو كاره، ومن يردد قول الله: ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ أمام غير المسلمين وكأنه يجلدهم بالكلام، عليه أن يسأل نفسه ما شكل الإسلام الذي وصل إليهم حتى يقبلوا عليه؟ فالله لن يحاسب غير المسلم على عدم اختيار الإسلام لو كان الإسلام قد وصل إليه منقوصًا مشوهًا، وحينها سيتحمل الوزر المسلم الذي تسبب في تشويه سماحة دينه، ومن هنا قالها الحق جلّ وعلا يومًا: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾؛ إذ لن يستثني أحدًا من العقاب لمجرد انتمائه لدين أو جماعة؛ لأنه لا أفضلية بين المخلوقات العاقلة إلا بالإيمان والمحبة الغامرة في القلوب.

.....

"لكن، لماذا تخلّفت الدول الإسلامية اليوم يا شيخ إذا كان الإسلام بهذه العظمة؟".

كان السؤال يقصّ مضجعي، ويشتت سكينتي التي وجدتها في هذا الدين العظيم، فأجابني المعلم:

— ما هو بعظمة الإسلام وقلل من شأنه اليوم، هو نفس ما قلل من شأن اليهودية والمسيحية في حقب زمنية طويلة على مرّ العصور، وألصق بهما ما ليس فيهما من تعاليم وأفعال.. وحدهم أتباع الأديان يا



- كذلك هو الدين.. حقيقة مطلقة وردت في إطار تاريخي، وظهرت في بيئة اجتماعية انعكست معالمها عليه، ثم مرّت عليه حقبة تاريخية متتالية، وانتشر في مجتمعات متباينة، فتراكم عليه المزيد والمزيد مما هو محلي محض وعارض مؤقت، ناهيك عما خضع له من تأثيرات أجنبية غريبة عليه، سواء تأثيرات حضارية أو من باقي أديان المجتمعات التي دخل عليها واختلط بأهلها، وبوسع العالم أو المؤرخ أن يرد كل هذه التراكمات إلى مصادرها وزمنها، ليفرق بين الأصلي والدخيل، بل يبين ما كان في الأصلي نفسه من تعاليم راعت ظروف المجتمع الذي ظهر فيه الدين أول ما ظهر، وظروف العصر، والمستوى الذهني والروحي والأخلاقي عند أهله، كما بوسعه أن يثبت أن هذا الدخيل وهذه التراكمات والتعاليم المحلية العارضة، هي من صنع التطور التاريخي، وليست من صميم الدين ولا صلة لها بجوهره، ومثلما تدفع الغازات الكيميائية ثمن دخول العنصر الغريب لتأخذ شكلاً مادياً ملموساً في صورة الأقرص، ما كان للرسالة الدينية بحقائقها العالمية الخالدة أن تصل بشكلها المطلق دون أن تدفع ثمن وجود الدخيل المؤقت والعارض المحلي غير الجوهري.. ولو أن الرسالة الخالدة لم تراعى جهاز الاستقبال لدى من تسعى إلى مخاطبته والوصول إليه لضاعت في الأثير واستحال التقاطها.. فكانت الضرورة بتغليف الرسالة بما ليس من صلبها، وترجمة المحتوى العالمي الخالد إلى لهجة محلية تراعى غلاظة الأذهان، وضعف المستوى الثقافي والحضاري، والتشبث العنيد بالمفاهيم الموروثة والتقاليد.

والتقط الشيخ نفساً عميقاً، ثم تابع:

- وبعد تلون الرسالة بلغة ولون المجتمع والعصر الذي نزلت فيه، كان عليها أن تتلون فيما بعد حسب المجتمعات الجديدة الموجودة في العصر نفسه، ثم يستمر تلونها ليواكب توالي الأزمان والمجتمعات الأخرى حتى تلبى الاحتياجات الروحية لأهل هذه الاجتماعات والعصور بنفس الفاعلية التي لبت بها احتياجات أهل المجتمع والعصر اللذين جاءت الرسالة فيهما، لكن بكل أسفٍ تملك يد الماضي من الدين وأوقفت فوه بنصوصٍ بشريةٍ قدّسها البعض كتقديس كلام الإله نفسه، حتى

أصبحت الرسالة قيئاً ثقيلاً يشل قدرة المسلمين على التطور والتقدم في مضمار الحضارة والعلوم، وعائقاً خطيراً دون انتشار الدين في البقاع التي لم يصل إليها.

بخلاف ذلك الجدال الذي شبّ مبكراً بين المسلمين الأوائل وأبناء الأمم الجديدة التي دخلها الإسلام، ووجد المسلمون أنفسهم أمام أحوال جديدة عليهم تماماً لم يألفوها من قبل أو يتحصنوا بإجاباتٍ عليها، واشتعل الصراع الفكري والعقدي حين بدأ اليهود يُنظرون المسلمين ويتفاخرون بمعجزات موسى بن عمران الهائلة، وتفاخر المسيحيون بمعجزات المسيح وإحيائه للموتى، فكان لا بدّ من الاجتهاد والتفكير بشكلٍ مختلفٍ، بينما لجأ بعض الأساقفة إلى إشاعة أن نبي الإسلام ما هو إلا كاردينال مسيحي مارق، سرق النصوص والأسفار المقدسة وصاغها بلغته مع الحذف والتعديل ليصنع ديناً جديداً يضعه فوق سلم المجد على قدم المساواة مع المسيح.. وفي ظلّ كل هذا لجأ بعض المسلمين للعقل المستنير وتفهم الفارق بين جوهر الإسلام والقشور التي لصقت به بفعل المجتمع البدوي الذي نشأ وفيه وحان وقت التخلص منها ليواكب البيئة الجديدة، والبعض الآخر لجأ إلى تزييف النصوص وافتعال الأحاديث انتصاراً لنبي الإسلام أمام باقي الأنبياء وكأن المفاضلة بين الأنبياء لا تكون إلا بمعجزاتٍ ماديةٍ فحسب، وكأن الكثير من الأنبياء الأقدمين الذين لم يأتوا بمعجزاتٍ ما كانوا يستحقون التصديق والإيمان بنبوتهم.

ولو كان الملقون الذين دسوا عن الرسول أعاجيب ومعجزات ليرفعوا من شأنه، قرأوا في أديان الآخرين - واجتهدوا فيها- لوجدوا أنبياء عظاماً كانت رسالتهم وأخلاقهم وتوقيت ظهورهم هو المعجزة في حد ذاتها، ولأدركوا أن معجزة إحياء الموتى التي يؤكدون أنها أكبر دليل على ألوهية المسيح سبق القيام بها على يد أنبياء العهد القديم من بني إسرائيل، مثل حزقيال الذي أحيا جيشاً كاملاً من بعد موته كما ورد في سفر حزقيال في الإصحاح السابع والثلاثين: "فدخل فيهم الروح، فحيوا وقاموا على أقدامهم جيش عظيم جداً جداً"، والنبي أليشع الذي أحيى عظامه وهو ميت رجلاً آخر مجرد أن مسّه، كما جاء في الإصحاح الثالث عشر



من سفر الملوك الثاني: "وفيما كانوا يدفنون رجلاً إذا بهم قد رأوا الغزاة فطرحوا الرّجل في قبر إليشع فلما نزل الرّجل ومس عظام إليشع عاش وقام على رجليه".

ثم تحول النّبي محمد نفسه إلى سلعة تجاذبها الأمويون والعباسيون في صراعاتهم على الحُكم والخلافة، كل فريق ينسب إليه أحاديث تمجد في قومه وتذم في المنافسين، قبل أن تظهر جماعات من القُصّاصين الذين جابوا المساجد وأخذوا يحكون قصصاً وسيراً عجيبةً ممتعةً ومسليةً في قالب ديني ما أنزل الله به من سلطان حتّى أصبح العامة والبسطاء يميلون إليهم أكثر من ميلهم للعلماء والفقهاء، وظلّت الشواذب والأحاديث المدسوسة المنسوبة للرسول كذباً تزيد من القيود التي علقت بأهداب الدّين ومنعت الروح من التحرر من ربكة الجسد.

— ألهذا السبب لا يوجد للإسلام حضارة قوية مثل حضارة الغرب؟

— ومن الذي قال لك إن الإسلام رغم كل ذلك لم يصنع حضارة لا تقل عظمة وروعة عن حضارة الغرب المعاصر؟ فبعد توطيد دولة الإسلام، وتوحيد قبائل شبه الجزيرة العربية بوثيقة النّبي المدنيّة تحت راية واحدة، تحول العرب من مجرد قبائل بدائية متناحرة إلى ماردٍ عظيمٍ خرج من قمقمه وجاب الصحارى والفيافي حتّى كسر أنوف القياصرة والأباطرة الذين استعبدوا شعوبهم، ونشر تعاليم ومبادئ الإسلام في شتى ربوع الأرض رغم قلة العدد والعتاد في كثير من المواقف أمام الجيوش التي واجهته، ومع منتصف القرن الثامن الميلادي حتّى القرن الخامس عشر كان هناك عصرٌ ذهبي للإسلام، من حدود الصين شرقاً حتّى حدود فرنسا وإسبانيا غرباً.

وفي عصر الدولة العثمانية توسعت الأراضي إلى أوروبا واليونان، وخلال هذه الفترات قام مهندسو وأطباء وعلماء وتجار العالم الإسلامي بالإسهام -بشكلٍ كبيرٍ- في حقول الهندسة والطب والفن والزراعة والاقتصاد والصناعة والأدب والملاحاة والفلسفة والعلوم والتكنولوجيا والفلك، بعد أن استوعبوا علوم الحضارات السّابقة، وأضافوا إليها بصمتهم واجتهادهم،

وكافأ الخلفاء العلماء والمتجمين والنوابغ، بغض النّظر عن أديانهم وجنسياتهم، إلى حد منح وزن الكتب التي يتم تأليفها ذهباً لأصحابها، وانتشرت المكتبات في كل مكان، وبهذا صنع المسلمون حضارةً تمزج بين العقل والروح، في الوقت الذي كان الغرب يتخبط فيه بين جدران عصور الظلام التي بدأت في نهاية القرن الرابع الميلادي بعد قرار الإمبراطور الروماني ثيودوسيوس الأول بحرق وتجريم جميع العلوم والفلسفات، ومنع القراءة والكتابة، بل نسخ العقائد المسيحية المختلفة الموجودة آنذاك لتعارضها مع عقيدته المسيحية الشّخصية، وتم عقد محاكم تفتيش لحرق من بحوزته تلك العلوم.

والمدهش أن اختلاف وتنافس هاتين الحضارتين إضافة إلى التنافس المستمر بين الحضارات المتعاقبة مُنذ فجر التاريخ -إلي يومنا هذا- كان سبباً في حفظ المعرفة والعلوم دوماً، وكأنّ الدرس التاريخي الذي أراد أن يخبرنا به الخالق أنه: **﴿ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض (ولولا تنافسهم) لفسدت الأرض﴾**.

— وكيف سقطت الحضارة الإسلامية؟

مُنذ أن بدأت الروح والدّين يغيبان شيئاً فشيئاً حتّى صار المسلمون والعرب يتقاتلون فيما بينهم من أجل مُلك زائل، إلى أن مروا بفتراتٍ مشابهةٍ لعصر الغرب الظلامي حين قاموا بحرق كتب ومؤلفات الفلاسفة والمفكرين، وقتل وصلب البعض منهم، وانتشرت الخمر ومضاجعة الغلمان داخل قصور الخلافة نفسها حتّى صار العامة يتبعون نهج ملوكهم وصارت النّساء رخيصات لا يجدن من يشتريهن في سوق النخاسة، حتّى يسهل بيعهن كانت الجوّاري يقمن بقص شعورهن والتشبه بالغلّمان في الهيئة واللبس، وتم استخدام الدّين كسلاحٍ في تكفير المخالفين بدلاً من تطوير فقهه ليلانم روح العصر ويرتقي بنفوس ووجدان المسلمين؛ فأصبح الدّين عيباً في النّفوس، غير قادر على الارتقاء باتباعه بعد أن عطلوا أحكامه وتجاهلوا تعاليمه، وفي الوقت نفسه ابتعدوا أيضاً عن الاجتهادات العلمية والبحث والاستكشاف وتشجيع النوابغ والمجتهدين في

شتى المجالات.. كان هذا بالتزامن مع تحرر الغرب من سلطة الكنيسة، واستعادته من جديد لكل الكتب والعلوم المفقودة التي سبق حرقها لبدء عصر النهضة الذي بنى حضارة على العلم والمادة فقط، دون أدنى اهتمام بالروح والدين بعد تجربته الأليمة مع القساوسة والباباوات.

وحين عزلت حضارة الغرب الدين عن الدولة، جعلت هذا العزل مبالغاً فيه، فجاءت تلك الحضارة قوية متماسكة في بنائها الخارجي الشاق، لكنها هشّة ضعيفة داخل النفوس التي خلت من الإيمان والروحانيات، فزادت نسبة الإلحاد والانتحار والإدمان والأمراض النفسية في نفوس البسطاء والعامّة هناك وتباعدت السعادة عن أرواحهم رغم أن أيديهم امتلكت كل مقوماتها، بينما لا يزال القادة والساسة هناك يتحالفون مع الشيطان.

عقد الشاب حاجبُهُ بدهشة:

— الشيطان؟

— نعم.. فمع انهيار الدول الإسلامية ونهضة أوربا والغرب، تم الانقراض على الأراضي العربية وتقسيم مقدراتها وخيراتها على الدول الأوروبية، واستعباد الشعوب المسالمة ونشر الجهل والدجل مع اختيار السفهاء الخونة وثببتهم على عروش الحكم، وكلما كادت دولة منهم تنهض من كبوتها كانوا ينفقون المليارات ليبقى الوضع على ما هو عليه من فوضى ودمار وتشردم، ثم يمدون أيديهم للنوابغ والمفكرين والعلماء يأخذونهم إلى بلادهم؛ ليغنموا بعقولهم الذهبية وأفكارهم الخلاقة، فتزداد دولهم ومجتمعاتهم تمدناً وتحضراً وعلماً وفكراً، بينما تتم تصفية البلدان الفقيرة المتدهورة من عقول وأفكار أبنائها الذين لديهم ما يستطيع أن ينتشلها من مستنقعات الجهل والفقر والتخلف والمرض، فيجني الآخرون ثمارهم ويغنمون بها وحدهم، وبعد تحويل علومهم إلى منتجاتٍ وسلع يأخذون منها ما هو بناء خلاق ويخصون به دولهم ومجتمعاتهم فتزداد إنتاجاً وتطوراً، أما المنتجات الاستهلاكية التي لا تنهض بالأمم فيتم تصديرها للبلدان المستهلكة ويجنون من ورائها

المليارات بعد أن حولوها إلى أسواقٍ تابعةٍ لهم، لا تأكل ولا تشرب ولا تتسلح إلا بما يُلقى إليهم من فتات.

يلقون ما يتبقى من محاصيلهم ومنتجاتهم في المحيط حتى يحافظوا على أسعار سلعهم، ويتركوا أطفالاً وعجائز ونساء محتاجين يموتون فقراً وجوعاً بعد أن يتحولوا إلى هياكل عظمية تمشي على قدمين.

يتصنعون أنهم يمنحوننا المساعدات والمعونات وهم في حقيقة الأمر كمن يُربي الدجاج والخراف في مزارعه ومراعيه حتى يحين موعد الذبح ليأكل أسمنها، ثم يُعيد تسمين الباقية بقدرٍ معلومٍ فقط حتى يجعلها وجبةً دسمةً يفترسها بشوكة وسكينة التحضر على مائدة العولمة.

فالإرهاب والتخلف المحقق بنا جاء من الفقر والجهل والظلم.. فمن الذي نشر الظلم وضمن تقسيم الأمة وأخذ بتزولها وخيراتها؟ من زرع الحكام العملاء الخاضعين التابعين ليحفظ ولاءهم؟ من افتعل الحروب والصراعات ليضمن بيع أسلحته التي تنتجها مصانعه؟ من اقتنص العقول النابغة وفتح الهجرة للمفكرين والنوابغ؟ ألف من ومن ستكشف إجابتها لماذا تخلفت الدول المسلمة التي ينتشر فيها الإسلام، لكن شعوب الغرب نفسها شعوباً طيبةً مسالمةً، مضحوك عليهم مثلنا. واليوم، لم يتبق من المسيحية في الخارج سوى الكنائس الأثرية العريقة التي لا يذهبون إليها إلا في المناسبات والأعياد فقط، حتى الأحزاب الدينية المسيحية لم يتبق من مسيحيتها سوى اسمها بعد أن دخلت تحالفاتٍ حزبيةً وسياسيةً، حتى الديمقراطية حين انفصلت عن الروحانية وتعاليم السماء نشرت الموبقات؛ لأنها لا ترتبط بسياقٍ ديني يهذبها ويقودها إلى النور، ولو صوتت الأغلبية على أمرٍ مخالفٍ لتعاليم الخالق لصار حقاً كاللواط الذي سنا له تشريعاً على سبيل المثال، والغريب أن المسلمين اليوم بعد أن ابتعدوا عن دينهم وشؤونها تعاليمه ووصاياه، تجد بعضهم يريد نقل تجربة الغرب بأكملها في الوقت الذي اكتشف فيه الغرب نفسه أن سلخته معيبة وبها عيوب صنع خطيرة تحول دون تسويقها، ومثلما سقطت الحضارة الإسلامية ستسقط حضارة الغرب قريباً جداً،



وسقوط هذه الحضارة سيكون بيد أبنائها وليس بيد أبناء الحضارات الأخرى.

– كيف؟

– سيبتلعها الفم القبيح للعلم دون أن يشعروا، ليجردهم من المشاعر والإنسانيات والأخلاقيات.. ومع الوقت سينهار اقتصادهم، والسلاح الذي صنعوه ليفنوا به الآخرين سيفني كل الأطراف دون أن يميز بين الأيادي التي تحملها والصدور الموجه إليها، حينها سيعود العالم مئات السنين إلى الوراء، وتحين اللحظة لترفع حضارة أخرى لواء القيادة وسط الخراب والركام المنتشر في كل شبر على الأرض.. فالتاريخ يُعيد نفسه في دورات، واليوم يُعيد نفسه في أوقاتٍ متتاليةٍ من الليل والنهار.. والفصول تتعاقب من ربيع إلى صيف إلى خريف إلى شتاء، لتعاودنا بنفس الطقس ونفس المحاصيل ونفس الأمراض الموسمية في دوراتٍ مكررةٍ من البدء والإعادة.. والإنسان نفسه يتقلب هو الآخر من نومٍ إلى يقظة، ونفهم من ذلك أن كل شيء في مملكة الله يجري على سنن ثابتة من البدء والإعادة، ويتحرك في دورات، وكذا الأمر في الحضارات التي تولد وتزدهر وتصبح قويةً ثم تضمحل في نفس الدورات التي يحكيها لنا التاريخ.

– يا إلهي! لماذا لا توصل هذا الكلام المهم عبر الميكروفونات؟  
ابتسم (الخضر) ابتساماً حزيناً، وأجاب بلهجةٍ مملوفاً الأسى:

– في وطننا يشوهون أصحاب الفضيلة، وينزلون بهم إلى الدرك الأسفل من المهانة والاحتقار في نفوس العامة والبسطاء الذين يسهل خداعهم رغم كثرتهم.. ويرفعون أصحاب الخطيئة إلى أعلى الدرجات سواء في الوظيفة أو تسليط الأضواء عليهم بوسائل الإعلام.. وعلى من يريد الحقيقة أن يصل إليها بنفسه.

– وماذا عن الأمانة التي كلفنا بها الله؟

– كل منا على قدر تكليفه.

– لا أفهم.

– ستفهم في الوقت المناسب.

.....

هذه هي كلماتي الأخيرة، قبل الانتقال من الأقوال إلى الأفعال.

ربما بدا موقف (الخضر) غامضاً وغير مفهوم في تقاعسه عن خوض المواجهة وتبليغ البشر بما فتح الله به عليه من علوم وإشراقاتٍ قلبيةٍ، لكن يكفي أنني تعلمت قبل أن ألقاه وبعد أن التقيته كيف حمل الأنبياء الأمانة من السماء، وأصبح كل من قرأ سيرتهم ومضى إلى علمه تعاليمهم ووصاياهم مجبوراً على إيصال الحقيقة التي ما إن يصل إليها حتى تصير أمانة في عنقه عليه توصيلها لكل من حوله من البشر، حتى يفك قيود العبودية من على عقولهم وقلوبهم الغافلة.

فثمة تشابهاتٌ إلى حد يفوق الذهول بين بني آدم من عصرٍ لعصر، ومن حضارةٍ إلى حضارة..

وقائع تتشابه إلى حدّ التطابق، وأبطال لهم السمات نفسها، وأنبياء يظهرن في الظروف ذاتها..

في كل دين، تجسست قدسيات الله بنفس الطريقة ودخلت فيها الأوثان، مثلما أدخل الشعب اليهودي العبادات الوثنية إلى طقوسه، حتى إنه نُجس هيكل النبي سليمان بإقامة تماثيل للآلهة الوثنية، وكانت من ضمن هذه العبادات ممارسة الجنس، وتقديم الذبائح البشرية.

وفي مكة المكرمة تكرر الأمر بالتفاصيل نفسها بين بني وأحفاد النبي إسماعيل الذين حاوطوا بيت الرب بـ360 صنماً سواء حوله أو داخله أو فوقه، ومارسوا طقوساً متشابهةً، وتقربوا للآلهة بذبح البشر.

تم وصف الغنوصيين والمانويين بالهراطقة، وتم وصف المتصوفين المسلمين بالزنادقة، وفي ظروفٍ مشابهةٍ تم صلب البعض منهم، أو قتله، ورغم الصلب والقتل ظلّت أقوال القتلى منتشرةً وبقيت رغم أنف قاتليهم.

تكررت واقعةُ الصلب من مكانٍ لمكانٍ ومن زمانٍ لزمانٍ.. تكررت عقيدة التثليث من حضارةٍ لحضارة.. تكررت حكايات الميلاد المعجزة من امرأةٍ عذراء لم يمسسها بشر من عصرٍ لعصر ومن ملةٍ إلى ملة.. تكررت واقعة قتل الأنبياء وتعذيبهم واتهامهم بالاتهامات نفسها..



كتم الأمر خوفاً من مصيرٍ مُشابهٍ، ومنهم من حاز منصباً لكي يسكت، وحاشا لله أن أكون هذا أو ذاك.

سأقول لليهود: لا يوجد إنسانٌ وُلد ليكره إنساناً آخر بسبب لون بشرته أو أصله أو دينه.. النَّاس تعلموا الكراهية، وإذا كان بالإمكان تعليمهم الكراهية فبإمكاننا تعليمهم الحب أيضاً، خاصة أن الحب أقرب لقلب الإنسان من الكراهية.

سأقول للمسيحيين: إن الله محبة، وإن المسيح قال: أَجِبُوا أعداءكم.. باركوا لاعنيكم.. أحسنوا إلى مُبغضيكم.. لكنكم لم تعودوا تطبقون ذلك خلف الجدران المغلقة.

سأقول للمسلمين: لو أنكم قدّستم الخلاف بينكم وبين المختلفين معكم واتخذتموه سبباً للمحبة والتقارب بين القلوب بدلاً من اتخاذه ذريعة للتناحر والصراع، لذابت الفواصل بين السماء والأرض، ووجدتم أنفسكم في دولة الروح وعالم الملكوت السماوي حتّى وإن كانت أجسادكم على الأرض.

سأقول للجميع: من يعلمك ألا ترى في المختلف معك في الدّين سوى أنه كافر، فهو يسرق إيمانك.. ومن يعلمك أنه مباح في دمه وعرضه وماله وأرضه لمجرد أنه مختلف معك بدون جرم يرتكبه، فهو يسرق إنسانيتك.. ومن يُعلّمك أن الكذب لخدمة أهدافك حيلة شرعية، فهو يسرق صدقك.

سأقص عليهم خلاصة رحلتي حتّى وصلت إلى الحقيقة.  
لن أختبئ بعد الآن، وسأواجه بكل ما أوتيت من قوة..  
فإما أن أوصل الأمانة.. أو أهلك دونها.

\*\*\*

تكررت المشاهدات الروحانية للمتصوفين المسلمين والمسيحيين وجميعهم قالوا أموراً متشابهاتٍ رغم أنهم لم يلتقوا، وانتمى كل منهم لعصرٍ ومكانٍ مختلفين.. تكررت وقائع الصعود إلى السماء سواء بالجسد أو الروح ورؤية الفردوس ومشاهدة عالم الملكوت من دين لدين، وكأن هناك من يُلي على البشر التصرفات نفسها، وردود الأفعال، في مختلف المجتمعات والأزمنة، ثم يسלט عليهم خصومهم بنفس الطريقة ونفس العقاب.

حتّى ولو عثرنا على أرضٍ جديدةٍ، وقارة لم تُكتشف بعد، فستجد في تراثها وتاريخها نفس الوقائع والأساطير، ومحنة البشر في رحلة البحث عن الحقيقة، لتتكرر الاختبارات الإلهية وفتن الشيطان بنفس الشكل، ومن نفس المنهج، في كتاب الوجود الذي لا يقرؤه البشر، فتتشابه مصائرهم من عصر لعصر، ويعيد التاريخ نفسه بطريقةٍ مذهلة، ويأخذ التّحدي بين الخير والشّر نفس أماط الجولات المتكررة عبر كل الأزمان والعهود، وفي كل الأمم والبلدان والحضارات مهما كان الفاصل الجغرافي والزّمني بين بني الإنسان.

كل هذا يدل على أن الوجود يحكمه اثنان من أبرع كتاب السيناريو الأزلي؛ أحدهما الله؛ والآخر إبليس -مع فارق المكانة بالقطع- في أعظم تحدٍّ وجودي بدأ قبل حتّى أن نُخلَق وسيظلّ حتّى قيام الساعة.. كلاهما له أدواته وطريقته المميّزة في تعديل النّص، والتدخل لتغيير مسارات الشّخص، وإضافة العقدة والحبكة ليصل إلى النهاية التي يريدها، وبينهما تسير الخلائق نحو مصيرها المحتوم من خير أو شر حسب ميولها للسيناريو الأقرب لنفسها، بعد أن ألهمها الله الفجور والتقوى، وترك لها حرية الاختيار.

سأعيد زمن الفتوحات والغزوات من جديد، لكن بالمحبة والحوار ومقارعة الحجة بالحجة، ومقارنة المعلومة بالمعلومة، والمصادر بالمصادر، حتّى أوصل الأمانة مهما بدت ثقيلة، بعد أن تعلمت أن لكل عصرٍ من العصور شهوداً عرفوا حقائق غير التي وصلتنا عبر كتب التاريخ، لا سيما في الأوقات الحالكة التي زاد فيها القتل والتّعذيب والظلم.. منهم من





أحضر له العسكري مشروب القهوة، وصَبَّه بحرصٍ محافظًا على  
الـ"وش" وهو يقول كلماتٍ مليئةً بالتودد والترحاب، غير أنها كانت تخرج  
هذه المرة من القلب.

فيما عدا ذلك، كان كل شيء حوله مقززًا، يبعث على الاشمئزاز  
والامتعاض..

محاولاتٌ متعمدةٌ ومفضوحةٌ من قياداته في التستر على (ريمون)،  
وتحرياتٌ وتحقيقاتٌ لم تسفر عن هوية الذين تسببوا في إصابته واستشهاده  
مساعدته، أما حادث المعبد اليهودي فقد...

تك تك تك

قطعت الطرقات الخافتة أفكاره، قبل أن ينثني مقبض الباب ويفتح  
ليظهر على عتبه ذلك الشاب الوسيم الذي وقف لحظات تأمل فيها  
العقيد وهو يهب واقفًا فور رؤيته، متأرجحًا في مشاعره بين الرهبة من  
نظرة الشاب وهيبته التي لا يعرف مصدرها، والتحفز لما هو آتٍ من  
مشكلاتٍ دائماً ما ترتبط بظهور هذا الغامض الذي أتى للوجود بغير أوراق  
ثبوتية تبين حقيقة هويته، قبل أن يدخل المكتب بخطواتٍ بطيئةٍ واثقةٍ،  
اقترب بها من العقيد (يحيى) وطال بينهما النظر.

\* \* \*

تراقصت الأوتار وصدحت المعازف في مبنى الخدمات التابع للكاتدرائية  
فيما صعد صوت (آيات) القيثاري إلى السماوات في ساعة الغروب، حاملاً  
كلمات ترنيمية (شق السما وانزل إلينا) بتدرجاتٍ صوتيةٍ تعلو وتخفق  
بموهبة عبقرية وحلاوة صوت أهلتها أن تكون خليفة (فيروز) التي  
تعتبرها مثلها الأعلى، وينافسها في الغناء (أندرو) الذي كان حريصاً أن  
يغني تلك الترنيمية تحديداً، وخلفهما كورال فريق (تسابيح)، بينما احتشد  
شباب وفتيات وأطفال الكنيسة للاستماع إلى البروفة وقد أخذ بعضهم  
يتمايل دون وعي، فيما ردد البعض الآخر الكلمات بشفتين صامتتين  
لتتوافق حركة شفاههم مع صوت (آيات) و(أندرو):

(29)

"حمدًا لله على سلامتك يا يحيى بك".

"سلامتك يا باشا".

"ألف ألف مليون سلامة عليك يا فندم".

هكذا أمطرت الأفواه التحيات والتهاني على مسامع العقيد (يحيى)  
وهو يسير في أروقة مديرية الأمن، فيما اكتفى بإشارةٍ بسيطةٍ من يده  
التي لم يرفعها إلى آخرها، متعمداً أن يُظهر تعاليه وعجرفته؛ عملاً مبدأً:  
"الكبر على أهل الكبر صدقة"، لا سيما أولئك المتوددين الكذبة الذين لم  
يسألوا عليه أو يزوروه وهو يُصارع الموت الذي نجا منه بمعجزة.

كانت ملامحه أثناء السير جامدةً متجهمةً من تحت نظارته الشمسية  
التي يرتديها رغم حلول الشتاء، ووجوده تحت سقفٍ بعيداً عن أي  
أشعة، لكن يبدو أن هذا التغيير الذي حلَّ على وجهه -بشكلٍ أفزعه  
بعد الحادث- سيجعل من النظارة رفيقًا اضطراريًا سيقوم في النصف  
الأعلى من وجهه إلى الأبد.

دلف إلى حجرة مكتبه وأخذ يتأمل جدرانها، وتلك الصور التي  
تُزيئها، سواء لوحة عليها لفظ الجلالة، أو صورته مع مساعده الشهيد، أو  
صورته مع زوجته وطفليه، وبذل جهداً جهيداً ليمنع دمعاً حارقةً ألهمت  
مُقلتيه في محاولةٍ يائسةٍ للخروج، قبل أن يتهاوى على مقعده الجلدي  
الفخم ويشعر في داخله أنه يجلس على مزرعةٍ من الأشواك.



اللي بتشوفه عينينا .. مش كل الحقيقة  
في عالم روحي في السما.. وفي الله مشينة  
بالإيمان صلاتنا.. تغير التاريخ  
تعالى يا رب بنطلبك.. ونصرخ كل دقيقة  
شُق السما.. وانزل إلينا  
في أرضنا.. من حوالينا  
قول كلمتك .. شعبنا يعرفك  
وبقوتك .. تيجي وتشفينا

وأثناء ترديد (آيات) للكلمات أغمضت عينيها باندماج وتأثر.. وفجأة،  
اخترق حواسها شذى عطره الذي لا مثيل له!  
توقفت عن الغناء فوراً، واستعادت روحها المُلحقة في السَّمَاوات، وقد  
وجدت -أخيراً- على الأرض ما هو أعذب وأروع، لتفتح عينيها غير مُصدقةٍ  
أن المعجزة قد حدثت وحملت إليها الرياح رائحته من بعد طول غياب،  
بينما لا تزال أوتار الجيتار وإيقاع الدرامز تعمل في الخلفية.  
ومن جانبه، أخذ الشاب الوسيم الميكروفون من يد (أندرو) فتوقف  
العزف، وتوجهت الأنظار جميعها إليه، ثم أهدف الكل سمعه حين بدأ  
يردد أبيات الحلاج التي هام بها عشقاً في الحضرات الصوفية مُنشداً:

والله ما طلعت شمسٌ ولا غربت  
إلا وحُبُّكَ مقرونٌ بأنفاسي  
ولا جلستُ إلى قومٍ أحدثهم  
إلا وأنت حديثي بين جُلّاسي  
ولا ذكرتُك محزوناً ولا فرحاً  
إلا وأنت بقلبي بين وسواسي  
ولا هممتُ بشربِ الماءِ من عطشٍ  
إلا رأيتُ خيالاً منك في الكاسِ  
ولو قدرتُ على الإتيانِ جئتُكم

سعيًا على الوجهِ أو مشيًا على الراسِ

وحينَ انتهى من الإنشاد كانت الأعين متسعة، فيما ركض الأطفال  
نحوَ صديقهم المقرب وارتموا عليه وأخذوا يتمسحون فيه كقط يرحب  
بصاحبه الغائب، وأخذ بدوره يمسح رءوسهم ويوزع ابتساماته عليهم، ثم  
احتضن أصغرهم سنًا قبل أن يقول (أندرو) بانبهار:

- مُنذُ متى وأنت تُجيد غناء الأغاني والأناشيد الإسلامية يا صاحبي؟  
هل تحفظ أناشيد أخرى؟

غربت ابتسامة (آيات) واحتل ملامح وجهها الوجوم والدهشة حينَ  
أجاب الشاب:

- بكل تأكيد.

فقال له (أندرو):

- نحتاجك معنا في الفرقة إذن، فلدينا حفلٌ قريبٌ سأحكي لك كل  
شيء عنه.

إلا أن (آيات) أزاحتها بيدها متجاهلةً كل قواعد الذوق واللياقة قائلةً:

- "بعدين" يا أندرو.. فلديّ موضوع أكثر أهمية.

ثم أمسكت معصم الشاب وسارت به خطواتٍ باعدتهما عن الباقين  
قبل أن تنظر إلى عينيهِ نظرةً مباشرةً وتساله بتحفز:

- أين كنت خلال الفترة الماضية؟ وكيف تعلمت هذه الأناشيد؟

\* \* \*

"لا أصدق أنني أسير معك الآن بحرية كاملة، لا نخشى من أي مطاردة  
أو فراق.. الأمر حقًا يُشبه الأفلام والمسلسلات حينَ تضيق الدائرة على  
البطل وتحين لحظة تسليم نفسه، فإذا بالقدر يتدخل في اللحظة الأخيرة  
بحلٍّ ما كان ليخطر على بال الجميع".

قالتها (آيات) بسعادة طفل في محل ألعاب، وهي تسير مع  
فتاها الوسيم في شارع (الحرية) متجهين إلى محل (نوتيلوييا) لمأكولات  
الشييكولاتة، فالتفت لها وقال بدهشة:



تفسير الأديان حسب أهوائهم واحتكار الصواب وجنات الخلد وفقاً لعقيدتهم.. رأيت الأديان على صورة الخالق وفهمت التعاليم في صورتها البكر وليس في تأويلات البشر التي تحقق المصالح وتلوي عنق النصوص.

- هذا صحيح.. فالْبشر لا يؤمنون بحرية اختيار الأديان بالسليقة، لذا انقسم بنو آدم إلى فرقي كثيرة، وكل فريق يريد جذب الله قسراً ليكون كابتن فريقه ويحرز لهم الأهداف، ونسوا جميعاً أن الله هو حَكَم المباراة.. (ضحكت وتابعت) لكنني قلت دين المحبة، فلماذا فهمت أنني أقصد المسيحية فحسب؟

عقد حاجييه قائلاً:

- لأنكم في المسيحية تقولون الله محبة.

- نعم، وهذا جُل ما يعينني في الأمر.. الله محبة.. من محبته أستمد حبك وحب كل البشر والخلائق حولي.. أنا الآن مسيحية، لكنني لست أرثوذكسية ولا كاثوليكية ولا إنجيلية.. كل ما يعينني أن لهذا الكون إلهًا عظيمًا مُحبًا لمخلوقاته وأنا أسير على دربه.. "فقد تجد الحُب في كل الأديان، لكن يبقى الحب نفسه لا دين له"<sup>(1)</sup>؛ لذا عشت عمري كله أختبئ من رغبتني في الحكم على البشر.. أهرب من ميول بني الإنسان داخلي في الفرز والتصنيف.. والشخص الوحيد الذي أحاول جاهدة أن أكون أفضل منه، هو أنا في أمس.

- لكن لا بد أن تعرفي إلهك بشكلٍ صحيح.

- صدقتي محبته هي أعظم وأصح صورة له.. هل لي أن أسألك سؤالاً؟

- تفضلي!

- في تاريخ كل دينٍ شفعاؤه المقربون من الخالق، القادرون على إنقاذ العوام وأصحاب السيئات والخطايا حين يصبحون على شفا حُفرة من النار.. في اليهودية حاخامات وأحبار، وفي المسيحية قديسون، وفي الإسلام أولياء، ولكل من هؤلاء معجزاتٌ وكراماتٌ يتغنى بها الأتباع في ملاحم دينيةٍ عن حرب الخير والشر، ونعمة التقرب من الله التي يكافئ بها

(١) مقولة لمولانا العابد المتصوف جلال الدين الرومي.

- أم يلفت انتباهك في كل ما حكيتَه سوى أن الشرطه عثرت على مرتكبي حادث المعبد اليهودي، ولم أعد متهمًا أو متورطًا؟

- لفت نظري أيضًا أن العقيد يحيى أخذك إلى المستشفى ووفَّع عليك الكشف الطبي من جيبه الخاص؛ ليتأكد من صحة كلامك ويخبره الأطباء بأنك فاقد ذاكرتك.

انفعل متسائلًا:

- وماذا عن رحلتي الطويلة مع (الخضر) وما وصلت إليه من خلالها؟

وصلا إلى محل الشيكولاتة الشهر، ففتحت (آيات) بابه وهي تقول بلهجة رقيقة تُحاول تلطيف الجو:

- جئنا هنا للاحتفال بالخلاص، ولسنا بحاجةٍ إلى أي غضب أو توتر.. هلمّ فطعم الشيكولاتة يُنادينا.. إنها الشيء الوحيد الذي فاقت متعته متعة الجنس.

قالتها هامسةً على سبيل الدعابة، ثم اكتشفت أنها مزحةٌ رخيصةٌ تؤكد أنها لم تتخلص بعد من كامل عُهرها القديم، فغمغمت بصوتٍ تعمدت أن يسمعه: "إحم! يا أرض انشقي وابلعيني".

جلس كلاهما على كرسي عالٍ حتَّى يُناسب ارتفاع البار المقابل لهما، وطلبت (آيات) شاورما "نوتيلًا"، واختارت لفتاها "وافل" بالشيكولاتة البيضاء وال"آيس كريم"، ثم نظرت إلى عينيه بكل حب وهيام وقالت:

- الأمر أبسط من كل هذا التعقيد والعبء الثقيل الذي يثقل كاهلك.. هو اختبار سنتحمل جميعًا فيه تبعية اختياراتنا، والقراءة والبحث والاطلاع متاحة لكل من يرغب.

- وماذا عن اختيارك؟

- اخترت دين المحبة.

- هذا لأنك لم تقرري في الإسلام، أو وصلتك عنه صورة مشوهة سواء من أتباعه، أو من لقنك عنه نصف الحقيقة بشكلٍ مغلوط.. أتعلمين؟ سألت (الخضر) كيف استطعت أن أصل للحقيقة بهذه السرعة والسهولة فأجابني: أنت ترى الحقائق؛ لأن عقلك لم يتلوث بمغالطات البشر في

عباده بمنحهم معجزاتٍ وقدراتٍ غير عادية لا تتوافر لضعاف الإيمان.. فإذا كان للجميع معجزاتهم فأبي دين على الباطل ويستحق أنباعه النار إذن؟ وكيف يُكرم الخالق مخالفين إرادته ودينه الصحيح بمعجزات وكرامات؟

صمت الشاب وغرق في بحر من التفكير والتساؤلات، فابتسمت وأجابت:

- الإجابة الوحيدة التي أراحت عقلي أن الرب يكرم في دنياه من يصل إليه بقلبه أيًا ما كان المسلك والطريق، فيكفي أن يرى داخل العابدين بوصلة المحبة وهي تشير للخالق ورغبتهم الأكيدة في الوصول إليه حتى يفيض عليهم من محبته.

هذا ما تعلمته خلال الفترة الماضية من نقاشاتي مع موريس وتأملاتي للسماء التي كنتُ أسألها أن تسرع من عودتك.. (ضاقت عينها بابتسامه مليئة بالمحبة، وأضافت) والآن كرر خلفي مثل "الشطار": الرب يكرم في دنياه من يصل إليه بقلبه أيًا ما كان المسلك والطريق.

- وماذا عن آخرته؟

أمسكت يديه بكل الحب، وأجابت:

- لنعش جنتنا هنا على الأرض أولاً.. هذا كل ما يعينني الآن.

نظر إلى عينيها بحب وتأثر قائلاً:

- من يحب شخصاً يريد له الخير في الدنيا والآخرة.

ثم سحب يديه وقال بحزم:

- لا شك لدي في أن قلبك الطيب سيصل للحقيقة مثلي بعد أن أشرح لك الأمر بكل تفاصيله وأبعاده، لكنني لست أنايًا حتى أهتم بشأني أنا وحببتي وأترك الباقي للجميل.

غزا الوجوم ملامحها بعد أن بهتتها كلماته التي أفصحت عن إصرارٍ لن ينثني مهما حدث، وسألته برهبة:

- ما الذي تنوي فعله؟

- سأشرح الأمر للعالم، الحقيقة بصورتها الكاملة بدلاً من أنصاف الحقائق التي خلقت كل هذه الكراهية والخلافات.. سأمسك الميكروفونات أمام الملايين وأناظر الجميع.

لمعت عينها بالدموع وفرت آخر لمحة من ملامح السعادة التي كانت تحتل قسماتها وهي تقول:

- لماذا لا تجعل خُلقك وتصرفاتك هي أفضل دعاية للحقيقة التي وصلت إليها؟ ألا يقول الإسلام إن الدين المعاملة؟ ما هكذا تنجلي الحقائق، وكل ما ستجنيه هو التعجيل بنهاية مأساوية فحسب.. صدقني ما سار أحد في هذا الطريق إلا ونال كل صنوف العذاب والهوان.. وسرعان ما ستكتشف أن تورطك في حادث المعبد اليهودي كان أهون بكثير مما أنت مُقدم عليه.

- ربما.. لكن ما أصبو إليه من تنوير العالم المظلم حولنا يستحق ما سألاقيه، والله المستعان أولاً وأخيراً.

نجحت دموعها اللامعة في الفرار من عينيها وهي تقول بصوتٍ متهدج:

- افعل ذلك بأناشيدك وصوتك الخلاب الذي ما سمعت في حياتي صوتاً أجمل وأحنّ منه.. اغرس المحبة في نفوس السامعين وانتظر بعدها حصداً من الوفاق والمؤاخاة بلا حاجة للصدام.. فالفن هو المرادف الثالث للإيمان والحب؛ لأنه ينفذ للقلب والوجدان مثلهما ويسيطر على الكيان والحواس.. ها هي الدنيا بدأت تبتسم لنا أخيراً، والأشعار الصوفية التي تحفظها بهرت الجميع بطبقات صوتك التي أقسم الجميع إنهم ما سمعوا لها مثيلاً، حتى إنهم ألحوا عليك أن تخني معنا في الفريق، وكلية ثقة أنك ستبهر الجمهور وتخطف الأضواء في الحفل الذي ستغطيه قنواتٌ عديدة، لتنهال بعدها العروض عليك ويصبح لك شأنٌ آخر.

برقت عيناه فجأة مع كلماتها الأخيرة، وقال لها بنبرة استدرج:

- حديثني أكثر عن عدد الحضور والقنوات التي ستغطي الحدث.

\*\*\*



اقتُرحت (آيات) على الشَّابِّ الوَسِيمِ أن يَحْمِلَ اسْمًا مُسْتَعَارًا حَتَّى  
يَتِمَّ تَقْدِيمُهُ إِلَى الْجُمْهُورِ بِهِ، وَيُكْتَبَ عَلَى لُوحَاتِ الدَّعَايَةِ الْخَاصَّةِ بِالْحَفْلِ،  
وَحِينَ سَأَلَهَا إِذَا مَا كَانَ لَدَيْهَا اسْمٌ تَقْتَرِحُهُ أَجَابَتْ بِلا تَرُدُّد:

- زجراج.

- زجراج؟!

قالها بدهشةٍ شديدةٍ، فابتسمت مجيبة:

نعم.. فأنت ذلك حقًا مُنْذُ أَوَّلِ لِحْظَةٍ التَّقِيْتُكَ فِيهَا تَسِيرُ فِي مَسَارَاتٍ  
مَتَعَرِّجَةٍ وَلَا تَعْرِفُ الطَّرِيقَ الْمُسْتَقِيمَ.. قَذَفْتُكَ الْأَقْدَارَ فِي مَعْبَدٍ يَهُودِيٍّ  
وَكَاتِدْرَائِيَّةٍ وَمَسْجِدٍ، وَسَرْتُ فِي دُرُوبِ الْأَدْيَانِ الثَّلَاثَةِ حَتَّى فِي دَاخِلِكَ، مَتَبَدَّلَ  
الْأَحْوَالُ مِنَ النَّقِيضِ إِلَى النَّقِيضِ.. تَحْمَلُ شِدَّةَ تَذِيبِ الْجِبَالِ، وَرَحْمَةً  
تَطِيبُ الْجِرَاحَ وَتَجْبِرُ الْقُلُوبَ الْحَزِينَةَ.. فِي كَلِمَاتِكَ حِكْمَةُ الْأَجْدَادِ، وَفِي  
نِظْرَاتِكَ طُفُولَةٌ وَلَيْدٌ لَا تَزَالُ بَرَاءَتُهُ بِكَرًّا لَمْ تَقْضُهَا الْأَيَّامُ.. لَا تَثْبُتَ عَلَى  
حَالٍ أَبَدًا.

ابتسم رغماً عنه وقال لها:

- هذه هي طبيعة البشر.. وجود الضد لديهم لن يصبح له معنى  
إلا بوجود ضده؛ فوجود الشَّرِّ ما هو إلا تأكيدٌ على وجود الخير، ووجود  
الكَرْبِ ما هو إلا تأكيدٌ على وجود الفرج، حَتَّى رَسَمَ الْقَلْبَ لَا بَدَّ أَنْ  
يَكُونَ زَجْرَاجًا مَا دَامَ هُنَاكَ نَفْسٌ يَتَرَدَّدُ فِي جَسَدِ صَاحِبِهِ، وَلَوْ سَارَ فِي  
طَرِيقٍ مُسْتَقِيمٍ لَدَلَّ ذَلِكَ عَلَى انْتِهَاءِ الْحَيَاةِ، لَكِنْ عَلَى كُلِّ حَالٍ لَقَدْ  
أَعْجَبَنِي الْاسْمُ.

ثم شرد وهو يرددُه بعمق:

- زجراج.

ومن جديدٍ عادت (آيات) تُرَنِّمُ فِي مَبْنَى الْخِدْمَاتِ وَخَلْفَهَا الْكُورَال:

ملك الملوك وجلالكم مالي الوجود حوالينا

وجبال بتدوب قدامكم اسمك عالي يا فادينا

دي الأنهار بتسقف لك كل الآلات تعرف لك

## (30)

وأخذت الأيامُ تتوالى على مَبْنَى الْخِدْمَاتِ الَّذِي ذَابَتْ دَاخِلُهُ كُلَّ  
الْفَوَاصِلِ الزَّمْنِيَّةِ بَيْنَ شُرُوقِ الشَّمْسِ وَغُرُوبِهَا، وَبَيْنَ الْأَيَّامِ وَبَعْضِهَا، وَقَدْ  
انْغَمَسَ كُلُّ أَعْضَاءِ فَرِيقِ (تَسَابِيح) فِي حَالَةٍ أَبَدِيَّةٍ عَلَتْ عَلَى الزَّمَنِ  
نَفْسَهُ.. لَمْ يَلْتَفِتُوا إِلَّا لِأَنْغَامِ الْمَوْسِيقَى وَأَهَاتِ الْحَنَاجِرِ، وَكَلِمَاتِ الْإِيمَانِ  
الَّتِي يَرُدُّونَهَا بِكُلِّ الثَّقَةِ وَالطَّمَأْنِينَةِ، سِوَاءِ فِي التَّرَانِيمِ الْمَسِيحِيَّةِ الَّتِي  
تَرَنَّمُهَا (آيات) وَخَلْفَهَا الْكُورَالِ، أَوْ الْأَنَاشِيدِ الصَّوْفِيَّةِ الَّتِي يَنْشُدُهَا الشَّابُّ  
الْوَسِيمُ عَلَى أَلْحَانٍ وَتَوْزِيعٍ (أندرو)، وَكُلِّ مِنْهُمْ يَسْأَلُ نَفْسَهُ فِي غَمَارِ  
سُكْرَتِهِ وَخَطْفَتِهِ الرُّوحِيَّةِ: "كَيْفَ لِلْعَقْلِ أَنْ يَثْمَلَ دُونَ خَمْرٍ؟".

تغمض (آيات) عينيها وتسبح في السماء وهي تردد:

يا رب اسمع صلاتي ... اقبل واستجب

تعال وزور حياتي ... واملاها لهيب

أنا طلبتي إني أشوف المجد ... أملي إني أشوفك

وحتي إن آخر باب اتسد ... هلمس هدب ثوبك

وينظر الشَّابُّ لِلْأَعَالِي وَيَحْمِلُ الْهَوَاءَ تَدْرِيجَاتٍ صَوْتَهُ الْجَبَّارَةَ إِلَى الْمَلَأِ  
الْأَعْلَى وَهُوَ يَنَاجِي رَبَّ الْأَرْضِ وَالسَّمَاءِ:

زدني بفرطِ الحُبِّ فيكَ تحييراً وارحمْ حشا بلظي هواك تسعراً

وإذا سألتك أن أراك حقيقة اسمحْ، ولا تجعلْ جوايي لن تری

يا قلب أنت وعدتني في حُبهم صبراً فحاذرْ أن تضيقَ وتضجرا

إن الغرامَ هو الحياة فمُتَّ به صَبًا، فحَقِّقْ أن تموتَ، وتُعذِّرًا



ويارب بكلمة منك كل الملوك تخضع لك

بينما أخذ الشَّاب ينشد بصوته الذي عادل فريقيًا بأكملة:

كان لي ظلّ رسوم .. فاستوت شمسي فزال  
عشتُ بالمحبوبِ حقا .. بعدما كُنتُ خيال  
عاد محبوبي وجودي .. فتجلى وتعالى  
وتخفَى عن عياني .. فيّ عزا وجلالا  
\* \* \*

"كنت محققًا يا سيدي.. إنهم يجرون البروفات ليلاً ونهاراً على قدمٍ وساقٍ، وسيُقام الحفل خلال أيامٍ على مسرح سيد درويش بدار أوبرا الإسكندرية، والدخول مجانًا للجميع".

قالها (نصحي) إلى الرّجل ذي العينين الزرقاوين الذي نفث دخان سيجاره في وجهه (ريمون) وهو ينظر له نظرةً ساخرةً تقول فيها عيناه: "ألم أقل لك؟" قبل أن يستطرد (نصحي):

- الكنيسة دعت للحفل شخصياتٍ عامةً، وحرصت على دعوة رئيس الطائفة اليهودية وباقي اليهود السكندريين.

ألقي الرّجل سيجاره، وفركه بحذائه وهو ينزع ملامح وجهه الساخر ويستبدل به وجهًا صارمًا لا يعرف الهزل قائلًا ل(ريمون):

- حانت الآن لحظة الحسم التي انتظرتها.. فلتستعد لها وتنفذ ما سأقوله لك حرفيًا بلا نقاش.

\* \* \*

تردد صياح الديوك من جديدٍ حول سطح ذلك المنزل العتيق الذي جلس الشَّاب الوسيم مرّةً أخرى على مصطبه أمام غرفة (دميانة)، ناظرًا إلى اليمين متطلعًا إلى السَّماء التي يظهر فيها القمر في ليلة التمام، ملقبًا بنوره الفضي على وجهه الخلاب ليزيد من أسطوريته التي ما رأت مثلها

العيون، فيما أخذت (آيات) تنظر إلى ملامحه بانهماكٍ شديدٍ وهي ترسمه بالفحم على لوحةٍ مثبتةٍ أمامها على حامل، وفي خلفيتهما أخذت (ماجدة الرومي) تشدو بكلماتٍ (نزار قباني) التي تساءلت (آيات) في نفسها كيف كان شكل الحب قبل أن يقول أشعاره:

يُسمعي حين يراقصني  
كلماتٍ ليست كالكلمات  
يأخذني من تحت ذراعي  
يزرعني في إحدى الغيمات

"أتعلم أن هذه أول مرّة أُرسم فيها منذُ 10 سنوات؟".

قالتها (آيات) بنبرةٍ مرحةٍ خرجت من قلبٍ يتراقص فرحًا، وهي تواصل الرسم صانعةً لوحةً رائعةً لوجه الفتى:

والمطرُ الأسودُ في عيني  
يتساقطُ زخاتٍ زخاتٍ  
يحملني معه يحملني  
لمساءٍ وردِي الشرفات

ومع غناء (ماجدة الرومي) واصلت (آيات) الرسم لتقول وهي تدقق في رسم عينيه:

- كنت مستعدةً أن أدفع عمري بأكمله، وتعود لي ليلةً واحدةً نقضيتها معًا لأحقق فيها كل الأحلام المؤجلة.. أرسمك، وأغني معك مجددًا، ونُعد نجوم السَّماء حتّى تختفي مع لحظة الشروق دون أن يلوح في الأفق أي خطر أو تهديد، ثم نحتفل بقرب زواجنا مثلما يحتفل الآن موريس ودميانة بعد أن قام بتصفية ممتلكاته -أخيرًا- واشترى شقة في الإسكندرية.. سيتكون لنا تلك الغرفة لتشهد قصة حُبنا مثلما شهدت قصة حبهما التي كانت أقوى من الزَّمان.

توقف الشَّاب عن تأمل السَّماء والتفت إليها قائلًا لها بنبرةٍ غامضة:



- سيتوقف كل شيء على نجاح الهدف المنشود من الحفل.. فلتدعي معي بالنجاح والتوفيق.  
وقبل أن تُفكر في المعنى الخفي لكلامه رسم ابتسامته رصينة على ملامحه ونهض قائلاً:

- هل انتهيت؟

صاحت فيه بشقاوة:

- عُد مكانك، لقد أوشكت..

لكنه تقدم نحوها بهرج حَتَّى يشاهد ما أنجزته، فاحتضنت اللوحة لتخفيها عنه بجسدها وهي تُداعبه بشقاوة طفلة في مدينة الملاهي:

- لن ترى شيئاً حَتَّى أنتهي.

أمسكها من كتفيها وأزاحها بحب وحنان فاستسلمت لذراعيه وهي تنظر له بكل هيام ووله، وتطرب أذنيها وهي تسمع كلماته التي خرجت من شفتين قريبتين:

- من منتصف المشوار يظهر باقي الطريق لو كنتِ صادقةً في نيتك.

أخذ منها اللوحة برفقٍ وتأملها، فرأى نفسه في شكلٍ جميلٍ أثار إعجابه، قبل أن يتغير وجهه ويقول بخشوع:

- يا رب.. لا تجعلني من الذين دخلوا المتحف فانبهروا باللوحات ونسوا أن يملأوا زكائبهم بالذهب الحقيقي الموجود في البدروم.

ثم نظر إلى عيني (آيات) وتابع:

- علينا أن نلحق بتعبئة الذهب يا آيات.. ميعاد الزيارة محدود، ومن ينهر بلوحات المتحف وينسى تعبئة زكائبه ستنتهي الزيارة ويخرج بزكائب فارغة.. لوحات المتحف حولنا للعرض فقط ولا يمكن اصطحابها معنا للخارج بينما الكنز الحقيقي تحت الأرض.

انقبض قلبها من كلماته الغامضة، ولاح لها في الأفق شبح أحزان ودموع قادمة، فأرادت غلق باب السماء في وجوههم وهي تغير دفة الحديث قائلة بهرج:

- ألا تشعر بالخوف من حفل الغد، خاصة أنها أول مواجهة فعلية لك مع الجمهور؟

برقت عيناه، وأجاب وهو يهز كتفيه ببساطة:

- أعشق المواجهة على أي حال.

\* \* \*

### وجاء اليوم الموعود..

اكتظ مسرح (سيد درويش) بمئات البشر.. كاميرات الفضائيات الشهيرة منصوبة في كل مكان تجري لقاءات قبل بدء الحفل مع القائمين على تنظيمه.. القمص (يوسف) يتحدث عن رغبة الكنيسة الأكيدة في البحث عن جوانب الاتفاق بين الأديان الإبراهيمية ونشر ثقافة التوافق بين أبناء العقائد المختلفة.. الحاخام (موريس) يتحدث عن الوجه الآخر الذي لا يعرفه المصريون عن اليهود والديانة اليهودية، ويؤكد الفارق بين الصهيونية واليهودية.. (آيات) و(ألبرت) و(أندرو) يبديون سعادتهم الجمّة في اعتماد الفن كلغة حوار تضرب في القلوب والأرواح بشكّلٍ مباشرٍ حَتَّى وإن غلّف الظلام بعض الأجزاء في العقول، بينما رفض (زجاج) الحديث مع المراسلين، وطلب منهم التركيز على كلمته التي سيقولها على المسرح مباشرة، مُبدياً سعادته بالتسجيل معهم بعدها، ثم انزوى في الكواليس مع حاله يطلب من الله السداد والتوفيق فيما هو مُقبل عليه، وفي غمار مناجاته وابتهاله إذا بباقة ورد بديعة، مجموعة بذوق رفيع نادر التكرار، تحملها يدٌ رقيقة امتدت بها إليه، بينما همست شفتا صاحبتها:

- فلتحتفظ بهذا الورد من إنسانةٍ تعلمت على يديك الكثير، ولتهد بعضه إلى حبيبتك، عاشقة الورد.

"كريستين؟"

قالها الشاب بدهشةٍ شديدةٍ عاقداً حاجييه، وهو يتأمل أسطورة الأمس، فانتة الجمال والملاح وقد اكتست بطهارة واحتشام الراهبات، لكنها نظرت إلى الأرض في انكسارٍ وحزن، ثم انصرفت في صمتٍ دون أن تبس بنبت شفة، لتظل عيناه متعلقتين بها بحيرةٍ وذهولٍ حَتَّى اختفت.



كم يستغيثُ بنا المستضعفونَ وهم قتلَى وأسرَى فما يهتَزُّ إنسانُ  
لماذا التقاطع في الإسلامِ بينكمُ وأنتمُ يا عبادَ اللهِ إخوانُ؟  
ألا بد من مبيتةٍ في صَرفِها عِبْرٌ والذَهرِ في صَرفِهِ حَوْلٌ وأطوارُ  
لكل شيءٍ إذا ما تم نقصانُ فلا يُعْزُ بطيبِ العيشِ إنسانُ  
هي الأمورُ كما شاهدتها دَوْلٌ مَن سَرَتهُ زَمَنٌ ساءتَهُ أزمانُ

اهتزت أرجاء المسرح بالتصفيق وصرخات التشجيع والتصفيق بعدما  
أبدع الشاب في الأداء بصوت مُفعم بالإحساس والشجن مع كل حرفٍ  
نطقه بقلبه وروحه قبل لسانه، وغمرته أضواء فلاشات الكاميرات  
الفوتوغرافية، فقبضت يده على الميكروفون بشدة والتزم الصمت وهو  
يستجمع في ذهنه الكلمات التي تنتظر من أجلها مجيء هذا اليوم،  
وألقى نظرةً خاطفةً على (آيات)، ثم بدأ يوزع نظراته على الجماهير  
وكاميرات القنوات التي تسلط العدسات عليه وبدأ يتكلم:

- أحبيكم بتحية الإسلام، السلام عليكم ورحمة الله وبركاته.. جئنا  
اليوم من أجل المحبة.. من أجل الخير.. من أجل أن نعيش جميعًا في  
سلام، وهي رسالة سامية لا بد أن نطوف جميعًا خلفها حتى تحتملنا  
هذه الأرض فوقها بدلًا من أن نُدفن فيها جميعًا.. لكنَّ ثمة شيئًا ناقصًا  
في تلك المحبة التي علينا جميعًا أن نتحلى بها فيما بيننا؛ فمن يحب  
إنسانًا مثله يجب عليه أن يخشى عليه من الجحيم والعذاب وسوء  
المصير الأبدي.

تسارعت دقات قلب (آيات) وارتسم الخوف والتوتر على ملامحها  
وقد أدركت -مؤخرًا- كل تفسير كلماته الغامضة التي كان يقولها ولم تنتبه  
لمقصدها.

هَمَّت أن تصرخ فيه: "كفى" .. أن تخطف الميكروفون من يده.. لكنها  
كانت تعلم أنه ما من قوّة في الأرض قادرة على منعه إذا ما أقدم على  
أمرٍ ما، فتركته يواصل وهي تتمنى من الله أن يلطف به في اللحظات  
المقبلة حينَ واصل كلامه:

وفي المسرح، كانت الصفوف الأولى مليئةً بالجمهور المسيحي الذي  
مثّل النسبة الأكبر في الحضور، وفي الصفوف الخلفية جلست (دميانة)  
(موريس) كعاشقين جاء في زهوةٍ يُعيدان فيها الأيام الخوالي، بعيدًا  
عن فضول العيون وزحام وسائل الإعلام، وإلى جوارهما جلس (إبراهيم  
منير) رئيس الطائفة اليهودية في الإسكندرية بجانب مجموعة من اليهود  
المصريين العجائز، قبل أن يدخل الشيخ (خضر) المسرح ويجلس في  
صحبته، ثم عمّ الظلام وبدأ الحفل بغناء (آيات) و(أندرو) وخلفهما  
صوت الكورال:

أم وحاضنة ضناها بحرقه، وتبكي من نار الفرقة

جسمه متلج جنته زرقا وبينزف ومفيش إسعاف

قبل ما يكبر ويزيد ألمه، كان في الفصل وماسك قلمه

فجأة المريلة شربت دمه، مات ولا حد سمع ولا شاف

مش فاهمين

إحنا هناخد إيه من الدنيا غير شرين

دنيا ومين هايخلد فيها طيب ليه نقتل بعض عليها

حتى كَفْنَا مالوهش جيوپ

ياللي بتنعس ولا بتنام.. ده العمر اللي مافوهش سلام

عمر وضايع مش محسوب

يا مولانا اسمع لدعانا .. فيه جوانا سواد وذنوب

يا سيّدنا ساعدنا اسدنا.. وانجدنا وكفاية حروب

ومع انتهاء الأوبريت التمتع الأعين بالدموع التي لم تفرق بين  
مسلمٍ ومسيحي ويهودي، والتهدت الكفوف بالتصفيق الحار..

ثم دخل (زجراج) مرتديًا بذلته المبهرة التي هبط بها من السماء،  
ليبهز الجميع فور طلته الأولى بوسامته وهيئته وتلك الهيبة والوقار الذي  
صاحبه فور أن سلّطت الأضواء عليه، وبدأ يغني:



حولها الأشلاء، والدِّماء، وتحيطها النيران التي لفحت وجهها، دون أن يعينها وسط كل ذلك سوى النَّظر إليه وهي تراقب مصيره، فإذا به الجبل الوحيد الراسخ وسط أوراق الخريف التي تتساقط حولها، دون أن تلتهمه النيران أو حتَّى تمسه، قبل أن يندفع نحوها وهو يد يد العون في محاولة يائسةٍ لحمايتها، لكن قبل أن يصل إليها كان الظلام قد حلَّ.. وانطفأ نور الوعي.

\* \* \*

- هناك خلافٌ عقائدي بين المسلم والمسيحي واليهودي، لم يولد اليوم على أيدينا، وإنما جئنا إلى هذه الحياة وقد ورثناه من آبائنا وأجدادنا، ولا شك أن من يحمل تبعية الذنب الأول، أولئك الذين بدءوا في إنكار وتكذيب ما جاءهم من الحق وبيِّنات الهدى، وعلموا أتباعهم من بعدهم كيف يُنكرون ويكذبون.

في تلك الأثناء كان (ريمون) و(نصحي) والرَّجل ذو العينين الزرقاوين يتابعون ما يُقال من خلال شاشة التلفاز التي تعرض بثًا حيًّا مباشرًا من الحفل، قبل أن ينظر (ريمون) إلى ساعته ويقول للرجل:

- تبقى من الرِّمَن ثوانٍ.

وعلى خشبة المسرح استكمل الشاب كلامه:

- وإذا كنتُ اليوم أحث على احترام الآخرين في حرية اختيار عقيدتهم باسم الإنسانية، فباسم الدِّين أحثهم على الوصول إلى الحقيقة قبل أن ينفذ السامر وتحين لحظة حساب عسيرة لن يحترم فيها الإله حرية الاختيار حين نكتشف أن من بين كل الاختيارات اختيارًا وحيدًا كان هو الأصح والأصوب، وما عداه غير مقبول.. أقسم بالذي رفع السَّماء بلا عمد إنني أحبكم حقًّا، حتَّى يكتمل هذا الحب عليّ أن أخاف عليكم من عذابٍ وهولٍ يومٍ عظيم؛ لذا اسمعوني جيدًا وليصح لي خطئي من لديه الحجة والعلم قبل أن تنفتح أبواب الجحيم.

لكن للأسف.. سبق السيِّف العَدَل، وانفتحت أبواب الجحيم بالفعل مع آخر حروف نطقها الشاب..

فجأة حدث انفجارٌ ضخْمٌ صمَّ دويه الأذان وارتجَّت معه جنبات المسرح، في اللّحظة التي اندلعت فيها النيران من الصفوف الأولى لتتسف معظم الحضور من المسيحيين، وتتجه نحو خشبة المسرح في لمح البصر. وفي اللّحظة التي انطلق فيها الصراخ من الحضور، وعمَّت الفوضى والبلبلة والجماهير تركض في كل اتجاه ولسان حالهم يقول: "نفسي نفسي"، تجاهلت (آيات) مصيرها وحياتها وتعلقت عينها بفتاها الحبيب، دون أن تخشى على حياتها من الموت بقدر ما خشيت عليه، لتتطاير



نظر إلى جسد (آيات) الذي زادت الدماء المتساقطة منه وانحدرت من عينيه دمعة ساخنة واستطرد:

- ارتحلوا عنا.. فإننا نريد العودة إلى صحارينا، واشتقنا إلى سيوفنا وأتربتنا ودوابنا، ولسنا بحاجة لكم ولا لحضارتكم ولا لإسهاماتكم، فلدينا ما يغنيننا عنكم من جماعات وقتلة وسفّافي دماء.. اغربوا أيها المسيحيون عنا بثقافتكم، فقد استبدلنا بها ثقافة حفر القبور.<sup>(1)</sup> لكنّ يدًا سمراء نزلت على كتفه وقال صاحبها ذو الملامح الفلسطينية: "على رسلك يا فتى.. فهذه أوطانهم، ولن أتركهم أبدًا يرحلون".

عقد الشّاب حاجيّه وسأله بتحفز:

- من أنت؟

فأجابه المتكلم:

- أنا المسيح بن مريم البتول.

اتسعت عيننا الشّاب غير مصدّق نفسه، وقبل أن يهتف بحرفٍ واحدٍ، إذا برجلٍ يرتدي ثيابًا بيضاء، منير الوجه، ذي لحية سوداء لم يطلها الشيب، يظهر في الأفق متقدمًا آلاف البشّر الذين يرفعون راية مكتوبًا عليها "لا إله إلا الله، محمد رسول الله"، اتجه نحو المسيح قائلاً:

- لست وحدك من يناصرهم أخي عيسى.. فمن قتلهم ظلماً ظناً منه أنه ينصر دعوتي سيدخل وحده الجحيم ولن تناله شفاعتي.

فغر الشّاب فاه وهو يردد بانبهار:

- محمد بن عبدالله؟

"ما كل هذه الضجة يا أبنائي؟ أهذا ما أوصيتكم به؟"

ودون أن يُعرف القائل نفسه هذه المرّة، أدرك الشّاب الوسيم أن هذا القادم فوق فرس أبيض، مرتديًا ملابس خضراء تبرق وكأنها مضيئة، هو نبي الله (إبراهيم)، وإلى جواره خيولٌ يمتطيها أولاده (إسماعيل) و(إسحق) و(يعقوب) و(موسى بن عمران)، قبل أن يأتي ملايين البشّر من كل حدبٍ

(1) هذه الكلمات مأخوذةٌ بتصريف من مقالٍ بعنوان (اخرجوا أيها المسيحيون من أوطاننا) للكاتب أحمد الصراف، ونشر في صحيفة القيس الكويتية.

## (31)

حمل الشّاب الوسيم جثمان (آيات) بفستانها الأبيض الملطخ بالدماء، وسار بها في الصّحراء وخلفه مسيرةٌ من آلاف المسيحيين يحمل كل منهم جثمان ذويه من الضحايا..

القُمص (يوسف) يحمل جثمان (كريستين)، و(ألبرت) الذي تشوّه نصف وجهه يحمل جثمان (أندرو)، قبل أن يتوقف الشّاب الوسيم عن المسير ويستدير نحو الجميع صائحًا فيهم:

- يا مسيحيي الشرق الأوسط.. ماذا تفعلون عندكم؟ هذه الأوطان لم تعد أوطانكم؟

اخرجوا يا مسيحيي مصر من الإسكندرية وأسيوط.. غادروا الظاهر وشبرا، اتركوا خلفكم كنائسكم الأثرية التي علّمت العالم بأسره الدّين المسيحي، وهذا في حد ذاته جرمٌ فادحٌ ستدفعون ثمنه ما حييتم إن رغبتم في البقاء هنا.. اخرجوا يا مسيحيي دمشق وبيروت ومعلولا من أوطاننا، واخرجوا يا مسيحيي الموصل ونينوى وبغداد من بلداننا، واخرجوا يا مسيحيي لبنان من جبالنا وودياننا، واخرجوا يا مسيحيي فلسطين والجزيرة من شواطئنا وترابنا، اخرجوا جميعا من تحت جلودنا، اخرجوا جميعًا فنحن نبغضكم، ولا نريدكم بيننا، فقد سئمنا التقدم والحضارة والانفتاح والتسامح والمحبة والإخاء والتعايش والعفو.

سئمنا كونكم الأصل في مصر والعراق وسوريا وفلسطين.. اخرجوا كي لا نستحي منكم عندما تتلاقى أعيننا بأعينكم المتسائلة عما جرى!



هز الشَّاب رأسه وهو يطرد عن رأسه كل ما عاناه خلال الأيام الماضية، ونظر على يمينه فوجد الحاخام (موريس) إلى جواره، قبل أن يتسلل إلى أذنيه صوت القمص (يوسف) وهو يردد منتحبًا بالقرب منه:

- صدقت يا يسوع حينَ قلت: "وتأتي ساعة يظن فيها كل من يقتلكم أنه يقدم خدمة لله" .. يا رب اغفر لهم واحمهم من الشيطان الذي يسكن عقولهم، وامنحنا القوة لنبارك لاعيننا ونصلي لأجل الذين يسيئون إلينا، ويسكن فينا السَّلام رغم كل ما نقاسيه حولنا. هللويا هللويا.

امتزجت دموع الأب (يوسف) بدموع الشَّيخ (خضر) الذي قال بصوتٍ متهدج:

- نشهد يا رسول الله بأنك قلت من ظلم معاهدًا أو انتقصه أو كلفه فوق طاقته أو أخذ منه شيئًا بغير طيب نفس فأنا حجيجه يوم القيامة. اقترب منه أحد شباب الكنيسة وقبض على عنقه وهو يقتلعه من فوق مقعده قائلاً بغضبٍ هادر:

- لا تذكر سيرة نبيكم هنا.. فكل ما حلَّ بنا من أذى وخراب بسبب دينه الذي تتبعون.

علت همهمة عشرات الشَّباب المسيحي الذين يملأون المستشفى، وأخذوا يلتفون حول الشَّيخ والشَّاب الغاضب في اللحظة التي تدخل فيها القمص (يوسف) وأمسك بذراع الشَّاب، وصرخ فيه:

- اصمت يا ضعيف الإيمان.. فمن يتصرف بطريقتك الحمقاء لا يعرف شيئًا عن المسيح.

أزاح الشَّيخ (خضر) يد القمص، وقبَّل رأس الشَّاب المسيحي قائلاً:

- ﴿لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾، هكذا يقول الإسلام الحقيقي يا بُني، وبخصوص ما فعلته معي مُنذُ ثوانٍ فقبلتي على رأسك تطبيقًا لوصايا الرحمن التي قال فيها: ﴿وَالكَاطِمِينَ الْغَيْظِ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾.. أما ما وصلكم من

وصوب ويختلطوا بمسيرة المسيحيين، وتختفي راية المسلمين وينصهروا جميعًا في حشدٍ واحدٍ ملأ الصحراء الشاسعة مترامية الأطراف، بينما تراص أمامهم الأنبياء والرسل، وفجأة إذا بغمامة ضخمة تظلل الجميع لتتردد مع حلولها المهممات، وتتجه الأنظار إلى أعلى فإذا به عرش ضخم يحمله ثمانية ملائكة تغطي أجنحتهم مشارق الأرض ومغاربها ومن فوقه أنوار لا تبلغها الأبصار، ليرتجف الكل بلا استثناء، ويخروا سُجَّدًا وبُكْيًا، في اللحظة التي عمَّ فيها الصراخ والوعويل.

استيقظ الشَّاب مفزوعًا من رؤيته ولا يزال صراخ البشر يتردد في أذنيه، حتَّى إنه ظلَّ يرتجف لثوانٍ على مقاعد الانتظار أمام الغرفة التي ترقد فيها (آيات) غائبة عن الوعي بين الحياة والموت رغم مرور أيام على الحادث خضع فيها لسلسلة استجابات مع العقيد (يحيى) مجددًا، وأحد وكلاء النيابة الذين سألوا الجميع، دون أن يتلقوا إجابات مفيدة تكشف هوية الجاني، بخلاف أقطار من كاميرات الفضائيات وعدسات المصورين الصحفيين والمراسلين الذين ملأوا أرجاء المستشفى لأيام، وأجروا لقاءات مع الجميع وعلى رأسهم الشَّاب الذي وجهوا له نفس الأسئلة بنفس الطريقة التي لم تختلف من صحفي لصحفي، ولا من مراسل لمراسل، وعلى رأسها: ماذا كنت تقصد بكلماتك التي قلتها قبل وقوع الانفجار؟ فأعطاهم بدوره إجاباتٍ واحدةً لا تتغير كلماتها بتغير السائل، مؤكِّدًا: "أردت توضيح حقيقة تنقذ البشر من جحيم خارجي، فاكشفت أن الجحيم صار يسكن القلوب".

احتلت تصريحاته وصورته صدر الصفحات الأولى في الصحف والمواقع الإخبارية ما بين من صاغها بأمانة ودقة، ومن تلاعب فيها وحرَّفها عن سياقها تمامًا، وصار ظهوره حديث الساعة، لكنه رفض الظهور في جميع برامج "التوك شو" حتَّى لا يغادر المستشفى الذي أقام فيه إقامة كاملة أمام غرفة الإنسنة الوحيدة التي ذاق معها طعم الحُب.. فكم ترددت في المستشفيات دعوات وصلوات أصدق بكثير من تلك التي تتردد في المساجد والكنائس وباقي دور العبادة!



شلتهما الصدمة، لينكب عليها فور وصوله إليها وينهار في البكاء، وقد فقد السيطرة على مشاعره وانفعالاته تمامًا.

باختصار، كان ما يمرُّ به كفيلاً بإصابة فقدان الذاكرة نفسه، بفقدان في الذاكرة!

لم يدر كم عدد الدقائق والساعات التي مرَّت عليه وهو في هذه الحالة، دون أن ينجح أحدٌ في تخليصه من معشوقته أو تخليصها منه، قبل أن يرفع رأسه وكأنه يستيقظ من كابوسٍ وجد الواقع أسوأ منه.

نظر نحو الكومودينو المجاور للسريير فوجد مزهريه بها ورد طبيعي جعلت عينيه تتسعان في دهشة حينٌ وجدها شديدة الشبه بتلك الباقية التي أهدتها له المرحومة (كريستين)، ليلتقط أجمل وردة فيها ويقربها من أنف (آيات)، ثم استأنفت عيناه البكاء وهو يغني بصوتٍ باكٍ متوجع أغنية (يا عاشقة الورد)، بصوتٍ وإحساسٍ شديدي الشبه بأداء (مايك ماسي)، لكن بإحساسٍ أقوى، وألمٍ أشد، وإيقاعٍ أبطأ:

**يا عاشقة الورد إن كنتِ على وعدي  
فحبيبيك منتظرٌ يا عاشقة الورد**

دون أن يرى ما كان يدورُ في خيال حبيبته في تلك اللحظات التي جمعت بين اليقظة والغيوبة؛ إذ كان يقف أمام عينها على خشبة المسرح ويمد يده نحوها بعد أن سقطت أرضاً ليعينها على النهوض وهو يردد الأغنية نفسها، وما إن وقفت على قدميها حتَّى ضمها في صدره بحنان الكون، ثم وضع رأسها بين كفيه وهو يُلمِّي عينيه منها، لتتبعدها صورته في الحلم وتبهت الرؤية وهو ينادي عليها قائلاً: "سأنتظرك في أرض الواقع، هيا، الحقي بي".

وبالفعل بدأت تفتح عينها ليقع ناظرها أول ما وقع على وجهه الجميل، ثم قالت بضعفٍ:

- حمداً لله أنك بخير.. أي شيء بعدها مقدور عليه.

ضمها في صدره مجدداً، وتجمدت الدموعُ في عينيه فيما تحولت ملامحه من الحزن والانكسار إلى غضبٍ هادرٍ وتحفزٍ لا حد له قائلاً:

دين مشوهٍ فلا علاقة له بتعاليم الخالق التي أوحاها لنبينا المظلوم على يد أتباعه قبل أن يكون مظلوماً من أتباع الأديان الأخرى.

اكتفى الحاخام (موريس) بهز رأسه بأسى وحزن وهو يُتابع ما يحدث دون أن يلفظ بحرف، قبل أن يخترق الشاب الوسيم ذلك الزحام الذي أحاط بالقمص (يوسف) والشَّيخ (خضر) وقال بلهجة انكسار واعتذار:

- يبدو أني تسرعت حينَ ظننت أن تبيان الحق يجب أن يبدأ من عندكم.. فالمسلمون في حاجةٍ إلى أن يعرفوا دينهم أولاً.

قال له القمص (يوسف) وهو يُحاول أن يزن دفة الحديث:

- لا يزال الأمر مبكراً على هذا الكلام يا ولدي.. فحتَّى الآن لم يثبُت بعد أن مرتكبي الحادث مسلمون، حتَّى وإن كان هذا هو الاحتمال الأقرب للحدث.

انفتح باب غرفة (آيات)، وخرجت منه (دميانة) وهي تبكي بنحيبٍ شديدٍ مُرددةً:

- يا خسارة شبابك وجمالك يا ابنتي! ليتك متِ قبل أن تشاهدي ذلك اليوم.

اقترب منها الشاب الوسيم وأمسك بكتفيها وهو يسألها بهلع:

- ماذا حدث؟

أجابته بانهيارٍ ودموعها تنهمر كالطوفان:

- ادخل وانظر بنفسك.

تركها واقتحم الغرفة التي انتهى فيها الطبيب من نزع الشاش من على وجه (آيات) التي لا تزال غارقةً في غيبوبتها، ومن هول المشهد هوى جسده رغماً عنه ليجثو على ركبتيه وهو يرتجف غير مصدقٍ ما ترى عيناه.. فتلك الراقدة أمامه لم تعد تمت إلى (آيات) بأدنى صلة، بعد أن انمحت معالم وجهها تماماً، ولم تبقَ منها سوى عينها.

انهمرت دموعه لأول مرّة في حياته بهذه الكثرة، واقترب زاحفاً من سريير حبيبة الأمس، غير قادر على التحكم في عضلات قدميه اللتين



- للأسف يا ابنتي.. كنت أظن أني لن أحتاج لأموالي فتبرعت بها بالكامل للكنيسة، وخبأت شيكاتك وأسطواناتك مع أبنينا يوسف.. ذهبت له اليوم عسى أن أسترد منه ما تبقى من أموال حتى نُجري لك عملية تجميل، لكنه أخبرني أنها ذهبت بالفعل لمن يستحقونها من الفقراء والمحتاجين.

رغم نقابها الذي أخفى ملامحها، أطل البؤس والألم الذي لا حد له من عيني (آيات)، وهي تقول بهرح مصطنع لم يخف الألم والانكسار الحقيقي:

- ولماذا كنت تعتقدين أن الحظ من الممكن أن يبتسم لأمثالي.. إنه فصل الختام هذه المرة ولا حيلة قادرة على تغيير نهايته المؤسفة. بكت (دميانة) كما لم تبك منذُ زمنٍ طويل نسيت فيه عيناها طعم الدمع، فيما نظر الشاب الوسيم لفتاته قائلاً بحزم:

- لا تقلقي يا حبيبتني.. فهناك خطوة مؤجلة حان وقت اتخاذها، وأعدك بعدها بأن كل شيء سيتغير.

\* \* \*

- عديني بالأنا تنظري للمرأة مرة أخرى، حتى أعيد لك ملامحك التي سرقها منك الانفجار.

اتسعت عيناها في هلع، وسألت بصوتٍ متقطعٍ متكسر النبرات:

- هل تشوّه وجهي؟

وضع يده على فمها ليمنعها من الكلام، ثم احتضنها دافئاً وجهها في صدره حين تحوّلت كلماتها المبتورة إلى بكاءٍ شديدٍ.. بينما قال بعينين تجمدت فيهما الدموع اللامعة:

- أقسم لك بأنك ستعودين كما كنت، حتى ولو كلفني ذلك عمري كله.

\* \* \*

دخلت (آيات) السطح معتمرة نقاباً يخفي ما فعله بها القدر، لكن يد الشاب الوسيم التي أخذت بيدها واحتضنت كفها في رحمة ورفق كانت سبباً كافياً حتى لا تكفر بجرعة الخير الباقية في أقدار الرب رغم كل ما عانتها على مدى سنوات عمرها الماضي.

فور دخولهما السطح وقع بصرهما على غرفة (دميانة) المفتوحة، فسحبت (آيات) يدها من كفه واقتربت من باب الغرفة وهي تنادي بتوتر:

- دميانة.. دميانة!

وتحوّل توترها إلى فزعٍ حين وجدت الغرفة خاوية على عروشها فيما انزاح الدولاب عن الحائط ومن خلفه كانت الخزانة السرية مفتوحة خالية الوفاض من أي شيء، لتنظر خلفها بارتياحٍ وتقول للشاب:

- دميانة اختفت، ولا أثر لأي شيء في خزنتها.

وقبل أن يلفظ بحرف، صك سمعها صوت خطوات أتت من خلفهما، فإذا بها (دميانة) التي حمل وجهها الحزن الشديد، فهتفت بها (آيات):

- أين كنت يا دميانة؟ وماذا حدث للخزانة؟

أجابتها (دميانة) بندم:



أسفل شجرة وارفة الأوراق، في حديقة عامة مليئة بالأشجار والورد، وقفت (آيات) مع الشاب وهي تتأمله بحب، ورهبة، وتوتر، في مزيج من المشاعر المتفاوتة التي يصعب اجتماعها في وقت واحد، وقد أخذ كل شعور منفصل فيهم يتنازع على احتلال ملامح وجهها المخفي عن أعين البشر حين قالت من تحت نقابها:

- هذه أكثر مرة أتذكر فيها زوجة أبي وما فعلته بي.. لو كانت أنصفت في تربيتي وردت الجميل إلى ذلك الرجل الطيب الذي انتشلها من الفقر لما حدث ما حدث.. ربما كنت اليوم إنسانة صالحة تتبرع لفقراء الكنيسة مثلما فعلت دميانة.. لم أكن لأسقط في الخطيئة وأنقلب بين الأسرة وأحضان الغرباء مثل...

قاطعها الشاب:

- ولم نكن لنلتقي.

انتفض جسدها وهي تقول بذعر:

- رباها! مرحبًا بكل ما عانيته إذن إن كان سيؤدي إلى وجهك الجميل. التمعت عيناه بالدموع رغماً عنه ورفع النقاب عن وجهها المدمر تمامًا باستثناء عينيها الجميلتين اللتين تفيضان بالجراح والبؤس، وتأملهما لحظات قبل أن يقول:

- حان وقت الحساب يا آيات في ميراثك المسلوب ظلماً وزوراً.. سنسترد حقاك وتسافرين للعلاج في ذلك المستشفى الألماني الشهير الذي حدثنا عنها الطبيب.

نظرت له بخوفٍ وقلقي ثم قالت بنبرة صوت مترددة مليئة بالرهبة:

- نفسي لكن خائفة.. لقد اصطدمت بها مرتين.. في الأولى دخلت الأحداث وسُرقت مني أجمل سني عمري، وفي الثانية خسرت الإنسان الذي كنت سأزوجه.. هل تظن أننا سننجح هذه المرة؟

منحها ابتسامة مطمئنة وأجابها بكلمات يتقاطر منها الإيمان والثقة:

- لو آمنتِ بذلك، فكل شيء مستحيل سيغدو ممكناً.

\*\*\*

## (32)

غادرت (آيات) والشباب الوسيم منزل (دميانة) القديم واتجهت يمينًا ليمرًا بجوار عربة كارو يجرها حمارًا، ثم اختفى أثرهما من الشارع..

وعلى يسار العقار في الوقت نفسه، تحركت سيارة فاخرة تسير ببطءٍ حتى توقفت أمام باب المنزل وغادرها (ريمون) و(نصحي) والرجل ذو العينين الزرقاوين الذي ما إن مرَّ بجوار العربة الكارو حتى جنَّ جنون الحمار، وأخذ يهز رأسه وينهق بشدة، قبل أن يحذو حذوه باقي الحمير الموجودة في عربات الكارو المجاورة للمنزل، فيما دخل الرجال الثلاثة المنزل وصعدوا لأعلى.

وعلى باب حجرة (دميانة) هوت طرقاتٌ غليظةٌ بشكلٍ متواصلٍ، فاتجهت لفتح الباب بلامح غاضبةٍ وهي تقول:

- فلتهمد يا ابن الكلب الذي يقف على الباب!

وما إن انفتح الباب حتى وجدت نفسها وجهًا لوجهٍ أمام أكثر رجلٍ أذاقها العذاب والهول على وجه الأرض حين كان يحتل جسدها..

انتفضت وهي ترتد للخلف كمن سقطت عليها صاعقة من السماء، بينما ارتسمت على وجهه ابتسامة لجة وهو يتقدم نحوها قائلاً بشماتةٍ ونبرة جمّدت الدّم في عروقها:

- افتقدتك جدًّا يا عزيزتي.

ومن خلف كتفيه اندفعت لكمة أودعها (نصحي) كل قوته، لتحيل أنفها إلى كومةٍ من اللحم المفري، ويحلّ بعدها الظلام وقد اسودت الدنيا تمامًا.

\*\*\*



أجل شيء آمنت به (ضحكت من جديدٍ وتابعت) ليتكم جئتم مبكرًا يا أولاد الكلب.

ثم واصلت الضحك المُجلجل بمزيدٍ من الاستفزاز حتَّى ألقاها (نُصحي) بقسوة، وأخرج مسدسه المزود بكاتم الصُوت، قبل أن يصيح فيها (ريمون):

- إذن فما زلتِ مصممةً ألا نُخبرينا أين خبأوا الشيكات والأسطوانات.

ردّت عليه بابتسامةٍ وهي تنظر خلفه بنظرة رضا:

- لقد حضر عزرائيل خلفك.. خلّصنا بقى الراجل لسه وراه شغل!

ثم ضحكت ضحكتها الأخيرة ليسحب (نُصحي) أجزاء مسدسه ويصوبه نحوها بعينين غاضبتين للغاية، في اللحظة التي انفتح فيها باب الغرفة مع صوت (موريس) الذي يقول بمرح:

- أرجو ألا أكون قد تأخرت على مولاتي.

وما إن شاهد ما يحدث حتَّى اتسعت عيناه في دهولٍ، وارتعدت فرائصه فيما قالت له (دميانة):

- دائمًا تأتي في الوقت المناسب.

\* \* \*

في غرفتها تمددت (دميانة) على الأرض نائمةً على بطنها وهي تنظر للبلاط المتسخ الذي امتلأ بخصلات شعرها بعد أن تم نزعها نزعًا من منتصف فروة رأسها، ليظهر جلد رأسها الأصلع، فيما أحاطتها أقدام الرجال الثلاثة، قبل أن يقول (ريمون) بكل قسوة الدُّنيا:

- ألا تريدان أن تنطقي بعد كل ما ذقته يا ابنة العاهرة؟ ارحمي نفسك وأخبرينا أين الشيكات والأسطوانات.. لن نمل من تعذيبك حتَّى لو استمر ذلك على مدى عمرك كله.

رفعت رأسها ببطءٍ شديدٍ وقد تخضب بالدماء التي سالت من مواضع شتى وصبغت وجهها كاملاً باللون الأحمر، ورغم ذلك قالت ساخرةً:

- عُمّر؟ صدق المثل القائل: "ما تخافش من الهبله خاف من خلفتها".. لم يعد في عُمري ما أخشى على فقده يا جحش.. لقد كنت أعيش فقط لأنني كنت متمسكة بالدُّنيا وأريد ذلك، والآن لم أعد في حاجة لحياة فيها أمثالك.

قبض (نصحي) على عنقها بشدةٍ وأجرها على الوقوف قائلاً:

- وحية أمك لو جاء عزرائيل نفسه، فلن يستطيع أن يأخذك منا.

نظرت لعينيه الغاضبتين، ثم أخذت تضحك ببطءٍ ازداد حتَّى تحوّل لضحكةٍ ساخرةٍ كبيرةٍ قبل أن تقول:

- لقد حضر بالفعل.. فلتري كيف ستمنعه لو كنت رجلاً!

ثم واصلت الضحك باستفزازٍ حتَّى همّ (نُصحي) بلكهما، إلا أن الرجل ذا العينين الزرقاوين استوقفه بإشارةٍ من يده فظلّ (نُصحي) ممسكًا بها، بينما اقترب الرجل من خلف أذنيها وقال بلهجةٍ ثعلبيةٍ بطيئة:

- فلتستقبله وأنت مرتاحةٍ إذن.. فمن يشقى طوال عمره يتمنى على الأقل أن يرتاح وهو يموت.

ضاقت حدقتها وهي تلتفت نحوَه بنظرةٍ ثعلبيةٍ مماثلةٍ قائلة:

- من يعيش في شقاءٍ يمُت مرتاحًا، ومن يرتح في معيشته يمُت في شقاء.. لقد عشت عُمري كله لا أوّمن بشيء، ويكفيني أن أموت من



- ماشي يا حلوة؟

لكن يد الشاب الوسيم كان لها رأي آخر؛ إذ امتدت لتقبض على عنق (أمير) قبل أن تلمس يده خد (آيات)، لترفعه عن الأرض وتحبس عنه الأكسجين، وحينَ قرَّبه الشاب الوسيم منه وهو معلق في الهواء، أخذ يجرمه بنظراتٍ ناريةٍ خلَّت من أي رحمة أو شفقة، فيما أخذ ابن زوجة الأب يركل الفراغ بقدميه وقد انتفضت عروق وجهه الذي امتنع وتحوّل إلى اللون الأزرق، في حينَ صرخت (إيرني) برعب:

- أميييييير!

ثم مدّت يدها إلى زرٍّ في مكتبها وضغطت عليه بسرعة، قبل أن تجري نحوَ ابنها برعبٍ ولوعةٍ لتتعلق بذراع الشاب الوسيم في محاولةٍ يائسةٍ لتزيله، في الوقت الذي قال فيه الشاب لابنها بلهجةٍ تجمّد الدّم في العروق:

- ما رأيك الآن في الشاب الطري الذي تعرّف إليها من الشارع وقد علقك مثل الذبيحة!

حاولت (إيرني) تخليص ابنها الذي حاكى وجهه وجوه الموق بلا جدوى وهي تصرخ في الشاب:

- أنزله يا حيوان.. أقسم إنك ستموت.

وفجأة، انفتح باب المكتب ودخل منه 4 من ضباط الأمن ضخام الجثة، لينغلق الباب خلفهم في اللحظة التي صاحت فيهم (إيرني) بلهجةٍ أمرّة:

- اقتلوه!

ترك الشاب الوسيم ابنها يسقط أرضاً وهو يُحاول أن يبلى أكبر كم من الهواء من فمه الذي انفتح على آخره وقد جحظت عيناه، في اللحظة التي أخرج فيها ضباط الأمن مسدساتهم وصوّبوا نحوَ الشاب قبل أن تقف (آيات) أمام مسدساتهم وهي تبسط ذراعها لتحمي بجسدها جسد حبيبها، لكنه أزاها وهو يقول لهم بصرامةٍ شديدة:

- ليست هناك عداوةٌ بيني وبينكم.. لا تجبروني على الفتك بكم!

## (33)

هبت (إيرني) زوجة والد (آيات) في مكتبها الفخم الواسع ذي الأثاث الفاخر للغاية، وقد ارتدت ملابس أنيقة على أحدث صيحات الموضة، لكنها لا تناسب سنّها، وتحفزت ملامح ابنها (أمير) ذي الجثة الضخمة الذي يقف على يسارها، لتضرب سطح مكتبها وهي تصرخ في (آيات):

- أنتِ مرّةٍ أخرى؟ ألم تتعلمي من كل ما حدث لك؟

نزعت (آيات) النقاب عن وجهها لتظهر من تحته ملامحها المشوهة فشهقت (إيرني) دون أن تقصد حتّى وضعت يدها على فمها، قبل أن تقول الأولى باكية:

- هذا ما حدث لي بعد كل ما قاسيته على يدك أيتها الجبارة، ولم يعد لديّ ما أخسره.. أعطيني حقي الذي سلبته حتّى أعالج وجهي، وسأسمح على كل ما فعلته معي طوال السنين الماضية.. صديني لن تجدي عرضاً أفضل من هذا قبل أن نقف جميعاً أمام الرّب في يوم الحساب.. فكل من ماتوا كانوا يعتقدون أنهم سيعيشون إلى الغد.

همّت (إيرني) بالكلام لكن (أمير) ابنها استوقفها بإشارةٍ من يده قبل أن يتابع بلهجةٍ تفيض بالشّر وهو يقترب من (آيات):

- في المرّة الماضية كان قلبي رحيماً بكِ واكتفيت بقطع عيشك من مكتب الجرافيك فقط.. وإذا كان أحد فينا سيقدم عرضاً للآخر اليوم، فأنا الذي يعرض عليك أنتِ وهذا الشاب الطري أن تأخذا بعضكما وتنصرفا في سلام لتستكملا قصة حبكما في الشارع الذي أتيتم منه، وإلا فقسماً برحمة شرفك فسيكون مصيرك السجن المؤبد هذه المرّة.

ثم مدّ يده نحوَ خدها متابعاً وقد ضاقت حدقاته ليصبح مثل الشياطين:





إلا أن (إيريني) صاحت فيهم:

- مائة ألف جنيه لمن يقتله.

جميعهم سحبوا أجزاء مسدساتهم، وقبل أن يصوبوها نحو الشباب الوسيم قبض يده وانثنى بسرعة شديدة ليلكم الأرض لكمة حملت قوة السماء وجبروت الملائكة، فاهتز المبنى بأكمله، وتشققت الأرض لتمتد الشقوق نحو رجال الأمن ليسقطوا جميعًا ويفلتوا مسدساتهم في رعب وهم ينكمشون في أماكنهم كتماثيل نحت الهلع والفرع بصماته على وجوهها، وتسقط معهم (إيريني) و(آيات).

انتصب الشباب بقامته قائلاً لـ(إيريني) التي اتسعت عيناها غير مصدقة ما تراه وأخذت ترتعش وهي ساقطة على الأرض كعصفور صغير في ليلة شاتية:

- أمامك أسبوع حتى تراجعني فيه أوراقك وحساباتك.. بعد انتهاء المهلة لن يكون هناك كلام آخر يُقال.. فقط أفعال لا تخطر على بالك في أبشع كوابيسك، وما حدث كان مجرد عينة.

ثم مدّ الشاب يده إلى (آيات) التي لا تزال ساقطة على الأرض، وعاونها على النهوض بينما لا يزال الباقون يتطلعون إلى الأرض المشققة، غير مصدقين ما حدث أمام أعينهم.

وما إن تقدّم (الشباب) و(آيات) نحو باب المكتب وهما بالانصراف حتى انفتح الباب فجأةً ليطل منه الرجل ذو العينين الزرقاوين ليلكم الشاب الوسيم في وجهه بقوة شديدة دفعته ثلاثة أمتار للخلف قبل أن يسقط ويحتك بالأرض في عنف، ثم اقتحم (ريمون) و(نصحي) المكتب من النافذة وقد أتيا من السطح، وكل منهما يحمل مسدسًا مزودًا بكاتم للصوت، وفي ملح البصر جذب (ريمون) (آيات) إليه ووضع مسدسه على رقبتها، بينما أغلق الرجل ذو البذلة الرمادية الغربية باب المكتب بإحكام شديد بعد أن ألقى نظرةً ساخرةً على جثة السكرتيرة في الخارج هي والساعي.

وحين التقط ضباط الأمن الأربعة مسدساتهم داخل المكتب وحاولوا السيطرة على الوضع، تعامل معهم (نصحي) و(ريمون) بدفعة سخية من الطلقات لتسبح جثثهم خلال ثوانٍ في بحيرة صغيرة من الدّم، بينما دسّ الرجل المريب سيجارًا بين شفثيه وأشعله وهو يتقدم بخطوات بطيئة واثقة نحو الشاب الذي نهض من سقطته مصدومًا لا يفهم ما يحدث، ليأخذ نفسًا عميقًا من سيجاره، ثم ينفثه في وجهه قائلاً ببرود:

- دورك انتهى إلى هذا الحد.. الحياة ليست دائمة المكسب حتى لأمثالك.

تطلع الشاب الوسيم إلى وجهه في محاولة يائسة لتبيان هويته متسائلًا:

- من أنت؟

تراقص اللهب في عيني الرجل وهو يُجيب بمقت:

- كنت أتمنى أن تكون ذاكرتك حاضرةً لأذكرك بذلك القسم القديم الذي افترقنا عليه بالأمس وأنا أسقيك من كأس الهزيمة اليوم.

ثم برقت في ذاكرته ومضات من سنواتٍ سحيقة جاوزت الألفي سنة، حين دبّت في السماء معركة (الرق المنشور).

المخلوقات النارية أخذت تقذف حممها وتخلق حول نفسها جحيمًا مستعرًا يحول بينها وبين الملائكة، وجنود السماء يرسلون موجاتٍ من البرق والعواصف، وتخفق أجنحتهم بشدة لإطفاء جحيم الأرواح النجسة، قبل أن تهبط من السماء السابعة ملائكة تحمل قذائف من جهنم انطلقت معها صيحات وصرخات المخلوقات النارية، ليبدءوا في التقهقر والتراجع ناكسين على أعقابهم باحثين عن خروج آمن من المعركة، لتنقض الملائكة على فلوس الهاربين وتقبض عليهم في الوقت الذي فر فيه البعض عبر دروب الكون ليختبئوا في الكواكب والنجوم..

ووسط ذلك كله انطلق ملاك الرب التوراني نحو إحدى الأرواح النارية الهائلة دون أن يدري أن هذا المخلوق لم يكن سوى ابن القائد الذي أعده والده لانتحال دور الإله حين تنجح الخطة!

وبسرعة فاقت سرعة الضوء فرّ ابن القائد مارقًا بين الكواكب والنجوم، وخلفه ملاك الرب التوراني الوسيم الذي بسط أجنحته وهمّ



- دماؤهم في رقبتك.. تمامًا مثلما ستتحمّل دم تلك المسكينة التي زادها وجودك بؤسًا على بؤسٍ حينَ أنهي عمرها الآن.  
انتفض الشّابّ الوسيم وهو ينظر لـ(آيات) نظرة عجز، وقال بصوتٍ متلجّجٍ وشبح فقد حبيبتّه يتراقص أمام عينيه:

- الأعمار بيد الله وحده.

اقترب منه الرّجل المريب وتلاقت أعينهما قائلاً بتحدٍّ:

- ولو أخذها منك فلن يُعيدها إليك مرّةً أخرى (ضاقت حدقتها وصرخ صرخةً هادرة) اركع!

نظر الشّابّ إلى (آيات) في قلقٍ وارتياحٍ، ورأى دموعها السّاخنة تنزل بغزارةٍ وهي تهز رأسها ببطءٍ، وكأنّها تطلب منه ألا يفعل، ثم نظر مجددًا للرجل المريب في حيرةٍ، فصاح الأخير:

- ريمون.

مع صيحته بدأت سبابة (ريمون) بسحب زناد مسدسه ببطء لتغمض (آيات) عينيهما في رعب، وتدفن رأسها بين كتفيها وهي تتوقع خروج الطلقة في أية لحظة، فأشار الشّابّ فجأةً للرجل المريب مقاطعًا:

- انتظر!

ثم نظر للأرض بخزي، وانحنى في طريقه للركوع، قبل أن تلمع عيناه فجأةً وينثني ليلكم الأرض بقوة شديدة لتتهتز وتتشقّق من جديد بينما يسقط الجميع أرضًا، في الوقت الذي تحرك فيه الشّابّ في لمح البصر نحو (ريمون) الساقط أرضًا ليركل من يده المسدس، ثم انقض على (نصحي) وركل سلاحه بالمثل، لكنه فجأةً سمع ضحكة الرّجل الساخر الذي يقف على باب النّافذة ممسكًا بـ(آيات) من رقبتها، وما إن نظر إليه الشّابّ بعينين متسعيتين يطل منهما الهلع حتّى قال بسخريةٍ مقبّية:

- تأخرت كثيرًا.. لو كنت تحبها فلتذهب خلفها!

ثم ترك (آيات) لتسقط من ارتفاعٍ شاهقٍ.

\* \* \*

أن يُطبّقها عليه، لكن ابن القائد فلت في اللحظة الأخيرة ليخترق الغلاف الجوي للأرض وخلفه جندي السماء، وأخذت المسافة بينهما تتضاءل، وحينَ شارفت أن تذوب فوجئ ملاك الرّب النّوراني بصوتٍ فحيحٍ يأتيه من خلفه ليلتفت بسرعة البرق فإذا بالقائد نفسه ينقضُّ عليه لإنقاذ ولده، فاستقبله الملاك وأحاطه بأجنحته، ثم توهج جسده بنور ساطع أجبر قائد الأرواح النّجسة على إطلاق أعتى صرخات الأم ليستسلم ويقع في الأسر، وحينَ عاد الملاك النّوراني الوسيم ينظر حيثُ ترك ابن القائد، كان قد اختفى تمامًا تاركًا خلفه رسالة مكتوبة على الأرض بالنيران، وبلغة لا تمّت إلى اللغات البشريّة بصلة على الإطلاق جاء فيها:

- في يومٍ مثل هذا، سنلتقي مجددًا يا ابن النّور.. لكنك ستكون الطرف المهزوم الخاضع لسلطاني لتدرك أن النّار لا يمكن هزيمتها أبدًا.  
عاد الرّجل ذو العينين الزرقاوين من ذاكرته، وقال للشّاب بلهجةٍ تفيضُ بالشّر والغل:

- هل ستنفذ أمري أم ستتسبب في إراقة المزيد من الدّماء؟  
عقد الشّابّ حاجبيه متسائلًا:

- أي أمر؟

ضاقت عينا الرّجل وهو يقول بلهجةٍ قاسيةٍ:

- اركع!

اتسعت عينا الشّابّ ثم تحوّلت دهشته إلى زمجرةٍ رهيبيةٍ فاقت زئير الأسود وهو يغوص في عيني الرّجل المريب الذي ألقى سيجاره ثم نظر لـ(نصحي) نظرةً ذات مغزى، فوجّه الأخير مسدسه نحو (إيريني) وابنها في اللحظة التي صرخت فيها (آيات):

- لا.. لا تقتلها!

لكن صرختها تبذرت في الهواء حينَ سبق السيف العذل وفتح (نصحي) نيران مسدسه لتخترق جسد (أمير) الذي احتضن أمه وحاول أن يفديها فاخترقت الطلقاتُ جسده ونفذت منه إليها وسبح كلاهما في دمائه، لتصرخ (آيات) في فزعٍ، بينما أشار الرّجل المريب لجثث الجميع المتكومة وقال للشّاب:



قبض على شعرها ورفع رأسها نحوَه بقسوةٍ قائلاً:

- هل تستطيعين أن تخبريني أين هو الآن إذن؟ لماذا لم يأت لينقذك في اللحظة الأخيرة مثلما كان يفعل؟ لقد انتهى أمرك تمامًا أيتها المومس وأصبحت بمفردك مجددًا، ولن تنقذك قوة في الكون من قبضة يدي لو بقيت على عنادك.

ثم أخرج قداحته الفضية ذات اللمعة العاكسة للأشياء وكأنها مرآة وقربها من عينيها حتى ترى وجهها فيها قائلاً:

- انظري إلى وجهك الدميم الذي لم يعد قادرًا على جذب أنظار كلبٍ مخصي ييصق عليه البشر، وأخبريني بما نفعك الإيمان والذهاب للكنيسة؟ صرختُ بألمٍ شديدٍ حينَ رأت وجهها لأول مرة، قبل أن تغمض عينيها في ألمٍ فيما تسللت دموعها من بين جفونها المغلقة، فأشعل قداحته وصاح فيها وهو يقرب النار من عينيها بغضبٍ هادر:

- **افتحي عينيكِ!**

صرخت في ألمٍ وهي تفتح عينيها بخوفٍ شديدٍ، قبل أن يأخذ الرجل المريب نفسًا من سيجاره قائلاً ببروده الذي نافس القطب الشمالي:

- لا تقلق.. ستخبرك بكل شيء.. فمن غير المعقول بعدما مات بطلها الأحمق، وتورطت في قضية قتل زوجة أبيها وابنها، ودميانة وموريس أن تفكر -ولو مجرد تفكير- في الخروج عن طاعتك.

اتسعت عيناها وهزت رأسها في استنكار وهي تبكي بلوعة وألم الكون كله:

- لأ.

ثم تقدم الرجل نحوَ (رهون) وأردف:

- كنْ على استعدادٍ حتى أعود لك.

سأله (رهون):

- إلى أين ستذهب؟

شرد الرجل ببصره وتابع بغموضٍ مليءٍ بالشر:

- مشوار مؤجل مُنذُ آلاف السنين.

## (34)

وصل الشاب إلى شارع (سعد زغلول) حيثُ منزل (دميانة) العتيق، وهناك تسارعت دقات قلبه وهاله المنظر حينَ رأى سيارة الشرطه تقف أمام العقار وقد غادرها العقيد (يحيى) الذي يتابع الموقف لحظةً بلحظة، وإلى جواره سيارة إسعاف يحوطها زحامٌ كثيفٌ من البشر الذين يبذل رجال الأمن مجهودًا مُضنيًا في إبعادهم، قبل أن ينقبض قلبه ويهز رأسه في استنكار وهو يكذبُ عينيهِ حينَ أطل من مدخل المنزل نقالتان محمولتان من رجال الإسعاف، وتحمل كل نقالةً فيهما جسدًا مُغطى بملاء بيضاء عليها بقعةٌ كبيرةٌ من الدّم، ليضرب بعض أهل المنطقة كفاً بكف حينَ وضع رجال الإسعاف جثتي (دميانة) و(موريس) في السيارة، ثم أغلقوا بابها الخلفي لتغادر المكان، في حينَ انهمرت دموع الشاب بكل حسرة وهوان وهو يبتعد عن المكان؛ حتى لا يلحظ رجال الشرطه وجوده.

\* \* \*

داخل بدروم الملهى الليلي تم تقييد (آيات) من يديها وقدميها في خشبةٍ بين كرسيين بحيثُ يتدلى رأسها للأسفل..

من زوايةٍ مقلوبةٍ رأت كلاً من الرجل المريب و(نُصحي) و(رهون) الذي نظر إليها بمقتٍ وشماتةٍ شديدين قائلاً:

- تُرى، ما الذي ستفعله أم وجهه مسلوخ بعد وفاة السيد سوبر مان؟ صرخت باكية:

- لا.. لا.. أنت تكذب عليّ.



فغر (رِيمون) فاهه مثل طفلٍ يتلقى التطعيم بالتنقيط في الفم، وهو يُكذِّب ما سمعه بأذنيه، بينما تركه الرَّجل وغادر المكان.

\* \* \*

لم يدر الشَّاب كم مرَّ عليه من وقتٍ وهو على هذه الحالة من التخبط والحزن وقلة الحيلة، بعد أن غلَّقت في وجهه كل الأبواب، حتَّى الشَّيخ (خضر) الذي كان ملاذه الأخير لم يجده في منزله بمنطقة (بحري)، ليسير بعدها مرتديًا بذلته الرائعة على غير هُدَى حتَّى وجد نفسه في شارع (خليل حمادة) بحي (سيدي بشر) بين كنيسة (القديسين مار مرقص الرسول والبابا بطرس خاتم الشَّهداء) التي كانت على يساره، ومسجد (شرق المدينة) الذي كان على يمينه، في وقتٍ متأخرٍ من الليل خلا فيه الشَّارع من البَشَر والدواب، لاسيما بعد أن أزعجني الله سَحَابًا ثُمَّ أَلْف بَيْتُهُ وجعله رُكَامًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ ويهطل مِنْ السَّمَاءِ سيولًا شديدة رافقها سطوع البرق وهزيم الرعد في أحد مواسم النُوَّة التي لا تعرف الهزل مع من تسوقهم الأقدار إلى غير مؤل في لحظات عنفوانها.

نظر إلى السَّمَاء بحزنٍ وقد تَلَأَّت عيناه بالدموع التي اختلطت بماء المطر، ثم قال بخجلٍ وضعف:

- كما تشتاق الإبل إلى جداول المياه، هكذا تشتاق نفسي إليك يا الله.. (بكي هنيهة ثم واصل) يا رب.. لا أعرف ماذا أقول.  
"لا تقل له شيئًا لأنه غير موجود".

ترددت كلمات الرَّجل ذي العينين الزرقاوين من خلف الشَّاب، فالتفت الأخير نحو الأول بغضبٍ هادرٍ ليجده بنفس هينته وملامحه الساخرة، وقد ابتلَّ شعره الذي تتساقط منه قطرات الماء، ليتقدم نحو الشَّاب بثقةٍ متابعًا:

- هل صدقت أنه موجودٌ حقًا لتدعوه؟ أفق يا عزيزي إنه كذبة خلقناها؟  
بُهِت الشَّاب من الكلمة، ومن طريقة كلام الرَّجل الذي يتحدث بحميميةٍ شديدةٍ وكأنَّهما أصدقاء مُنذُ زمنٍ فتساءل بدهشةٍ عارمة:

- خلقناها؟

- بكل تأكيد.. فأنا وأنت لسنا من هذا العالم البائس الذي نلهو به كيفما نشاء ونتحكم في مقدراته ومسارات تاريخه.. أوه يا عزيزي! يبدو أن ذاكرتك التي فقدتها في حاجةٍ إلى إنعاشها والعودة بها إلى أصلك الأول حيثُ كوكبنا الذي ننتمي إليه قبل أن تسقط في تلك اللَّيلة بمقابر النُجر وتلتقي بتلك الفتاة.

ارتسم الذهول والحيرة في عيني الشَّاب وعلى ملامح وجهه وهو يفغر فاهه، متذكرًا كيف سقط فجأة في المقابر لا يدري من أين سقط، ولا إلى أي عالمٍ ينتمي، قبل أن يمسكه الرَّجل من كتفيه ويقربه من وجهه حتَّى تلامست أنفاسهما قائلاً:

- انظر إلى عينيَّ جيدًا وحاول أن تتذكر!

شعر الشَّاب أن عيني الرَّجل تتسعان حتَّى صارتا شاشتي عرض عملاقتين ابتلعتاه إلى داخل عالمٍ آخر اختفت فيه الحضارة المدنية الحديثة، وذابت الأبراج والبيوت والسيارات، واستحالت الشُّوارع الأسفلتية إلى أراضٍ رمليَّةٍ غير ممهدة بينما تواتت كلمات الرَّجل بصوتٍ عميقٍ رنان:

"مُنذُ ملايين السنين بتوقيت الأرض، كان هذا الكوكب أرضًا خربة، عثر عليها أجدادنا أصحاب الحضارة المتطورة في كوكبٍ ينتمي لمجرةٍ أخرى خلف غياهب هذا الكون السحيق.. عندها قرروا أن يجعلوا من هذا الكوكب معمل اختبار لخلق حياة موازية داخل مخلوقاتٍ كثيرةٍ تم اختيار أشكالها وتصانيفها بعنايةٍ شديدةٍ في معاملنا".

رأى الشَّاب في عيني الرَّجل أنواعًا تهبط من الأعالي، ثم تخرج منها أطباقٌ طائرةٌ هائلة الضخامة، تقترب من أرض الكوكب الصخرية وتخرج منها الديناصورات والأسود والنمور وغيرها من المخلوقات التي أخذت تجري في كل مكان؛ حيثُ بدت في الأفق أنهارٌ وأشجارٌ وجبالٌ وكهوفٌ، ليتجه كل مخلوقٍ إلى البيئة التي تناسبه، فيما تواصل صوت الرَّجل في الحكي.



لدراسة التأثيرات الروحية، وكنت أنت أحد جنودها، ثم تم عقد اتفاق بين القوتين أن يتلعبا ضد بعضهما من خلال البشر، دون أن يتحول صراعنا في التجارب إلى صراعاتٍ شخصيةٍ فيما بيننا على كوكبنا، ووقعنا على هذه الاتفاقية حتى تمتد لشهور.. فثمة فارق زمني هائل بين مقياس زماننا ومقياس زمانهم، حتى إن يومًا واحدًا لدينا يُعادل نصف قرن من زمانهم؛ لذا فكل رحلة الإنسانية لا تتعدى في زماننا مجرد شهور".

انفتحت أبواب السماء المعروضة في عيني الرجل أمام الشاب الوسيم، وانهمرت منها سيول الأمطار، فيما تشققت الأرض وتدفتت منها شلالات الماء، لتحمل المياه مركبين ضخمتين تفصلهما مسافةً جغرافيةً شاسعة، ودخل كل منهما بشر ومخلوقات، والرجل يستطرد:

"في وقتٍ ما تعقدت اللعبة ووصلت إلى طريقٍ مسدود، فقررنا إغلاقها وبدءها من جديد، فكان الطوفان العظيم الذي تلاعبنا من بعده بعقول البشر حتى تتيه الحقيقة.. فريقي كتب السيناريو للفئة الناجية التي انتخبناها من الحضارة السومرية حين خاطبنا أوتنابشتيم ملك مدينة شوريباك في إحدى الليالي وأخبرناه بأن مجمع الآلهة اتخذ بتحريضٍ من إله العاصفة إنليل قرارًا بإفناء الحياة على الأرض، ولكن قبل الشروع بتنفيذ خطتهم قام الإله إيا بنقل الخبر إلى أوتنابشتيم ملك مدينة شوريباك وكلمه من وراء جدار، وأمره بأن يبني سفينةً عملاقةً وفق مخططٍ خاص شرحه له، وأمره بأن يحمل إليها كل ما يمتلك من ذهب وفضة، وأهله وأقاربه، ونخبة من أصحاب الصناعة والحرف ليختبئوا بها عند اندياح الطوفان، وتم تخليد ذلك باللغة السومرية في ملحمة جلجامش على ألواحٍ من الفخار، بينما كنت أنت ورفاقتك من الذين نفذوا مخطط نوح الذي انتخبه علماءكم ليكون نبيًا".

لاحظ الشاب الوسيم كيف كانت الأطباق الطائرة تزاور الأرض، وتخرج أشعة ترسم على صفحة السماء صور مخلوقات أشبه بالبشر

"وبعد فترةٍ من الزمن تم الاستقرار على أن هذه المخلوقات في حاجةٍ إلى مخلوقٍ جديدٍ بمواصفاتٍ أعلى تجعله على قمة هرم الأحياء التي تمرح في هذا الكوكب، فصنعنا آدم، ووضعناه في حديقة غناء كبيرة حتى يعيش فيها بعيدًا عن المخلوقات الشرسة، لكنه ظل بائسًا وحيدًا فتم الانتباه إلى ضرورة خلق مخلوقٍ آخر يؤنس وحشته، ويُساعده على النمو والتكاثر، ومن هنا جاءت حواء، لكن جرعة الفهم التي غرسناها داخل هذا النوع المتطور من المخلوقات كانت تنمو بشكلٍ مثيرٍ فاق التوقعات، فكان لا بد من خلق فزاعة تُحجّم قدراته وإمكانياته، وفي الوقت نفسه تقيس مدى طاعته للأوامر التي ترد إليه، فكان الشيطان هو هذه الفزاعة، وشجرة المعرفة هي معيار قياس درجة الطاعة، وبدأنا مخاطبهم من على بُعد بصوتٍ عميقٍ أخبرهم بأنه الإله".

رأى الشاب الوسيم في عيني الرجل (آدم) و(حواء) وهما يُغادران الحديقة الضخمة، ويسيران هائمين في الأرض لتطاردهم بعض المخلوقات الشرسة فيختبئ منها، وكلمات الرجل تقول:

"ومن جديد بهرتنا قدرات آدم وحواء ونسلهما في التعايش مع البيئة الجديدة، بعد تمثيلية طردهما من الجنة إذ كنا نحن المتحكمين في إرادته حين أكل من الشجرة المحرمة، لكن ظلّت المشكلة التي تهدد بفشل التجربة أن ذكاهم كان يقترب من كشف اللعبة، وإفساد مخطط التجربة، وكان الحل الوحيد هو تشتيت انتباههم بلعبة تعدد الآلهة وخلق الصراعات بينهم، وبالفعل نجحت اللعبة بشكلٍ مؤقتٍ وسالت الدماء وانتشر الخراب ونشطت الدراسات والتقارير في معاملنا، حتى تمرد بعض علمائنا على ما يحدث وقرروا الانفصال، وفي الخفاء صنعوا خطةً عكسية تعتمد على اختطاف نماذج من البشر وتعريضهم لتجارب روحية يخبرونهم بعدها أنهم أنبياء اصطفاهم الخالق لهداية البشر وتنفيذ تعاليمه، ونشأت الصراعات في كوكبنا بين قوتين عظيمين، قوة تقوم تجاربها على الفتن والصراعات والشّر لتعميق الدراسات والتجارب، وكنت أنا أحد جنودها، وقوة أخرى تقوم على الهداية والخير والسلام



فيجري البعض ويسقط البعض الآخر مغشيًا عليه، بينما يثبت نوع ثالث من الإنس ليتحدث مع مخلوقات السماء، بينما يردف الرّجل:

"وظلت أزمانهم تتابع وكل منا يسير في مخططه، ليدون نتائج التجارب والاختبارات التي يرون بها عندما يشاهدون سفننا ومخلوقاتنا.. فقبل أكثر من 3000 عام بتاريخ زمانهم، أمر فرعونهم تحتمس الثالث بتوثيق تلك الواقعة الشهيرة في بردياتهم، حين شاهد كتبة البيت المقدس وجيوش الفرعون العظيم دوائر من النار تحوم في السماء، ثم نزل منها أناسٌ تخرج من أنفاسهم ألوان عديدة، وقد ذهب الشعب لإخبار الفرعون فأمر بكتابة ما حصل على أوراق البردي.. وفي أسفار الكتاب المقدس قال حزقيال النبي حين رأى مخلوقاتنا:

"انفَتَحَتِ السَّمَاوَاتُ فَنزَلَتْ عَلَيَّ رُؤْيَا مِنْ اللَّهِ.. كَانَ ذَلِكَ فِي السَّنَةِ الْخَامِسَةِ مِنْ سَبْئِي الْمَلِكِ يُوْيَاكِينَ.. وَهُنَاكَ فِي أَرْضِ الْبَابِلِيِّينَ، عَلَى نَهْرِ خَابُورَ، كَلَّمَنِي الرَّبُّ، أَنَا حَزَقِيَالُ بْنُ بُوْزِي الْكَاهِنِ، وَكَانَتْ يَدُهُ عَلَيَّ.. فَتَنَظَّرْتُ إِلَى قَوْقٍ، فَرَأَيْتُ عَاصِفَةً مُقْبِلَةً مِنَ الشَّمَالِ، وَبَرَقًا يَنْفَجِرُ مِنْ سَحَابَةٍ عَظِيمَةٍ مُحَاطَةٍ بِهَالَةٍ مِنَ الضُّوْءِ، وَفِي الْبَرَقِ كَانَ مَا يُشْبِهُ النَّحَاسَ اللَّامِعَ.. وَفِي وَسْطِ الْعَاصِفَةِ تَرَأَى لِي شَيْءٌ كَأَنَّهُ أَرْبَعَةٌ كَانَتَاتٍ حَيَّةٍ تُشْبِهُ الْبَشَرَ.. صَنَعَتْ لَهُمْ بَدَوِي الْأَسَاطِيرِ وَالْأَلْهَةِ وَالْفَرَاعَاتِ الَّتِي تَحَكَمَتْ فِي مَجْتَمَعَاتِهِمْ مِنْ مَكَانٍ لَمْ يَكُنْ، وَمِنْ عَصْرِ لَعَصْرِ، فِي الْبَدَأِ أَفْزَعْتَهُمْ بِحِكَايَاتِ التَّنَانِينِ الْعَظِيمَةِ فَانْتَشَرَتْ تِلْكَ الْحِكَاوِي فِي الْكِتَابِ الْمُقَدَّسِ، وَفِي الدِّيَانَةِ الْفِيدِيَّةِ، وَفِي عَقِيدَةِ الْفِيدَاسِ، وَفِي أُسَاطِيرِ التَّنَانِينِ الْيَابَانِيَّةِ الَّتِي انْدَمَجَتْ مَعَ الْقِصَصِ الْمَسْتَوْرِدَةِ مِنَ الصِّينِ، وَكُورِيَا وَالْهِنْدِ.. ثُمَّ أَشْعَتْ فِكْرَةَ الْأَرْوَاحِ الشَّرِيرَةِ الَّتِي تَلْبَسُ الْحَيَوَانَاتِ وَالْبَشَرَ فَانْتَشَرَتْ بَيْنَ الْأَصْلَاءِ مِنَ الْإِفْرِيْقِيِّينَ وَالْأَمْرِيكِيِّينَ وَالْأَوْرُوبِيِّينَ وَالْأَسْتْرَالِيِّينَ وَالْهِنُودِ عَلَى حَدِّ سِوَاءِ فِي شَتَى الْأَقَالِيمِ، وَعَاشَ الْإِنْسَانُ الْبَدَائِيَّ رَهِيئًا بِمَشِيئَةِ الْأَرْوَاحِ.. ثُمَّ خَلَقَتْ فِكْرَةَ آلِهَةِ الشَّرِّ وَالْحُرُوبِ بَيْنَ الْحَضَارَاتِ الْكُبْرَى، فَجَاءَ سِتٌّ فِي الْحَضَارَةِ الْفِرْعَوْنِيَّةِ، وَشَيْفَا وَزَوْجَتَهُ كَالِي فِي الْحَضَارَةِ الْهِنْدِيَّةِ، وَفِي الْحَضَارَةِ الْبَابِلِيَّةِ رَبَّةُ الْأَرْضِ تِيَامَاتُ الَّتِي اسْتَعَانَتْ بِالطَّوْفَانِ عَلَى حَكْمِ أَقْطَارِهَا وَخَلَقَتْ مِنْ جَوْفِهَا الْحَيَاتِ وَالْحَيْتَانَ لِتُطَوِّدَ سُلْطَانَهَا، وَفِي الْفَارْسِيَّةِ

أهريمان.. حتّى حينَ قررتُم بدوركم خلق مسارٍ روحاني واصطفيتُم الأنبياء وراسلتموهم في صورة وحي ورؤى، كان لا بد من إقحام الفزاعة فانتحلت شخصيات إبليس وعزازيل وسطنائيل وبعلزبول، وانتحلت أنت وفريق شخصيات ملائكية، أطلقتُم عليها جبرائيل، وميكائيل، وغيرهم من الهيئات التي اتخذتموها وأنتم تراسلون المصطفين في بلاد الشّرق التي أنجبت الأنبياء، أما العقلانية الغربية التي بهركم نضجها وعبقريتها في روما وأثينا وغيرهما من بلاد الغرب، فقد أنجبت فلاسفة أغنوكم عن تكرار سيناريو الأنبياء معهم".

اختفت صورة الأطباق الطائرة والمخلوقات الفضائية من عيني الرّجل، وظهرت حدائق غنّاء تجري من تحتها الأنهار، ويحيطها نخل باسقات لها طلع نضيد، وأشجار تتدلّى منها فواكه لا مثيل لها على الأرض، وتتوسطها قصورٌ من الذهب والفضة تطل منها حور عين لا مثيل في جمالهن بين كل النساء، ويطوف حولها ولدان مخلدون مثل اللؤلؤ المنثور، وفي سماء تلك الحدائق كانت هناك أطياف تُشبه أجساد البشر لكنها كانت روحانية، ليشعر الشاب الوسيم أن هناك فارقًا بين أطياف البشر التي في السماء وبين سكان الحدائق الغنّاء، في الوقت الذي قال فيه الرّجل:

"ولأن كل بيئة جغرافية كانت لها أبلغ الأثر في تركيب ساكنيها، اختلف وصف الجنّة في كل دين حسب المكان الموجه إليه.. أخبرنا من يسكنون الصحارى والوديان أن الجنّة بها النساء والخمر لذة للشاربين.. وأخبرنا من يعيشون في أرض الزيتون أنهم سيتحولون إلى أجساد سماوية تسمع موسيقى الفردوس وينظرون إلى الجالس فوق عرش النعمة.. وأبًا ما كانت صورة الجنّة، فقد أطلقنا في نفوسهم الرهبة من يوم القيامة المنتظر وظللنا نغذي لديهم الإحساس بقرب وقوعه.. فجعلنا يوحنا المعمدان يقول مُنذُ أكثر من ألفي سنة: توبوا لأنه اقترب ملكوت ملكوت السماء، وجعلنا المسيح يقول: قد كمل الزمان واقترب ملكوت الله فتوبوا وآمنوا بالإنجيل.. وجعلنا محمد يقول: ويل للعرب من شر

قد اقترب، ورغم مرور مئات السنين، لا يزالون يُصدقون أن هذا اليوم آتٍ!".

فجأةً اختفت صور الحدائق والجنات، ورأى الشاب الوسيم في عيني الرجل جماعاتٍ من البشر تبني برجًا شاهقًا، ثم جماعاتٍ أخرى تصنع طائراتٍ وسفن فضاء، بينما تابع الرجل:

"ولأننا أمددنا هذه الأرض بمخلوقاتنا من السماء، لم يتوقف نسل آدم يومًا عن محاولة بلوغ الأعالي.. حاولوا ذلك حين شرعوا في بناء الصرح الشاهق فبلبلنا ألسنتهم بلغاتٍ عديدةٍ حتى يفشل تواصلهم في أرض بابل، لكنهم لم ييئسوا.. صنعوا من الريش أجنحةً وقفزوا بها من فوق الجبال.. ثم صنعوا طائراتٍ تطير بإمكانياتٍ ظلت تتقدم مع الوقت، إلى أن غزوا الفضاء بسفنٍ وصواريخٍ وصاروا قريبين منا أكثر من اللازم، ثم انتبهت فئة بالغة الذكاء منهم إلى لعبتنا وكوّنوا العقيدة الرأبيلية في فرنسا، وقالوا إن البشر خلّقوا من قبل كائناتٍ فضائيةٍ متقدمةٍ علميًا وحضاريًا، قدّموا من كوكبٍ آخر وخلقوهم بواسطة علم الجينات والهندسة الوراثية وسمى الرأبيليون سكان كوكبنا بالألوهيم، ومن يومها زاد الانشقاق بين فريقَي العلماء في كوكبنا.. الفريق الذي أتبعه أرسلني في مهمة استكشافٍ أعيش بموجبها كواحدٍ منهم، لأراقب مدى تقبل مجتمعات الشرق الأوسط لهذه الفكرة وهل اقتربت معدلات ذكائهم من العقيدة الرأبيلية أم لا، والفريق الذي تتبعه أنت فكّر في صياغة دينٍ جديدٍ يجمع بين الأديان الثلاثة حتى يجذب الانتباه بعيدًا عن كوكبنا وحقيقتنا، ومحاذاكرتك وأرسلك لتعيش بينهم وتجرب محنة الانتقال بين الأديان في سيناريو محكم يقودك لذلك، حتى يروا من خلالك كيف يمكن تغذية هذه الأديان بشكلٍ يتصدى للمعتقد الرأبيلي الذي سيكشف هويتنا، وبكل أسفٍ كان لا بد أن يحدث صدامٌ بيني وبينك بعد انتهاء مهمتنا؛ حتى لا يفطن أحدهم إلى حقيقة الأمر وينشغلوا بالتساؤل عن مصيرنا وأين اختفينا بعد عودتنا.. مؤخرًا حدث اجتماع بين الفريقين اللذين أرسلانا وأخبروني بضرورة العودة وأنت معي بعد

أن حاول فريقك التواصل معك ولم ينجح لخلل مفاجئ حدث في أجهزة استشعارك المزروعة داخلك".

عادت عينا الرجل إلى طبيعتهما وهو يمد يده لتمسك يد الشاب ويجذبه للسير معه قائلاً:

- والآن هيا يا صديقي نعود من حيث أتينا حيث عالمنا الحقيقي.
- تجمد الشاب في مكانه ولم يتجاوب، فنظر إليه الرجل بدهشةٍ وسأله:  
ماذا هناك؟
- باغته الشاب بنظرةٍ صارمةٍ وهو يرد على سؤاله بسؤال:  
إن كنا نحن من خلقنا سكان هذا الكوكب، فمن خلق سكان كوكبنا؟
- ضحك الرجل ضحكةً مجلجلةً، ثم أجاب:  
لا يوجد خالقٌ يا عزيزي.. فنحن من خلقنا سكان هذا الكوكب، وسكان كوكبنا وُجدوا بشكلٍ تلقائيٍّ من غبار الكون الموجود قبل حتى أن يتكون الزمن؛ حيث لم تكن هناك شمسٌ وأقمارٌ لتحدد الليل والنهار.. فقط كان الظلام، ثم حدثت تفاعلات مصادفة وانفجاراتٍ قسمت الكون إلى كواكب ونجوم، بعضها مضيء وبعضها معتم، ومن تفاعل النور والظلام مع تكوينات التربة بدأت الحياة تتشكل بصورٍ وأمطٍ مختلفةٍ، صانعة ملايين التصنيفات التي تعيش لفترة، ثم تموت وتتحول إلى صورةٍ أخرى في تتابعٍ لا نهائيٍّ.
- ظلّ الشاب جامدًا في مكانه ينظر له بارتياحٍ، فقال له الرجل:  
ألهذا الحد نسيت كل شيء؟ أنت بحاجةٍ لعلاجٍ عاجلٍ في كوكبنا إذن، هيا تعالٍ معي.. هناك ستعرف كل شيء بالتفصيل.
- سأله الشاب من جديد:  
وماذا عن آيات؟ هل ستتركها هكذا؟
- ابتسم الرجل بدهشةٍ شديدةٍ وأجاب:





- أيعنيك أمرها؟ لا.. لا تقل لي إنك وقعت في غرام دمية من صنع أيدينا.. إنها لا ترقى لبني جنسنا أيها الساذج.. هل نسيت حبيبتك على كوكبنا؟

هز الشاب رأسه وكأنه يُحاول أن يطرد كابوسًا غير حقيقي من رأسه وقال بضيق:

- فلتعد وجهها إلى ما كان عليه إذن وتنقذها من براثن أولئك الخاطفين!

اتسعت ابتسامة الرجل وهو يُجيب بلهجة غامضة:

- ليكن ما تريد.

ثم أمسك بكتفي الشاب وسحره بعينيهِ من جديد ليرى داخلهما (آيات) وهي تهزول خارج الملهى الليلي الذي كانت مختطفة فيه وقد نزعته عن وجهها النقاب وعاد إلى جماله الذي كان عليه، وما إن وقع نظرها على أول نافذة سيارة وترى وجهها الذي شفي تمامًا حتى تسمرت في مكانها ووضعت يديها على الزجاج لتقرب وجهها أكثر وتُطيل النظر وهي لا تُصدّق عينيها اللتين انهمرت منهما دموع السعادة، قبل أن تتلاشى صورتها من عيني الرجل، في الوقت الذي التمعت فيه الدموع في عيني الشاب قبل أن تنزل كحبات الماس المصهور، ويصاحبها صوت النحيب لا تأثرًا فقط بروية وجهها الوضاء من جديد وقد استعاد شروقه وإشراقه، بل لأنها لن تعود له كما كان يتمنى.

"كما رأيت.. مصائرهم بالنسبة لنا كن فيكون.. فطاقة تفكيرنا قادرة على تبديل أحوالهم في أقل من غمضة عين، وعندما نعود لعالمنا سترى ما هو أكثر.. هيا بنا".

قالها الرجل وهو يمسك بيد الشاب من جديد ويسير معه، وقد استسلم الأخير له تمامًا لتتراق خطواتهما ويتبعدا عن المكان.

"خدعة رائعة، لكنها لن تكتمل ما دُمْتُ حيًّا".

ترددت الكلمات بصوت الشيخ (خضر) هذه المرة، ليلتفت الشاب خلفه في لهفة وسعادة، وينتزع يده من يد الرجل ليجري نحو معلمه

كطفل تائه عثر على والده بعد شهرٍ من البكاء، بينما تجمّد الرجل في مكانه وظلّ معطيًا ظهره للشيخ لنصف دقيقة، قبل أن يلتفت ببطء، وقد أضاءت عيناه الزرقاوان كعيني قط، فيما كشر عن أنيابه التي سال الزبد منها كذئب يتأهب للانقضاض:

"ماذا تريد مني أيها المُسن الخرف؟".

قالها الرجل بلهجة رهيبة لا تُشبه أبدًا أصوات البشر، وإن تشابهت مع تحفز القياصرة والأباطرة حين يدقون طبول الحرب، ثم تقدم نحو الشيخ وهو يتابع بصوته المثير للرجفة حتى إن شعر الشاب تطاير إلى الخلف مع كلماته التي لازمتها الرياح، قبل أن يجيب (الخضر) الرجل بنبرة هادئة:

- لا أريد شيئًا.. أنت الذي تريد.. مُنذُ بدء الخليقة وأنت وبنو جنسك تصنعون الأساطير وتتلاعبون بوثائق التاريخ لتضربوا بها مصداقية الأديان، وتُغرقوا البشر في الحيرة والتخبط حتى يظلّوا طوعًا لكم ولعبة في أيديكم القذرة، تمامًا مثلما تُحاول الآن اللعب في دماغ هذا الشاب الطيب لتصطحبه معك إلى الجحيم.

اتسعت عينا الشاب في ذهول، بينما عقد الرجل حاجبيه وقال بغلظة:

- فلتتركني أصحابه معي أو تحتفظ بجثمانه.

ورغم دقة الموقف، ابتسم الخضر ساخرًا وسأله بتحد:

- لماذا لا تصحبنى معك بدلًا منه؟

صرخ فيه الرجل:

- لا حاجة لي بمُسنٍ مثلك.

ثم وجّه لكمةً مباغتةً إلى وجه الشيخ، وفي لمح البصر مدّ الشاب يده ليتلقى اللكمة على ساعده حتى يحمي وجه معلمه، قائلاً بكل غضب الدنيا:

- الآن عرفت من أنت.

قبل أن يوجه بدوره نحو الرجل لكمةً أودع فيها كل قوته..



وبسهولةٍ وخفة، أمسك الرّجل قبضة الشّاب وقبض عليها بأصابعه الغليظة فتوجّع الشّاب بينما مصمص الرّجل شفّتيه ساخرًا:

- تؤ تؤ تؤ تؤ.. فلتنس أيام الماضي التي ولت وانتهت أيها المسكين.. (تلتمع عيناه بالشّر ويُضيف بلهجةٍ قاسيةٍ) صاحب الضربة القوية اليوم هو أنا.

ثم لكم الشّاب لكمةً ساحقةً جعلته يطير للخلف قبل أن يسقط ويمسح الأرض وهو يحتك بها لأمتارٍ طويلة، فيما قال الرّجل وهو يتقدم نحوّه وكل خلجة من خلجات وجهه تنتفض غضبًا:

- هزمك قلبك وتسببت مشاعرك في سفك الدّماء وإزهاق الأرواح.. والآن وقد تملكك منك الخطيئة فقدت قوتك التي كانت تميزك، وصارت كلمتي هي العليا.

أصبحت قدما الرّجل عند رأس الشّاب الذي يُحاول الصعود بصعوبةٍ، فجذبته من شعره قائلاً:

- كل الحمقى الذين عرفوك قالوا عليك ملاك.. لكن من الذي قال إن الملائكة لا تنهزم؟!

ثم قفز لأعلى ممسكًا برأس الشّاب قبل أن يهبط به ويدبه في الأسفلت دُبًا لتسيل منه الدّماء وهو يتأوه بشدة، وبدأ بعدها في لكمه وركله بلكماتٍ وركلاتٍ متتالية، ليتلقى الشّاب اللكمات والركلات دون أية مقاومة حتّى سالت منه الدّماء وأغرقت ملامحه تمامًا، وفجأة هوت يد الشّيخ (خضر) على كتف الرّجل من خلف ظهره ليجذبه نحوّه، ويكيل له لكمةً بدت أقوى من سنوات عمره بكثير، حتّى إن الرّجل اتسعت عيناه وهو يطير للخلف ويسقط أرضًا، قبل أن يقفز (الخضر) ويدهس وجهه بحذائه قائلاً:

- هذه من أجل آدم.

ثم هوى على وجهه بلكمةٍ أشد:

- وهذه من أجل حواء.

ثم هوى بلكمةٍ ثالثة:

- وهذه من أجل هابيل.

وفي اللكمة الرابعة صاح:

- وهذه من أجل هذا الفتى.

وفي مكانه بكى الشّاب وهو طريح الأرض متسائلًا في نفسه:

- أهذه قوة من لم يقعوا في الخطيئة؟

توقف (الخضر) عن معركته ونظر للشّاب وهو ينهج قائلاً:

- بل قوة من سقطوا وتابوا يا ولدي.. يا من عدى، ثم اعتدى، ثم اقترف.. ثم استحقى، ثم انتهى، ثم اعترف.. أبشر بقول الله في آياته: إن ينتهوا يُغفر لهم ما قد سلف.

نظر الشّاب للسماء مجددًا وقال بصوتٍ لم يخلُ من نبرته الباكية وهو ينهض من سقطته متوجهًا بكل قلبه إلى الأعالي:

- يا رب.. أستغفرك وأتوب إليك.

ومع آخر حرف من كلمات الشّاب، نهض الرّجل من سقطته وسرعان ما تراجع للوراء قبل أن يفر ويطلق ساقيه للرياح وهو يردد ضحكاتٍ ساخرةً مجلجلةً ظلّ صداها في الشّارع حتّى بعد اختفائه من المكان تمامًا.

ابتسم الشّاب للخضر بامتنانٍ عجز لسانه عن تحويله إلى كلمات، فيما منحه (الخضر) ابتسامةً مماثلة، ثم نظر إلى السماء هامسًا بخشوع:

- إلهي! من توكل عليك فلن يخيب، ومن جعلك ملاذ فلن يضيع، ومن اعتصم بك فقد هُدي إلى صراطٍ مستقيم.. فكُن لنا وليًا ونصيرًا.. وكُن لنا مُعيّنًا ومُجيرًا.. إنك كنت بنا بصيرًا.

وفي تلك الأثناء، كان هناك طيّفٌ رقيقٌ يقترب من خلف الشّاب حتّى انعكس نوره المشع على وجه (الخضر) فلاحت من الشّاب نظرة للخلف، ليقع نظره على رجلٍ يبدو وكأنّ النور يشع من وجهه وعينيه، وقد ارتدى ملابس بيضاء فضفاضة واسعة، ليتضح من تحتها جسده الفارع الضخم الذي زاد من هيئته، ليطول بينهما النّظر لدقيقة كاملة،



وعندها فقط... بدأ الشَّاب يسترد ذاكرته المفقودة ولمعت فيها ومضاتٌ حملت أثر حديث سابق.

– كيف حال أهل الأرض؟

– كما ترى يا سيدي.. حتَّى الأماكن المقدسة يطردون منها بركات الرّب بالدنس والرجز.

– هذه طبيعتهم التي جُبلوا عليها.

– ليتني ظللت أعذبهم ولم أتعاطف معهم.

– ربما أدركت في مهمتك الجديدة أموراً ما زلت لا تدركها بعد كل تلك السنين التي عشتها بينهم.. لفترة من الزمن ستعيش حياة البشر.. ربما ظلّت داخلك ملامح من علومنا وقدراتنا.. لكن بما يفيد ذلك حين تُغرس داخلك الشهوة والغضب والقدرة على المعصية.. باختصار، ستحيا بينهم كأنك واحدٌ منهم.

– حاشا لله أكون منهم أو مثلهم.. تُرى، ما موعد التنفيذ؟ ومتى سأعود؟

وحين اكتملت ذاكرة الشَّاب ردد بانبهار:

– رباااااه! يا لها من رحلة!

ثم التفت للشيخ (خضر) وقال بانبهار:

– أكنت تعلم كل شيء من البداية؟

نظر (الخضر) للرجل المهيب بابتسامةٍ واسعة، ثم أجاب الشَّاب:

– يبدو أنك لم تستعد كامل ذاكرتك بعد.

ثم خلع عمامته، واقترب من الشَّاب أكثر قائلاً:

– لقد التقينا منذُ مئات السنين.. هناك، في عصر الشهداء.

ثم تحولت هيئة الخضر إلى هيئةٍ أخرى غير بشرية.. واتسعت عينا

الشَّاب في ذهول تام وبدأت الومضات تعمل أمام عينيه من جديد..

حين هبط من السماء بسرعةٍ تفوق إدراك البشر ولم تخلق بعد الألفاظ والتشبيهاً القادرة على وصفها، في مهمةٍ جديدةٍ لإنقاذ أحد

القديسين في عصر الإمبراطور الروماني الشهير (دقلديانوس) الذي أمر بهدم الكنائس وإزالتها من الوجود، وحرق الأناجيل، وقتل المسيحيين..

تجمعت الجنود على باب ذلك الدير السري الذي أسسه ذلك القديس بعد أن ترهب في عبادته للرب، ودعا الأقباط إلى عبادة الله في الصحارى وصومعته التي لا يعرفها سوى ثلة من المؤمنين للحفاظ على الدِّين من الزوال..

وحين همّ ملاك الرّب النُّوراني بالتعامل مع جنود الإمبراطور الباطشين لإنقاذ ذلك القديس العابد، فوجئ بكُراتٍ من النَّار تهوي على الجنود لتبيدهم في ثوانٍ معدودة، لينجو واحد فقط منهم قبل أن يتجسد كياناً هلامياً من النَّار أمامه ويصيح فيه بصوتٍ أجش عميق:

– أخبر إمبراطورك أن لهؤلاء المستضعفين مخلوقاتٍ وهبت نفسها للذود عنهم بعد أن آمنت بما يؤمنون، وسخرت من أوثانكم الضَّالة.

ليصرخ الجندي الناجي ويركض في الصَّحراء كالممسوس، قبل أن يظهر ملاك الرّب النُّوراني لصاحب الكيان الهلامي النَّاري ويسأله:

– من كلفك بما فعلت؟

«الرّب».

أجابه الكيان الهلامي النَّاري بنبرةٍ واثقةٍ لم يتردد أو يفكر قبل أن ينطقها، لتتسع عينا ملاك السماء في دهشةٍ متسائلاً:

– كيف؟ هل همَّجد اسمك بالحديث معه؟

أجابه الكيان الهلامي:

– كلام الرّب غير مرتهن بالحديث المباشر مع مخلوقاته يا ابن النُّور، فصوته يتردد في أعماق كل نفسٍ مؤمنة لينبع من إيمانها وأوامرٍ تلي على صاحبها ما يجب القيام به.

– وماذا عن قومك؟ هل سمحوا لك بالإيمان بالمسيح ومناصرة أتباعه؟

ابتسم الكيان الهلامي وأردف:



- نعم، واليوم صار عدوي الأكبر.. يبدو أن هناك مشكلات بين أبناء العمومة دائماً!
- سأله الشاب:
- هل فعلاً شُفيت آيات؟
- كلا بكل أسف، لقد كان يخدعك.
- التفت الشاب نحوَ رئيسه المهيب، وقال له بتوسل:
- كيف انتهت مهمتي عند هذا الحد؟ لا بد أن أساعدها.
- أجابه الرجل المهيب:
- لقد انتهت مهمة السماء عند هذا الحد.. حان الآن دور الأرض.
- قال له الشاب بتوسل:
- أريد أن أبقى على هيئتي البشرية.. لقد تعلمت ما يمكنني أن أغير به من حياتهم حتّى أخرجهم جميعاً من هذا الظلام الذي يعيشون فيه.
- ابتسم الرجل وأجابه:
- "وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبَسُونَ" .. عليهم أن يجدوا الحل بمفردهم.
- هل تعتقد أنهم يستطيعون؟
- لا يوجد من هو عاجزٌ وضعيفٌ.. لكن هناك من يجهل سر قوته.

\*\*\*

- ربما حان الوقت لي تجرب أمثالي معنى العذاب والاستشهاد في سبيل ما آمن به.
- عقد ملاك الربّ التوراني حاجبيه وهو يتأمل صاحب الكيان النَّاري الهلامي، ثم قال له:
- وربما جاء الوقت لي قدم بنو جنسي خدماتهم لمخلوقاتٍ أخرى غير البشر.. لقد نذرت نفسي لحمايتك من بطش بني جنسك الكفار.
- سأله صاحب الكيان النَّاري:
- بدون تكليف إلهي؟
- ابتسم الملاك التوراني مجيباً:
- كلام الربّ غير مرتَهَنٍ بالحديث المباشر مع مخلوقاته.
- وحيث عاد الشاب من ذكرياته الغابرة ابتسم (الخضر) وقال:
- يقول أهل هذه المدينة: "كله سلف ودين.. قدّم السبت تلاقي الحد"، ويبدو أن هذا المثال صار ينطبق علينا من الآن.. فقد تنكّرت منذُ هذا اليوم في هيئة البشر وساعدتني بدورك في ذلك حتّى صرتُ واحداً من أقدم سكان الإسكندرية، وأكثرهم إلماماً بالتاريخ الحي الذي عاصرته بنفسي ولم أقرأه عبر الكُتُب، حتّى جاء موعد الذي انتظرتُه منذُ آلاف السنين.
- عقد الشاب حاجبيه وسأل بدهشة:
- انتظرتُه؟
- نعم.. فقد كنتُ من أولئك الأشرار الذين كانوا يتجسسون على الملأ الأعلى، وعلمتُ بأمر ما سيحدث لك من حديث دار هناك بشأنك.. وقبل توبتي كنتُ واحداً ممن شاركوا في مهمة يوم القيامة، التي أبطلتها أنت والملائكة بعملية الرق المنشور حين قبضت على عمي القائد الأكبر وفر منك ابنه الذي كاد يغويك الآن، وجاء إلى الأرض خصيصاً لأجلك.
- ابن عمك؟
- ضحك الخضر وأجاب:

فغر (ريمون) فاهه لثوانٍ وتبادل النَّظر مع (نصحي)، ثم قال بدهشة:

- هل كنت تعلم المكان؟

نفث الرَّجل دخانه بشروءٍ دون أن يلمح كلاهما تلك النيران التي يلمح ضيها في عينيه قائلاً:

- نعم.. لكنني كنتُ أريد أن تسقط تلك المرأة العجوز قبل موتها الذي كان حتمياً، بعد أن علمت الكثير.

هزَّ (ريمون) كتفيه في حيرةٍ وقال:

- أنا لا أفهم شيئاً.

التفت إليه الرَّجل وقال ببرود:

- لا تشغل بالك.. دعنا نسترد أشياءك في أسرع وقت.. فالافتتاح خلال يومين.

تهللت أسارير(ريمون) وهو يشعر بأن حملاً ثقيلاً قد سقط عن كاهله، وابتسم بتشفُّ وهو ينظر نحوَ (آيات) قائلاً:

- غداً سنصحب فاتنة الحي ذات الوجه البهي لتجلب لنا الأمانة من داخل الكاتدرائية.. لا تنسي أن تداري وجهك يا أميرتي حتَّى لا تفتني القسيسين!

نفث الرَّجل دخانه من جديدٍ قائلاً:

- سأنتظركم في الخارج.

سأله (نُصحي):

- لماذا؟

منحه الرَّجل نظرةً ناريةً أرعبته، ثم قال:

- لا بد أن يقف أحدنا خارج المكان لتأمين الموقف.. لا تقلقا.. سيمضي كل شيء كما هو مخطط له.

\* \* \*

تجددت كوايبس (آيات) في تلك الليلة الليلية، بعد أن خسرت كل شيء، وباتت في حُكم الهالكين..

## (35)

استقبل العقيد (يحيى) أمام غرفة العمليات الطَّبيب الذي انتهى للتو من إجراء جراحة عاجلة لـ(إريني) وسأله باهتمامٍ بالغ:

- ما الأخبار يا دكتور؟

نزع الطَّبيب الكمامة من على وجهه وقال في أسى:

- لقد توفي ابنها قبل وصوله إلى المستشفى، أما هي فنجت بمعجزةٍ لكن حالتها خطيرة.

ثم انفتح باب حجرة العمليات لتخرج مجموعةً من الممرضات وهن يسحبن ترولي ترقد فوقه (إبريني) الغارقة في غيبوبة عميقة، ليلقي العقيد نظرة عليها قبل أن يسأل الطَّبيب:

- تُرى، متى سيمكنني أن أسألها؟

أجابه الطَّبيب بلهجةٍ رتيبةٍ روتينية:

- لا يمكنني أن أخبرك بموعِدٍ محددٍ الآن.. فلندع الله أن تعيش أصلاً.

\* \* \*

دخل الرَّجل المرئيب مكفهر الوجه، على (ريمون) و(نصحي) في بدروم الملهى، بينما تم حل وثاق (آيات) التي جلست سارحةً بوجهٍ شاحبٍ حاكي وجوه الموتى، قبل أن يقول (ريمون) بجذل:

- لن تصدق أين كانت تُخبئ الأسطوانات والشيكات.. الهانم وضعتهم... قاطعه الرَّجل بلهجةٍ غير مكترثةٍ وهو يشعل سيجاره معطيًا له ظهره:

- في الكنيسة.



ودون أن تنجح يدها التي وضعتها على فمها في كتمها، وفي نهاية القُدَّاس تقدمت (آيات) لتتناول من جسد المسيح وتشرب من دمه، وهي تنظر إلى الصليب بعينين دامعتين، ولم يتناول (ريمون) أو (نُصحي).

وبعد أن غادر الشَّعب الهيكل، وصل ثلاثتهم إلى غرفة القُمص (يوسف) التي كان يقف على بابها خادم عجوز طاعن، فقالت له (آيات):

- أريد أبانا يوسف في موضوع ضروري لو سمحت.

سألها الخادم:

- من حضرتك؟

- آيات صديقة دميانة.

- لحظة واحدة.

طرق الخادم باب الغرفة ودخل، ثم خرج بعد ثوانٍ قائلاً:

- تفضلي يا ابنتي.

دخلت (آيات) الغرفة، وهمَّ الخادم بغلاق الباب لكن (ريمون) و(نصحي) أزاحا يده ودخلا بصلفٍ، وأغلقا الباب خلفهما بينما ينظر إليهما الخادم بدهشة.

وداخل الغرفة جلس القُمص (يوسف) على مكتبه وفي المقعد المقابل جلست (آيات)، بينما وقف كل من (ريمون) و(نصحي)، قبل أن يقول رجل الكنيسة الوقور:

- الله يُقدِّس روحك يا (دميانة).. رغم أي شيء كانت امرأةً حنونًا تبرعت بكل ما تمتلك للفقراء والمحتاجين.. لن أنسى ما حييت آخر كلمة قالتها لي: لقد عرفت الرسالة التي جئت من أجلها، ولست في حاجة إلى البقاء أكثر من ذلك.

بكت (آيات) بتأثر رغماً عنها، فنظر إليها (ريمون) بقسوةٍ وقالت لها عيناه: "انجزي"، فأجابته بنظرةٍ خائفةٍ: "حاضر"، ثم قالت للقُمص بضعف:

- قدَّس الله روحها يا أبانا.. لقد أخبرتني بأنها تركت لي في أمانتك حقيبة سوداء تخصني.

من جديد أخذت تعزف مقطوعة لحظة دخول الجنة، بينما يتعثر فتاها الوسيم فوق الجسر الذي تفور من تحته حمم الجحيم، لينهار الجسر فجأة من أسفله قبل أن يصل إلى نهايته بخطوةٍ واحدة، لكن في هذه المرة إذا ب(آدم) يقفز نحوَه قفزَةً هائلةً ويمد يده ليمسك به ويُنجيه من السقوط، بينما نظر الشاب للأسفل وهو يتأرجح، وشاهد المصير الذي كان في انتظاره، ليتنفس الصُّعداء، ثم يصعد بمعونة (آدم) ويشكره بامتنان.

ثم نظر لعينيهما الباكيتين بعد أن توقفت عن العزف، وطلب منها أن تعزف من جديد!

وعند تلك اللحظة استيقظت من نومها العميق، وفي عينيهما دموعٌ ساخنة، لكن دقات قلبها كانت منتظمة الإيقاع وهي تشعرُ بحالةٍ غريبةٍ من الطمأنينة لا تعرف سرها أو مصدرها.

\*\*\*

احتجبت أشعة الشمس خلف غيوم السحب ليبدو صباح ذلك اليوم لو كان غروبًا، قبل أن تبدأ الأمطار في الهطول مع حلول النوبة، في نفس لحظة انطلاق أجراس الكاتدرائية التي أعلنت عن بدء القُدَّاس بالتزامن مع توقف سيارة (ريمون) الفاخرة أمام البوابة، ليغادرها مع (نُصحي) و(آيات) التي تخلت عن نقابها وارتدت فستانًا محتشمًا، وغطت شعرها وجانبي وجهها المشوه بطرحة عريضة، في حين بقي الرجل ذو العينين الزرقاوين على مقعد القيادة.

على أبواب الكاتدرائية دخل عددٌ من شعب الكنيسة حاملين مظلاتٍ مفتوحةً لتقيهم ماء المطر، وخلفهم دخل (ريمون) بنظراتٍ متأهبة، وبينه وبين (نُصحي) سارت (آيات) في ضعفٍ واستسلام؛ كغزاةٍ مُحاصرة بين أسدين.

ما إن أصبحوا داخل الكنيسة حتَّى نظرت (آيات) باكيةً لصورة المسيح، وبكت في القُدَّاس كما لم تبتك من قبل، حتَّى تحول باكؤها، لنحيبٍ شديدٍ ونهنيةٍ لم تستطع نظرات (ريمون) و(نُصحي) كبح جماحها،



قالها القمص (يوسف) بابتسامة أبوية، فالتفتت إليهما وقالت بنبرة من لا تصدق ما يحدث حولها:

- الله يسلمكما من كل سوء.. (سالت من عينها الدموع وتحولت نبرة صوتها إلى بكاء وهي تكرر) الله يسلمكما.

نظر (الخضر) إلى القمص (يوسف) قائلاً:

- حمدًا لله على سلامتكم يا أبانا.

ضحك القمص وهو يعانقه:

- البركة فيك فضيلتك.. فأنت الذي نبهني لمحتوى الأسطوانات وأبلغت معي الشرطة.

وبينا سحبت القوات (ريمون) و(نصحي) للخارج، قال العقيد (يحيى) ل(آيات) في تعاطف:

- زوجة والدك نجت بمعجزة، وأخبرتني بأن (ريمون) و(نصحي) هما اللذان قتلوا ابنها وحاووا قتلها، وبتفريغ كاميرا المراقبة في مكتبها تأكدنا تمامًا من براءتك أنت وفتاك المثير للمصائب من دماؤها هي وابنها.. لكنه متهم في دماء أخرى.

انتفضت مع ذكر سيرة الفتى، وقبل أن تنبس بنبت شفة تابع العقيد:

- هيا اذهبي إليها في المستشفى فوراً؛ لأن حالتها حرجة.. لقد طلبت رؤيتك وقالت إن لديها سرًا خطيرًا تريد أن تقوله لك قبل أن تموت.. وبعد زيارتها أريدك في مكنتي.

\* \* \*

وقف الرجل المريب خارج السيارة بالقرب من بوابة الكاتدرائية يدخل سيارته بتربُّب، قبل أن يرى فجأة القوات تصطحب (ريمون) و(نصحي) إلى الخارج، دون أن يعلم كيف دخلا وأين كانا مختبئين ليتراجع للوراء بسرعة في اللحظة التي غادرت فيها (آيات) الكاتدرائية وهي تركض حتى توارت عن الأنظار..

نظر القمص لـ (ريمون) و(نصحي) وتأمل ملامحيهما قبل أن يسأل (آيات) بغتة:

- تمام يا ابنتي، لكن أود أن أسألك أولاً: هل في الحقيقة ما يخص هذين الأخين؟

لجمها سؤاله المفاجئ، فنظرت لـ(ريمون) و(نصحي) بتساؤل، قبل أن يجيب (ريمون) وهو يتحسس مسدسه:

- ما لزوم هذا السؤال يا أبانا؟ ألا يجب أن تعود الأمانة لأصحابها دون تدخل من الآخرين؟

ابتسم القمص بحذر وأجاب:

- طبعًا يا بُني بلا شك.. لكن هذا إذا كانت الأمانة تخص أشخاصًا بعينهم، ولا تحوي في طياتها أسرار دولة.

بُهِت (ريمون) من إجابته وأشهر مسدسه بشكلٍ مبالغٍ وصوبه في وجه القمص صائحًا:

- إذن فقد فتحت الأسطوانات يا أبانا.

شهقت (آيات) قبل أن يفتح الباب فجأة ليدخل منه العقيد (يحيى) ومعه قواتٌ سيطرت على الموقف في ثوانٍ وقبضت على (ريمون) و(نصحي) قبل أن يقول العقيد:

- نحن الذين فتحناها يا أذكي إخوانك، واطلعنا على الأسرار التي حصلت عليها مومساتك من أبناء كبار المسؤولين.. كنت تنوي بيعها للخارج مملابين، أليس كذلك؟

سقط المسدس من يد (ريمون) وهو ينظر للعقيد بصدمةٍ شديدة، بينما وضع أحد الضباط الكلابشات في يده هو و(نصحي)، قبل أن يشق الشيخ (خضر) طريقه وسط الجنود ليصبح داخل مكتب القمص قائلاً بفرحةٍ وسعادةٍ وهو ينظر لـ(آيات):

- حمدًا لله على نجاتك يا ابنتي.

لم تستطع أن ترد عليه وهي تتأمل ما يحدث حولها وكأنه حلم.

"الشيخ يقول لك حمدًا لله على نجاتك يا آيات".



من قال "لا" .. فلم يمتّ..

وظلّ رؤيًا أبدية الأمل!

ثم أخذ يقهقه قهقهات مجلجلة وهو يتراجع حتى اختفى.

\* \* \*

ظلّ الرجل المرّيب يتراجع للخلف لئبتعد عن المشهد قبل أن يصطدم فجأةً بشخصٍ ما فالتفت وراءه ليلقي نظرة، وحينها فقط اكتشف أنه اصطدم بالشّابّ الوسيم الذي نظر له بشماتةٍ وثقةٍ بالغةٍ، في حين ارتسم الرّعب والهلع على ملامح الرّجل، قبل أن يكفّ الشّابّ عن الابتسام، ثم قبض بشكلٍ مفاجئٍ على عنق الرّجل المرّيب وقد تحوّلت ملامحه إلى الغضب والصرامة قائلاً:

- إلى هنا وانتهى دورك.. هذه هي التّهاية.

حاول الرّجل التملص قائلاً بصعوبة:

- نهايتي ليست بيدك أنت.. سأظلّ باقياً ما داموا باقين.

ضغط الشّابّ على عنقه أكثر قائلاً بغلظة:

- سأعزلك عنهم على الأقل.

تحشّج صوت الرّجل وإن لم يخل رغم ذلك من نبرة التّحدي وهو يقول:

- لو خيّرتهم في ذلك لمنعوك.. فمن الذي سيذبحونه على مذبح الضّمير ويحملونه كل الخطايا والدّنوب حتى يريحوا ضمائرهم ويرثوا ساحتهم من الدّنوب والخطايا.. الأمر في حاجةٍ إلى استفتاء كوني لو كنت تستطيع.. سألهم في السّماء لو كانوا يوافقون على فعلتك التي لم ترجع فيها إليهم.

صمت الشّابّ ثواني تخطى فيها عن غضبه، ثم ترك عنق الرّجل قائلاً

بتوعد:

- سنلتقي مجدداً.. يكفي أن مخططك قد فسد هذه المرّة وكان كيدك ضعيفاً .

إلا أن الرّجل قابل توعد الشّابّ بصوتٍ ساخر لم يخل من الشّراسة مُردداً:

- المجد للشيطان.. معبود الرياح<sup>(١)</sup>.

من قال "لا" في وجه من قالوا "تعم".

من علم الإنسان تمزيق العدم.

(١) من قصيدة (كلمات سبارتوكوس الأخيرة) للشاعر الراحل أمل دنقل.





- أنا التي لم تُصدق نفسها حينَ صرختِ وحاولتِ منعهم من قتلي  
أنا وابني رغم ما فعلته بكِ.. (بكت بحرقَةٍ وتابعت بصعوبة) أمير مات  
وأنا في طريقي للحاق به.. أتعدينني أن تسامحيني لو رددت إليكِ حَقكِ؟  
نظرت لها (آيات) بحيرةٍ ووجوم، فمدَّت (إيريني) يدها بضعف  
لتمسك يد (آيات) قائلَةً بخفوتٍ وتهالك:

- عديني أرجوكِ ولا تجعلينا نضيع الوقت المُتبقّي في توسل ورجاء..  
فلديَّ سرٌّ خطيرٌ أريد أن أخبرك به.

عقدت (آيات) حاجبها بحيرةٍ، ثم قالت:

- سامحتك.. ما السرُّ؟

- صالح بالفعل لم يكن والدك.. هذه النقطة تحديداً لم أكذب عليكِ  
بشأنها.

اتسعت عينا (آيات) بدهشةٍ، وهي تقول:

- ماذا تقولين؟

- سأصف لك مكان الخزينة التي تحوي كل أوراقِي المهمة في الفيلا،  
وكلمة السرِّ الخاصة بها.. هناك ستجدين الوصية الأصلية التي كتبها لك  
قبل أن نُغيِّرها أنا وشوقي.

وبعد أقل من ساعة، كانت (آيات) تقف بمفردها أمام الخزينة في  
الفيلا، وفي يدها نصُّ الوصية الأصلية التي أصبحت مجرد وُريقات قديمةٍ  
باليةٍ، تتطلع إليهم بعينين زائغتين غير مُصدقةٍ ما تقرأ.  
"آيات".

لم تصدق أذنيها حينَ التقطت صوت فتاها الوسيم، وتسلسل شذا  
عطره إلى أنفها لتلتفت نحوهٍ ببطءٍ وهي تُغالب هواجسها بأن كل ما  
تشعر به مجرد تهيؤات، فإذا به بالفعل واقفٌ أمامها في شموخ!

تأرجحت خلجاتُ وجهها ما بين الفرحة الغامرة والرهبة والذهول  
قبل أن تسأله بنصف وجه سعيد، ونصف وجه منبهر وهي تمد يدها  
نحوَ وجهه ببطء:

- أما زلت حياً؟

## (36)

افتحمت (آيات) استقبال المستشفى وهي تركز نحوَ السلام  
متجاهلةً المصعد، حتّى وصلت إلى الدّور الرابع حيثُ ترقد زوجة والدها  
في غرفة العناية المركزة.

وفي الممر، أخذت تجري بين الغرف بلهفةٍ عارمة وسرعةٍ شديدة،  
حتّى وصلت أمام غرفة (إيريني)، وقبل أن تدخل اعتراضتها إحدى  
الممرضات قائلَةً:

- ممنوع يا أفندم.

إلا أن (آيات) أزاحتها من طريقها بغلظة وهي تصيح فيها:

- موضوع حياة أو موت، ابتعدي عن طريقي!

ثم فتحت الباب وسارت بترقب وحذر وهي تتجه نحوَ سرير  
(إيريني) التي زالت عنها أناقتهَا، وغرب جمالها المصطنع حينَ خلا  
وجهها من المكياج، وباتت هامدة الحراك، ترقد بين يدي الخالق، تنتظر  
حكمه ومشيتته، وقد تم توصيل جسدها بجهاز رسم القلب، وتم تعليق  
المحاليل الطّبية لها.

ما إن أصبحت (آيات) أمام السرير الذي ترقد عليه زوجة أبيها  
حتّى اقتربت من وجهها، ونظرت إليها بعينين دامعتين قائلَةً:

- لم أصدق نفسي حينَ أخبرني العقيد يحيى بأنك تريدني.

أجابتها (إيريني) بضعفٍ:

ابتسم وأجاب:

- الآن فقط يمكنني أن أرفع من عليك النسيان.

ثم مدَّ يده ووضع رأسها بين راحتي يده، وعاد كلاهما بالزمن لسنوات.. وخلال رحلة العودة شعرت (آيات) أن كل ما تمر به مجرد فيلم لا تخص أحداثه حياتها الماضية، حتَّى إنها شعرت بموسيقى تصويرية لأغنية "Stolen Child" التي طالما عشقت سماعها لـ Loreena McKennitt.

- الطفل الصَّغير (أيمَن) ابن صاحب السَّيارة الرمسيس يظهر فجأةً أمام السَّيارة المرسيديس الخنزيرة التي يقودها والدها الحقيقي عندما كان مسافرًا معها هي ووالدتها..

- السَّيارة تتفادى الطَّفل وتنقلب..

- الشَّاب الوسيم يقتحم السَّيارة فجأةً وينقذ الطَّفلة (آيات) ويظلُّ يتدحرج معها قبل أن يغادرا السَّيارة.

- الشَّاب والطَّفلة يتحدثان في السَّماء وقد تحولا إلى طيفين نورانيين.

- الشَّاب يضع يده على رأسها ليلقي عليها النسيان..

- عم (صالح) المزارع البسيط، يجدها وهي صغيرة فاقدة الوعي في قلب الزراعات فيحنني ليحملها مُرددًا في توترٍ لا مثيل له: "بسم الصليب"، قبل أن يجد في رقبته سلسلَةً ذهبيةً مُعلَّقا بها اسم "آيات".

- في الوحدة الطَّيبة المتواضعة الخاصة بالأرياف يفحص الطَّبيب الطَّفلة (آيات) وهي نائمة وعلى وجهها الكدمات والسحجات قبل أن يسأل عم (صالح): "هل أنت والدها؟" فيتلعثم الفلاح البسيط وقد بوغت بالسؤال قبل أن يجيب: "ها؟ آآآ نعم".

- عم (صالح) يعود بالطَّفلة (آيات) إلى داره البسيطة ويضعها على سريرهِ المتواضع ثم يغطيها بحنانٍ جارِفٍ.

وذهبت (آيات) مع الشَّاب الوسيم إلى مقابر الثغر لتزور الرِّجل الذي عاشت عمرها كله وهي تظن أنه والدها، وانهارت من البكاء أمام قبره، ثم أخرجت من حقيبتها وصيته واستكملت التذكرة..

- طعن عم (صالح) في السن، ورقد على فراش الموت، ليقول لـ (شوقي) المحامي الذي يكتب وصيته: "أكتب لها في الوصية أن تسامحني؛ فقد كان كل همي أن أربيها وأكبرها بعدما ضاقت بي الظروف ولم أجد من تتزوج بأسًا مثلي.. ما إن سمَّيتها (آيات) على نفس الاسم الذي وجدته في سلسلتها الذهبية وشرعت في تربيتها، حتَّى انفتحت لي أبواب الرزق على مصاريعها؛ لذا أوصي بأن ترث نصف ثروتي، والمكان الذي وجدتها به ستجده مذكورًا بالتفصيل في الوصية حتَّى تعود إليه وتسال عن أصحاب الحادث الذي وقع في الليلة التي وجدتها فيها".

سالت دموع (آيات) أكثر وأكثر أمام القبر وهي تثنى ورقة الوصية بعدما فهمت الأحداث، ثم تأملت السلسلة الذهبية القديمة التي كانت تتقلدها عند وقوع الحادث، واحتضنتها بتأثرٍ شديدٍ وكأنها تضم بذراعيها والدها ووالدتها الحقيقيين اللذين لم تعرفهما، وإلى جوارها كان يقف الشَّاب الوسيم..

نظرت له باكيةً، فقال بابتسامةٍ هادئةٍ ونبرةٍ يملؤها الإيمان:

- مُنذُ نبتتكم الأولى في الأرحام ونحن معكم.. نكلمكم وتكلموننا.. نراكم وتروننا.. نُعرِّفكم أسرار الكون، ونُطلِّعُكم على مسار حياتكم بأكملها من البداية للنهاية، حتَّى تأتي ساعة لا بد فيها أن نسحب كل ما تعلمتموه من ذاكرتكم حتَّى تتعلموا كيف تصلون إلى الحقيقة بمفردكم، وتعيشون على الأرض بدون معونة السَّماء، وهذه هي محنة الاختبار. قالت له بتوتر لا حد له:

- لكنني علمت الآن كل شيء.. هل معنى ذلك أن اختباري قد انتهى؟

- اختبارك لم ينته، وما علمتيه سيضيعُ من عقلك مرةً أخرى حتَّى تصلي إليه بمفردك.. أو لا تصلي إليه أبدًا.

تلاًلأ الدَّمع في عينيها وهي تقول بلهجة من كُذِّب نفسه:

- لا.. لا تقل لي إنك سئلي عليَّ النسيان مرةً أخرى.

نظر لها بتأثر، وقال بكلماتٍ بطيئة:

- لست أنا من يقول، ولا أنا من يقرر.



أجابته بكلماتٍ يقطر منها الحب وعينين تنزفان بالدمع:

- طوال عمري أعشق سيرتكم العطرة وأتمنى أن أصبح مثلكم؛ حتّى أبتعد عن هذا العالم الكريه.. الآن فقط أتمنى أن أكون مثلكم فقط لأبقى إلى جوارك للأبد دون أن أخشى ألم الفراق أو الخطية.

لمعت عيناه هو الآخر بالدموع حين قال:

- طوال عمركم تحسدوننا على عدم ارتكابنا للخطأ والدّنب، لكن بعد رحلتي معكم صدقيني صرت أحسدكم على نعمة الخطيئة والإحساس بالندم.. هذا ما قلته للتو أمام قبر آدم وأنا أسجد له للمرة الثانية بعد أن بلّغت أن هذا ثمن التكفير عن ذنبي.

بكت بحرقّة وهي تقول بضعفٍ:

- لكّنك أكيد تشعر بي.. عينك تقولان ذلك.

لانت ملامحه وتأثر صوته وهو يقول لها:

- لكن لم يعد لي قلبٌ يستطيع أن يمنحك ما تستحقينه من مشاعر البشر وعشقهم.. ابحتي عن قلبٍ خلُق من طينٍ مثلك.. أنتم أولى ببعض منا.

ازداد انهمازُ دموعها الساخنة التي ألهمت وجنتيها وهي تقول بصوتٍ

مبحوح:

- لا أريد أن أنساك.

رد عليها بتأثر أكبر:

- الوداع لا يقع إلا لمن يعشق بعينه، أما ذاك الذي يُحب بروحه وقلبه فليس ثمة انفصال أبداً<sup>(1)</sup>.

هزّت رأسها بتفهم رغم دموعها التي لا تزال تلمع في عينيها، ثم تقدمت نحوه قائلةً باستعطافٍ:

- أتأذن لي بطلبٍ أخيرٍ قبل أن تُلقني عليّ النسيان؟

- تفضلي!

مدّت يدها نحوه بالمصافحة وقالت:

- أريد أن أسلم عليك.

ابتسم برقّة ومدّ يده بدوره مصافحاً، فقبضت على يده بحُبّ طاعٍ وهي تودعه بنظراتٍ جريحةٍ، ثم ألقت نفسها في حضنه فجأةً وقالت:

- إذا كان الشيطان قد وسوس لي بتقبيل شفتيك يوماً، فهذا الحِضن نابع من ملاك.

\* \* \*

ومضت أيامٌ طويلةٌ بعد اختفاء الشّاب الغامض..

كان آخر ما توقفت عنده ذاكرتها بعد أن ألقى عليها النسيان هو مشهد سقوطه من شركة زوجة والدها، عندما أخبرها (ريمون) والرّجل ذو العينين الزرقاوين حينها بوفاته.

لكن شهود العيان أخبروها بأنه لم يمت رغم سقطته، وسار على قدميه ثم اختفى، ومن يومها لم تكف عن البحث عنه، وكذا لم يتوقف العقيد (يحيى).

حصلت من الشّيخ (خضر) على مذكراته التي تركها عنده، وصار النّظر إلى خطه الجميل المنمق ورائحة شذا عطره التي تملأ الصفحات هو سلواها الوحيدة التي هوّنت عليها غيابه، إلى جانب تلك الصورة التي رسمتها له بالفحم.

علمت عن الإله في كتاباته ما لم تتعلمه طوال عمرها.. ورأت للإسلام وجهًا آخر بخلاف ذلك الوجه الذي اعتادته من أتباعه الذين شوّهوا صورته وخالفوا مبادئه وتعاليمه ووصاياهم.

وحين حصلت على أموالها المسلوّبة من والدها بالتبني، أجرت عملية التجميل بالخارج لتستعيد تسعين بالمائة من شكلها وجمالها القديم، وعادت لزيارة (صالح الراعي) في قبره مجدداً وشكرته ببالغ السّعادة والامتنان، ثم لمعت عينها بالدموع حين لاحت منها نظرة إلى قبرٍ مجاور تسكنه (دميانة)، وعلى بُعد أمتار كانت هناك مقابر اليهود

(1) مقولة لمولانا العابد المتصوف جلال الدّين الرومي.

اتسعت عينا الرُّجل وهبَّ واقفًا بحماسةٍ شاب متجاهلاً مرضه  
وضغفه قائلاً:

- آيات؟

ليهرول نحوَ الباب بنفسه، ويفتحة بسرعةٍ غير مصدقٍ أذنيه، وما  
إن فتحه حتَّى تبادل هو وابنة أخيه التي ظهرت بغتةً من العدم نظرةً  
طويلة، ليفحصها بعينيهِ من قمة رأسها حتَّى أخمص قدميها، وفي كل  
تفصيلاً يُمعن فيها النُّظر كان يرى فيها آخر ما تبقى من ملامح شقيقه  
وزوجته الراحلين لا سيما تلك السلسلة الذهبية القديمة التي حملت  
اسمها..

نعم.. إنها هي بلا شك.. لكن... ما هذا الصليب المُعلَّق الذي يجاور  
كلمة (آيات) المتدلّية من السلسلة؟!

بينما كانت بدورها تتطلع إلى ملامحه الطيبة، لكن ما تلك البقعة  
البُنية التي تتوسط جبهته من أثر السجود؟ وما تلك الآية القرآنية  
المعلقة خلفه في مدخل الشُّقة؟!

تاهت الكلمات على الشفاه، ولم يبقَ سوى السكوت..

فالصّمت مقطوعةً موسيقيةً يُتقن عزفها جميعُ الحزاني دون الحاجة  
لمُعَلِّم أو موهبة.

\* \* \*

علمت (آيات) أن والدها كان رجل أعمال ثريًا، وأن عمها حاول  
أن يُدير أعماله من بعده لكنه لم يكن بمهارته وكفاءته؛ لذا تلاحت  
الخسائر الفادحة، فقرر تصفية تلك الأعمال حتَّى يحولها إلى رأس مال  
يضعه في البنك، ليكون من نصيبها لو ظهرت في يومٍ من الأيام، لكنه  
فقد الأمل في عودتها بمرور السنين، قبل أن ينهشه المرض، ويتدهور به  
الحال، حتَّى اضطر أن يمد يده على أموال أخيه الراحل، فتكفّلت بعد  
ظهورها بعلاجه ومنحته المال اللازم ليتم حلم حياته بحج بيت الله  
الحرام!

المدفون فيها (موريس)، ولم تفكر -رغم أموالها الكثيرة- في أن تغادر غرفة  
(ديانة) التي لم تعد تليق بفتاةٍ ثريةٍ مثلها.

وفي مبنى الخِدْمات، صارت تُغني مع من تبقى من فريق (تسابيح)  
الترانيم المسيحية، والأناشيد والأشعار الصّوفية التي حفظتها من الشَّاب،  
وخلفها يغني الأطفال الذين أحبوه ولم يكفوا عن السُّؤال عنه.

وقف القُمص (يوسف) إلى جوارها في رحلة البحث عن أهلها  
الحقيقيين، وزاروا مكان الحادث وبدءوا يتتبعون الخيط بلا كلل أو ملل،  
دون جدوى.

وبعد انتهاء إحدى الحفلات، زارها القُمص في الكواليس وقال لها  
بابتسامةٍ سعيدةٍ إن معجزة المسيح قد تحققت، وتوصّل إلى هوية أهلها  
الحقيقيين، لكنه أخبرها بنبرةٍ غامضةٍ أنه لا يعرف سر ارتباط قدرها  
بالصّدف والمفاجآت إلى هذا الحد، خاصة المفاجأة القادمة، ورفض بشدة  
أن يخبرها حتَّى تكتشفها بنفسها!

\* \* \*

في منزل بسيط الأثاث، جلس رجلٌ مُسن على أريكةٍ متواضعةٍ  
وأمامه فتاة في نفس عمر (آيات)؛ كانت تناوله كوب ماء وقرص أسبيرين،  
ليبتلع القرص ويشرب وراءه الماء قائلاً لها في امتنان:

- جزاك الله كل خير يا ابنتي.

قبل أن تهوي على باب شقتها طرقات سريعة، فنظر الرجل المُسن  
للساعة وقال لابنته بلهجةٍ يشوبها القلق:

- تُرَى، من الذي جاء في وقتٍ متأخِّر كهذا؟! اسألي مَنْ الطارق قبل  
أن تفتحي!

اتجهت الفتاة نحوَ الباب وسألت:

- مَنْ؟

فجاءها صوت (آيات) من الخارج:

- أنا آيات ابنة عمك.



جهّزت ابنة عمها وأسهمت في حفل زفافها.

صارت تتبرع للجامع والكنيسة، وتواصل غناء الترانيم المسيحية والأناشيد الإسلامية بنفس طريقة غناء الشّاب وأدائه، ورغم كثرة من أعجبوا بها وطلبوا منها الزواج كان ردها القاطع دائماً هو الرفض، دون أن تفقد الأمل في العثور على فتاها الوسيم بمعجزة ليست ببعيدة مثلما عثرت على أهلها الحقيقيين بعد سنين طويلة.

جمّعت تسجيلاته الصّوتية ومذكراته ومذكراتها، ومزجت الواقع بالخيال حتّى صنعت رواية ضخمة، جعلت من نفسها بطلتها، والغريب أنها حين حاولت تحريف الواقع وإضفاء لمسة خيالية على أحداثه التي حاكها القدر، جعلت من البطل ملاكاً ما إن أتم مهمته حتّى عاد مجدداً إلى مملكة السّماء!

وأحدثت الرواية فور طرحها، ضجةً هائلةً في الأوساط الدّينية والثقافية، لا سيما بعد أن كُتب على غلافها من الخارج: مستوحاة من أحداثٍ حقيقية!

\* \* \*

وفي السّماء وقف الشّاب الوسيم يستمع إلى صريف الأقلام وهي تُدوّن أفعال أهل الأرض في عالم الملكوت، ليُرهِف السمع ويتابع أنباء تلك الإنسية التي غيّرت مجرى حياته، قبل أن يستقبل رئيسه المهيب الذي أتاه وهو يبتسم ابتساماً غامضةً ثم ناوله كتاباً ضخماً قائلاً:

- يبدو أن حبيبة الأمس كانت أكثر ذكاءً مما نتوقع.. لقد جعلتك بطل روايتها.

التقط الشّاب الكتاب وطالع غلافه فرفح حاجبيه بانبهار وهو يقرأ ذلك العنوان المكتوب عليه مردداً بدهشة:

- ملكوت؟!

وفي حجرة مكتبها، أخذت (آيات) تتصفح حسابها الشّخصي على موقع التواصل الاجتماعي "فيس بوك"؛ لترد على عشرات الرسائل التي تستقبلها يوميًا، وتتابع ردود الأفعال على روايتها وأغنياتها، دون أن تنسى

- كالمعتاد- أن تمر على حساب فتاها الوسيم المُسجّل باسم (نور)، وتتأمل صورته التي التقطتها له بهاتفها المحمول، وتتأملها بالسّاعات، ولم تدِر في تلك اللية -تحديدًا- لما شعرت بهذه الحالة العجيبة التي سيطرت على كيائها وحواسها، حتّى أن أصابعها وجدت نفسها مدفوعة بسرّ غامض جعلها تتقافز برفق وهدهوء على لوحة مفاتيح الحاسب الألي وكأنّها تعزف خاطراً وإلهاماً موسيقيًا، مشفوعاً بروحانيات الأعالي، هبط على قلب صاحبها من مصدر خفي، فيما تراصت الكلمات في خانة "الحالة" بموقع "فيس بوك" بجمل جاء فيها:

- اللّحظات التي نرضى فيها عن الدّنيا والأقدار.. التي نتصالح فيها مع الكون والخلائق ونستصغر الشقاق وأسباب التشاحن.. التي يخفق فيها القلب بدقات المحبة، ويرتل اللسان ابتهالات الدعاء للعالمين بالخير والسّلام.. حين تغمرنا روحانيات الدّين، ويتبعها نغمات الموسيقى الحاملة.. حين نبتمس بلا سبب، ونحب بلا سبب.. وندمع بلا سبب.. حين نشعر أننا توحدنا مع الخالق والكون وصرنا جزءاً لا يتجزأ من الكل في تناغم مذهل ذابت فيه الذات، واختفت فيه الحدود والفواصل.. هي لحظات مقتبسة من الجنّة التي يمكن أن نحيها على الأرض قبل الموت والقيامة، فجزوا عليها النواجز، ولا تجعلوها تفلت سريعاً!

وفجأةً أتاها إشعارٌ جديدٌ منشورٌ تمت فيه الإشارة إليها، وكانت هذه الإشارة من حساب الشّاب الوسيم، لتتسع عينها بدهشةٍ وانبهارٍ وتفتح منشوره الذي كُتب مُنذُ ثوانٍ قائلًا:

- إن الواقفين عند حائط المبكى يتهلون.. والذين يوقدون الشموع في الكنائس ويتلون الترانيم ويحضرون القدّاس.. والذين يُكبرون في المساجد ويركعون ويسجدون، ويطوفون حول بيت الله الحرام، مستحضرين عظمة الله في قلوبهم.. جميعهم يُصلون لإلهٍ واحدٍ لديهم الأمل في رحمته وخصاله.. يحبونه بصدق



## استأنس الكاتب بالمراجع الآتية:

- القرآن الكريم.
- الكتاب المقدس .
- أرشيف موقع الأنبا تكلا هيمانوت.
- موسوعة ويكيبيديا.
- كتاب "الإنسان وعالم الملائكة" تأليف الدكتور أحمد شوقي إبراهيم.
- كتاب "يهود مصر من الازدهار إلى الشتات" تأليف الدكتور محمد أبو الغار.
- كتاب "ثلاث نوافذ تطل على السماء" تأليف الدكتور علي السمان.
- كتاب "إبليس" تأليف عباس محمود العقاد.
- كتاب "لغز الموت" تأليف الدكتور مصطفى محمود.
- كتاب "السّر الأعظم" تأليف الدكتور مصطفى محمود.
- كتاب "الله" تأليف الدكتور مصطفى محمود.
- كتاب "التّصوف" تأليف الدكتور يوسف زيدان.
- كتاب "1001 اختراع وحقيقة مدهشة عن الحضارة الإسلامية" تحقيق البروفيسور سليم الحسني.
- كتاب "دليل المسلم الحزين" تأليف حسين أحمد أمين.
- كتاب "الوجه الآخر للمسيح" تأليف فراس السواح.
- كتاب "قصة الديانات" تأليف سليمان مظهر.
- موسوعة "قصة حضارة" تأليف وول ديورانت.
- كتاب "معجم الحروب" تأليف د. فردريك جروس برس
- كتاب "هداية الحيارى في أجوبة اليهود والنّصارى" تأليف ابن قيم الجوزية.
- خواطر للكاتب الليبي محمد الترهوني، استعنت بمقتطفات منها بتصرف في الجزء الخاص بمذكرات (آيات).
- الجزء الذي يرصد حي العطارين في جولة (موريس) و(دميانة) تم الاعتماد فيه على مقال بعنوان "حي العطارين.. رائحة تقاوم الضياع" للكاتب الصحفي أحمد الفخراي، وتم نشرها في جريدة أخبار الأدب بتاريخ 2010/10/23.

ويثقون بحبه لهم.. يعطونه القليل وينتظرون منه الكثير.. فلا حاجة لهم أن يتصارعوا عليه وقد وهب نفسه ملكيةً عامةً للجميع.. جميعهم في غنى عن الحُكم على المخالفين لهم؛ لأن الحُكم أولاً وأخيراً للخالق الوحيد الذي سيفصل بينهم يوم الدينونة.. فليوقفوا آلة الحرب باسمه، وليملأوا الكون بتراتيل المحبة بينهم كإخوة من نسل واحدٍ، وأبناء عمومة للكون بكل ما فيه.. لعل في حبه خلاصاً ومغفرةً حتّى وإن كان الرابع في النهاية ديناً واحداً؛ فالمحبة بين المخلوقات بعد الدّين دين.

وإلى جانب الإشارة إلى الحساب الشّخصي لـ(آيات) في منشوره، ظهرت أيقونة وجه مبتسم وإلى جوارها جملة: **يَشْعُرُ بِالْإِيمَانِ!**

تمت بحمد الله

شريف عبدالهادي

2015/9/29

## شكر خاص

للتواصل مع الكاتب



shiko\_angel@yahoo.com  
sherif.a.e.hady@gmail.com



#!/SherifAbdelhady



sherif.abdelhady83



sherif.abdelhady.writer



user/SheriFabelhady83



author/show/6571388

إلى أمي، وأبي، وإخوتي الرائعين هادي، وأحمد، وكاميليا  
إلى زوجتي الحبيبة التي طالما تحملتني لمياء، وابنتي الجميلة  
وملهمتي جنى

إلى الكاتب الليبي الرائع الذي تعلمت منه الكثير / محمد الترهوني

إلى أهلي وأصدقائي الأعزاء:

محمود زينهم - هالة البشبيشي - شريف الليثي - أحمد القرملأوي  
- أحمد عبد المجيد - أمير عاطف - محمد ناجي عبد الله - عاطف  
حسانين - محمد فاروق المليجي - محمد عبد القوي مصيلحي - وليد  
عبد المنعم - ألبرت يعقوب - محمد نجيب ويفي - مي أشرف حمدي  
- مي عادل - تامر أنور - رويدا أحمد عراي - إيمان عبد المقصود -  
إيمان يوسف - هبة الله مصطفى - هايدي صقر - جون ماهر - ميرا  
مجدي - محمد مصطفى.









**دار توبيا للنشر والتوزيع**